

التفسير المأثور

عَلَى مَنَهْجِ التَّنْزِيلِ وَالصَّحِيحِ الْمُسْنُونِ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى مَنَاجِ الْأَصْلَاحِ الْعَظِيمِينَ
- الْوَحِيدِينَ : الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ الصَّحِيحَةَ -
عَلَى فَرَمِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ

تَفْسِيرٌ مِنْ جِهَةِ فِقْهِ شَامِلٌ مُعَاَصِرٌ

الجزء الأول

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون محمود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير المأمون

على منهج التنزيل والصحيح المسنون

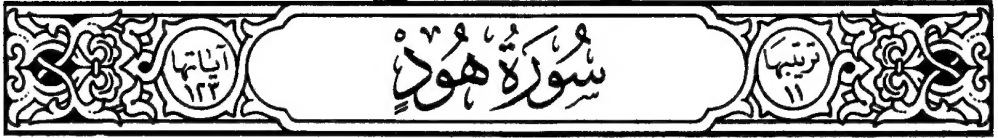
جميع حقوق الطبع والتصوير محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

موافقة وزارة الإعلام
رقم : 91092
ورقم : 91451
تاريخ : 16 / 7 / 2006 م
دمشق - سورية

يطلب من المؤلف
دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي
الدكتور أحمد راتب حموش

11



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (123)

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد ذكر هذه السورة في السنة الصحيحة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شئت. قال: [شِئْتَنِي هُوْدٌ ، والواقعةُ ، والمُرْسَلاتُ ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كُوِّرَتْ] (1).

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند صحيح عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [شِئْتَنِي هُودٌ وأخواتها] (2).

الحديث الثالث: أخرج ابن مردويه عن أبي بكر مرفوعاً: [شِئْتَنِي هُودٌ وأخواتها قبل المشيب] (3).

الحديث الرابع: أخرج ابن مردويه ، والخطيب في «تاريخ بغداد» - بسند حسن - عن عمران بن الحصين مرفوعاً: [شِئْتَنِي هُودٌ وأخواتها من المفصل] (4).

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3528) - أبواب تفسير القرآن ، سورة الواقعة ، وانظر صحيح سنن الترمذي ، حديث رقم - (2627) - . وأخرجه البزار (170/1) «البحر الزخار» ، وأخرجه الحاكم (2/344 - 476) ، وصححه ووافقه الذهبي .

(2) حديث صحيح. رواه الطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر مرفوعاً به . قال الهيثمي (37/7): «ورجاله رجال الصحيح» .

(3) انظر: «الفوائد» (1/28) - لأبي بكر الشافعي ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (955) .

(4) إسناده حسن . انظر تاريخ بغداد (3/145) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3616) .

موضوع السورة

قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وسنن الله في الأمم
- تألق هود عليه السلام في إظهار منهج الولاء والبراء -

- منهاج السورة -

- 1 - ثناء الله تعالى على القرآن العظيم ، فقد أحكم منهاجه ونظمت آياته في نظام رصين .
- 2 - غاية منهج البناء والإحكام في هذا الكتاب الكريم أفراد الله تعالى بالتعظيم ، ورسوله ﷺ بالمتابعة والتأسي والتكريم .
- 3 - أثرُ الاستغفار ببسط الله العيش والاستمتاع في العمر ، وأما الإعراض فأثره بتعاسة الدنيا قبل شقاء الآخرة .
- 4 - استخفاء المشركين بباطلهم ومكرهم والله مطلع على سرائرهم ، وما من دابة إلا أمرها ورزقها ومنتهى سيرها قد علمه الله ، ثم المرجع إليه ، وسيحقيق بالمشركين ما كانوا به يستهزئون .
- 5 - تناقض سلوك الإنسان بين الشدة والرخاء ، ولا ينجو من ذلك إلا أهل الإيمان والصبر على السراء والضراء .
- 6 - تثبيت الله تعالى نبيه ﷺ أمام تكذيب المشركين ، وتحذيرهم بأن يأتوا بعشر سور مثله مستعينين بمن شأوا ليظهر الله عجزهم ، فإن كتابه تعالى عزيز .
- 7 - تحذير الله تعالى عباده من الرياء ، فإن الرياء من أبواب الشرك .
- 8 - إخبار الله تعالى عن خزي الكفار والمنافقين في مشهد الحشر يوم القيامة .
- 9 - إخبار الله تعالى عن حال السعداء بعد ذكر حال الأشقياء ، وتشبيه الفرق بين الحاليين كحال الأعمى والبصير ، والأصم والسميع .
- 10 - استعراض الله تعالى أخبار الرسل مع أقوامهم: فأول الرسل نوح ﷺ دعا قومه لإفراد الله تعالى بالتعظيم ، وحذرهم من عذاب يوم أليم ، فقابلوه بالتكذيب والاستهزاء ، والاستخفاف بالأتباع ، واستعجال العذاب .

- 11 - أَمُرُ الله تعالى نوحاً عليه الصلاة والسلام بصناعة الفلك أمام سخرية الكافرين ، الذين سيحقيق بهم الهلاك المين .
- 12 - نزول أمر الله في قوم نوح ، ونجاة نوح ﷺ ومن معه في السفينة ، ومصير ابنه مع الكافرين الهالكين ، وقيل بعداً للقوم الظالمين .
- 13 - مناجاة نوح ربه لنجاة ولده ، وتحذير الله له في سؤاله ما ليس له به علم .
- 14 - إخبار الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن هذه القصة من أخبار الغيب يقصها عليه الوحي لتكون عوناً له على الصبر والثبات .
- 15 - خبر هود ﷺ مع قومه عاد يدعوهم لإفراد الله تعالى بالتعظيم ، ويحذرهم نقمة الله وحلول العذاب الأليم ، ويدعوهم لاستغفاره تعالى فإن لوازم الاستغفار وفرة الرزق والخير والقوة والتمكين .
- 16 - مجادلة قوم هود نبيهم بالباطل ، وإعلانهم الكفر بما جاء به ، ومقابلة هود ﷺ لهم بإعلانه البراءة من شركهم وتحديهم بكيدهم ، ثم نزول نقمة الله بهم ونجاة المؤمنين .
- 17 - خبر صالح ﷺ مع ثمود ، يدعوهم لإفراده تعالى بالتعظيم ، وشكره على نعمه واستغفاره فهو الغفور الرحيم ، ومقابلتهم له بالشك والاتهام ، فأراهم ناقة الله آية ففقروها ، وحق بهم العذاب والخراب .
- 18 - ذكر قصة لوط عليه السلام ، ومجيء الرسل إبراهيم ﷺ بالبشرى ، وتعجب امرأته وبشارة الله لها ، ومجادلة إبراهيم لرد العذاب عن قوم لوط : إنه حلیم أواه منيب ، ونزول أمر الله باستئصال القوم المجرمين .
- 19 - خبر شعيب ﷺ مع قومه ، فقد دعاهم لإفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، وترك التلاعب بالمكيال والموازين ، فكذبوه فأخذهم الله بالصيحة والعذاب فأصبحوا في ديارهم جائمين .
- 20 - خبر موسى ﷺ مع فرعون ، وغرق الطاغية ولعنه وجنده إلى يوم الدين .
- 21 - الاعتبار بالآثار الباقية من تلك القرى المدمرة : فمنها ما هو قائم بنيانه ، بائد أهله ، ومنها ما هو خراب دارس لا أثر له ولمن كان يسكنه .

- 22 - الناس يوم القيامة فريقان: فريق في دار السعادة وهم أهل السعادة. وفريق في دار الشقاوة وهم أهل الشقاوة.
- 23 - تسلية الله نبيّه ببلوغ الكتاب أجله ، ثم العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين . وأمره تعالى له وللمؤمنين بالاستقامة على المنهج وعدم الركون للظالمين .
- 24 - توجيه الأمة لمنهاج النجاة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقلة المؤمنة هي الغالبة بإذن الله .
- 25 - المشيئة لله ، والغيب لله ، والمرجع إليه ، والتوكل عليه ، وما الله بغافل عما تعملون .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 4. قوله تعالى: ﴿الرَّ كُنْتُ أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ .

في هذه الآيات: هذا القرآن هو من جنس هذه الأحرف ، قد أحكم منهاجه ونظمت آياته نظاماً رصيناً منسجماً مع منهاج مقاصد هذا الدين العظيم ، فلا يقع فيه نقص ولا خلل بل هو محكم البناء ، ثم فصلت فيه أحكام الحلال والحرام ، وما يترتب على ذلك من الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، فهو من عند الحكيم في أقواله وأفعاله وقدره وشرعه ، الخبير بشؤون خلقه وما يصلحهم. إنَّ غاية منهج البناء والإحكام والتفصيل في هذا الكتاب العظيم هو أفراد الله تعالى بالتعظيم ، ورسول الله ﷺ على ذلك نذير وبشير. استغفروا ربكم - أيها الناس - وتوبوا إليه ، يقابلكم ربكم ببسط في العيش واستمتاع في العمر ، وإلا فالإعراض يقابله بعذاب يوم كبير ، يوم ترجعون إلى الله العلي القدير.

فقوله: ﴿الر﴾ - كسابقه في أوائل السور التي ابتدأها الله بحروف الهجاء. ومفاده التحدي والإعجاز - أي: إن هذا القرآن مؤلف من جنس هذه الأحرف التي تتخاطبون بها معشر العرب ، وهو يتحداكم أن تأتوا بمثله أو بسورة نحوه.

وقوله: ﴿ر كُنْتُ أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ - فيه قولان متكاملان:

1 - قال الحسن: (﴿ر كُنْتُ أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ، قال: أحكمت بالأمر والنهي ، وفصلت بالثواب والعقاب). أو قال: (أحكمت في الأمر والنهي ، وفصلت بالوعيد).

2 - قال قتادة: (أحكمها الله من الباطل ، ثم فصلها بعلمه ، فَبَيَّنَ حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته). وقال مجاهد: ﴿فُصِّلَتْ﴾ ، قال: فُسِّرَتْ).

قال ابن كثير: ﴿أُحْكِمْتَ ءَايَتُنَا ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ، أي: هي محكمة في لفظها ، مُفَصَّلَةٌ في معناها ، فهو كامل صورة ومعنى).

وقال ابن جرير: (معناه: أحكم الله آياته من الدَّخَل والخَلَل والباطل ، ثم فَصَّلَهَا بالأمر والنهي. وأما قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فإن معناه: ﴿حَكِيمٍ﴾ ، بتدبير الأشياء وتقديرها ، ﴿خَبِيرٍ﴾ ، بما تؤول إليه عواقبها). وعن قتادة: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ، يقول: من عند حكيم خبير).

قلت: والإحكام يشمل إحكام الآيات من الدَّخَل والخَلل والباطل ، وإحكام منهج بيان هذه الآيات لمقاصد الشريعة ، ثم فصلت قواعد الحلال والحرام ، وأمور الثواب والعقاب.

وقوله تعالى: ﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي: إن هذا القرآن الذي أحكم منهاجه وفصلت آياته قد نزل لعبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالتعظيم. قال النسفي: ﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي لثلاثا تعبدوا ، أو أن مفسرة). والتقدير: قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله. قال القاسمي: (وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ كلام على لسان الرسول ، أي إنني أنذركم ، من الحكيم الخبير ، عقاب الشرك وتبعته ، وأبشركم منه بثواب التوحيد وفائدته).

وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَّاهُ يُمَتِّعْكُم مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾. أمر من الله تعالى بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها فيما يُسْتَقْبَل ، فإنكم إذا فعلتم ذلك قابلكم ربكم سبحانه ببسط العيش وَزَيَّتِهِ ، والاستمتاع في العمر بطاعة الله ، وما يؤدي إليها من العمل الصالح. قال قتادة: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهو الموت). قال ابن جرير: (فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا ، ورزقكم من زيتها ، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت).

وعن مجاهد: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ، قال: ما احتسب به من ماله أو عمل بيده أو رجله أو كلمة ، أو ما تطوَّع به من أمره كله).

أي يثيب كل من تفضل بعمل صالح مِنْ مَّالِهِ أو قوته أو جهده على غيره ، وهو يحتسب ذلك عند الله تعالى ، فإن الله سبحانه قد وعد أهل الفضل بجزيل الثواب.

وفي التنزيل :

- 1 - قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].
- 2 - وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المفهوم أحاديث :

الحديث الأول: أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البذري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [من دَلَّ على خَيْرٍ فله مثل أجرِ فاعِلِهِ] (1).

الحديث الثاني: أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ] (2).

الحديث الثالث: أخرجه الشيخان من حديث سعد بن أبي وقاص ، قال له النبي ﷺ: [وإنك لن تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بها وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِزَتْ عَلَيْهَا حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي فِي امرأتك]. وقال له: [إنك لن تُخَلِّفَ فَعَمَلٌ عَمَلًا تَبْتَغِي به وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَزْدَدَتْ به دَرَجَةً وَرِفْعَةً] (3).

ويروي ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير ، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ، قال: (من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات . فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات . وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة ، وبقيت له تسع حسنات . ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره).

وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ - تهديد ووعد لمن أدبر وأعرض عن طاعة الله وتعظيم حرماته ، بأن العذاب ينتظره لا محالة يوم الحساب .

- (1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1893) - كتاب الإمارة . باب فضل إعانة الغازی في سبيل الله بمرکوب وغيره .
- (2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (374/10) ، ورواه مسلم من رواية حذيفة (1005) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (132/3) ، ومسلم (1628) - والفظ الأخير له - كتاب الوصية .

وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. تأكيد ليوم الحساب والرجوع إلى الله سبحانه والوقوف بين يديه لنيل الثواب والعقاب ، فهو القدير على الإحياء والإماتة والبعث من القبور ونشر صحف الأعمال وتفريق الخلق إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير .

5- 8. قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِصُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن سلوك المشركين وهم يستخفون بباطلهم والله مطلع على سرائرهم . إنه ما من دابة إلا ورزقها من عند الله ، وقد علم منتهى سيرها ومأواها قبل خلقها . هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليختبركم - أيها الناس - أيكم أفضل عملاً ، والكافرون منكرون للبعث مستهزئون بقدوم العذاب وهو واقع بهم لا محالة ، وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون .

فقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ - قال البخاري: ﴿يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾: شك وامترأء في الحق . ﴿لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾: من الله إن استطاعوا).

فكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك جهلاً منهم بالله ، وظناً أن الله يخفى عليه ما تضره صدورهم إذا فعلوا ذلك . والآية لها أكثر من تأويل عند المفسرين :

التأويل الأول: هو ما سبق ذكره . قال ابن عباس: (يخفون ما في صدورهم من الشُّحْناء والعداوة ، ويظهرون خلافه) .

قال القرطبي: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أخبر عن معاداة المشركين

للنبي ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . ﴿ يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ ﴾ أي يطوونها على عداوة المسلمين).

التأويل الثاني: قال مجاهد: ﴿ يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ ﴾ شكاً وامترأء. وقال الحسن: (يشنونها على ما فيها من الكفر). وهو وجه من التأويل ذكره البخاري.

التأويل الثالث: قيل: قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا ، واستغشنا ثيابنا ، وثَنَيْنَا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا؟ فنزلت الآية.

التأويل الرابع: قيل: إن قوماً من المسلمين كانوا يتنسون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فَبَيَّنَ الله تعالى أن التنسك ما اشتملت عليه قلوبهم من معتقد، وأظهره من قول وعمل. وقد صح إسناد هذا إلى حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه - عند تفسير هذه الآية - عن محمد بن عباد بن جعفر: أنه سمع ابن عباس يقرأ: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ ﴾ قال: سألتها عنها فقال: [أناسٌ كانوا يستخفون أن يَتَخَلَّوْا فَيَفْضُوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فَيَفْضُوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري - كذلك - عنه أن ابن عباس قرأ: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ ﴾ ، قلت: يا أبا العباس ، ما تنووني صدورهم؟ قال: [كان الرجل يجامع امرأته فيستحي أو يتخلى فيستحي ، فنزلت: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ ﴾]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن سفيان: [حدَّثنا عمرو قال: قرأ ابن عباس: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ . وقال غيره عن ابن عباس: ﴿ يَسْتَغْشُونَ ﴾ : يغطون رؤوسهم]⁽³⁾.

والخلاصة: يحتمل البيان الإلهي لهذه الآية المعاني السابقة من التأويل ، وهو من إعجاز هذا الوحي العظيم ، الذي يضم جوامع الكلم ويشع بنوره وهديه إلى آفاق شتى من خلاف التنوع لا التضاد.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4681) - كتاب التفسير - سورة هود ، آية (5).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4682) - كتاب التفسير - سورة هود ، آية (5).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4683) - كتاب التفسير - سورة هود ، باب: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَاتِ الْأُصْدُورِ ﴾.

وقوله: ﴿الْأَحْيَيْنَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾
- فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: قال ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: يُعْطُونَ رؤوسهم) - أخرجه البخاري.

التأويل الثاني: قال قتادة: ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ قال: أخفى ما يكون الإنسان إذا أسرَّ في نفسه شيئاً وتَغَطَّى بثوبه ، فذلك أخفى ما يكون ، والله يطلع على ما في نفوسهم والله يعلم ما يسرون وما يعلنون).

وبنحوه ذكر عكرمة عن ابن عباس قال: (الشك في الله ، وعمل السيئات ، فيستغشي ثيابه ، ويستكنّ من الله ، والله يراه ، ويعلم ما يسرون وما يعلنون). وقال: ﴿الْأَحْيَيْنَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ، يقول: يكتُمون ما في قلوبهم ، ﴿الْأَحْيَيْنَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ، يعلم ما عملوا بالليل والنهار).

التأويل الثالث: قال ابن أبي مليكة: سمعت ابن عباس يقرأ: «ألا إنهم تثنوني صدورهم» ، قال: (كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشوا بثيابهم ، كراهة أن يُقْبَضُوا بفروجهم إلى السماء) - وبنحوه روى البخاري.

التأويل الرابع: عن مجاهد والحسن: (أي إنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه ، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ، أي: يعلم ما تُكِنُّ صدورهم من النيات والضمائر والسرائر) - ذكره ابن كثير ، وهو يشبه التأويل الثاني.

قلت: والبيان الإلهي يحتمل آفاق هذه المعاني كلها ، وهو من إعجاز هذا الوحي العظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

إخبار من الله تعالى أنه متكفل بأرزاق خلقه من جميع أصناف الدواب في الأرض ، إنسيها وجنيها ، بحريها وبريها ، صغيرها وكبيرها. وأنه تعالى يعلم منتهى سيرها ومأواها قبل خلقها وبعد إخراجها من أصلاب ذكورها وأرحام إناثها ، وكل ذلك مكتوب عنده سبحانه في اللوح المحفوظ.

قال ابن عباس: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ، قال: كل دابة. وقال الضحاك: (يعني كل دابة ، والناس منهم).

وقال مجاهد: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ، قال: ما جاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً ، ولكن ما كان من رزق فمن الله).

ومن أقوال أهل التأويل في المستقر والمستودع:

1 - عن ابن عباس: ﴿مُسْقَرَهَا﴾ ، حيث تأوي ، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ، حيث تموت).

2 - وعن مجاهد: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْقَرَهَا﴾ ، في الرحم ، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ، في الصلب ، مثل التي في «الأنعام»).

3 - وعن إبراهيم ، عن عبد الله: (المستقر: الرحم ، والمستودع: المكان الذي تموت فيه).

4 - وقال الربيع بن أنس: (مستقرها: أيام حياتها ، ومستودعها: حيث تموت ، ومن حيث تُبعث).

قال ابن جرير: (ويعني بقوله: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ، مبين عدد كل دابة ، ومبلغ أرزاقها ، وقدر قرارها في مستقرها ، ومدة لبثها في مستودعها. كل ذلك في كتاب عند الله مثبت مكتوب ، ﴿مُبِينٍ﴾ ، يبين لمن قرأه أن ذلك مثبت مكتوب قبل أن يخلقها ويوجدتها. وهذا إخبار من الله جل ثناؤه الذين كانوا يشنون صدورهم ليستخفوا منه ، أنه قد علم الأشياء كلها وأثبتها في كتاب عنده قبل أن يخلقها ويوجدتها).

وفي التنزيل: 1 - قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38].

2 - وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال

رسول الله ﷺ: [إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن عن جابر ، عن النبي ﷺ قال: [لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت ، لأدركه رزقه كما يدركه الموت]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح أن النبي ﷺ قال لابن عمه ابن عباس: [يا غلام ، إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام ورفعت الصحف]⁽³⁾.

وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾.

إخباراً من الله تعالى عن بدء الخلق ، إذ خلق سبحانه السماوات والأرض وما فيهن في هذه الأيام الستة ، وكان عرشه على الماء . قال ابن عباس: (إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه). وغاية الخلق هي عبادة الله تعالى ، والاختبار يكون على ذلك: أيكم أحسن له طاعة وشكراً.

وفي التنزيل: 1 - قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: 27].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56].

3 - وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [فصل: 119] فتعالى الله

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (51/8). وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1841) - باب: كتب المقادير قبل الخلق .

(2) حديث حسن . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (90/7) ، (246/7) من حديث جابر بن عبد الله . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (952) .

(3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (2648) - أبواب صفة القيامة - وانظر صحيح سنن الترمذي (2043) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

أَلَمَلِكُ الْحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: 115 - 116].

4 - وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبَقَةً مِثْلَ صَبَقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: 9 - 13].

وفي السنة الصحيحة آفاق هذه المعاني في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أبي هريرة قال: [أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل] (1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: [دخلت على النبي ﷺ وعَقَلْتُ ناقتي بالباب ، فأتاه ناسٌ من بني تميم فقال: اقبلوا البشري يا بني تميم ، قالوا: قد بَشَرْتَنَا فَأَعْطِنَا ، مَرَّتَيْنِ ، ثم دخل عليه ناسٌ من اليمن فقال: اقبلوا البشري يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم ، قالوا: قبلنا يا رسول الله ، قالوا: جِئْنَا نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، قال: كان الله ولم يكن شيءٌ غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كُلُّ شيءٍ ، وخلق السماوات والأرض] (2).

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [قال الله عز وجل: أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ ، وقال: يدُ الله ملأى لا يَغِضُّهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . وقال: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2789) - كتاب صفات المنافقين - ، وأبو يعلى في مسنده (1/288) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 275 - 276) ، ورواه أحمد وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3191) - كتاب بدء الخلق - ، وكذلك (4365) ، (4386) ، وأخرجه أحمد في المسند (4/431) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6142) ، وغيرهم .

فإنه لم يَغْضُ ما في يده ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزانُ يخفَضُ ويرفع⁽¹⁾ .

الحديث الرابع: أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة]⁽²⁾ .

وقوله: ﴿ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولئن قلت لهؤلاء المشركين من قومك: إنكم مبعوثون أحياء من بعد مماتكم! فتلوت عليهم بذلك تنزيلي ووحىي ، ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ، أي: ما هذا الذي تتلوه علينا مما تقول ، إلا سحر مبينٌ لسامعه عن حقيقته أنه سحر).

وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ ﴾ . قال ابن عباس: ﴿ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾: إلى أجل محدود⁽³⁾ . وقال مجاهد: (إلى حين). وقال ابن جريج: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ يقول: أمسكنا عنهم العذاب . ﴿ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ ﴾ ، قال: للتكذيب به ، أو إنه ليس بشيء).

وأصل الأمة الجماعة من الناس تجتمع على مذهب ودين ، ثم تستعمل في معان كثيرة ، منها السنون المعدودة والحين . قال ابن جرير: (وإنما قيل للسنين «المعدودة» والحين ، في هذا الموضع ونحوه: ﴿ أُمَّةٌ ﴾ ، لأن فيها تكون الأمة).

وقوله: ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ . أي: ألا يوم يأتيهم العذاب ، فينزل بهؤلاء الشاكرين المكذبين ، فهناك ليس يصرفه عنهم صارف ، ولا ينجيهم منه منقذ ، بل يحل بهم فيهلكهم وليس له دافع ، ويحيط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون .

قال مجاهد: ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، قال: ما جاءت به أنبياءهم من الحق).

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4684) - كتاب التفسير ، باب قوله:

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ ، ورواه مسلم في صحيحه (993) - كتاب الزكاة .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (1/114) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 290) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة - حديث رقم (109) .

(3) وفي رواية عنه - يقول: (إلى أجل معلوم) - ذكره ابن جرير في التفسير (18014) .

9 - 11. قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءَ مَسْتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١١﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن سلوك فاسد يصيب الإنسان ، فهو ما أسرعه إلى اليأس عند نزع النعمة منه ، وما أسرعه إلى العجب والغرور عند نزول النعمة به بعد الضراء التي مسته ، وما يسلم من هذا الخلق الذميم ، إلا أهل الصبر والعمل الصالح الذين غفر الله لهم وأعد لهم الأجر الكريم.

فقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾. قال ابن جريج: (يا ابن آدم ، إذا كانت بك نعمة من الله من السعة والأمن والعافية ، فكفور لما بك منها. وإذا نزعت منك نبتغي قذعك⁽¹⁾ وعقلك ، فيؤوس من روح الله قنوط من رحمته. كذلك المرء المنافق والكافر).

وهذه الآية في ذكر بعض الصفات الذميمة التي تعتري الإنسان - إلا من رفعه الله بالتقوى - فإنه إن فقد نعمة عاشها طويلاً أصابه اليأس والقنوط مما يستقبل من الخير ، ونسي الماضي الذاهر بالفضل والنعم والعطاء ، وربما أساء الظن بالله تعالى.

قال ابن جرير: ﴿إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾ ، يقول: يظل قنوطاً من رحمة الله ، آيساً من الخير. هو كفور لمن أنعم عليه ، قليل الشكر لربه المتفضل عليه بما كان وهب له من نعمته).

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءَ مَسْتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ ﴿١١﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾. هو كما في التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ [العصر: 1 - 3].

2 - قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُضِلِّينَ﴾ [المعارج: 19 - 22].

قال ابن جريج: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ ، غِزَّةٌ بالله وجراءة عليه ، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ ، والله لا يحب الفرحين ، ﴿فَخُورٌ﴾ ، بعدما أعطي ، وهو لا يشكر الله. ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عند البلاء ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ، عند النعمة ، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ، لذنوبهم ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ، قال: الجنة.

قال ابن كثير: (وهكذا إن أصابته نعمةٌ بعد نعمةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ ، أي: يقول: ما ينالني بعد هذا ضيمٌ ولا سوءٌ ، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ، أي: فرحٌ بما في يده ، بطِرٌ فخورٌ على غيره. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ ، أي: في الشدائد والمكاره ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: في الرِّخَاءِ والعافية ، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ، أي: بما يصيبهم من الضَّرَاءِ ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ، بما أسلفوه في زمن الرِّخَاءِ).

وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر آفاق هذه المعاني في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كُلُّهُ له خيرٌ ، وليسَ ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سَرَاءٌ شكرٌ ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضَرَاءٌ صَبَرٌ ، فكان خيراً له] ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والدارمي في السنن ، بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال: [بينما رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن] ⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج عبد الله بن أحمد في مسند أبيه بسند رجاله ثقات ، عن

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2999) - كتاب الزهد -. باب المؤمن أمره كله خير. وأخرجه أحمد في المسند (4/332) ، وابن حبان في صحيحه - (2896) - ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الدارمي (2/318) ، وأحمد (6/16) ، وسنده صحيح على شرط مسلم ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (147).

أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له] (1).

وفي لفظ: [عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له].

الحديث الرابع: أخرج البيهقي والطيالسي بسند صحيح عن سعد مرفوعاً: [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر، وإذا أصابه خير حمد الله وشكر، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه] (2).

الحديث الخامس: أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [ما من مصيبة تُصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها] (3).

الحديث السادس: أخرج الشيخان وأحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ما يُصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍّ ولا حزنٍ، ولا أذى، ولا غمٍّ - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياها] (4).

12 - 14. قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ كَزَآؤِ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [١٢] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [١٣] فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٤].

في هذه الآيات: خطاب من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ: فلعلك - يا محمد - تارك بلاغ

- (1) رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (24/5)، وأبو يعلى (2/200)، وانظر المرجع السابق - الصحيحة (148) - وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3880).
- (2) حديث صحيح. وهو يشهد لما قبله. أخرجه الطيالسي (211)، ورواه البيهقي. انظر صحيح الجامع - حديث رقم - (3881)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (147).
- (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5640) - كتاب المرضى - باب ما جاء في كفارة المرض.
- (4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (5641) - (5642)، ومسلم (2573)، وأخرجه أحمد في المسند (335/2)، والترمذي في الجامع (966)، وأخرجه ابن حبان (2905)، والبخاري (1421)، والبيهقي (373/3)، وغيرهم.

بعض ما يوحى إليك وضائق صدرك ببعض هذا الوحي الذي أمرت بتبليغه مخافة أن يقولوا: أين المال أو الكنز الذي أنزل معه أو الملك الذي جاء مصداقاً له من الله بأنه رسول ، فاعلم أنه إنما أنت نذير لقومك والله القيم على الأمور والتدبير . أم يقولون لك - يا محمد - افتريت هذا القرآن! فقل: الله يتحداكم بأن تأتوا بعشر سور مثله مستعينين بمن شئتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن أخفقوا وعجزوا فاعلموا - أيها المؤمنون - وازدادوا إيماناً أن هذا القرآن منزل من الله بعلمه ، وهو الإله الواحد لا شريك له فهل أنتم حقاً مسلمون .

ف قوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۖ ﴾ .

قال مجاهد: (قال الله لنبيه: فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك أن تفعل فيه ما أمرت ، وتدعو إليه كما أرسلت . قالوا: ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ ۖ ﴾ ، لا نرى معه مالا! أين المال؟ ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۖ ﴾ ينذر معه! ، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۖ ﴾ ، فبلغ ما أمرت) .

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۖ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: والله القيم بكل شيء ، وييده تدبيره ، فانفذ لما أمرتك به ، ولا تمنعك مسألتهم إياك الآيات من تبليغهم وحيي ، والنفوذ لأمري) .

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ۖ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ ﴾ .

قال ابن جريج: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ۖ ﴾ ، قد قالوه ، ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ۖ ﴾ ، وادعوا شهداءكم ، قال: يشهدون أنها مثله) .

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فاعلموا إِنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ۖ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند الله ، متضمن علمه وأمره ونهيه ، ﴿ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ۖ ﴾) .

وعن مجاهد: ﴿ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ۖ ﴾ قال: لأصحاب محمد ﷺ .

15 - 17. قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ١٥ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٦ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ قَالَتِ النَّارُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٧.

في هذه الآيات: تحذير الله تعالى عباده من الرياء. فإنه من كان يريد بعمل الآخرة الدنيا يعجل الله له ثوابه فيها وليس له في الآخرة من نصيب. أفمن كان على صفاء الفطرة ، ونور الوحي: القرآن ، والتوراة من قبله ، كمن يكفر بهذا القرآن من مشركي مكة ومن سيجيء على منهاجهم ، ممن هم إلى النار مصيرهم. فاثبت - يا محمد - فإن هذا القرآن حق ، ووعد الله ووعده حق ، ولكن أكثر الناس غافلون غير مصدقين.

فقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ الآية.

قال مجاهد: (من عمل عملاً مما أمر الله به ، من صلاة أو صدقة ، لا يريد بها وجه الله ، أعطاه الله في الدنيا ثواب ذلك مثل ما أنفق ، فذلك قوله: ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا﴾ ، في الدنيا ، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ، أجر ما عملوا فيها ، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ ، الآية).

وقوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ ، الآية ، وهي ما يعطيهم الله من الدنيا بحسناتهم ، وذلك أنهم لا يظلمون فقيراً. يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا ، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل ، لا يعملها إلا لالتماس الدنيا ، يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمل التماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين).

وهذه الآية حرب على الرياء وأهله لو كانوا يفقهون ، وحرب على النفاق وأهله لو كانوا يعلمون ، فإنه لا ينفع من العمل إلا ما التمس به وجه الله تعالى.

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء : 88 - 89].

2 - وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٩٠﴾﴾ [الشورى : 20].

3 - وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانِ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَمْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَمْ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٩١﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿٩٢﴾ كَلَّا تُمِدُّ هُنُوْلًا وَهُنُوْلًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٩٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء : 18 - 21].

ومن كنوز السنة الصحيحة في معنى هاتين الآيتين أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ، أنه حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : [إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أَطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ] (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً ، يَعْطِي بِهَا (وفي رواية: يثاب عليها الرزق في الدنيا) ويجزئ بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها الله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حَسَنَةٌ يَجْزِي بِهَا] (2).

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن حبان عن الوليد بن أبي الوليد أبي عثمان المديني أن عُبَيْدَ بْنَ مُسْلِمٍ حَدَّثَهُ ، أَنَّ شُفَيْيَا الْأَصْبَحِيَّ حَدَّثَهُ : [أَنَّهُ دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ ، قَالَ: فَدَنَوْتُ مِنْهُ ، حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُوَ يَحْدُثُ النَّاسَ ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا ، قُلْتُ لَهُ : أَسْأَلُكَ بِحَقِّ وَبِحَقِّ ، لَمَّا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : أَفْعَلْ ، لِأَحَدُثْنِكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2808) (57) - كتاب صفات المنافقين - باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/135) من حديث أنس بن مالك - وهو رواية للحديث السابق ، وأخرجه أحمد في المسند (3/125) ، وغيرهما.

فمكثنا قليلاً ثم أفاق ، فقال : لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نَشَخَ أبو هريرة نشغَةً أخرى ، ثم أفاق ومسح عن وجهه ، فقال : أفعلُ ، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ، ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نَشَخَ أبو هريرة نشغَةً شديدة ، ثم مال خازراً على وجهه ، فأسندته طويلاً ، ثم أفاق ، فقال : حدثني رسول الله ﷺ :

إن الله تبارك وتعالى إذا كان يومُ القيامة ، ينزلُ إلى العباد ، ليقضي بينهم ، وكلُّ أمة جاثية ، فأول من يُدعى به رجلٌ جمع القرآن ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيل الله ، ورجلٌ كثير المال ، فيقول الله عز وجل للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال : بلى يا رب ، قال : فما عملت فيما علمت؟ قال : كنت أقومُ به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله عز وجل له : كَذَبْتَ ، وتقول الملائكة : كَذَبْتَ ، ويقول الله تبارك وتعالى : بل أردت أن يقال فلان قارئ ، وقد قيل ذلك .

ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله عز وجل : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال : كنت أصلُ الرحم وأتصدقُ . فيقول الله له : كَذَبْتَ ، وتقول الملائكة : كَذَبْتَ ، ويقول الله تبارك وتعالى ، بل أردت أن يقال : فلان جواد ، وقد قيل ذلك .

ويؤتى بالذي قُتِلَ في سبيل الله ، فيقول الله له : فيماذا قُتِلت؟ فيقول : أي رب! أَمَرْتُ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قُتِلْتُ ، فيقول الله له : كَذَبْتَ ، وتقول الملائكة : كَذَبْتَ ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك .

ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أولُ خلق الله تُسعر بهم النار يومَ القيامة .

قال الوليدُ أبو عثمان المدني : وأخبرني عُبَبة أن شُقيّاً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا ، قال أبو عثمان : وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيّافاً لمعاوية قال : فدخل عليه رجلٌ فأخبره بهذا عن أبي هريرة . فقال معاوية : قد فعلَ بهؤلاء هذا ، فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً ، حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا : قد جاءنا هذا الرجل بشر . ثم أفاق معاوية ، ومسح عن وجهه ، وقال : صدق الله ورسوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [١٥] أُولَئِكَ الَّذِينَ

لَيْسَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [١].

وقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْرَافٍ مِنْ رَبِّهِ، وَتَلَوَهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30]).

قلت: فالفطرة نور، والوحي نور، والمؤمن في نور على نور: نور الوحي على نور الفطرة.

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عياض بن جمار، عن رسول الله ﷺ قال: [يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحزمت عليهم ما أخللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً] (2).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند حسن عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني عرفة - (وفي رواية: يوم عرفة) فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبالاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [١٧٦] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [١٧٧] [الأعراف: 172 - 173] (3).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

- (1) حديث صحيح. أصله في صحيح مسلم (1905) - كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ورواه النسائي والترمذي وحسنه، وابن حبان وابن خزيمة. انظر صحيح الترغيب (20/1) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865) - كتاب الجنة ونعيمها. وأخرجه أحمد (162/4)، والطبراني في «الكبير» (987/17) - ومعنى اجتالتهم: ذهبوا بهم وحرفوهم وجالوا معهم في الباطل.
- (3) حديث حسن. أخرجه أحمد (272/1)، والنسائي في «الكبرى» (11191)، والحاكم، وغيرهم.

[كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاء ، هل تُحسّنون فيها من جدعاء⁽¹⁾]. - زاد عبد الرزاق في رواية : [ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾].

قلت : وهذه الفطرة هي نتيجة من نتائج ذلك الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم عليه السلام ، وأشهد الخلق أمام أبيهم أنه لا حجة لهم أن يشركوا بالله شيئاً وحذرهم من أمرين : 1 - أن يدعوا الغفلة . 2 - أن يدعوا التقليد .

الحديث الرابع : أخرج الطبراني بسند صحيح عن الأسود بن سريع مرفوعاً : [كل مولود يولد على الفطرة - وفي لفظ : على هذه الملة - ، حتى يُعرب عنه لسانه ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه]⁽²⁾.

وعن ابن عباس : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ : إنه جبريل عليه السلام). وقال قتادة : (هو محمد ﷺ) - والمعنى متكامل ، فجبريل مبلغ عن الله إلى محمد ﷺ الذي هو مبلغ لجميع الأمة .

وقوله : ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

قال النسفي : ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ ومن قبل القرآن ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ وهو التوراة ، أي ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام ﴿ إِمَامًا ﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين قدوة فيه ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم - وهما حالان⁽³⁾ - ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي : من كان على بينة ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالقرآن .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ .

قال قتادة : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ ، قال : الكفار أحزاب كلهم على الكفر). وعن سعيد بن جبیر : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ ، قال : من الملل كلها).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1358) ، (1359) ، ومسلم (2658) ، وأبو داود (4714) ، والترمذي (2138) ، وأحمد (375/2) ، والبيهقي (84) ، وابن حبان (129) ، (130) ، (133) ، وعبد الرزاق (20087) ، وأخرجه الطيالسي (2359) و(2433).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/345) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (826) ، والبيهقي في السنن (9/77 - 78) ، وإسناده صحيح.

(3) أي «إماماً» ، و«رحمة» في محل نصب حال.

أي: ومن يكفر بهذا القرآن من أهل مكة والمتحيزين من المشركين على رسول الله ﷺ ، وكذلك ممن جاء بعدهم من ملل الباطل فقد وعدهم الله جميعاً نار جهنم .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: [والذي نفسُ محمد بيده! لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار]⁽¹⁾ .

قال ابن جرير: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ مَنَّةٌ ﴾ ، يقول: فلا تك في شك منه ، من أن موعداً من كفر بالقرآن من الأحزاب النار ، وأن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك من عند الله) .

وقوله: ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ - فيه أقوال متكاملة .

1 - قال القرطبي: ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ ﴾ أي القول الحق الكائن ، والخطاب للنبي ﷺ ، والمراد جميع المكلفين) .

2 - قال ابن جرير: (إن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك ، يا محمد ، الحق من ربك لا شك فيه ، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بأن ذلك كذلك) - واختاره ابن كثير .

3 - وقال النسفي: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ ﴾ شك ﴿ مَنَّةٌ ﴾ من القرآن أو من الموعد ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾) .

قلت: وكلها أقوال يكمل بعضها بعضاً ، فالقرآن حق ، والوعد والوعيد حق ، وأمر الله وخطابه لرسوله حق ، ولكن أكثر الناس عن ذلك غافلون غير مصدقين .

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: 103] .

2 - وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: 116] .

3 - وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ:

[20]

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (153) - كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته ، وأخرجه الطبراني (18093) من حديث أبي موسى وإسناده على شرط مسلم .

والخلاصة: الفطرة مع الوحي هديتان من الله تعالى للعباد ، فمن أصرَّ بعد ذلك على اتباع الأهواء والشبهات والشهوات فقد اختار البقاء في الظلمة بعدما جاءه النور .

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : [إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل] (1).

18 - 22. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالى عن الكفار والمنافقين الذي يفترون على الله الكذب أنهم يُحضرُونَ يوم القيامة وتشهد عليهم الرسل بما كذبوا على ربهم لتحقيق بهم لعنة الله . أولئك الذين يقعدون في طريق المؤمنين فيصدون عن سبيل الهدى والرشاد ، ويحبون نشر الفواحش والفساد ، وهم بقاء ربهم كافرون . أولئك لم يكونوا ليفلتوا من عذاب الله ، بل يضاعف لهم العذاب ولا نصير يدفع عنهم ، فما كانوا يألّفون سماع الحق والقرآن ولا يبصرون سبيل الهداية . أولئك الذين ربخوا الخسارة في الدنيا والآخرة وحق بهم ما كانوا يكذبون ويفترون .

فقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ . قال ابن جريج: (الكافر والمنافق) . وقال أبو جعفر: (يقول تعالى ذكره: وأي الناس أشد تعذيباً اختلق على الله كذباً فكذب عليه) .

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ . قال ابن جريج: (فيسألهم عن أعمالهم) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في مسنده (2/176)، (2/197)، وابن حبان في صحيحه (1812)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1076) .

وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ﴾. قال الضحاك: (يعني الأنبياء والرسل ، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: 89]. قال: وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ، يقولون: يا رَبَّنَا أتيناك بالحق فكذبوا ، فنحن نشهد عليهم أنهم كذبوا عليك ، يا رَبَّنَا).

وقال قتادة: (والأشهاد: الملائكة ، يشهدون على بني آدم بأعمالهم).

والخلاصة: فإن في الآية بياناً لحال المفترين على الله الكذب وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء ، وسائر البشر والجان.

وقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. أي: ألا إن غضب الله وسخطه على المعتدين الذين تجرؤوا على الحق بالكذب والافتراء.

وفي الصحيحين عن صفوان بن مخرز المازني قال: [بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما أخذ بيده ، إذ عَرَضَ رجلٌ فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النَّجْوَى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يُذني المؤمنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فيقول: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبًا كَذَا؟ فيقول: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ ، حتى قَرَرَهُ بذنوبه ورأى في نفسه أنه هَلَكَ ، قال: سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيُعْطِي كتابَ حَسَنَاتِهِ ، وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾] (1).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

أي: ألا لعنة الله على الظالمين الذين يفتنون الناس عن الدين الحق خوفاً على مناصبهم ومصالحهم وأهوائهم ، ويلتمسون بدلاً منه زيفاً وميلاً وانحرافاً عن الاستقامة ، وهم بالبعث بعد الممات وبالنشور والحساب والقصاص والميزان جاحدون.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.

قال النسفي: (أي ما كانوا بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، وَمَا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (2441) - كتاب المظالم - باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ . وأخرجه مسلم (2768) ، وأخرجه أحمد (74/2) ، (105/2) ، وأخرجه ابن ماجه (183) ، وابن حبان (7355).

كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَائَهُ ﴿۱﴾ من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42].

وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] ، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾. قال القرطبي: (أي على قدر كفرهم ومعاصيهم).

قلت: بل هو بسبب كفرهم أولاً ، وصددهم الناس عن الدين الحق ثانياً ، يُضَعِّفُ الله لهم بذلك العذاب.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: 88].

2 - وقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: 25].

وفي السنة المطهرة:

أخرج الإمام الترمذي في جامعه، والإمام أحمد في مسنده، بسند حسن عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: [يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يُسَاقُونَ إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تملوهم نار الأنبار ، يُسْقُونَ من عُصَاة أهل النار ، طينة الخبال] ⁽²⁾.

وقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.

أي: إنهم كانوا لا يستطيعون سماع الحق سماع متفعم باحث عن الصواب ، ولم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) - كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم (2583) ، وأخرجه الترمذي (3110) ، وابن ماجة (4018) ، والطبري (18559) ، والبيهقي في السنن (94/6).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025). ورواه أحمد. انظر تخريج مشكاة المصابيح (5112) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7896).

يكونوا يبصرونه إبصار صادق في النظر إلى سبيل الهداية والرشاد ، بل شغلهم الكفر والفجور والشهوات وصد الناس عن سبيل الله ، ظناً منهم أن ذلك يحفظ مصالحهم ودنياهم الفانية ، فَعَطَّلَ لديهم فائدة السمع والبصر .

قلت : وهذه الآية نص في مفهوم الاستطاعة الموافقة للعمل . فإن الاستطاعة كما وردت في الكتاب والسنة نوعان :

النوع الأول : الاستطاعة قبل العمل - وتعني سلامة الجوارح والآلات وأعضاء البدن - بمعنى : حضور القدرة الجسدية والإرادة العقلية ، وهي استطاعة مخلوقة مع الإنسان وليس ابتداء عند العمل ، لأن العقل لا يكون عقلاً مالم يكن مريداً مميزاً ، والقوي لا يقال عنه قوي مالم يكن معروفاً بالقوة وأسبابها ، وإلا فغياب العقل سبب لرفع التكليف .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : 97] .

2 - وقال تعالى : ﴿ فَأَنقُذُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : 16] .

3 - وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ [المجادلة : 4] .

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ قال : [صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب⁽¹⁾] .

النوع الثاني : الاستطاعة الموافقة للعمل - وهي خلق القدرة على ذلك العمل - وتأتي بمعنى التوفيق .

كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف : 100 - 101] .

وكفوله في آية هود : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ .

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري وأبو داود وغيرهما . انظر صحيح سنن أبي داود (878) .

في الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظهره طبقاً واحداً⁽¹⁾ .

فلا يوفقههم الله للسجود إليه أحوج ما يحتاجون إلى قبوله وعونه لهم على السجود لوجهه ، إذ كانوا من المبطلين المنافقين المرائين في سجودهم في الدنيا فحرمهم من ذلك بحكمته في الآخرة .

وقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

أي: أولئك القوم الذين خسروا سعادة أنفسهم وراحتهم ، واشتروا بريائهم ونفاقهم وصددهم عن سبيل الله شقاوتها وعذابها وآلامها ، وغاب عنهم شفاعة آلهتهم المزعومة ، ومن ضحك عليهم من الطواغيت ولم يجدوا ما وعدوهم إلا كذباً .

وقوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴾ .

أي: حقاً ولا محالة أن هؤلاء يوم القيامة هم أصحاب الخسران المبين ، وأهل التجارة الفاشلة الخاسرة ، إذ ضيعوا الآخرة بدنيا وشهوات فانية .

قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ، لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم ، بسموم وحميم ، وظل من يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غسولين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) .

23 - 24. قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن حال السعداء ، بعد ذكر حال الأشقياء ، فأهل الإيمان والعمل الصالح الذين تواضعوا لأمر ربهم هم سكان الجنة هم فيها خالدون . إن مثل الفريقين كمثل الأعمى والبصير ، والأصم والسميع ، هل يستويان مثلاً؟! لا يستويان ، فهلاً انتفعتم بضرب الله هذا المثل! .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4919) - كتاب التفسير . سورة «القلم» - آية (42) .

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح والتواضع والتخشع والخوف والإنابة إلى الله تعالى. ومن أقوال أهل التأويل:

- 1 - عن ابن عباس: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ - قال: «الإخبات»، الإنابة. أو قال: (يقول: خافوا). وقال قتادة: (يقول: وأنابوا إلى ربهم).
 - 2 - وعن مجاهد: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ، قال: اطمأنوا.
 - 3 - وقال قتادة: (الإخبات: التخشع والتواضع).
- قلت: وكلها معانٍ يحتملها البيان الإلهي ، وإن كان أبرز معاني الإخبات في كلام العرب الخشوع.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم ، هم سكان الجنة الذين لا يخرجون عنها ، ولا يموتون فيها ، ولكنهم فيها لا يثون إلى غير نهاية).
ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً. وإن لكم أن تحيا فلا تموتوا أبداً. وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً. وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [أهل الجنة جُرْدٌ ، مُرْدٌ ، كُحْلٌ ، لا يفنى شبابهم ، ولا تبلى ثيابهم]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم من حديث جابر مرفوعاً: [يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك ، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس]⁽³⁾.

- (1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (148/8) من حديث أبي هريرة. وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (2140) - كتاب التفسير - الأعراف - آية (43).
- (2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2675) - أبواب صفة الجنة - وانظر صحيح سنن الترمذي (2062).
- (3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (147/8) ، وانظر تفصيل ذلك النعيم والخلود في كتابي: أصل الدين والإيمان - عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان. (2/769 - 802).

وقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ - فيه أقوال متقاربة:

1 - قال مجاهد: (الفريقان: الكافران والمؤمنان. فأما الأعمى والأصم فالكافران ، وأما البصير والسميع ، فهما المؤمنان).

2 - وقال ابن جريج ، قال ابن عباس: (الأعمى والأصم: الكافر. والبصير والسميع: المؤمن).

3 - وقال قتادة: (هذا مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن. فأما الكافر فصم عن الحق فلا يسمعه ، وعمي عنه فلا يبصره. وأما المؤمن ، فسمع الحق فانتفع به ، وأبصره فوعاه وحفظه وعمل به).

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾. أي: تشبيهاً ، و﴿مَثَلًا﴾ منصوب على التمييز ، والمعنى: كما لا يستوي عندكم الأعمى والبصير ، والأصم والسميع ، فكذلك لا يستوي عند الله المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، والمسلم والفاسق.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. قال النسفي: (فتتفعون بضرب المثل).

25 - 27. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

في هذه الآيات: شرع الله تعالى في إخباره عن إرساله الرسل إلى أهل الأرض ، وأولهم نوح عليه الصلاة والسلام ، بعثه الله نذيراً إلى قومه يحذرهم مغبة الشرك والكبر والغرور الذي كانوا عليه ، ويدعوهم لإفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، ويحذرهم عذاب يوم أليم ، فما كان من الملائكة الكافر من قومه إلا الاستهزاء ، والاستخفاف بالاتباع ، واتهام المؤمنين بالكذب ليحقيق بالمستكبرين العذاب.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

إخبار عن إرساله تعالى نبيه نوحاً ﷺ إلى قومه الذين امتلأت الأرض يومئذ من شركهم وشروهم ، فكان نوح أول الرسل إلى أهل الأرض ، ظاهر النذارة لقومه من

عذاب الله وغضبه إن أصروا على شركهم وعبدوا غير الله الواحد الأحد .

وقد صَبَرَ نوح - صلوات الله وسلامه عليه - على تمرد قومه وغرورهم واستهزائهم ، وهو يدعوهم القرون الطويلة ، إذ مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ويؤكد لهم التمسك بـ «لا إله إلا الله» وأن يعيشوا لأجلها ويموتوا عليها ، حتى كان ذلك آخر ما وصى به ابنه عند الموت .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، والبيهقي في الأسماء ، بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [إن نبي الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك الوصية ، أmerk باثنتين وأنهاك عن اثنتين ، أmerk بـ «لا إله إلا الله» فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة ، رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله ، وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر .

قيل : يا رسول الله ! هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال : أن يكون لأحدنا نعلان حستان لهما شراكان حسنان؟ قال : لا ، قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال : لا . قيل : يا رسول الله فما الكبر؟ قال : سفه الحق وغمص الناس⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ . أي : إن أصررتم على طريق الكبر والشرك والبغي في الأرض بغير الحق فإنه ينتظركم العذاب الأليم الشاق الموجه يوم الحساب .

وقوله : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾ . قال ابن كثير : (والملاؤم : السادة والكبراء من الكافرين منهم : ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ ، أي : لست بملك ولكنك بشرٌ ، فكيف أوجي إليك من دوننا؟ ثم ما نراك أتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكّة وأشباههم ، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء متاً ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر ، بل بمجرّد ما دعوتهم أجابوك فأتبعوك ، ولهذا قالوا : ﴿وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾ ، أي : في أول بادئ الرأي) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/ 169 - 170) ، (2/ 225) ، والبيهقي في «الأسماء» (79) ، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (548) ، وانظر السلسلة الصحيحة (134) .

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ .

قال القاسمي: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ خطاب لنوح وأتباعه ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي تقدم يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة ، لأن الفضل محصور عندهم بالغنى والمال . ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي فيما تدعونه من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه).

28 - 31. قوله تعالى: ﴿قَالَ يٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَتَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْ مَّا هُمْ بِلَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَشْكُرْكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طردْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ .

في هذه الآيات: ذكّر الله تعالى جواب نوح ﷺ إلى قومه: أرايتم أيها القوم إن كنت على يقين برحمة الله المهداة إليّ وهي النبوة التي خفيت عليكم ، ولم تقدروا حقها بل قابلتموها بالسخرية والتكذيب ، فكيف لي أن أجبركم عليها وأنتم لها كارهون . يا قوم إني لا أبتغي من دعوتي لكم مالا بل أجري على الله ولا يمكنني طرد المؤمنين الصادقين ، وإنما أنتم قوم تجهلون . ثم يا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . إني لا أملك خزائن السماوات ولا أعلم الغيب ولست بملك ولا أتجرأ القول على الله أن هؤلاء الذين تزدرون لن ينالوا من الله خيراً ، فالله أعلم بأنفسهم ، فإني إن تجرأت على ذلك كنت من الظالمين .

فقوله: ﴿قَالَ يٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَتَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ . قال ابن جريج: (قال نوح: ﴿يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَتَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ ، قال: قد عرفتها ، وعرفت بها أمره ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿وَأَنِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ ، الإسلام والهدى والإيمان والحكم والنبوة).

وقوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمْ مَّا هُمْ بِلَهَا كَارِهُونَ﴾ . قال قتادة: (أما والله لو استطاع نبي الله ﷺ لألزمها قومه ، ولكن لم يستطع ذلك ولم يملكه).

وغاية المعنى: يجيبُ نوحٌ ﷺ قومه: أرأيتم إن كنت على يقين من أمري ، في رسالتي ونبوتي الصادقة ، وهي الرحمة العظيمة المهداة من الله لي ولكم ، ثم خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ، ولم تعرفوا قدرها ، بل قابلتم تلك النعمة والهداية الكبيرة بالتكذيب والاستهزاء والعناد ، فكيف لي أن أغضبكم عليها وأنتم لها كارهون .

وقوله: ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنَ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ . قال ابن جرير: (قال لهم: يا قوم لا أسألكم على نصيحتي لكم ، ودعايتكم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، ما لا أجرة على ذلك ، فتنهموني في نصيحتي ، وتظنون أن فعلي ذلك طلب عرض من أعراض الدنيا ، ﴿إِنَ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ، يقول: ما ثواب نصيحتي لكم ، ودعايتكم إلى ما أدعوكم إليه ، إلا على الله ، فإنه هو الذي يجازيني ويشيني عليه).

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَّوْا رَبِّهِمْ﴾ . قال ابن جريج: (قالوا له: يا نوح ، إن أحببت أن تتبعك فاطردهم ، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء . فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَّوْا رَبِّهِمْ﴾ ، فيسألهم عن أعمالهم).

وقوله: ﴿وَلِكَيْتَ أَزْنَكُمْ قَوْمًا يَتَّبِعُونَ﴾ . قال القرطبي: (في استردالكم لهم ، وسؤالكم طردهم).

قلت: ويبدو أن هذه سنة في الملاء الكافر على مر الدهور والأزمان ، فهم يرون إيمانهم مع الضعفاء انتقاصاً لشأنهم وما اعتادوه من أحوال الظلم والكبر واستضعاف الناس ، فكان الوحي النازل يقرعهم دوماً للتخلي عن هذه الأبهة الكاذبة .

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28] .

2 - وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53] .

3 - وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 52] .

وقد جاءت السنة الصحيحة كذلك بتحذير النبي ﷺ من الاستجابة لهذا المطلب الساقط من الملاء الكافر ، وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن سعد قال: [فِي نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ - قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم ، وكان المشركون قالوا: تدني هؤلاء⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة في السنن ، وابن جرير في التفسير بسند صحيح عن المقدم بن شريح عن أبيه عن سعد قال: [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾⁽²⁾].

الحديث الثالث: أخرج ابن جرير بسنده من طريق ابن مسعود قال: [مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ خُبَابٌ وَصَهْبٌ وَبِلَالٌ وَعِمَارٌ ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ ، أَرْضَيْتَ بِهِؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِكَ؟ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أَنْحَنَ نَصِيرُ تَبَعًا لَهُؤُلَاءِ؟ اطْرُدْهُمْ فَلَعَلَّكَ إِنْ طَرَدْتَهُمْ تَتَّبِعَكَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁽³⁾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ⁽³⁾].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: يا قوم من يمنعني من بأس الله وانتقامه لأوليائه إن طردتهم أفلا تتعظون!

وقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾. قال ابن

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم - حديث رقم - (2413) ، وسنن ابن ماجة (4128) ، ومستدرک الحاكم (319/3) ، ورواه النسائي في «التفسير» (183) ، وأخرجه أبو يعلى (826) ، والطبري (13266) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. انظر سنن ابن ماجة - حديث رقم - (4128) - باب مجالسة الفقراء ، ومستدرک الحاكم (319/3) ، وقال صحيح على شرطهما وأقره الذهبي. وأخرجه النسائي في «الكبرى» (11163) ، ورواه أبو يعلى (826).

(3) انظر تفسير الطبري ، سورة الأنعام ، آية (52 - 53) ، وكتابي: السيرة النبوية (1/243).

جريح: (قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، التي لا يفنيها شيء ، فأكون إنما أدعوكم لتتبعوني عليها ، لأعطيكم منها ، ولا أقول: إني ملك نزلت من السماء برسالة ، ما أنا إلا بشر مثلكم ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول اتبعوني على علم الغيب). وقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم ، أو ينقص ثوابهم. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به. ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن قلت هذا الذي تقدم ذكره).

32 - 35. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَنْجُرِمُونَ ﴿٣٥﴾.

في هذه الآيات: استعجال قوم نوح العذاب والوعيد ، ورد نوح ﷺ أمر ذلك إلى الله ، ومواجهته قومه أنكم لستم بمعجزين. وأن نصحي لكم لا ينفعكم إن كان الله قضى في سابق علمه إضلالكم لفساد قلوبكم وهو العليم الحكيم. أم يقول هؤلاء أو قومك يا محمد: افتراه ، فأخبرهم أن جزاء افترائي سيحيق بي ، كما سيحيق بكم نكال إجرامكم.

فقوله: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا﴾. قال مجاهد: (ماريتنا).

وقوله: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾. قال ابن جريج: (تكذيباً بالعذاب ، وأنه باطل).

وقوله: ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ - يعني قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا ومحاجتنا ، فإن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله فأت بالعذاب واستعجل الوعيد.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾. يعني: إن الذي بيده

العذاب وموعده ووقته هو الله سبحانه الذي خلقكم وخلق كل شيء ولا تعجزونه ولا يعجزه شيء .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: أي شيء يُجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي ، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم ، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . أي: هو مالك أزمّة الأمور ، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور ، له الخلق وله الأمر ، وهو المبدئ المعيد ، مالك الدنيا والآخرة).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يَنْتَحِرِمُونَ﴾ .

قال ابن عباس: (هو من محاورة نوح لقومه). وقيل: بل هو كلام معترض وسط القصة والحديث عن مشركي قريش إذ زعموا أن محمداً - ﷺ - افتري هذا القرآن. واختار ابن جرير الثاني فقال: (أيقول ، يا محمد ، هؤلاء المشركون من قومك: افتري محمد هذا القرآن؟ وهذا الخبر عن نوح؟ قل لهم: إن افتريته فتخرسته واختلقته ﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ ، يقول: فعليّ إثمي في افترائي ما افتريت على ربي ، دونكم ، لا تؤاخذون بذنبي ولا إثمي ، ولا أواخذ بذنبيكم ، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يَنْتَحِرِمُونَ﴾ ، يقول: وأنا بري مما تذبنون وتأتُمون بربكم ، من افترائكم عليه). واختار القرطبي أنه من محاورة نوح لقومه ، ثم قال القرطبي: (وهو أظهر ، لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ، فالخطاب منهم ولهم ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ أي اختلقته وافتعلته ، يعني الوحي والرسالة ، ﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي عقاب إجرامي ، وإن كنت محقاً فيما أقوله فعليكم عقاب تكذبي).

قلت: والبيان الإلهي يحتمل التأويلين معاً ، وهو من إعجاز هذا القرآن العظيم ، وجوامع كلمه وخطابه الجامع ، فيجوز أن يكون الوصف لحوار نوح مع قومه ، أو لاعتراض المشركين على نبينا محمد ﷺ ، فإن الشرك ملة واحدة عبر العصور والأزمان.

36 - 39. قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ

ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِئْنِي فِي

الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ .

في هذه الآيات: وَخَيَّ الله تعالى إلى نوح أنه قد انتهى كل شيء بينك وبين قومك فلن يؤمن إلا من قد آمن ، فانهض لصناعة الفلك برعاية ربك ولا تسأل عن الذين ظلموا فإنهم مغرقون . ويستجيب نوح لربه ويصنع الفلك ، وكلما مرّ ملاً من قومه سخروا من فعله فيواجههم نوح بصلافة وقوة أَنَّ السخرية سترتد بالوبال عليكم ، وبالعذاب المقيم الذي يخزيكم .

فقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴾ . أي: أوحى الله تعالى إلى نوح ، أن المؤمنين هم من قد آمن معك من قومك ، ولا طمع بغيرهم ، وقد أظل المجرمين أمر الله وحق عليهم القول .

وقوله: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . قال مجاهد: (لا تحزن) . وقال قتادة: (لا تأس ، ولا تحزن) .

وقد كان نوح ﷺ دعا على قومه لما عاجزوه واستعجلوا نعمة الله وعذابه لينزل بهم فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا ﴾ [نوح: 26] .

وفي التنزيل أيضاً: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴾ [القمر: 10] .

فهناك أوحى الله إليه: ﴿ أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ .

قال مجاهد: ﴿ الْفُلَكَ ﴾ ، السفينة) . وعن ابن عباس: ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ﴾ ، وذلك أنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها على مثل جَوْجُو الطائر) . وعن مجاهد: ﴿ وَوَحِّينَا ﴾ ، قال: كما نأمرك) . وعن قتادة: ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ﴾ ، قال: بعين الله ووحيه) . وقال ابن كثير: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، أي: بمرأى منا) . وعن ابن جريج: ﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي ﴾ ، قال: يقول: ولا تراجعني . قال: تقدّم أن لا يشفع لهم عنده) .

وقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (ويصنع نوح السفينة ، وكلما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه ، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ، يقول: هزئوا من نوح ، ويقولون له: أتحوّلت نجاراً بعد النبوة ، وتعمل السفينة في البر؟ فيقول لهم نوح: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ إِنْ تَهْزَؤُوا مِنَّا الْيَوْمَ ، فَإِنَّا نَهْزَأُ مِنْكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، كما تهزؤون منا في الدنيا).

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ .

أي: فسوف تعلمون معشر المستهزئين إذا جاء أمر الله من الهالك ، ومن ينزل به عذاب يهينه ويذلّه ، ثم من ينزل به في الآخرة عذاب لا خلاص منه ولا نجاة ولا مخرج من ألمه .

40 - 44. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاهَا مِرْسَاهَا وَإِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِئْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأَوَىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَآرَضُ آبُلَيْ مَاءٍ لِي وَنَسَمَاءُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ .

في هذه الآيات: نُزُولُ أمر الله في قوم نوح ، فيأمر الله تعالى نبيه نوحاً ﷺ أن يحمل في السفينة من كل صنف من المخلوقات زوجين ، وكذلك أهل بيته وأرحامه وقرباته - إلا من سبق القول أنه لن يؤمن - ، ويحمل كذلك مَنْ آمَنَ معه من قومه وهم نزر قليل. فيركب نوح ﷺ والمؤمنون ويقول: بسم الله مجريها ومرساها إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وأثناء سير السفينة على وجه الماء الآخذ في الارتفاع يبصر نوح ابنه يام - وكان كافراً انعزل عن أبيه وعن السفينة - فيدعوه للركوب وأخذ سبيل النجاة كيلا يكون مع

الهالكين. فيأبى ويفضل الانحياز إلى الجبل للتحصن فيه من أمواج الماء ، فيخبره نوح أنه لا نجاة اليوم إلا في هذه السفينة ، ويمضي أمر الله ليكون ابن نوح مع المغرقين . ثم يأمر الله تعالى الأرض بتشرب الماء والسماء بالإقلاع عن المطر ، وقضي الأمر بإهلاك قوم نوح ، وأرست السفينة على جبل الجودي ، وقيل سحقاً لقوم نوح الذين غضب الله عليهم وكانوا من الظالمين .

فقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ - وذلك حين حلول وعيد الله بالطوفان ، وإغراق الكفار من الأنعام .

قال ابن عباس : (التنور : وجه الأرض) . والتقدير : انبجس الماء من وجه الأرض . قال ابن كثير : (أي : صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار المار من التنابير التي هي مكان النار ، صارت تفور ماءً . وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف) .

وفي التنزيل : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۚ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۖ تَجْرَىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرٌ ﴾ [القمر : 11 - 14] .

وقوله : ﴿ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ، قال : ذكر وأنثى من كل صنف) . وقال الضحاك : (يعني بالزوجين اثنين ، ذكر وأنثى) . وقال ابن جرير : (يعني بالأهل : ولده ونساءه وأزواجه - إلا من قلت فيهم : إني مهلكه) . أي : فلما جاء ميعاد إهلاك القوم الكافرين ، أمر الله نوحاً ﷺ أن يحمل معه في السفينة من صنوف المخلوقات ذات الأزواج ، قيل : وغيرها من النباتات - اثنين ، ذكراً وأنثى ، وكذلك أهل بيته وأرحامه وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله وكفر برسوله نوح ﷺ ، فكان منهم ابنه يام الذي انزل وحده ، وكذلك امرأة نوح ، التي كانت كافرة بالله ورسوله .

وقوله : ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ . أي : واحمل معك كذلك في السفينة مَنْ ءَامَنَ مِنْ قَوْمِكَ .

وقوله : ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . أي : نزر يسير ممن صدقه وتابعه من أهله وقومه .

وقوله : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاكِ مَوَسَّىٰ وَهَارُونَ ﴾ . أي : كما قال مجاهد :

(حين يركبون ويجرون ويرسون) . أو قال : (قال : بسم الله حين يجرون وحين يرسون) .

والتقدير : أي باسم الله يكون جزيها على وجه الماء ، وباسم الله يكون منتهى سيرها ، وهو رؤسوها .

وقرأ عامة قراء الكوفة : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاكِ مَوَسَّىٰ وَهَارُونَ ﴾ بفتح الميم من ﴿ جَعَلْنَاكِ ﴾

وضمها من ﴿وَمُرْسَهَا﴾. في حين قرأ عامة قراء المدينة والبصرة: «بسم الله مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا» كلاهما بضم الميم. وقرأ أبو رَجَاء العَطَاردي: «بسم الله مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا» بضم الميم فيهما ، ويصيرهما نعتاً لله .

قلت: وذكر الله عند بداية الإقلاع على الدابة وفي السفر وكذلك التسمية عند ابتداء الأمور مشروع في الكتاب والسنة .

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَجْعَلُنَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿[المؤمنون: 28 - 29].

2 - وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿وَلِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: 12 - 14].

ومن السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: [أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كَبَّرَ ثلاثاً ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٢) وَلِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿. ثم يقول: اللهم ، إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . اللهم هَوِّنْ علينا السفر واطوِّ لنا البعيد . اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل . اللهم اصحبنا في سفرنا ، واخلفنا في أهلنا]. وكان إذا رجع إلى أهله قال: «أيُّون تائبون إن شاء الله ، عابدون ، لربنا حامدون» (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي لاسٍ - محمد بن الأسود بن خلفٍ - الخزاعي قال: [حملنا رسول الله ﷺ على إبلٍ من إبل الصدقة إلى الحج ، فقلنا: يا رسول الله ، ما نرى أن تحملنا هذه! فقال ﷺ: ما من بعير إلا في ذرَّوْتِهِ شيطانٌ ، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما أمركم ، ثم امتهنوها لأنفسكم ، فإنما يحمل الله عز وجل] (2).

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1342) ، وأبو داود (2599) ، والنسائي في «اليوم والليلة» (548).

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (4/ 221) ، والطبراني (334/ 22) ، وللحديث شواهد .

الحديث الثالث: أخرج أحمد والدارمي وابن حبان بسند حسن من حديث أسامة بن زيد عن محمد بن حَمَزَةَ: أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [على ظهر كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ، فإذا ركبتموها فسموا الله عز وجل، ثم لا تُقَصِّرُوا عن حاجاتكم] (1). وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال القرطبي: (أي لأهل السفينة).

وذكر المغفرة والرحمة هنا مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين. وفي التنزيل نحو هذا كثير:

- 1- قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: 167].
- 2- وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6].

3- وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: 49 - 50].

وفي مسند البزار بسند حسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمين ولا خوفين، إن هو أمني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنت يوم أجمع عبادي] (2).

وقوله: ﴿وَيَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾. قال ابن كثير: (أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طَبَّقَ جميع الأرض، حتى طَفَّت على رؤوس الجبال).

وقال النسفي: (يريد موج الطوفان، وهو جمع موجة كتمر وتمر، وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة في خلاله، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها).

وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: ونادى نوح ابنه يام، وهو كما رُوي الابن الرابع، وكان كافراً، فانعزل عن أبيه وعن السفينة، فدعاه أبوه نوح ﷺ ليؤمن ويركب وينجو مع الناجين ولا يكون مع الهالكين فأبى.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (494/3)، والدارمي (285/2)، وابن حبان (1703) بسند حسن.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (98/6)، وأخرجه البزار (انظر الهيثمي في «المجمع» 308/10)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (742).

وقوله: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

قال ابن جرير: (قال ابن نوح ، لما دعاه نوح إلى أن يركب معه السفينة ، خوفاً عليه من الغرق: ﴿سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يقول: سأصير إلى الجبل أتحصن به من الماء ، فيمنعني منه أن يغرقني . وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ ، يقول: لا مانع من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك ، إلا من رحمنا فأنقذنا منه ، فإنه الذي يمنع من شاء من خلقه ويعصم).

ومضت السفينة تسير على وجه الماء تحمل الأمن والطمأنينة لساكنيها ، وتخفي وراءها الدمار والهلاك للطغاة والعناة والمجرمين ، كما في التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْخَارِجِ ۖ لَنَجْجِلَهَا لَكُمْ نَذِيرًا ۚ وَقِيلَ لِجَنُودِهِمْ اذْهَبُوا بِهَذِهِ الْقَارِیَةِ ۖ وَجَعَلَ خُبُرُهَا بُرْجًا فَاصًّا ۖ وَلَئِيْلَ الْكَافِرِ ۚ﴾ [الحاقة: 11 - 12].

2 - وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۖ فَجَرَوْهُ بِأَعْيُنِنَا ۖ زَكَرَ لِلْكَافِرِ ۚ﴾ [القمر: 13 - 15].

وقوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

أي: كتب الله الغرق على ابن نوح الضال ، فدخل في جملة الغرقى الهالكين .

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْخَمَاءِ أَقْلِي ۚ وَغِصَصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾.

أي: قال الله للأرض - بعد نزول نعمته بأهل الكفر وغرقهم - يا أرض تشربي ماءك ، ويا سماء أقلعي عن المطر وأمسكي ، فذهبت الأرض بالماء الذي كان عليها ونشفت ، وقضي الأمر بإهلاك قوم نوح ، وأرست السفينة على جبل الجودي - الذي هو بناحية الموصل أو الجزيرة - فيما ذكر .

وعن مجاهد: ﴿وَغِصَصَ الْمَاءُ﴾ ، قال: نقص ، ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ، قال: هلاك قوم (نوح).

وقال ابن جريج: ﴿وَغِصَصَ الْمَاءُ﴾ ، نَشَفَتْهُ (الأرض).

وعن ابن عباس: ﴿وَيَسْخَمَاءِ أَقْلِي﴾ ، يقول: أمسكي ، ﴿وَغِصَصَ الْمَاءُ﴾ ، يقول: ذهب الماء).

وعن مجاهد: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، قال: الجودي جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاوالت، وتواضع هو الله، فلم يغرق، وأرسيّت سفينة نوح عليه).
وعن الضحاك يقول: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، هو جبل بالموصل) - والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. أي: سحقاً لقوم نوح الذين حاق بهم غضب الله فنزل بهم عذابه.

45 - 48. قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْهُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٤٨﴾.

في هذه الآيات: مناجاة نوح ربه لنجاة ولده، وجواب الله له أنه ليس من أهله، ووعظه له أن لا يسأل ما ليس له به علم، واستغفار نوح - عليه الصلاة والسلام - من ذلك. ثم أمر الله نوحاً الهبوط بسلام عليه وعلى من معه، وعلى كل من تبعه على الحق، وأما من خالف منهاجه دخل في متاع قليل ينتهي بعذاب أليم.

فقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ونادى نوح ربه فقال: رب إنك وعدتني أن تنجيني من الغرق والهلاك وأهلي، وقد هلك ابني، وابني من أهلي، ﴿وَلَوْ أَنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾، الذي لا خلف له، ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ بالحق، فاحكم لي بأن تفي لي بما وعدتني، من أن تنجي لي أهلي، وترجع إليّ ابني).

وقوله: ﴿قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. قال ابن عباس: (ما بغت امرأة نبي قط. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، الذين وعدتك أن أنجيهم معك). وقال:

(هو ابنه ، غير أنه خالفه في العمل والنية).

وهو يرد بذلك على من زعم أنه ليس ابنه على الحقيقة ، بل ولد على فراشه ، أو ولد زنية . قال سعيد بن جبير : (قال الله ، وهو الصادق : وهو ابنه ، ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾).

وكان قد جاءه رجل فسأله : أرأيتك ابن نوح ابنه؟ فَسَبَّحَ طويلاً ، ثم قال : (لا إله إلا الله ، يحدث الله محمداً : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ وتقول : ليس منه؟ ولكن خالفه في العمل ، فليس منه من لم يؤمن).

وقال الضحاك : (﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ، يقول : ليس من أهل ولايتك ، ولا ممن وعدتك أن أنجي من أهلك ، ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ، يقول : كان عمله في شرك).

وهناك من قرأها : «إنه عمل غير صالح» - وروي ذلك عن ابن عباس ⁽¹⁾ . والجمهور على قراءتها : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ - وتأويل ذلك كما ذكر مجاهد قال : (سؤالك إياي ، عمل غير صالح). ولذلك قال بعدها : ﴿ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ - وفيه أكثر من تأويل :

1 - أي فلا تسألن ما ليس لك به علم بجواز مسألته - ذكره النسفي .

2 - أي أنهاك عن هذا السؤال ، وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين أي الآثمين - ذكره القرطبي .

3 - أي فلا تسألن عما قد طويث علمه عنك من أسباب أفعالي وقد أخبرتك سبب إهلاك ابنك - ذكره ابن جرير .

قلت : وكل ما سبق يدل على آفاق مفهوم الآية ويزيد في توضيح معانيها .

قال القاسمي : (﴿ إِنَّيْ أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياي ما لم تعلم).

وقال ابن العربي : (وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين).

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِيْ وَتَرْحَمْنِيْ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . فيه ذكر إنابة نوح عليه السلام بالتوبة إلى الله من زلته في مسألته .

(1) قلت : بل ثبت ذلك عن النبي ﷺ . فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن أم سلمة : [أن النبي ﷺ كان يقرؤها : «إنه عمل غير صالح»] . صحيح سنن الترمذي (2336 / 1).

قال ابن جرير: (أي: أستجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم ، مما قد استأثرت بعلمه ، وطويت علمه عن خلقك ، فاغفر لي زلتي في مسألتني إياي ما سألتك في ابني ، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتتقذني من غضبك ، ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ، يقول: من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا).

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهِيْطُ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَمِعَتُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إخبار من الله تعالى عن قبله لنوح ﷺ حين أرست السفينة واستوت على جبل الجودي: أن سلام عليك وعلى من معك من المؤمنين ، وعلى كل مؤمن من ذريتك إلى يوم القيامة. كما قال محمد بن كعب القرظي: (دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل في ذلك العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة).

وعن ابن زيد قال: (هبطوا والله عنهم راض ، هبطوا بسلام من الله. كانوا أهل رحمة من أهل ذلك الدهر ، ثم أخرج منهم نسلاً بعد ذلك ، أمماً ، منهم من رحم ، ومنهم من عذب. وقرأ: ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَمِعَتُهُمْ﴾ ، وذلك إنما افرقت الأمم من تلك العصابة التي خرجت من ذلك الماء وسلمت).

وعن الضحاك: (يقول في قوله: ﴿يَنْتُحِ أَهِيْطُ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ ، الآية ، يقول: بركات عليك وعلى أمم ممن معك لم يولدوا ، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة ، ﴿وَأُمَمٌ سَمِعَتُهُمْ﴾ ، يعني: متاع الحياة الدنيا ، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة).

وقال الحسن: (فأنجى الله نوحاً والذين آمنوا ، وهلك المتمتعون! حتى ذكر الأنبياء ، كل ذلك يقول: أنجاه الله وهلك المتمتعون).

49. قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

في هذه الآية: إخبار الله تعالى نبيه محمد ﷺ أن هذه القصة من أخبار الغيب يقصها عليه بالوحي ، وما كان له ولقومه العلم بدقائقها قبل هذا ، فاصبر - يا محمد - كما صبر نوح والرسل قبلك فالنصر والعاقبة للمتقين.

قال النسفي: (أي - أخبار - تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الوقت ، أو من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها ﴿فَاصْبِرْ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح ، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح ولقومه ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: 51].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: 171 - 172].

أخرج الخطيب في «التاريخ» ، والدلمي في «مسند الفردوس» ، بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً: [النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، وإنَّ مع العسر يسراً ، وإن مع العسر يسراً]⁽¹⁾.

50 - 52. قوله تعالى: ﴿وَالْإِلَٰهَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن إنذار هود عليه السلام قومه ليفردوا الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، قبل حلول نقمة الله بهم ونزول العذاب الأليم. قال يا قوم لا أبتغي ببلأغي ودعوتي لكم مالا بل أجري على الله الذي فطرني وأرسلني إليكم أفلا تعقلون. ويا قوم الزموا استغفار ربكم ، فإنه من فضله ونعمه يزيدهم ، فيرسل عليكم المطر والرزق ويزيدهم قوة إلى قوتكم ، ولا تستكبروا عن طاعته وتسلكوا سبيل المجرمين.

(1) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/287) من حديث أنس بن مالك ، والدلمي (4/111 - 112) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2382).

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا﴾. أي: وأرسلنا كذلك إلى قوم عاد أخاهم هوداً.

قال القرطبي: (وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم).

وقوله: ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. أي: أفردوا الله تعالى

بالدعاء والتعظيم ولا تصرفوا العبادة لغيره ، فهو الله الواحد الأحد المستحق للعبادة.

وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْتَرَبُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ما أنتم ، في إشراككم

معه الآلهة والأوثان ، إلا أهل فرية مكذبون ، تختلقون الباطل ، لأنه لا إله سواه).

وقوله تعالى: ﴿يَنْفَوِرَ لَا اسْتَكْرَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله ، إنما

يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يُضِلُّكُمْ في الدنيا والآخرة من غير أجر).

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْفَوِرَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا

وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

بيان لما أرشدهم به هود عليه السلام من الإنابة والاستغفار والتوبة إلى الله وما يعقب ذلك

من إرسال الله تعالى السماء بالمطر والخير ، وزيادة الشوكة والقوة والمال ، وتوضيح لمغبة الإعراض عن دين الله وعن اتباع رسوله. قال مجاهد: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ ، قال: شدة إلى شدتكم).

قال النسفي: (إنما قصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا

أصحاب زروع وبساتين فكانوا أحوج شيء إلى الماء ، وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة البطش والقوة ، وقيل أراد بالقوة المال. ثم قال: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عني و عما أدعو إليه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم وأنامكم).

وفي التنزيل - قول نوح عليه السلام -: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ

عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ نوح: [10 - 12].

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿مِدْرَارًا﴾ ، يقول: يتبع بعضها بعضاً).

وعن ابن زيد: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ، قال: يدر ذلك عليهم قطراً

ومطراً).

53 - 56. قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ شَهِدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ۞ .

في هذه الآيات: مجادلة قوم هود نبهم بالباطل ، وإعلانهم كفرهم بما جاء به ، وأن الذي هو عليه سوء مما اعتراه بعض آلهتهم . ومقابلة هود ﷺ لهم بإعلانه البراءة من شركهم ، وتحديهم بأن يكيدوا له كما يشاؤون فهو متوكل على الله ربهم ورب كل دابة وكل شيء ، وهو سبحانه له الصراط المستقيم والدين القويم .

فقوله: ﴿ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ - هو جواب قوم هود له ، قالوا: ما أتينا بحجة ولا برهان على دعواك فيما تأمرنا من توحيد الله والإقرار بنبوتك .

وقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . أي: وما نحن بتاركي آلهتنا من أجلك أو لقولك ، وما نحن بمقرين لك الرسالة أو النبوة .

وقوله: ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ ﴾ - فيه أقوال متقاربة:

1 - قال مجاهد: (أصابتك الأوثان بجنون) ، أو قال: (سَبَّتِ آلِهَتُنَا وَعِبَتَهَا ، فَأَجَنَّتْكَ) .

2 - وعن قتادة قال: (ما يحملك على ذم آلِهَتِنَا إِلَّا أَنَّهُ أَصَابَكَ مِنْهَا سُوءٌ) .

3 - وقال الضحاك: (يقولون: نخشى أن يصيبك من آلِهَتِنَا سُوءٌ ، ولا نحب أن تعتريك ، يقولون: يصيبك منها سوء) .

4 - وقال ابن زيد: (يقولون: اختلط عقلك فأصابك هذا ، مما صنعت بك آلِهَتِنَا) .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنْ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ شَهِدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴾ - بيان لمنهج المفاصلة عند الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وفي هذا البيان فوائد عظيمة:

أولاً - أشهد هود صلوات الله وسلامه عليه الله على براءته من دينهم ، وأن الله هو وليه وناصره .

ثانياً - أشهدهم مخالفة رأيهم وتوجههم ودينهم وما يعبدون .

ثالثاً - أكد اعتزازه بالله بالاستهانة بما هم عليه ، وبما هم عاكفون على تعظيمه ، وبأنهم لو اجتمعوا على شفاء غيظهم منه ، وعاجلوه ولم يمهلوه ، لم ينالوا منه إلا ما كتب الله له .

وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

قال القرطبي: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ - أي: رضيت بحكمه ، ووثقت بنصره . ﴿ مَا مِن دَابَّةٍ ﴾ أي نفس تدب على الأرض . ﴿ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ - أي يصرفها كيف يشاء ، ويمنعها مما يشاء ، أي فلا تصلون إلى ضري).

والناصية قُصاص الشعر في مقدم الرأس ، وكان العرب إذا أسروا أسيراً فأرادوا إطلاقه والمنّ عليه ، جزّوا ناصيته ، ليعتدوا بذلك عليه فخراً عند المفارقة .

قال ابن جريج: (إنما خص الناصية ، لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلة والخضوع ، فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء).

وعن الفراء: ﴿ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ قال: مالکها ، والقادر عليها). وقال القتبي: (قاهرها ، لأن من أخذت ناصيته فقد قهرته). وقال الضحاك: (يحييها ثم يميتها) - وكلها أقوال متقاربة .

وعن مجاهد: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ ، قال: الحق).

57 - 60. قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِۦ إِلَيْكُمْ وَسَخِّلْتُ رَبِّيَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ .

في هذه الآيات: إعلان هود ﷺ إقامته الحجة على قومه ، وأن تماديهم بالغي مآله إلى الهلاك ، وقد يستبدلهم الله ولا يضرونه شيئاً فالله على كل شيء حفيظ . ولما نزل العذاب نجى الله هوداً والذين آمنوا وأهلك الطغاة والعناة والمجرمين ، وأتبعهم لعنة إلى يوم الدين ، ويوم القيامة هم من المبعدين المقبوحين الهالكين .

فقوله: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ . أي يقول هود ﷺ لقومه: فإن أعرضتم عن الحق وتَنَكَّرْتُمْ لهذا الوحي فقد أقمت عليكم الحجة فيما يجب عليكم من أفراد الله تعالى بالتعظيم والعبادة .

وقوله: ﴿ وَسَخَّلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ .

أي: والله تعالى هو الذي يهلككم ولا تعجزونه ، ويستخلف قوماً بعدكم خيراً منكم يقومون بمقتضى التوحيد وإخلاص العبادة له سبحانه ، ثم إنه لا يضره هلاككم كما لا تضرونه بكفركم بل يعود وبأل ذلك عليكم .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعاً: [قال الله تعالى: يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني] (1) .

قال ابن جرير: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ ، يقول: إن ربي على جميع خلقه ذو حفظ وعلم . يقول: هو الذي يحفظني من أن تنالوني بسوء) .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

أي: وحين جاء ميقات عذاب قوم هود بإرسال الريح العقيم لتستأصلهم عن آخرهم ، نجى الله تعالى نبيه هوداً والمؤمنين معه بفضل منه وبكرمه ورحمته . قال النسفي: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ أي بفضل منا لا بعملهم ، أو بالإيمان الذي أنعمنا عليهم . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ . قال: وتكرار «نجينا» للتأكيد أو الثانية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (17/8) من حديث أبي ذر ، وأخرجه أحمد في المسند (160/5) ، وهو جزء من حديث طويل .

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [لا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَلَا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ ، وَلَا أَنَا ، إِلَّا بِرَحْمَةِ مِنَ اللَّهِ] ⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَادُ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

قال ابن كثير: ((وَلَقَدْ عَادُ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)) ، كفروا بها ، وعصوا رسل الله ، وذلك أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ فَقَدْ كَفَرَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ ، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به ، فعَادُ كفروا بهود ، فَتَزَلَّ كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل).

وقال القاسمي: ((وَاتَّبَعُوا)) أي أطاعوا في الشرك ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ لا يستدل بدليل ، ولا يقبله من غيره. يريد رؤساءهم وكبراءهم ، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

أي: أتبع قوم هود في هذه الدنيا غضباً من الله ، ولعنة عليهم من عباده المؤمنين كلما ذكروا. قال السُّدِّي: (مَا بُعِثَ نَبِيٌّ بَعْدَ عَادٍ إِلَّا لُعِنُوا عَلَى لِسَانِهِ).

ثم إنهم تنالهم يوم القيامة لعنة أخرى بعد تلك اللعنة التي سلفت لهم في الدنيا ، وينادى على رؤوس الأشهاد: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ - أي أبعدهم الله من الخير.

61 - 63. قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا

لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾

شَلَّكَ مِمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مَرْسِياً ﴿٦٢﴾ قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَنِي

مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

في هذه الآيات: يقص تعالى خبر ثمود مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام ، إذ دعاهم إلى إفرااد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، وشكره على ما أعطاهم واستغفاره فهو الغفور الرحيم. فما كان منهم إلا أن أظهروا الشك والاتهام وأعلنوا لآلهتهم الولاء ،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2817) - كتاب صفات المنافقين - ، وانظر الحديث (2818) بعده.

والتمسك بما كان يعبد الآباء. فأجابهم صالح عليه الصلاة والسلام بتمسكه بيقين النبوة ، وخوفه من معصية رب البرية ، فلا أحد يستطيع دفع عذاب الله وسخطه مهما أوتي من القوة.

فقوله: ﴿وَإِنْ تُمُودَ آخَاهُمْ صَلِحًا قَالْ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

أي: وكذلك أرسلنا صالحاً إلى ثمود أن أفردوا الله تعالى بالدعاء والتعظيم ، وأخلصوا له العبادة والألوهة ، فإنه لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. يقول: هو ابتداء خلقكم من تراب الأرض ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ثم جعلكم عمّاراً فيها ، فأسكنكم إياها أيام حياتكم ، لتعمروها وتستغلونها في مصالحكم.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في الجامع ، وأبو داود في السنن ، بسند صحيح ، عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ ، وَالْأَبْيَضُ ، وَالْأَسْوَدُ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ ، وَالْخِيثُ وَالطَّيْبُ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ] (1).

وعن مجاهد: (﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ، قال: أعمركم فيها).

وقوله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾.

أي: فاستغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ، ثم توبوا إليه فاتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم ، وأحسنوا التوجه والعمل فيما تستقبلونه ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ ، التائبين الحريصين على مرضاته ، مجيب لدعائهم ومفرج لكرههم.

وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

وفي جامع الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قال الله تعالى: يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/406) ، وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح. وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (327 ، 385) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/104). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1630).

ولا أبالي ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَصْلِحْ فَدَكُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ .

ذِكْرُ إجابة ثمود لنبيهم صالح عليه الصلاة والسلام : أَن كُنَّا نرجو أن تكون فينا سيئاً قبل أن يصدر عنك ما قلت ، وكنا نرجوك في عقلك ونفتخر برأيك قبل أن تقول في الألوهية غير ما ألفناه . قال النسفي : ﴿ مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ للسيادة والمشاورة في الأمور ، أو كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه .

وقال القاسمي : ﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أي من الأوثان ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي من التوحيد ﴿ مُرِيبٌ ﴾ أي موقع في الريبة ، وهي قلق النفس ، وانتفاء الطمأنينة .

وقوله : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : إن كنت على برهان وبيان من الله قد علمته وأيقنته ، ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ ، يقول : وآتاني منه النبوة والحكمة والإسلام ، ﴿ فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ ، يقول : فمن الذي يدفع عني عقابه إذا عاقبني إن أنا عصيته) .

وقوله : ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ . قال مجاهد : (ما تزدادون أنتم إلا خساراً) .

وقال الفراء : (أي تضليل وإبعاد من الخير) . قال القرطبي : (والتخسير لهم لا له ﷺ ، كأنه قال : غير تخسير لكم لا لي . وقيل : المعنى ما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم ، عن ابن عباس) .

قلت : والسياق يدل على حديثه ﷺ عن نفسه ، أي : لو تركت دعوتكم إلى الحق وإفراد الله سبحانه بالعبادة والتعظيم ، وعصيت ربي بمجاراة أهوائكم ، لما نفعتموني ولما زدتموني إلا خسارة بتعريضني لسخط الله .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (3789) بسند صحيح . وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2805) .

64 - 68. قوله تعالى: ﴿وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثْمِينَ ﴿١٧﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ ﴿١٨﴾ .

في هذه الآيات: إجابة صالح - ﷺ - قومه عندما سألوه آية كحجة وبرهان على صدق دعوته ونبوته ، فأعلمهم أن تلك الناقة آية لهم ، رزقها على الله ، وإنما حذرهم من قتلها أو مسها بسوء لئلا ينزل بهم عذاب من الله غير بعيد ، فما كان منهم إلا أن عقروها وتجرؤوا على التحدي فأخبرهم: أن استمتعوا في دار الدنيا بحياتكم ثلاثة أيام ، وعد من الله غير مخلوف . ولما جاء ميقات هلاكهم نجى الله صالحاً والمؤمنين برحمته وهو القوي العزيز . وأنزل بأسه بالقوم الظالمين فأخذتهم الصيحة فأصبحوا هلكى في ديارهم خامدين . كأن لم يغنوا بالأمس ألا إن ثمود عتوا عن أمر ربهم فأبعدهم ربهم من رحمته وأنزل بهم أليم عذابه .

وعن قتادة: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ، قال: بقية آجالهم). وعنه قال: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ ، قال: نجاه الله برحمة منه ، ونجاه من خزي يومئذ). وقال النسفي: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثْمِينَ﴾ منازلهم ﴿جَثْمِينَ﴾ ميتين).

وعن ابن عباس: ﴿كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ ، قال: كأن لم يعيشوا فيها).

وقال ابن جرير: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ، يقول: ألا إن ثمود كفروا بآيات ربهم فجحدوها ، ﴿أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ﴾ ، يقول: ألا أبعد الله ثمود! لنزول العذاب بهم).

وقد سبق تفصيل هذه القصة في سورة الأعراف بما يغني عن إعادته هنا والله الحمد والمنة .

69 - 73. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ يَعْجَلُ خَبِيرٌ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمَرْنَا قَائِمَهُ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْنَتِلْقَىٰ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: ذُكِرَ قصة لوط عليه السلام ، وكانت قرى لوط بنواحي الشام ، وإبراهيم عليه السلام ببلاد فلسطين ، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان يحسن قرى من ينزل عنده ، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم ، فظنهم أضيافاً. قيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ، قاله ابن عباس ، وقال الضحاك: كانوا تسعة. وقال السدي: كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه ، فأقبلوا ببشرى الولد أو بإهلاك قوم لوط ، فجاءهم إبراهيم بعجل مشوي يناسب حسن الضيافة ، فلما رآهم لا يأكلون خافهم فأخبروه مُطْمَئِنِّينَ ، أنهم ملائكة رب العالمين ، أرسلهم سبحانه لإهلاك قوم مجرمين. فضحكت سارة لسماع بشرى إهلاك القوم المفسدين ، فزادوها بشارة بإسحاق ثم يعقوب هدية رب العالمين. فتعجبت من الإنجاب وهي عجوز وبعلمها شيخ كبير ، فأعلموها أن ذلك أمر الله الحميد المجيد .

فقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾. أي: جاءت الملائكة إبراهيم خليل الله تبشره بإسحاق ، وقيل بهلاك قوم لوط. وفي التنزيل مما يشهد للأول: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُ فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ .

وقوله: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ - أي: عليكم. والتقدير: فسلموا عليه سلاماً فرد عليهم بقوله سلام ، بمعنى: عليكم السلام ، أو بمعنى: سلام منكم ، أو أمركم سلام. قال علماء البيان: (هذا أحسن ما حَيَّوه به ، لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام) - ذكره الحافظ ابن كثير.

وقوله: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾. أي: انصرف مسرعاً لإحضار الضيافة والقيام بأداب الاستقبال ، فأتاهم بعجل مشوي على الحجارة المحماة .

قال ابن عباس ﴿بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ ، يقول: نضيج). وقال مجاهد: ﴿بِعِجْلٍ﴾ ، حَسِيل البقر ، و«الحنيز» ، المشوي النضيج). وقال: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ ، نضيج ، سُحْنٌ ، أنضج بالحجارة). وقال السدي: (ذبحه ثم شواه في الرّصف) - وهي الحجارة المحماة . وفي لغة العرب: حذت الشاة أي شويتها ، وجعلت فوقها حجارة مُحَمَّاة لتنضجها فهي حنيز.

وفي الآيات من آداب الضيافة:

- 1 - ردّه السلام بسلام أحسن منه . فالرفع يدل على الثبوت والدوام - ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ .
- 2 - انسحب بسرعة للقيام بحسن الضيافة - ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾ - أي ما أبطأ مجيئه ، و«ما» نافية .
- 3 - قَرَّبَ إِلَيْهِمُ الطَّعَامَ ، فإن كرامة الضيف تعجيل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ، فلما قبضوا أيديهم نكروهم إبراهيم ، لأنهم خرجوا عن العادة وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه ، فإن العرب إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شراً . وهو قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَوَيْلَ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ .

- 4 - من حسن الضيافة مسارقة الضيف النظر للتأكد من أنه يأكل ، وذلك بين الفينة والفينة بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر .

وفي التنزيل: ﴿فَرَأَى إِلَهُ أَهْلِهِمْ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ [الذاريات: 26 - 27] .

وقد حفلت السنة الصحيحة كذلك بذكر فضائل وآداب الضيافة ، في أحاديث من جوامع كلم النبوة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي شريح الخزاعي قال: [سَمِعَ أُدْنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الضيافة ثلاثة أيام ، جائزته» ، قيل: وما جائزته؟

قال: يوم وليلة ، قال: ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليُسْكُتْ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال: [الضيافة ثلاثة أيام ، فما سوى ذلك فهو صدقة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي شُرَيْح الخزاعي ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ . وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ . وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَوَيَّ عِنْدَ صَاحِبِهِ حَتَّى يُخْرِجَهُ . الضيافة ثلاثة أيام . وما أنفق عليه بعد ثلاثة أيام ، فهو صدقة]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر ، أنه قال: قلنا: يا رسول الله ، إنك تبعنا فنزل بقوم فما يقروننا ، فما ترى؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: [إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا ، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقَّ الضيف الذي ينبغي لهم]⁽⁴⁾.

قال أبو داود: (وهذه حجة للرجل يأخذ الشيء إذا كان له حقاً).

الحديث الخامس: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن المقدم أبي كريمة قال: قال رسول الله ﷺ: [ليلةُ الضيف واجبة . فإن أصبح بفنائهم ، فهو دَيْنٌ عليه . فإن شاء اقتضى ، وإن شاء ترك]⁽⁵⁾.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ .

قال قتادة: (وكانت العرب إذا نزل بهم ضيف ، فلم يطعم من طعامهم ، ظنوا أنه لم يجرى بخير ، وأنه يحدث نفسه بِشَرٍّ). ﴿ نَكَّرَهُمْ ﴾: أي تنكَّروهم.

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6476) - كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان . وانظر (6478).
- (2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (3749) - كتاب الأطعمة - باب ما جاء في الضيافة ، وانظر صحيح سنن أبي داود (3189) - وقال الألباني: حسن صحيح الإسناد .
- (3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (3675) ، كتاب الأدب ، باب حق الضيف ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (2964) - وأصله في الصحيحين كما مضى نحوه .
- (4) حديث صحيح . أخرجه أبو داود وابن ماجة وغيرهما . انظر صحيح سنن أبي داود (3191) ، وصحيح سنن ابن ماجة (2965) .
- (5) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (3677) ، وأبو داود (3750) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (3190) من حديث المقدم أبي كريمة رضي الله عنه مرفوعاً .

وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾. قال ابن جرير: (قالت الملائكة ، لما رأت ما بإبراهيم من الخوف منهم: لا تخف منا وكن آمناً ، فإننا ملائكة ربك ، ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

إِخْبَارٌ عَنْ سَارَةِ امْرَأَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إِذْ كَانَتْ قَائِمَةً مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ تَسْمَعُ كَلَامَ الرِّسْلِ وَكَلَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. أَوْ قِيلَ: كَانَتْ قَائِمَةً تَخْدُمُ الرِّسْلَ ، وَإِبْرَاهِيمَ جَالِسٌ مَعَ الرِّسْلِ. فَضَحَكَتْ اسْتِبْشَاراً بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ لِشِدَّةِ فِسَادِهِمْ وَغِلْظِ فَجُورِهِمْ فِي الْبِلَادِ ، فَبَشَّرَتْ بِالْوَلَدِ بَعْدَ الْإِيَّاسِ: إِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ يَعْقُوبَ.

وهناك أقوال عند المفسرين غير مناسبة نحو: (ضحكت: حاضت) أو ضحكت لروح إبراهيم. وإنما يفيد من تلك الأقوال:

1 - يروي ابن جرير بسنده عن السدي قال: (بعث الله الملائكة لتهلك قوم لوط ، أقبلت تمشي في صورة رجال شباب ، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيّفوه. فلما رآهم إبراهيم أجّلهم فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فذبحه ثم شواه في الرّضف ، فهو «الحنيذ» حين شواه. وأتاهم ففقد معهم ، وقامت سارة تخدمهم. فذلك حين يقول: «وامراته قائمة وهو جالس» ، في قراءة ابن مسعود. فلما قرّبه إليهم قال: ألا تأكلون؟ قالوا: يا إبراهيم ، إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمر. قال: فإن لهذا ثمناً! قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله ، وتحمدونه على آخره. فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حقّ لهذا أن يتخذه ربه خليلاً! فلما رأى أيديهم لا تصل إليه - يقول: لا يأكلون - فزع منهم وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ، ضحكت وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء ، إنّنا نخدمهم بأنفسنا تكرمةً لهم ، وهم لا يأكلون طعامنا!).

2 - وعن قتادة أنه قال: (ضحكت تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة ، ومما أتاهم من العذاب). - واختاره ابن جرير.

3 - وعن وهب بن منبه يقول: (قالوا: لا تخف إنا نبشرك بغلام حليم مبارك! وبشّر به امرأته سارة ، فضحكت وعجبت: كيف يكون لي ولد وأنا عجوز ، وهو شيخ كبير؟ فقالوا: أتعجبين من أمر الله ، فإنه قادر على ما يشاء! فقد وهبه الله لكم ، فأبشروا به).
وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَوْنَتَقَىٰ إِلَهُي وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

هذا قولها عند التعجب من إمكانية الولادة وقد أسنت وزوجها في الشيوخوخة ، وقد حكى الله فعلها أثناء تعجبها في آية الذاريات : ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ - على عادة النساء عند تعجبهن في أقوالهن وأفعالهن .
وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : قالت الملائكة لها : لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون . فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير . ﴿ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ ، أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله ، محمودٌ ممجّدٌ في صفاته وذاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال : «قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد»⁽¹⁾ .

74 - 76 . قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ^(٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ^(٧٥) يَتْلُو آيَاتِهِمْ فَأُعْزِضُ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ^(٧٦) وَإِنَّهُمْ لَآتِيهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ مَرْدُودٌ ^(٧٦) .

في هذه الآيات : محاولة إبراهيم ﷺ بعد زوال الخوف عنه وحصول البشرى له ردّ العذاب عن قوم لوط ، بمجادلة الملائكة فيهم إنه حلیم أواه منيب ، وإجابة الملائكة له بقطع الجدال في شأنهم ، فقد نزل أمر الله فيهم ، فهم قادمون لا محالة على عذاب يستأصلهم .

وعن مجاهد : (﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ ، قال : الفرق) . وقال قتادة : (ذهب عنه الخوف) . والمقصود : لما ذهب عن إبراهيم ما أوجسه في نفسه من الخوف من ضيوفه حين رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه ، وأمن أن يكون قُصِدَ في نفسه وأهله بسوء .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6357) ، ومسلم (406) ، وأحمد (241/4) ، وأهل السنن من حديث كعب بن عجرة . وأخرجه الدارمي (1316) ، وأخرجه الطيالسي (1061) .

وقوله: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾. قال قتادة: (حين أخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط ، وأنهم ليسوا بإياه يريدون). وقال ابن إسحاق: ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ (باسحاق).

وقوله: ﴿يَجِدُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ﴾. قال مجاهد: (يخاصمنا).

وعن ابن إسحاق قال: (جادل عن قوم لوط ليرد عنهم العذاب).

وعن السدي فيها: (قال: ما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط. فجادلهم في قوم لوط ، قال: رأيتم إن كان فيها مئة من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا! فلم يزل يُحطّ حتى بلغ عشرة من المسلمين ، فقالوا: لا نعذبهم ، إن كان فيهم عشرة من المسلمين. ثم قالوا: «يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه ليس فيها إلا أهل بيت من المؤمنين» ، هو لوط وأهل بيته) - والله تعالى أعلم⁽¹⁾.

والخلاصة: إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أخذ يحاول ردّ العذاب عن قوم لوط ، ولكن أمر الله قد مضى في الانتقام منهم مقابل جرائمهم وبغيهم وعتوهم في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾. قال مجاهد: ﴿أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾: القانت الرّجاء. وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن إبراهيم لبطيء الغضب ، متذلل لربه ، خاشع له ، منقاد لأمره ، ﴿مُنِيبٌ﴾ ، رجّاع إلى طاعته). قلت: وهذه صفات مدح وثناء على إبراهيم - عليه السلام - تتلوها الأجيال المتعاقبة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا بِهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُورٍ﴾.

أي: يا إبراهيم دع عنك هذا الجدل في مصير قوم لوط ، فإنه قد نزل فيهم قضاء الله الذي لا رادّ له ، وإنهم يمضون قريباً نحو عذاب غير مدفوع.

قال النسفي: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدل وإن كانت الرحمة ديدنك ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قضاؤه وحكمه. وقال القرطبي: ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا بِهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُورٍ﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع.

77 - 79. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ

هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ

(1) هناك أخبار في ذلك نحو ما مضى نقلها المفسرون من كتب بني إسرائيل والله أعلم بها.

يَقَوْمٌ هَتُولَاءُ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ .

في هذه الآيات: وصول الملائكة - رسل الله - إلى لوط عليه الصلاة والسلام ، وهم في أجمل صورة على شكل شبان حسان ، فتوقع لوط ﷺ بقدمهم إليه الابتلاء ، وقد علم القوم بمجيئهم ، فهرعوا إليهم لأجل شهواتهم وبغيهم ، فناشدهم لوط ﷺ احترام الأضياف ، واتخاذ النساء للنكاح ، فركبوا أهواءهم مصرين على حمل لوط تسليمهم لهم .

فقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ - وذلك بعد انطلاقتهم من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإخبارهم بحلول هلاك قوم لوط هذه الليلة ، فجاؤوا لوطاً في أرضه أو منزله على صورة شبان حسان في أجمل صورة ، ابتلاء من الله .

وقوله: ﴿سَيِّئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ . قال ابن عباس: (ساء ظناً بقومه ، وضاق ذرعاً بأضيافه) .

وعن قتادة ، عن حذيفة ، أنه قال: (لما جاءت الرسل لوطاً أتوه وهو في أرض له يعمل فيها ، وقد قيل لهم ، والله أعلم ، : لا تهلكوهم حتى يشهد لوط . قال: فأتوه فقالوا: إنا مُنْصِفُوكَ الليلة . فانطلق بهم ، فلما مشى ساعة التفت ، وقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أناساً أخبث منهم! قال: فمضى معهم . ثم قال الثانية مثل ما قال ، فانطلق بهم . فلما بصرت بهم عجوز السوء امرأته ، انطلقت فأنذرتهم) .

وقوله: ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ - أي شديد البلاء . قال ابن عباس: (أي: يوم شديد) . وقال ابن إسحاق: (خرجت الرسل ، فيما يزعم أهل التوراة ، من عند إبراهيم إلى لوط بالمؤتفكة ، فلما جاءت الرسل لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وذلك من تخوف قومه عليهم أن يفضحوه في ضيفه ، فقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾) .

وقوله: ﴿وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ . قال مجاهد: (يهربون ، وهو الإسراع في المشي) . وقال الضحاك: (يسعون إليه) . وعن قتادة: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قال: يسرعون إليه) .

وقال سفيان بن عيينة: (كانهم يدفعون) .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وجاء لوطاً قومه يستحثون ، يُرْعِدُونَ مع سرعة المشي ، مما بهم من طلب الفاحشة).

وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾. قال ابن جريج: (يأتون الرجال).

أي: ومن قبل مجيئهم إلى لوط لتحسس أخبار ضيوفه ، كانوا على شأنهم القبيح من إتيان الرجال في أدبارهم.

وقوله: ﴿قَالَ يَتْلُوا هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

قال ابن كثير: (يرشداهم إلى نسائهم ، فإن النبيّ للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشداهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة). وبنحوه ذكر أهل التأويل:

1- قال مجاهد: (لم يكن بناته ، ولكن كنّ من أمته ، وكل نبيّ أبو أمته).

2- وقال ابن جريج: (أمرهم أن يتزوجوا النساء ، ولم يعرض عليهم سفاحاً).

3- وقال سعيد بن جبیر: (يعني نساءهم ، هن بناته ، وهو أبّ لهم). أو قال: (هو نبيّهم ، وقال في بعض القراءة: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أبّ لهم﴾ [الأحزاب: 6]).

4- وعن الربيع: (﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ، يعني التزويج). قال قتادة: (أمرهم أن يتزوجوا النساء. وأراد نبي الله ﷺ أن يقي أضيافه ببناته).

5- وعن السدي: (﴿وَجَاءُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ، قالوا: أولم نهك أن تضيف العالمين؟ قال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ، إن كنتم فاعلين ، أليس منكم رجل رشيد).

وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: 165 - 166].

2- وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنُوكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 70 - 72].

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

أي: خافوا الله وعظموه واقبلوا ما شرع لكم من النكاح والتزويج والاقتصار على

نسائكم ، ولا تفضحوني في سيئاتكم أمام ضيوفي ، أليس منكم رجل راشد ينهى أصحابه عن فواحشهم ورذيلتهم!

قال ابن جرير: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ ، يقول: ولا تذلونني ، بأن تركبوا مني في ضيفي ما يكرهون أن تركبوه منهم).

وعن ابن إسحاق: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ ، أي: رجل يعرف الحق وينهى عن المنكر).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَلْعَلَمُ مَا تُرِيدُ﴾.

أي: لا رغبة لنا في النساء - يا لوط - ولا نشتهيهن ، بل نرغب في الرجال ، وأنت تعلم ذلك.

قال ابن إسحاق: (أي: إن بغيتنا لغير ذلك). وعن السدي: ﴿وَإِنَّكَ لَلْعَلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ إنا نريد الرجال).

قال ابن كثير: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ﴾ ، أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ، ﴿وَإِنَّكَ لَلْعَلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ ، أي: ليس لنا عرض إلا في الذكور ، وأنت تعلم ذلك ، فأئني حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟!).

80 - 83. قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ قالوا

يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ بِهِمُ إِلَى أَهْلِكَ بِقَطْعٍ مِّنَ الْإِيلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾.

في هذه الآيات: تمنى لوط - عليه الصلاة والسلام - حين حاصره قومه يريدون اصطیاد أضيافه لفاحشتهم المنعة والنصرة والقوة ، فأخبرته الملائكة حين رأوا ما نزل به من الكرب أنهم رسل الله جاؤوا لإهلاك قومه ، وأمروه بالخروج بأهله - سوى زوجته - ببقية من الليل وأن يتبع أديبارهم ولا يلتفت أحد منهم لما قد يُسمع من هلاك القوم ، فإن عذابهم قد دنا مع صبح تلك الليلة . فلما جاء أمر العذاب ونزول الهلاك بهم جعل الله

عالي قريتهم سافلها وأرسل عليهم حجارة متتابعة معلمة تسحقهم ، وما هذا العذاب من الظالمين ببعيد .

فقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْنًا لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ - فيه أقوال متقاربة :

1 - قال السدي: (قال لوط: ﴿ لَوْنًا لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ، يقول: إلى جند شديد ، لقاتلتكم) . وقال قتادة: (العشيرة) .

2 - وعن الحسن: (﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ، قال: إلى ركن من الناس) . قال ابن جريج: (بلغنا أنه لم يبعث نبي بعد لوط إلا في ثروة من قومه ، حتى النبي ﷺ) .

3 - وعن ابن إسحاق قال: (﴿ لَوْنًا لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ، أي: عشيرة تمنعني ، أو شيعة تنصروني ، لحلت بينكم وبين هذا) .

والخلاصة: لقد تمنى لوط - عليه الصلاة والسلام - إذ حاصره قومه يريدون السوء والفاحشة بأضيافه ، أن يكون في منعة من عشيرة أو نصرة من أعوان يدفعون عنه هؤلاء القوم الفاسدين الأشرار .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: [يَغْفِرُ اللهُ لِلْوَطِ إِنْ كَانَ لِيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ]⁽¹⁾ . زاد أحمد: (إذ قال لقومه: ﴿ لَوْنًا لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾) .

وفي لفظ: [يرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد] .

ورواه أحمد والطبري بلفظ: [رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله ، عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه] .

وقوله: ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ . قال ابن جرير: (قالت الملائكة للوط ، لما قال لوط لقومه: ﴿ لَوْنًا لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ، ورأوا ما لقي من الكرب بسببهم منهم: ﴿ يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ ، أرسلنا لإهلاكهم ، وإنهم لن يصلوا إليك وإلى ضيفك بمكرهه ، فهو عليك الأمر) .

وقوله: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ . أي: فاخرج أنت وأهلك ببقية من الليل من

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (3375) ، (3372) - كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه أحمد في المسند (322/2) ، والطبري في «التفسير» (18397) ، (18398) ، وأخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (330) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6206) .

بين أظهرهم ، وأمره أن يتبع أدبارهم ، أي : يكون ساقاً لأهله . وهناك قراءتان مشهورتان : قرأ عامة قراء الكوفة والبصرة ﴿فَأَسْرَ﴾ ، في حين قرأها عامة قراء مكة والمدينة «فأسر» بغير همز ، وسرى فلان وأسرى في كلام العرب إذا سار بليل ، ﴿بِقَطْعِ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي من آخر الليل ، أو بظلمة من الليل أو بساعة من الليل . قال ابن عباس : (بطائفة من الليل) .

وقوله : ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ . قال ابن كثير : (أي : إذا سمعت ما نزل بهم ، ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ، ولكن استمروا ذاهبين) .
وقوله : ﴿إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ - فيه قراءتان :

- 1 - قراءة قراء الحجاز والكوفة وبعض قراء البصرة ﴿إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ بالنصب ، أي فأسر بأهلك إلا امرأتك ، فَأَمَرَ أَنْ يُسْرِيَ بِأَهْلِهِ سَوَىٰ زَوْجَتِهِ أَمَرَ بِتَخْلِيفِهَا مَعَ قَوْمِهَا .
- 2 - وأما القراءة الثانية «إلا امرأتك» - فهي قراءة بعض البصريين . والتقدير : لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، فنهى لوط من معه من الالتفات سوى زوجته أخرجها معه وإنها التفتت فهلكت لذلك .

وكلاهما قراءتان مشهورتان ، وإن كان النصب أشهر القراءتين ، وأنه أمر لوط ﷺ بتخليف زوجته مع قومها ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ مُّصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ . أي : إنه واقع بها العذاب الذي هو واقع بقومها .
وقوله : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ . قال ابن إسحاق : (أي : إنما ينزل بهم من صبح ليلتك هذه ، فامض لما تؤمر) .

قال القرطبي : (لما قالت الملائكة : ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت : 31] قال لوط : الآن الآن . استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه ، فقالوا : ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ . قال : ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع) .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَافِلِهَا وَأَمَظَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِّن سَجِيلٍ مُّنْضُورٍ﴾ .

أي : وحين جاء أمر العذاب ونزول الهلاك بهم جعل الله عالي قريتهم سافلها وأرسل عليهم حجارة مُسْتَخْجَرَةً قوية شديدة متتابعة .

قال مجاهد: (قوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ ، بالفارسية ، أولها حَجَر ، وآخرها طين).
وقال ابن عباس: (هو بالفارسية سنك ، وجل ، «سنك» ، هو الحجر ، و«جل» ،
هو الطين. يقول: أرسلنا عليهم حجارة من طين).

وقال البخاري: (سِجِّيل: الشديد الكبير ، سِجِّيل وسِجِّينٌ ، اللام والنون أختان).
وعن قتادة: (﴿مَنْضُورٌ﴾ ، يقول: مصفوفة). وقال الربيع بن أنس: (﴿مَنْضُورٌ﴾:
نضد بعضه على بعض) ، وقيل: يتبع بعضه بعضاً عليهم. وعن أبي بكر الهذلي بن
عبد الله قال: (أما قوله: ﴿مَنْضُورٌ﴾ ، فإنها في السماء منصودة معدة ، وهي من عُدَّة
الله التي أَعَدَّ لِلظلمة).

وقوله: ﴿مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ﴾. قال مجاهد: (معلمة). أي معلمة مختومة ، قيل:
عليها أسماء أصحابها ، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه .

والخلاصة كما ذكر المفسرون: أن جبريل عليه السلام احتمل القرية بجناحه ، ثم
صَعِدَ بها ، حتى إن أهل السماء ليسمعون نابحة كلابها ، وأصوات دجاجها ، ثم كفأها
على وجهها ، فصار أعلاها أسفلها ، ثم أتبعها الله بالحجارة ، فأهلكها الله وما حولها
من المؤتفكات .

وفي التنزيل: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ .

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ . قال مجاهد: (يُرْهَبُ بها من يشاء).

قال ابن كثير: (أي: وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه).

قلت: وقد جاء التهديد في السنة الصحيحة والوعيد الشديد على من قلد قوم لوط
في فعلتهم ، وذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند حسن عن ابن عباس مرفوعاً:
[من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به] ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في الذي
يعمل عمل قوم لوط . قال: [ارْجُمُوا الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ . ارْجُمُوهُمَا جَمِيعاً] ⁽²⁾.

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (300/1) ، وأبو داود في السنن (4462) ، وابن ماجه (2561) ، والحاكم (255/4) ، وإسناده حسن .

(2) حديث حسن . أخرجه ابن ماجه في السنن (2562) - كتاب الحدود - باب من عمل عمل قوم لوط .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط] (1).

وقد ذهب الإمام الشافعي وجماعة من أهل العلم أن اللواط يقتل سواء كان مُحصناً أو غير محصن. واختار أبو حنيفة أن يلقي من شاهق ويُتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط ، والله تعالى أعلم.

84 - 86. قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقُورُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ۞ .

في هذه الآيات: ذكّر الله قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه ، فقد دعاهم لإفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، ونبذ التلاعب بالمكيال والموازين ، وحذرهم عذاب يوم محيط. ثم أكّد الأمر لهم بالوفاء في المكيال والميزان بالقسط وإعطاء الناس حقوقهم دون بخس أو ظلم ، واجتناب سبيل المفسدين. فإن ما يبقى من الربح الحلال خير لهم من الغش والمكر والخداع إن كانوا حقاً مؤمنين ، فإنه لم يكلف هو بمراقبتهم بل الله هو الرقيب على أعمالهم.

فقوله: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۞ .

أي: وكذلك أرسلنا إلى ولد مدين أخاهم شعيباً أن أطيعوا الله وأفردوه بالتعظيم ، وتذلّلوا له بالعبادة ولا تصرفوها إلى غيره ، فهو إلهكم الواحد الأحد .

قال ابن جرير: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۞ ، يقول: مالكم من معبود سواء يستحق عليكم العبادة غيره) .

وقوله: ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۞ . أي: لا تبخسوا الناس أثناء بيعكم في

مكيالكم وميزانكم ، بل أوفوهم حقهم ولا تتبعوا سبيل الغواية والغش والخداع .

وفي آية الأعراف : ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ .

أخرج ابن حبان في صحيحه ، والطبراني في «الصغير والكبير» بسند حسن عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : [من غشنا فليس منا ، والمكر والخداع في النار]⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ . قال الحسن : (الغنى ورُخص السعر) .

وقال قتادة : (يعني خير الدنيا وزيتها) .

قال ابن كثير : ﴿ إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ ، أي : في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله) .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ . أي : محيط بإهلاكه وعذابه .

قال النسفي : (والمراد عذاب الاستئصال في الدنيا أو عذاب الآخرة) .

وقوله : ﴿ وَيَقُومُ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ .

أي : أوفوا الناس كيلهم وميزانهم بالعدل - يقول شعيب لقومه - وأدوا إليهم تمام حقوقهم بغير بخر ولا نقص ولا تلاعب ولا احتكار .

قال قتادة : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ، يقول : لا تظلموا الناس أشياءهم) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ . قال الضحاك : (يقول : ولا تسعوا في

الأرض مفسدين ، يعني : نقصان الكيل والميزان) .

وقوله تعالى : ﴿ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴾ .

أي : ما يبقى لكم من الربح الحلال بعد إتمام الكيل والميزان ووفاء الناس حقوقهم خير لكم من الغش والمكر والمال الحرام ، إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده ، وحلاله وحرامه ، وما أنا إلا نذير لكم ولم يוכל إليّ أمر مراقبتكم أثناء مكيلكم

(1) حديث حسن . أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1107) ، والطبراني في «المعجم الصغير» (ص 153) ، و«المعجم الكبير» (1/69/3) ، وأبو نعيم في «الحلية» (4/188) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1058) .

ووزنكم وبيعكم وتعاملكم ، فراقبوا الله تعالى الذي ينظر إلى معاملاتكم ويعلم سركم ونجواكم .

وعن مجاهد: ﴿بَقِيَتْ أَلَلَهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ، قال: طاعة الله خير لكم). وقال قتادة: (حظكم من ربكم خير لكم). وقال ابن عباس: ﴿بَقِيَتْ أَلَلَهُ﴾: رزق الله). وقال ابن زيد: (الهلاك في العذاب ، والبقية في الرحمة).

وفي التنزيل: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: 100].

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بإسناد حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته] (1).

87 - 90. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ٨٧ قَالَ يَنْفَوْرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكَمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٨٨ وَيَنْفَوْرُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ٨٩ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ٩٠﴾ .

في هذه الآيات: مقابلة قوم شعيب لرسولهم بالاستهزاء والتهكم: هل صلاتك تأمرك بتركنا عبادة الأوثان؟ وترك التطفيف واللعب بالمكيال والميزان؟ وهي أموالنا نفعل فيها ما نشاء! ألسنت أنت الحليم الرشيد! فأجابهم شعيب مستنكراً سوء موقفهم: ما ظنكم - أيها القوم - لو كنت على بصيرة وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه ، ولست

(1) حديث حسن . انظر تخريج مشكاة المصابيح (15) ، وتخريج «فقه السيرة» (96) - الألباني . وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (2081).

ممن يخالف سره علنه ، إن أريد إلا إصلاح أحوالكم لما يرضي ربكم ، عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يحملنكم عداوتي على الإصرار على الكفر وظلم الناس أشياءهم ، وإنما عليكم الاتعاظ بمن هلك من الأقسام قبلكم ، فسارعوا إلى استغفار ربكم والتوبة إليه إن ربي رحيم تواب ودود .

فقوله : ﴿ قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصْلُوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ . أي : أجابوه مستهزئين على سبيل التهكم . ﴿ أَصْلُوْتُكَ ﴾ - قال الأعمش : (قراءتك) . وفي لفظ : (قرآنك) . وكان شعيب - صلوات الله وسلامه عليه - فيما ذكر كثير الصلاة .

قال القرطبي : (فلما أمرهم ونهاهم عيروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة ، واستهزؤوا به) . أي : هل صلاتك وقراءتك تأمرنا بترك عبادة الأصنام والأوثان!! قال الحسن : (إي والله ، إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آبائهم) .

وإنما أمرهم بتوحيد الله عز وجل ، والتزام طاعته واجتناب نواهيه ، ومن أخص ذلك ما هم عليه من الغش والتطيف واللعب بالمكيال والميزان .

وقوله : ﴿ أَوَأَنْ نَفْعَلَ فِيْ أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا ﴾ . قال الثوري : (يعنون الزكاة) .

وقال ابن كثير : ﴿ أَوَأَنْ نَفْعَلَ فِيْ أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا ﴾ ، فترك التطفيف على قولك ، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد) .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ .

قال ابن جريج : (يستهزئون) . وقال ابن زيد : (المستهزئون ، يستهزئون : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾) .

قال ابن جرير : (فإنهم أعداء الله ، قالوا ذلك له استهزاء به ، وإنما سَفَّهُوه وجَهَلُّوه بهذا الكلام) .

وقوله : ﴿ قَالَ يَفْقَهُوْا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنٍ مِّنْ رَبِّيْ ﴾ . أي : ما ظنكم لو كنت على بصيرة وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه من إفراء الله تعالى بالعبادة ، وحفظ الأموال وترك الغش والخداع .

وقوله : ﴿ وَرَزَقْنِيْ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ - فيه قولان متكاملان :

1 - الرزق الحسن هو الرزق الحلال الطيب .

2 - الرزق الحسن كناية عن النبوة .

وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾.

قال الثوري: (أي: لا أنهاكم عن شيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم).

وقال قتادة: (يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه).

وقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

قال النسفي: (ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمرني بالمعروف ونهيني عن المنكر ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ظرف ، أي مدة استطاعتي للإصلاح ، وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً).

وقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾. أي: وما بلوغي مرامي في إصابة الحق في نصحكم ودعوتكم إلا بعون الله وتوفيقه.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾. أي: اعتمدت في أمري كله.

وقوله: ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾. قال مجاهد: (أرجع).

وقوله: ﴿رَبَّنَا قَوْمٌ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي﴾. أي: لا يحملنكم عداوتي وكراهيتي وما أنا عليه من الدين الحق على الإصرار على كفركم وما فيه سوء عاقبتكم من بخس الناس في المكيال والميزان وعدم الوفاء.

قال قتادة: ﴿لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي﴾ ، يقول: لا يحملنكم فراقتي).

وقال ابن جريج: ﴿لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي﴾ ، قال: عداوتي وبغضائي وفراقتي).

وقوله: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾. أي: من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ ، من العذاب ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الرجفة.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾. قال قتادة: (إنما كانوا حديثاً منهم قريباً ، يعني قوم نوح وعاد وثمود وصالح). أو قال: (إنما كانوا حديثي عهد قريب ، بعد نوح وثمود).

والمقصود أحد معنيين يكمل بعضهما بعضاً:

1 - وما قوم لوط - أيها القوم الذين ائتمت بهم الأرض - ببعيد هلاكهم منكم.

2 - وما دار قوم لوط منكم ببعيد.

أفلا تتعظون بمهالك هؤلاء الأقوام فَيَحْمِلَكُمْ ذلك على أخذ العبرة والحذر أن يصيبكم بشقاقي مثل الذي أصابهم .

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ .

أي: سارعوا بالمغفرة لنيل عفو الله ورضوانه ، والتزموا منهج التوبة لتستقبلوا عظيم رحمته وإحسانه . ﴿إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ﴾ - قال النسفي: (يغفر لأهل الجفاء من المؤمنين . ﴿وَدُودٌ﴾ يحب أهل الوفاء من الصالحين) . وقال ابن جرير: (يقول: هو رحيم بمن تاب وأناب إليه ، أن يعذبه بعد التوبة ، ﴿وَدُودٌ﴾ ، يقول: ذو محبة لمن أناب وتاب إليه ، يودّه ويحبه) .

قلت: والودود فعول بمعنى مفعول ، من الودّ ، فالله تعالى مودود أي: محبوب في قلوب أوليائه ، أو هو فعول بمعنى: فاعل ، أي: أن الله تعالى يودّ عباده الصالحين ، بمعنى: يرضى عنهم⁽¹⁾ .

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [البروج: 14] .

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96] .

وفي صحيح سنن الترمذي عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبّه ، فينادي في السماء ، ثم تُنزل له المحبة في الأرض ، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾⁽²⁾ .

91 - 95 . قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا

ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ

(1) انظر جامع الأصول (4/ 179) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 396) لتفصيل ذلك .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في الجامع - حديث رقم - (3384) - كتاب التفسير - سورة مريم ، آية (96) . وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2528) .

أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٩٣﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا بُعْدًا لِّلْمَلِئِينَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٤﴾ ۚ

في هذه الآيات: استمرار استهزاء قوم شعيب برسولهم واستضعافه بل وتهديده. ومفاصلة شعيب لهم محذراً لهم عذاب الله ونقمته دون جدوى منهم. ونزول أمر الله بعذابهم بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. ونجاة شعيب بإذن الله ومن معه من المؤمنين.

فقوله: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾.

إخبار عن إجابة قوم شعيب لشعيب: قالوا يا شعيب ما نعلم حقيقة كثير مما تخبرنا به ومما تقوله ، ولا نفهم صحة ما تتكلم به ، وهو إنكار منهم وعناد بلا ريب. لأنه كما قال سفيان: (وكان يقال له: «خطيب الأنبياء»)(1).

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِتْنًا ضَعِيفًا﴾. قال النسفي: (لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكرهاً).

وقوله: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾. قال ابن زيد: (قالوا: لولا أن نتقي قومك ورهطك لرجمناك). قال ابن جرير: ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ يعنون: لسبناك. وقال بعضهم: معناه: لقتلناك. والرجم أيضاً اللعن ، ومنه: الشيطان الرجيم ، أي الملعون المطرود عن الخير.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾. قال القرطبي: (أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع).

وقوله: ﴿قَالَ يَنْقُورُ ارْهَطْ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾. أي: أبلغ رهطي في قلوبكم أن يكون أعز عليكم وأجل من ربكم ومليكم سبحانه وتعالى. ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾. أي: وجعلتم أمره تعالى خلف ظهوركم ، فلا تأتمرون بأمره ، ولا تتجنبون ما نهاكم عنه ، ولا تعظمونه حق تعظيمه؟.

(1) قلت: لكن لا يصح في تلك التسمية دليل من السنة، ولا عن أحد من الصحابة.

قال ابن عباس: (وذلك أن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز عليهم من الله ، وصغر شأن الله عندهم ، عز ربنا وجلّ).

وقال قتادة: (لم تراقبوه في شيء ، إنما تراقبون قومي ، ﴿وَأَتَّخِذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ ، لا تخافونه ، يقول: عززتم قومكم ، وأظهرتم بربكم). أو قال: (واغترتم بربكم). وقال سفيان: (استخففتكم بأمره).

وفي لغة العرب: «نبد فلان حاجة فلان وراءه ظهره» ، إذا تركها ولم يلتفت إليه . والظهريّ منسوب إلى الظهر .

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: إن ربي محيط علمه بعملكم فلا يخفى عليه منه شيء ، وهو مجازيكم على جميعه عاجلاً وآجلاً).

وقوله: ﴿وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ﴾ . أي: اعملوا على تمكينكم ومنازلكم ووسعكم وطريقتكم فإني عامل على تمكني ووسعي وطريقتي . قال ابن كثير: ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ ، أي: على طريقتكم . وهذا تهديد ووعد شديد ، ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾ ، على طريقتي ومنهجي).

وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ .

أي: سوف تعلمون من يأتيه عذاب يهلكه ويذله ويهينه ، ومن هو المفسد من المصلح ، ومن هو كاذب منا فيذوق وبال أمره ، وانتظروا العاقبة وما أقول لكم فإني معكم مترقب منتظر . قال القرطبي: ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي انتظروا العذاب والسخطة ، فإني منتظر النصر والرحمة).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا بَجْتَسَشِعِيًّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمًا﴾ .

أي: ولما حان ميعاد عذاب قوم شعيب نجى الله تعالى شعبيّاً والمؤمنين الذين ناصروه وتابعوه وآمنوا معه برحمته سبحانه ، وانتقم من القوم الذين ظلموا فأخمدهم بصيحة جعلتهم في ديارهم هامدين لا حراك بهم .

قال ابن كثير: (وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحة ، وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة ، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما

ذكر في كل سياق ما يناسبه ، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: 88] ، ناسب أن يذكر هناك الرجة فَرَجَفَتْ بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وها هنا لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة ، والله الحمد والمنة كثيراً دائماً).

وقوله: ﴿كَانَ لَّزَيِّغُونَ فِيهَا﴾. أي: كأنهم لم يعيشوا في تلك المساكن والديار قبل ذلك. قال ابن عباس: ﴿كَانَ لَّزَيِّغُونَ فِيهَا﴾ ، يقول: كان لم يعيشوا فيها).

وقوله: ﴿أَلَا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾. أي: ألا أبعد الله مدين بانتقامه منهم ، كما أبعد قبلهم ثمود بحلول سخطه بهم.

قال القاسمي: (شبههم بهم ، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، وكانوا قريباً منهم في المنزل ، نظراءهم في الكفر ، وقطع الطريق ، وكانوا أعراباً مثلهم).

96 - 99. قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

وَمَلَإِيهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَفْسُ الْوَرْدِ الْمَوْرُودِ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْسُ الرِّفْدِ الْمَرْفُودِ ﴿٩٩﴾﴾.

في هذه الآيات: خَبَرُ إرسال الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه ، واستكبارهم عن اتباع الحق إلى أمر فرعون المتجبر العنيد. إنه سيقدم قومه يوم القيامة إلى نار الجحيم ، وسيتبعهم الله إضافة إلى عذاب الدنيا لعنة ، ثم تنالهم لعنة أخرى يوم القيامة ، فبئس ما هم فيه من تتابع اللعن عليهم والخزي والشقاء.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ﴾.

إِخْبَارٌ من الله تعالى عن إرساله موسى عليه الصلاة والسلام - بحججه الدامغة ، وبراهينه وأدلته القاطعة ، إلى الطاغية فرعون - ملك ديار مصر على أمة القبط - ومن معه في الحكم من الملأ الباغي. قال ابن جرير: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ﴾ ، يعني: إلى أشراف جنده وتبّاعه).

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

أي أثروا المضي خلف مسلك فرعون ومنهجه في البغي والظلم والضلال ، وإن أمر فرعون كله جهل وعناد ، وكفر وفساد ، وما فيه حكمة أو علم أو هدى ورشاد.

وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

أي يقود قومه يوم القيامة فيمضي بهم إلى النار ، وينس الورد وينس المصير.

قال قتادة: (﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يقول: يقود قومه. قال: فرعون ، يقدم قومه يوم القيامة ، يمضي بين أيديهم ، حتى يهجم بهم على النار).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يقول: أضلهم فأوردهم النار. قال: ﴿الْوَرْدُ﴾ الدُّخُول).

وعن الضحاك يقول في قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾: (كان ابن عباس يقول: ﴿الْوَرْدُ﴾ في القرآن أربعة أوراد: في «هود» قوله: ﴿وَيَنْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ، وفي «مريم»: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ، وورد في «الأنبياء»: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ ، وورد في «مريم» أيضاً: ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾. كان ابن عباس يقول: كل هذا الدخول. والله ليرد جهم كل بر وفاجر: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم: 72].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

أي: وأتبعهم الله تعالى - إضافة للعذاب الذي أهلكهم به في الدنيا بالغرق - لعنة ، ويوم القيامة تنالهم لعنة أخرى ، فبنس ما هم فيه من تتابع الطرد والشقاء.

قال مجاهد: (﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ ، اللعنة في إثر اللعنة). قال: (زيدوا بلعنته لعنة أخرى ، فتلك لعنتان).

وعن ابن عباس: (﴿يَنْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ ، قال: لعنة الدنيا والآخرة).

وعن قتادة قال: (ترادفت عليهم اللعنتان من الله ، لعنة في الدنيا ، ولعنة في الآخرة).

وفي لغة العرب: الرِّفْد: العطاء والصلة ، ورفده أعطاه وأعانه ، والمقصود: ترادف إحدى اللعنتين الأخرى ، من الله تعالى على فرعون وملئه ، في الدنيا والآخرة.

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿١٠١﴾
وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿١٠٢﴾ [القصص: 41 - 42].

2 - وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46].

100 - 102. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ ﴿١٠١﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٠٢﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٣﴾.

في هذه الآيات: إعلام من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: أنَّ هذه القصص التي ذكرت لك في هذه السورة هي من أخبار القرى التي دكَّها الله بكفر أهلها وطغيانهم وفسادهم وتعظيمهم الشهوات فوق أمر الله ودينه الحق. فمن هذه القرى ما هو قائم بنيانه بآئد أهله هالك، ومنها ما هو قائم بنيانه عامر، ومنها ما هو خراب دارس لا أثر له ولمن كان يسكنه. وما ظلمهم الله، ولا أغنت عنهم آلهتهم حين نزل بهم بأس الله، إن بأس الله بالمجرمين شديد.

فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

قال ابن عباس: (يعني بـ «القائم» قرى عامرة، و«الحصيد» قرى خاملة).

وقال قتادة: ﴿قَائِمٌ﴾ على عروشها، و﴿وَحَصِيدٌ﴾ مستأصلة. أو قال: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾، يرى مكانه، ﴿وَحَصِيدٌ﴾، لا يرى له أثر. وقال ابن زيد: (منها قائم يرى أثره، وحصيد باد لا يرى أثره). وقال الأخفش: (حصيد أي محصود).

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

قال ابن زيد: (اعتذر - يعني ربنا جل ثناؤه - إلى خلقه فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾، مما ذكرنا لك من عذاب من عذبنا من الأمم، ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾).

قال النسفي: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا) - أي من الكفر والمعاصي .

وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ .

أي: لم تنفعهم أصنامهم ولا أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله شيئاً حين نزل بهم أمر الله بالإهلاك والدمار ، فلا هم نفعوهم برّد بأس الله عنهم ، ولا هم أنقذوهم مما حلّ بهم من التدمير والتشريد والهلاك .

وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾ . قال مجاهد وقتادة: (غير تخسير) .

يقال في لغة العرب: تبّ فلان إذا خسر ، وتبيّه غيره إذا أوقعه في الخسران .

قال القرطبي: (والتَّبَابُ الهلاك والخسران ، وفيه إضممار ، أي ما زادتهم عبادة الأصنام ، فحذف المضاف ، أي كانت عبادتهم إياهم قد خسرتهم ثواب الآخرة) .

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ .

إِخْبَارٌ من الله سبحانه عما جاءت به العادة في إهلاك من بغى من الأمم وظلم ، وكفر بالله وأجرم ، إن عقوبته سبحانه لأهل الشرك والبغي موجعة غليظة مؤلمة .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾] (1) .

103 - 108 . قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ

يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ نَارَهُمْ فَيَسْأَلُهُمْ فِيهَا رَافِعٌ ﴿١٠٦﴾ وَسَهِيْقٌ ﴿١٠٧﴾ خَلْدِيْنٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3109) ، وابن ماجه (4018) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (5175) ، وكذلك البيهقي (94/6) .

يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعُدُوا فَنَفَى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ ﴿١٠٨﴾ .

في هذه الآيات: إِنْخَبَارُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ فِي تِلْكَ الْقِصَصِ عِبْرَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّهُ يَوْمٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْخَلْقُ جَمِيعُهُمْ ، وَتَشْهَدُهُ الْمَلَائِكَةُ ، وَقَدْ سَبَقَ تَوْقِيتُهُ فِي قَضَاءِ اللَّهِ ، إِنَّهُ يَوْمٌ لَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيُقَسَّمُ النَّاسُ إِلَى فَرِيقَيْنِ: أَهْلُ الشَّقَاوَةِ وَأَهْلُ السَّعَادَةِ. فَأَهْلُ الشَّقَاوَةِ يُصَارُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ. وَأَهْلُ السَّعَادَةِ يُصَارُونَ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ، تَكْرِمَةً اللَّهُ لَهُمْ فِي عَطَاءٍ غَيْرِ مَقْطُوعٍ ، وَنَعِيمٍ لَا حُدُودَ لَهُ .

فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ . أَي: إِنْ فِي إِهْلَاكِ تِلْكَ الْقُرَى الظَّالِمِ أَهْلِهَا لِعِبْرَةٍ وَعِظَةٍ لِمَنْ أَرَادَ النِّجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ ، فَيَنْزَجِرُ عَنِ الْخَوْضِ فِي ظُلُمَاتِ الْمَعَاصِي وَالْكَفْرِ وَالْآثَامِ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

قال ابن زيد: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ، إِنْ سَوْفَ نَفِي لَهُمْ بِمَا وَعَدْنَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا وَفِينَا لِلْأَنْبِيَاءِ: أَنَا نَنْصُرُهُمْ).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51].

2 - وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21].

3 - وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٌ﴾ [إبراهيم: 13 - 14].

أخرج الخطيب في «التاريخ» والديلمي ، وأبو نعيم في «الحلية» بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً: [النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ ، وَالْفَرَجُ مَعَ الْكَرْبِ ، وَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا] ⁽¹⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287) ، والديلمي (4/ 111 - 112) ، ولبعضه شواهد في المسند (1/ 307) ، ومستدرک الحاكم (3/ 541 - 542) ، و«الحلية» (1/ 314).

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

قال مجاهد: (يوم القيامة). وقال الضحاك: (ذلك يوم القيامة ، يجتمع فيه الخلق كلهم ، ويشهده أهل السماء وأهل الأرض). وفي التنزيل: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47].

قال ابن كثير: (أي: يومٌ عظيم تحضره الملائكة كلهم ، ويجتمع فيه الرسل جميعهم ، وتُحشَرُ فيه الخلائق بأسرهم ، من الإنس والجن والطيور والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: 40]).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ﴾.

أي: ما تؤخر عنكم مجيء يوم القيامة إلا ليقضي الله ما قضاه من الخلق ، وما كتب لهم من الأعمار والأرزاق والأعمال والآجال ، فإذا تكامل قضاء الله وقدره في إيجاد ما كتب لإيجاده ، وسبقت به كلمته وحق قوله ، أقام الله الساعة.

والحق أن من مات فقد قامت قيامته ، وبدأ معايشة ما قدّم من العمل. فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رجال من الأعراب جُفَاءً يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة ، فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: إن يعيش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم. يعني موتهم] (1).

وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

أي: لا يستطيع يوم مجيء ذلك اليوم أحد أن ينطق إلا بإذن الله تعالى.
وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108].

2- وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: 38].

وفي صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك - في الشفاعة - عن رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في كتاب الرقاق. انظر مختصر صحيح البخاري (2025). والمقصود بقوله: «لا يدركه الهرم» أي لا يبلغ الشيخوخة ونهاية العمر. أي فسر ساعتهم بموتهم وانقراض عصرهم ، لأن من مات فقد قامت قيامته.

قال: [ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ] (1).

وقوله: «لا تكلم» الأصل لا تتكلم ، وحذفت إحدى التاءين للتخفيف .

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ . أي: من أهل الموقف بين يدي الله يوم القيامة شقي معذب وسعيد منعم ، والشقي من كتبت عليه الشقاوة ، والسعيد من كتبت عليه السعادة ، والكتابة في ذلك عند الله كتابة علم لا كتابة قهر أو جبر .

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَنُذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فِرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:

[7].

2 - وقال تعالى: ﴿وَنَقَسَ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7 - 10].

3 - وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ﴿٦﴾ فَنَسِيهُ لِّلْیَسْرِ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَفْتَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴿٩﴾ فَنَسِيهُ لِّلْعَصْرِ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: 5 - 10].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا لا إلا أن تُخبرنا يا رسول الله ، فقال للذي في يده اليمينى: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم ، فلا يُرادُ فيهم ولا يُنقصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذن نعمل إن كان هذا أمراً قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سدّدوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ، ثم قال بيده فقبضها ، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد ، ثم قال باليمينى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ، ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير] (2).

(1) هو بعض حديث أخرجه البخاري (7510) ، ومسلم (193) ح (326) ، وابن ماجه (4312) ، وأحمد (116/3) ، (244/3) ، (247/3 - 248) - في الشفاعة .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (167/2) ، والنسائي في «الكبرى» (11473) ، والترمذي (2141) .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي ، وكان من أصحاب النبي ﷺ ، مرفوعاً: [إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر]⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج البيهقي في «الأسماء والصفات» ، والآجري في «الشرعة» بسند صحيح عن هشام بن حكيم: [أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أنبتدى الأعمال أم قد قضي القضاء؟ فقال: إن الله تعالى أخذ ذرية آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه ، فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ليسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ليسرون لعمل أهل النار]⁽²⁾.

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال: [لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت رسول الله ﷺ ، فقلت: يا نبي الله ، فعلى ما نعمل؟ على أي شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: بل على شيء قد فرغ منه ، وجرت به الأقلام ، يا عمر! ولكن كلٌّ ميسر لما خلق له]⁽³⁾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: صوت شديد ، وصوت ضعيف).

وقال أبو العالية: (الزفير في الحلق ، والشهيق في الصدر).

قال ابن كثير: (أي تنفسهم زفيراً ، وأخذهم النفس شهيقاً ، لما هم فيه من العذاب ، عياذاً بالله من ذلك).

وقوله: ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ - أي ما كثر فيها أبداً.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (186/4) من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي ، وأخرجه الحاكم (31/1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (48).

(2) حديث صحيح. أخرجه الآجري (ص 172) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 326). وانظر معناه في صحيح مسلم (8/48 - 49) ، ومختصر صحيح مسلم (1844) - كتاب القدر. باب: في القدر والشقاوة والسعادة من حديث علي (رضي الله عنه). وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (804/2) لتفصيل روايات ابن أبي عاصم في السنة ، وكذلك البيهقي والآجري وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (3111) من حديث عمر. انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2486) - كتاب التفسير - سورة هود (105).

قال ابن زيد: (ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء).

قال ابن جرير: (وذلك أن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض، بمعنى: أنه دائم أبداً. وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما سمر ابنا سمر، وما لأت العفر بأذناها، يعنون بذلك كله: ﴿أبداً﴾. فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم فقال: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، والمعنى في ذلك: خالدين فيها أبداً).

قلت: وهذا التفسير يخالف القرآن الكريم الذي أثبت عدم بقاء هذه السماوات والأرض يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: 48]، فهناك سماوات تعقب هذه السماوات وكذلك أرض تعقب هذه الأرض، وتلك التي أرادها الله بالخلود والبقاء والدوام.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ - له أكثر من تأويل عند المفسرين:

الأول: قيل معناه إلا مدة مكثهم في النار. وذلك في أهل التوحيد. فعن قتادة قال: (الله أعلم بثنيته. وذكر لنا أن ناساً يصيبهم سَفْعٌ من النار بذنوب أصابوها، ثم يدخلهم الجنة). وقال الضحاك بن مزاحم: (يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة، فهم الذين استثنى لهم).

وعن خالد بن معدان: (في قوله: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ وقوله: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أنهما في أهل التوحيد).

الثاني: قيل الاستثناء لأهل التوحيد إلا أن يتجاوز الله عنهم فلا يدخلهم النار، فوجهوا الاستثناء إلى أنه من قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ﴾، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ لا من الخلود. قال أبو مجلز: (هو جزاؤه، فإن شاء الله تجاوز عن عذابه).

الثالث: قيل الاستثناء مدة مقامهم في الموقف. ذكره بعض المفسرين.

الرابع: قيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف. فلم يغيبوا عن الجنة أو النار إلا بقدر إقامتهم في البرزخ والمحشر. ذكره الطبري.

الخامس: قيل: خالدين في الجنة أو النار دوام السماء والأرض إلا مدة تعميرهم في الدنيا. ذكره أهل اللغة.

السادس: قيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، وهذا متشابه قد وصل بمحكم: «عطاء غير مجذوذ».

السابع: قيل: هو لإعلامهم بأنهم مع خلودهم ففي مشيئة الله ، ولا ينافي ذلك عزمته وجزمه لهم بالخلود ، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ . ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ . ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ ﴾ - ذكره ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية .

وقوله: ﴿ إِنْ رُبِّكَ فَعَلَّ لِمَا يُرِيدُ ﴾ . أي: يفعل ما يشاء ولا مانع لمضي أمره .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ﴾ .

بشارة عظيمة لدوام الخلود والسعادة لأهل الجنة في عطاء من الله لهم غير مقطوع عنهم . وأما الاستثناء - قلت: الخلاصة فيه - إن منهج التفسير عند الراسخين يتضمن ردّ المتشابه إلى المحكم ، فقوله تعالى: ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ﴾ محكم ، مثل قوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرْزُقْنَا مَا لَمْ يَمْنُنْ فَنَادٍ ﴾ ، ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا ﴾ ، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ مما يدل أن الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ استثناء للوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة .

وعن الضحاك ومجاهد: ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ﴾ ، قال: غير مقطوع .

وقال ابن زيد: (غير منزوع منهم) . وقال أبو العالية: ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ﴾: أما هذه فقد أمضاها ، يقول: عطاء غير منقطع .

وقد جاءت السنة الصحيحة بمفهوم استمرار النعيم في الجنة ودوام الخلود في روضاتها وملذاتها في عطاء غير مقطوع:

الحديث الأول: أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يُوتَى بالموت كهيئة كبشٍ أَمْلَحَ فينادي منادٍ: يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي: يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فَيَذْبَحُ ، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت⁽¹⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4730) - كتاب التفسير - ، وانظر مختصر صحيح البخاري حديث (2032) للفظ الآخر ، كتاب الرقاق ، وأخرجه مسلم (2849) ، والترمذي (3156) .

وفي لفظ من حديث ابن عمر: [ثم يذبح ، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مناد: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحَوْا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا]⁽¹⁾.

الحديث الثالث: روى مسلم وغيره من أهل السنن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ]⁽²⁾.

109 - 111. قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقُوهُمْ نَصِيبُهُمْ عِزٌّ مَقْصُورٌ ﴾ [١٠٩] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [١١١] وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُوقِنُ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [١١١].

في هذه الآيات: إثبات الله لنيته فساد منهاج قومه في عبادتهم وأنهم سيجدون تمام جزائهم عند ربهم. وتسلية له بذكر اختلاف الناس على رسولهم موسى ﷺ من قبل ، وأنه لولا قضاء الله ببلوغ الكتاب أجله لعاجل المكذبين بالإهلاك. وإنما الفصل التام يوم يجمع الله الأولين والآخرين ، فيقضي بينهم بحكمه وهو العليم الخبير. فقله: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾.

خطاب من الله تعالى لنيته محمد ﷺ: فلا تك - يا محمد - في شك مما يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الأوثان والآلهة والأصنام والطواغيت أنه ضلال وجهل وباطل وشرك بالله عز وجل. وهم بذلك إنما يقتفون منهاج آبائهم في فساد عبادتهم ولا يصدر عن أمر الله عز وجل ووحيه ونور شرعه.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2837) - كتاب الجنة ونعيمها - باب في دوام نعيم أهل الجنة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2836) - كتاب الجنة ونعيمها - الباب السابق. والحديث رواه أحمد (369/2) ، والدارمي (332/2) ، وبنحوه الترمذي وصححه ابن حبان.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوقُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾. أي: سيجدون عند الله تمام جزائهم دون نقصان.

قال ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمُوقُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾، قال: ما وعدوا فيه من خير أو شر. وقال ابن زيد: (نصيبهم من العذاب).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾. قال ابن كثير: (ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه، فَمِنْ مُؤْمِنٍ بِهِ وَمِنْ كَافِرٍ بِهِ، فَلَكَ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ أَسُوءٌ، فلا يغيظتك تكذيبهم لك، ولا يهيدتك ذلك).

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ - فيه تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ولولا كلمة سبقت، يا محمد، من ربك بأنه لا يعجل على خلقه بالعذاب، ولكن يتأني حتى يبلغ الكتاب أجله - لقضي بين المكذب منهم به والمصدق، بإهلاك الله المكذب به منهم، وإنجائه المصدق به).

التأويل الثاني: لولا قضاء الله ألا يعذب أحداً إلا بعد قيام حجته البالغة عليه - حجة الوحي والرسول، لأنزل بالمكذبين بأسه.

كما في التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿١٢٩﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: 129 - 130].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾. أي: وإن الكافرين لفِي شك من الوحي والنبوة شديد.

قال النسفي: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن أو من العذاب ﴿مُرِيبٍ﴾.

وقال ابن جرير: (وإن المكذبين به منهم، لفِي شك من حقيقته أنه من عند الله، ﴿مُرِيبٍ﴾، يقول: يريبهم، فلا يدرون أحق هو أم باطل؟ ولكنهم فيه ممترون).

ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من جميع الأمم ليقفوا بين يديه لنيل الثواب ونكال العقاب حسب أعمالهم.

وهو قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَلَّامًا لِّيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَحْمَلُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قال ابن كثير: (أي: عليم بأعمالهم جميعها ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، وفي هذه الآية قراءات كثيرة ، ويرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 32].

112 - 115. قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكِرِينَ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥).

في هذه الآيات: أمر الله نبيه والمؤمنين بالاستقامة على المنهج الحق وعدم الركون إلى الطغاة ، فإن ذلك سبيل إلى النار والهلاك . وأمره كذلك له بإقامة الصلاة في الغداة والعشي وفي ساعات من الليل ، فإن الحسنات يذهبن السيئات . وأمره كذلك له بالصبر على أذى المشركين حتى يأتي نصر الله ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

فقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾. أي: على الدين الحق. قال سفيان: (استقم على القرآن). وقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾. قال القرطبي: (أي استقم أنت وهم ، يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته). قال ابن عباس: (ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه). ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له لقد أسرع إليك الشيب! فقال: [شيبني هود وأخواتها]⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك! قال: [قل آمنت بالله ثم استقم]⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3528) ، والحاكم (344/2) ، والطبراني. قال الهيثمي

(37/7): رجاله رجال الصحيح. وقد مضى برواياته المختلفة مفصلاً في أول هذه السورة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (38) ، والطيالسي (1231) ، والترمذي (2410) ، وابن ماجه

(3972) ، وأخرجه أحمد في المسند (413/3) ، وابن حبان في صحيحه (942) من حديث

سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ قال ابن زيد: (الطغيان: خلاف الله ، وركوب معصيته). والطغيان مجاوزة الحد. وقيل: أي لا تتجبروا على أحد. قال ابن جرير: (يقول: ولا تعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه).

وقوله: ﴿إِنَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. أي: إنه تعالى بصير بأعمال عباده ، لا يغفل عن شيء ، ولا يغيب عن علمه شيء ، قد أحاط بكل شيء علماً ، فلا يخفى عليه شيء .
وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

آية عظيمة من آيات المفاضلة ، ونهي الله تعالى عباده المؤمنين الميل إلى أعدائه المشركين أو مDAHتهم أو الرضى بأعمالهم .
ومن أقوال أهل التأويل في هذه الآية:

1 - قال ابن عباس: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَنَّمَا النَّارُ﴾ ، يعني: الركون إلى الشرك).

2 - وقال أبو العالية: (يقول: لا ترضوا أعمالهم). وقال: (يقول: الركون: الرضى).

3 - وعن ابن جريج: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ، قال: قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا).

4 - وعن قتادة قال: (يقول: لا تلحقوا بالشرك ، وهو الذي خرجتم منه).

5 - وقال ابن زيد: (الركون: الإدهان. وقرأ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9]. قال: تركن إليهم ، ولا تنكر عليهم الذي قالوا ، وقد قالوا العظيم من كفرهم بالله وكتابه ورسله).

وقوله: ﴿فَمَنَّمَا النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

أي: فمنكم النار بركونكم لأهل البغي والشرك والظلم ، ثم ليس بكم من دون الله من ناصر ينصركم أو ولي يدفع عنكم عذابه ، بل يتخلى الله تعالى عن نصركم ويسلط عليكم عدوكم ولا منجى لكم .

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾.

خَطَابٌ من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: أن أقم الصلاة في الغداة والعشي وفي ساعات

من الليل ، فإن الإنابة إلى طاعة الله والعمل بما يرضيه ، ودعائه سبحانه يذهب آثام معصية الله ويكفر الذنوب ، وهذه الوصايا : من اجتناب الركون إلى الطغاة أو مدهانتهم ، ثم تعظيم الله وحده بالصلاة والدعاء والاستغفار من أعظم الذكري للذاكرين .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن مسعود : [أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً ، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ . فقال الرجل : يا رسول الله : ألي هذه ؟ قال : لجميع أمتي كلهم ⁽¹⁾ .

ورواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير - واللفظ له - عن ابن مسعود قال : [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني وجدت امرأة في بُسْتَانٍ ، ففعلت بها كُلَّ شيء ، غير أنني لم أجامعها ، قُبَلْتُهَا وَلَزِمْتُهَا ، ولم أفعل غير ذلك ، فافعل بي ما شئت . فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد سترَ الله عليه ، لو سترَ على نفسه ! فأتبعه رسول الله بصره ثم قال : رُدُّوه عليَّ . فردَّوه عليه ، فقرأ عليه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ . فقال معاذ - وفي رواية عُمر - : يا رسول الله ، أله وحده ، أم للناس كافة ؟ فقال : بل للناس كافة ⁽²⁾ .

وله تفصيل آخر عند الترمذي في السنن في حديثين صحيحين :

الحديث الأول : أخرج الترمذي وابن ماجه عن عبد الله قال : [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني عالجت امرأة في أقصى المدينة ، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هذا ، فاقض فيَّ ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله ، لو سترت على نفسك ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً ، فانطلق الرجل ، فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه ، فتلا عليه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ . فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس كافة ⁽³⁾ .

الحديث الثاني : أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي اليسر قال : [أتتني امرأة تبتاع

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (526) (4687) ، ومسلم (2763) ، والترمذي (3114) ، والنسائي في «التفسير» (267) ، وأخرجه ابن ماجه (4254) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2763) ح (42) ، وأخرجه أبو داود (4468) ، والترمذي (3112) ، والطيالسي (285) ، وأحمد (4250) ، (4290) ، (3653) ، والطبري (18688) (18682) ، وابن حبان (1728) ، (1730) .

(3) حسن صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (3326) - كتاب التفسير - سورة هود ، آية (105) .

تمراً ، فقلت: إن في البيت تمراً أطيب منه . فدخلت معي في البيت ، فأهويت إليها فقبلتها . فأتيت أبا بكر ، فذكرت ذلك له ، فقال: استر على نفسك وتب ، ولا تخبر أحداً ، فلم أصبر . فأتيت عمر فذكرت ذلك له . فقال: استر على نفسك وتب ، ولا تخبر أحداً ، فلم أصبر . فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له . فقال له: أَخْلَفْتُ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا ، حَتَّى تَمْنَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ إِلَّا تِلْكَ السَّاعَةَ ، حَتَّى ظَنُّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . قَالَ : وَأَطْرَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَوِيلًا حَتَّى أَوْحِيَ إِلَيْهِ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرِينَ ﴾ . قَالَ أَبُو الْيَسْرِ : فَأَتَيْتُهُ ، فَقَرَأَهَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلْهَذَا خَاصَّةٌ أَمْ لِلنَّاسِ عَامَةٌ ؟ قَالَ : بَلِ لِلنَّاسِ عَامَةٌ ⁽¹⁾ .

وفي تفسير ﴿ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾ - أقوال عند أهل التأويل :

1 - قال ابن عباس : (يعني الصبح والمغرب) . وكذلك قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

2 - قال الضحاك وقتادة : (هي الصبح والعصر) .

3 - وقال مجاهد : (هي الصبح في أول النهار ، والظهر والعصر من آخره) .

ورجَّح ابن جرير أن الطرفين الصبح والمغرب . قلت : أما الطرف الأول فالصبح وهو باتفاق المفسرين ، وتبقى الفسحة في فهم مدلول الطرف الآخر ، ولا شك أنه يدل مع مفهوم قوله تعالى : ﴿ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ ﴾ على الصلوات الخمس في كل يوم . وفي تفسير : ﴿ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ ﴾ - أقوال عند أهل التأويل :

1 - قال مجاهد : ﴿ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ ﴾ ، قال : الساعات من الليل ، صلاة العتمة .

2 - وعن الحسن : ﴿ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ ﴾ ، قال : العشاء . وقال ابن عباس : (يقول : صلاة العتمة) .

3 - وعن سفيان ، عن عبيد الله بن أبي يزيد قال : (كان ابن عباس يعجبه التأخير بالعشاء ، ويقرأ : ﴿ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ ﴾) .

4 - عن الحسن قال : (هما زلفتان من الليل ، صلاة المغرب ، وصلاة العشاء) .

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (3331) - أبواب تفسير القرآن - سورة هود ، آية (105) - وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2489) - وأبو اليسر هو كعب بن عمرو .

5- وقال الأخفش : (يعني صلاة الليل ولم يعين).

قال القرطبي : ﴿وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي في زُلفٍ من الليل ، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ، ومنه سميت المزدلفة ، لأنها منزل بعد عَرَفة بقرب مكة .

قلت : وقوله : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ بعد الأمر بإقام الصلاة أثناء الليل وأطراف النهار فيه دلالة كبيرة على عظيم أثر الصلاة في غسل خطايا المؤمن ، ويبدأ ذلك من الوضوء والتطهر له ، وقد جاءت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : [أرأيتم لو أن نهرأ بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ، ما تقول ذلك يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ؟ قالوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شيئاً ، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يَمْحُو الله به الخطايا]⁽¹⁾.

وفي لفظ : [وكذلك الصلوات الخمس ، يمحو الله بهنَّ الذنوبَ والخطايا].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : [الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفّرات ما بينهنَّ إذا اجْتَنَبْتَ الكبائر]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أحمد وأهل السنن عن علي بن أبي طالب ، قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حَدَّثَنِي عنه أحدٌ استحلقتُهُ ، فإذا حلفَ لي صدَّقته ، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : [ما من مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْباً فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (528) - كتاب مواقيت الصلاة - باب: الصلوات الخمس كفارة. وأخرجه مسلم (667) ، والترمذي (2868) ، وأحمد (379/2) ، والنسائي (230/1 - 231) ، والدارمي (268/1) ، وأخرجه ابن حبان (1726).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (233) ، والترمذي في الجامع (214) ، وأحمد في المسند (229/2) ، وابن ماجه في السنن (1086).

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد رقم (2) ، (47) ، (48) ، (56) ، وابن ماجه (1395) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (415) ، وأخرجه الحميدي (4) ، وابن أبي شيبة (387/2).

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند حسن عن أبي أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ كان يقول: [إِنْ كُلَّ صَلَاةٍ تَحُطُّ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ خَطِيئَةٍ] (1).

الحديث الخامس: أخرج النسائي وابن خزيمة بسند صحيح عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ مَشَى إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ، فَصَلَّاهَا مَعَ الْإِمَامِ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ] (2).

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قال القاسمي: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ أي على مشاق ما أمرت به من التبليغ ، أو على ما يقولون ، أو على الصلاة كقوله: ﴿وَأَصْطِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132] ، ولا مانع من شموله للكل. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي في أعمالهم فيوفيهم أجورهم من غير بخس).

قلت: وهذا الأمر بالصبر على محن الدعوة وآلام الطريق وإن كان موجهاً للنبي ﷺ وإمام الأمة في الصبر والجهاد ، فإنه خطاب لكل القادة المسلمين والعلماء العاملين من بعده إلى يوم الدين.

أخرج الخطيب في «التاريخ» ، والديلمى في «الفردوس» بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً: [النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ ، وَالْفَرَجُ مَعَ الْكَرْبِ ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا] (3).

116 - 117. قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (413/5) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (126/4) ، رقم (3879) ، وانظر صحيح الجامع - حديث رقم - (2140).

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي (112/2) ، وانظر صحيح مسلم (226) نحوه ، وصحيح البخاري (159) ، (164) ، وسنن أبي داود (106) ، وسنن الدارمي (697) ، وسنن ابن ماجه (285) ، ورواه ابن خزيمة من حديث عثمان رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (287/10) ، والديلمى (111/4 - 112) ، وله شاهد في مسند أحمد (307/1) من طريق ابن عباس ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2382).

وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ .

في هذه الآيات : إثباتُ الله تعالى نجاة القلة المؤمنة التي كانت تنهى عن الفساد في الأرض فيما مضى ، ليكون ذلك توجيهاً لهذه الأمة لحمل الأمانة بصدق ، فإن الظالمين في متاع قليل ينتهي باستئصالهم . وتقريرٌ من الله تعالى أنه لا يهلك قرية إلا وأهلها ظالمون .

فقوله : ﴿ فَكَذَلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَبْهَتُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ .

أي : فهلاً كان من تلك الأمم الماضية التي دكَّها الله بسبب عتوها وبغيها وكفرها فئة مؤمنة تنهى عن الفساد في الأرض وتأمر بالمعروف ! إنه كان قلة من أهل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن الشرور والمنكرات في كل قوم مما مضى ، وأولئك هم الذين نجاهم الله برحمته من العذاب الذي نزل بقومهم .

قال ابن زيد : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ : فإذا هم الذين نجوا حين نزل عذاب الله . وقال ابن جريج : (يستقلهم الله من كل قوم) .

وهذا توجيه قوي لهذه الأمة أن تحمل الأمانة بقوة ولا تتهاون مع انتشار المنكر والآثام ، لئلا ينزل بها ما نزل بالأمم قبلها حين فشت فيها الموبقات والمعاصي والفواحش .

قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : 104] .

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث كثيرة في آفاق هذا المعنى ، منها :

الحديث الأول : أخرج أبو داود بسند صحيح عن قيس ، قال : [قال أبو بكر ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : 105] ، وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» . وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، ثم

يقدرُونَ على أَنْ يُغَيِّرُوا ، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا إِلَّا يَوْشَكَ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بَعْقَابٌ»⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ خَطِيباً ، فَكَانَ فِيهِمَا قَالَ: أَلَا ، لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا ، هَيْبَةُ النَّاسِ ، أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ ، إِذَا عَلِمَهُ]. قال: فبكى أبو سعيد ، وقال: قد والله! رأينا أشياء ، فهبنا⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن رجل من أصحاب النبي: أن النبي ﷺ قال: [لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يَغْدِرُوا ، أَوْ يُغْدِرُوا ، مِنْ أَنْفُسِهِمْ]⁽³⁾. وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ وَكَانُوا بِمُحَرِّمَاتٍ﴾.

قال مجاهد: (في ملكهم وتجبرهم ، وتركوا الحق). وقال ابن عباس: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ﴾ ، قال: ما أنظروا فيه). وقال قتادة: (من دنياهم).

قال ابن جرير: (إن الله أخبر تعالى ذكره: أن الذين ظلموا أنفسهم من كل أمة سلفت ، فكفروا بالله ، اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا ، فاستكبروا وكفروا بالله ، واتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا ، فاستكبروا عن أمر الله ، وتجبروا وصدوا عن سبيله. ﴿وَكَانُوا بِمُحَرِّمَاتٍ﴾ ، يقول: وكانوا مكتسبي الكفر بالله).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: 101] ، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]).

118 - 123. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ

مُخْتَلِفِينَ ۚ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4338) - كتاب الملاحم - باب الأمر والنهي. انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3644). ورواه ابن ماجة في السنن (4005) - كتاب الفتن -.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4007) - كتاب الفتن - من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3237).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (4347) - كتاب الملاحم - باب الأمر والنهي. انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3653).

الْحِنَةَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيْنِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِيَتْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ .

في هذه الآيات: خِطَابُ الله تعالى لِنبيه ﷺ أنه - جَلَّتْ عظمته - قادر على جعل الناس كلهم على دين واحد ، وإنما اقتضت حكمته تقسيم الهداية والإيمان ، واختلاف القلوب والأحوال ، فأهل الحق هم الناجون من الاختلاف ، وأهل الباطل واقعون في الشقاق ومتاهات الأهواء ، وقد قضى - جَلَّتْ حكمته - امتلاء جهنم من كفر الجن والإنس . إن هذه القصص التي قصها الله عليك - يا محمد - من أخبار الرسل مع أقوامهم إنما هي لتثبيت فؤادك لمواجهة شرك قومك وعنادهم ، وليصبر معك المؤمنون على جهاد أعدائهم ، والعاقبة للمتقين . فالله وحده له غيب السماوات والأرض ومرجع جميع الأمور ، فأفرده - يا محمد - بالعبادة والتوكل ، فما ربك بغافل عما تعملون .

فقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ ﴾ . قال قتادة : (يقول : لجعلهم مسلمين كلهم) .

والمقصود : أن الله تبارك وتعالى قادر أن يجعل الناس كلهم على دين واحد ، من كفر أو إيمان . كما في التنزيل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : 99] .

وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾ . قال مجاهد : (أهل الباطل ، ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾ ، قال : أهل الحق) .

أو قال : (﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ ﴾ ، قال : أهل الحق وأهل الباطل ، ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ ﴾ ، قال : أهل الحق) .

وقال الحسن : (الناس كلهم مختلفون على أديان شتى ، إلا من رحم ربك ، فمن رحم غير مختلف) . وقال عكرمة : (لا يزالون مختلفين في الهوى) .

وقال قتادة : (﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ ، فأهل رحمة الله أهل جماعة ، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم . وأهل معصيته أهل فرقة ، وإن اجتمعت دورهم

وأبدانهم). وعن الأعمش: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ، قال: من جعله على الإسلام).

وقيل: لا يزالون مختلفين في الرزق ، سخر بعضهم لبعض .

قلت: والمعنى الأول هو الذي يدل عليه السياق ، فالحديث ليس عن الرزق ، وإنما عن الهداية والإيمان ، فالمتمسكون بهدي الرسل هم القوم المرحومون الناجون من الاختلاف ، والبقية في شقاق وضلال ، واتباع للأهواء .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، وأبو داود والترمذي وابن ماجه في السنن ، والحاكم من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن اليهود افرقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افرقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كُلُّها في النار إلا فرقة واحدة. قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي] (1).

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ - أي لهذا الاختبار ، في صدق الإيمان أو اتباع سبيل الكفار ، فريق إلى الجنة وفريق إلى النار .

ومن أقوال أهل التأويل في ذلك:

1 - قال الحسن: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ، قال: للاختلاف). قال: (خلق هؤلاء لجنته ، وخلق هؤلاء لناره ، وخلق هؤلاء لرحمته ، وخلق هؤلاء لعذابه). وقال: (أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم).

2 - قال ابن عباس: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ، قال: خلقهم فريقين ، فريقاً يرحم فلا يختلف ، وفريقاً لا يرحم يختلف ، وذلك قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِئٌ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: 105].

وبنحوه قال الإمام مالك: (خلقهم ليكونوا فريقين: فريق في الجنة ، وفريق في السعير).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (332/2) ، وأبو داود (4596) ، والترمذي (2640) ، وابن ماجه (3991) ، وأبو يعلى (5910) ، (5978) ، (6117) ، وابن حبان (6247) ، (6731) ، والحاكم (128/1) من حديث أبي هريرة ، وله شواهد كثيرة ، وورد من طرق يشد بعضها بعضاً كما قال الحافظ ابن كثير في التفسير (3842).

3- قال مجاهد: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ، قال: للرحمة خلقهم). وقال عكرمة: (أهل الحق ومن اتبعه ، لرحمته).

قلت: والراجع القول الأول والثاني ، فإن الله تبارك وتعالى امتحن عباده بالإيمان واتباع المرسلين ، فأمن من آمن ، وكفر من كفر ، فجعلهم في الآخرة فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير .

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

أي كان ما قضى سبحانه من الامتحان وصدور الجن والإنس فريقين ، فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير ، وتم قضاء الله وقدره بملء جهنم من الجنة والناس أجمعين ، جزاء وفاقاً للذين كانوا لا يرجون حساباً ، وأسعد المؤمنين بروضات في جنات النعيم ، لقاء صبرهم على الإيمان والدين .

وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13].

2- وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ حتى يضع فيها ربُّ العزة قدمه (وفي رواية: حتى يضع رب العزة عليها قدمه) فينزوي بعضها إلى بعض ، وتقول: قَطُّ قَطُّ ، وعزَّتْك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل ، حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر ، فيسكنهم في فضول الجنة⁽¹⁾ .

قال البغوي في شرح السنة (15/ 257): (والقدم والرجلان ، كما جاء في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما ، من صفات الله سبحانه وتعالى ، المنزه عن التكيف والتشبيه ، وكذلك كل ما جاء من هذا القبيل في الكتاب أو السنة ، كاليد ، والإصبع ، والعين ، والمجيء ، والإتيان ، فالإيمان بها فرض ، والامتناع عن الخوض فيها

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (6661) - كتاب الأيمان والنذور - وكذلك (4848) - كتاب التفسير - ورواه مسلم في الصحيح (2848) من حديث أنس .

واجب ، فالمهتدي من سلك فيها سبيل التسليم ، والخائض فيها زائغ ، والمنكر معطل ، والمكثف مشبه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سبحانه ربنا رب العزة عما يصفون).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: [اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضَعْفَةُ الناس وَسَقَطُهُم ، وقالت النار: أُوثِرْتُ بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله - عز وجل - للجنة: أنت رحمتي ، أرحم بك من أشياء . وقال للنار: أنت عذابي ، أنتقم بك ممن أشياء ، ولكل واحدة منكما ملؤها⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أي رب! وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، ثم حفها بالمكاهة ، ثم قال: يا جبريل! اذهب فانظر إليها ، فذهب ، ثم نظر إليها ، ثم جاء فقال: أي رب! وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ، فلما خلق الله النار ، قال: يا جبريل! اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، ثم جاء فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فحفها بالشهوات ، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها ، فذهب ، فنظر إليها فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها⁽²⁾ .

وقوله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ .

أي: إن هذه الأخبار عن أمم الأقدمين وتكذيبهم رسلهم وكيف دارت الأيام وكانت العاقبة والغلبة للمؤمنين هي مما يقص الله عليك - يا محمد - ليثبت به فؤادك عما تلقى من تكذيب قومك وعنادهم .

وقوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ . قال ابن عباس: (في هذه السورة) . وقال قتادة: (في هذه الدنيا) .

وقول ابن عباس أصح وأنسب للسياق . قال ابن كثير: (والصحيح: في هذه السورة

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4849) ، (4850) ، ومسلم (2846) ح (35) ، (36) ، وأخرجه الترمذي (2561) ، وأخرجه أحمد (2/ 314 ، 279 ، 507) من طرق ، عن أبي هريرة .
- (2) حديث صحيح . رواه أحمد بسند صحيح من حديث أبي هريرة . انظر تخريج مشكاة المصابيح (5696) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (5086) .

المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجّاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبا صدق ، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون) - وهو قوله : ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ - تهديد من الله للكفار على لسان نبيهم - أي قل لهم يا محمد : امضوا على منهجكم وعلى طريقتكم لتروا مصيركم نهاية المطاف ، فإنما ماضون على سنتنا ومنهاج ربنا وكلنا أمل أن النصر والعاقبة لنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ . أي : ترقبوا ما وعدكم الله فإنما مترقبون ما وعدنا .

قال ابن جريج : (يقول : انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزين لكم ، ﴿ إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾) .

وفي التنزيل : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام : 135] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

إخبار من الله تعالى أنه علام الغيوب ، والمستقبل بين يديه ، ومآل كل أمر إليه ، فله الخلق والأمر والكبرياء وحده لا شريك له ، وقد أمر عباده بعبادته وحده والتوكل عليه والإنابة إليه ، ثم إنه تعالى لا يخفى عليه مكر المجرمين وأحوال الطغاة والمسرفين .

وعن ابن جريج : (﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ قال : فيقضي بينهم بحكمه بالعدل) .

قال ابن جرير : (﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ ، يقول : فاعبد ربك ، يا محمد ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ، يقول : وفوض أمرك إليه ، وثق به وبكفايته ، فإنه كافي من توكل عليه) .

ثم روى عن عبد الله بن رباح ، عن كعب ، قال : (خاتمة «التوراة» خاتمة هود) .

تم تفسير سورة هود
بعبون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه

دروس ونتائج وأحكام

- 1- هود وأخواتها ، شَيَّبَتْ نَبِيَّنَا ﷺ من كثرة أهوالها .
- 2- توحيد الله واستغفاره والإنابة إليه جزاؤه المتاع الحسن في الدنيا والسعادة الدائمة في الآخرة .
- 3- العبرة بأحسن العمل لا بكثرة العمل ، فجزاء الأول قد يكون أضعاف أضعاف جزاء الثاني .
- 4- السماع بمحمد ودينه بلاغ يلزم سامعه باتباعه ، فما بعد الحق إلا الضلال .
- 5- الضعفاء غالباً هم أتباع الحق ، والكبراء هم مخالفوه .
- 6- عناد قوم نوح دفعهم لاستعجال نقمة الله عليهم ، فأغرقهم الله بطوفان عمّ أرجاء الأرض ، وتَتَابَعُ هلاك الأمم بعد ذلك ونجاة الرسل ومن معهم من المؤمنين .
- 7- نساء الأنبياء معصومات من الزنى ، وابن نوح ابنه من صلبه .
- 8- الكفار يعبدون الصم البكم العمي ، ويذرون عبادة الرب السميع البصير .
- 9- إن أخذ الله تعالى للأمم الكافرة لأخذ أليم شديد .
- 10- المؤمنون هم السعداء الخالدون في الجنة أبداً .
- 11- العمل لا يكون مستقيماً إلا إذا كان مطابقاً لأمر الله .
- 12- الصلوات كفارات ، والحسنات يذهبن السيئات .
- 13- ما كان الخلاف رحمة ، بل المرحومون الذين لا يختلفون .
- 14- الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، والخلاف شر .
- 15- نصر الله لرسوله وحزبه وعد وبشرى في الدارين .

12

سُورَةُ يُوسُفَ

آياتها
١١١آياتها
١٢

وهي سورة مكية كلها. وقال ابن عباس وقتادة: (إلا أربع آيات منها). وعدد آياتها (111).

أخرج الحاكم في مستدركه ، وابن حبان في صحيحه ، عن سعد بن أبي وقاص قال: [أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا! فأنزل الله: ﴿الرَّيْلَكَ آيَنْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ - إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ - الآية. فتلاها رسول الله ﷺ زماناً ، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا! فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ الآية⁽¹⁾.

موضوع السورة

قصة يوسف عليه الصلاة والسلام

- منهاج الشباب المؤمنين ، في التقوى والعفاف والصبر والتمكين -.

- منهاج السورة -

1 - انتصار الله لكتابه الكريم ، فهو القرآن العربي المبين ، فيه أحسن القصص لقوم يعقلون.

(1) صحيح الإسناد. أخرجه الحاكم (2/345) ، والواحدي (544) من حديث سعد ، وابن راهويه كما في «المطالب العالية» ، وأخرجه ابن جرير ، وابن حبان ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوداعي - سورة يوسف ، آية (3).

- 2 - ابتداء قصة يوسف - عليه السلام - برؤيا رآها فقَصَّها على أبيه ، فيها بشائر العز والتمكين .
- 3 - اصطفاء الله تعالى يوسف ﷺ وتعليمه تأويل الأحاديث ، واختصاصه كآبائه بالنبوة .
- 4 - في خبر يوسف مع إخوته الكثير من الفوائد والعبر . ذَكَرُ تخطيط الإخوة لقتل يوسف أو إلقائه في البئر يلتقطه بعض المسافرين .
- 5 - توطئة إخوة يوسف لأبيهم لإرسال يوسف معهم ، وخشية الوالد على ولده الضياع أو الذئب ، وتأکید الإخوة الحرص عليه ، وَوَحْيُ الله ليوسف وهم لا يشعرون .
- 6 - رجوع إخوة يوسف إلى أبيهم عشاء يبكون ، وقصة القميص والدم الكذب عليه .
- 7 - ورود بعض السيارة إلى البئر ، وأخذهم يوسف ، وشراء الوزير له بمصر ، وتمكين الله يوسف وإعطاؤه العلم والحكمة والله يجزي المحسنين .
- 8 - محاولة امرأة العزيز إغراء يوسف ، واستحياء يوسف من الله العلي العظيم .
- 9 - مسابقة امرأة العزيز يوسف إلى الباب وتمزيقها قميصه ، وشهادة الشاهد من أهلها ، وبراءة يوسف من كيدهن إن كيدهن عظيم .
- 10 - إشاعة الخبر بمصر ، وتكلم بعض نساء الأمراء والكبراء يَعْبَنَ على امرأة الوزير ما صدر منها ، ومقابلة ذلك من امرأة العزيز بمائدة المكر ، وتهديدها يوسف بالسجن ، ولجوء يوسف - عليه السلام - إلى الله .
- 11 - دخول يوسف السجن ، وقصة يوسف مع ساقى الملك وخبازه .
- 12 - دعوة يوسف صاحبيه لإفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، وتأويله الرؤيا لهما بما أوتيته من توفيق الله الحكيم .
- 13 - وصية يوسف - عليه السلام - الذي ظن خروجه ذكر مظلمته عند سيده ، فأنساه الشيطان فكان المكث في السجن بضع سنين .
- 14 - خبر الرؤيا التي رآها الملك ، وتذكر الذي نجا يوسف لتأويلها بعد مضي السنين ، وتأويل يوسف لرؤيا الملك بتوفيق الله العزيز الحكيم .
- 15 - طلب الملك إحضار يوسف عند سماعه روائع التأويل ، واعتذار يوسف حتى تظهر براءته ، واعتراف امرأة العزيز ، وإقرار النسوة ليوسف بالبراءة .

- 16 - استخلاص الملك يوسف لنفسه وتمكين الله يوسف في الأرض .
- 17 - مجيء إخوة يوسف أيام القحط ، ومعرفة يوسف بهم ، وطلبه إحضار أخيهم ، وإعادته بضاعتهم في رحالهم .
- 18 - رجوع إخوة يوسف إلى أبيهم ومفاوضته لإرسال أخيهم معهم .
- 19 - نصيحة يعقوب لبنيه الدخول من عدة أبواب خشية العين عليهم .
- 20 - دخول إخوة يوسف على يوسف - عليه السلام - واختلاء يوسف بأخيه ، واحتياله عليهم بقصة صواع الملك لإبقاء أخيه عنده .
- 21 - تصريح إخوة يوسف تجاه الموقف باللمز بيوسف وتشبيه بنيامين به في صنيعه ، وطعن يوسف بمقولتهم في نفسه ، واستعطافهم له لإطلاق أخيهم ، وإصرار يوسف على مقام العدل .
- 22 - فَقَدْ إخوة يوسف الأمل بإطلاق أخيهم ، ورجوعهم عدا كبيرهم الذي أَصَرَ على وصول سماح والده قبل رجوعه .
- 23 - تلقى يعقوب الخبر بالتشكيك برواية أولاده ، وتذكر يوسف مع شدة الحزن ، وعودة إخوة يوسف إلى مصر راجين عفوه حتى كشفت لهم الحقيقة ، وإعطاء يوسف القميص لإخوته ليلقوه على وجه أبيهم ليرتد بصيراً بإذن الله .
- 24 - شعور يعقوب عليه السلام بريح يوسف ، وتصديق الشعور بإلقاء البشير القميص على وجهه وعودته بصيراً ، واعتراف الأبناء بخطئهم واستغفار الوالد لهم ، ثم قدوم الموكب إلى يوسف وتفاصيل الاستقبال المهيّب .
- 25 - التجاء يوسف إلى ربه بالدعاء ، بعد تمام نعمته تعالى عليه .
- 26 - إخبار الله تعالى نبيه ﷺ بهذا القصص من الغيب تثبيتاً له عما يلقيه من أذى قومه والعاقبة للمتقين .
- 27 - أكثر الناس لا يفيدون من آيات الله ، بل يعيشون مستكبرين مشركين .
- 28 - التأكيد على لزوم منهاج النبوة في الدعوة إلى الله ، والصبر على الأذى .
- 29 - التأكيد على النصر والتمكين للرسول وأتباعهم في نهاية طريق الجهاد والصبر .
- 30 - الاعتبار بقصص القرآن ، ففيها عبرة لأولي الألباب ، وتأكيد على ثواب المنهج ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 3. قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ .

في هذه الآيات: انتصار من الله تعالى لهذا الكتاب المبين ، فهو القرآن العربي المعجز لقوم يعقلون ، وفيه يقص الله سبحانه خير القصص على نبيه ﷺ - ما كان يعلمها - لتكون له عوناً في سبيل دعوته ، ومجاهدة قومه ، ولبصير والعاقبة للصابرين .

فقوله: ﴿الر﴾ - هو شأن ما سبقه من الحروف المقطعة التي وردت أوائل بعض السور . وخلاصة القول فيها: هذا القرآن من جنس هذه الأحرف العربية التي تتكلمون وتتخاطبون بها ، ولكنه يتألق بإعجازه ليعلو كل كلام للبشر ، ولا يرقى كلام أحد له بحال من الأحوال .

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ .

تأكيد لما سبق ذكره من آفاق معاني تلك الحروف ، وانتصار لهذا الكتاب العزيز المبين ، فهو القرآن الواضح الجلي الذي يُفصح عن معاني الخلق ومغزى الحياة وخبر الماضي والحاضر والمستقبل ، في إعجاز في البيان لا يُسبق ولا يُجاري .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

قال ابن كثير: (وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمّل من كلّ الوجوه) .

وقوله تعالى: ﴿ تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِيَةَ ﴾ .

أي: نحن يا محمد نوحى إليك فنخبرك عن سيرة الأمم الماضية ، وأخبار الأقوام السالفة مع رسلها ، وإن كنت من قبل أن نوحى إليك لمن الغافلين عن ذلك لا تعلمه ولا تدري عن تفصيل ذلك .

فعن قتادة: ﴿ تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ، من الكتب الماضية ، وأمور الله السالفة في الأمم).

أخرج ابن جرير والحاكم بسند صحيح من حديث سعد قال: [أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو قصصت علينا ، فنزل: ﴿ تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِيَةَ ﴾] (1).

قلت: وهذه الآية الكريمة هي في مدح القرآن الكريم ، وأنه أصل العلوم والمعارف والأخبار الصحيحة ، وفي ذلك إشارة إلى أن أي فكر لا يتأصل من هذا القرآن فهو فكر قاصر ، وأي فلسفة كذلك مرفوضة ، وأي قصص وحديث لا يوافق هذا القرآن فهو مرفوض ، فمن القرآن الحكم وإليه المرجع مع صحيح السنة .

وفي تأصيل هذا المنهج أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله: [أن عمر أتى النبي ﷺ فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ، لقد جئتمكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي] (2).

قلت: والتهوك كالتهور ، وهو الوقوع في الأمر بغير رؤية ، والمتهوك الذي يقع في كل أمر .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني والبيهقي بسند حسن لشواهد ، عن الشعبي ، عن عبد الله بن ثابت قال: [جاء عمر إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، إني مررت بأخ

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبري (12/ 150) ، والواحدي (544) ، والحاكم (2/ 345) وصححه ووافقه الذهبي ، وله شواهد أخرى عند ابن جرير ، وقد مضى بتمامه .

(2) حديث حسن . انظر مسند أحمد (3/ 470 - 471) ، وتخریج أحاديث «زاد المعاد» (3/ 232) .

لي يهودي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً. قال: فسرّي عن النبي ﷺ وقال: والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي شريح الخزاعي قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أبشروا أبشروا ، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً]⁽²⁾.

4 - 6. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ قَالَ يَبْنِي لَكَ نَقْصَصُ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسِمِّي نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾.

في هذه الآيات: ابتداء قصة يوسف عليه الصلاة والسلام برؤيا رآها فقصها على أبيه ، فيها بشارت العز له والقوة والتمكين ، فحذره والده يعقوب - عليه السلام - من قصّها على إخوته لئلا يكيدوا له ، فإن الشيطان للإنسان عدو مبين. إنّ ربك يصطفيك - يا يوسف - ويعلمك تأويل الأحاديث والأحلام ويختصك بالنبوة ، كما اختص آباءك إبراهيم وإسحاق ، إنه تعالى عليم حكيم.

(1) حسن لطرقه. أخرجه أحمد (4/ 266) ، والطبراني كما في «المجمع» (1/ 173 - 174) ح (806). وورد من حديث جابر أخرجه البزار (124) ، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (5202) ، و(5203) ، وأخرجه أبو يعلى وغيرهم من طرق يقوي بعضها بعضاً.

(2) حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة (12/ 165) ، وأخرجه ابن نصر في «قيام الليل» (74) من طريق أخرى عن أبي خالد الأحمر به. قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (2/ 338): قلت: (وهذا سند صحيح على شرط مسلم) ، وأورده فيها برقم (713).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

قال ابن عباس: (كانت الرؤيا فيهم وحيًا). وقال قتادة: (رأى أبويه وإخوته سجوداً له). وقال: (الكواكب إخوته ، والشمس والقمر أبواه). وعن ابن جريج: (قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ، إخوته ، ﴿وَالشَّمْسُ﴾ ، أمه ، ﴿وَالْقَمَرُ﴾ ، أبوه).

فَالْآيَةُ إخبار من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عن قصة أخيه يوسف عليه الصلاة والسلام مع أبيه يعقوب صلوات الله وسلامه عليه ، وما كان من رؤيته لأحد عشر كوكباً - والذين كانوا إخوته - أحد عشر رجلاً - والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه ، فوقع تفسير هذه الرؤيا بعد أربعين سنة ، وقيل: ثمانين سنة ، والله تعالى أعلم. وذلك حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره ، وإخوته بين يديه ، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100].

وقد جاءت السنة الصحيحة بوفير الثناء وأعطره على يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، في ذرية عطرة اختصها الله تعالى بالنبوة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: [الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابنُ يوسف بنُ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قال: أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ. قالوا: ليسَ عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم. قال: فخيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا⁽²⁾].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3390) ، (4688) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وأخرجه أحمد (96/2) ، والبغوي في «شرح السنة» (3547).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3353) ، (3374) ، (3383) ، وأخرجه مسلم (2378) ، (2526) ، وأخرجه أحمد (257/2) ، وابن حبان (92) ، (636) ، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَى لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قال ابن جرير: (قال يعقوب لابنه يوسف: ﴿يَبْنَى لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ﴾ ، هذه ، ﴿عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ ، فيحسدوك ، ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ ، يقول: فيبعوك الغوائل ، ويناصبوك العداوة ، ويطيعوا فيك الشيطان ، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ، يقول: إن الشيطان لآدم وبنيه عدوٌّ ، قد أبان لهم عداوته وأظهرها. يقول: فاحذر الشيطان أن يغيري إخوانك بك بالحسد منهم لك ، إن أنت قصصت عليهم رؤياك).

وعن السدي قال: (نزل يعقوب الشام ، فكان همُّه يوسف وأخاه ، فحسده إخوانه لما رأوا حبَّ أبيه له. ورأى يوسف في المنام كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأهم له ساجدين ، فحدث أباه بها ، فقال: ﴿يَبْنَى لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ ، الآية).

قلت: وهذا النظر العميق من يعقوب عليه الصلاة والسلام يدل على سعة علم النبوة بطبيعة الناس ، وكيف ينبغي التعامل معهم ، وقد جاء ذلك في السنة الصحيحة ، في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [العين حق ، ولو كان شيء سابقَ القدر سبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: يروي الطبراني بسند صحيح لشواهد ، عن معاذ بن جبل ، عن النبي ﷺ قال: [استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال: قال النبي ﷺ: [الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فمن رأى شيئاً يكرهه فَلْيَنْفُثْ عَنْ شِمَالِهِ ثَلَاثًا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2118) ، كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقي .

(2) صحيح لطفه. أخرجه الطبراني في المعاجم الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير ، وأبو نعيم في «الحلية» (215/5) ، (96/6) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2/291) ، وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (1/182) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1453).

وليتَعَوِّذَ من الشيطان ، فإنها لا تضرُّه ، وإنَّ الشيطان لا يترأى بي⁽¹⁾ .

الحديث الرابع : أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث أبي رزين العقيلي ، عن النبي ﷺ قال : [الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّرْ ، فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ]⁽²⁾ .

قال ابن كثير - وقد أورد هذا الحديث - : (ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر) .

الحديث الخامس : أخرج الترمذي بسند حسن عن الزبير بن العوام ، أن النبي ﷺ قال : [دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسدُ ، والبغضاء هي الحالقة ، وفي رواية : (الحسد والبغضاء ، والبُغْضَةُ هي الحالقة) ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بما يُنَبِّئُ ذاكُم لكم ! أفشوا السلام بينكم]⁽³⁾ .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

قال عكرمة : ﴿ يَجْنِيكَ رَبُّكَ ﴾ ، (يصطفيك) . وقال قتادة : (فاجتبه واصطفاه وعلمه من عبْر الأحاديث ، وهو ﴿ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾) .

وقال مجاهد : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ، قال : عبارة الرؤيا .

قلت : لقد أكرم الله يوسف وبعض إخوته الأنبياء بفهم تأويل الأحلام ، من خلال وحي الله تعالى لهم ، وأما سائر البشر من العلماء والصالحين فلا يصح ادعاء أحد منهم بتفسير الأحلام بدقة حدوثها في المستقبل ، اللهم إلا الرؤيا الصالحة ودلالاتها على المبشرات ، والرؤيا المزعجة التي قد تكون من حديث النفس أو الشيطان ، وعلى هذا المنهاج جاءت السنة الصحيحة :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6995) - كتاب التعبير - وأخرجه مسلم ، (2261) ح (1) ، (3) ، (4) ، وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (899) ، وأخرجه أحمد في المسند (303/5) ، والدارمي (124/2) .

(2) حديث حسن . أخرجه أحمد (10/4) ، وأبو داود (5020) ، والترمذي (2278) ، وابن ماجه (3914) من حديث أبي رزين العقيلي ، وإسناده حسن .

(3) حديث حسن . انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2038) ، أبواب صفة القيامة .

قال: [الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة]⁽¹⁾.

ورواه من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: [رؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: [الرؤيا الصادقة من الله ، والحلم من الشيطان]⁽²⁾.

وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [إذا رأى أحدكم رؤيا يُحِبُّهَا فإنما هي من الله ، فليحمد الله عليها وليُحَدِّثْ بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان ، فليستعِذْ من شرِّها ولا يذكُرْها لأحد فإنها لا تضرُّه]⁽³⁾.

وله شاهد أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (1/ 287 - 288) بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا رأى أحدكم الرؤيا تعجبه فليذكرها ، وليفسرها ، وإذا رأى أحدكم الرؤيا تسوءه ، فلا يذكرها ، ولا يفسرها].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، وابن أبي شيبة في «المصنف» بإسناد صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: [الرؤيا ثلاث ، فالبشرى من الله ، وحديث النفس ، وتخويف من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم رؤيا تعجبه فليقصها إن شاء ، وإذا رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد وليقم يصلي]⁽⁴⁾.

الحديث الرابع: أخرج البخاري في «التاريخ» ، وابن ماجه في السنن ، بإسناد صحيح ، عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: [الرؤيا ثلاث ، منها أهوئيل من الشيطان ، ليُخْزِنَ بها ابن آدم ، ومنها ما يهْمُ به الرجل في يقظته فيراه في منامه ، ومنها جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة]⁽⁵⁾.

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6983) - كتاب التعبير - باب رؤيا الصالحين ، وانظر الحديث (6987) - باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6984) - كتاب التعبير - باب الرؤيا من الله.
- (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6985) - كتاب التعبير - باب الرؤيا من الله.
- (4) رجاله ثقات. أخرجه أحمد في المسند (2/ 395) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 193/ 2) ، وعنه ابن ماجه (2/ 449). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1341).
- (5) أخرجه البخاري في «التاريخ» (4/ 348/ 2) ، وابن ماجه (2/ 450) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 193/ 2) ، وابن حبان (1794) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1870) ، وقال الألباني: «وهذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات».

وقوله: ﴿وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: يتم الله تعالى نعمته على يوسف ﷺ بالرسالة والاجتباء وتعليمه تأويل الأحاديث والأحلام ، كما أتمها على أهل دين يعقوب وملته من ذريته الصالحين ، ومن قبلهم باتخاذ إبراهيم خليلاً من بين المرسلين ، وإسحاق نبياً من المخلصين ، أخلصه واختصه مع أبيه إبراهيم وابنه يعقوب بذكرى الدار الآخرة ، إن ربك عليم بمواضع الفضل وأهل الاختصاص والاجتباء من عباده ، حكيم في تقديره وتدبيره وتشريعه .

وفي التنزيل: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 45 - 47].

7 - 10. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِّينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَانَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَمْلِكُ لَكُمْ وَجَهٌ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالى أن في قصة يوسف مع إخوته الكثير من الفوائد والدروس والعبر ، فهم قابلوا حب أبيهم لأخيهم بالمكر والبغي والحسد ، فكان التخطيط منهم لقتله أو إلقائه في بئر على الطريق يلتقطه بعض المسافرين ، ثم اختاروا بعد التشاور آخر الأمرين .

فقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِّينَ﴾.

قال ابن إسحاق: (إنما قصَّ الله تبارك وتعالى على محمد خبر يوسف ، وبغْيَ إخوته عليه ، وحسدَهم إياه ، حين ذكر رؤياه ، لما رأى رسول الله ﷺ من بغْيِ قومه وحسده حين أكرمه الله عز وجل بنبوته ، ليأتسي به).

والخلاصة: إن في قصة يوسف مع إخوته من العبر والدروس الكثيرة ، لمن أراد الفائدة في البحث واستنباط المواعظ من تلك الأخبار .

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

قال السدي: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا ﴾ : يعنون بنيامين . قالوا: وكانوا عشرة). وقال ابن زيد: ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ : العصابة ، الجماعة). وقيل: العصابة العشرة فصاعداً . والمراد: أنهم حلفوا فيما يظنون أن يوسف وبنيامين - وكان شقيقه لأمه - أحب إلى أبيهما منهم وهم جماعة .

وقوله: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . قال ابن جرير: (يعنون: إن أبانا يعقوب لفى خطأ من فعله ، في إثارة يوسف وأخاه من أمه علينا بالمحبة). وقال النسفي: (غلط في تدبير أمر الدنيا ، ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا).

وقوله تعالى: ﴿ أَفَنُلْوَ يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ .

قال ابن كثير: (يقولون: هذا الذي يُرَاجِمُكم في مَحَبَّةِ أبيكم لكم أَعْدَمُوهُ من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه ، أو تُلْقُوهُ في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وَتَخْتَلُوا أنتم بأبيكم ، وتكونوا من بعد إعدامه قوماً صالحين . فأضمرُوا التوبة قبل الذنب).

قال السدي: ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ : تتوبون مما صنعتم ، أو: من صنعكم).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

قيل: قائل ذلك «روبيل» ، ابن خالة يوسف . قال ابن إسحاق: (ذكر لي ، والله أعلم ، أن الذي قال ذلك منهم «روبيل» ، الأكبر من بني يعقوب ، وكان أقصدهم فيه رأياً).

وقال قتادة: (ذكر لنا أنه روبيل ، كان أكبر القوم ، وهو ابن خالة يوسف ، فنهاهم

عن قتله). وقال مجاهد: (هو شمعون) ، والله تعالى أعلم . ﴿وَعَبَّتِ الْجَبَّ﴾ ما غاب وأظلم من قعر البئر .

والخلاصة : إنه أشار عليهم بعدم قتل يوسف وإنما بإلقائه في قعر البئر ، حيث يغيب خبره ، يأخذه بعض المارة من المسافرين ، إن كنتم عازمين على التخلص منه . ولا شك أن الله تعالى هو الذي صرفهم عن قتله لما أراد له من النبوة والتمكين في بلاد مصر والحكم بها ، وإحقاق بعض الآيات العظيمة في حياة خلقه . ولا شك أنهم أقدموا على عمل عظيم الإثم ، من قطيعة الرحم وعقوق الوالد ، والقسوة على الطفل الصغير ووالده العجوز إذ حرموه من محبوه الصغير واستغلوا ضعفه وشيخوخته ، وحرموا الطفل من حنان والده وقربه ورعايته .

وقد جاءت السنة الصحيحة بالترهيب من مثل هذه الأفعال ، في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ قال: [ما من ذنب أجدر أن يُعَجَّلَ لصاحبه العقوبة مع ما يدخر له ، من البغي وقطيعة الرحم]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن ماجه والترمذي بإسناد حسن ، عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: [ثلاثة دعوات مستجابات لهن ، لا شك فيهن: دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالدين على ولدهما]⁽²⁾ . وفي لفظ: [ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن أبي أيوب ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَلَدِهَا ، فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]⁽³⁾ .

قال الترمذي: (والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم: كرهوا التفريق بين السَّبي بين الوالدة وولدها ، وبين الولد والوالد ، وبين الإخوة) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (29) ، باب عقوبة عقوق الوالدين . انظر: «صحيح الأدب المفرد» (23) ، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه .

(2) حديث حسن . أخرجه أبو داود (1536) ، والترمذي (2/256) ، وابن ماجه (3862) ، وغيرهم .

(3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (1629) - باب في التفريق بين السَّبي - انظر صحيح الترمذي (1271) ، ورواه أحمد والحاكم وغيرهم . انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (6288) .

11 - 15. قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ﴾ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٥).

في هذه الآيات: توطئة إخوة يوسف لأبيهم بعدما بيتوا أمرهم في إرساله معهم ينتزه ويلعب وهم له حافظون. وتردّد والدهم أول الأمر خشية الذئب أو الضياع على ولده الغلام وهم عنه غافلون. وتأكيد الإخوة لأبيهم حرصهم على أخيهم وهم عصبة وإلّا فهم خاسرون. ووحيّ الله تعالى إلى يوسف حين علم مكرهم أنه تعالى سيجعل له من ذلك الضيق مخرجاً ، ونَصراً وفرجاً ، وهم لا يشعرون.

فقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ﴾.

هو قول إخوة يوسف لأبيهم يعقوب - عليه السلام - بعد تواطئهم على أخذ يوسف وطرحه في البئر ، فوطؤوا لوالدهم بهذه المقدمة ليصلوا إلى مرادهم وقد امتلأت قلوبهم بالحسد على يوسف لحب أبيه له. قال ابن جرير: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ﴾ ، نَحُوطُهُ وَنُكْلُوهُ.

وقوله: ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ ﴾. قال ابن عباس: (يسعى وينشط). أو قال: (يلهو وينشط ويسعى). وقال الضحاك: (يتلهى ويلعب).

وقراءة أبي عمرو: ﴿ نَزْتَعُ وَنَلْعَبُ ﴾ ، وقراءة أهل الكوفة ﴿ يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ ﴾ وهي الأشهر.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ - أي: نحفظه ونحوطه من أهلك فلا يناله سوء.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾.

إخباراً من الله تعالى عن مشاعر يعقوب عليه السلام تجاه ما سأله أبنائه من إرساله يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ، فإنه وجد أن ذلك يشق عليه لفرط محبته ليوسف

وما يتوسم فيه من المستقبل المزهري الذي يحتاج إلى رعاية قريبة ، وكأنه يقرأ شمائل النبوة وهو يبصر في يوسف كمال الخلق والخلق ، صلوات الله وسلامه عليهما وعلى المرسلين أجمعين .

قال ابن كثير : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ ، يقول : وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعييتكم فيأتيه ذئب فيأكله ، وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة ، وجعلوها عُذْرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة : ﴿ لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا الْخَاسِرُونَ ﴾ ، يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة ، إنا إذن لها لكون عاجزون .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال القاسمي : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ﴾ أي بعد مراجعة أبيهم في شأنه ﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ ﴾ فيه تعظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا ما مكروا .

وقال القرطبي : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوته في ذلك الوقت .

قال مجاهد : (أوحى إلى يوسف وهو في الجُب أن سينبئهم بما صنعوا ، وهم لا يشعرون بذلك الوحي) . وقال قتادة : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإيحاء الله إليه .

وقال ابن عباس : (ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك) .

والخلاصة : لقد أوحى الله إلى يوسف أثناء ذلك الضيق والمفاجأة بمكر إخوته به ليُطَيَّبَ خاطره ، ويثبت قلبه ، وينزل اليسر على العسر ، بأن الله جاعل له من هذا الضيق مخرجاً ، ومن ذلك المكر نصراً وفرجاً ، وأنه سبحانه سيرفعه عليهم ويُعلي مقامه ومنزلته وسيخبرهم يوماً بما فعلوا وبما صدرَ منهم .

16 - 18 . قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ آبَاؤُهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ قَالُوا يَا بَنَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا

فَسَتِّيقُوا وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا

صَدِّقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ .

في هذه الآيات: رجوع إخوة يوسف إلى أبيهم عشاء ييكون. وقد ركبوا رواية كاذبة في شأن فقدان يوسف بأن أكله الذئب وهم يلعبون. وجاؤوا بدم كذب على قميصه فأيقن الأب بمكرهم فاحتسب وصبر مستعيناً بالله على ما يصفون.

فقوله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ - أي أقبلوا إلى أبيهم في ظلمة ييكون ، ويظهرون الندم والأسف على فقدهم يوسف عليه الصلاة والسلام في حيلة كاذبة .
وقوله: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ .

قال النسفي: ﴿ نَسْتَبِقُ ﴾ أي: نتسابق في العدو أو في الرمي). وقال ابن جرير: (نتنضل ، من السباق).

وقال ابن كثير: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي نترامى).

وقال القاسمي: ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا ﴾ أي ما يتمتع به من الثياب والأزواد وغيرهما ليحفظه). ﴿ فَآكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ أي كما حذرت).

وقوله: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ . قال السدي: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ : بمصدق لنا).

وفيه تلطّف منهم في محاولتهم تثبيت ما زعموا. أي نحن نعلم أنك لن تصدقنا على هذه الحالة ولو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت غير واثق بما نقول ، ونحن في موضع اتهام عندك في هذه القصة .

وقوله: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ - إذ غمسوا قميصه بدم معز كانوا ذبحوه .

قال مجاهد: (كان ذلك الدم كاذباً ، لم يكن دم يوسف). وقال ابن عباس: ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ بدم سخلة).

فلطخوا ثوب يوسف بدمها ليوهموا بذلك أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب . ولكنه فاتهم أن يخرقوه لتكتمل الرواية ، فلم يرج صنيعهم على أبيهم يعقوب عليه السلام ، وشعر في نفسه بمؤامرتهم وتمالّثهم عليه فقال:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ - قال ابن عباس: (لما أتى يعقوب بقميص يوسف فلم ير فيه خرقاً قال: كذبتُم ، لو أكله السبع لخرق قميصه).

وعن قتادة: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ قال: يقول: بل زَيَّتْ لكم أنفسكم أمراً).

وقال مجاهد: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: ليس فيه جزء - أي صبر لا شكوى فيه. أي: سأصبر صبراً جميلاً على هذا المصاب والمكر الذي اتفقت عليه حتى يفرّجه الله ويكشفه بلطفه ورحمته.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ - أي: وأستعين بالله تعالى على ما يَبْتُم من الخديعة وعلى ما تذكرون من الكذب والمحال.

وقد حفلت السنة الصحيحة بكنوز من جوامع الكلم في مفهوم الصبر والصبر الجميل:

الحديث الأول: أخرج البخاري من حديث عائشة - في قصة الإفك - قالت: [والله ما أجدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾] ⁽¹⁾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه ، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه ، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه).

الحديث الثاني: أخرجه البيهقي بسند صحيح من حديث سعد عن النبي ﷺ قال: [عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر ، وإذا أصابه خيرٌ حمد الله وشكر ، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه] ⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح على شرط مسلم ، عن صهيب قال: [بيننا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن ، إن أمره

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (2661) - كتاب الشهادات ، وأخرجه مسلم في الصحيح (2770) ، في أثناء حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه البيهقي ، ونحوه الطيالسي (211) بإسناد صحيح ، وله شاهد في مسند أحمد (16/6) وسنن الدارمي (318/2) ، وأصل معناه في صحيح الإمام مسلم (8/227).

كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن⁽¹⁾.

وله شاهد رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له]⁽²⁾.

19 - 22. قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَتِي أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: وَرُودُ بعض المارة يسقون من البئر ، فاستبشروا بوجود غلام ، واتفقوا على إخفاء ذلك عن أصحابهم بأنهم اشتروه من أهل الماء لثلا يشركوهم فيه ، ثم باعوه بثمان زهيد ليستفيدوا من ثمنه قبل تدخل غيرهم . وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها وأوصى به امرأته ، وقد أراد الله بذلك تمكين يوسف في الأرض ، ثم آتاه الله العلم والحكمة - حين بلغ أشده - والله يجزي المحسنين .

قال قتادة: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ يقال: أرسلوا رسولهم ، فلما أدلى دلوه تشبث بها الغلام). أو قال: (فتشبث الغلام بالدلو ، فلما خرج قال: ﴿يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾. قال: تباشروا به حين أخرجوه ، - أو قال: بشرهم واردهم حين وجد يوسف - قال: وهي بئر بأرض بيت المقدس معلوم مكانها).

- (1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (16/6) ، والدارمي (318/2) ، وينحوه روى مسلم المرفوع في صحيحه (227/8) ، وهو رواية لأحمد (332/4) (15/6) ، وسنده صحيح على شرط مسلم .
- (2) حديث صحيح. رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (24/5) ، وأبو يعلى (2/200) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (148).

وقوله: ﴿وَأَسْرُوهُ يَضْعَةٌ﴾ - فيه أقوال:

1 - قال مجاهد: ﴿وَأَسْرُوهُ يَضْعَةٌ﴾ ، قال: صاحب الدلو ومن معه ، قالوا لأصحابهم: إنما استبضعناه ، خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا بثمنه).

2 - قال السدي: (لما اشتراه الرجلان ، فَرَقَا من الرفقة أن يقولوا: اشتريناه ، فيسألونهم الشركة ، فقالا: إن سألونا: ما هذا؟ قلنا: بضاعة استبضعناه أهل الماء. فذلك قوله: ﴿وَأَسْرُوهُ يَضْعَةٌ﴾ ، بينهم).

3 - قال مجاهد: (أسره التجار بعضهم من بعض).

4 - قال قتادة: ﴿وَأَسْرُوهُ يَضْعَةٌ﴾ ، قال: أسروا بيعه).

5 - قال مجاهد: ﴿وَأَسْرُوهُ يَضْعَةٌ﴾ ، قال: قالوا لأهل الماء: إنما هو بضاعة).

6 - قال ابن عباس: ﴿وَأَسْرُوهُ يَضْعَةٌ﴾ ، يعني: إخوة يوسف ، أسروا شأنه ، وكنتموا أن يكون أخاهم ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن تقتله إخوته ، واختار البيع. فذكره إخوته لوارد القوم ، فنادى أصحابه قال: يا بشرى! هذا غلامٌ يباع! فباعه إخوته).

قلت: والراجح ما ذكره شيخ المفسرين - الإمام ابن جرير رحمه الله - في تفسير هذه الآية حيث قال: (وأولى هذه الأقوال بالصواب ، قولٌ من قال: وأسَرَ وارد القوم المدلي دلوّه ومن معه من أصحابه ، من رفقته السيارة ، أمر يوسف أنهم اشتروه ، خيفة منهم أن يستشركوهم ، وقالوا لهم: هو بضاعة أبضعها معنا أهل الماء).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومُشتروه ، وهو قادرٌ على تغيير ذلك ودفعه ، ولكن له حكمةٌ وقدرٌ سابقٌ ، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]. وفي هذا تعريضٌ لرسوله محمد ﷺ وإعلامٌ له بأني عالمٌ بأذى قومك لك ، وأنا قادر على الإنكار عليهم ، ولكن سأملئ لهم ، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم ، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته).

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ - أي: باع السيارة يوسف بثمن قليل ..

ومن أقوال أهل التأويل في ذلك:

1 - قال ابن عباس: (فباعه إخوته بثمن بخس). قال الضحاك: (البخس: الحرام).

2 - وعن مجاهد قال: (إخوة يوسف أحد عشر رجلاً ، باعوه حين أخرجه المدلي بدلوه).

3 - قال قتادة: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ ، وهم السيارة الذين باعوه). وقال: (البخس: الظلم). وقال عكرمة: (البخس: القليل).

قلت: والراجح في الضمير في ﴿ وَأَسْرَوْهُ ﴾ ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ أنه يعود على السيارة ، وهم أولئك القوم المسافرين أثناء مسيرهم ، فهم الذين باعوا يوسف بثمان زهيد دراهم قليلة ليستفيدوا من ثمنه قبل غيرهم أن يشركهم ، وبعيد أن يكون الضمير يعود على إخوة يوسف لأنهم اقترحوا إلقاءه في البئر: ﴿ يَلْقَظُهَا بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ ، ولم يكونوا يبحثون عن تجارة يبيع يوسف وإنما أرادوا التخلص منه ، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ - قال الضحاك: (وذلك أنهم لم يعلموا بُبُوَّةَ ومنزلته عند الله عز وجل).

وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ - قال ابن جريج: (منزلته). أي: هو قول الذي اشترى يوسف من بائعه بمصر ، قال لامرأته: أكرمي منزلته. وعن قتادة: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ ، منزلته ، وهي امرأة العزيز). قال ابن جرير: (يقول: أكرمي موضع مقامه ، وذلك حين يثوي ويقيم فيه).

وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها ، وهو الوزير بها. قال السدي: (انطلق بيوسف إلى مصر ، فاشتراه العزيز ملك مصر ، فانطلق به إلى بيته فقال لامرأته: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾).

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ - قال ابن جرير: (يقول عز وجل: وكما أنقذنا يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله ، وأخرجناه من الحب بعد أن ألقى فيه ، فصيرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر ، كذلك مكنا له في الأرض ، فجعلناه على خزائنها).

وقوله: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُمُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ - قال مجاهد: (عبارة الرؤيا) ، وقال السدي: (تعبير الرؤيا).

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ - قال سعيد بن جبير: (أي: فعال لما يشاء).

فهو سبحانه قائمٌ على أمر نبيه يوسف ﷺ ، يسوسه ويدبره ويحوطه ، ويهيئ له ما ينبغي لمقام النبوة .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ - أي : لا يدرون حكمة الله في تقديره ، وتلطفه في أوليائه ، ومكره بأعدائه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أي : ولما بلغ يوسف - عليه الصلاة والسلام - منتهى شدته وريعان شبابه وغاية قوته ، أعطيناه الفهم والحكمة والعلم ، وكذلك سنة الله تعالى في مجازاة المحسنين ، فإن من حفظ شبابه وجوارحه وقلبه عن معصية الله ، حفظه الله وأكرمه وعلمه ورعاه .

قال ابن كثير : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ ﴾ ، أي : يوسف - عليه السلام - ﴿ أَشُدَّهُ ﴾ ، أي : استكمل عقله وتمّ خلقه ، ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يعني النبوة ، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام ، ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، أي : إنه كان محسناً في عمله ، عاملاً بطاعة ربه تعالى .

23 - 24 . قوله تعالى : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ

وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْهَمَ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَنَ رِبِّيَّكَ كَذَلِكَ لِنُصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ .

في هذه الآيات : محاولة امرأة العزيز - التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها بإكرامه ، إلا أنها أحبته حباً شديداً لشدة جماله وحسنه وبهائه - فحاولته عن نفسه ، وتجملت له ، وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها فأبى - عليه الصلاة والسلام - واعتصم بالله ليحميه من الوقوع والزلل ، ومن خيانة سيده في أهله ، إنه لا يفلح الظالمون . ولقد أرادت مراودة يوسف وإغراءه بكل طريقة وما زالت به حتى خطر في نفسه ما يخطر مما زينت له ، إلا أنه تذكّر عظمة الله سبحانه فاستحيا منه فعصمه الله ، إنه من عباد الله المخلصين .

فعن السدي : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ ، قال : أحبته .

قال ابن إسحاق: (ولما بلغ أشدّه ، راودته التي هو في بيتها عن نفسه ، امرأة العزيز).

وقوله: ﴿وَعَلَّقْتَ الْأُتْرُقَ﴾ - قال ابن جرير: (يقول: وغلقت المرأة أبواب البيوت عليها وعلى يوسف ، لما أرادت منه وراودته عليه ، باباً بعد باب).

وقوله: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ - أي: هلمّ لك ، وادن ، وتقرب ، تدعوه للوقوع بها. ومن أقوال أهل التأويل:

1 - قال ابن عباس: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ، تقول: هلمّ لك. وقال السدي: (هلمّ لك ، وهي بالقبطية).

2 - وقال مجاهد: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ، قال: لغة عربية ، تدعوه بها. أو قال: (لغة بالعربية ، تدعوه بها إلى نفسها). وقال ابن زيد: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ، قال: هلمّ لك ، إلتي).

3 - وقال أبو عبيد: كان الكسائي يحكيها ، يعني: هيت لك. قال: (وقال: وهي لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز ، معناها: تعال).

4 - وعن قتادة قال: كان عكرمة يقول: (تهيات لك). فأصلها عند بعضهم: «وقالت هَيْتُ لك» - أي: تهيات لك. وفي قراءة أهل المدينة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ، وبعض المكين: ﴿هَيْتُ لك﴾ ، وبعض البصريين ﴿هَيْتَ لك﴾. وأرجح القراءات المشهورة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

قلت: وكل ما سبق يفيد في مفهوم دعوة امرأة العزيز يوسف عليه السلام إلى نفسها للوقوع بها ، وقد تهيات له وتجمّلت على أحسن حال.

وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ - أي: هو ردّ يوسف عليه الصلاة والسلام إذ دعت المرأة إلى الفاحشة فأجاب بقوله: معاذ الله ، أي: أعتصم بالله وأستجير به ليحميني من الوقوع والزلل.

وقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ - أي يقول: إن صاحبك وزوجك سيدي قد أحسن منزلتي وأكرم إقامتي واثممني في بيته فلا أخونه في أهله.

قال مجاهد: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ ، قال: سيدي ، يعني زوج المرأة.

قال ابن إسحاق: ﴿أَحْسَنَ مَثْوًى﴾ ، أمني على بيته وأهله). وقال السدي: ﴿أَحْسَنَ مَثْوًى﴾ ، فلا أخونه في أهله).

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ - قال ابن إسحاق: (قال: هذا الذي تدعوني إليه ظلم ، ولا يفلح من عمل به).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا﴾.

أي: ولقد أرادت مراودة يوسف وبذلت لذلك من محاولاتها بإغرائه بزينتها وجمالها ليدنو منها ، وما زالت به حتى خطر في نفسه من خطرات ما زينت له ، وأوشك أن يجيبها إلى ما دعته إليه ، إلا أنه تذكّر عظمة الله سبحانه فاستحيا منه فعصمه ربه عز وجل .

وهم بالشيء - في كلام العرب - أرادته . وكذلك الهم بالشيء : حديث المرء نفسه بمواقفته ما لم يُواقع . قلت : ومن هنا فإن قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ﴾ ينزل على المعنى الأول: أرادت وحاولت . وقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ - ينصرف إلى المعنى الثاني: همّ خطرات وحديث النفس والاقتراب من الوقوع . وهذا التفسير ينسجم مع عصمة النبوة .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرٌ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا ، لَمْ تُكْتَبْ ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ] (1).

وفي لفظ: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بسية فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرين].

وهناك أقوال غريبة بعيدة ذكرها المفسرون في تفسير هذه الآية :

قيل: هم بضربها . وقيل: تمنّاها زوجة . وقيل: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ، أي: فلم يهّم بها . وهذا وجه بعيد لغة ، وهو أبعد مما قيل قبله . وأبعد من ذلك كله ما روي أنها استلقت له وجلس بين رجلها أو حلّ ثيابه ، إلى غير ذلك ، مما لا يليق بمقام النبوة . وكان أولى بالمفسرين ألا يُسَطّروا مثل هذه التفاسير - المستنكرة المأخوذة

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (129) - كتاب الإيمان . باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسية لم تكتب . واللفظ الآخر برقم (128) ، ورواه أحمد (2/ 315) ، وابن حبان (379) ، وغيرهم .

من الإسرائيليات - في تفاسيرهم ، فإن عصمة الأنبياء وحياءهم ورفيع درجاتهم يعارضه من كل وجه ، ويبقى ما ذكرناه في تفسير «الهم» بنوعيه ، من امرأة العزيز وما قابله من يوسف عليه الصلاة والسلام ، فعصمه الله بحيائه وصدق خوفه من ربه عز وجل .

وقوله : ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ - أي : لولا أن أراه الله تعالى من آياته ما زجره عما كان همَّ به ، وذكره بعظمة ربه تعالى فاستحيا منه . لقد رأى يوسف عليه السلام الإيمان ، فاستحيا من الله تعالى فلزِمَ مقام الإحسان .

وأما ما رُوي عن مجاهد والحسن والضحاك وغيرهم أنه رأى صورة أبيه يعقوب - عليه السلام - عاضاً على إصبعه بفيه ، وفي رواية : فضرب في صدر يوسف ، أو ما رُوي عن ابن عباس : أنه رأى خيال سيده ، يعني الملك ، إلى غير ذلك ، من التصاوير والخيالات فإنه لا تقوم بها حجة .

وقوله : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ .

أي : أريناه برهاناً صرفه إلى الخوف من الله وتعظيم أمره فوق شهوات الدنيا ، لنقيه الوقوع في السوء والفحشاء ، فإنه من عبادنا المطهرين المُجْتَبِينَ الأخيار الصالحين .

25 - 29. قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا

لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

في هذه الآيات : مُسَابَقَةُ امرأة العزيز يوسف إلى الباب وتمزيقها قميصه أثناء هروبه منها ، وظهور سيدها لدى الباب ، فأظهرت الكذب باتهامها يوسف بإرادته السُّوء محرضة عليه زوجها بالسجن أو العذاب الأليم . فكذبها يوسف وشهد شاهد من أهلها إن كان تمزيق القميص من قُبُلٍ فهي صادقة وإلا كانت من الكاذبين . فلما رأى زوجها قميصه قد مُزِق من خلفه علم أنه من كيدهن إن كيدهن عظيم . فأمره ألا يحدث بذلك

وأمر زوجته أن تستغفر ما صدر منها فإنها كانت من الخاطئين .

فعن قتادة: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ ، قال: استبق هو والمرأة الباب ، ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ . وقال ابن إسحاق: (لما رأى برهان ربه ، انكشف عنها هارباً ، واتبعته فأخذت قميصه من دبر ، فشقت عليه) .

وعن مجاهد: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ ، قال: سيدها زوجها ، ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ ، قال: عند الباب) .

قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارباً ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته في أثناء ذلك ، فأمسكت بقميصه من ورائه فَقَدَّتْهُ قَدًّا فَظِيْعًا ، يقال: إنه سَقَطَ عنه ، واستمر يوسف هارباً ذاهباً ، وهي في إثره ، فألفيا سيدها - وهو زوجها - عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها مُنْصَلَّةً وقاذقةً يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ، أي: فاحشة ، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ ، أي: يُحْبَسَ ، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، أي: يُضْرَبُ ضرباً شديداً موجعاً) .

وقوله: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ - قال النسفي: (ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها) . أي: لما قذفته امرأة العزيز ، وأوقعته في الشبهة باتهامه ، وعرضته للسجن والعذاب ، انتصر للحق ودافع عن نفسه .

وقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ - الصواب ⁽¹⁾ أنه كان مستشاراً للعزيز . قال أبو جعفر النحاس: (والأشبه بالمعنى - والله أعلم - أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة) .

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

قال ابن إسحاق: (قال: أشهد إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ لقد صدقت وهو من الكاذبين . وذلك أن الرجل إنما يريد المرأة مقبلاً ، ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وذلك أن الرجل لا يأتي المرأة من دبر) .

(1) قيل: طفل في المهد تكلم ، وقيل: ابن عمها أو ابن خالها ، وقيل: الشاهد: قُدَّ القميص ، وقيل: خلق من خلق الله تعالى ليس بإنسي ولا جني ، وهذا يردده قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ، وقيل غير ذلك .

وخلاصة المعنى: شهد الحكم من أهلها ، إن كان قميص يوسف قد شقَّ من قُدَّامه فهو بذلك إنما أرادها عن نفسها فأبت ودفعته في صدره فقَدَّت قميصه من مقدمته فيصح عند ذلك قولها . وأما إن كان الشق من خلف القميص فهو يعني أنها لما أرادت لنفسها وهرب منها واتبعته طالبة له فأمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها ، فقَدَّت بذلك قميصه من ورائه وهو بذلك بريء ولا يصح قولها .

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ، ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ أي: إن هذا البهت واللُّطخ الذي لَطَخَتْ عِرْضَ هذا الشاب به من جُملة كَيْدِكُنَّ ، ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾) . والكيد: المكر والحيلة .

قال القرطبي: (وإنما قال ﴿ عَظِيمٌ ﴾ لعظم فتنهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن) .

وقوله تعالى: ﴿ يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

أي: يأمر زوجها يوسف عليه السلام - حين تبين له حقيقة ما حصل أن يكتم ما وقع ولا يذكره لأحد ، ويأمر امرأته أن تستغفر مما صدر منها بحق هذا الشاب البريء فإنها هي التي أذنبت وأخطأت .

قال ابن زيد: ﴿ يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ ، قال: لا تذكره ، واستغفري أنت زوجك ، يقول: سليه أن لا يعاقبك على ذنبك الذي أذنبت ، وأن يصفح عنه فيستره (عليك) .

قال ابن كثير: (يقول لامرأته وقد كان لئِن العريكة سهلاً ، أو أنه عذرهما ، لأنها رأت ما لا صَبَرَ لها عنه ، فقال لها: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ ، أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قَذَفَه بما هو بريء منه ، استغفري من هذا الذي وقع منك ، ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾) .

30 - 34. قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ

نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِمًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ

أَيَّدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُنَّ عَنْ تَفْسِيهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمُرُّهُ لَيْسَجُنَّ وَلَيَكُونُنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ .

في هذه الآيات : إشاعة خبر يوسف وامرأة العزيز في المدينة ، وهي مصر ، فتكلم بعض نساء الأمراء والكبراء يعبئن على امرأة الوزير ما صدر منها ، حيث أقدمت على دعوة غلامها إلى نفسها الذي ملأ قلبها عشقه وبلغ حبه شغاف قلبها . ومقابلة ذلك من امرأة العزيز بموقف من المكر لتبرير موقفها ، ثم توغدها يوسف إن خالف أمرها بالسجن والتضييق والإهانة . ولجوء يوسف - عليه الصلاة والسلام - إلى الله عز وجل بصرف كيدهن عنه ، وأن السجن أحب إليه من طلبهن ، فاستجاب الله تعالى له إنه هو السميع العليم .

فقوله : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ - قال ابن كثير : (مثل نساء الأمراء والكبراء يُكْرَن على امرأة العزيز - وهو الوزير - وَيَعْبُن ذلك عليها). قلت : والعزير لغة من العزة ، والمراد هنا الوزير . قال ابن إسحاق : (وشاع الحديث في القرية ، وتحدث النساء بأمره وأمرها ، وقلن : ﴿ أَمْرَاتُ الْعَزِيرِ تَرُودُنَّهَا عَنْ تَفْسِيهِ ﴾ ، أي عبدها).

وقوله : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ - شغاف القلب غلافه وحجابه ، والمقصود دخل حبه فتغلغل تحت غلاف القلب . قال السدي : (والشغاف جلدة على القلب يقال لها «لسان القلب» . يقول : دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب). وقال عكرمة : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ : دخل حبه تحت الشغاف). وقال مجاهد : (دخل حبه في شغافها). وعن ابن عباس قال : (يقول : علَّقها حبًّا). أو قال : (غلبها). وقال الحسن : (قد بطنها حبًّا). وقال قتادة : (استبطنها حبها إياه). وقال الضحاك : (يقول : هلكت عليه حبًّا).

وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ - أي : في صنعها هذا وما أقدمت عليه من مراودة فتاها عن نفسه وتعلق قلبها به .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ - قال السدي : (يقول : بقولهن). وقال قتادة : (أي بحديثهن).

وقوله : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ - أي : أرسلت إلى النسوة اللاتي مكزن بها

بإشاعة خبرها مع فتاها لتريهن يوسف. قال ابن إسحاق: (وكان يوصف لهن بُحْسنة وجماله ، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾).

قال ابن عباس: (﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ ، قال: مجلساً). وقال سعيد: (طعاماً وشراباً ومتكأً). قال ابن جرير: (أعدت لهن ، ﴿مُتَّكَأً﴾ ، يعني: مجلساً للطعام ، وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد). قيل: وفي الطعام ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ، وهو قوله: ﴿وَوَاتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾. قال ابن كثير: (وكان هذا مكيدة منها ، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته).

وقوله: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ - حيث كانت قد خبأته في مكان آخر ، فخرج عليهن يوسف.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ - قال مجاهد: (أعظمته) - أي: أجللته وعظمته لشدة حسنه. وقال ابن زيد: (فخرج ، فلما رأينه أعظمته وبهتت) - أي: من شدة بهائه وجماله - عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَقَطَّعَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ - أي: جعلن يقطعن أيديهن من روعة جمال يوسف ، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج. قال مجاهد: (﴿وَقَطَّعَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ، حَزًّا حَزًّا بالسكين). والمقصود: أنهن حَزَزْنَ أيديهن من حيث لا يشعرون من دهشة ما رأين. قال ابن زيد: (جعلن يحززن أيديهن بالسكين ، ولا يحسبن إلا أنهن يحززن الترنج ، قد ذهبت عقولهن مما رأين!).

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة - حديث الإسراء - قال رسول الله ﷺ: [فأتيت على يوسف فَسَلَّمْتُ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ. وفي لفظ: ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقبل: مَنْ أَنْتَ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ، فإذا هو قد أعطي شطر الحسن ، فرحب بي ودعا لي بخير⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ - وهي قراءة أهل الكوفة ، وأما بعض البصريين فأثبتوا الياء: ﴿حَاشَى لِلَّهِ﴾ والمراد التنزيه. قال مجاهد: (﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ قال: معاذ الله).

وقوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ - قال ابن زيد: (ما هكذا تكون البشر). لأنهن لم يعهدن

(1) حديث صحيح. هو بعض حديث الإسراء أخرجه البخاري (3207) (3887) ، ومسلم (164) ، وأخرجه النسائي (217/1) ، وأحمد (208/4) ، (210/4) ، وأخرجه ابن حبان (48).

الحُسْنُ فِي البَشَرِ عَلَى هذه الصورة الرائعة المدهشة التي تأخذ بالعقول والألباب .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ - قال قتادة : (قلن : ملك من الملائكة) .

وقوله : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ﴾ - قال ابن كثير : (تقول هذا مُعْتَذِرَةٌ إليهن بأن هذا حقيق بأن يُحِبَّ لجمالهِ وكمالهِ) .

ثم أقرت لهن بأنها قد راودته عن نفسه ، وكان منها ما تحدثن به في شأنها معه .

وهو قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَصَمَ ﴾ - قال ابن عباس : (فامتنع) .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرُوا لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ - قال ابن جرير : (يقول : ولئن لم يطاوعني على ما أدعوه إليه من حاجتي إليه ، ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ ، تقول : لَيُجْبَسَنَّ ، وليكونا من أهل الصغار والذلة بالحبس والسجن ، ولاهيئته) .

فهناك لجأ يوسف - عليه الصلاة والسلام - إلى ربه عز وجل ليحميه من كيدهن ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِينَ ﴾ .

قال ابن إسحاق : (قال يوسف ، وأضاف إلى ربه ، واستغاثه على ما نزل به ، ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ ، أي : السجن أحب إلي من أن آتي ما تكره) . وقال السدي : (من الزنا) . وقال ابن زيد : (﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ : قال : إلا يكن منك أنت العون والمنعة ، لا يكن مني ولا عندي) .

قال القرطبي : (﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ جواب الشرط ، أي : أمل إليهن) . وقال النسفي : (والصبوة الميل إلى الهوى ، ومنه الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيما وروحها) .

عن ابن إسحاق : (﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِينَ ﴾ ، أي : جاهلاً ، إذا ركبت معصيتك) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قال ابن كثير : (وذلك أن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عِصْمَةً عَظِيمَةً ، وحماه فامتنع منها أشدَّ الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال : أنه مع شبابه وجمالهِ وكمالهِ تدعوه سَيِّدَتُهُ ، وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ، ويمتنع من ذلك ، ويختار السِّجْنَ على ذلك ، خوفاً من الله ورجاء ثوابه) .

قلت: وفي هذه القصة ما يشدّ عزيمة الشباب الذين أسرفوا على أنفسهم في اتباع الهوى والشهوات ، وغاصوا في متاهاتها ، وعلقوا في حبالها ، أنهم لو صدقوا الله الدعاء بالنجاة من تبعاتها وشباكها ، وعزموا على التماس حياة الطهارة والعفاف ، لأعانهم ربهم سبحانه على ترك تلك المآثم والمحرمات . وقد مررت بشباب انغمسوا في تلك المحرمات حتى صارت تلحقهم ، فَذَكَّرْتُهُمْ بصدق يوسف - عليه الصلاة والسلام - إذ التجأ إلى ربه ليخلصه من مكرهن ، فَصَدَّقَهُ سبحانه الإجابة: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعاء يوسف ودعاء عباده جميعاً ﴿ أَلْعَلَيْكُمْ ﴾ بصدق نياتهم وإخلاصهم لربهم وبجميع أحوالهم .

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه . ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله] (1) .

35 - 38. قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُتُّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا ۚ وَبِأَوَّلِهِ ۖ إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۖ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ۖ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۖ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ۖ إِنِّي إِتْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَان لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۖ ﴾ (38) .

في هذه الآيات: ظهور المصلحة للقوم بسجن يوسف إخفاء للحقيقة ، ودرءاً

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (660) ، ومسلم (1031) ح (91) ، والترمذي بعد الحديث (2391) ، والنسائي (222/8 - 223) ، وأحمد (439/2) ، وابن خزيمة (358) ، وابن حبان (4486) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

للفضيحة . وقصة يوسف مع ساقى الملك وخبازه في السجن في تأويل رؤياهم . وإعلان يوسف اجتنابه ملة الكفر واتباعه منهاج النبوة .

فعن ابن إسحاق : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾ ، ببراءته مما اتهم به ، من شق قميصه من دبر ، ﴿ لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّى حِينَ ﴾ .

وعن قتادة : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾ ، قال : ﴿ الْآيَاتِ ﴾ ، حُرْهُنَّ أيديهن ، وقد القيصص . وذكر السدي : أنهم إنما سجنوه لثلاث شيوع ما كان منها في حقّه ويبرأ عرضه فيفضّحها .

والخلاصة : لقد ظهر لهم أن المصلحة سجنه إلى مدة ، رغم ما ظهر من عفته وأدلة صدقه ونزاهته وبراءته ، لضبط ما شاع بين الناس في حق امرأة العزيز ، ليوهموا بذلك على الناس الأمر . قال ابن كثير : (ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة ، امتنع من الخروج حتى تبين براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العِرض ، صلوات الله عليه وسلامه) .

وقوله : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ - قال قتادة : (كان أحدهما ساقى الملك ، والآخر خبازه) . وقال السدي : (وكان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمّه في طعامه وشرا به) .

وقوله : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعِصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْراً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتَنَا يَأْوِلُهُ إِِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

إنهما رأيا مناماً ، فرأى الساقى أنه يعصر عنباً ، ورأى الخباز أنه اختبز خبزاً فحملة على رأسه فجاء الطير فأكل منه . وفي قراءة ابن مسعود : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنْباً ﴾ . وقال الضحاك : ﴿ إِنِّي أَرْنِي آعِصِرُ خَمْراً ﴾ ، يعني عنباً ، قال : وأهل عُمان يُسمُّون العنب خمراً . وقال عكرمة : (قال له : إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبلّة من عنب فنبت ، فخرج فيه عناقيد ، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك . قال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ، ثم تخرج فتسقيه خمراً . وقال الآخر : وهو الخباز : ﴿ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْراً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتَنَا يَأْوِلُهُ إِِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾) . قال الضحاك : ﴿ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : كان يوسف للرجل في مجلسه ، ويتعاهد المرضى) .

وكان يوسف - عليه الصلاة والسلام - قد عُرف في السجن بكرمه وجوده وصدق حديثه ، وحسن سمته ، وكثرة عبادته ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى أهل السجن ،

وعيادة مرضاهم وحسن الخلق والمعاملة ، مما دفع الرجال لاستشارته في رؤياهم والتماس الخير على يديه .

وقوله : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ .

قال ابن عباس : (إنما عَلِمَ فَعَلِمَ) . وقال السدي : (قال يوسف لهما : ﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ ، في النوم ، ﴿ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ ، في اليقظة) .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ - قال ابن جرير : (يقول : هذا الذي أذكر أنني أعلمه من تعبير الرؤيا ، مما علمني ربي فعلمته) .

وذلك أنني اجتنبت ملة قوم كفروا بالله واليوم الآخر . قال النسفي : (وهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم) . وهو قوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (يقول : هجرْتُ طريقَ الكفر والشرك ، وسلكْتُ طريقَ هؤلاء المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وهكذا يكونُ حالُ من سَلَكَ طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرضَ عن طريق الضالين ، فإن الله يهدي قلبه ويُعَلِّمُهُ ما لم يكن يَعْلَمُهُ ، ويجْعَلُهُ إماماً يقتدى به في الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد) .

وقوله : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِإِثْرِهِمْ وَإِنْهُمْ لَيَعْتَابُونَ ﴾ .

قال النسفي : (وهي الملة الحنيفية . وذكر الآباء ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في اتباع قوله) .

وقوله : ﴿ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ - هذه صفة آل النبوة واتباع الرسل ، الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإفراده تعالى بالدعاء والعبادة والتعظيم .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

قال القرطبي : (قيل : ﴿ ذَلِكُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ إذ جعلنا أنبياء ، ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ إذ جعلنا الرسل إليهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمة التوحيد والإيمان) .

39 - 41 . قوله تعالى : ﴿ يَصْصَحِي السَّجْنَاءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ

الْوَحْدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا

أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤٢﴾ .

في هذه الآيات: نصيحة يوسف في السجن لصاحبيه أفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، ونبد الشرك وسبل الشيطان الرجيم ، وتأويله الرؤيا لهما بما أوتيه من توفيق الله الحكيم .

فعن ابن إسحاق قال: (ثم دعاهما إلى الله وإلى الإسلام ، فقال: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ﴾ عَزَابٌ مُتَّفَرِّقٌ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤١﴾ ، أي: خيرٌ أن تعبدوا إلهاً واحداً ، أو آلهة متفرقة لا تغني عنكم شيئاً).

فاستفاد يوسف - عليه الصلاة والسلام - من إقبال الرجلين عليه إلى دعوتهما إلى عبادة الله وحده ، وإفراده بالكبرياء والتعظيم ، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعكف عليها القوم ، فإن الله هو الواحد القهار الذي قهر كل شيء ، وذلل له كل شيء .

وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ .

قال القاسمي: (يعني أنكم سميتم ، ما لا يستحق الإلهية ، آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها) ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة تدل على صحتها).

وقوله: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ .

قال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية: (أُسِّسَ الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له).

وقوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ - أي: هذا الذي دعوتكما إليه من البراءة من الطواغيت والأوثان ، وإفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ، وهو منهج الصدق في الإيمان .

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ - أي: فهم يشركون بالله ويحسبون أنهم مهتدون .

وفي التنزيل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

وقوله تعالى: ﴿يَصْنَعِ السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

قال القاسمي: ﴿يَصْنَعِ السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي: يخرج من السجن ، ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر ، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ أي: فيقتل ويعلق على خشبة ، فتأكل الطير من لحم رأسه. ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: قطع وتم ما تستفتيان فيه. يعني: ماله ، وهو نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر. والتعبير عنه بـ ﴿الْأَمْرُ﴾ ، وعن طلب تأويله بـ «الاستفتاء» تهويلاً لأمره ، وتفخيماً لشأنه ، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة للحكم ، المبهمة الجواب).

42. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ. فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

في هذه الآية: وصية يوسف - عليه السلام - الذي ظن خروجه من الرجلين ذكر مظلّمته عند سيده ، فأنساه الشيطان فلبث في السجن بضع سنين .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: قال يوسف للذي علم أنه ناج من صاحبيه اللذين استعبراه الرؤيا: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ، يقول: اذكرني عند سيدك ، وأخبره بمظلّمتي ، وأناي محبوس بغير جُرم).

فأنسى الشيطان ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بأمر يوسف ، وكان ذلك مكيدة من الشيطان لئلا يخرج يوسف من السجن ، وكان الأولى أن يطلب يوسف عليه الصلاة والسلام الفرج خالصاً من الله تعالى - كما أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ - .

فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: [عجبتُ لصبر أخِي يوسف وكرمه ، والله يَغْفِرُ له حيثُ أرسلَ إليه لِيُسْتَفْتَى في الرؤيا ، ولو كُنْتُ أنا لم أفعلْ حتى أخرجَ . وَعَجِبْتُ لصبره وكرمه والله يَغْفِرُ له أُنِّي لِيُخْرِجَ فلم يخرجْ حتى أخبرهم بعذره ، ولو

كنت أنا لبادرت الباب ، ولولا الكلمة لما لبث في السَّجْنِ حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عز وجل⁽¹⁾.

وله شاهد في مسند الإمام أحمد ، بسند حسن لطرقه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم جاء الداعي لأجبتُه ، إذ جاءه الرسول فقال : ﴿ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ، ورحمةُ الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد ، إذ قال لقومه : ﴿ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَيْتَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ، وما بعث الله من بعده من نبي إلا في ثروة من قومه]⁽²⁾.

وعن مجاهد قال : (فلبث في السجن بضع سنين ، عقوبة لقوله : ﴿ أَذْكَرْتُني عِنْدَ رَبِّكَ ﴾).

وعن قتادة قال : (البضع ما بين الثلاث إلى التسع). وقال : (لبث يوسف في السجن سبع سنين) - والله تعالى أعلم -.

43 - 49. قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَهَا أَلْمَلَاءُ أَتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا بِتَعْبُرُونَ ﴾ ^(٤٣) قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ^(٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ^(٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ^(٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ ^(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ

(1) حديث صحيح لشواهده. أخرجه الطبراني (11640) ، وانظر مسند الإمام أحمد (232/2) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1945) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3879).

(2) أخرجه أحمد (232/2) ، وانظر تفسير ابن جرير (139/12) ، وسنن الترمذي (129/4) ، وصحيح ابن حبان (1747) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1867).

هَئِنَّا إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾ .

في هذه الآيات: خَبَرُ الرؤيا التي رآها الملك وسعى في تأويلها فُقُوْبِلَ باعتذار من حوله عن المعرفة بتأويل الأحلام. وَتَذَكُّرُ الذي نجا من الرجلين علم يوسف بتأويل الأحلام فلجأ إليه بعدما نسيه عبر الأيام. وتأويل يوسف لرؤيا الملك بتوفيق الله له تأويلاً صدقته الأحداث والأزمان.

قال ابن إسحاق: (ثم إن الملك الريان بن الوليد رأى رؤياه التي رأى فهايته ، وعرف أنها رؤيا واقعة ، ولم يدر ما تأويلها ، فقال للملأ حوله من أهل مملكته: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْلَمِينَ﴾).

وعن السدي قال: (إن الله أرى الملك في منامه رؤيا هالته ، فرأى سبع بقرات سمانٍ يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ، فجمع السحرة والكهنة والحزاة فقصها عليهم ، فقالوا: ﴿أَضَعْتُ أَخْلَمِي وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَمِ بِعَالِمِينَ﴾).

وهذه الرؤيا هي مما قدّر الله تعالى أن يراها ملك مصر لتكون سبباً لخروج يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن عزيزاً مكرمًا ، فجمع لتأويل رؤياه الكهنة والسحرة والحزاة وكبراء دولته ليفهموا أبعادها فاعتذروا بقولهم: ﴿أَضَعْتُ أَخْلَمِي﴾ - أي: إنها أخلاط ، من الأحلام المختلطة التي لا تأويل لها ، وَمِنْ ثَمَّ فِيهِ رُؤْيَا كَاذِبَةٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا. قال ابن عباس: ﴿أَضَعْتُ أَخْلَمِي﴾ ، كاذبة. أو قال: (يقول مشتبهة). وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَمِ بِعَالِمِينَ﴾ - قال ابن جرير: (يقول: وما نحن بما تؤول إليه الأحلام الكاذبة بعالمين).

وعند ذلك تذكّر الذي نجا من القتل من صاحبي السجن ، وكان الشيطان قد أنساه ما وصّاه به يوسف من ذكر أمره للملك ، فتذكر بعد مدة فقال أنا أخبركم بتأويل هذا المنام فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السّجن. وهو قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ .

وعن ابن عباس: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ ، قال بعد حين) - أي: تذكر ما كان نسي من أمر يوسف وما وصّاه به ، بعد مدة ، فذكره بعد حين - أو قال: (بعد سنين). وعن

عكرمة قال: (أي: بعد حقبة من الدهر). وعن مجاهد: (أنه قرأ: ﴿وَاذْكُرْ بَعْدَ أَمِّهِ﴾) - والأمة: النسيان.

قال ابن عباس: (لم يكن السجن في المدينة ، فانطلق الساقى إلى يوسف فقال: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ ، (الآيات).

وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

قال قتادة: (أما السمان فسنون منها مخصبة ، وأما السبع العجاف ، فسنون مجدبة لا تنبت شيئاً). والعجاف جمع عَجَفَاء ، وهي المهازيل .

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ ، أما الخضر فهي السنون المخاصيب ، وأما اليابسات فهن الجُدُوب المحول. وقوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، يقول: أي: أرجع إلى الناس فأخبرهم. يقول: ليعلموا تأويل ما سألتك عنه من الرؤيا).

فعند ذلك أفاض يوسف عليه الصلاة والسلام مما علمه الله تعالى من تعبير الرؤيا من غير تعنيف لذلك الفتى الذي نسي ما وصّاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك⁽¹⁾ ، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تزرعون هذه السبع السنين كعادتكم ، وفيها يأتيكم الخُضْبُ والمطر. قال ابن كثير: (فَفَسَّرَ البقر بالسنين ، لأنها تثير الأرض التي تُسْتَعْل منها الثمرات والزرع ، وهُنَّ السنبلات الخضر. ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ، أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخُضْبَ فاخزّنوه في سنبله ، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذي تأكلونه ، وليكن قليلاً قليلاً لا تُسرفوا فيه ، لتنتفعوا في السبع الشداد ، وهُنَّ السبع السنين المُخل التي تعقب هذه السبع مُتواليات ، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السمان ، لأن سني الجذب يُؤْكَل فيها ما جمعه في سني الخُضْب ، وهُنَّ السنبلات اليابسات. وأخبرهم أنهم لا يُنْبِتُ شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء).

(1) وإن كان الأولى عدم إخبارهم بذلك العلم عن تفسير الرؤيا حتى يرفعوا عنه الظلم ليخرج ، كما سيأتي من حديث النبي ﷺ.

وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَصِنُونَ﴾ . قال قتادة: (﴿مِمَّا تَحْتَصِنُونَ﴾ : مما تدخرون). وقال ابن عباس: (تخزنون) أو قال: (تحزرون).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ .

أي: بشرهم بعد ذلك القحط والجذب بعام مطر وغيث ونماء ، تُغَلَّ فيه البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم ، من زيت ونحوه ، وسُكَّر ونحوه .

قال قتادة: (﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ ، قال: فيه يغاثون بالمطر). وعن ابن عباس: (﴿وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ ، قال: الأعناب والدُّهْن). وقال أيضاً: (﴿وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ ، السمسَم دهنًا ، والعنب خمراً ، والزيتون زيتاً). أو قال: (يصيبهم غيث ، فيعصرون فيه العنب ، ويعصرون فيه الزيت ، ويعصرون من كل الثمرات). وقال أيضاً: (﴿وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ ، قال: فيه يحلبون). فدخل في ذلك أيضاً حَلَب اللَّبَنِ . وهناك قراءة لأهل الكوفة: ﴿وَفِيهِ تَعَصِرُونَ﴾ .

50 - 53. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اأَلْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَآرَجَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٥٣﴾ .

في هذه الآيات: طَلَبُ الملك إحضار يوسف عند سماعه روائع التأويل ، واعتذار يوسف عن الخروج حتى تُظهر براءته ، ودعوة الملك النسوة وامرأة العزيز لإظهار الحقيقة ، واعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف وزلل نفسها الأمانة بالسوء ، والله غفور رحيم .

قال ابن إسحاق: (فخرج نبي⁽¹⁾) من عند يوسف بما أفتاهم به من تأويل رؤيا الملك ، حتى أتى الملك فأخبره بما قال ، فلما أخبره بما في نفسه كمثّل النهار ، وعرف أن الذي قال كائن كما قال ، قال: ﴿ أَتُؤْنِسُ يَهُدَى ﴾.

وقال السدي: (لما أتى الملك رسوله فأخبره ، قال: ﴿ أَتُؤْنِسُ يَهُدَى ﴾ ، فلما أتاه الرسول ودعاه إلى الملك ، أبى يوسف الخروج معه ، وقال: ﴿ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالَ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ، الآية. قال السدي: قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه ، ما زالت في نفس العزيز منه حاجة! يقول: هذا الذي راود امرأته).

وعن قتادة: (قوله: ﴿ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالَ الْيَسْوَةِ ﴾ ، أراد نبي الله عليه السلام أن لا يخرج حتى يكون له العذر). وقال ابن جريج: (أراد يوسف العذر قبل أن يخرج من السجن).

قلت: ولكن نبينا محمداً ﷺ أخبرنا أن الأولى في مثل هذه الأحوال الخروج من الضيق ومن تحت القيود والظلم ، فإن الضيق والسجن قد يسيء إلى دين العبد ويفتنه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الطغاة قد لا ينفع معهم بسط القضايا للاعتذار ، فإن الظلم دَيَّنَهُمْ ، ومن ثم فإن المسارعة إلى الخروج هو السنة .

فقد أخرج الطبراني بسند جيد عن ابن عباس مرفوعاً: [عَجِبْتُ لِصَبْرِ أَخِي يُوسُفَ وَكَرَمِهِ ، وَاللَّهِ يَغْفِرُ لَهُ حَيْثُ أُرْسِلَ إِلَيْهِ لِيُسْتَفْتَى فِي الرُّوْيَا ، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أَفْعَلْ حَتَّى أُخْرَجَ . وَعَجِبْتُ لِصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهِ يَغْفِرُ لَهُ أَنِّي لِيُخْرَجَ فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى أُخْبِرَهُمْ بِعُذْرِهِ ، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لَبَادَرْتُ الْبَابَ] (2).

وله شاهد من حديث الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ ثُمَّ جَاءَ الدَّاعِي لِأَجْبَتُهُ ، إِذْ جَاءَهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: ﴿ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالَ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنْ رَبِّي يَكْدِihنَّ عِلْمٌ ﴾] (3).

(1) هو اسم الرجل الذي نجا فيما ذكر ، واسم الآخر مجلث - الذي قُتل - وهما صاحبا السجن .

(2) صحيح لشواهده . أخرجه الطبراني (11640) ، وانظر مسند أحمد (2/232) ، وقد مضى بتمامه .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (2/232) ، وابن جرير في «التفسير» (12/139) ، وانظر

السلسلة الصحيحة (1867) . وكذلك أخرج الإمام أحمد اللفظ الآخر (2/389) ، رقم (9037) ،

وانظر تعليق أحمد شاكر: المسند رقم (8535).

وفي لفظ : [لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر].

وقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ﴾ - قال النسفي : (أي : إن كيدهم عظيم لا يعلمه إلا الله وهو مجازيهم عليه).

وقوله : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

أي : فلما رجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف دعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز ثم قال لهن ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ هل وجدتن منه ميلاً إليكن؟

وقوله : ﴿قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

أي : أجابت النسوة الملك : حاش لله أن يكون يوسف متهماً ، وما عهدنا عليه من سوء.

وقوله : ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ﴾ - من الحصص : استئصال الشيء .

أي : فعند ذلك قالت امرأة العزيز الآن ظهر الحق وتبين . قال ابن عباس : (﴿الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ﴾ ، قال : تبين). وقال ابن إسحاق : (قالت راعيل امرأة إطفير العزيز : ﴿الْفَن حَصَصَ الْحَقُّ﴾ ، أي : الآن برز الحق وتبين ، ﴿أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، فيما كان قال يوسف مما ادّعت عليه).

وقوله : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ وَالْغَيْبُ﴾.

هو من كلام امرأة العزيز - وقيل من كلام يوسف⁽¹⁾ ، أي : رددت الرسول ليعلم الملك براءتي وليعلم العزيز أنني لم أخنه في زوجته في غيابه - والأول أليق بالسياق ، وأنسب لتتابع أحداث القصة . فالمعنى : قالت امرأة العزيز : إنني أعترف أنني الذي راودته عن نفسه وزلت ، ليعلم زوجي أنني لم أخنه بارتكاب المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة ولم يقع ما كان يُتوقع .

وقوله : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾ - قال القرطبي : (معناه أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم).

(1) واختاره ابن جرير وابن أبي حاتم ، وقيل أراد : ليعلم الله أنني لم أخنه ، لأن المعصية خيانة . وما رجحناه أنه من كلام امرأة العزيز أشهر وأنسب بسياق القصة ، واختاره ابن كثير .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هو قول امرأة العزيز⁽¹⁾: أي وما أبرئ نفسي من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزيها في عموم الأحوال أو في هذه الحادثة ، فإن النفس لأماراة بالسوء في كل وقت. قال النسفي: (يعني أنها أماراة بالسوء في كل وقت إلا وقت العصمة ، أو هو استثناء منقطع ، أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة ، وقيل هو من كلام امرأة العزيز - أي: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أنني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه ، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة ، فإني قد خنته حين قرفته وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن - تريد الاعتذار مما كان منها ، إن كل نفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي - إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف - ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: استغفرت ربها واسترحمتها مما ارتكبت).

54 - 57. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

في هذه الآيات: استخلاصُ الملك يوسف لنفسه وتقريبه ، واختيار يوسف عليه الصلاة والسلام العمل على خزائن الأرض لحفظه وعلمه ، وكذلك كان تمكين الله ليوسف في الأرض والله لا يضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير وأحسن للمؤمنين المتقين .

فقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ - يعني ملك مصر - وذكر ابن إسحاق أنه الوليد بن الريان .

وقوله: ﴿أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي﴾ - قال سلمة ، عن ابن إسحاق: (حين تبين عذر

(1) أي: بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف - عليه السلام - عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك .

يوسف ، وعرف أمانته وعلمه ، قال لأصحابه : ﴿ أَتُؤْنِسُ بِيْهِ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي ﴾ ، يقول : أ جعله من خلصائي دون غيري).

وقوله : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : فلما كلم الملك يوسف ، وعرف براءته وعظم أمانته قال له : إنك ، يا يوسف ، ﴿ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ ، أي : متمكن مما أردت وعرض لك من حاجة قبلنا ، لرفعة مكانك ومنزلتك ، لدينا ، ﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما أوثمت عليه من شيء).

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

هو مسألة يوسف عليه الصلاة والسلام للملك ، ليوليه ما هو متقن في إدارته ، مختص في شؤونه. قال ابن إسحاق : (﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، إني حافظ لما استودعني ، عالم بما وليتني . قال : قد فعلت). وعن شيبه الضبي في قوله : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ ، قال : (على حفظ الطعام). وقال : (يقول : إني حفيظ لما استودعني ، عليم بسني المجاعة).

قال ابن كثير : (﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره ، للحاجة . وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ ، أي : خازن أمين ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ، ذو علم وبصر بما يتولاه . قال : وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ، ولما في ذلك من المصالح للناس ، وإنما سأل أن يُجعل على خزائن الأرض ، وهي الأهرار التي يجمع فيها الغلات ، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها ، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد . فأجيب إلى ذلك رغبة فيه ، وتكرمة له).

قلت : والآية تدل على أركان العمل الصالح ، أو العمل المقبول : 1 - الإخلاص . 2 - الصواب .

فقوله : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ يشير إلى الإخلاص . وقوله : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يشير إلى سلامة المنهج . وكذلك العمل الصالح لا بد فيه لينال رضوان الله وقبوله من الإخلاص والصواب . وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 110] .

2 - وقال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : 2] .

قال الفضيل بن عياض: (أخلصه وأصوبه) - وأخلصه أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى. وأصوبه: أن يكون على السنة. لذا لما قيل: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: (إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة).

وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند حسن، عن أبي سعيد مرفوعاً: [ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيزيّن صلاته، لما يرى من نظر رجل]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البيهقي وابن خزيمة من حديث محمود بن لبيد قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إياكم وشرك السرائر، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه. فذلك شرك السرائر]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: [أنه قال للنبي ﷺ: والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعدما حلفت عدد أصابعي هذه: أن لا أتيتك. فبالذي بعثك بالحق، ما الذي بعثك به؟ قال: الإسلام. قال: وما الإسلام؟ قال: أن تُسلم قلبك لله، وأن توجه وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلوات المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ﴾.

قال السدي: (استعمله الملك على مصر، وكان صاحب أمرها، وكان يلي البيع والتجارة، وأمرها كله). وعن مجاهد قال: (أسلم الملك الذي كان معه يوسف).

- (1) حديث حسن. أخرجه الإمام أحمد في المسند (30/3)، وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/497) لتفصيل هذا البحث - في النهي عن الرياء وحب الرياسة والشهرة والتعظيم.
- (2) أخرجه البيهقي في السنن (2/290)، وهو حديث حسن. وانظر فتح المجيد (440).
- (3) حديث حسن. أخرجه أحمد في مسند البصريين (19171) من حديث بهز عن أبيه عن جده مرفوعاً. وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/497) لتفصيل هذا البحث.

قال ابن زيد: ﴿يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ، قال: ملكناه فيما يكون فيها حيث يشاء من تلك الدنيا ، يصنع فيها ما يشاء ، فَوَضَعْتُ إِلَيْهِ).

والخلاصة: لقد مَنَّ الله تعالى يوسف عليه السلام في أرض مصر ، يتصرف فيها كيف يشاء ، ويتخذ منها منزلاً حيث يشاء ، بعد الضيق والحسب والإسار.
وقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: تنال رحمته تعالى من يشاء من عباده ، ولا يضيع جزاء من أحسن الطاعة وأقام الدين ، وعظَّم حرَمات الله ، كما كان ليوسف عليه الصلاة والسلام بعد الصبر على أذى إخوته واختيار السجن على المعصية ، فكتب الله له في النهاية السلامة والنصر والتأييد ، وكذلك حال كل مؤمن صبر على طاعة الله واجتناب معصيته ونصر دين ربه عز وجل.

يروى ابن جرير بسنده عن سلمة عن ابن إسحاق قال: (لما قال يوسف للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ ، قال الملك: قد فعلت! فولاه ، فيما يذكرون ، عملَ إطفير ، وعزل إطفير عما كان عليه. يقول الله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ، الآية. قال: فذكر لي ، والله أعلم ، أن إطفير هلك في تلك الليالي ، وأن الملك الرِّيان بن الوليد ، زَوَّج يوسف امرأة إطفير راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريد؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق ، لا تلمني ، فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ، ناعمة في مُلْكٍ ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حُسْنِك وهَيْئَتِكَ على ما رأيت. فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين: أفرائيم بن يوسف ، وميشا بن يوسف. وولد لأفرائيم نون ، والد يوشع بن نون ، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام).
وقوله تعالى: ﴿وَلَا جَرْءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾.

أي: ثم إن ما آذخه الله ليوسف في الآخرة من الأجر والثواب الجزيل والخلود في النعيم ، لهو أعظم من النفوذ والتمكين الذي أعطاه إياه في الدنيا ، وكذلك شأن من جاهد لإعلاء كلمة الله في الأرض ، فإن ما ينتظره في الآخرة من السرور والرزق الكريم أكبر من التمكين في الدنيا وسعادة قهر الأعداء ورؤية دين الله وشرعه يعلو كل منهج في الأرض.

وفي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى:

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر⁽¹⁾.

58 - 62. قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَرُودٌ عَنْهُ آبَاؤُا وَإِنَّا لَفَعْلُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا بَضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾ .

في هذه الآيات: بعد مضي سني الخصب السبع وتلتها سنين الجذب ، وعمَّ القحط بلاد مصر حتى وصل إلى بلاد كنعان ، التي يقطنها يعقوب عليه السلام وأولاده ، وقد مكَّن الله تعالى ليوسف في وزارته بتلك البلاد ، وبأشْرَ مَهَامُهُ فيها لتوزيع الثروات والغلات في أحسن وجه ، لمواجهة القحط وسنوات الجذب ، وكان بحق رحمة من الله على أهل مصر ، وهنا ورد عليه الناس من مختلف الأقاليم والأمصاّر ، يلتمسون عطاءه ويمتارون لأنفسهم وعيالهم ، وكان من جملة مَنْ وَرَدَ للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم لهم بذلك ، وكان بلغهم أن عزيز مصر يُعطي الناس الطعام بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً ، وركبوا عشرة نفر ، وبقي يعقوب مع ابنه بنيامين شقيق يوسف وأحب ولده له بعد يوسف ، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس على كرسي رياسته ووزارته في كامل أبته وسلطانه ، عرفهم حين نظر إليهم ، ولم يعرفوه ، إذ كانوا فارقوه صغيراً ولم يخطر ببال أحدهم أنه سيصير إلى ما آل إليه ، فسألهم كالمُنكر عليهم: ما أقدمكم بلادِي؟ قالوا: أيها العزيز ، إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان ، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: له أولادٌ غيركم؟ قالوا: نعم ، كنا اثني عشر ، فذهب أصغرنا ، هلك في البرية ، وكانَ أَحَبَّنَا إلى أبيه ، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم. ثم لما وقَّاهم كيلهم ، وحَمَلَ لهم أحمالهم قال: اتنوني بأخيكم هذا الذي

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3244) ، كتاب بدء الخلق ، وكذلك (4779) ، كتاب التفسير ، ورواه أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح (2824) .

ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ، ألا ترون وفائي ، وإن لم تفعلوا فلا كيل لكم عندي بعد اليوم . فوعده أن يفعلوا ، فأمر فتياه بإعادة بضاعتهم التي قدموا بها إلى رحالهم من حيث لا يشعرون ، حكمة منه بذلك .

فمن قتادة: ﴿وَهُمْ لَهُ مُكْرُونَ﴾ ، قال: لا يعرفونه).

وعن ابن إسحاق قال: (لما اطمأن يوسف في ملكه وخرج من البلاء الذي كان فيه ، وخلت السنون المخصصة التي كان أمرهم بالإعداد فيها للسنين التي أخبرهم بها أنها كائنة ، جُهدَ الناس في كل وجه ، وضربوا إلى مصر يلتمسون بها الميرة من كل بلدة . وكان يوسف ، حين رأى ما أصاب الناس من الجهد ، قد آسى بينهم ، وكان لا يحمل للرجل إلا بعيراً واحداً ، ولا يحمل للرجل الواحد بعيرين⁽¹⁾ ، تقسيطاً بين الناس وتوسيعاً عليهم . فقدم إخوته فيمن قدم عليه من الناس يلتمسون الميرة من مصر ، فعرفهم وهم له منكرون ، لما أراد الله أن يبلغ ليوسف عليه السلام فيما أراد) .

وعن السدي قال: (فلما نظر إليهم قال: أخبروني ما أمركم ، فإني أنكر شأنكم! قالوا: نحن قوم من أرض الشام . قال: فما جاء بكم؟ قالوا: جئنا نمتار طعاماً . قال: كذبتكم ، أنتم عيون ، كم أنتم؟ قالوا: عشرة . قال: فأخبروني خبركم؟ قالوا: إنا إخوة بنو رجل صديق ، وإنا كنا اثني عشر ، وكان أبونا يحب أختاً لنا ، وإنه ذهب معنا البرية فهلك منا فيها ، وكان أحبنا إلى أبينا . قال: فإلى من سكن أبوك بعده؟ قالوا: إلى أخ لنا أصغر منه) .

وعن ابن إسحاق قال: (لما جهَّز يوسف فيمن جهَّز من الناس ، حمَّل لكل رجل منهم بعيراً بعدتهم ، ثم قال لهم: ﴿أَتُؤْتِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْكُمُ﴾ ، أجعل لكم بعيراً آخر ، أو كما قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلُ﴾ ، أي: لا أبخس الناس شيئاً ، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ، أي: خير لكم من غيري ، فإنكم إن أتيتم به أكرمت منزلتكم ، وأحسنتم إليكم ، وازددتم به بعيراً مع عدتكم ، فإني لا أعطي كل رجل منكم إلا بعيراً ، ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ، لا تقربوا بلدي) .

(1) أي: في السنة الواحدة من تلك السنين . وذكر أنه كان - عليه السلام - لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار ، حتى يتكفى الناس بما في أيديهم مدة السبع السنين .

وعن قتادة: ﴿أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ ، يعني بنيامين ، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه).

وعن مجاهد: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ، يوسف يقوله: أنا خير من يُضيف بمصر).

وعن ابن إسحاق: ﴿وَلِنَّا لَفَعْلُونَ﴾ ، لنجتهن - أي: في إقناع أبنينا بإرساله معنا بنيامين - قال: (ثم أمر ببضاعتهن التي أعطاهم بها ما أعطاهم من الطعام ، فجعلت في رحالهم وهم لا يعلمون).

وفي تأويل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثلاثة أقوال ذكرها ابن جرير ومن بعده ابن كثير:

1 - قيل: خشي يوسف - عليه السلام - ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها.

2 - وقيل: تَدَمَّمُ أن يأخذ من أبيه وإخوته عَوْضاً عن الطعام.

3 - وقيل: أراد أن يَرُدَّهُمْ إذا وجدوها في متاعهم تَحَرُّجاً وتورُّعاً لأنه يعلم ذلك منهم. والله أعلم.

63 - 66. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ

فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَلِنَا لَهُ لِحَفِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَآتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾

في هذه الآيات: رُجوعُ إخوة يوسف إلى أبيهم يشكون إليه منع الكيل عنهم حتى يرسل معهم أخاهم ويتعهدون بحفظه. وَفَتَحَهُمْ متاعهم ليجدوا فيه بضاعتهم ردت

إليهم. وَإِزْسَالُ الأب ابنه معهم بعد أخذه التوثيق منهم على حفظه والله هو الحفيظ العليم.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فلما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم ، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ ، يقول: منع منا الكيل ، فوق الكيل الذي كِيلَ لنا ، ولم يكل لكل رجل منا إلا كيل بعير ، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ ، بنيامين يكتل لنفسه كيل بعير آخر زيادة على كيل أباعرنا ، ﴿وَلِنَا لَهُ لِحَفِظُونْ﴾ ، من أن يناله مكروه في سفره).

وقرأ عامة قراء المدينة: ﴿نَكْتَلْ﴾ ، وكذلك بعض أهل مكة والكوفة ، في حين قرأها بعض قراء الكوفة: ﴿يَكْتَلْ﴾ - بمعنى: يكتل هو لنفسه ، كما نكتال لأنفسنا. وكلاهما قراءتان معروفتان.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قال النسفي: (يعني أنكم قلتم في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ كما تقولونه في أخيه ، ثم خنتم بضمانكم ، فما يأمنني من مثل ذلك . ثم قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ - فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم - ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو أن ينعم علي بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين).

وقوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضَئَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾.

قال قتادة: (يقول: ما نبغي وراء هذا ، إن بضاعتنا ردت إلينا ، وقد أوفى لنا الكيل).

وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ - أي: ونطلب لأهلنا طعاماً فنشتريه لهم. ﴿وَنَحْفَظْ أَخَانَا﴾ ، الذي ترسله معنا ، ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ - وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام كان يعطي كل رجل حمل بعير. قال ابن جريج: (كان لكل رجل منهم حمل بعير. وقال مجاهد: حمل حمار⁽¹⁾).

(1) وهي لغة. قال القاسم: يعني مجاهد أن «الحمار» يقال له في بعض اللغات «بعير».

وقوله: ﴿ذَلِكَ كَيْدٌ يَسِيرٌ﴾ - قال ابن كثير: (هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أي: إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهما ما يعدل هذا).

وقوله: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ .
قال مجاهد: (إلا أن تهلكوا جميعاً). وقال قتادة: (إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك).

وقال ابن إسحاق: (إلا أن يصيبكم أمرٌ يذهب بكم جميعاً ، فيكون ذلك عذراً لكم عندي).

والمقصود: أن يعقوب عليه السلام أراد توثيق العهد مع بنيه ، لتأتني بأخيكم إلا أن يصيبكم ما لا قدرة على منعه .

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقُهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ . قال القرطبي: (أي: حافظ للحلف . وقيل: حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل). وقال ابن إسحاق: (وإنما فعل ذلك ، لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميزة التي لا غنى لهم عنها ، فبعثه معهم).

67 - 68. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ .

في هذه الآيات: نصيحة يعقوب - عليه السلام - لبنيه بعدم الدخول من باب واحد بل من أبواب متفرقة خشية العين عليهم ، وهو بذلك متوكل على الله حق التوكل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فقوله: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ .

قال الضحاك: (خاف عليهم العين). وقال قتادة: (خشي نبي الله ﷺ العين على بنيه ، كانوا ذوي صورة وجمال). وفي رواية قال: (كانوا قد أوتوا صورة وجمالاً فخشي عليهم أنفسهم الناس). وقال السدي: (خاف يعقوب ﷺ على بنيه العين ، فقال:

﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ فيقال: هؤلاء لرجل واحد! ولكن ادخلوا من أبواب متفرقة).

وكذلك قال ابن إسحاق: (لما أجمعوا الخروج ، خشي عليهم أعين الناس ، لهياتهم ، وأنهم لرجل واحد). وقال القاسمي: ﴿وَقَالَ﴾ أي أبوهم: ﴿يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ أي: لثلاث يستلفت دخولهم من باب واحد ، أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يعسّ للحاكم ، فيريب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد ، وزيّ متحد ، على بلدٍ هم غرباء عنه ، مما يلتفت نظر كل راصد. وكانت المدن وقتئذ مبنية لا ينفذ إليها إلا من أبوابها ، وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع في التنبه ، وإتباع البصر. وقيل: نهاهم لثلاث تصيبهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة).

وقوله: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

قال ابن كثير: (أي: هذا الاحتراز لا يردُّ قدر الله وقضائه ، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يُخالف ولا يمانع).

وقوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أي: وما الحكم إلا لله سبحانه ، لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه أحد ، وإنما أفوض أمري إليه ، وإلى الله فليفوض أموره المفوضون.

وقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾.

قال مجاهد: ﴿إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ، خيفة العين على بنيه).

وقال ابن إسحاق: (ما تخوَّف على بنيه من أعين الناس ، لهياتهم وعدَّتهم).

وقال ابن جرير: (ولما دخل ولد يعقوب من حيث أمرهم أبوهم ، وذلك دُخولهم مصر من أبواب متفرقة ، ﴿مَا كَانَ يُغْنِي﴾ دخولهم إياها كذلك ، ﴿عَنْهُمْ﴾ من قضاء الله الذي قضاه فيهم فحتمه ، ﴿مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ، إلا أنهم قضوا وطراً ليعقوب بدخولهم ، لا من طريق واحد ، خوفاً من العين عليهم ، فاطمأنت نفسه أن يكونوا أتوا من قبل ذلك ، أو نالهم من أجله مكروه).

قلت: وهذه الآية من جملة الآيات في القرآن الدالة على أثر العين ، وقد تنبّه

يعقوب صلوات الله وسلامه عليه إلى ذلك لما أوتي أبنأؤه من حسن الهيئة وجمال السمات ، فخشى عليهم من أنفس الناس .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۚ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : 51 - 52] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [يوسف : 67] .

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول: يروي الإمام البخاري في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفة فقال : [استرقوا لها فإن بها النظرة] (1) .

الحديث الثاني: يروي الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا] (2) . أي : إذا عُرف العائن - وهو الحاسد - يطلب منه الاغتسال ، ويجب عليه أن يفعل ، ثم يؤخذ هذا الماء ويصب على رأس المصاب وظهره فيبرأ بإذن الله .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال : [استعيذوا بالله من العين ، فإن العين حق] (3) .

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : [لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيتلقيه الدعاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة] (4) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ ﴾ .

قال قتادة : (أي : مما علمناه) - أي : وإن يعقوب لذو علم ، لتعليمنا إياه .

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5739) - كتاب الطب - باب رُقْيَةِ العين .
- (2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2188) - كتاب السلام - باب الطب والمرض والرقى .
- (3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (356/2) من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (737) .
- (4) حديث حسن . أخرجه الحاكم بسند حسن من حديث عائشة مرفوعاً . انظر تخريج مشكاة المصابيح (2234) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7616) .

وقال أيضاً: (إنه لعامل بما علم). وقال سفيان: ﴿وَلَيْتَهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ ، مما علمناه .
وقال: من لا يعمل لا يكون عالماً).

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ - قال ابن جرير: (ولكن كثيراً من الناس غير يعقوب ، لا يعلمون ما يعلمه ، لأننا حرّمناه ذلك فلم يعلمه).

69 - 76. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ عِيسَىٰ إِنَّكُم لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغِثَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: دُخُولُ إخوة يوسف على يوسف عليه الصلاة والسلام ، واختلاء يوسف بأخيه بنيامين وتعريفه بأمره ، واحتياؤ يوسف بالتواطؤ معه لإبقائه عنده معزراً مكرماً بقصة صواع الملك ، واستخراجها من وعاء أخيه ، وإخوته لذلك مندهشون .

فقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ .

أي: لما قدم إخوة يوسف ومعهم بنيامين رحّب بهم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وأنزلهم دار كرامته وأراهم حسن ضيافته ، واختلى بأخيه فأخبره بخبره وعرفه أنه أخوه ، وقال له: لا تحزن على ما صدر منهم نحوي ، واكتم ذلك بيني وبينك ، وتواطأ معه أنه سيحتال ليبقيه عنده معزراً مكرماً .

وقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ - قال قتادة: (فلا تحزن ولا تيأس).
وقال السدي: (يقول: لا تحزن على ما كانوا يعملون). قال ابن جرير: (فتأويل الكلام

إذن: فلا تحزن ولا تستكن لشيء سلف من إخوانك إليك في نفسك ، وفي أخيك من أمك ، وما كانوا يفعلون قبل اليوم بك) .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِمَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ .

قال قتادة: (يقول: لما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم). - يقول: جعل الإناء الذي يكيل به الطعام في رَحْلِ أَخِيهِ. والسقاية: المشربة. قال مجاهد: (السقاية: الصواع الذي كان يشرب فيه يوسف). وقال قتادة: (مشربة الملك).

قيل: هو إناء من ذهب كان يشرب به ويكيل الناس به من عَزَّةِ الطعام إذ ذاك - ذكره ابن عباس ومجاهد. وقيل: بل هو من فضة - وهو قول الأكثرين ، ذكره سعيد بن جبیر عن ابن عباس أيضاً.

والخلاصة: لقد احتال يوسف - عليه الصلاة والسلام - لإبقاء أخيه عنده فأمر بعض فتيانه أن يضع الإناء في متاع بنيامين من حيث لا يشعر بذلك أحد.

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَذْنُ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ .

أي: ثم نادى مناد بينهم قبل أن ترتحل العير: إنكم لسارقون.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴾ .

أي: قال بنو يعقوب حين سمعوا النداء وأقبلوا على المنادي ومن بحضرتهم يقولون لهم: ما الذي تفقدون؟

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَفْقَدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ صَوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ ، قال: كان من فضة مثل الموك. وكان للعباس منها واحد في الجاهلية. وقال سعيد بن جبیر: ﴿ صَوَاعَ الْمَلِكِ ﴾: وكان إناءه الذي يشرب فيه). وعن قتادة: ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ ، يقول: وقر بعير. ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ ، قال: كفيل).

قال ابن كثير: ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ ، وهذا من باب الجعالة ، ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ ، وهذا من باب الضمان والكفالة).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ .

قال الربيع: (يقول: ما جئنا لننقصي في الأرض). أي: لقد عرفتمونا منذ جئناكم وتحققتم أننا لسنا بأهل شرور وفساد - وقد شاهدوا منهم حُسن سيرة - وليست السرقة

من سجايانا. وقوله: ﴿تَاللَّهِ﴾ أصله «والله»، فقلبت الواو تاء لكثرة استخدام العرب لها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾.

أي: كيف ستكون عقوبة من وجدنا عنده ما نفقده؟

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال ابن إسحاق: ((فَهُوَ جَزَاؤُهُ)) ، أي: سُلِّمَ به ، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ، أي: كذلك نصنع بمن سرق مثلاً. وقال معمر: (أخبروا يوسف بما يحكم في بلادهم ، أنه من سرق أخذ عبداً). أي: يُدفع السارق إلى المسروق منه - هكذا في شريعة إبراهيم عليه السلام -.

وقوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾.

أي: ففتش يوسف عليه السلام أوعية إخوته من أبيه قبل تفتيشه وعاء بنيامين ، ثم فتش آخر ذلك وعاء أخيه فاستخرج الصواع من وعاء أخيه ، وإنما فعل ذلك تورية.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

قال ابن كثير: (فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه ، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ، وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه ، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. قال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ، أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر).

ومن أقوال أهل التأويل:

1 - عن مجاهد: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ، كادها الله له ، فكانت علة ليوسف. ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ، قال: إلا فعلة كادها الله ، فاعتل بها يوسف).

2 - وعن ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ، يقول: في سلطان الملك). وقال السدي: (في حكم الملك). وعن قتادة قال: (يقول: ما كان ذلك في قضاء الملك أن يستعبد رجلاً بسرقة). قال معمر: (كان حكم الملك أن من سرق ضوعف عليه الغرم).

3 - وعن ابن إسحاق: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ، أي: بظلم ، ولكن الله

كاد ليوسف ليضمّ إليه أخاه). قال ابن زيد: (ليس في دين الملك أن يؤخذ السارق بسرقة). قال: وكان الحكم عند الأنبياء ، يعقوب وبنيه ، أن يؤخذ السارق بسرقة عبداً (يسترَق).

قلت: وهذه الأقوال متقاربة في معناها متكاملة في مفادها ، فغاية القول: إن الله تعالى شاء ليوسف عليه السلام هذه الحيلة ليحتفظ بأخيه عنده ، فاستفاد من حكم السارق في شريعتهم - شريعة أبيهم يعقوب - أن يُسْتَرَقَّ فيصير عبداً للمسروق منه ، فأخذه بإقرارهم ، وما أراد يوسف من ذلك قضاء حكم ملك مصر وتعريض أخيه لقوانين تلك البلاد ، ليظلم بلا حجة وبلا ذنب.

قال القاسمي رحمه الله: (وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك ، وإلا ، لاستبد بما شاء ، وهذا من وفور فطنته ، وكمال حكمته ، ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر «ديناً» لها والآيات في ذلك كثيرة). وقال النسفي: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته فيه).

وقوله: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ - قال ابن جريج: (يوسف وإخوته ، أوتوا علماً ، فرفعنا يوسف فوقهم في العلم).

وقال ابن جرير: (بمعنى: نرفع منازل من نشأ رفع منازلهم ومراتبهم في الدنيا بالعلم على غيره ، كما رفعنا مرتبة يوسف في ذلك ومنزله في الدنيا على منازل إخوته ومراتبهم).

وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ - قال الحسن: (ليس عالمٌ إلا فوقه عالم ، حتى ينتهي العلم إلى الله). وعن قتادة: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ، حتى ينتهي العلم إلى الله ، منه بدئ ، وتعلّم العلماء ، وإليه يعود. وفي قراءة عبد الله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ عَلِيمٌ﴾.

77 - 79. قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ .

في هذه الآيات: تَصْرِيحُ إخوة يوسف تجاه الموقف باللمز بيوسف وتشبيه بنيامين به في صنيعة ، وَطَعْنُ يوسف بمقولتهم في نفسه ، واستِعْطافُ الإخوة يوسف لإطلاق بنيامين وأخذ أحدهم مكانه ، وإصرار يوسف على مقام العدل في محاسبة الجاني دون غيره .

فقوله: ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ - قال القاسمي: (هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به. أي: إِنَّ هَذَا فَعَلَ كَمَا فَعَلَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، يعنون به يوسف).

وعن ابن جريج: (قال: كانت أم يوسف أمرت يوسف يسرق صنماً لخاله يععبده ، وكانت مسلمة). وقال قتادة: (ذكر أنه سرق صنماً لجده أبي أمه ، فعيروه بذلك) ، وقيل غير ذلك ، والله تعالى أعلم.

قلت: والذي أرادوا من قولهم ذلك - كما ذكر ابن كثير والقاسمي وغيرهم - التنصل من فعل بنيامين ، ومحاولة طعنه مع أخيه أمام العزيز ليظهروا أمامه بالصفاء والصدق .

وقوله: ﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

قال ابن عباس: (يقول: أسَرَ في نفسه قوله: ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ . والمقصود: أن يوسف عليه السلام طعن في نفسه بشهادتهم الكاذبة ، بقوله: ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ ﴾ أي: منزلة ، حيث سرقتهم أخاكم من أبيكم ، ومكرتم به شر مكر ، ثم طفقتهم تفترون على بنيامين البريء ، والله أعلم بما تصفون من أمر يوسف وأخيه وبما تكذبون .

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قال النسفي: (﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ في السن وفي القدر ﴿ فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ ﴾ أبدله على وجه الاسترهان أو الاستبعاد ، فإن أباه يتسلى به عن أخيه

المفقود ﴿إِنَّا نَرْزُقُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا ، فأتتم إحسانك ، أو من عادتك الإحسان فأجر على عادتك ولا تغيرها).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾.

قال ابن إسحاق: (يقول: إن أخذنا غير الذي وجدنا متاعاً عنده ، إنا إذن نفعل ما ليس لنا فعله ونجورُ على الناس).

80 - 82. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

في هذه الآيات: فَقَدْ إخوة يوسف الأمل من إطلاق سراح بنيامين ، وتحاورهم في ذلك ، ورفض كبيرهم الرجوع معهم حتى يحظى بسماع والده ، ونصيحته لهم إخبار والدهم بحقيقة ما جرى وبتصديق أهل القرية لروايتهم.

فقوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ - أي: فلما يسسوا من يوسف أن يخلي سبيل بنيامين ويأخذ منهم واحداً مكانه. وقال ابن إسحاق: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ ، أي: خلا بعضهم ببعض ، ثم قالوا: ماذا ترون؟. والمقصود: أنهم انفردوا عن الناس يتناجون بينهم فيما حصل ، وينظرون كيف يخلصون من غضب أبيهم وسخطه وكيف يعتذرون!

وقوله: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾.

أي: قال أكبرهم وهو فيما ذكر - روبيل - ألم تعلموا - أيها القوم - أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله ومواثيقه لتردن إليه بنيامين إلا أن يحاط بكم ، هذا إضافة إلى ما كان من تفریطكم في يوسف من قبل.

وقوله: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

أي: فلن أغادر هذه البلدة حتى يسمح لي أبي بالرجوع إليه ، أو يحكم الله لي بأخذ أخي بالسيف أو بتمكينني من رده ، أو بما يشاء سبحانه وهو خير الحاكمين .

قال ابن إسحاق: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ ، التي أنا بها اليوم ، ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ ، بالخروج منها). وعن أبي صالح: ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ ، قال: بالسيف) - وكأنه أراد حربهم وتخليص أخيه من بين أيديهم. قال ابن جرير: ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ ، أو يقضي لي ربي بالخروج منها ، وترك أخي بنيامين ، وإلا فإني غير خارج ، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ، يقول: والله خير من حكم ، وأعدل من فصل بين الناس).

وقوله تعالى: ﴿ ارْجِعُوا إِلَى آبَيْكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بَنَاءُ ابْنِكُمْ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ .

أي: عودوا إلى آبائكم - وأنا في انتظاري هنا - فأخبروه بصورة ما وقع ليكون لنا عذراً عنده. قال مجاهد: ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ : ما كنا نظن ولا نشعر أنه سيسرق). وقال قتادة: (ما كنا نظن أن ابنك يسرق).

وقوله تعالى: ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ ، يعنون مصر). وعن ابن إسحاق: ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ ، فقد علموا ما علمنا وشهدوا ما شهدنا ، إن كنت لا تصدقنا ، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾).

قال ابن جرير: ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ ، وهي مصر ، يقول: سل من فيها من أهلها ، ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ ، وهي القافلة التي كنا فيها ، التي أقبلنا منها معها ، عن خبر ابنك وحقيقة ما أخبرناك عنه من سرقة ، فإنك تتخبر مصداق ذلك ، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ، فيما أخبرناك من خبره).

83 - 87. قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى

اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفَنِ عَلَى يُوسُفَ وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا نَالَهُ تَفْتَوًا نَذْكُرُ

يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي
وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ .

في هذه الآيات: تَلَقَّى يعقوب الخبر بالتشكيك بأولاده ، والصبر على المصائب
الجديد ، وتَذَكَّر يوسف والبكاء من شدة الحزن ، وبثه الشكوى إلى الله العظيم ، ثم
أمره لهم بالضرب في الأرض لالتماس خبر يوسف وأخيه ، وعدم القنوط من رحمة
الله ، فإنه لا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون .

فقوله: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ - قال قتادة: (يقول: زينت). أي: لما
رجع إخوة بنيامين إلى أبيهم وتخلف روبيل وأخبروه أنه سرق اتهمهم أبوهم بأنه قد
زينت لكم أنفسكم أمراً هممتم به . قال محمد بن إسحاق: (لما جاؤا يعقوب وأخبروه
بما جرى أتهمهم وظن أنها كفعلتهم بيوسف: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ ﴾).

وقوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ - أي: أصبر على ما نالني
من فقد ولدي صبراً لا شكاية فيه ولا جزع ، عسى الله أن يرد علي أولادي الثلاثة:
يوسف ، وبنيامين ، وروبييل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه .

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ - قال ابن جرير: ﴿ إِنَّهُمْ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ ،
بِوَحْدَتِي ، وبفقدهم وحزني عليهم ، وصدق ما يقولون من كذبه ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ،
في تدبيره خلقه).

وقوله: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ ﴾ - أي: أعرض عن بنيهِ وقد تجدد له
الحزن القديم وقال: ﴿ يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: يا حزني على
يوسف). والأسف أشد الحزن والتندم .

وعن ابن إسحاق: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ ، أعرض عنهم ، وتنام حزنه وبلغ مجهوده ،
حين لحق بيوسف أخوه ، وهَيَّجَ عليه حزنه على يوسف فقال: ﴿ يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ ﴾
وَأَبْضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ . وعن مجاهد: ﴿ يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ ﴾ ، قال:
يا جَزَعاه حزناً).

روى عبد الرزاق وابن جرير عن سعيد بن جبير أنه قال: (لم يُعْطَ أحدٌ غير هذه الأمة

الاسترجاع ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿يَكَاسِفُنِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ﴾. أي: من شدة الحزن. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ - قال مجاهد: (كظيم الحزن) - أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. وقال الضحاك: (كثيب حزين). وقال قتادة: (تَرَدَّدَ حُزْنُهُ فِي جَوْفِهِ ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِسَوْءٍ). أو قال: (كظيم على الحزن ، فلم يقل إلا خيراً).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

أي: قال بنو يعقوب له: إنك لا تزال تذكر يوسف حتى يجهدك المرض ويؤذي جسمك وعقلك أو يهلكك.

قال مجاهد: ﴿تَفْتَوُا﴾ ، تفتّر من حبه. أي: إنك لا تفتّر من حب يوسف واستعراض ذكره. وقال قتادة: (لا تزال تذكر يوسف).

وعن ابن عباس: ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ ، يعني الجَهْدَ في المرض ، البالي). وقال مجاهد: (الحرص ، ما دون الموت). وعن قتادة: ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ ، حتى تبلى أو تهرم).

وقال الضحاك: (الحرص: الشيء البالي الفاني). أو قال: (البالي المُدْبِر).

قال ابن جرير: (وأصل «الحرص» الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو العشق). والمقصود: إن كثرة ذكرك ليوسف يؤذي بدنك ويُعَلِّ صحتك وينعكس على نفسك وعقلك بالفساد والسوء - يقوله بنو يعقوب لأبيهم.

وقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ - قال مجاهد: (من الميتين). أي: تكون ممن هلك بالموت.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّفَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن عباس: ﴿بَنِي﴾ ، همي). وقال الحسن: (حزني). أو قال: (حاجتي) ، وقيل: غمي. وعن ابن إسحاق قال: (قال يعقوب عن علم بالله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّفَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، لما رأى من فظاظتهم وغلظتهم وسوء لفظهم له: لم أشك ذلك إليكم ، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾).

قال ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سوف أسجد له). وقال ابن كثير: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، أي: أرجو منه كل خير).

وقوله: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

أي: التمسوا خبر يوسف وأخيه وتعرفوا أمرهما. وأصل التحسس من الحس. وهو قول يعقوب لبنيه حين طمع في يوسف وأحسن قرب لقائه. قال السدي: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ، بمصر).

وقوله: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ - قال قتادة: (أي: من رحمة الله). وقال السدي: (من فرج الله أن يرد يوسف). وقال ابن زيد: (من فرج الله ، يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه).

قال ابن إسحاق: (ثم إن يعقوب قال لبنيه وهو على حسن ظنه بربه ، مع الذي هو فيه من الحزن: يا بني ، اذهبوا إلى البلاد التي منها جئتم ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ ، أي: من فرجه).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ - قال ابن جرير: (يقول: لا يقنط من فرجه ورحمته ، ويقطع رجاءه منه ، ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ، يعني: القوم الذين يجحدون قدرته على ما شاء تكوينه).

88 - 93. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ

وَجِئْنَا بِضِغَّةٍ مُرْجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ أَثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ

الرَّحِيمِ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُوفِ بِأَهْلِيكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ .

في هذه الآيات: عَوْدَةُ إِخْوَةِ يَوْسُفَ إِلَى مِصْرَ ، ودخولهم على يوسف ببضاعة قليلة ، وهم يرجونه رحمتهم في شأن أخيهم وحسن التزود من كيله ، وَكُشِفُ يَوْسُفَ الْحَقِيقَةِ فِي أَمْرِهِ ، واعترافهم له بالذنب وتفضيل الله له عليهم ، وصفحه هو عنهم ورجاؤه عفو الله عنهم ، وإعطاؤهم قميصه ليلقوه على وجه أبيهم ليرتد بصيراً بإذن الله ثم لياتوه أجمعين .

فقوله: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ - في الكلام محذوف ، والتقدير: فلما خرجوا من عند يعقوب وتوجهوا إلى مصر ودخلوا على يوسف . ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ - يعنون من الجَدْبِ والقُحْطِ وقلة الطعام .

وقوله: ﴿ وَجِئْنَا بِبُضْعَةٍ مُّزَجَّلَةٍ ﴾ - قال ابن إسحاق: (وخرجوا إلى مصر راجعين إليها ، ﴿ بِبُضْعَةٍ مُّزَجَّلَةٍ ﴾ ، أي: قليلة لا تبلغ ما كانوا يتبايعون به ، إلا أن يتجاوز لهم فيها ، وقد رأوا ما نزل بأبيهم ، وتتابع البلاء عليه في ولده وبصره ، حتى قدموا على يوسف . فلما دخلوا عليه قالوا: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ ، رَجَاءً أَنْ يَرْحَمَهُمْ فِي شَأْنِ أَخِيهِمْ ، ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾) .

وعن ابن عباس: ﴿ بِبُضْعَةٍ مُّزَجَّلَةٍ ﴾ ، قال: رَدِيَّةٌ زُيُوفٌ ، لا تنفق حتى يوضع منها). أو قال: (رَثَّةُ الْمَتَاعِ ، الحبلُ والغرارةُ والشيء). أو قال فيها: (كاسدة غير طائل). وعن مجاهد: ﴿ مُّزَجَّلَةٍ ﴾ ، قال: قليلة). وقال الضحاك: (كاسدة ، لا تنفق). وقال قتادة: (يسيرة).

وأصل الإزجاء: السَّوْقُ بدفع. قال القرطبي: (والمعنى أنها بضاعة تدفع ، ولا يقبلها كل أحد). وقال ثعلب: (البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة).

قلت: والمقصود أنهم قدموا ليمتاروا بثمرن طعام قليل .

وقوله: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ - قال ابن كثير: (أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك . وقرأ ابن مسعود: ﴿ فَأَوْقِزْ رُكَابَنَا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾) . وعن ابن جريج: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ ، قال: رُدَّ إِلَيْنَا أَخَانًا).

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ ، يقولون: تصدَّق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتجوَّزْ فيها).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ - يعني في الدنيا والآخرة. فهو سبحانه يثيب المتفضلين على أهل الحاجة بأموالهم.

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك ، أنه حَدَّثَ عن رسول الله ﷺ: [إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمَلَ حَسَنَةً أَطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعِيقُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا ، عَلَى طَاعَتِهِ⁽¹⁾].

وقوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ - قال القرطبي: (استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ ، وهو الذي قال الله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ [يوسف: 15] الآية).

وعن ابن إسحاق قال: (ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام ، غلبته نفسه ، فإرفَضَ دمه بأكياً ، ثم باح لهم بالذي يكتُم منهم ، فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾).

وخلاصة المعنى هي كما ذكر ابن كثير: (أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجذب. وتذكَّرَ أباه وما هو من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسَّعة ، فعند ذلك أخذته رِقَّةٌ ورأفةٌ ورحمةٌ وشفقة على أبيه وإخوته ، وبَدَرَه البكاء ، فتعرَّفَ إليهم ، يقال: إنه رفع التاج عن جبهته ، وكان فيها شامةٌ ، وقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾).

وقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ - أي: بإثم العمل الذي أقدمتم عليه وتبعاته.

وقوله: ﴿قَالُوا أَتَىكَ لَآتٍ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

قال ابن إسحاق: (لما قال لهم ذلك ، يعني قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ، كشف الغطاء فعرّفوه ، فقالوا: ﴿أَتَىكَ لَآتٍ يُّوسُفُ...﴾ ، الآية).

قال ابن جرير: ﴿وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ، بأن جمع بيننا بعد ما فرقتم بيننا).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) (56) (57) ، كتاب صفات المنافقين ، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَتَقٍ وَيَصْبِرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنه من يجمع بين التقوى والصبر على المحن وعلى طاعة الله فإن الله يحفظ ذلك له ، ويبدله بالإحسان الإحسان.

قال مجاهد: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَتَقٍ وَيَصْبِرٍ﴾ ، يقول: من يتق معصية الله ، ويصبر على (السجن).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾.

هو اعتراف إخوة يوسف له بالفضل والرفعة والأثرة عليهم في الخلق والخلق ، والسعة ، والملك ، والتصرف والنبوة. قال قتادة: ﴿تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا﴾ ، وذلك بعدما ما عَرَفَهُمْ أنفسهم. يقول: جعلك الله رجلاً حليماً).

وعن السدي قال: (لما قال لهم يوسف: ﴿أَنَا يُسُفٌ وَهَذَا أَخِي﴾ ، اعتذروا إليه وقالوا: ﴿تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ ، فيما كنا صنعنا بك).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. قال ابن إسحاق: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ﴾ أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم).

وعن السدي قال: (اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ﴾ ، يقول: لا أذكر لكم ذنبكم). قال ابن جرير: (يقول: لا تعير عليكم ، ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة ، ولكن لكم عندي الصفح والعفو).

قال ابن كثير: (يقول: لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد ذنبكم في حقي بعد اليوم. ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال السدي: (قال لهم يوسف: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: لما فاته بنيامين عمي من الحزن. قال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾).

قلت: وهذا بلا شك من النبوة ، فإن يعقوب - عليه السلام - كان قد عمي من كثرة

البكاء ، فأمر يوسف - عليه السلام - إخوته بإلقاء قميصه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره بإذن الله ، كما أمرهم بإحضار جميع أهلهم إليه لتتم الآية ويحصل تأويل الرؤيا .

94 - 98. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ٩٤ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ٩٥ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٩٦ ﴿قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ٩٧ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ٩٨ .

في هذه الآيات: شعور يعقوب عليه السلام بريح يوسف عند قدوم العير ، واستنكار الأولاد شعور أبيهم ، وتصديق الشعور بإلقاء البشير القميص على وجه يعقوب وعودته بصيراً ، واعتراف الأبناء أمام أبيهم راجين عفوه وصفحته عنهم ، واستغفار يعقوب ربه تعالى لأبنائه والله هو الغفور الرحيم .

فقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ .

قال ابن عباس: (هاجت ريح فجاءت بريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال) .

أي: لما خرجت عير بني يعقوب من عند يوسف متوجهة إلى يعقوب قال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ .

وعن مجاهد: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ . قال: تُسَفِّهُونَ . وقال الحسن: (تُهَرِّمُونَ) . وقال الضحاك: (تكذبون) : والتفنيد: الإفساد ، فيدخل في مفهومه الضعف والهرم والكذب وذهاب العقل .

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ .

قال ابن عباس: (يقول: خطئك القديم) . وعن قتادة: (أي: من حب يوسف ، لا تنساه ولا تسلاه) . قالوا لوالدهم كلمة غليظة ، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبي الله ﷺ . وعن ابن إسحاق قال: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ، أي: إنك لمن ذكر يوسف في الباطل الذي أنت عليه) .

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۚ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ الْبَشِيرُ ﴾: (البريد). والمقصود: لما جاء البشير من عند يوسف ، وهو المبشِّر برسالة يوسف ، فوصل إلى يعقوب فألقى القميص على وجهه فارتد بصره بإذن الله . فعندها قال يعقوب لبنيه: ألم أقُلْ لكم إني أعلم من الله أنه سيرد عليّ يوسف وستكشف القصة ويظهر أمر الرؤيا. قال ابن جرير: (لأن رؤيا يوسف كانت صادقة ، وكان الله قد قضى أن أخيراً أنا وأنتم له سجدوا ، فكنت موقناً بقضائه - يقول يعقوب).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٧﴾ ۖ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

أي: فلما أبصر بنو يعقوب المشهد أمامهم ، أيقنوا أن الله تعالى قد كشف الأمر وأعز يوسف عليه الصلاة والسلام ، فعندئذ طلبوا من أبيهم أن يسأل ربه تعالى ليعفو عنهم ويستر عليهم ذنوبهم التي كانوا أذنبوها في حق يعقوب أبيهم وابنه يوسف أخيهم ، فلا يعاقبهم بها يوم القيامة ، وهاهم يعترفون بذنبهم ويقرون بما صدر منهم . فأجابهم يعقوب عليه السلام إلى طلبهم: أن سوف أسأل ربي عز وجل أن يعفو عنكم ويصفح عن ذنوبكم ، إنه هو الغفور الرحيم .

99 - 100. قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ

ادْخُلُوا مَصْرَ ۖ إِنَّ شَاءَ اللَّهِ ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ۖ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ ۖ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ ۖ إِنَّ نَزْعَ الشَّيْطَانِ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: قُدُومُ موكب يعقوب عليه الصلاة والسلام وزوجته - أم يوسف - ، وبنيه بلاد مصر ، للقاء يوسف عليه الصلاة والسلام ، وقد كان حَمَلٌ إخوانه الأمر أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أُخبر يوسف - عليه السلام - باقترابهم خرج هو والملك لتلقي نبي الله

يعقوب ﷺ. وقد أمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج والمشاركة باستقبال موكب والذي يوسف وعائلته ، فكان الاستقبال الرائع من يوسف لأبويه ودخلوا مصر بإذن الله آمنين. ورفع يوسف أبويه على سريره وخرّوا له سجداً ، وأخبرهم حصول تأويل رؤياه في هذا المشهد الرهيب بعد رحلة شاقة طويلة بين السجن والغربة وفراق الأبوين ونزغ الشيطان بينه وبين إخوته ، والله لطيف في تقديره وهو العليم الحكيم.

فعن السدي قال: (فحملوا إليه أهلهم وعيالهم ، فلما بلغوا مصر ، كلّم يوسف الملك الذي فوقه ، فخرج هو والملوك يتلقّونهم ، فلما بلغوا مصر قال: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ ، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾).

وعن ابن إسحاق: (﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ، قال: أباه وأمه).

وقوله: ﴿وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ - قال ابن كثير: (ما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآوهم إليه: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ﴾ ، وضمّنه: اسكنوا مصر؟ ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ ، أي: مما كنتم فيه من الجهد والفحط ، ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدة ببركة قدوم يعقوب عليهم. كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعني عليهم بسنع كسنع يوسف»⁽¹⁾ ، ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك ، فدعا لهم ، فزفّع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام).

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

قال مجاهد: (العرش: السرير). وقال ابن زيد: (﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، قال: مجلسه). والمقصود أن يوسف رفع أبويه على السرير ، أي: أجلسهما معه على سريره. وعن ابن عباس: (﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ ، يقول: رفع أبويه على السرير وسجدا له ، وسجد له إخوته).

وقال ابن إسحاق: (تحمل - يعني يعقوب - بأهله حتى قدموا على يوسف ، فلما اجتمع إلى يعقوب بنوه ، دخلوا على يوسف ، فلما رأوه وقعوا له سجوداً ، وكانت تلك تحية الملوك في ذلك الزمان ، أبوه وأمه وإخوته).

قال ابن كثير: (وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له ،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1007) ، (1020) ، ومسلم (2798) ح (40) ، وأحمد (380/1) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى - عليه السلام - فحرّم هذا في هذه الملة ، وجُعِلَ السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى . هذا مضمون قول قتادة وغيره . وفي الحديث ، أن معاذاً قدّم الشام فوجدَهم يسجدون لأسافقتهم ، فلما رجَعَ سَجَدَ لرسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: إني رأيتهُم يسجدون لأسافقتهم ، وأنت أحق أن يُسجدَ لك يا رسول الله! فقال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ الزوجة أن تسجدَ لزوجها من عِظَم حَقِّه عليها»⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَوَلَّى بِهِ بَنِيَّ قَدْ جَعَلَهَا رِيَّ حَقًّا﴾ .

قال يوسف لأبيه: يا أبت ، هذا ما آلت إليه رؤيائي أيام الصبا ، حين رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر كلهم لي ساجدون ، فهو هذا السجود الذي سجدت أنت وأمي وإخوتي لي ، فقد حقّقها ربي عز وجل .

وقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ .

قال قتادة: (وكان يعقوب وبنوه بأرض كنعان ، أهل مواسٍ وبرية) .

وقال ابن جريج: (كانوا أهل بادية وماشية ، وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين ، من غور الشام ، قال: وبعضٌ يقول: كانوا بالأولاج من ناحية شُعب أسفل من حُسمى ، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل) .

والخلاصة: يتذكر يوسف عليه الصلاة والسلام نعم الله عليه إذ أخرجه من السجن وعزّزه وكرّمه ، وحمل إليه أهله من البادية ليرويه على أحسن حال ، وفي أبته الملك والسلطان ، ومع ذلك فهو يملك نفساً عالية رفيعة بعيدة عن أحوال الملوك والسلطين وما يعتريهم من الكبر والعجب ، وهو اليوم يصفح عن إخوته ولا يشمت بهم ولا يجرح مشاعرهم بل يقول: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رِئِي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

قال النسفي: (ولم يذكر الجُبَّ لقوله لا تثريب عليكم اليوم ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب مواسٍ ينتقلون في المياه والمناجع ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: أفسد بيننا وأغرى ﴿إِنَّ رِئِي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: لطيف

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2322) ، والبغوي في «التفسير» (587) من حديث معاذ بن جبل ، وأخرجه ابن ماجة (1853) ، وأحمد (381/4) ، وابن حبان (4171) من حديث ابن أبي أوفى .

التدبير ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ بتأخير الآمال إلى الآجال أو حكم بالاثتلاف بعد الاختلاف).

101. قوله تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقَنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾.

في هذه الآية: التجاء يوسف عليه الصلاة والسلام إلى ربه بالدعاء بعد تمام نعمه سبحانه عليه ، من قوة السلطان وحسن التمكين ، وتأويل الأحلام للسائلين ، والحكم والعلم والنبوة ، ل يتم نعمته عليه بحسن الختام ، والوفاء على الإيمان ، والالحاق بالصالحين .

فمن مجاهد: (في قوله: ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ، قال: العبارة).

وعن الضحاك يقول: في قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقَنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ، يقول: (توفني على طاعتك ، واغفر لي إذا توفيتني).

قال ابن جرير: (قال يوسف: بعدما جمع الله له أبويه وإخوته ، وبسط عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكنه في الأرض ، متشوقاً إلى لقاء آبائه الصالحين: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ ، يعني: من ملك مصر ، ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ، يعني من عبارة الرؤيا ، تعديداً لنعم الله عليه ، وشكراً له عليها ، ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، يقول: يا فاطر السماوات والأرض ، يا خالقها وبارئها ، ﴿ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ، يقول: أنت وليي في دنياي على من عاداني وأرادني بسوء بنصرك ، وتغذوني فيها بنعمتك ، وتليني في الآخرة بفضلك ورحمتك ، ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ ، يقول: اقضني إليك مسلماً ، ﴿ وَالْحَقَنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ، يقول: والحقني بصالح آبائي إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك).

قلت: وليس في الآية ما يدل على تمني يوسف الموت ، أو أنه أول من تمناه من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، بل غاية المعنى أنه يسأل حسن الختام ، والوفاء على الإيمان ، وأن يلحقه الله تعالى عند وفاته بآبائه الصالحين .

وقد جاءت سنة نبينا محمد ﷺ بأفاق هذا المعنى ، في أحاديث ، منها :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَّ نَزْلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أم الفضل رضي الله عنها : [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِمْ ، وَعَبَّاسُ عَمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَشْتَكِي ، فَتَمَنَّى عَبَّاسُ الْمَوْتَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَا عَمُّ ! لَا تَتَمَنَّي الْمَوْتَ ، فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا ، فَأَنْ تَوَخَّرَ تَزْدَادَ إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِكَ خَيْرَ لَكَ ، وَإِنْ كُنْتَ مُسِيئًا فَأَنْ تَوَخَّرَ فَتَسْتَعْتَبَ مِنْ إِسَاءَتِكَ خَيْرَ لَكَ ، فَلَا تَتَمَنَّي الْمَوْتَ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وأحمد من حديث معاذ وابن عباس - في قصة المنام - والدعاء الذي دعا فيه النبي ﷺ مما علّمه الله تعالى وقال له : [يَا مُحَمَّدُ ! إِذَا صَلَّيْتَ فَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ، وَتَرْحَمَنِي ، وَتَتُوبَ عَلَيَّ ، وَإِذَا أَرَدْتَ بَعَادَكَ فَتَنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُفْتُونٍ]⁽³⁾.

102 - 107. قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ .

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى نبيه ﷺ أن ما قصّه عليه في هذه السورة من أنباء

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6351) - كتاب الدعوات ، ومسلم (2682) ، وأبو داود (3109). وأخرجه أحمد في المسند (514/2) ، والنسائي (3/4) ، وابن ماجه (4265) من طرق.
- (2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (339/1) ، والبيهقي (377/3) ، وهو على شرط الإمام البخاري.
- (3) حديث صحيح. انظر سنن الترمذي (3235) ، ومسند أحمد (243/5) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (59) ، وصحيح سنن الترمذي (2580) - (2582).

الغيب إنما هو لتثبته على الصراط فيما يلاقيه من أذى قومه وتكذيبهم ، وبأن المكر سيرجع على المكره بالنكال والوبال . إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَفِيدُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي هَذَا الْكُونِ الْفَسِيحِ بَلْ يَعِشُونَ مُسْتَكْبِرِينَ مُشْرِكِينَ . فهل أمنوا مكر الله وعذابه أو الساعة تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون؟!

فقوله : ﴿ ذَلِكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ - قال ابن جرير : (يقول : من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تعينه ، ولكننا نوحيه إليك ونعرفكه لنثبت به فؤادك ، ونشجع به قلبك ، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله ، وتعلم أن من قبلك من رسل الله ، إذ صبروا على ما نالهم فيه ، وأخذوا بالعفو ، وأمروا بالعزف ، وأعرضوا عن الجاهلين ، فازوا بالظفر ، وأيدوا بالنصر ، ومكَّنوا في البلاد ، وغلبوا من قصدوا من أعدائهم وأعداء دين الله) .

وقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ - قال ابن عباس : (هم بنو يعقوب) . وقال قتادة : (يقول : ما كنت لديهم وهم يلقونه في غِيَابَةِ الجب) .

والمعنى : ما كنت يا محمد حاضراً عند إخوة يوسف ، حين عزموا على إلقاء يوسف في غيابة الجب واجتمعت آراؤهم على ذلك المكر ، ولكن أعلمناك به وحيّاً أنزلناه إليك . وفي التنزيل نحو هذا كثير :

1 - قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : 44] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [القصص : 44] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [القصص : 46] .

4 - وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [ص : 69 - 70] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال النسفي : (أراد العموم أو أهل مكة ، أي : وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم) . وقال ابن كثير : (يقرر تعالى أنه رسوله ، وأنه قد أطلعه على

أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس).

قلت: والآية في ذم الكثرة الضائعة ، فإن القلة المؤمنة ممدوحة وعليها يعول. وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَن تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116].

2 - قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 8].

وفي صحيح مسلم عن عمير بن هانئ قال: سمعت معاوية على المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضُرُّهم مَنْ خَذَلَهُمْ أو خالفهم ، حتى يأتي أمرُ الله وهم ظاهرون على الناس]⁽¹⁾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْتَلْهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

أي: وإنك لا تسألهم - يا محمد - على دعوتك لهم ونصحك لنجاتهم في الدنيا والآخرة أجراً أو مالاً ، وإنما تبغني من وراء ذلك رضوان الله ، وإن هو إلا ذكر لهم ليتذكروا ويتعظوا وليكونوا من الناجين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

قال القاسمي: (أي: وكمن من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونعوته الجليلة ، في السماوات: من كواكبها وأفلاكها ، وفي الأرض: من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحياء ، وأموات ، يشاهدونها ، ولا يعتبرون بها).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾.

قال ابن عباس: (من إيمانهم ، إذا قيل لهم: من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله» ، وهم مشركون). وقال عكرمة نحوه: (فذلك إيمانهم بالله ، وهم يعبدون غيره). وعن قتادة قال: (إنك لست تلقى أحداً منهم إلا أنبأك أن الله ربه ، وهو الذي خلقه ورزقه ، وهو مشرك في عبادته).

وعن الضحاك قال: (كانوا يشركون به في تلبيتهم). وعن ابن عباس: (ولئن

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1037) - كتاب الإمامة - ، وانظر (1921) ، (1923) من الباب نفسه.

سألتهم: من يرزقكم من السماء والأرض؟ ليقولن: الله. وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره، ويسجدون للأنداد دونه).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى، في أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال فيقول رسول الله ﷺ: وَيْلَكُمْ! قَدْ قَدْ⁽¹⁾، فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تَمْلِكُهُ وما مَلَك. يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه، عن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظمُ عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، - قلت: إن ذلك لعظيم -، قلت: ثم أي؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حيلة جارك]⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج الحكيم الترمذي ونحوه أبو يعلى بسند جيد في الشواهد عن أبي بكر مرفوعاً: [الشُّرك فيكم أخفى من ديبب النَّمْل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم]⁽⁴⁾.

الحديث الرابع: أخرج الترمذي من حديث ابن عمر مرفوعاً: [من حلف بغير الله فقد أشرك]⁽⁵⁾.

الحديث الخامس: أخرج أحمد وأبو داود بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً: [إن الرُّقى والتَّمَائم والتَّولة شرك]⁽⁶⁾.

(1) أي كفاكم فاقصروا عليه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1185) - كتاب الحج - باب التلبية وصفتها ووقتها.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4477) - كتاب التفسير - سورة البقرة، آية (22).

(4) صحيح لشواهد. أخرجه الحاكم الترمذي من حديث أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً. انظر مجمع الزوائد (10/224)، وفتح المجيد (83)، وصحيح الجامع (3625).

(5) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1535)، وأحمد (34/2، 87، 125)، وأبو داود (3251).

(6) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3883)، وأحمد (381/1)، وابن ماجه (3530)، والبيهقي (350/9). وفي لفظ عند أحمد: [الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهب بالتوكل].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال مجاهد: (﴿ أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ ، قال: تغشاهم). وقال قتادة: (أي: عقوبة من عذاب الله). أو قال: (وقية تغشاهم من عذاب الله).

والمقصود: هل آمن هؤلاء المشركون أن يغشاهم عذاب قريب من الله فيهلكهم أو تأتيمهم القيامة فجأة وهم مقيمون على جحودهم وشركهم.
وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: 45 - 47].

2 - وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (١٧) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَيًّا وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَهْلُ الْقَوْمِ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: 97 - 99].

أخرج أبو نعيم والبزار عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمينين ولا خوفين ، إن هو أمني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمنت يوم أجمع عبادي] ⁽¹⁾.

108 - 111. قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ

(1) حديث حسن . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (98/6) ، ورواه البزار كما في «المجمع» (308/10) .
وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (4208) .

وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ .

في هذه الآيات: خاتمة رائعة في أعقاب أحداث هذه السورة الكريمة ، فيها تأكيد على وجوب لزوم منهاج النبوة في الدعوة إلى الله والصبر على الأذى ، ودعوة الناس للاعتبار بقصص القرآن والاستعداد للآخرة ، وتأكيد على النصر والتمكين للرسول وأتباعهم في نهاية الرحلة والمجاهدة للمعاندين والمستكبرين والمجرمين. إن في قصص القرآن عبرة لأولي الألباب وتأكيد على ثواب المنهج وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

فعن الربيع بن أنس قوله: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ ، قال: (هذه دعوتي). وقال ابن زيد: (هذا أمري وستي ومنهاجي). قال النسفي: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ : هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي . والسبيل والطريق يذكران ويؤثنان).

وقوله: ﴿ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي ﴾ - أي: أَدْعُو إلى الدين الحق على حجة واضحة وبرهان ساطع ، فهو شأني وشأن من سار على منهجي واتبع أثري .
قال ابن زيد: (وحقاً والله على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ، ويدكر بالقرآن والموعظة ، وينهى عن معاصي الله).

فإن كان قوله: ﴿ وَمَنِ اتَّبَعْتِي ﴾ معطوفاً على الضمير في ﴿ أَدْعُوا ﴾ ، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله ، وإن كان معطوفاً على الضمير المنفصل ، فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم - ذكره العلامة ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية ثم قال: (وكلا المعنيين حق) .-

وقوله: ﴿ وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . - قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ وَسُبْحَنَ اللَّهُ ﴾ ، أي: وَأَنْزَرَهُ اللهُ وَأَجَلَّهُ وَأَعْظَمَهُ وَأَقْدَسَهُ ، عن أن يكون له شريك أو نظير ، أو عدل أو نديد ، أو ولد أو والد أو صاحبة ، أو وزير أو مُشِيرٌ ، تبارك وتقدس وتنزه تعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ، ﴿ نَسِجَ لَهُ السُّبُوتَ السَّعْبَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: 44] .

وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ . - قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وما أَرْسَلْنَا ، يا محمد ، من قبلك إلا رجالاً ، لا نساء ولا ملائكة). قال ابن عباس: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتُم). وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 20].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: 8 - 9].

وقوله: ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ﴾. - أي: نوحى إليهم آياتنا الدالة على إفراد الله بالدعاء والتعظيم ، وهم من أهل الأمصار دون البوادي .

والقرى: جمع قرية ، وهي لغة: المصر الجامع . لأن القرية كل مكان اتصلت به الأبنية ، واتخذ قراراً ، والمراد هنا المدن دون البوادي ، فأهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل البادية الذين يغلب عليهم الجفاء لتأثرهم بقسوة الريف والسواد .

وعن قتادة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ ، لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود⁽¹⁾ .

وفي التنزيل: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ﴾ [التوبة: 97].

أخرج الإمام أبو داود بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا ، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتِنَ]⁽²⁾ .

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ .

قال ابن جريج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ ، من أهلكنا؟ قال لقريش: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا في آثارهم ، فيعتبروا ويتفكروا؟ .
وقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

قال القرطبي: (والمراد بهذه الدار الجنة ، أي: هي خير للمتقين . وقرئ: ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ﴾ . وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب .
الباقون بالياء على الخبر) .

(1) أهل العمود: هم أهل البادية ، والمراد بالعمود الخشبة القائمة وسط الأخبية والخيام ، وهي بيوت أهل البوادي ، ولذلك سمي أهل البادية أهل العمود .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2859) - كتاب الصيد - باب في اتباع الصيد ، وانظر صحيح سنن أبي داود (2486) ، ورواه أحمد وبعض أهل السنن ، انظر صحيح الجامع (6172) .

وقال القاسمي: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تستعملون عقولكم ، فتعلموا أن الآخرة خير ، أو تعلموا كيف عاقبة أولئك).

وفي التنزيل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿٥٦﴾ [غافر: 51 - 52].

وأضاف الدار إلى الآخرة نحو قولك صلاة الأولى ، ومسجد الجامع ، وبارحة الأولى. والتقدير على قول البصريين: ولدار الحال الآخرة خير ، ولا شك أن المقصود الجنة.

وفي صحيح البخاري عن جابر قال: [جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ فقال بعضهم: إنه نائم ، وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً. فقالوا: مثله مثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدة وبعث داعياً. فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة. فقالوا: أولوها له يفقهها. فقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. الدار الجنة ، والداعي محمد. فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس] (1).

وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

إخباراً من الله تعالى أنه ينزل نصره وفرجه على رسله حالة اشتداد الضيق وحصول العنت ، وتطلع القلوب المؤمنة إلى الله بالفرج واليسر بعد العسر.

وفي قوله ﴿كُذِّبُوا﴾ قراءةان:

1 - القراءة الأولى بالتخفيف ، ﴿كُذِّبُوا﴾ وهي قراءة ابن عباس ، وأهل المدينة والكوفة.

2 - القراءة الثانية بالتشديد ، ﴿كُذِّبُوا﴾ ، وهي قراءة عائشة رضي الله عنها ، وأهل الشام.

فعلى القراءة الأولى يكون التأويل على عدة أقوال:

1 - قال ابن عباس: (لما أيسر الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (7281) ، وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان - عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (782 / 2 - 783) لمزيد من التفصيل.

الرسول قد كَذَّبُوهم ، جاءهم النصر على ذلك ، ففَنَجَّيْ من نشاء).

2 - قال ابن زيد: (استيأس الرسول أن يؤمن قومهم بهم ، وظنَّ قومهم المشركون أن الرسول قد كَذَّبُوا ما وعدهم الله من نصره إياهم عليهم ، وأخلفوا ، وقرأ: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ ، قال: جاء الرسول النصر حيثنَّذ. قال: وكان أبي يقرؤها: ﴿كُذِّبُوا﴾).

3 - قال ابن جريج: (أخبرني ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس قرأ: ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾ ، خفيفة ، قال ابن جريج: أقول كما يقول: أخلفوا. قال عبد الله: قال لي ابن عباس: كانوا بشرأ. وتلا ابن عباس: ﴿حَقَّ يَقُولُ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214] ، قال ابن جريج: قال ابن أبي مليكة: ذهب بها إلى أنهم ضَعُفُوا فظنوا أنهم أخلفوا).

وعلى القراءة الثانية يكون التأويل:

4 - قال قتادة: (حتى إذا استيأس الرسول من إيمان قومهم ، وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا ، أي: استيقنوا أنه لا خير عند قومهم ولا إيمان ، ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾).

5 - أخرج البخاري في صحيحه عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة: أنه سأل عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: رأيت قول الله: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ أو كُذِّبُوا؟ قالت: بل كَذَّبهم قومهم ، فقلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم كَذَّبُوهم وما هو بالظن ، فقالت: يا عُرَيْثُ ، لقد استيقنوا بذلك ، قلت: فلعلها أو كُذِّبُوا ، قالت: معاذ الله ، لم تكن الرسل تُظُنُّ ذلك برَبِّها ، وأما هذه الآية قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وَصَدَّقُوهم وطال عليهم البلاء واستأخَرَ عنهم النَّصْرُ حتى إذا اسْتَيْسَسَتْ مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قومهم ، وظنوا أن أتباعهم كَذَّبُوهم جاءهم نصر الله⁽¹⁾.

قال القرطبي: ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾ - وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغي الوقوف عليه لئلا يَرِلَّ الإنسان فيكون في سواء الجحيم. المعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب. ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ أي: يسَّسوا من إيمان قومهم. ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾ بالتشديد ، أي أيقنوا أن قومهم كَذَّبُوهم. وقيل المعنى: حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كَذَّبُوهم ، لا أن القوم كَذَّبُوا ، ولكن الأنبياء ظنوا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (3389) - كتاب أحاديث الأنبياء - وانظر (4695) - كتاب التفسير -.

وحسبوا أنهم يكذبونهم ، أي : خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك .

قلت : فالراجع في تأويل الآية : ﴿ حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ أي : من إيمان أقوامهم بعدما ظهر إصرارهم وعنادهم ، ثم - على القراءة الأولى - : ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ بالتخفيف ، أي : أوشكوا على الضعف حتى خطر في قلوبهم ما خطر لتأخر النصر عنهم ، وعلى - القراءة الثانية - بالتشديد : ﴿ وظنوا أنه قد كذبوا ﴾ ممن تابعوهم لشدة المحنة عليهم فهناك : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ .

وفي السنة الصحيحة من آفاق هذا المعنى :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم] (1) .

قال قتادة : (إذا طلق في نفسه فليس بشيء) .

وفي لفظ : [إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تتكلم] .

الحديث الثاني : أخرج الخطيب في «التاريخ» ، والديلمى في «الفردوس» ، بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً : [النَّصْرُ مع الصَّبْرِ ، والفرج مع الكَرْبِ ، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا] (2) .

وقوله : ﴿ فَتَنَّا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

قرأ عامة قراء المدينة ومكة والعراق : ﴿فَتَنَّا مِنْ نَشَاءٍ﴾ مُحَفَّفة بنونين ، والقراءة بالإدغام لبعض الكوفيين . والمعنى : فتنناهم من نشاء ومن نشاء من المؤمنين حين يجيء نصرنا ، ولا راد لعقوبتنا وبطشنا عن أهل الكفر ومعاندة الرسل .

قال ابن عباس : ﴿فَتَنَّا مِنْ نَشَاءٍ﴾ ، فتنناهم من نشاء ، ﴿وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ، وذلك أن الله تبارك وتعالى بعث الرسل فدعوا قومهم ، وأخبروهم أنه من أطاع نجا ، ومن عصا عذَّب وعوَى) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5269) - كتاب الطلاق - وكذلك (2528) - كتاب العتق .

(2) رجاله ثقات . أخرجه الخطيب في «التاريخ» (287/10) ، والديلمى (111/4 - 112) ، وله شواهد عند الحاكم (541/3) ، وأبي نعيم في «الحلية» (314/1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (2382) ، وقال : الحديث صحيح .

وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

قال مجاهد: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ ، ليوسف وإخوته). قال ابن كثير: (يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم ، وكيف أنجيناه المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهي العقول ، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ ، أي: وما كان لهذا القرآن أن يُفترى من دون الله ، أي: يَكْذَبُ وَيُخْتَلَقُ ، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ، أي: من الكتب المُنزلة من السماء ، وهو يُصَدِّقُ ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، من تحليل وتحريم ، ومحجوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور على الجليّة ، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرّب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزيهه عن مُماتلة المخلوقات).

وقوله: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال النسفي: ﴿وَهْدَىٰ﴾ من الضلال ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب ، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وأنبيائه).

وقال القاسمي: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون به ، ويعملون بأوامره ، فإن الإيمان قول وعقد وعمل. وخصّهم لأنهم المتفعون به).

تم تفسير سورة يوسف

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

فله الحمد أولاً وآخراً



دروس ونتائج وأحكام

- 1 - القرآن أعظم كتاب ، نزل بأشرف لغة على أشرف رسول .
- 2 - المرأة عورة ، والنساء أشد فتنة في هذه الدنيا على الرجال .
- 3 - السجن أحب إلى المؤمن من الوقوع في الفاحشة أو ما يسخط الله .
- 4 - يوسف - عليه الصلاة والسلام - هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم .
- 5 - يوسف ﷺ يقدم دعوة التوحيد على تعبير الرؤيا في السجن .
- 6 - الشيطان أنسى ساقى الملك ذكر يوسف عنده ، والأصل اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء .
- 7 - تمكين الله يوسف في الأرض جزاء صبره وعفته ، وكل من يخلص التقوى لله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .
- 8 - سعة عقل المؤمن وقوة محاكمته ، وإن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم .
- 9 - كان سجود التحية مشروعاً ، فنسخته شريعة الإسلام .
- 10 - الدعاء بالموت على النفس منسوخ بشريعتنا .
- 11 - قصة يوسف قصّها الله تسلية لمحمد - عليه وعلى الأنبياء الصلاة والسلام - وهي عبرة للناس إلى يوم القيامة .
- 12 - القلة المؤمنة أقوى من الكثرة الكافرة ، والكثرة غالباً في موضع الدم ، والشرك أخفى من ديب النمل .
- 13 - الأنبياء رجال من البشر لا ملائكة ولا من النساء .
- 14 - النصر لفئة الحق حتمي ، وقد يتأخر النصر حتى يظن الرسل أن أتباعهم كذبوهم .
- 15 - القرآن أصول في الإيمان ، وشرائع وأحكام ، وأخبار للاعتبار على مدار الأيام .

13



وهي سورة مكية مدنية ، فيها المدني وفيها المكي - جمعاً بين أقوال أهل التأويل - ، وعدد آياتها (43).

موضوع السورة

- تخويف الله عباده ببديع قدرته ومخلوقاته -
«والرعد مَلَكٌ من جند الله»

- منهاج السورة -

- 1 - انتصار الله تعالى لهذا القرآن ، واستواؤه تعالى على العرش بلا تكييف ولا تمثيل ولا تجسيم .
- 2 - المخلوقات الكبيرة في هذا الكون تدعو إلى التفكير والاعتبار ، والإخبات للجبار .
- 3 - عجب الله تعالى من تكذيب المشركين بالمعاد ، والمكذبون هم وقود النار .
- 4 - استعجال المشركين العذاب ، وتنطعمهم بطلب المعجزات للسخرية لا للإيمان .
- 5 - تأكيد علم الله تعالى الغيب وبما في داخل الأرحام ، وتسخير الملائكة لحفظ الأنام .
- 6 - لا يغير الله حال قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وعقوبة الله نازلة بالكافرين ولا ناصر لهم .

- 7 - تخويف الله عباده ببعض آياته ، كالبرق والرعد والصواعق ليفردوه بالعبادة والتعظيم ، فله يسجد ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .
- 8 - الإيمان بالربوبية يقتضي الإيمان بالألوهية ، ولا يملك ما يُعبد من دون الله كشف الضر ولا جلب النفع ، والحق له البقاء والنصر ، والباطل له الفناء والذل .
- 9 - الخلود في الجنان لأهل الإيمان ، ولإفداء من العذاب لأهل الكفر والطغيان ، ولا يستوي الأعمى والبصير ، وإنما يتعظ أولو الألباب .
- 10 - أولو الألباب : هم أهل الوفاء بالعهد والميثاق ، وأهل الوصل والخشوع والصبر وإقام الصلاة والإنفاق في سبيل الله ، ومتابعة السيئات بالحسنات ، أولئك يدخلون ويستقرون في الجنات ، ومن تبعهم من الذرية والزوجات .
- 11 - أهل النفاق : هم أهل نقض العهد وتقطيع ما أمر الله بوصله ، وأهل المكر والفساد في الأرض ، وأهل الفرح بهذه الحياة الدنيا ، ولهم في الآخرة سوء الحساب والعقاب .
- 12 - تَنْطُعُ المشركين بطلب المعجزات ، والإيمان نور يقذفه الله في القلب ، وبذكره تعالى تطمئن القلوب ، والمؤمنون لهم البشري والكرامة في الدارين .
- 13 - تسلية الله نبيه بوصله بسلسلة النبوة ومنهاج المرسلين ، والقوارع لا تزال تنزل بالمشركين ، حتى يأتي الله بالنصر المبين .
- 14 - الله تعالى هو القائم على كل نفس بأرزاقها وأجلها وأعمالها ، وآلهة المشركين هزيلة مهزومة ، والمشركون في عذاب السعير .
- 15 - فرح الصحابة بهذا القرآن ، ومن أهل الكتاب من ينكر بعضه ظلماً وزوراً ، وتحذير الله نبيه من متابعة أهل الأهواء .
- 16 - بشرية الرسل ، والمعجزات بيد الله ، وهو تعالى ينسخ الشرائع بحكمته وعنده أم الكتاب .
- 17 - تهديد المشركين وتوعد لهم بأن الفتح سينال قريباً أرضهم .
- 18 - إحاطة الله بمكر الطغاة في الأمم ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار .
- 19 - لا يزال الكفار يكذبون بالنبوة ، وكفى بالله شهيداً على رسله .
- 20 - علماء أهل الكتاب يقرون بالنبوة لرسولنا ﷺ بما يجدونه في كتبهم .

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

1 - 4. قوله تعالى: ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ① اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ② وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ③ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④ .

في هذه الآيات: انتصار للقرآن الكريم ، نزله الله على محمد ﷺ خاتم النبيين . إنه - تعالى - الذي رفع السماوات بغير عمد ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، يدبر الأمر ويفصل الآيات ، وقد مهد الأرض وجعل فيها الجبال الثوابت وأنشأ الأزواج من كل الثمرات ، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات ، وزروع ونخيل وطعوم متنوعات ، كل ذلك آيات لقوم يؤمنون بقاء ربهم ويستعدون لذلك ويتفكرون ويعتبرون .

فقوله: ﴿الْمَرْءُ﴾ - هو كما قيل في شأن الحروف المقطعة أوائل السور ، والراجع أن ذكرها من باب الإعجاز والبيان ، ليتجلى عظمة ما بعدها من التنزيل .

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ . أي: هذه آيات هذا الكتاب المعجز ، وهو القرآن العظيم . وقوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ - قال مجاهد: (القرآن) . وقال قتادة: (أي هذا القرآن) . فهو عطف صفات على ما سبق ذكره .

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وَصَفَ لطبيعة الكثرة من الناس ، فالغالب من بني آدم على الشك واتباع الشهوات ، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]. وكقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

قال ابن كثير: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ - أي: مع هذا البيان والجلء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق).
وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

قال قتادة: (رفعها بغير عمد). والآية خبر من الله تعالى عن عظيم قدرته وكمال سلطانه ، وأن السماوات قامت بأمره وبإذنه دون أعمدة.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ - أي علا وارتفع سبحانه كما يليق بجلاله ، وهو غير محتاج إلى العرش ولا إلى الكرسي ، وإنما وصف العرش في القرآن كثيراً لأنه أعظم مخلوقاته. قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، فإنه يعني: علا عليه).

أخرج محمد بن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة]⁽¹⁾.

وأخرج ابن خزيمة في «التوحيد» ، وعبد الله بن أحمد في «السنة» ، بسند صحيح عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قال القاسمي: (أي لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة). وقيل: المراد إلى مستقرهما تحت العرش.

قلت: ويُجمع بين التفسيرين ، بأن الله تعالى أجرى الشمس والقمر في السماء وسخرهما لمصالح خلقه ، ليعلموا عدد السنين والحساب ، ويفصلوا به بين الليل والنهار ، ولكل منازل ، وكذلك بقية الكواكب ، وإنما ذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (1/114) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (290). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (109).

(2) صحيح موقوف. انظر مختصر العلو ص (102) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/1161).

هذه الكواكب ، ويبقى كل في حركته إلى أن يقلب الله نظام الكون مع قيام الساعة ، فتبدل الأرض والسموات بعد أن تطلع الشمس من مغربها .

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ ۚ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۚ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : 54] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس : 38] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۚ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 39 - 40] .

ومن السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث ، منها :

الحديث الأول : روى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحاً ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتهما ، فالأخرى على إثرها قريباً] (1) .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم - أيضاً - عن أبي ذرٍّ : [أن النبي ﷺ قال يوماً : أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخِرُ ساجدة ، فلا تزال كذلك حتى يُقال لها : ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت فتزجع ، فتصبح طالعة من مَطْلَعِهَا ، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخِرُ ساجدة ، فلا تزال كذلك حتى يُقال لها : ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت ، فتزجع فتصبح طالعة من مَطْلَعِهَا ، ثم تجري لا يَسْتَكْبِرُ الناسُ منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذلك تحت العرش فيقال لها : ارتفعي ، أصبحي طالعة من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها . فقال رسول الله ﷺ : أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِمْتِنَانُهَا تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : 158]] (2) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح . انظر مختصر صحيح مسلم (2053) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 1063) - بحث : علامات الساعة - لمزيد من التفصيل .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (159) - كتاب الإيمان - باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان .

وقوله: ﴿يَدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

قال النسفي: (﴿يَدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته وربوبيته ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يبين آياته في كتبه المنزلة: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لعلكم توقنون بأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾.

قال القرطبي: (لما بين آيات السماوات بين آيات الأرض ، أي بسط الأرض طولاً وعرضاً. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبلاً ثابتاً ، واحداً راسية ، لأن الأرض ترسو بها ، أي تثبت. ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي مياهاً جارية في الأرض ، فيها منافع الخلق).

وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ﴾. أي: من الذكور اثنتان ، ومن الإناث اثنتان.

قال ابن كثير: (وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، من كل زوجين اثنين ، أي: من كل شكل صنفان).

وقوله: ﴿يُعْشَىٰ آلِيلَ النَّهَارِ﴾. قال قتادة: (أي يلبس الليل النهار).

قال ابن جرير: (يجلّل الليل النهار فيلبسه ظلمته ، والنهار الليل بضياءه).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إن في هذه العجائب من الخلق وتلك البدائع من التكوين لدلالات وعظات وحججاً لقوم يعتبرون فيستدلون على واجبهم نحو بارئهم عز وجل الذي أبدع كل شيء ، فيفردوه بالعبادة والتعظيم.

وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ﴾. أي: متقاربات يجاور بعضها بعضاً ، منها الطيبة الخصبة ومنها السبخة المالحة. ومن أقوال أهل التأويل:

1 - قال مجاهد: (السَّبْخَةُ والعَذِيَّة⁽¹⁾ ، والمالح والطيب). أو قال: (سَبَاخٌ وَعَذَوِيَّة).

2 - وقال ابن عباس: (﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ﴾ - يعني الأرض السبخة ،

(1) العذبة: الأرض التربة الكريمة المنبت التي ليست بسبخة ، والسَّبْخَةُ: المالحة.

والأرض العذية ، يكونان جميعاً متجاورات ، يُفَضَّل بعضها على بعض في الأكل).
وقال: (العذية والسبخة ، متجاورات جميعاً ، تنبت هذه ، وهذه إلى جنبها لا تُنبت).
وقال أيضاً: (الأرض تنبت حُلُوءاً ، والأرض تنبت حامضاً ، وهي متجاورة تسقى بماء واحد).

3 - وقال قتادة: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ ، قُرِئَ قُرْبَتْ متجاورات بعضها من بعض).

قال ابن كثير: (وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض. فهذه تربة حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه مُحَجَّرَةٌ ، وهذه سهلة ، وهذه مرملةٌ ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكل متجاورات ، فهذه بصفقتها ، وهذه بصفقتها الأخرى ، فهذا كُلُّه مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ، ولا ربَّ سواه).

قلت: ويؤيد هذا ما روى أحمد والترمذي بسند صحيح عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله خلق آدم من قُبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فجاء بنو آدم على قَدَرِ الْأَرْضِ ، فجاء منهم الأحمر ، والأبيض ، والأسود ، وبين ذلك ، والسَّهْلُ ، والحَزْنُ ، والخَبِيثُ ، والطَّيِّبُ] (1).

وقوله: ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْتَبٍ وَزَّرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾. قرأها بالرفع أهل البصرة «وزرع ونخيل» عطفاً على الجنات ، والمعنى: وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وفيها زرع ونخيل.

وأما عامة قراء المدينة والكوفة فقرؤوها بالخفض: «وزرع ونخيل» - بالجر عطفاً على الأعناب ، والتقدير: وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ومن زرع ونخيل. وكلاهما قراءتان مشهورتان متقاربتان في المعنى.

وقوله: ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾. أي: مجتمعة في أصل واحد ومتفرقة.

قال ابن عباس: (يعني بالصنوان: النخلة يخرج من أصلها النخلات ، فيحمل بعضه ولا يحمل بعضه ، فيكون أصله واحد ورؤوسه متفرقة). وقال البراء: (الصنوان:

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 406) ، والترمذي (3143) - في التفسير ، وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2355) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1630).

النخلتان أصلهما واحد ، ﴿وَعِثْرُ صِنَوَانٍ﴾ ، النخلة والنخلتان المتفرقتان). أو قال : (الصنوان : النخلة إلى جنبها النخلات ، ﴿وَعِثْرُ صِنَوَانٍ﴾ ، المتفرق).

والخلاصة : الصنوان : هي الأصول المجتمعة في مُنْبَتٍ واحد ، كالزَّمان والتين وبعض النخيل ، ونحو ذلك ، وغير الصُّنوان : ما كان على أصل واحد ، كسائر الأشجار ، ذكره ابن كثير وقال : (ومنه سُمِّيَ عم الرجل صِنُوْ أبيه . كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر : «أما شعزت أن عمَّ الرجل صِنُوْ أبيه»).

وقوله : ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاجِدٍ﴾ . قال مجاهد : (ماء السماء ، كمثل صالح بني آدم وخبيثهم ، أبوهم واحد). وقرأها عامة قراء المدينة والبصرة : «تسقى» - أي الجنات والزروع والنخيل . وأما قراء الكوفة وبعض المكيين فقرأوها بالياء : «يسقى» .

وقوله : ﴿وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ .

قال سعيد بن جبیر : (الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ والكمثري والعنب الأبيض والأسود ، وبعضها أكثر حملاً من بعض ، وبعضه حلو وبعضه حامض ، وبعضه أفضل من بعض).

يروى الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في قوله : ﴿وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ قال : [الدَّقْلُ ، والفَارِسِيُّ ، والحُلُوْ ، والحامِضُ] (1).

فاختلاف الأجناس من الثمرات والزروع في الأشكال والألوان ، والروائح والطعوم ، والأوراق والأزهار ، والحلاوة والحموضة ، والعذوبة والمرارة ، كل ذلك آيات كبيرة تدل على قدرة الواحد الأحد ، الذي فاوت بين خلق الأشياء وإظهارها ، ولهذا قال في آخر الآية : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ - أي فيحملهم هذا التفكير والنظر على إفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم .

5- 7. قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّارْنَا لَكَ خَلْقٌ جَدِيدٌ أَوَّلَتِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوَّلَتِكَ الْأَغْلُلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأَوَّلَتِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وَتَسْتَعِجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي في «ال تفسير» . صحيح الترمذي (2493) - سورة الرعد - آية (4) .

الْمَثَلُثُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ .

في هذه الآيات: عَجَبُ الله تعالى من تكذيب قومك - يا محمد - بالبعث بعد الموت بعد ذكر هذه الأمثال ، وهؤلاء المكذبون هم وقود النار. إنهم يستعجلونك نزول العذاب بطراً واستكباراً ، وقد خلت من قبلهم الأمثال الكثيرة عن أشباههم الذين دمرهم الله بالعذاب. إنهم ينتطعون بربط إيمانهم بالمعجزات وإنما أنت منذر ولكل قوم هاد.

وعن قتادة: (قوله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ﴾ ، إن عجبت ، يا محمد ، ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْ ذَا كُنَّا تُرَبَّاءً لَأَنَّا لَنَبْغِي خَلْقَ جَدِيدٍ﴾ ، عجب الرحمن تبارك وتعالى من تكذيبهم بالبعث بعد الموت).

وقال ابن زيد: (إن تعجب من تكذيبهم ، وهم قد رأوا من قدرة الله وأمره وما ضرب لهم من الأمثال ، فأراهم من حياة الموتى في الأرض الميتة ، إن تعجب من هذه فتعجب من قولهم: ﴿أَيْ ذَا كُنَّا تُرَبَّاءً لَأَنَّا لَنَبْغِي خَلْقَ جَدِيدٍ﴾ ، ألا يرون أنا خلقناهم من نطفة ؟ فالخلق من نطفة أشدُّ أم الخلق من تراب وعظام ؟).

والخلاصة: إن خلق السماوات والأرض وما فيهما من بدائع وآيات أكبر من خلق الناس ، فالعجب كل العجب من إنكار هؤلاء المشركين إعادة الله لهم ولأجسامهم للبعث بعد الممات.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57].

2 - وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزَحْ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: شتمني ابن آدم ، وما ينبغي له أن يشتمني ، وكذبني ، وما ينبغي له أن يكذبني ، أما شتمة إياي فقوله: إن لي ولداً ، وأنا الله الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد. وأما تكذيبه إياي ، فقوله: ليس يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته].

وله شاهد من حديث ابن عباس ، ذكره البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ، عن النبي ﷺ قال : [قال الله : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقله : لي ولدٌ ، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ . أي : هؤلاء الذين أنكروا البعث والحساب والثواب والعقاب ، وعاندوا ما رأوا من قدرة الله تعالى بغياً واستكباراً .

وقوله : ﴿ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِيْ أَغْنَاهُمْ ﴾ - يقيدون بها في نار جهنم .

وقوله : ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ ﴾ . أي : وهم سكان النار يوم القيامة ماكثون فيها أبداً ، لا يخرجون منها ولا يموتون ، بل هم في شقاء مقيمون .

وقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ ﴾ .

قال قتادة : (وهم مشركو العرب ، استعجلوا بالشر قبل الخير ، وقالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ ﴾ [الأنفال : 32] ، ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ ﴾ ، وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم).

أي : يستعجل المكذبون بنزول العذاب بهم بطراً واستكباراً ، وقد علموا ما أوقع الله بمن مضى من الأمم العاصية قبلهم ، وضرب لهم في هذا القرآن الأمثال الكثيرة عن أسلافهم .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَ هُوَ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٥٦] يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : 53 - 54] .

2 - وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى : 18] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص : 16] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4482) - كتاب التفسير - وانظر روايات أخرى في صحيح الجامع الصغير - (4199) ، (4203) - من حديث ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإن ربك ، يا محمد ، لذو ستر على ذنوب من تاب من ذنوبه من الناس ، فتارك فضيحتهم بها في موقف القيامة ، وصافح له عن عقابه عليها عاجلاً وأجلاً ، ﴿عَلَى ظَلَمِهِمْ﴾ ، يقول: على فعلهم ما فعلوا من ذلك بغير إذني لهم بفعله ، ﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾ ، لمن هلك مُصِراً على معاصيه في القيامة ، إن لم يُعَجَّل له ذلك في الدنيا ، أو يجمعهما له في الدنيا والآخرة).

والآية تهديد ووعد للكفار والمشركين إن لم يتوبوا من ظلمهم ويرجعوا إلى طاعة ربهم وعبادته. وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم]⁽¹⁾.

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه]⁽²⁾ ويستتره فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول نعم أي رب ، حتى قرّره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾]⁽³⁾.

قلت: وقد قرن سبحانه في كثير من الآيات مغفرته وغضبه ، وعفوه وسخطه ، ليعتدل الرجاء والخوف في حياة عباده ، وليتنبه لذلك أولو الأبواب. ومن ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿نَفَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ١٦ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: 49 - 50].

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: 167].

وفي مسند البزار بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمينين ولا خوفين ، إن هو أمني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمنت يوم أجمع عبادي]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/17) ، وأحمد في المسند (5/160).

(2) أي: حفظه وستره.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2441) ، ومسلم (2768) ، وأخرجه أحمد (2/74).

(4) حديث حسن. أخرجه البزار كما في «مجمع الزوائد» (10/308) ، وكذلك أبو نعيم في «الحلية»

(6/98). وانظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (4208).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

أي: يريدون التعنت وربط الإيمان بالمعجزات الكونية والحجج والبراهين الحسية ، كما سأل أهل مكة أن يجعل لهم الصفا ذهاباً ، وأن يزيل عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً.

وفي التنزيل: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا نَمُودُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59].

ثم يقول الله لنبيه: يا محمد ، إنما أنت منذر تنذرهم بأس الله وعذابه أن يحل بهم إن أصروا على كفرهم وشركهم ، ولكل قوم إمام يأتون به ، وهادٍ يتقدمهم فيهديهم إما إلى خير وإما إلى شر.

قال قتادة: (هذا قول مشركي العرب. قال الله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ، لكل قوم داع ، يدعوهم إلى الله). وقال أبو العالية: (الهادي القائد ، والقائد الإمام ، والإمام العمل). وقال عكرمة: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: هو محمد ﷺ وقال الضحاك: (المنذر: محمد ﷺ ، والهادي: الله عز وجل). وقال مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ، لكل قوم نبي ، والمنذر محمد ﷺ).

وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24].

2- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَنْ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: 65].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [مثلي ومثل ما بعثني الله كمثلي رجل أتى قوماً فقال: رأيْتُ الجيشَ بعيني ، وإنني أنا النذير العريان ، فالنَّجَاءُ النَّجَاءُ. فأطاعه طائفة فأدلجوا على مهْلِهِمْ فَنَجَّوْا ، وكذَّبَتْهُ طائفة فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَاكَهُمْ⁽¹⁾.

8 - 11. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6482) - كتاب الرقاق - ، باب الانتهاء عن المعاصي ، ورواه مسلم في الصحيح (2283) - كتاب الفضائل - من حديث أبي موسى.

تَزَادُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾
 سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ
 مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا
 مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ .

في هذه الآيات: تأكيد علم الله تعالى بما في داخل الأرحام ، وهو المتفرد بعلم الغيب والشهادة على مر الدهور والأيام . إنه - تعالى - يعلم الجهر من القول وما خفي منه ومن جميع الأعمال الصالحة أو الآثام . له الملائكة المختصة بحفظ الأنام ، إنه - تعالى - لا يُغَيِّرُ ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد إنزال العقوبة بقوم فمالهم من ولي ولا ناصر يدفع بأسه عنهم .

فقوله: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ - يشمل كل إناث الخلق من الإنس والجن والبهائم وسائر الحيوانات . قال النسفي: (أي يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة وأنوثة وتمازج وخصاب وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك) .

وقوله: ﴿ وَمَا تَقْيِضُ الْاَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ ﴾ - يشمل عدد الولد داخل الرحم وتمازج المولود أو خداجه ، ومدة الحمل وغير ذلك .

ومن أقوال أهل التأويل في هذه الآية:

1 - قال ابن عباس: ﴿ وَمَا تَقْيِضُ الْاَرْحَامُ ﴾ ، يعني السَّقْطُ ، ﴿ وَمَا تَزَادُ ﴾ ، يقول: ما زادت الرَّحِمُ في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد في الحمل ، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله ، وكل ذلك بعلمه) .

2 - قال مجاهد: (الغيض: الحامل ترى الدم في حملها فهو «الغيض» ، وهو نقصان من الولد . وما زاد على تسعة أشهر فهو تمام لذلك النقصان ، وهي الزيادة) .

وقال أيضاً: ﴿ وَمَا تَقْيِضُ الْاَرْحَامُ ﴾ ، قال: خروج الدم ﴿ وَمَا تَزَادُ ﴾ ، قال: استمساك الدم) . وقال: ﴿ وَمَا تَقْيِضُ الْاَرْحَامُ ﴾ ، إراقة المرأة حتى يَخْسَ الولد ، ﴿ وَمَا تَزَادُ ﴾ ، قال: إن لم تُهْرَقِ المرأةَ تَمَّ الولد وعظم) .

3 - وكان الحسن يقول: («الغيضوضة» ، أن تضع المرأة لسته أشهر أو لسبعة

أشهر ، أو لما دون الحدّ). قال قتادة: (وأما الزيادة فما زاد على تسعة أشهر).

قلت: وفي لغة العرب - غاض الماء أي قلّ ونقص ، والغيض النقصان ، فقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي ما تنقص ، ويشمل ذلك السقط والدم النازل واكتمال جسد الجنين وأعضائه ، كل ذلك بعلم الله تعالى .

يروى البخاري في صحيحه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: [مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله]⁽¹⁾.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أحدكم يُجمَعُ في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغةً مثل ذلك ، ثم يبعث إليه ملكٌ فيؤمّرُ بأربع كلمات: يَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وعُمْرَهُ ، وعَمَلَهُ ، وشَقِيٍّ أو سعيداً]⁽²⁾.

وفي لفظ لمسلم: [فيقول الملك: أي رب ، أذكر أم أنثى؟ أي رب ، أشقي أو سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله ، ويكتب الملك]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. قال قتادة: (إي والله ، لقد حفظ عليهم رزقهم وآجالهم ، وجعل لهم أجلاً معلوماً).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث كثيرة ، منها:

الحديث الأول: روى مسلم عن عبد الله قال: [قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أمّتعني بزواجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية. قال: فقال النبي ﷺ: قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يُعْجَلَ شيئاً قبل حله أو يؤخر شيئاً عن حله ، ولو كنت سألت الله أن يعيدك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4697) ، وأحمد (24/2) ، وابن حبان (70) (71) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3208) ، (3332) ، (6594) ، ومسلم (2643) ، وأخرجه أبو داود (4708) ، والترمذي (2138) ، وابن ماجه (76) ، وأحمد (382/1).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد ومسلم - واللفظ له - (2646) ، وله شواهد عند الطبراني وغيره.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (56/8) - كتاب القدر. وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1846) ، باب: في ضرب الآجال وقسم الأرزاق.

الحديث الثاني: يروي ابن عاصم في كتاب «السنة» ، ورجاله رجال الشيخين ، عن أبي هريرة: [أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله ! أنعمل في أمر نأتيفه ، أم في أمر قد فرغ منه ؟ قال: بل في أمر قد فرغ منه . فقال: فقيم العمل ؟ فقال: يا عمر ، كلا لا يدرك إلا بعمل . قال: فالآن نجتهد يا رسول الله] (1).

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: [أرسلت بنْتُ النبي ﷺ إليه: إِنَّ ابناً لِي قُبِضَ فَاتُّنَا . فَأَرْسَلْتُ يُقْرَأُ السَّلامُ ويقول: إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى ، وَكُلُّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ] (2).

الحديث الرابع: أخرج أحمد وابن حبان بسند جيد عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فرغ إلى كل عبد من خلقه من خمس: من أجله ومن عمله ومن رزقه ومن أثره ومن مضجعه] (3).

وقوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: والله عالم ما غاب عنكم وعن أبصاركم فلم تروه ، وما شاهدتموه فعاينتم بأبصاركم ، لا يخفى عليه شيء ، لأنهم خلقه وتديره ، «الكبير» ، الذي كل شيء دونه ، «المتعال» ، المستعلي على كل شيء بقدرته).

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

إخبارٌ منه سبحانه عن علمه السر وأخفى ، وإحاطته بكل مناجاة سمعاً وعلماً.

قال مجاهد: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ ، يقول: السر والجهر عنده سواء ، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ، أما «المستخفي» ففي بيته ، وأما «السارب» الخارج بالنهار حيثما كان ، المستخفي غيبه الذي يغيب فيه والخارج ، عنده سواء).

وفي لغة العرب: «السَّارِب» - الذهاب على وجهه في الأرض . ومن ثم فقوله

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب «السنة» - (165) - ورجاله ثقات ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وله شواهد كثيرة في السنن .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1284) - في كتاب الجنائز - ، وأخرجه مسلم (923) ، ورواه أحمد في المسند (204/5) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (197/5) ، وابن حبان (1811) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (303) .

تعالى: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ظاهر. والمقصود: أنه لا يخفى على الله تعالى من هو مختف في قعر بيته في ظلام الليل ومن هو ظاهر ماشٍ في بياض النهار وضيائه ، فكلاهما في علم الله سواء ، فإن الله تبارك وتعالى لا يستسرّ عنده شيء ولا يخفى .

قال ابن عباس: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ، ظاهر). وقال خصيف: ﴿مُسْتَخْفٍ بِالْإِيلِ﴾ : راکب رأسه في المعاصي ، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ، قال: ظاهر بالنهار).

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿وَأَن تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه : 7].

2 - وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل : 25].

3 - وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : 1].

4 - وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يُلْتَوْنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الضُّورِ﴾ [هود : 5].

5 - وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس : 61].

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرجه الإمام أحمد والنسائي عن عروة عن عائشة قالت : [الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: روى مسلم في صحيحه من حديث عمر - قال جبريل للنبي ﷺ -

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (46/6) ، والبخاري (7385) تعليقا ، والنسائي (3460) ، وفي «التفسير» (590) ، وأخرجه ابن ماجة (188) ، (2063) ، وعبد بن حميد (1514) ، وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (33726) ، وإسناده على شرط مسلم.

أخبرني عن الإحسان ؟ قال : [الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] - ورواه من حديث أبي هريرة⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن النواس بن سميان الكلابي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن . إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه . وكان رسول الله ﷺ يقول : يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك . قال : والميزان بيد الرحمن يرفع أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة]⁽²⁾ .

وقوله : ﴿لَمْ مَعَقِبْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ - هي الملائكة المختصة بحفظ العبد من المصائب والطوارئ ما لم يسبق القدر .

قال ابن عباس : (والمُعَقَّبَاتُ من أمر الله ، وهي الملائكة . قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قَدْرُ الله خَلَّوْا عنه) .

وقال مجاهد : (ما من عبد إلا له ملك موكل ، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام) .

وقوله : ﴿مُعَقِبَتٌ﴾ من التعاقب ، أي ملائكة تعتقب في حفظه ، والأصل معتقبات فأدغمت التاء في القاف ، أو هو مفعلات من عقبه لأن بعضهم يعقب بعضاً ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي قدامه ووراءه .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : (أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرسٌ بالليل وحرسٌ بالنهار ، يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لِحِفْظِ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . فائنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحدٌ من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاكٍ بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، بَدَلانِ حافظان وكاتبان ، كما جاء في الصحيح : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادي ؟

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم وأهل السنن . انظر مختصر صحيح مسلم (2) ص (7) ، وصحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (53) .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (199) - باب فيما أنكرت الجهمية - وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (165) .

فيقولون: أتيناهم وهم يُصَلُّون ، وتركناهم وهم يُصَلُّون»⁽¹⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

قال النسفي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي).

قال البغوي في «معالم التنزيل» (6/ 184): (وذكر ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل ، وبلغوا به ابن مسعود يرفعه قال: ليس من سنة بِأَمَرٍ من أخرى ، ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا ، في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ، ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفياضي والبحار).

قلت: ويشهد له ما أخرج الحاكم وابن جرير بسند صحيح على شرط الشيخين عن ابن عباس قال: [ما من عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء ، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا﴾ [الفرقان: 50] الآية]⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾.

أي: فإذا نزل قدر الله بمصيبة قوم فقد وقع عليهم ما قُدِّرَ ثم لا سبيل لهم للهروب من ذلك الخزي ، وليس لهم من وال يلي أمرهم أو ينصرهم.

قال القرطبي: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي هلاكاً وعذاباً ، ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ . وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه . وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي ملجأ ، وهو معنى قول السدي . وقيل: من ناصر يمنعهم من عذابه).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (555) ، ومسلم (632) ، والنسائي (240/1) ، وأحمد (312) ، و (486) ، وأخرجه مالك (170/1) ، وابن خزيمة (321) ، وابن حبان (1728) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (403/2) ، وابن جرير في «التفسير» (15/19) ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال الحاكم ووافقه الذهبي ، وأقرّه الألباني في السلسلة الصحيحة (2461).

12 - 15. قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ۝ لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبْسَطُ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝﴾.

في هذه الآيات: تخويفُ الله تعالى عباده ببعض آيات قدرته كالبرق والرعد والصواعق ليعبدوه وحده ، فله دعوة الحق والذين يدعون من دونه دعوتهم باطلة ، فله - تعالى - يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً فهو العظيم القهار الجبار .
فقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

إخبارُ من الله تعالى عن كمال قدرته ، وأن تأخيره عقوبة من جحد أمره ونعمه ليس عن عجز ، فالبرق: هو ذلك النور الساطع اللامع المخيف الذي يسطع من خلال السحاب .

قال قتادة: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ، يقول: خوفاً للمسافر في أسفاره ، يخاف أذاه ومشقته ، ﴿وَطَمَعًا﴾ ، للمقيم ، يرجو بركته ومنفعته ، ويطمع في رزق الله).

وقوله: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾. أي: يثير السحاب المثلث بالمطر .

قال مجاهد: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ، قال: الذي فيه الماء). وقال ابن كثير: (أي: ويخلقها منسأة جديدة ، وهي لكثرة مائها ثقلة قريبة إلى الأرض).

وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾.

تعريف باشتراك الرعد والملائكة بتنزيهه وتسميحه سبحانه ، كسائر الخلق صغيره وكبيره ، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44].

وكقوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدْعَةٍ صَلَاتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: 41].

أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند صحيح من حديث ابن عباس قال: [أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك ، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيهِ إذ قالوا الله على ما نقول وكيل . قال: هاتوا ، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي ؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه . قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال: يلتقي الماءان فإن علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت . قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه ؟ قال: كان يشتكي عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا . قال عبد الله: قال أبي ، قال بعضهم: يعني الإبل فحرّم لحومها . قالوا صدقت . أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال: ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده أو في يده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمر الله . قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع ؟ قال: صوته . قالوا: صدقت ، إنما بقيت واحدة ، وهي التي نبأيعك إن أخبرتنا بها ، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك ؟ قال: جبريل عليه السلام . قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا ، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان . فأنزل الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية⁽¹⁾ .

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي بسند صحيح عن إبراهيم بن سعد قال: أخبرني أبي قال: كنت جالساً إلى جَنْبِ حُمَيْد بن عبد الرحمن في المسجد ، فَمَرَّ شَيْخٌ من بني غفار ، فأرسل إليه حُمَيْد ، فلما أقبل قال: يا ابن أخي ، وَسَّعَ فيما بيني وبينك ، فإنه قد صحب رسول الله ﷺ . فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه ، فقال له حُمَيْد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إِنَّ اللَّهَ يُشِئُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النُّطْقِ ، وَيُضْحِكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ]⁽²⁾ .

وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه⁽³⁾: (أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال:

(1) حديث صحيح لشواهده . أخرجه أحمد (274/1) ، والترمذي (3117) ، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - سورة البقرة - آية (97) ، وقد مضى بتمامه .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (435/5) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (988) ، وأورده ابن كثير في التفسير وقال: (والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد ، وضحكها البرق) .

(3) هو ابن الزبير . والأثر ذكره القرطبي في «التفسير» (سورة الرعد ، آية «13») .

سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد).

قلت : وأما عند رؤية السحاب والمطر فقد ثبت الدعاء فيه عن رسول الله ﷺ .

فقد أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن المقدام بن شريح عن أبيه : [أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ كان إذا رأى سحاباً مقبلاً من أفق من الآفاق ، ترك ما هو فيه . وإن كان في صلاته ، حتى يستقبله . فيقول : «اللهم إنا نعوذ بك من شرِّ ما أُرْسِلَ به» فإن أمطر قال : «اللهم سيِّباً نافعاً» مرتين أو ثلاثاً . وإن كشفه الله ، عز وجل ، ولم يمطر ، حمد الله على ذلك⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ .

أخرج أبو يعلى والبخاري ، واللفظ لأبي يعلى ، بسند صحيح من حديث أنس قال : [بعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوهم إلى الله تبارك وتعالى فقال : أيش ربك الذي تدعوني من حديد هو ؟ من نحاس هو ؟ من فضة هو ؟ من ذهب هو ؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فأعاده النبي ﷺ الثانية ، فقال مثل ذلك ، فأتى النبي ﷺ فأخبره فأرسله إليه الثالثة ، فقال مثل ذلك . فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله قد أنزل على صاحبك صاعقة فأحرقته ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾⁽²⁾ .

وبنحوه رواية البخاري ، إلا أنه قال : (إلى رجل من فراعنة العرب - وقال الصحابي فيه : يا رسول الله ! إنه أعتى من ذلك ، وقال : «سحابة» ، فرجع إليه الثالثة فأعاد عليه ذلك الكلام - قال : فبينما هو يكلمه إذ بعث الله سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه).

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (3889) - كتاب الدعاء - باب ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر . والسَّيْبُ والسَّيْبُ المطر الجاري على وجه الأرض من كثرتة . وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3137) ، وكذلك (3138) ، (3139) من الباب نفسه .

(2) حديث صحيح لشواهده . أخرجه أبو يعلى برقم (3468) ، وأخرجه الطبري (125/13) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (42/7) وقال : (رواه الطبراني في الأوسط والبخاري ورجال البزار رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة) .

ورواه الطبراني في «الأوسط» - نحوه - وقال: (فرعدت فأبرقت).

وله شاهد قوي أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» عن ثابت ، عن أنس قال: [أرسل رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه إلى رأس المشركين يدعوه إلى الله تعالى ، فقال المشرك: هذا الذي تدعوني إليه من ذهب أو فضة أو نحاس ! فتعاضم مقالته في صدر رسول الله ﷺ ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: ارجع إليه ، فرجع إليه بمثل ذلك وأرسل الله تبارك وتعالى عليه صاعقة من السماء فأهلكته ، ورسول رسول الله ﷺ في الطريق لا يدري . فقال له النبي ﷺ: إن الله قد أهلك صاحبك بعدك ، ونزلت على رسول الله ﷺ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾⁽¹⁾ .

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ - أي يشكون في عظمته ، وأنه لا إله إلا هو الكبير المتعال ، وأما المحال فمن الحيلة ، والمعنى كما قال مجاهد: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ ، قال: شديد القوة). وقال علي رضي الله عنه: (شديد الأخذ) - رواه ابن جرير بسنده إليه ، وقال ابن عباس: (شديد الحول). وقال قتادة: (أي القوة والحيلة) ، وعن الحسن: ﴿شَدِيدُ الْحَالِ﴾ ، يعني الهلاك. قال: إذا محل فهو شديد. وقال قتادة: شديد الحيلة).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَادَ مَرْنَتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: 50 - 51].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكْرًا اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: 54].

3 - وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15 - 16].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته]⁽²⁾ .

(1) إسناده صحيح. أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (692) ، وأبو يعلى في «مسنده» (846/2) ، وابن جرير (84/13) ، وقال الألباني في تحقيق كتاب «السنة» (304): إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير ديلم بن غزوان وهو ثقة ، وقد توبع .

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3110) ، وابن ماجه (4018) ، وابن حبان (5175) ، وأخرجه البيهقي (94/6).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يُعنه] (1).

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة] (2).

وقوله: ﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾.

قال ابن عباس: ﴿دَعُوهُ الْحَقُّ﴾: لا إله إلا الله. وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: ﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ﴾ ، قال: التوحيد. - رواه ابن جرير وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: (والآلهة التي يدعوها المشركون أرباباً وآلهة. وإنما عنى بقوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾: أنها مقصورة عنه ، وأنها لا تكون إلهاً ، ولا يجوز أن يكون إلهاً إلا الله الواحد القهار. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ ، يقول: لا تجيب هذه الآلهة ، التي يدعوها هؤلاء المشركون آلهة ، بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضرر).

وقوله: ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ - فيه أقوال متكاملة:

1 - قال علي رضي الله عنه: (كالرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه ، وما هو ببالغ). وقال مجاهد: (يدعو الماء بلسانه ، ويشير إليه بيده ، ولا يأتيه أبداً). أو قال: (يدعوه ليأتيه ، وما هو بآتيه ، كذلك لا يستجيب من هو دونه).

2 - وقال ابن عباس: (هذا مثل المشرك مع الله غيره ، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد ، فهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه).

3 - وقال قتادة: ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ ، وليس الماء ببالغ فاه ، ما قام باسطاً كفيه لا يقبضهما).

وقوله: ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

قال ابن كثير: (ومعنى هذا الكلام أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2932) - كتاب الخراج والإمارة والفيء -، باب في اتخاذ الوزير.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (64/2) ، والبيهقي في «الأسماء» ، ص (154) ، وله شاهد عند ابن حبان (2455) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1220).

متناولاً له من بُعد ، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه ، الذي جعله محلاً للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره ، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَمَادُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظُلُمًا ۖ إِنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ لَأَوَاصِلٌ ۝ ﴾ .

أي : إن الله تبارك وتعالى قد قهر كل شيء بعظمته وجبروته ، ودان له كل شيء ، فسجد له ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أي ملائكته ومن في ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من الجن والإنس ، طوعاً من المؤمنين ، وكرهاً من المشركين حين يكرهون على السجود . كما يسجد له أيضاً ظلال كل من سجد طوعاً وكرهاً بالغدوات والعشايا . والغدو : البكر ، والآصال : جمع أصيل وهو آخر النهار .

فعن قتادة : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ قال : (فأما المؤمن فيسجد طائِعاً ، وأما الكافر فيسجد كارهاً) .

وعن ابن عباس : ﴿ وَظُلُمًا ۖ إِنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ لَأَوَاصِلٌ ۝ ﴾ ، يعني : حين يفيء ظل أحدهم عن يمينه أو شماله) . وقال مجاهد : (ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع ، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره) .

وقال ابن زيد : (ذُكِرَ أن ظلال الأشياء كلها تسجد له ، وقرأ : ﴿ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ . وقال : تلك الظلال تسجد لله) .

والآية التي أشار إليها هي من سورة النحل وهي بتمامها : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُنْفَخُوا مِنْهُ لُجُلٌ مِنْ أَلْمِينِ وَالشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل : 48] .

16 - 17 . قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ

أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَقٍ كَذَلِكَ يُضِرُّ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلُ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ

جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ .

في هذه الآيات: تقرير الله تعالى أن الاعتراف بالربوبية يقتضي الإقرار له تعالى بالآلوهية ، وأن ما يُعبد من دونه لا يملك كشف الضر ولا جلب النفع ، فهو سبحانه الواحد القهار . لقد أنزل الماء من السماء فسالت بذلك الأودية ، فعلا الماء زيد وكذلك ما يوقد في النار مما يسبك فيها من الذهب أو الفضة ابتغاء حلية من نحاس أو حديد يعلوه زيدٌ كذلك ، وكلا الزبدین يتلاشى ، وهذا شأن الباطل في اضمحلاله وتلاشيه ، وشأن الحق في ثباته وبقائه ، كذلك يضرب الله الأمثال .

فقوله : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ .

قال ابن كثير: (يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو ، لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السماوات والأرض ، وهو ربها ومُدَبِّرُها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعبديها بطريق الأولى ، ﴿ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ ، أي : لا تُحْصِلُ منفعة ولا تدفع عنهم مضرة . فهل يستوي من عبدَ هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له وهو على نور من ربه ؟!) .

وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ ﴾ .

قال مجاهد: (أما ﴿ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ ، فالكاfer والمؤمن ، وأما ﴿ الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ ﴾ ، فالهدى والضلالة) .

وقوله : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

قال مجاهد: (ضربت مثلاً . قال : خلقوا كخلقه ، فحملهم ذلك على أن شكوا في الأوثان) .

قال النسفي: (أي أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله - فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء ، حتى يقولوا قَدَرٌ هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فتتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ، ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدر على ما يقدر عليه الخلق فضلاً على ما يقدر عليه الخالق) .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

أي : ما وجه إشراككم ما لا يخلق ولا يضر ، والله تعالى هو الفرد الذي لا ثاني

له ، وهو القهار الذي خلق كل شيء وقهره بأمره ، فهو وحده المستحق للتأليه والعبادة .

وقوله : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ . قال مجاهد : (بقدر ملئها) .

وقال ابن جريج : (بقدر صغرها وكبرها) .

قال القاسمي : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي المزن ﴿ مَاءً ﴾ أي مطراً ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ أي : بمقدار ملئها في الصغر والكبر ، أي أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره) . وقال ابن كثير : (وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها ما لا يسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها) .

وقوله : ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ﴾ .

يشتمل على مثلين اثنين ضربهما الله مثلاً للحق والباطل . فالمثل الأول : ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾ - أي فعلا الماء زبدٌ في تلك الأودية . والمثل الثاني : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ مما يسبك فيها من الذهب أو الفضة ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ من نحاس أو حديد فإنه يعلوه زبدٌ أيضاً . وكلا الزبدين يضمحل بسرعة ويتلاشى . وكذلك الباطل في اضمحلاله وفنائه ، والحق في ثباته وبقائه .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قال ابن عباس : (قوله ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ ، فهذا مثل ضربه الله ، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها . فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله ، وهو قوله : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ ، وهو الشك ، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وهو اليقين ، كما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار . فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك) .

قال ابن جرير : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ ، يقول : فأما الزبد الذي علا السيل والذهب والفضة والنحاس والرصاص عند الوقود عليها ، فيذهب بدفع الرياح وقذف الماء به ، وتعلقه بالأشجار وجوانب الوادي ، وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة والرصاص والنحاس ، فالماء يمكث في الأرض فتشربه ، والذهب والفضة

تمكث للناس ، ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ ، يقول: كما مثل هذا المثل للإيمان والكفر ، كذلك يمثل الأمثال).

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ .

المعنى: هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه ، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلبي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة وذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً ، يثبت الماء في منفعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة ، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمى به ، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب . أفاده النسفي ثم قال: (قال الجمهور: وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل ، فالماء القرآن نزل لحياة الجنان ، كالماء للأبدان ، والأودية للقلوب ، ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه ، والزبد هو اجس النفس ووساوس الشيطان ، والماء الصافي المنتفع به مثل الحق ، فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ، ويبقى الحق كما هو . وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية ، وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص ، فإن الأعمال جالبة للشواب دافعة للعقاب ، كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب وبعضها آلة الدفع في الحرب ، وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل).

قلت: وفي القرآن كثير من ضرب الأمثال للحق والباطل ، والإخلاص والنفاق ، والإيمان والكفر ، وغير ذلك .

1 - قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: 17].

2 - وقال تعالى في نعمتهم أيضاً: ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَصْنَعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 19].

3 - وقال جل وعز في نعت الكافرين: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَمَرَبٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: 39].

وفي صحيح السنة من تلك الأمثال أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [مَثَلُ ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نَقِيَّةٌ ، قبلت الماء ، فأنبتت الكلا والعُشْبَ الكثير ، وكانت منها أجادِبٌ ، أمسكت الماء ، فنفخ الله بها الناس فَشربوا وسَقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كلاً ، فذلك مثلُ من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعِلِمَ وعِلْمَ ، ومثلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً ولم يَقْبَلْ هدى الله الذي أُرْسِلْتُ به] (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: [مَثَلُ الْمُنَافِقِ كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تَعِيرُ إلى هذه مَرَّةً ، وإلى هذه مَرَّةً] (2).

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفرائش وهذه الدواب التي يقعن في النار يَقَعْنَ فيها ، وجعل يَحْجَرُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَّقِمْنَ فيها ، قال: فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بِحُجْرِكُمْ عن النار ، هَلُمَّ عن النار ، هَلُمَّ عن النار ، هَلُمَّ ، فتغلبوني ، فَتَقْتَحِمُونَ فيها] (3).

18 - 19. قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَائِ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِلْهَادِثِينَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿١٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: إثبات الله تعالى بلوغ الجنة لأهل طاعته ، والخلود في مستقر

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (79)، كتاب العلم، وأخرجه مسلم في الصحيح (2282)، ورواه أحمد في المسند (399/4).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2784) - كتاب صفات المنافقين -. والعائرة: المترددة ، الحائرة لا تدري أيهما تتبع ، ومعنى تعير أي تتردد وتذهب .

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (312/2)، ومسلم (2284) ح (18)، وانظر صحيح البخاري (3426)، وسنن الترمذي (2874)، وصحيح ابن حبان (6408).

رحمته . وبلوغ النار لأهل معصيته ، ولا فداء لهم من العذاب ولو جاؤوا بما في الأرض جميعاً ومثله معه لفديته . إنه لا يستوي من آمن بالوحي وانتفع به ، ومن هو أعمى القلب جاهل بالوحي كافر به ، إنما يتعظ بآيات الله أولو الأبواب .

فمن قتادة : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى ﴾ ، قال : وهي الجنة .

فالحسنى الجنة ، أو الجزاء الحسن .

كما في التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الكهف : 88] .

قال القرطبي : (وقيل : من الحسنى النصر في الدنيا ، والنعيم المقيم غداً) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ .

فيه تهويل حالة الخسران التي يلقاها المجرمون يوم القيامة ، الذين كفروا بالله ورسله وتحاكموا للطاغوت .

قال القاسمي : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ وهم الكفرة ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ أي : بما في الأرض ومثله معه من أصناف الأموال ، ليتخلصوا عما بهم . وفيه من تهويل ما يلقاها ما لا يحيط به البيان ، ولأجله عدل عن أن يقال : وللذين لم يستجيبوا السوء ، كما تقتضيه المقابلة .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَؤَلَدُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : 10] .

2 - وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُمْسِكَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ﴾ [آل عمران : 91] .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِلَّهِ ﴾ .

أي مناقشة حسابهم صعبة ومخيفة ، ثم مرجعهم بعد انتهاء المحاسبة إلى النار ، وبئس المكان الممهد مثنوى لهم وبئس المستقر .

وعن فرقد السبخي قال : قال إبراهيم النخعي : (يا فرقد ، أندري ما «سوء

الحساب» ؟ قلت : لا - ! قال : هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له منه شيء) - ذكره ابن جرير بسنده إليه .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ .

قال قتادة : (هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ، قال الله : ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ ، قال : عن الخير فلا يبصره) .

وقوله : ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ . قال القرطبي : (والمراد بالعمى عمى القلب ، والجاهل بالدين أعمى القلب) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَذْكُرُوا آلَاءَ الْآلِهَةِ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول ، وهي ﴿ آلآلِهَةِ ﴾ ، واحدا «لُبَّ») .

20 - 24 . قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ وَالَّذِينَ

يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢١﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٢﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٣﴾ .

في هذه الآيات : نَعَتْ الله تعالى أولي الأبواب : فهم أهل الوفاء بالعهد والميثاق ، وأهل الوصل لما أمرهم الله بوصله ، وأهل الخشوع والخوف من سوء الحساب . وهم أهل الصبر ابتغاء وجه ربهم ، وأهل إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله ، ومتابعة السيئات بالحسنات ، فأولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن وافقهم على منهاج الإيمان من الآباء والأزواج والذرية ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، ويحيونهم بالسلام مقابل صبرهم وجهادهم فنعم عقبى الدار .

فقوله : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ - صفة لأولي الأبواب ، والعهد اسم للجنس ، والمقصود بجميع عهود الله . قال القرطبي : (وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبده ، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض ، وتجنب جميع المعاصي) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ . قال النسفي : (ما أوثقوه على أنفسهم وقبلوه من

الإيمان بالله وغيره من الموائيق بينهم وبين الله وبين العباد ، تعميم بعد تخصيص).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾. قال ابن كثير: (من صلة الأرحام ، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاييج وبذل المعروف).

وقوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

أي: يخافون ربهم في جميع أعمالهم ويحذرون مناقشة الحساب يوم القيامة وتدقيق الأعمال.

قال أبو الجوزاء: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ، قال: المقايسة بالأعمال).

قال ابن جرير: (يقول: ويحذرون مناقشة الله إياهم في الحساب ، ثم لا يصفح لهم عن ذنب ، فهم لرهبتهم ذلك جادّون في طاعته ، محافظون على حدوده).

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ يحاسبُ يومُ القيامة إلا هلك]. قلت: أوليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش في الحساب يهلك⁽¹⁾.

وفي الصحيحين أيضاً عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: [ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا حجاب يخجبه ، فينظرُ أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قدّم من عمله ، وينظرُ أشأمَ منه فلا يرى إلا ما قدّم ، وينظرُ بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشقّ تمرّة]⁽²⁾.

وفي رواية: (فمن لم يجد فبكلمة طيبة).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

قال ابن زيد: (الصبر ، في هاتين ، فصبرٌ لله على ما أحبّ وإن ثقل على الأنفس والأبدان ، وصبرٌ عمّا يكره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين. وقرأ: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24].

وعن ابن عباس: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ، يعني الصلوات الخمس ، ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ، يقول: الزكاة).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4939) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (2876).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (225/3) ، (397/13) ، ومسلم (1016) (67) و (68).

والمقصود: ذكُرُ مآثر المؤمنين الذي فطموا أنفسهم عن المحارم والمآثم ابتغاء مرضاة الله تعالى وتعظيماً لوجهه الكريم وحياءً منه ، ثم إنهم أقاموا الصلاة بأركانها وفروضها وسننها وخشوعها ، وأنفقوا مما رزقهم الله على من وجب عليهم الإنفاق عليهم من الزوجات والأولاد والأرحام والقربات والفقراء والمساكين من زكاة مفروضة ونفقات واجبة أخرى ، وذلك في الخفاء وفي الظاهر حسب طبيعة الحال .

وقوله: ﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ - أي يدفعون الإساءة ضدهم بالإحسان .

قال ابن زيد: (يدفعون الشر بالخير ، لا يكافئون الشر بالشر ، ولكن يدفعونه بالخير).

وفي التنزيل: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ .

هو كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 35].

قال ابن جرير: ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾: هم الذين أعقبهم الله دارَ الجنان ، من دارهم التي لو لم يكونوا مؤمنين كانت لهم في النار ، فأعقبهم الله من تلك هذه . وقد قيل: معنى ذلك: أولئك لهم عَقِيبَ طاعتهم ربهم في الدنيا ، دارَ الجنان).

وقوله: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ .

أي: جنات إقامة - والعدن: الإقامة - يخلدون في نعيمها وروضاتها هم ومن كان معهم على الهدى والإيمان من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم .

قال الضحاك: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ ، قال: مدينة الجنة ، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى ، والناسُ حولهم ، بعدد الجنات حولها).

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٢﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ .

أي: وتدخل الملائكة على هؤلاء المؤمنين في الجنان من كل باب من أبوابها ، تسلم عليهم وتحمل لهم البشرى بما صبروا على إقامة الدين وجاهدوا في سبيل الله ، بأن لهم الخلود في دار النعيم ، فنعم دار القرار بعد دار الاختبار .

قال ابن زيد: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ ، قال: حين صبروا بما يحبه الله فقدّموه ، وصبروا عما كره الله وحرّم عليهم ، وصبروا على ما ثقل عليهم وأحبه الله ، فسلم عليهم بذلك). وعن أبي عمران الجوني: ﴿فَنَعَمْ عَقْبَى الدَّارِ﴾ ، قال: الجنة من النار).

والخلاصة: كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تَفِدُّ عليهم الملائكة مُسَلِّمين مُهْنَتَيْنِ لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة في دار السلام ، في جوار الصّديقين والأنبياء والرسل الكرام).

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث من جوامع الكلم النبوي في آفاق هذا المعنى:

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً: [من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي فهلّم. قال أبو بكر: يا رسول الله ذاك الذي لا توى عليه - أي لا خسارة ولا هلاك - فقال النبي ﷺ: إني لأرجو أن تكون منهم] (1).

الحديث الثاني: روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً. وإن لكم أن تحيا فلا تموتوا أبداً. وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً. وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً. وذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]] (2).

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال: [هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغور ، وتُتَقَى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: اتّوهم فحيّوهم. فتقول الملائكة: نحن سگان سمايك ، وخيرتک من خلقک ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنُسَلِّمَ عليهم؟ قال: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً ، ونُسَدُّ بهم الثغور ، وتُتَقَى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره فلا يستطيع لها

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (1897) ، (2841) ، (3216). وأخرجه مسلم (1027) - كتاب الزكاة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2837) ، كتاب الجنة ونعيمها ، باب في دوام نعيم أهل الجنة.

قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ، ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾⁽¹⁾.

وفي رواية: [أولُ ثلَّةٍ يدخلون الجنة فقراء المهاجرين ، الذين تَتَقَى بهم المكاره ، وإذا أَمَرُوا سَمِعُوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُفَضَّ حتى يموتَ وهي في صدره ، وإن الله يدعُو يومَ القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها ، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، وجاهدوا في سبيلي ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب ، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: رَبَّنَا نحن نُسَبِّحُكَ الليل والنهار ، ونقدِّسُ لك ، مَنْ هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الربُّ - عز وجل - : هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي . فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾].

الحديث الرابع: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح على شرط مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتعلمُ ؟ أولُ زمرةٍ تدخل الجنة من أمتي ؟ قلت: الله ورسوله أعلم ؟ فقال: المهاجرون ، يأتون يومَ القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون ، فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم ؟ فيقولون: بأي شيء نحاسبُ وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك ؟ قال: فيفتح لهم فيقولون فيها أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس]⁽²⁾.

25- 26. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۝٢٦﴾.

في هذه الآيات: دَمَّ الله تعالى أهل نقض العهد وتقطع ما أمر الله بوصله وأهل الفساد في الأرض ، وتوعدهم باللعنة وسوء العاقبة في الآخرة. إن الله هو الذي يبسط الرزق لعباده ويقدر لهم ، وأهل الغفلة في فرح بهذه الحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 168) ، وذكره الهيثمي في المجمع (10/ 259) وقال: رواه أحمد والبخاري والطبراني ، ورجاله كلهم ثقات ، وانظر صحيح ابن حبان (7421) ، وصفة الجنة لأبي نعيم (81) ، والبيهقي في «البعث» (414) وسنده حسن.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 70) وهو على شرط مسلم ، وانظر السلسلة الصحيحة (853).

قال ابن عباس: (أكبر الكبائر الإشراك بالله ، لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ [الحج: 31] ، ونقض العهد ، وقطيعة الرحم ، لأن الله تعالى يقول: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ، يعني سوء العاقبة).

وقال أبو العالية: (﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ . . . الآية ، قال: هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهْرَةُ على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حَدَّثُوا كَذَبُوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا أَوْثَمُوا خَانُوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض ، وإذا كانت الظَّهْرَةُ عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حَدَّثُوا كَذَبُوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا أَوْثَمُوا خَانُوا).

وقد ثبت نحو هذا المعنى في صحيح السنة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أَوْثَمَ خَانَ]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الشيخان وأحمد وأكثر أهل السنن عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [أربعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ ، حَتَّى يَدْعَها: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ عَدَرَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة والبخاري والبيهقي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [يا معشر المهاجرين خصالٌ خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطَّ ، حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقضوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة ، وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، ولولا البهائم لم يُمَطَّرُوا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم ، وما لم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (33) ، (2682) ، ومسلم (59) ، وأحمد (357/2) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (34) ، ومسلم (58) ، وأبو داود (4688) ، والترمذي (2632) ، والنسائي (116/8) ، وأحمد (189/2) ، وابن حبان (254) ، وغيرهم.

تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحرّوا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم⁽¹⁾.

قال ابن جرير: ﴿وَيَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ، فسادهم فيها ، عملهم فيها بمعاصي الله ، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ ، يقول: فهؤلاء لهم اللعنة ، وهي البعد من رحمته ، والإقصاء من جنانة ، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ، يقول: ولهم ما يسوءهم في الدار الآخرة).

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾.

أي: ييسط الله الرزق لبعض عباده ويُقتر على بعضهم ، وكل ذلك مقسوم بحكمته سبحانه ، فربما كان لا يصلح حال بعضهم إلا بسعة الرزق ووفرته ، وربما كان الإقتار هو الأنسب لبعضهم ، وقد يفرح هؤلاء الذين بسط لهم على كفرهم ويغيب عنهم أن هذا استدراج من الله لهم ، فإنما الحياة الدنيا متاع قليل للفريقين .

قال مجاهد: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ ، قال: قليل ذاهب).

وقال عبد الرحمن بن سابط: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ ، قال: كزاد الراعي يَرْوُدُه أهله: الكف من التمر ، أو الشيء من الدقيق ، أو الشيء يشرب عليه اللبن).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۖ شَاخٍ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55 - 56].

2 - وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77].

3 - وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 16 - 17].

ومن كنوز السنة الصحيحة في مفهوم هذه الآية ، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عقبة بن عامر ، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج]. ثم

(1) حديث صحيح. رواه ابن ماجه (4019) ، والحاكم (540/4) ، وأبو نعيم في «الحلية»: (333/8 - 334) ، وله طرق كثيرة ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (106).

تلا رسول الله ﷺ: ﴿ فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُغْلِتْهُ . ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: 102]] (2).

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن قيس قال: سمعت مُسْتَوْدِأَ أَخَا بَنِي فَهْرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [وَاللَّهِ ! مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ بِحَبِي السَّبَابَةِ - فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمَ تَرْجِعُ ؟] (3).

الحديث الرابع: روى مسلم عن جابر بن عبد الله: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ ، وَالنَّاسُ كَنَفَتْهُ ، فَمَرَّ بِجَذِي أَسْكَ مَيْتٍ ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بَدْرُهُمْ ؟ فَقَالُوا: مَا نَحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؟ قَالَ: أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟ قَالُوا وَاللَّهِ ! لَوْ كَانَ حَيًّا ، كَانَ عَيْنًا فِيهِ ، لِأَنَّهُ أَسْكَ ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ ؟ فَقَالَ: فَوَاللَّهِ ! لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ] (4). وَالْأَسْكَ: هُوَ صَغِيرُ الْأُذُنَيْنِ . وَمَعْنَى « كَنَفَتْهُ » أَي: جَانِبَهُ .

27 - 29. قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ [٢٧] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [٢٨] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي مَنَاقِبِ [٢٩].

في هذه الآيات: تَنْطُعُ الْمُشْرِكِينَ فِي اقْتِرَاحِهِمْ رُؤْيَا آيَةِ أَمَامَ وَضُوحِ الْأَدَلَةِ الْكَثِيرَةِ

- (1) حسن لشواهد. أخرجه أحمد (4/ 145)، والطبري (13243)، والطبراني (17/ 330)، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (4540) من طرق، وله شواهد، وقد مضى بتمامه.
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3110)، وابن ماجه (4018)، وأخرجه ابن حبان (5175)، والبيهقي (94/ 6).
- (3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2858)، كتاب الجنة ونعيمها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة. وأخرجه أحمد (4/ 228 - 229)، والترمذي (2323)، وابن ماجه (4108).
- (4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2957)، كتاب الزهد والرفائق، وانظر مسند أحمد (1/ 329)، ومسند أبي يعلى (2593).

الدالة على صدق النبوة ، فقل لهم - يا محمد - إن الله قد يخذل من يشاء عن الإيمان والتصديق بالآيات ، ويهدي إلى الإيمان من تواضع لله وأتاب . إن المؤمنين الصادقين تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وبذكر الله تطمئن القلوب . إن الذي آمنوا وعملوا الصالحات لهم البشري والخير والكرامة في الآخرة .

فقوله : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ - هو من قول المشركين للنبي ﷺ .

أي : هلاً أنزل ربك عليك - يا محمد - آية من آياته ، إما ملك يكون معك نذيراً ، أو كنز يلقي إليك ، أو تحوّل الصفا ذهباً ، أو تجري لنا ينبوعاً ، أو تزيع الجبال من حول مكة ليصير مكانها المروج والبساتين .

قال القرطبي : (بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا نُزِّلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الفرقان : 7 - 8] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء : 59] .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرک ، بسند صحيح عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : [سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحّي الجبال عنهم فيزدرعوا ، فقل له : إن شئت أن تستأنّي بهم ، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أهلکوا كما أهلکث من قبلهم ! قال : لا ، بل أستأنّي بهم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ وَإِنَّا نَمُودُ النَّافَةَ مُبْصِرَةً ﴿١﴾] .

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «التفسير» (310) ، وأحمد في المسند (1/258) ، والطبري (2298) ، وصححه الحاكم (2/362) ووافقه الذهبي .

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾.

أي: قل لهم يا محمد ، إن الله يضل من يشاء عن الإيمان والتصديق بالآيات ، ويوفق من يشاء للهداية ممن رجع إليه وصدق التوبة والإقبال .

وعن قتادة: (قوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ ، أي: من تاب وأقبل).

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

قال قتادة: (يقول: سكنت إلى ذكر الله واستأنست به). وقال مجاهد: (بالقرآن).

وقال سفيان: (بأمره). وقال مقاتل: (بوعده). وقال ابن عباس: (بالحلف باسمه ، أو بذكر فضله وإنعامه ، كما تؤجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه).

و«الذين» في محل نصب مفعول به ليهدي ، والتقدير ، يهدي الله الذين آمنوا ، أو في محل نصب بدل من قوله: «مَنْ أُنَابَ».

وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. قال مجاهد: (لمحمد وأصحابه).

قلت: بل الآية عامة .

أي: قلوب المؤمنين المخبتين إلى ربهم ، فإن ذكر الله تعالى يؤنس وحشة القلوب المضطربة ، والنفوس المتألمة ، ويرجع على الروح بسعادة وطمأنينة .

وذكر الله يشمل القرآن وتلاوته وتدبر آياته ، وكذلك التفكير في وعد الله ووعيده ، وثوابه وعقابه ، وجنته وناره ، كما يشمل المبادرة إلى العمل بطاعته والقيام بتعظيم أوامره ، وكذلك فإنه يشمل طلب العلم النافع الذي فيه بيان شرعه وهديه .

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَّتَابٍ﴾.

هو ابتداء وخبره ، أو التقدير: لهم طوبى ، ﴿وَحَسَنُ مَّتَابٍ﴾ معطوف عليه . وفي معنى «طوبى» أقوال عند المفسرين:

1- قال عكرمة: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ ، قال: نعم مالهم).

2- وعن الضحاك: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ ، قال: غبطة لهم).

3- وعن ابن عباس: (قوله: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ ، يقول: فرح وقرّة عين).

4- وعن قتادة قال: (يقول: حسنى لهم ، وهي كلمة من كلام العرب). وقال: (هذه كلمة عربية ، يقول الرجل: «طوبى لك» ، أي: أصبت خيراً).

5 - وقال إبراهيم النخعي: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ ، خير لهم. قال: الخير والكرامة التي أعطاهم الله).

6 - وعن ابن عباس قال: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾: اسم أرض الجنة ، بالحبيشية). وقال مجاهد: (الجنة).

7 - قال ابن عباس وأبو هريرة: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾: شجرة في الجنة).

قلت: وفي كلام العرب «طوبى» مشتق من «طيب» ، وهو من الطَّيَّب: ضد الخبيث ، فيكون «طوبى» فعلى من الطَّيَّب قلبوا الياء واواً لضمه ما قبلها ، وطوبى اسم شجرة في الجنة أيضاً. فيكون المعنى: الطَّيَّب للمؤمنين الذين عملوا الصالحات في الجنة ، من الغبطة والفرح وقرّة العيون والتلذذ بألوان النعيم والخير والكرامة ، كما أن لهم «طوبى»: شجرة في الجنة مسيرة مئة عام ، تخرج ثيابهم من أكمامها ، كما جاء ذلك في صحيح السنة العطرة ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أحمد في المسند ، بسند حسن ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [طوبى شجرة في الجنة ، مسيرة مئة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن جرير بسند حسن لغيره ، عن فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرّة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: [﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَثَابٍ﴾ شجرة غرسها الله بيده ، ونفخ فيها من روحه بالحلي والحلل ، وإن أغصانها لثرى من وراء سور الجنة]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها ، إن شتم فاقروا: ﴿وَلَيْلٌ مَمْدُودَةٌ وَمَا يَمْسُكُوبُ﴾]⁽³⁾.

وله شاهد عنده من حديث أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة

- (1) حديث حسن في الشواهد. أخرجه أحمد (71/3) ، وابن جرير (101/13) ، وابن حبان (2625) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1985). والأكمام: غلاف التمر والحب قبل أن يظهر.
- (2) حسن لغيره. أخرجه الطبري (20393) ، ويشهد له الحديث الذي قبله ، وانظر المرجع السابق.
- (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3251) ، وأخرجه الترمذي في السنن (3293).

شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مئة عام ما يقطعها⁽¹⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث عبد الله بن عمرو قال: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أخبرنا عن ثياب أهل الجنة خلقاً تخلق أم نسجاً تنسج؟ فضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: وممّ تضحكون من جاهل يسأل عالماً؟ ثم أكب رسول الله ﷺ، ثم قال: أين السائل؟ قال: هو ذا أنا يا رسول الله! قال: لا بل تشقق عنها ثمر الجنة «ثلاث مرات»⁽²⁾.

وعن الضحاك: ﴿وَحَسَنُ مَتَابٍ﴾، قال: حسن منقلب).

30 - 32. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوِ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: تَسْلِيَةٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ في وصله بسلسلة النبوة ومنهاج الدعوة الذي مضى عليه المرسلون قبله وصبرهم على الأذى، وهؤلاء قومك - يا محمد - يكفرون بالرحمان، فأعلن إيمانك بالله الواحد الأحد وحسن توكلك عليه وأوبتك إليه. إنه لو كان كتاب مما أنزل الله تُسَيَّرُ به الجبال أو تُشَقَّقُ به الأرض أو تُكَلَّمُ به الموتى لكان هذا القرآن، وإنما أمر ما يَلْتَمِسُونَهُ بيد الله، أفلم يتبين المؤمنون أن حجة هذا القرآن تكفي لإيمان جميع الخلق لو شاء الله ذلك، إنه لا تزال البلايا والقوارع تنزل بالكفار أو قريباً منهم حتى يأتي وعد الله بموتهم أو قيام الساعة والله لا يخلف الميعاد.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6552 - 6553)، وأخرجه مسلم (2827 - 2828).

(2) أخرجه أحمد (202/2)، (224/2 - 225) عن حنان بن خارجة عن عبد الله بن عمرو، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (4/ص 640) عقب الحديث (1985).

ولقد استهزئ - يا محمد - برسل قبلك فصبروا حتى قطع الله استدراجهم للكافرين وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

فقوله: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

أي: كذلك - يا محمد - أرسلناك في قومك كما أرسلنا من قبلك من الرسل في أقوامهم وأممهم لتنذرهم بهذا الوحي مغبة استرسالهم في غيهم وشركهم ، فكذبوك كما كذب الأقوام رسلهم من قبلك ، فصبر إخوتك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على ما كُذِّبوا ، فلك بهم أسوة في الصبر والاحتساب.

وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمَرِّسِلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾. قال ابن كثير: (أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرؤون به لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم).

وعن مجاهد قال: (هذا لما كاتب رسول الله ﷺ قريشاً في الحديبية ، كتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، قالوا: لا تكتب ﴿الرَّحْمَنِ﴾ ، وما ندري ما ﴿الرَّحْمَنِ﴾ ، ولا تكتب إلا: «باسمك اللهم». قال الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، الآية).

قلت: وأصل ذلك في صحيح البخاري من حديث المسور ومروان ، وكذلك في مسند الإمام أحمد من حديث المسور.

فقد روى البخاري - في صلح الحديبية - قال الزهري: [فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا. فدعا النبي ﷺ الكاتب - وهو علي رضي الله عنه - فقال النبي ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. (وفي رواية أحمد: فقال رسول الله ﷺ: اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾) فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب] الحديث⁽¹⁾.

و«الرحمن» اسم مشتق من الرحمة على وجه المبالغة.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2731) ، (2732) ، كتاب الشروط ، وأخرجه مسلم في صحيحه (1784) ، كتاب السير ، وأخرجه أحمد في المسند (325/4).

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الملك : 29].

2 - وقال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْتَلِ بِهِ خَيْرًا ﴾ [الفرقان : 59].

3 - وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : 110].

ومن كنوز السنة الصحيحة في اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أحاديث ، منها :

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد جيد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [قال الله عز وجل : أنا الرحمن وهي الرحم ، شققت لها من اسمي ، من يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه فأبته] (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : [إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ] (2).

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : إن كفر هؤلاء الذين أرسلتك إليهم ، يا محمد ، بالرحمن فقل أنت : الله ربي ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ ، يقول : وإليه مرجعي وأوبتي).

وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ ﴾ . مَدْخُ للقرآن ، وثناءً عطرً على إعجازه ، وتفضيل له على سائر الكتب المنزلة قبله .

والمقصود : لو كان كتاب مما أنزل من قبل تُسَيَّرُ به الجبال فتزول عن أماكنها ، أو تُقَطَّعُ به الأرض وتنشق ، أو تُكَلَّمُ به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن ، لأنه الكتاب الأعلى في إعجازه في هذا الكون ، وهو كلام الله العظيم الذي تتصدع أمامه جميع المخلوقات كبيرها وصغيرها .

(1) أخرجه أحمد (498/2) ، وإسناده جيد ، رجاله ثقات رجال الشيخين انظر الصحيحة (2) ص (38) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2132) ، وأبو داود (4949) ، والترمذي (2835) ، وابن ماجه (3728) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وفي التنزيل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: [ما من نبي من الأنبياء إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة] (1).

فائدة: القرآن يُطلق على كل من الكتب المتقدمة ، لأنه مشتق من الجميع. ذكره الحافظ ابن كثير - ثم أورد حديث الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [خففت على داود القراءة فكان يأمرُ بدابته أن تُسرجَ ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسرجَ دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه] (2).

قلت: والحديث رواه البخاري أيضاً بلفظ: [خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآنُ فكان يأمرُ بدوابه فتُسرجُ فيقرأ القرآن قبل أن تُسرجَ دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده]. ولا شك أن المقصود بالقرآن هنا الزُّبور.

وقوله: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾. قال القرطبي: (أي هو المالك لجميع الأمور ، الفاعل لما يشاء منها ، فليس ما تلمسونه مما يكون بالقرآن ، إنما يكون بأمر الله).

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

أي: أفلم يعلم المؤمنون ويتبينوا أن حجة هذا القرآن وبيانه وإعجازه يكفي لإيمان جميع الخلق لو شاء الله ذلك. قال ابن عباس: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، يقول: (يعلم).

وقال قتادة: (أفلم يعلم الذين آمنوا). أو قال: (أفلم يتبين الذين آمنوا).

وقال أبو العالية: (قد يسّ الذين آمنوا أن يهدوا ، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً).

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ - فيه تفسيران عند المُفسِّرين:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4981) ، (7274) ، وأخرجه مسلم - حديث رقم - (152).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (314/2) ، والبخاري (3417) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6225).

1 - أي: لا تزال البلايا والمصائب والقوارع تنزل بالكفار بسبب كفرهم وخُبث أعمالهم ، أو تنزل قريباً منهم فيفزعون ويتطايرون عليهم شررها حتى يأتي وعد الله بموتهم أو قيام الساعة .

2 - أي: لا يزال ينزل بكفار مكة من المصائب والقوارع نتيجة ما صنعوا برسول الله ﷺ فيصيب المسلمون منهم ويختطفون منهم بإغارتهم على مواقعهم حول مكة ويغنمون ويأسرون ، أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتى يأتي وعد الله بفتح مكة ودخولك منتصراً مظفراً ، وعد الله ، ولا يخلف الله الميعاد .

قلت: والبيان الإلهي يحتمل التأويلين معاً ، فكلاهما ضمن آفاق مفهوم الآية .

فعن ابن زيد: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ ، قال: قارعة من العذاب). وعن قتادة قال: قال الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ، قال: أو تحل القارعة قريباً من دارهم). وقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ - قال الحسن: (يوم القيامة).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ ، يقول: عذابٌ من السماء ينزل عليهم ، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ، يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم). وعن سعيد بن جبير: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ ، قال سرية ، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ، قال: أنت يا محمد). وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿قَارِعَةٌ﴾ - قال: السرايا).

وقال مجاهد: (سرية ، أو قال: كتيبة). وقال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ - قال: فتح مكة).

وفي التنزيل: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدُهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 47].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ رُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾ .

تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه ، وسؤالهم الآيات تنطعاً واستهزاء وبطراً.

يقول: إن لك بإخوتك الرسل من قبلك أسوة في صبرهم على أذى أقوامهم ومكرهم واستهزائهم ، ثم بما آلت إليه أحوال المعاندين والمتكبرين بعد إمهالهم وتأجيلهم ،

فكيف بلغك ما صنعت بهم وما كان من إهلاكهم وتدميرهم .

وفي التنزيل : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيْرِ ﴾ [الحج : 48].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102]]⁽¹⁾.

33 - 35. قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَابِئٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهِّرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ .

في هذه الآيات : إعلَامٌ من الله تعالى أنه القائم على كل نفس في أرزاقها وأجلها وأعمالها ومع ذلك يعبد المشركون الأوثان التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، فقل لهم - يا محمد - : سمّوا ما أشركتم في عبادة الله ؟ فإن قالوا : هي آلهة ، فقد كذبوا ، لأن الله هو الإله الحق الواحد القهار ، وآلهتهم هزيلة مهزومة ضعيفة ، فهل تخبرونه سبحانه أن في الأرض إلهاً لا يعلمه أم تفترون الكذب والباطل ! لقد زَيْنَ الشيطان للكافرين افتراءهم على الله وصدهم عن سبيله ، ومن ثم فمن خذله الله عن الهدى فماله إلى الهداية من سبيل . إن لهؤلاء المشركين الخزي والعذاب في الدنيا ، ثم يردون إلى أشد العذاب في الآخرة ، وما لهم من الله من ولي ولا نصير . وأما المؤمنون المتقون فهم في روضات الجنات ، تجري من تحتها الأنهار ، منغمسون في ألوان النعيم ، على النقيض من أحوال أصحاب الجحيم .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3109) ، وابن ماجه (4018) ، وابن حبان في صحيحه (5175) ، وأخرجه البيهقي (94/6) .

فقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ - هو الله تعالى قائم على كل نفس في أرزاقها وأجلها وأعمالها.

قال قتادة: (ذلكم ربكم تبارك وتعالى ، قائمٌ على بني آدم بأرزاقهم وآجالهم ، وحفظَ عليهم والله أعمالهم). وقال ابن عباس: (يعني بذلك نفسه ، يقول: هو معكم أينما كنتم ، فلا يعمل عاملٌ إلا والله حاضِرُه. ويقال: هم الملائكة الذي وكلوا ببني آدم).

وقال الضحاك: (فهو الله قائم على كل برّ وفاجر ، يرزقهم ويكلؤهم ، ثم يشرك به منهم من أشرك).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: 59].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61].

3 - وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 6].

4 - وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنُّيْلِ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10].

5 - وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ الْسِرَّ وَآخَفَى﴾ [طه: 7].

6 - وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق معنى هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث عبادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له: اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة⁽¹⁾]. وفي لفظ: [إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال: يا رب وما أكتب؟

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (317/5) ، والترمذي في التفسير (232/2) ، وانظر تخریج المشكاة (94) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (807/2) لتفصيل الروايات المختلفة.

قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد]. وفي لفظ آخر: [اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . وكان عرشه على الماء]⁽¹⁾.

الحديث الثالث: يروي الطبراني بسند صحيح من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد]⁽²⁾. وفي رواية: (من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه).

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾. أي: عبدوا تلك الأصنام والأوثان وهي لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تملك كشف الضر عن نفسها ولا تحويلاً. فقل لهم يا محمد: سمّوا ما أشركتم في عبادة الله؟ فإن قالوا: هي آلهة ، فقد كذبوا ، لأنه لا إله إلا الله الواحد القهار لا شريك له ، وهو خلق كل شيء ، ومن ثم فإن ما زعمتم آلهة مخلوق ضعيف مقهور بأمر الله ، فهل تخبرونه سبحانه أن في الأرض إلهاً لا يعلمه!! أم تقولون الكذب والباطل!!

وفي التنزيل: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: 23].

وعن ابن عباس: (﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ ، والله خلقهم). قال الضحاك: (ولو سمّوهم آلهة لكذبوا وقالوا في ذلك غير الحق ، لأن الله واحد ليس له شريك. قال الله: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ، يقول: لا يعلم الله في الأرض إلهاً غيره). وعن مجاهد: (﴿يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ، بظن). وقال قتادة: (والظاهر من القول هو الباطل). وعن الضحاك قال: (يقول: أم بباطل من القول وكذب ، ولو قالوا: قالوا الباطل والكذب).

وقوله: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1841) بلفظ: (كتب الله مقادير الخلق..) ، وانظر صحيح مسلم (51/8) ، باب: كتب المقادير قبل الخلق ، وروى أحمد نحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» (7/195) ، وبنحوه أحمد (5/197). انظر تخريج الطحاوية (78) ، وصحيح الجامع الصغير (4077) ، (4078) - (4079).

أي: بل زين للكافرين افتراؤهم الكذب على الله وصدهم عن سبيله ، ومن ثم فإن من أضله الله عن إصابة الحق وخذله عن الهدى فلا سبيل لهديته .

وعن مجاهد: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ ، قال: قولهم). يعني ما افتروه على الله من الشرك به والدعوة إلى الضلال والإلحاد.

وقرأ الكوفيون: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ بضم الصاد ، أي وصدهم الله عن سبيله بسبب تماديهم في الكفر والمكر. وأما قراء البصرة والحجاز فقرأوه بالفتح: ﴿وَصَدُّوا﴾ ، أي إِنَّ المشركين لم يكتفوا بكفرهم بل صدوا الناس أيضاً عن سبيل الله - والقراءتان مشهورتان.

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ، يقول تعالى ذكره: ومن أضله الله عن إصابة الحق والهدى بخذلانه إياه ، فماله أحدٌ يهديه لإصابتهما ، لأن ذلك لا يُنال إلا بتوفيق الله ومعونته).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتُهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: 41].

2 - وقال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: 37].

3 - وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [المؤمن: 34].

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تعرض الفتن على القلوب عرض الحصر عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضربه فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُزبدًا كالكوز مُجَحَّيًا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾. أي: لهؤلاء المشركين بالله الصادقين عن سبيله عذاب في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والآفات ، وما ينتظرهم من عذاب الآخرة أشد ثم لا ولي ولا شفيع ولا نصير.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 89 - 90). وانظر مختصر صحيح مسلم (1990) - كتاب الفتن ، من حديث حذيفة رضي الله عنه .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا ۚ وَإِذَا أَلْفَوْا مَكَانًا صَبِيحًا مُّقْرِئِينَ دَعْوَاهُنَّ أَلَّا يَدْعُوْنَ الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاجِدًا وَادْعُوْا ثُبُورًا كَثِيْرًا ۚ ﴾ [الفرقان : 12 - 14].

2 - وقال تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۚ وَلَا يُؤْنَسُ وَفَاءُهُ أَحَدًا ۚ ﴾ [الفجر : 25 - 26].

3 - وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِيْنَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَبَدَأ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَّكُوْنُوْنَ يَحْتَسِبُوْنَ ۚ ﴾ [الزمر : 47].

ومن السنة الصحيحة في آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ قال : [يقول الله تبارك وتعالى لأهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنّت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم ، فيقول: قد أردت منك أهونَ من هذا وأنت في صُلب آدم - أن لا تشرك ، ولا أدخلك النار ، فأبيت إلا الشرك] ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج النسائي والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوْنُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ قال رسول الله ﷺ : [لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه] ⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : [يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تملوهم نار الأنيار ، يُسْقون من عُصَاة أهل النار ، طينة الخبال] ⁽³⁾.

وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا ذَٰلِكَ عَقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعَقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ۚ ﴾ .

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في الصحيح (8/134) . وانظر مختصر صحيح مسلم (1955) - كتاب صفة القيامة . باب : في كثرة العرق يوم القيامة .

(2) حديث صحيح . انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (5683) ، وصحيح الجامع الصغير (5126) .

(3) حديث حسن . أخرجه الترمذي في السنن (2492) . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، وصحيح الجامع الصغير (7896) ، ورواه أحمد .

تفريق بين المصيرين ، فهذا مصير السعداء المتقين ، في جنان النعيم ، تجري من تحتها الأنهار ، دائمة الظلال والأكل والملذات ، على النقيض من أحوال أهل الجحيم والحسرات .

وفي التنزيل :

1 - ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد : 15] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَفِيكَهْ كَثِيرٌ ۖ لَا مَقْطُوعٌ وَلَا مَمْنُوعٌ ﴾ [الواقعة : 32 - 33] .

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد ، وأبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [في الجنة شجرة يسيرُ الراكب في ظلها مئة سنة . اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٌّ مَدُودٌ ﴾ [الواقعة : 30]]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : روى مسلم عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : [يأكل أهل الجنة ويشربون ، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم ذلك جُشاء كريح المسك ، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس]⁽²⁾ .

الحديث الثالث : أخرج الطبراني والبزار عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى]⁽³⁾ .

36 - 37 . قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَكْثَرُ رَحْمَةٍ مِنْكَ وَمِنْ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3252) ، ومسلم (2826) ، والترمذي (2523) ، وأحمد (418/2) من حديث سهل بن سعد وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2835) ، وأبو داود (4741) ، وأحمد (316/3) ، وغيرهم .

(3) أخرجه الطبراني (1449) والبزار (3530) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (414/10) وقال : رواه الطبراني والبزار إلا أنه قال : «عيد في مكانها مثلاًها» ، ورجال الطبراني وأحد إسناده البزار ثقات .

مَثَابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ .

في هذه الآيات: إثبات الله تعالى فرح الصحابة بهذا القرآن ومسايرتهم للعمل به ، ومن أهل الكتاب وغيرهم من الطوائف من ينكر بعض ما في القرآن ظلماً وزوراً ، فاعلن - يا محمد - إفراذك الله بالتعظيم والدعاء ، فإليه الرجوع والمآب . لقد شَرَّفَكَ ربك - يا محمد - بهذا القرآن المحكم بلسان العرب فحذار متابعة أهل الأهواء بعدما جاءك من العلم ، فإنه لا ناصر لك حينئذ ولا يقيك من الله واق .

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ - يعني الصحابة فرحوا بالقرآن وعملوا به . قال قتادة: (أولئك أصحاب محمد ﷺ ، فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصدقوا به) .

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ - يعني اليهود والنصارى وغيرهما من الطوائف .

قال مجاهد: (من أهل الكتاب ، و﴿الْأَحْزَابِ﴾ ، أهل الكتب يقربهم تحزبهم . ﴿يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ قال: بعض القرآن) .

وعن ابن زيد: (﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ ، قال: هذا من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب ، فيفرحون بذلك . وقرأ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ [يونس: 40] . وفي قوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ ، قال: ﴿الْأَحْزَابِ﴾ ، الأمم ، اليهود والنصارى والمجوس ، منهم من آمن به ، ومنهم من أنكره) .

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَثَابِ﴾ .

أي: قل لهم يا محمد ، أما أنا فأفرد الله تعالى بالتعظيم والعبادة ولا أشرك به ، وإلى طاعته وإخلاص العبادة له أدعو الناس ، إليه مصيري ومآلي ومرجعي .

قال قتادة: (﴿وَإِلَيْهِ مَثَابِ﴾ ، وإليه مصير كل عبد) .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ . قال النسفي: (حكمة عربية مترجمة بلسان العرب) .

وقال ابن كثير: (أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب من

السَّمَاءَ ، كذلك أنزلنا عليك القرآن مُحْكَمًا مُعْرَبًا ، شَرَفْنَاكَ بِهِ وَفَضَّلْنَاكَ عَلَىٰ مِنْ سِوَاكَ
بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : 42] .

وقيل : نظم الآية - (وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن
حكماً عربياً ، أي بلسان العرب ، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام) - حكاة القرطبي .

قلت : والبيان القرآني يحتمل كل ما سبق من التأويل ، فالقرآن كلام عربي مبين
يفصل بين الحق والباطل ، ويحكم على كل شيء ، وفيه حكمة بالغة لكل شيء ، أنزله
الله بلسان عربي فصيح ، لغة نبينا محمد ﷺ .

وقوله : ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ .

قال القاسمي : (أي : لئن تابعتهم على دين ، ما هو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك
بالبراهين والحجج ، فلا ينصرك ناصر ، ولا يقيك واق . وهذا من باب الإلهاب
والتهيج والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب ، وأن لا يزَلَّ زَالٌ عند
الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان) .

38 - 40 . قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا
كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ
وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٣٠﴾﴾ .

في هذه الآيات : ردُّ الله على المشركين رفضهم النبوة إلا من مَلَك ، بإثبات بشرية
الرسول شأن الرسل قبله : يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات ويولد
لهم ، وما يقدر رسول أن يأتي بآية أو معجزة إلا بأمر الله ، ولكل أجل أمرٍ قضاه الله
كتابٌ قد كتبه تعالى فهو عنده . وهو تعالى ينسخ الشرائع ويثبت ما يشاء منها وعنده أم
الكتاب .

إن الذي عليك - يا محمد - هو تبليغ الرسالة سواء أراك ربك مصارع المعاندين أو
توفاك قبل ذلك ، فإلى الله الإياب وعليه الحساب .

فقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾. أي: إن شأنك يا محمد شأن الرسل الذين أرسلناهم قبلك ، كانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية .

قال القاسمي: (وهو ردٌ لقولهم: لو كان نبياً لكان من جنس الملائكة كما قالوا: ﴿مَا لِي هَذَا الرُّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 7] ، وإعلامٌ بأن ذلك سنة كثير من الرسل ، فما جاز في حقهم لم لا يجوز في حقه؟ وقد قال تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110] .

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وما يقدر رسولٌ أرسله الله إلى خلقه أن يأتي أمته بآية وعلامة ، من تسيير الجبال ، ونقل بلدةٍ من مكان إلى مكان آخر ، وإحياء الموتى ، ونحوها من الآيات ، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ، يقول: إلا بأمر الله الجبال بالسير ، والأرض بالانتقال ، والميت بأن يحيا ، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ، يقول: لكل أجل أمر قضاءه الله ، كتابٌ قد كتبه فهو عنده) .

وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ - له أكثر من تأويل عند المفسرين :

التأويل الأول: قيل يمحو الله ما يشاء من أمور عبادته فيغيره ، إلا الشقاء والسعادة ، فإنهما لا يُغَيَّرَانِ .

قال ابن عباس: (يدبر الله أمر العباد ، فيمحو ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت) . وفي لفظ: (يدبر أمر السنة ، فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت) . وقال مجاهد: (إلا الحياة والموت والسعادة والشقاوة ، فإنهما لا يتغيران) .

التأويل الثاني: يمحو الله ما يشاء ويثبت من كتاب سوى أم الكتاب الذي لا يُغَيَّرُ منه شيء . وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ ، فكأن المحو والإثبات من الصحف التي بأيدي الملائكة .

قال عكرمة: (الكتاب كتابان: كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب) .

التأويل الثالث: قيل بل يمحو كل ما يشاء ، ويثبت كل ما أراد .

يروى ابن جرير بسنده عن أبي عثمان التَّهْدِي: (أن عمر بن الخطاب قال وهو يطوف بالبيت ويبكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة).

ثم روى عن ابن عباس قوله: (هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله ، فيموت على ضلاله ، فهو الذي يمحو. والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله ، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله ، فهو الذي يثبت).

التأويل الرابع: قيل بل معنى ذلك يمحو من قد حان أجله ويثبت من لم يجئ أجله إلى أجله.

قال الحسن: (يمحو من جاء أجله فذهب ، والمثبت الذي هو حي يجري إلى أجله).

التأويل الخامس: يغفر ما يشاء من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفر. فعن عطاء ، عن سعيد قال: (يثبت في البطن الشقاء والسعادة ، وكل شيء ، فيغفر منه ما يشاء ، ويؤخر ما يشاء).

التأويل السادس: ينسخ الله ما يشاء من أحكام كتابه ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه.

قال ابن عباس: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من القرآن. يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب ، الناسخ والمنسوخ ، وما يبدل وما يثبت ، كل ذلك في كتاب).

قلت: والسياق يدل على التأويل السادس ، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِحَافِيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ - فيه إخبار أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه بل من عند الله الذي قدر للشرائع أجلاً وغاية ثم ينسخها بالشرعة الأخرى ويثبت ما يشاء منها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾. - خطاب للنبي ﷺ للقيام ببلاغ قومه وإنذارهم والله يتولى مكرهم وحسابهم. قال النسفي: (وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم أو توفيناك قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ - فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ - وعلينا حسابهم جزاؤهم على أعمالهم لا عليك فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم).

41 - 43. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَخْتَصِمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: تهديد للمشركين وتوعد لهم! أو لم يروا كيف نفتح لمحمد ﷺ فتحاً بعد فتح حتى أوشك الفتح أن يطال أرضهم؟ والحكم لله وهو سريع الحساب. وقد مكر الطغاة في الأمم قبلهم فأحاط بهم مكر الله وطوقهم وسيعلم الكفار لمن تكون العاقبة الحميدة. وما يزال هؤلاء الكفرة يكذبون نبوتك - يا محمد - فقل حسبي الله يشهد بما أرسلني به ، وكذلك يشهد علماء أهل الكتاب بما يجدونه في كتبهم من صدق رسالتي ونبوتي ونعتي .

فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ - فيه أكثر من تأويل :

التأويل الأول: أولم ير مشركو مكة كيف نفتح لمحمد ﷺ أرضاً بعد أرض حتى أوشك أن يفتح أرضهم وهم لا يزالون متنطعين يسألون الآيات .

قال ابن عباس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ، قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض). قال: (يعني بذلك ما فتح الله على محمد. يقول: فذلك نُقْصَانُهَا).

وقال الحسن: (هو ظهور المسلمين على المشركين). وقال الضحاك: (يعني أن نبي الله ﷺ كان يُنْقَضُ له ما حوله من الأرضين ، ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون ، قال الله في «سورة الأنبياء»: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: 44] ، بل نبي الله ﷺ وأصحابه هم الغالبون).

التأويل الثاني: أولم يروا أنا نأتي الأرض فنخرّبها ، فأوشكوا أن نخرب أرضهم ونهلكهم؟ قال ابن عباس: (أولم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العُمران في ناحية؟).

وقال مجاهد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ، قال: خرابها). وقال ابن جريج: (خرابها وهلاك الناس). وقال عكرمة: (تُخرب من أطرافها).

التأويل الثالث: ننقص من بركتها وثمرتها وأهلها بالموت.

قال الشعبي: (لو كانت الأرض تُنْقَصُ لضاق عليك حُشْكُ ، ولكن تُنْقَصُ الأنفس والثمرات). وقال مجاهد: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ، قال: في الأنفس ، وفي الثمرات ، وفي خراب الأرض). وعن ابن عباس: (يقول: نقصان أهلها وبركتها). وقال عكرمة: (هو قَبْضُ الناس). وقال: (هو الموت). ثم قال: لو كانت الأرض تنقص لم نجد مكاناً نجلس فيه).

التأويل الرابع: ننقصها بذهاب فقهاءها وخيارها.

قال عطاء ، عن ابن عباس: (ذهابُ علمائها وفقهاءها وخيار أهلها). وقال مجاهد فيها: (موث العلماء).

قلت: والتأويل الأول أقواها وأنسبها للسياق ، فالآيات قبلها في تهديد المشركين وتوعدهم ، واختاره ابن جرير ، وابن كثير وقال: (والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية. كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ [الأحقاف: 27] الآية). واختاره النسفي وقال: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام وذلك من آيات النصر والغلبة ، والمعنى عليك البلاغ الذي حملته ولا تهتم بما وراء ذلك ، فنحن نكفيكم ونتم ما وعدناكم من النصر والظفر).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ. وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قال القرطبي: (أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي الانتقام من الكافرين ، سريع الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى رؤية قلب ، ولا عقد بنان).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾.

تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لمشركي مكة في مكرهم وغيثهم وعنادهم ، شأن من سبقهم من أقوام الرسل وتمادوا في الغي والكبر والمكر ، فحاق المكر بأهله ونصر الله تعالى الرسل ونجّاهم من ذلك المكر وجعل العاقبة للمتقين.

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٧﴾ فَبِتِلْكَ يُونُثُهُمْ خَاوِيَةً يَمَا ظَلَمُوا ﴿ [النمل : 50 - 52].

2 - وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال : 30].

3 - وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ ﴿١٩﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿ [الطارق : 15 - 16].

وفي صحيح السنة في مفهوم المكر والكيد من الله بالكافرين أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [إذا أراد الله بعبده الخير عَجَلَ له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشرَّ أَمْسَكَ عنه بذنبه حتى يُوافي به يوم القيامة] ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نَسِيَ ذِكْرَهُ ، وإن ذَكَرَ أَعَانَهُ ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نَسِيَ لم يذكره ، وإن ذكر لم يُعْنَه] ⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الشيخان من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى لِيُمْلِي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته] ⁽³⁾.

فقوله : ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ - كما قال القرطبي : (أي هو مخلوق له مكر الماكرين ، فلا يضر إلا بإذنه). وقال القاسمي : ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره ، وأنه مما لا يسوء ، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال ، وهم نائمون على فرش الإمهال ، مما لا يخطر لهم على بال ، كما يومئ إليه قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ

(1) حديث صحيح. رواه الترمذي (64/2) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (154) ، وأخرجه ابن حبان (2455) ، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (274/2).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2932) - كتاب الخراج والإمارة والفيء -. باب في اتخاذ الوزير.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3110) ، وأخرجه ابن ماجه (4018) ، وابن حبان (5175) ، والبيهقي (94/6).

نَفْسٍ ﴿ أَي فَيُوفِيهَا جَزَاءَهَا الْمَعْدَّةَ لَهَا عَلَى مَا كَسَبَتْ مِنْ فَنُونِ الْمَعَاصِي الَّتِي مِنْهَا مَكْرَهُمْ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴾ ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴾ أَي الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ ، وَعَلَى مَنْ تَدُورُ الدَّائِرَةُ) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

إِخْبَارٌ عَنْ تَكْذِيبِ الْكَافِرِ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَنُبُوته - فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ - : حَسْبِيَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُرْسِلُنِي بِهِ ، وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ بِذَلِكَ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا يَجِدُونَهُ عِنْدَهُمْ مِنْ صَدَقِ رِسَالَتِي وَنُبُوتِي وَنَعْتِي .

قال القرطبي : (وهذا احتجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب - من آمن منهم - في التفاسير) .

تم تفسير سورة الرعد
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



دروس ونتائج وأحكام

- 1- استواء الله على عرشه ، حقيقة بلا تكييف ولا تمثيل ولا تجسيم .
- 2- المخلوقات دالة على الخلاق العظيم ، ومن بدأ الخلق يعيده ولا عجب .
- 3 - المشركون يستعجلون عذاب الله تحدياً وعناداً وتكذيباً ، والله أعلم وأكبر من كل شيء .
- 4 - لكل إنسان قرين من الجن وقرين من الملائكة . فالشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء ، والمَلَكُ يبشِّرُ الأمل ويحث على الطاعة .
- 5- السحاب الثقال هي الثقيلة بالماء . والرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب .
- 6- مثل الحق كالماء الصافي والذهب الخالص ، ومثل الباطل كالزبد المضمحل .
- 7- الجنة لمن استجاب للحق ، والنار لمن لم يستجب .
- 8- المؤمن: مصل ، منفق ، خاشع ، صابر ، محسن لمن يسيء إليه .
- 9- المعجزات لا تنفع قوماً صَمَّوْا آذانهم عن الهدى وأقفلوا قلوبهم عن الحق .
- 10 - قلوب المؤمنين تسكن وتطمئن عند ذكر الله .
- 11 - القرآن أفضل الكتب السماوية المتقدمة ، لإعجازه الجن والإنس ، ومن ابتغى الهدى في غير هذا القرآن أضله الله وأخزاه .
- 12 - المتبع أهواء الكافرين ماله من نقمة الله من واق .
- 13 - أم الكتاب : هي علمه تعالى الذي لا يتغير ولا يمحو .
- 14 - ليس لأحد أن يتعقب حكم الله فيرده لقول أحد من خلقه .
- 15 - شهادة الله لنبيه محمد ﷺ بالرسالة والنبوة كافية كاملة ، وهي فوق كل شهادة .

14



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (52)

موضوع السورة

ملة الخليل إبراهيم ، ملة التوحيد لله والتعظيم
والنصر للمؤمنين والخزي للكافرين

- منهج السورة -

- 1 - انتصار الله تعالى للقرآن العظيم ، الذي يخرج الناس بإذن الله الملك من الظلمات إلى النور المبين .
- 2 - الكفار اختاروا الدنيا على الآخرة ، وصدوا عن سبيل الله ، وهم أهل الضلال البعيد .
- 3 - حمكة الله في إرسال كل رسول بلغة قومه لإقامة حجته تعالى عليهم .
- 4 - إرسال الله نبيه موسى بآياته ، وتذكيره قومه بأنعم الله عليهم .
- 5 - قضاء الله مقابلة شكره بمزيد عطائه ، وهو سبحانه الغني الحميد .
- 6 - إخبار الله تعالى عن أقوام سالفة تتابعوا على تكذيب الرسل ، وقابلهم رسلهم بالصبر والتوكل على الله ، حتى نزل نصر الله .
- 7 - استكبار الكافرين وتهديدهم لرسولهم ، والخزي والنكال والدائرة عليهم ، وأعمال الكفار كالرماد تحملها الريح العاصفة لا انتفاع لهم بها في الآخرة .

- 8 - تنبيه الله العباد على قدرته العجيبة بخلق السماوات والأرض ، وأنه لو شاء أهلكهم وجاء بغيرهم .
- 9 - تصوير الله خروج الكفار للحشر ، وتقابل الرؤساء والضعفاء في مشهد الذل ، والمؤمنون في جنات النعيم .
- 10 - مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، وقلوب العباد بيد الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعدله وحكمته .
- 11 - تغيير الكفار نعمة الله على أقوامهم بجحدهم النبوة ، وإصرارهم على الشرك بالله ، ومآلهم إلى نار الجحيم .
- 12 - أمرُ الله عباده بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله قبل مجيء يوم انعدام البيع والصحة .
- 13 - نعم الله على العباد لا يمكن إحصاؤها ، وإن الإنسان لظلم كفار .
- 14 - دعوة أبينا إبراهيم - عليه السلام - بجعل البلد الحرام آمناً وتجنبيه وولده عبادة الأصنام ، وجعل الأفتدة من الناس تهوي قلوبهم قصد البيت الحرام ، وبسط الرزق عليهم من كل مكان .
- 15 - تسلية الله نبيه بأنه تعالى غير غافل عما يكر الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم الخزي والندامة الواقع بالمجرمين .
- 16 - وعُدَّ الله نبيه النصر الأكيد المبين ، والله عزيز ذو انتقام .
- 17 - نَعَتْ الله تعالى يوم تبدل السماوات والأرض ، للقيام ليوم الحشر .
- 18 - المجرمون يوم الحساب مصفدون بالأغلال ، وسرايلهم من قطران ، وتغشى وجوههم النار .
- 19 - كل نفس يوم القيامة بما كسبت رهينة ، والله سريع الحساب .
- 20 - هذه السورة تحمل النذارة للناس ليتداركوا أنفسهم بإفراده تعالى بالعبادة والتعظيم ، قبل أن ينزل بهم العقاب الأليم .

﴿يُنَادِ اللَّهُ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

1 - 3. قوله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

في هذه الآيات: انتصارُ الله تعالى للقرآن العظيم ، الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور المبين ، بإذن الله مالك السماوات والأرض وللكاferين عذاب أليم. الذين اختاروا الدنيا على الآخرة ومضوا يصدون الناس عن سبيل الله ييغون إشاعة الكفر والفواحش في الأرض ، أولئك أهل الضلال البعيد.

وقوله: ﴿الرَّكَتَبُ﴾. قد سبق القول في الحروف المقطعة أوائل السور ، وأن فيها بياناً لإعجاز هذا القرآن المؤلف من جنس هذه الأحرف ، ولا يستطيع أحد أن يُرَكَّبَ من مثل هذه الحروف سورة من مثله.

وقوله: ﴿رَكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾. تأكيد للمعنى السابق ، وانتصار لهذا القرآن ، أنزله الله عليك - يا محمد - فهو أشرف كتاب أنزله الله من السماء ، واختار لحمله وتلقيه منه أشرف رسول ، بعثه الله تعالى إلى العالمين ، وختم به النبوة والرسالة إلى الثقلين.

وقوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: لتهديهم به من ظلمات الضلالة والكفر ، إلى نور الإيمان وضيائه ، وتُبَصِّرَ به أهل الجهل والعمى سُبُلَ الرَّشَادِ وَالْهُدَى).

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1].

2 - وقال تعالى : ﴿ رَسُولًا بَلَّغْنَا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيزَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِرَبِّرَّاقًا ﴾ [الطلاق : 11].

3 - وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : 39].

4 - وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : 257].

قال ابن القيم رحمه الله : (فأولياؤهم يعيدوهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم ، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم ، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات)⁽¹⁾.

وفي صحيح السنة في مفهوم النور والظلمة أحاديث ، منها :

الحديث الأول : أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : [إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضلَّ]⁽²⁾.

الحديث الثاني : روى مسلم في صحيحه من حديث عياض ، عن النبي ﷺ قال : [قال الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاءً كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أخللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً]⁽³⁾.

(1) انظر «اجتماع الجيوش الإسلامية» ص (5) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 69).

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/ 176- 197) ، وابن حبان (1812) ، والحاكم (1/ 30) ، وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1076).

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2865) ، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 266).

قلت: فالظلمة هي ظلمة الطباع والجهل والأهواء والخضوع للغرائز والشهوات.

والنور: هو نور الوحي ونور السنة، نور النبوة والرسالات. نور الفطرة والميثاق مع الله، الذي أخذه سبحانه على عباده بتعمان وهو واد إلى جنب عرفات.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بتعمان - يعني عرفة - (وفي رواية: يوم عرفة). فأخرج من ضلبي كل ذرية ذراها فشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قُبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٧﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَنُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾] (1).

وَوَحَّد سبحانه لفظ النور، وجمع الظلمات، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ﴾ [النحل: 48]، مما يدل على شرف النور وتفرد الحق، وانتشار الباطل وتشعبه.

وقوله: ﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

إشارة إلى المشيئة الإذنية: وهي المشيئة المرتبطة بعلم الله وعدله وحكمته، فما أحد اختار الإيمان رغم مشيئة الله، ولا أحد اختار الكفر رغم مشيئة الله، بل الكل داخل في اختياره تحت مشيئته سبحانه.

كما في التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 100].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: 64].

3 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99].

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ﴾، يعني بتوفيق ربهم لهم بذلك ولطفه

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (1/ 272)، والنسائي في «الكبرى» (11191)، والحاكم عن ابن عباس مرفوعاً، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1623).

بهم ، ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ، يعني : إلى طريق الله المستقيم ، وهو دينه الذي ارتضاه ، وَشَرَعَهُ لَخَلْقِهِ .

وقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ﴾ - أي ملكاً وخلقاً وتصريفاً وتديباً . قرأه قراء المدينة والشام برفع اسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ على الابتداء ، وقرأه قراء العراق والكوفة والبصرة بالخفض : ﴿اللَّهُ﴾ على البدل ، وكلاهما قراءتان مشهورتان .
وقوله : ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ .

تَوَعَّدُ وَتَهْدِيدٌ للكفار من سوء العذاب يوم القيامة . قال الزجاج : ﴿وَوَيْلٌ﴾ هي كلمة تقال للعذاب والهلكة .

وقوله : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ - نَعَتْ لأولئك الكفار ، إذ اختاروا الحياة الفانية في هذه الدار الزائلة ، على الحياة الأبدية السرمدية في الدار الآخرة الباقية ، ولم يكتفوا بكفرهم وجنائتهم على أنفسهم ، بل استطالوا على أهل العلم والحق لصدهم عن الدعوة إلى الله ، مستخدمين بذلك كل أساليب الظلم والمكر لصد الناس عن سبيل الله ودينه الحق . قال القرطبي : ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون لها زَيْغاً وميلاً لموافقة أهوائهم ، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم .

وقوله : ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ . أي في ذهاب عن الحق بعيد ، وجور عن قصد السبيل ، وتخط في الظلمات والأهواء والفتن .

4 - 5 . قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ اللَّهَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَلآيَاتِ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ .

في هذه الآيات : تقديرُ الله تعالى حكمته في إرسال كل رسول بلسان قومه ولغتهم لبيّن لهم ويقيم عليهم حجة الله البالغة ، فمن اهتدى فبتوفيق الله له ومن ضلّ فبعقوبة الله له والله عزيز حكيم . وإخبارُ الله سبحانه عن إرساله نبيه موسى عليه السلام بآياته

ليخرج قومه من الظلمات إلى النور ، وليذكرهم بأنعم الله عليهم ، وفي هذا التذكير دلالات لكل صبار شكور .

فقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ .

قال ابن كثير : (هذا مِنْ لُطْفِهِ تعالى بخلقه أَنَّهُ يرسل إليهم رُسُلًا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدونه وما أرسلوا به إليهم) .

وعن قتادة : (﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ، الذي أرسل إليهم ، ليتخذ بذلك الحجة) .

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : [لم يبعث الله تعالى نبيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ]⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قال النسفي : (﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من أثر سبب الضلالة ، ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ من أثر سبب الاهتداء ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فلا يغالب على مشيئته ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فلا يخذل إِلَّا أهل الخذلان) .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ .

قال مجاهد : (﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ ، قال : التسع البينات) . وفي لفظ قال : (التسع الآيات ، الطوفان وما معه) .

وعن ابن عباس : (﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ، يقول : من الضلالة إلى الهدى) .

وقوله : ﴿ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ . قال مجاهد : (بأنعم الله) ، أو قال : (بنعم الله) ، وقال : (بالنعم التي أنعم بها عليهم ، أنجاهم من آل فرعون ، وفلق لهم البحر ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى) .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

قال قتادة : (نعم العبد عبدًا إذا ابتلي صبر ، وإذا أعطي شكر) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (5/ 158) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (11095) : (رجاله رجال الصحيح) . والحديث يشهد له القرآن - انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (5073) .

وقال الشعبي: (الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر).

قال القرطبي: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي في التذكير في أيام الله ﴿لَا يَنْتَ﴾ أي دلالات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي كثير الصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه . ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله).

قال: (وإنما خصّ بالآيات كل صبار شكور ، لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها ، كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: 45] ، وإن كان من ذراً للجميع).

ومن كنوز صحيح السنة في مفهوم ودلالة هذه الآية ، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الدارمي في سننه ، وأحمد في مسنده ، بسند صحيح ، عن صهيب قال: [بينما رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله! ومم تضحك؟ قال: عجبْتُ لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج عبد الله بن أحمد في مسند أبيه ، وأبو يعلى بسند رجاله ثقات عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الطيالسي والبيهقي من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: [عجبْتُ للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر ، وإذا أصابه خير حمد الله وشكر ، وإن المسلم يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيه]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال: [إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه الدارمي (318/2) ، وأحمد (16/6) ، وسنده صحيح على شرط مسلم ، وقد أخرج مسلم في صحيحه (227/8) نحوه ، وهو رواية لأحمد (332/4).

(2) حديث صحيح . أخرجه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه (24/5) ، وأبو يعلى (200/2) ، ورجالهم ثقات ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (148).

(3) أخرجه الطيالسي (211) بإسناد صحيح . وانظر صحيح الجامع (3881) ، ورواه البيهقي وغيره .

(4) أخرجه الترمذي (64/2) ، وابن ماجه (4031) ، وسنده حسن . وانظر: «الصحيحة» (146).

6 - 8. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ لِنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَا اللَّهُ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ .

في هذه الآيات: تذكير موسى عليه السلام قومه بنعمة الله الكبيرة عليهم في نجاتهم من فرعون وجنده ، الذين كانوا يذيقونهم سوء العذاب ويذبحون أبناءهم ويستبقون نساءهم ، وفي ذلكم اختبار من الله شديد . وقضاء الله تعالى بمقابلة شكره بمزيد عطائه ومقابلة جحد نعمه بالحرمان والعذاب الشديد . وإعلان موسى عليه السلام لقومه أن الله تعالى غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود ولو كفر جميع خلقه ، فإنما مرد الكفر على أهله .

فعن ابن عيينة: ﴿﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾﴾ ، أيادي الله عندكم وأيامه) .

وقوله: ﴿﴿إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾﴾ . أي: حين أنجاكم من أهل دين فرعون وطاعته .

وقوله: ﴿﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾﴾ . أي: يذيقونكم أذل العذاب وأصعبه ، حين كانوا يذبحون من وجد من أبنائكم ، ويستبقون إناثكم .

وقد وردت الآية في سورة البقرة: ﴿﴿يُذَبِّحُونَ﴾﴾ ، وفي الأعراف: ﴿﴿يُقَتِّلُونَ﴾﴾ بلا واو ، وهنا في سورة إبراهيم جاءت مع الواو ، فيكون التذبيح هنا زائداً على جنس العذاب ، في حين يكون مفسراً له حيث ورد بلا واو .

وقوله: ﴿﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾﴾ . أي: اختبار عظيم ، وبلاء شديد .

وقوله: ﴿﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ لِنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾﴾ . أي قضى سبحانه زيادة نعمه للشاكرين .

قال ابن زيد: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: وإذ قال ربكم ، ذلك «التأذن».

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ ، أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ، كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ [الأعراف: 167]. وقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ، أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها).

وقوله: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

أي: وإن جحدتم النعم ولم تؤدوا شكرها قابلكم ربكم بحرمانها أو بتسليط العذاب عليكم ، فإن النعم تُقابل بالشكر لا بالتمرد والعصيان.

وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي أيوب الأنصاري ، قال: [كان رسول الله ﷺ ، إذا أكل أو شرب ، قال: الحمد لله الذي أطعم وسقى ، وسَوَّغَه وجعل له مَخْرَجاً]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن أبي أمامة قال: [كان رسول الله ﷺ إذا رُفعت المائدة قال: «الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه ، غير مكفي ، ولا مودع ، ولا مستغنى عنه ، ربُّنا»]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: [كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً سماه باسمه: إما قميصاً أو عمامة ، ثم يقول: اللهم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم - في الصحيح (87/8) -. وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1305) كتاب الأطعمة ، باب: في الحمد لله على الأكل والشرب.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3851) ، كتاب الأطعمة ، باب ما يقول الرجل إذا طعم.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه (3284) ، كتاب الأطعمة ، باب ما يقال إذا فرغ من الطعام.

لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِي ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيْدٌ ۝ ﴾ .

المقصود: أن الله تعالى غني عن شكر عباده ، وهو الحميد الم محمود ولو كفر جميع خلقه ، فإنما مردّ الكفر على أهله .

يروى ابن جرير بسنده عن أبي روق ، عن أبي أيوب ، عن علي: (﴿ فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ ۝ ﴾ ، قال غني عن خلقه ، ﴿ حَمِيْدٌ ۝ ﴾ ، قال: مُسْتَحْمِدٌ إِلَيْهِمْ).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَأِنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۝ ﴾ [الزمر: 7].

2 - وقال تعالى: ﴿ فَكْفُرُوا وَلَوْ لَأَسْتَعْنَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيْرٌ حَمِيْدٌ ۝ ﴾ [التغابن: 6].

وفي صحيح السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال: [يا عبادي ، لو أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجِنُّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقِيْ قَلْبَ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً . يا عبادي ، لو أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجِنُّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجَرَ قَلْبَ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً . يا عبادي ، لو أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجِنُّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ . ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً ، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي الْبَحْرِ . . .] الحديث⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي أَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ ، وَإِذَا كَرِهَ لِقَائِي كَرِهْتُ لِقَاءَهُ]⁽³⁾. ورواه البخاري والنسائي.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (4020)، كتاب اللباس، وأخرجه الترمذي في الجامع - حديث رقم - (1838).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (17/8)، وأخرجه أحمد في المسند (5/160).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7504)، كتاب التوحيد، ورواه أحمد والنسائي ومالك في الموطأ وغيرهم. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (4179).

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: يا ابن آدم! مهما عبدتني ورجوتني ولم تُشرك بي شيئاً غفرت لك على ما كان منك، وإن استقبلتني بملء السماء والأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بملئها من المغفرة، وأغفر لك ولا أبالي]⁽¹⁾.

9 - 12. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ نُبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرِرَكَ عَلَى مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن أقوام سالفة لا يعلم عددهم إلا الله رَدُّوا رسلهم بعدما جاؤوهم بالحجج البينات والدلائل القاطعات، وواجهوهم بالتشكيك والتكذيب، وطالبوهم بالمعجزات والخوارق، فقابلهم الرسل بالصبر على الأذى والتوكل على الله، وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

فقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ نُبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ - خبر من الله تعالى عن هذه الأقوام المكذبة للرسول - قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم - لا يعلم ولا يحصي عددهم إلا الله.

(1) حديث صحيح. انظر تخريج: «مشكاة المصابيح» (3365)، وانظر المرجع السابق (4217).

وقوله: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾. قال ابن جرير: (يعني بِحُجَجٍ ودلائلٍ على حقيقة ما دعوههم إليه معجزات).

وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ - فيه أكثر من تأويل محتمل:

التأويل الأول: عن أبي الأحوص ، عن عبد الله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ ، قال: (عضوا عليها تَغِيْظًا). أو قال: (عضوا على أناملهم). أو قال: (عضوا على أطراف أصابعهم).

وقال ابنُ زيد: (أدخلوا أصابعهم في أفواههم. وقال: إذا اغتاظ الإنسان عضو يده).

التأويل الثاني: عن ابن عباس: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ ، قال: لما سمعوا كتاب الله عَجِبُوا ، وَرَجَعُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ).

التأويل الثالث: عن مجاهد: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ ، قال: ردوا عليهم قولهم وكذبوهم). وقال قتادة: (كذبوا رسلهم وردوا عليهم ما جاؤوا به من البينات ، وردوا عليهم بأفواههم ، وقالوا: ﴿وإِنَّا لَنَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾). وقوله: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

إخْبَارٌ عن قبل أولئك الأقوام الذين صرحوا لرسولهم بكفرهم بما أرسلوا به ، يقولون: لسنا مصدقين لكم فيما جئتم به ، بل عندنا شك قوي فيما تدعوننا إليه .

وقوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . يحتمل شيئين في التأويل:

1 - أفي وجود الله شك؟ وقد جُبلت الفطر على الإقرار بوجوده ، فإن عرض لها اضطراب فذكرتهم الرسل بما يدلُّ عليه ويوصل إليه وهو أنه: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - مبدعهما وموجدهما ومن فيهما، إذ لا بُدَّ لذلك من صانع، ألا وهو الله لا إله إلا هو.

2 - أفي إلهيته وتفردّه بالعبادة والتعظيم شك؟ فإن تفردّه بالخلق والملك والتدبير ، يقتضي تفردّه بالتعظيم والدعاء والعبادة.

وقوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِغُفْرِ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

قال القاسمي: (أي: يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا ، لا أَنَا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿يُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾).

أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٩﴾ أي: يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى).

وقال ابن جرير: (يقول: يدعوكم إلى توحيدهِ وطاعته، ﴿لِيُغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، يقول: فيستر عليكم بعض ذنوبكم بالعفو عنها، فلا يعاقبكم عليها، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾، يقول: وينسى في آجالكم، فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم، ولكن يؤخركم إلى الوقت الذي كتب في أم الكتاب أنه يقبضكم فيه، وهو الأجل الذي سمي لكم).

وفي التنزيل: ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا مِنْكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: 3].

وقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أجابهم القوم: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا في الصورة والهيئة، ولستم ملائكة أو خلقاً خارقاً، ومن ثم فلا فضلَ بيننا وبينكم ولا فضلَ لكم علينا، فلم تُخصَّصَ بالنبوة والرسالة دوننا، وإنما تريدون صرفنا عن عبادة ما كان يعبدُ آبَاؤنا من الأوثان، فأتونا بحجة بينة تثبت صدق ما تدعوننا إليه.

قال النسفي: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة بينة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعتاً ولجاجاً).

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

إخبارٌ عن إجابة رسلهم لهم، قالوا: صحيح أنا بشرٌ مثلكم، وإنما يُمْنُ الله بالرسالة والنبوة على من يشاء من عباده، فيصطفي لذلك من شاء من خلقه، ولا طاقة لنا بكسر على استحضر الآيات والمعجزات إلا بإذن الله لنا وتقديره وتوفيقه، وما ثقتنا إلا بالله، عليه نتوكل وبه نستعين، شأن جميع المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْنَا مَآذِئُتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

هو من تمام قيل الرسل لأممها: ولم لا نثقُ كُلَّ الثقة بالله، ونستجير برحمته ونستعين بعنايته وكفايته ونصره، وهو الذي عَرَفْنَا سبيل النجاة من سخطه وعذابه، وطريق السعادة في الدنيا والآخرة، وإنا سنتابع الطريق في دعوته متحمّلين كل ألوان

الأذى وما تلقوننا به من المكروه والمكر ، وإنما يتوكل على الله المتوكلون .

13 - 18 . قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيطٌ
بِمَنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ
الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ۞ .

في هذه الآيات : استكبار الكافرين وتهديدهم لرسولهم ، وتثبيت الله المرسلين بأن
الدائرة ستكون على معانديهم ، الخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة . إنما مثل
أعمال الذين كفروا بربهم وكذبوا رسوله كالرماد تحمله الريح العاصفة فتشره لا يقدر
على جمعه ، وكذلك يجد الكافرون أعمالهم يوم القيامة هباءً منثوراً لا سبيل للانتفاع
بها أحوج ما يحتاجون إلى نفعها .

فقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۞ .

هو نعت صنيع الأمم برسولها بعد التكذيب والعناد ، فهم يلجؤون إلى التضييق
والتهديد إن لم يحصل للملأ الكافر الانقياد ، وقد وصف الله هذا المسلك من الطغاة
عبر الزمان في آيات كثيرة :

1 - قال تعالى - في شأن شعيب وتكذيب قومه له - : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۞ [الأعراف : 88] .

2 - وقال تعالى - في شأن لوط وتكذيب قومه له - : ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهُرُونَ ۞ [النمل : 56] .

3 - وقال تعالى - في شأن نبينا محمد ﷺ مع قومه - : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ
الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ [الإسراء : 76] .

وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

هو فَضْلُ الأمر من الله تعالى تجاه مكر القوم والملا الكافر برسولهم ، بأنه تعالى سيهلك القوم الذين ظلموا وطفخوا وأفسدوا في البلاد ، وحاربوا الرسل وهم يدعون إلى دين الواحد الأحد .

وقوله: ﴿وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ - هو من تمام وعد الرحمن للمؤمنين الصابرين .

قال قتادة: (وعدهم النصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة).

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾. قال القرطبي: (أي مقامه بين يدي يوم القيامة). والوعيد: الاسم من الوعد .

قال الأخفش: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي عذابي ، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي القرآن وزواجه .

وقيل: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي قيامي عليه ، ومراقبتي له). كما في التنزيل: ﴿أَفَنَنْتَ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

قال مجاهد: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ ، قال الرسل كلها. يقول: استنصروا ، ﴿عَنِيدٍ﴾ ، قال: معاند للحق مجانبه). قال القرطبي: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أي واستنصروا. أي أذن للرسل في الاستفتاح على قومهم ، والدعاء بهلاكهم).

قال ابن عباس: (كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهاهم ويكذبونهاهم ، ويدعونهم إلى أن يعودوا في ملتهم ، فأبى الله عز وجل لرسله وللمؤمنين أن يعودوا في ملة الكفر ، وأمرهم أن يتوكلوا على الله ، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة ، ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم ، فأنجز الله لهم ما وعدهم ، واستفتحوا كما أمرهم أن يستفتحوا ، وخاب كل جبار عنيد).

قال إبراهيم: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ، قال: هو الناكب عن الحق). وقال قتادة: ((الجبار العنيد) ، الذي يأبى أن يقول: لا إله إلا الله).

وقوله: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾.

أي: وراء هذا الكافر جهنم بعد هلاكه ، وشرابه ماء كالصديد وهو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . قال قتادة: (والصديد: ما يسيل من لحمه وجلده).

وعن مجاهد: ﴿مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ قال: قيح ودم ، وقال الضحاك: (يعني بالصديد: ما يخرج من جوف الكافر ، قد خالط القيح والدم).

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾.

أي: يتحسّاه جُرْعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته ، ولا يكاد يبتلعه لشدة أذاه ، بل يتغصّصه ويتكرّره .

وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

قال ابن عباس: (أنواع العذاب التي يُعَذِّبُ الله بها يوم القيامة في نار جهنم ، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت ، ولكن لا يموت ، لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: 36].

وعن ميمون بن مهران: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ ، قال: مِنْ كُلِّ عَظْم ، وعزقي ، وعصّب).

وقال عكرمة: (حتى من أطراف شعره). وقال إبراهيم التيمي: (من موضع كل شعرة ، أي: من جسده ، حتى من أطراف شعره). وقال ابن جرير: (أي: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله ، ومن فوقه ومن تحت أرجله ، ومن سائر أعضاء جسده).

وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾. أي: وله بعد ما هو فيه من سوء الحال ، عذاب أغلظ وأشد. قال ابن كثير: (أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمرؤ. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ^(١١) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ^(١٢) فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبَطُونُ ^(١٣) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ^(١٤) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ^(١٥) [الصافات: 64 - 68]. فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم ، وتارة في شرب حميم ، وتارة يردون إلى الجحيم ، عياذاً بالله من ذلك).

وفي التنزيل أيضاً:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَالِ ﴿١١﴾ فِي سُورٍ وَحْمِيرٍ ﴿١٢﴾ وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُورٍ ﴿١٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: 41 - 44].

2 - وقال تعالى: ﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِ لَشَرِّ مَّكَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَنَسَّ إِلَهِهَا ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ سُكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: 55 - 58].

وفي صحيح مسلم من طريق النعمان بن بشير مرفوعاً: [إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار ، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً]. ورواه البخاري (1).

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: الذين كفروا بربهم وعبدوا غيره ، فأعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرُونَ على شيء من أعمالهم ينفعهم ، كما لا يُقدَّر على الرماد إذا أُزِيلَ في يوم عاصف).

وعن ابن جريج: (﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ ، قال: حملته الريح في يوم عاصف). والمقصود: هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عظموا غيره سبحانه ، أو أشركوا في عبادته ، وكذبوا رسله ، فإنهم يرون أعمالهم التي ظنوا أنها تنفعهم كالرماد تحمله الريح العاصفة فتشره لا يقدرُونَ على جمعه في ذلك اليوم ، وكذلك أعمالهم يجعلها الله هباءً منثوراً ، ولا يقدرُونَ على الانتفاع بها يوم الحساب أحوج ما يحتاجون إلى ذلك.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ﴾ [آل عمران: 117].

2 - وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: 23].

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري - حديث رقم - (6561) - (6562) - كتاب الرقاق - ومختصر صحيح مسلم، حديث رقم، (99) - (100).

3 - وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَأَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَّةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 264].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطِي بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيَجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا⁽¹⁾].
وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ - إشارة إلى انحراف سعيهم عن منهج النجاة، وكون أعمالهم على غير أساس واستقامة، ففقدوا الثواب، وبطل العمل وحصل الندم وانقطع الأمل.

19 - 20. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾.

في هذه الآيات: تنبيه الله تعالى على قدرته العجيبة في خلق السماوات والأرض ليدرك العباد ضعفهم وعجزهم، وأنه تعالى لو شاء أهلكهم وذهب بهم وجاء بغيرهم، وما ذلك عليه بعزیز.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ - إشارة إلى كمال قدرة الله تعالى وثبوت المعاد.

قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبراً على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفة، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهادٍ ووهادٍ، وأوتادٍ وبراريٍ وصحاريٍ وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ يَفْقَدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808)، كتاب صفات المنافقين. باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِزُّ الْعَظِيمَ ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيرُ مَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٣﴾ [يس: 83 - 77].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق هذا المعنى أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: كذبنى ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشممني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شمتي إياي، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: يا خيبة الدهر! فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر! فإني أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ١٧﴾.

قال النسفي: (أي هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم إعلماً بأنه قادر على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ١٧﴾ [فاطر: 15 - 17].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4482) - كتاب التفسير - باب: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: 116].

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (45/7) من حديث أبي هريرة. انظر مختصر صحيح مسلم (1813) - كتاب البر والصلة - باب: النهي عن سب الدهر.

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: 38].

3 - وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: 133].

4 - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54].

وكذلك قال القرطبي: ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل وأطوع منكم ، إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي منيع متعذر).

21 - 23. قوله تعالى: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلُمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾.

في هذه الآيات: تصوير الله خروج الكفار من قبورهم ليوم الحشر ، وتقابل الأتباع الضعفاء مع المتبوعين المستكبرين الرؤساء ، وتبرؤ الكبراء من الضعفاء ، وكذلك تبرؤ الشيطان من أتباعه ، والظالمون في عذاب أليم ، والمؤمنون في جنات النعيم .

فقوله: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. قال ابن جرير: (وظهر هؤلاء الذين كفروا به يوم القيامة من قبورهم ، فصاروا بالبراز من الأرض ﴿جَمِيعًا﴾ يعني كلهم).

وقوله: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

قال ابن جريج: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ ، قال الأتباع ، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ ، قال :
 للقيادة). أي: قال الثُّبَاع - حين برزوا لله جميعاً للحساب - للمتبوعين الطغاة المتكبرين
 عن اتباع الرسل وإقامة دين الله وشرعه في الأرض والحكم به ، إنا كنا لكم تبعاً في الدنيا
 نمضي بأمركم وننفذ مكركم ، فهل أنتم دافعون عنا اليوم من عذاب الله من شيء .
 وقوله: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ .

قال النسفي: (أي لو هداانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه ، أو لو هداانا الله
 طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي لأغنيا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا
 بكم طريق الهلكة).

وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ .

أي: إن الجزع والصبر سواء في حق من كتب الله عليه النار ، إذ لا منجى ولا ملجأ
 ولا مهرب من أمر الله الذي قد قضاه على الكافرين ، وهذه المراجعة يمكن أن تكون
 قبل دخولهم النار وبعده .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا
 لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا
 إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ [غافر: 47 - 48].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى
 بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لَأَنفُسِنَا كَرِهْنَا لَكُمْ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنْتُمْ مُخْرَجِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
 اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا
 وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ [سبأ: 31 - 33].

3 - وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ
 أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا
 ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن
 فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ [الأعراف: 38 - 39].

وقوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

تَنْصُلُ من إبليس اللعين ، من أتباعه الذين أطاعوه وكانوا من حزبه المشين ، بعد أن قُضِيَ الأمر ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار الجحيم ، فخطب الأتباع: إن الله وعدكم معشر الأتباع النار ، ووعدتكم النصره والتأييد والدفاع عنكم ، فأخلفتكم وعدي ، وصدق الله وعده لكم. قال النسفي: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كذبتكم).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. أي: وما كان لي عليكم من تسلط واقترار لأجبركم على شيء مما دعوتكم إليه ، وإنما هي وسوستي لكم ، وتريني لضلالكم وانحرافكم فأسرعت في إجابتي وتركتكم تحذير الله لكم: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْقَهُنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾. فلا تلقوا اللوم علي بل لوموا أنفسكم إذ جئتموني من غير حجة.

وقوله: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتَ بِمُصْرِخِيَّ﴾.

أي: ما أنا بمغيثكم ، ولا أنتم بمغيثي من عذاب الله فمنجني منه. وفي كلام العرب: أَصْرَخْتُ الرجل إذا أغثته. والمُصْرِخ المغيث.

وقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾.

قال ابن جريج: (إني كفرت اليوم بما كنتم تدعون في الدنيا من الشرك بالله تعالى).

وقال قتادة: (إني عصيت الله). وقال الثوري: (كفرت بطاعتكم إياي في الدنيا).

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يقول: إن الكافرين بالله والمشركين في عبادته لهم عذاب يوم القيامة مؤلم موجه.

وقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

ذَكَرُ للصورة المقابلة ، وَعَظُفٌ على ذكر حال الأشقياء وما آلوا إليه من سوء المستقر في دار الخزي والنكال ، بذكر حال السعداء وحسن مستقرهم في جنات النعيم

التي تجري تحتها أنهار الماء والعسل واللبن والخمر لذة للنظر والشاربين ، ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون ، والملائكة يدخلون عليهم وحيونهم بالسلام .
قال ابن جريج : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ : الملائكة يُسَلِّمون عليهم في الجنة) .
وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : 23 - 24] .

2 - وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] .

3 - وقال تعالى : ﴿ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : 10] .

4 - وقال تعالى : ﴿ وَيُلْقُونَ فِيهَا سَاحِجَةً وَسَلَامًا ﴾ [الفرقان : 75] .

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البزار والطبراني بسند جيد عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال : [السلام اسمٌ من أسماء الله وضعه في الأرض ، فأفشوه بينكم ، فإن الرجل المسلم إذا مرَّ بقوم فسَلَّم عليهم فردُّوا عليه ، كان له عليهم فضل درجة ، فإن لم يردوا عليه ردَّ عليه من هو خيرٌ منهم وأطيب] (1) .

الحديث الثاني : أخرج أحمد في المسند ، والشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال له : اذهب فسَلِّم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحيَّة ذريتك . قال : فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه : ورحمة الله . قال : فكلُّ من يدخل الجنة على صورة آدم طوله ستون ذراعاً . فلم يزل ينقص الخلق بعده حتى الآن] (2) .

(1) حديث حسن لشواهد . أخرجه البزار (1999) ، والطبراني في «الكبير» (10392) ، وإسناده جيد ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1894) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3326) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وكذلك (6227) ، كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام . وأخرجه مسلم (2841) ، كتاب الجنة ونعيمها ، ورواه أحمد .

24 - 27. قوله تعالى: ﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: شبه سبحانه الكلمة الطيبة بأنها لشدة ثبات جذورها وتأثيرها في قلوب الناس لا تزال تثمر في حياتهم وقلوبهم ، كالشجرة الطيبة التي لا تزال تؤتي أكلها في كل موسم وحين ، فيذكر صاحب الكلمة الطيبة بالإحسان والخير في كل وقت وحين . وأما الكلمة السيئة والأسلوب المؤذي فلا يزال يترك أثراً سيئاً يذكر صاحبه بسوء الخلق حتى لو كان عنده من العلم الكثير ، فلا يجد في قلوب الناس مكاناً فيُجَثَّتْ من حياتهم ويخرج من قلوبهم كما تُجَثَّتْ الشجرة المؤذية من طريق الناس وتستأصل من جذورها .

فمن كان من أهل الكلمة الطيبة التي أعلاها «لا إله إلا الله» ثبتته الله عند الغرغرة والاحتضار ، وعند سؤال الملكين في القبر قبل الاستقرار ، ومن كان جاحداً لكلمة التوحيد يعيش على خلاف منهاجها أضله الله وأخزاه عند السؤال والامتحان ، ليكون ذلك علامة سوء في الخاتمة وحرمان من الجنان ، فقلوب العباد وأعمالهم بيد الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء بحكمته وعدله وعلمه ويفعل سبحانه ما يشاء .

فعن ابن عباس: ﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ ، قال: شهادة أن لا إله إلا الله ، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن ، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يُرْفَعُ بها عمل المؤمن إلى السماء .

وقال سعيد بن جبير ومجاهد: (إن ذلك عبارة عن المؤمن ، وقوله الطيب ، وعمله الصالح ، وإن المؤمن كالشجرة من النخل ، لا يزال يُرْفَعُ له عملٌ صالحٌ في كل حين ووقتٍ ، وصباح ومساءً) .

وعن ابن عباس: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي شجرة في الجنة .

وعن أنس وابن مسعود رضي الله عنهما قالا: (هي النخلة).

وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى ، وذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري - عن نافع ، عن ابن عمر قال: [كنا عند رسول الله ﷺ فقال: أخبروني بشجرة تُشبه - أو: كالرجل - المسلم ، لا يتحاث ورقها ولا ولا ولا ، تؤتي أكلها كل حين! قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلّم. فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: هي النخلة. فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه ، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة ، فقال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تكلمون ، فكرهت أن أتكلّم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدّثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله ، ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت ثم قالوا: حدّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أحمد والشيخان عن مجاهد قال: [صحبني ابن عمر إلى المدينة ، فلم أسمعهم يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً ، قال: كنت عند النبي ﷺ فأُتي بجُمّار⁽³⁾ فقال: إنّ من الشجر شجرة مثلها كمثّل المسلم. فأردت أن أقول: هي النخلة ، فإذا أنا أضغَرُ القوم فسكت ، قال النبي ﷺ: هي النخلة⁽⁴⁾.

وخلاصة المعنى كما ذكر عطية العوفي: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ، قال: ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إليه).

(1) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (4698)، كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم في الصحيح (2811).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (61) - كتاب العلم - باب قول المحدث: حدّثنا وأخبرنا وأنبأنا ، وانظر صحيح البخاري (131) ، ومسند أحمد (61/2) ، (123/2) ، وصحيح ابن حبان (243).

(3) الجُمّار: شحم النخل ، ومنه يخرج الثمر.

(4) أخرجه البخاري (72) ، كتاب العلم ، باب الفهم في العلم. وانظر الحديث رقم (2209) منه ، وأخرجه مسلم (2811) ، وأحمد (12/2) ، وابن حبان (244).

وعن الربيع بن أنس قال: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ، قال: أصلُ عمله ثابتٌ في الأرض ،
﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ، قال: ذكره في السماء).

وقوله: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ - فيه أقوال متقاربة:

1 - قال ابن عباس: (غُدوة وعشية). أو قال: (بُكْرَة وعشيًا). قال: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ، قال: يذكر الله كل ساعة من الليل والنهار).

2 - وقال الضحاك فيها: (المؤمن يطيع الله بالليل والنهار وفي كل حين).

3 - وقال الربيع بن أنس: (يَضَعْدُ عمله أَوَّلَ النهار وآخره). وقال: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ، قال: تخرجُ ثمرتها كُلَّ حين. وهذا مثلُ المؤمن يعمل كل حين ، كل ساعة من النهار وكل ساعة من الليل ، وبالشَّاء والصيف ، بطاعة الله). وقال النسفي: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بتفسير خالقها وتكوينه). قلت: وكذلك عمل المؤمن الصالح هو بتوفيق الله وتيسيره ومنه وكرمه.

وقيل الحين ستة أشهر أو سنة أو غير ذلك ، وما سبق أعم من ذلك.

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ويمثل الله الأمثال للناس ، ويُشَبِّهُ لهم الأشباه ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، يقول: ليتذكروا حُجَّةَ الله عليهم ، فيعتبروا بها ويتعظوا ، فينزعجوا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان).

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾.

قال أنس: (تلکم الحنظل ، ألم تروا إلى الرياح كيف تُصَفِّقُهَا يميناً وشمالاً).

وقال مجاهد: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ، الحنظلة).

قال ابن كثير: (هذا مثلُ كفرِ الكافر ، لا أصلُ له ولا ثبات ، وشَبَّهَ بشجرةِ الحنظل. ويقالُ لها: الشَّريان).

قلت: والآية تشمل إضافة إلى كلام الكفر الفحش من القول والمنكر والبذيء ، فإن صاحبه بعيد عن قلوب الناس لا أنسَ بلاقائه ووجوده بينهم.

وفي صحيح السنة المطهرة أحاديث في هذا المعنى:

الحديث الأول: أخرج العُقَيْلي بسند حسن عن ابن أبي مُليكة عن عائشة مرفوعاً:

[يا عائشة: إياك والفحش إياك والفحش ، فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح عن سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ قال: [المؤمن يألف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف]⁽²⁾.

وله شاهد عند الطبراني من حديث جابر بلفظ: [المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة والبيهقي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق! قيل: ما القلب المحموم؟ قال: هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد. قيل فمن على أثره؟ قال: الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة. قيل: فمن على أثره؟ قال: مؤمن في خلق حسن]⁽³⁾.

وقوله: ﴿اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾. قال قتادة: (استؤصلت من فوق الأرض). أي فما لهذه الشجرة الخبيثة المؤذية من قرار ولا أصل في الأرض تقوم عليه وتثبت بجذره ، وكذلك كفر الكافر ومعصيته في الأرض. قال ابن عباس: (ضرب الله مثل الشجرة الخبيثة كمثلكم الكافر. يقول: إن الشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يقول: الكافر لا يقبل عمله ولا يصعد إلى الله ، فليس له أصل ثابت في الأرض ، ولا فرع في السماء. يقول: ليس له عمل صالح في الدنيا ولا في الآخرة).

وقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. أي: يثبت الله المؤمنين على منهاج الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ في حياتهم الدنيا رغم تقلب الأحوال والفتن ، ثم يثبتهم سبحانه عند سؤال الملكين في قبورهم ليشهدوا أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فيموتوا على دين الإسلام.

(1) حديث حسن. رواه العقيلي (259) ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (537).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (335/5) ، (400/2) ، وأورده الهيثمي (87/8) وكذلك (273/10) ، وقال: رواه أحمد والبخاري رجال الصحيح. وانظر للشاهد «المجمع» (273/10 - 274) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (426 - 427).

(3) حديث صحيح. انظر سنن ابن ماجة - حديث رقم - (4216) ، وصحيح الجامع (3286) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (948).

وفي ذلك أحاديث من السنة الصحيحة العطرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: [إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُنْبِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾⁽¹⁾ .

ثم قال البخاري: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ بِهَذَا ، وَزَادَ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نزلت في عذاب القبر .

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه ، والترمذي في جامعه ، عن سعد بن عُبَيْدَةَ ، عن البراء بن عازب ، عن النبي ﷺ قال: [﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر ، يُقال له: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: ربي الله ونبيي محمد ﷺ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾⁽²⁾ . ولفظ الترمذي: [﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «في القبر إذا قيل له: مَنْ رَبُّكَ وما دينك وَمَنْ نَبِيُّكَ» .

الحديث الثالث: روى أحمد وأبو داود والبيهقي بسند صحيح عن البراء بن عازب قال: [خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عودٌ يَنْكُثُ بِهِ فِي الْأَرْضِ ، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر . مرتين أو ثلاثاً . ثم قال: إن العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفنٌ من أكفان الجنة وحنوطٌ من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول: أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال: فتخرجُ تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعُوها في يده طرفة عينٍ حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرجُ منها كأطيب نَفْحةٍ مِسْكِ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ . فيصعدون بها ، فلا يمرُّون بها على ملأٍ من

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (1369) ، كتاب الجنائز . باب ما جاء في عذاب القبر . وانظر (4699) منه .

(2) حديث صحيح أخرجه مسلم (2871) كتاب الجنة ونعيمها ، وانظر سنن أبي داود (4750) ، وسنن الترمذي (3120) ، وأخرجه النسائي في «التفسير» (284) ، والطبري (20759) .

الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيُفتح له ، فيشيَّعُهُ من كل سماء مُقَرَّبوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة ، فيقولُ الله: اكتبوا كتابَ عبي في عِلِّيِّين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارةً أخرى. قال: فتعادُ روحُهُ في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربُّكَ. فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينُكَ؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعثَ فيكم؟ فيقول ، هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمُكَ؟ فيقول: قرأتُ كتابَ الله ، فأمنتُ به وصدقت. فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينُكَ؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنةٍ تعرض على المؤمن ، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، فيقول: ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، فينادِ منادٍ من السماء: أن صدق عبي ، فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدَّ بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنتَ توعده. فيقول: مَنْ أَنْتَ؟ فوجهُكَ الوجه يجيء بالخير ، فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب ، أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجعَ إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نَزَلَ إِلَيْهِ من السماء ملائكةٌ سود الوجوه معهم المُسُوح ، فجلسوا منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول: أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى سَخَطٍ من الله وغَضَب. قال: فَتَفَرَّقُ في جسده ، فَيَنْتَزِعُهَا كما يُنْتَزَعُ السَّقُودُ من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يدهِ طرفة عين ، حتى يجعلوها في المُسُوح. ويخرج منها كأتان ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمُرُّونَ بها على ملاً من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان. بأقبح أسمائه التي كان يُسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يُفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40] ، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سَجِّين - في الأرض السفلى - فَطُرح روحه طَرَحاً. ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]. فتعاد روحُهُ في جسده ، ويأتيه

مَلَكًا فَيُجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: هاه هاه ، لا أدري؟ فيقولان: ما دينُكَ؟ فيقول: هاه هاه ، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري؟ فينادي مناد من السماء: أَنْ كَذَبَ ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ ، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرِّها وَسَمُومِهَا ، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ ، قَبِيحُ الثِّيَابِ ، مُتَتِنُ الرِّيحِ فيقول: أبشر بالذي يسوؤُكَ ، هذا يومك الذي كنت توعداً! فيقول: ومن أنت؟ فوجَّهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْإِنْسَانِ! فيقول: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثِ ، فيقول: رَبِّ ، لَا تُقِمِ السَّاعَةَ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾. أي يخذل الله المنافق والكافر عند السؤال ، فلا يوفقه للنطق بالشهادتين والحق الذي فيه النجاة ، أحوج ما يحتاج إليه .

قال ابن عباس: (أما الكافر ، فتتزل الملائكة إذا حضره الموت ، فيسقطون أيديهم ، «والبسط» ، هو الضرب ، يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أُدْخِلَ قبره فقليل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً ، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قِيلَ له: من الرسول الذي بُعِثَ إليك؟ لم يهتد له ، ولم يرجع إليه شيئاً ، يقول الله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾).

وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾. قال ابن جرير: (يعني تعالى ذكره بذلك: وبإد الله الهداية والإضلال ، فلا تنكروا ، أيها الناس ، قدرته ، ولا اهتداءً من كان منكم ضالاً ، ولا ضلالاً مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُهْتَدِيًا ، فَإِنَّ بِيَدِهِ تَصْرِيفَ خَلْقِهِ وَتَقْلِيْبَ قُلُوبِهِمْ ، يفعل فيهم ما يشاء).

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق هذا المعنى ، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس ، قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى هو الخالق القابض الباسط الرازق]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص

(1) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (4753) ، وأحمد (4/287) ، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (20 ، 55) ، وصححه الحاكم (1/37 - 40). وانظر أحكام الجنائز - الألباني ص 159.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (3451) ، كتاب الإجازة ، باب في التفسير. انظر صحيح سنن أبي داود (2945) ، ورواه ابن ماجه (2200) ، ورواه الترمذي والبيهقي وأحمد - انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (1842).

يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء. ثم يقول رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك] (1).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن هاني بن يزيد، عن النبي ﷺ قال: [إن الله هو الحَكَمُ، وإليه الحُكْم] (2).

28-30. قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُنْسِكُ الْفَرَارُ ﴿٢٨﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ۚ

في هذه الآيات: يخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ فيقول: ألم تنظر يا محمد إلى كفار قومك غيروا ما أنعم الله عليهم من نعمه فجعلوها كفرًا به، إذ جحدوا نبوتك ونعمة الله العظيمة في إرسالك إليهم لتنقذهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وأنزلوا قومهم من مشركي قريش بذلك دار الهلاك، جهنم يصلونها وبئس المستقر. لقد أصروا على الشرك بالله على طريقة آبائهم في اتخاذ الأنداد والأوثان والطواغيت يعبدونها من دون الله، ويصرفون لها الخضوع والتذلل والرجاء والدعاء، وهم في ذلك ضالون مضلون عن سبيل الله - قل لهم يا محمد: تمتعوا بترويح فاسد عادات الآباء وتعظيم تقاليد الجاهلية فإن مآلكم في إصراركم هذا إلى النار.

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه - باب ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم، كقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا ﴾ [البقرة: 243]. ﴿ الْبَوَارِ ﴾: الهلاك. بَارِ يَبُورُ بَوْرًا، ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان: 18]: هالكين. حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: حَدَّثَنَا سَفِيَانُ عَنْ عُمَرُو، عَنْ عَطَاءٍ: سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال: هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ).

وقال السُّدِّي: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ الآية! ذكر مسلم المستوفي

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (51/8)، وأحمد (2/168 - 173)، والطبري (6657).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (4955)، وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (4145)، ورواه النسائي.

عن علي أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أُحُد. وكان أبو جهل يوم بدر. وأبو سفيان يوم أُحُد. وأما دار البوار فهي جهنم).

وروى نحوه ابن أبي حاتم عن عمرو بن مَرْقٍ قال: (سمعتُ علياً قرأ هذه الآية: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، قال هما الأفجران من قريش، بنو أمية وبنو المغيرة فأهلِكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمَتَّعُوا إلى حين).

قلت: ولا شك أن الآية عامة تعم في مفهومها جميع الكفار، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ويتحاكمون لأهوائهم مستهزئين بشرع الله العظيم.

وقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَكُ الْقَرَارِ﴾. أي مآلهم إلى النار في الآخرة وبش المستقر.

قال قتادة: ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾ هي دارهم في الآخرة. وقال ابن زيد: ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ النار، قال: وقد بينَّ الله ذلك وأخبرك به؟ فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَكُ الْقَرَارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

أي: وجعلوا لله شركاء كي يضلوا الناس عن منهج عبادة الله الذي يحبه ويرضاه. قل لهم يا محمد: تمتعوا قليلاً بتعظيم جاهليتكم فإن مثواكم إلى النار.

قال ابن جرير: (يقول: قل يا محمد لهم: تمتعوا في الحياة الدنيا وعيداً من الله لهم، لا إباحة لهم التمتع بها، ولا أمراً على وجه العباد، ولكن توبيخاً وتهديداً ووعداً، وقد بين ذلك بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ يقول: استمتعوا في الحياة الدنيا، فإنها سريعة الزوال عنكم، وإلى النار تصيرون عن قريب، فتعلمون هنالك غب تمتعكم في الدنيا بمعاصي الله وكفركم فيها به).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24].

2 - قال تعالى: ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 70].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يُملي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفلته ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾] (1).

31 - 34. قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٣١) **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ** (٣٢) **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** (٣٣) **وَأَتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** (٣٤).

في هذه الآيات: أمرُ الله تعالى عباده المؤمنين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق في سبيله قبل مجيء يوم ينعدم فيه البيع وتُفقد فيه الخلّة والصحبة. إنه تعالى الخالق الرزاق المسخر المنعم الذي أعطاكم من كل ما سألتموه ، وإن تحاولوا إحصاء نعم الله عليكم لا تدرکوا بعض ذلك ، وإنما الإنسان ظلوم كفار.

فقول: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. قال ابن عباس: (يعني الصلوات الخمس).

وقوله: ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾. قال ابن عباس: (يقول: زكاة أموالهم). قال ابن كثير: (يقول تعالى أمرًا للعباد بطاعته والقيام بحقه ، والإحسان إلى خلقه ، بأن يقيموا الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات ، والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب. والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها ، وركوعها وخشوعها وسجودها. وأمر تعالى بالإنفاق مما رَزَقَ في السِّر ، أي: في الخُفْيَةِ ، والعلانية وهي ، الجهرُ ، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، كتاب التفسير، وانظر مختصر صحيح مسلم (1831).

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾.

قال قتادة: (إن الله تبارك وتعالى قد علم أن في الدنيا بيعاً وخلالاً يتخالون بها في الدنيا ، فلينظر رجل من يخال ، وعلام يصاحب ، فإن كان الله فليداوم ، وإن كان لغير الله فإنها ستقطع).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 123].

2 - وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: 15].

3 - وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254].

قال ابن جرير: (ليس هناك مُخَالَة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمُخَالَتِهِ ، بل هناك العدل والقسط).

والخلال جمع خلة ، والمقصود أنه لا ينفع أحداً بيعٌ ولا فدية ولو كان بملء الأرض ذهباً لو وجده ، وكذلك لا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد يوم القيامة إذا لقي الله كافراً. قال القاسمي: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: ليتدارك به التقصير ، أو يفتدي به ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: مخالّة. مصدر بمعنى المصاحبة ، أي لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مسامحة بمال يفتدي به).

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾.

تعريف من الله تعالى عباده بعض نعمه الكبيرة عليهم ، كنعمة خلق ما في السماوات وما في الأرض ، فالملائكة مسخرون لما ينفع العباد ، وكذلك الأفلاك والمجرات ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، وجعل الأرض فراشاً مبسوطاً ، وأنزل من السماء الماء لحياة عباده وثمارهم وزروعهم ودوابهم ، وسخر السفن تجري بتيارات الهواء والماء في البحار لأسفارهم ومعاشهم ومنافعهم ، وشق الأنهار تعبر الأقطار والأرجاء يشرب منها الناس والدواب والأشجار رحمة بهم ، لعل في عرض بعض هذه النعم عبرة لهم لشكره سبحانه وتعظيمه حق التعظيم.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ .

متابعة في بسط النعم الجليلة التي ينتفع بها العباد صباح مساء . قال القرطبي : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أي في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره ، والدُّؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية . وقيل : دائبين في السير امتثالاً لأمر الله ، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله في النهار) .

قلت : وفي تعاقب الليل والنهار وحركة الشمس والقمر مواسم للتوبة والاستغفار فيها خيرٌ كبيرٌ .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : 54] .

2 - وقال تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [القصص : 73] .

4 - وقال تعالى : ﴿ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۚ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : 61 - 62] .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق مفهوم الآية أحاديث ، منها :

الحديث الأول : روى مسلم في صحيحه عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا] (1) .

الحديث الثاني : روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2759) ، كتاب التوبة . باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة .

[من تابَ قبلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ من مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ] (1).

وقوله: ﴿وَأَتَّكُم مِّن كُلِّ مَسْأَلَةٍ﴾.

قال مجاهد: (من كل ما سألتموه ورغبتم إليه فيه). وقال رُكانة بن هاشم: (ما سألتموه وما لم تسألوه). وقال الضحاك: (يقول: أعطاكم أشياء ما طلبتموها ، ولا سألتموها ، صدق الله كم من شيء أعطاناؤه الله ما سألناه إياه ، ولا خطر لنا على بال).

قال النسفي: («من» للتبعض» أي أتاكم بعض جميع ما سألتموه ، أو أتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه ، فما موصولة ، والجملة صلة لها).

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

إخبار الله تعالى عباده عن عجزهم عن القيام بحق شكره ، إذ هم عاجزون عن إحصاء نعمه عليهم وفضله وإحسانه لهم ، بل غالب حال الإنسان غفلة وظلم وجهل ونسيان للنعم وحق المنعم جلّ ذكره.

قال طلق بن حبيب: (إنَّ حقَّ الله أثقل من أن تقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد ، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين).

وفي صحيح السنة العطرة من آفاق معنى هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: [والذي نفسي بيده! لَنَسْأَلَنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم] (2).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لَنُيُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ ، ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته ، ولكن سدّوا وقاربوا وأعدّوا ورُوحوا ، وشيءٌ من الدُّلْجَةِ ، والقصدُ القصدُ تَبْلُغُوا] (3).

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي أمامة: [أن النبي ﷺ كان إذا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2703)، كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2038) - كتاب الأشربة - وهو جزء من حديث طويل.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6463) ، وانظر (5673) ، ورواه مسلم (2816) ، (2817).

رفع مائدته قال: الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه ، غير مكفي ولا مؤدع ولا مُستغنى عنه ربنا⁽¹⁾.

وفي رواية: [الحمد لله الذي كفانا وأزوانا ، غير مكفي ولا مكفور].

35 - 41. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ رَبَّنَا إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۚ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ۚ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ۚ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۚ﴾.

في هذه الآيات: دعوة أبينا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ربه بجعل البلد الحرام آمناً ، وتجنبيه وولده عبادة الأصنام ، وبجعل أفئدة من الناس تهوي قلوبهم قصد مكة ، ويسيطر الرزق عليهم من كل مكان. واستجابة الله دعاءه وإكرامه بإسماعيل وإسحاق في ذريته من الصالحين. وبلوغ دعائه إلى جميع المؤمنين.

فمن مجاهد: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ قال: فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده ، قال: فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته. والصنم: التمثال المصور ، ما لم يكن صنماً فهو وثن ، قال: واستجاب الله له ، وجعل هذا البلد آمناً ، ورزق أهله من الثمرات ، وجعله إماماً ، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة ، وتقبل دعاءه ، فأراه مناسكته ، وتاب عليه.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ﴾. يعني الأصنام. قاله قتادة ، وقال أيضاً:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (5458) ، كتاب الأطعمة ، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه. وانظر (5459) للرواية الأخرى.

(يعني الأوثان). قال ابن جرير: (يقول: يا رب إن الأصنام أضللتني ، يقول: أزلت كثيراً من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن ، وكفروا بك).

وقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال النسفي: (فمن تبعني على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فَأَنْتَ مِنِّي﴾ أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فيما دون الشرك ﴿فَأِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ - أو ومن عصاني عصيان شرك - فإنك غفور رحيم إن تاب وآمن).

وعن قتادة: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: اسمعوا إلى قول خليل الله إبراهيم ، لا والله ما كانوا طعانين ولا لعانين ، وكان يقال: إن من أشتر عباد الله كل طعان لعان ، قال نبي الله ابن مريم عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو: [أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنِّنْ أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ، ورفع يديه ، قال: «اللهم أمتي ، اللهم أمتي». وبكى ، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد - وربك أعلم - وسله ما يُبكيك؟ فأتاه جبريل - عليه السلام - فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال. فقال الله: اذهب إلى محمد: فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك⁽¹⁾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ - الآية.

قال ابن كثير: (وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولّى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه ، تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل).

قال قتادة: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ ، قال: مكة لم يكن بها زرع يومئذ. وقال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ ، وإنه بيت طهره الله من السوء ، وجعله قبله ، وجعله حرمة⁽²⁾ ، اختاره نبي الله إبراهيم لولده. قال ابن عباس: (أسكن إسماعيل وأمه مكة).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (202) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً ، وأخرجه ابن حبان (7234) ، والطبري في «التفسير» (20841).

(2) مفهوم المحرم: أي من استحلال حرمت الله فيه ، والاستخفاف بحقه.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: فعلت ذلك يا ربنا كي تؤدى فرائضك من الصلاة التي أوجبتها عليهم في بيتك المحرم).

وقوله: ﴿فَلَجَعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ - تمتة الدعاء ، وكانت الإجابة بتشريع الحج .

قال مجاهد: (لو قال أفئدة الناس تهوي إليهم ، لازدحمت عليهم فارس والروم).

وقال عكرمة وعطاء وطاووس: (البيت تهوي إليه قلوبهم يأتونه). وقالوا: (الحج - هواهم إلى مكة أن يحجوا). وقال ابن عباس: (إن إبراهيم خليل الرحمن ، سأل الله أن يجعل أناساً من الناس يهوون سكنى أو سكن مكة).

والخلاصة: لقد استجاب الله تعالى دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام ، فشرع الحج ، وشرع العمرة ، يستهوي ذلك قلوب المسلمين إلى تلك الديار فتتزع إليها .

وقوله: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وارزقهم من ثمرات النبات والأشجار ما رزقت سكان الأرياف والقرى التي هي ذوات المياه والأنهار ، وإن كنت أسكتهم وادياً غير ذي زرع ولا ماء ، فرزقهم الله جل ثناؤه ذلك).

وفي التنزيل: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [الفصص: 57].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ .

قال ابن عباس ومقاتل: (تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكننا بوادٍ غير ذي زرع).

وقيل: قوله: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ - هو قول إبراهيم . وقيل هو من قول الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ . ثناء على الله تعالى من إبراهيم عليه السلام وشكر له على إجابته دعوته فيما سأله من الولد ، وقد رزقه الله ما رزقه من الولد بعد الكبر رحمة منه وآية من لدنه ، والله

سميع الدعاء مجيب لعباده قريب منهم ويزيدهم من نعمه كلما شكروا له واستقاموا على دينه .

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : 186] .

2 - وقال تعالى : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر : 65] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : 56] .

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء] (1) .

الحديث الثاني : أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء] (2) .

الحديث الثالث : أخرج أبو داود بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها قالت : [كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ما سِوَى ذَلِكَ] (3) .

الحديث الرابع : أخرج الترمذي بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له] (4) .

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم (298) ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء في السجود .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (256 / 4) ، وأخرجه مسلم (76 / 8) ، وغيرهما .

(3) إسناده جيد . انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (1332) ، وتخريج المشكاة (2246) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (4825) .

(4) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (3505) . انظر صحيح سنن الترمذي (2785) ، وكذلك صحيح الجامع (2602) لرواية الحاكم .

ورواه الحاكم بلفظ: [ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كَرْبٌ ، أو بلاءٌ ، من أمر الدنيا دعا به ففُرجٌ عنه؟ دعاء ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين].

وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ .

متابعة الدعاء من إبراهيم عليه السلام: إذ سأل ربه أن يجعله محافظاً على الصلاة مقيماً لحدودها هو وذريته في ذلك ، وأن يتقبل الله دعاءه في كل ما سألَهُ .

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ .

قال ابن كثير: (وقرأ بعضهم ﴿ولوالدي﴾ على الأفراد . وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه ، لما تبين له عداوته لله عز وجل ، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ ، أي: كلهم ، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يوم تحاسبُ عبادك فتجزئهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر).

42 - 46. قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ^{٤٢}

إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ^{٤٣} مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ^{٤٤} وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَٰئِكَ نَكُودُونَ أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ^{٤٥} وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ^{٤٦} وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ^{٤٧} ﴾ .

في هذه الآيات: خِطَابُ الله تعالى نبيه ﷺ مسلياً له بأنه - جلت عظمتة - غير غافل عن مكر الظالمين ، إنما يؤخرهم ليوم المذلة والخزي الذي سيحيط بهم صاغرين . فأنذر الناس - يا محمد - عذاب ذلك اليوم الذي تنزل به الندامة بالمجرمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ولم يعتبروا بمصير من قبلهم من الماكرين .

فقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

قال ميمون بن مهران: (هي وعيد للظالم وتعزية للمظلوم). والآية خطاب للنبي ﷺ: لا تحسبن - يا محمد - الله ساهياً عن أعمال هؤلاء المشركين من قومك ، بل هو عالم بها وإنما يجازيهم بها في يوم كتب فيه مجازاتهم بها ، وهو يوم الحساب . قال قتادة: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ قال: شخصت فيه والله أبصارهم ، فلا ترتد إليهم).

قال القرطبي: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم).

وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾. أي: مسرعين رافعي رؤوسهم.

قال النسفي: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها). وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: 8].

2 - وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108].

وفي لغة العرب: أھطع الرجل إذا مدَّ عنقه وصَوَّبَ رأسه ، وأھطع في عذوه إذا أسرع. ومنه قول الضحاك: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ، قال: شدة النظر الذي لا يطرف). قال ابن جرير: (والإھطاع في كلام العرب بمعنى الإسراع أشهر منه بمعنى إدامة النظر).

وعن ابن عباس: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ ، قال: الإقناع: رفع رؤوسهم).

وقال قتادة: (المقنع الذي يرفع رأسه شاخصاً بصره لا يطرف).

وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾. أي: لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم ، بل أبصارهم طائرة شاخصة ، لشدة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما سينزل بهم.

وقوله: ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾. قال ابن عباس: (ليس فيها شيء من الخير فهي كالخربة). وقال مرة: (متخرقة لا تعي شيئاً). وقال مجاهد: (ليس من الخير شيء في أفئدتهم ، كقولك للبيت الذي ليس فيه شيء إنما هو هواء). وقال ابن زيد: (الأفئدة: القلوب هواء كما قال الله ، ليس فيها عقل ولا منفعة). وقال قتادة: ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾

انتزعت حتى صارت في حناجرهم لا تخرج من أفواههم ، ولا تعود إلى أمكنتها).

والراجع: أن المقصود خلو القلوب من العقل والخير من هول المشهد ، حتى تصبح خاوية من الخير كالخراب .

وقوله: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُبْتَغِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ .

أي: أنذر الناس يا محمد يوم حلول العذاب في القيامة ، فيقول الذين كفروا بربهم وكذبوا نبوتك: ربنا أخر عنا عذابك وأمهلنا لفرصة أخرى نجب دعوة الحق فنصدقك الإيمان ونصدق المرسلين ونتابع دعوتهم .

قال مجاهد: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ قال: مدة يعملون فيها من الدنيا).

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ . أي: أو ما حلفتُم أنه لا معاد ولا جزاء .

قال مجاهد: ﴿مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ ، أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة). وقال: (هو قسم قريش أنهم لا يبعثون).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُؤْمِنُونَ إِذْ يُنْفَخُ عَلَى النَّارِ فَنَقِلُوا فِيهَا لِلْعَذَابِ وَقَالُوا بَلْ يَنْصُرُنَا اللَّهُ مِمَّا كَانُوا فِيهَا يَخْتَفُونَ﴾ [الأنعام: 27].
[28 -

3 - وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99 - 100].

4 - وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِخُوا مِنْ مَا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: 10].

ومن كنوز صحيح السنة في مفهوم الآية أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ

قال: [يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها ، أكنت مُفتدياً بها؟ فيقول: نعم ، فيقول: قد أزدت منك أهونَ من هذا وأنت في صُلْبِ آدم: أن لا تشرك ولا أدخلك النار ، فأبيت إلا الشرك⁽¹⁾].

وفي لفظ: [فيقال له: كذبت ، وقد سُئِلت ما هو أيسرُ من ذلك].

وفي رواية: (فيؤمر به إلى النار).

وقوله: «كَذَبْتَ». قال النووي: (معناه لو رددناك إلى الدنيا لما افتديت لأنك سئلت أيسر من ذلك ، فأبيت ، فيكون من معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ، وبهذا يجتمع معنى هذا الحديث مع قوله تعالى: ﴿لَوْ أَن لَّهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾).

الحديث الثاني: أخرج الإمام الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ [يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسَخَّرْتُ لَكَ الأنعام والحرث ، وَتَرَكْتُكَ تَزَاسُ وتَزْبُع ، فَكُنْتَ تَنْظُرُ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمِكَ هذا؟ فيقول: لا . فيقول: اليوم أنساك كما نسيتني⁽²⁾].

قال أبو عيسى: (ومعنى قوله: «اليوم أنساك كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب ، وكذا فسّر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ﴾ [الأعراف: 51]. قالوا: معناه اليوم نتركهم في العذاب).

وقوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

قال ابن زيد: (سكنوا في قراهم مدين والحجر والقرى التي عذب الله أهلها ، وتبين لكم كيف فعل الله بهم ، وضرب لهم الأمثال). وقال مجاهد: ﴿الْأَمْثَالَ﴾: (الأمثال).

قال القاسمي: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ كعاد وثمود ﴿وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي بما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2805)، كتاب صفات المنافقين ، باب طلب الكفار الفداء بملء الأرض ذهباً. ورواه البخاري (333/2) ، (239 - 242) ، وأخرجه أحمد (127/3 - 129).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (2558)، أبواب صفة القيامة. انظر صحيح سنن الترمذي (1978).

وما تواترَ عندكم من أخبارهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم . أي ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر).

قلت : وفي الآية تقرير لأولئك الظالمين في سكناهم أماكن دمار الأمم التي أنزل الله بها عذابهُ - وهو معنى لم أجد من المفسرين من لفت إليه - وهو من صُلب السنة الصحيحة . وفي ذلك حديثان .

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه - يعني لما وصلوا الحجر : وهي ديار ثمود فيما بين المدينة والشام - : [لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يُصيبكم ما أصابهم] ⁽¹⁾ . وفي لفظ لمسلم : (ثم قَتَعَ رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي) . وفي لفظ للبخاري : (ثم تَقَنَعَ بردائه وهو على الرّحل) .

الحديث الثاني : أخرج مسلم عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره : [أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها ، وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ، ويغلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردّها الناقة] ⁽²⁾ .

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (3/560) : (ومنها : أن الماء الذي بآبار ثمود ، لا يجوز شربه ، ولا الطبخ منه ، ولا العجين به ، ولا الطهارة به ، ويجوز أن يُسقى البهائم إلا ما كان من بئر الناقة . قال : ومنها : أن من مرَّ بديار المغضوب عليهم والمعذنين ، لم ينبغ له أن يدخلها ، ولا يُقيم بها ، بل يُسرّع السير ، ويتقنّع بثوبه حتى يجاوزها ، ولا يدخل عليهم إلا باكياً معتبراً) .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ - له تأويلان :

1 - قال ابن عباس : (ما كان مكرهم لتزول منه الجبال) . وكان الحسن يقول : (وإن

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (3381) ، كتاب الأنبياء ، ومسلم (2980) ، وأخرجه أحمد في المسند (2/9 - 58) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2980) ، كتاب الزهد والرقائق ، وانظر صحيح البخاري (3381) .

كان مكرهم لأوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال). فوجهوا «إن» بمعنى «ما» أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه.

2 - قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ ، يقول : شركهم ، كقوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا ﴾ [مريم : 90 - 91] .

وعن شمر ، عن علي قال : (الغدر : مكر ، والمكر : كفر).

قال القاسمي : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا ﴾ أي بالنبي صلوات الله عليه ﴿ مَكْرُهُمْ ﴾ أي العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي جزاء مكرهم ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ ﴾ أي في العظم والشدة ﴿ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ أي مُسَوًى وَمُعَدَّاً لإزالة الجبال عن مقارها ، لتناهي شدته).

قلت : والمعنى الثاني هو الراجح في مفهوم هذه الآية ، وهو الأنسب للسياق .

47 - 52. قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رَسُولُهُ ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ .

في هذه الآيات : متابعة الله خطابه لنبيه يَعْدُهُ بالنصر المبين . وَيُنْعَتْ لَهُ يَوْمَ تُبَدَّلُ السماوات والأرض حال المجرمين . وقد صُفِّدُوا بالأغلال وسرايلهم من قطران وتغشى وجوههم نار الجحيم . ليجزي الله بعدله الصادقين والكاذبين . إنما هذا بلاغ للناس من الله رب العالمين .

فقوله : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رَسُولُهُ ﴾ - تثبيت من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وتسلية له عما يلقاه من تكذيب قومه وعنادهم وجحود نبوته عليه الصلاة والسلام .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ . قال ابن جرير : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ : لا يمانع منه

شيء أراد عقوبته ، قادر على كل من طلبه ، لا يفوته بالهرب منه . ﴿ ذُو أَنْقَارٍ ﴾ ممن كفر برسله وكذبهم ، وجحد نبوتهم ، وأشرك به واتخذ معه إلهاً غيره .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ .

قال القاسمي : (وذلك أن تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى ، فلا يرى فيها عوج ولا أمت . وتبدل السماوات بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً) .

قلت : وقد حفلت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى في أحاديث .

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : [يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءَ عَفْرَاءَ ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، والترمذي في جامعه ، وأحمد في مسنده ، عن مسروق ، عن عائشة ، أنها قالت : [أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ، قَالَتْ : قُلْتُ : أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : عَلَى الصَّرَاطِ]⁽²⁾

وفي رواية : (هم في الظلمة دون الجسر) .

الحديث الثالث : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : [كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ . فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا ، فَقَالَ : لِمَ تَدْفَعُنِي ؟ فَقُلْتُ : أَلَا تَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! فَقَالَ الْيَهُودِي : إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنْ أَسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي . فَقَالَ الْيَهُودِي : جِئْتُ أَسْأَلُكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَيْنَفَعَكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ ؟ فَقَالَ : أَسْمِعْ بَأْذَنِي . فَنَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : بَعُودٌ مَعَهُ ، فَقَالَ : سَلْ . فَقَالَ الْيَهُودِي : أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ حِينَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجَسْرِ . قَالَ : فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً ؟ قَالَ : فَقَالَ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6521) ، ومسلم (2790) ، وابن حبان (7320) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2791) ، والترمذي في الجامع (3121) ، وابن ماجه في السنن (4279) ، وأحمد في المسند (35/6) .

فقراء المهاجرين. قال اليهودي: فما تُخَفِّتُهُمْ حينَ يدخلونَ الجنة؟ قال: زيادة كبد الحوت. قال: فما غِذاؤُهُم في أثرها؟ قال: يُنَحَّرُ لَهُم ثورُ الجنة الذي كانَ يأكل من أطرافها. قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تسمى سلسيلا. قال: صدقت. قال: وجئتُ أسألكَ عن شيء لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبيُّ أو رجلٌ أو رجلان؟ قال: ينفعكَ إن حدَّثتكَ؟ قال: أسمعُ بأذني. قال: جئتُ أسألكَ عن الولد. قال: ماء الرجل أبيضٌ وماء المرأة أصفرٌ. فإذا اجتمعَا فعَلَا مِنِّي الرجلُ مِنِّي المرأةُ أَذْكَرَا بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأةُ مِنِّي الرجلُ أَثْنَا بإذن الله. قال اليهودي: لقد صدقتَ، وإنكَ لَنبيٌّ. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه وما لي علمُ بشيءٍ منه، حتى أتاني الله به⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

قال ابن كثير: (أي: خرجتِ الخلائق جميعُها من قبورهم لله ﴿الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَلَبَهُ، ودانت له الرقابُ، وخضعت له الألبابُ).

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ يقول: في وثاق). وقال الضحاك (الأصفاد: السلاسل). وقال قتادة: (مقرنين في القيود والأغلال).

والأصفاد: جمع صَفَد، وهو القيد. قال الأعمش: (الصفد: القيد).

وقال ابن زيد: (صفدت فيها أيديهم وأرجلهم ورقابهم، والأصفاد: الأغلال).

والخلاصة: يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، وتبرز الخلائق جميعاً من قبورها لديانها، ترى - يا محمد - يومئذ المجرمين - الذين أجزموا بكفرهم وفسادهم ومحاربة الرسل والدين الحق وأهله - مشدودين بالأغلال والقيود بعضهم إلى بعض، وقد جُمع يومئذ بين الأصناف المتماثلة والأشباه والنظراء من كل صنف وزوج من أهل الكفر والبغي والفساد في الأرض في صورة من الذل والهوان والخزي في عرصات القيامة.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (315)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (7422)، وأخرجه البيهقي في «البعث» (315).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿الصفات: 22 - 23﴾.

2 - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِعَتْ﴾ [التكوير: 7].

3 - وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ ﴿٢٧﴾ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿ص: 37 - 38﴾.

4 - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: 13].

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [يُخْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقون من عُصارة أهل النار ، طينة الخبال⁽¹⁾].

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ﴾. أي: ثيابهم وقمصهم من كثرة ما طليت بهناء الإبل الذي هو سائل أسود اللون منتن الريح يسرع فيه اشتعال النار صار كالسراويل وغلب على لباسهم. وقَطَرَان وقَطْرَان ثلاث لغات. ومن قرأها «قَطْرِ آين» فسره بالنحاس المذاب.

قال الحسن: ((مِنْ قَطَرَانٍ﴾ يعني: الخَضَخَاضِ هِئَاءِ الإِبِلِ). وقال ابن عباس: ((مِنْ قَطَرَانٍ﴾ نحاس). وعن الربيع بن أنس: (مِنْ قَطْرِ آين) قال القطر: النحاس ، والآن: يقول: قد أُنِيَ حرّه ، وذلك أنه يقول: حميمٌ آن). وقال سعيد: (والآن: الذي قد انتهى حرّه).

وعن ابن عباس: (مِنْ قَطْرِ آين) قال: هو النحاس المذاب).

قلت: وسواء المراد هِئَاءِ الإِبِلِ ، أو النحاس المذاب فإنه لباس ألصق شيء بالنار ، فبئس اللباس الذي جعله الله لباس المجرمين في النار.

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد والترمذي بسند حسن من حديث ابن عمرو. انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، وتخریج «مشكاة المصابيح» (5112)، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7896).

قال النسفي: ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ قمصهم ﴿مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ هو ما يتحلب من شجر يسمى الأبله فيطبخ فيها به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحدته وحره ، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ، ومنتن الريح ، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين ، وكل ما وعده الله أو أوعده به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره ، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة ، نعوذ بالله من سخطه وعذابه.

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [أربع من أمر الجاهلية لا يترك: الفخر بالأحساب ، والظعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة ، والنائحة إذا لم تثب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب⁽¹⁾].

وقوله: ﴿وَتَعَثَّىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ - كقوله: ﴿تَلَفَحَ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [المؤمنون: 104]. أي: تضرب النار وجوههم فتعلوها باشتعالها ، قال القاسمي: (وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب في باطنه ، ولذلك قال: ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: 7] ، ولكونها مجمع الحواس التي خلقت لإدراك الحق ، وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها في تدبره. كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة ، وقد ملأوها بالجهالات. أفاده الزمخشري وأبو السعود) انتهى. قلت: وحكى نحوه النسفي في تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: ليجزي الله يوم الحساب المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وما حسابه لجميع عبادته إلا أسرع من لمح البصر ، إذ لا تخفى عليه خافية من أعمالهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن حسابه سريع مجيئه. قال ابن كثير: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أي: يوم القيامة ، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَّا عَلِمُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾ [النجم: 31]. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ، يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1] ، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده

(1) حديث صحيح: أخرجه مسلم (934) ، وأحمد (5/342 - 344) ، وابن حبان (3143) ، وأخرجه البيهقي (63/4) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

سريع التجاز ، لأنه يعلم كل شيء ؛ ولا يخفى عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم . كقوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : 28] ، وهذا معنى قول مجاهد : ﴿ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ إحصاء . ويحتمل أن يكون المعنيان مُرادين ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

أي : هذا القرآن وما فيه من وعد ووعيد بلاغ لجميع الناس ، كفاية في التذكير والموعظة ، لينتفعوا بعظاته ويتعظوا بنذارته ، وليوقنوا أنما إلههم إله واحد فيفردوه بالتعظيم والألوهية ، وإنما يتذكر وينتفع بالذكرى أولو العقول والنهى .

قال ابن زيد : ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾ ، قال : القرآن : ﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ ، قال بالقرآن .

أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي شريح الخزاعي قال : [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : أبشروا أبشروا ، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قالوا : نعم . قال : فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً] .⁽¹⁾

تم تفسير سورة إبراهيم

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



(1) حديث صحيح . أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (12/165) ، ورواه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (1/58) ، وابن نصر في «قيام الليل» (74) ، وسنده صحيح على شرط مسلم . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (713) .

دروس ونتائج وأحكام

- 1- ما أرسل رسول قط إلا بلسان قومِهِ ، فلله الحكمة البالغة .
- 2- المؤمن صبار في الضراء ، وشكور في السراء ، فهو بخير على كل حال .
- 3- كل الأقوام كذبوا رسلهم إلا من رحم الله ، وأغلب الأمم كانت مؤمنة بالربوبية ، كافرة بالألوهية .
- 4- الإيمان بالربوبية يقتضي الإيمان بالألوهية والأسماء والصفات .
- 5- كل الأقوام هددوا رسلهم بالنفي من الأرض .
- 6- الأعمال التي لا تبنى على توحيد الله وتعظيمه ، إنما هي هباء منثور .
- 7- المؤمن كالنخلة ، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل وقت وحين .
- 8- المؤمنون يشبههم الله تعالى على الأصول الثلاثة في القبر ، وينعمون فيه .
- 9- الكفار لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، ويعذبون في قبورهم .
- 10- سؤال الملكين في القبر حق ، ونعيم القبر وعذابه حق وصدق ، وإنكار ذلك ضلال .
- 11- كل من بلغه الإسلام ولم يتبعه فقد بدل نعمة الله وجحدها .
- 12- نعم الله تعالى على عباده لا تحصى ، وقليل من عباد الله الشكور .
- 13- الظالمون لن يفلتوا من عدل الله ، ولسوف يندمون ويكون .
- 14- الشرك : تكاد السماواتُ يتفطرن منه وتنشقُّ له الأرض وتخرّ الجبال منه هداً .
- 15- تبدّل الأرض يوم القيامة والسماوات ، وبروز الجميع للواحد القهار ، والقرآن أعظم بلاغ للناس ، وما يذكر إلا أولو الألباب .

15



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (99).

موضوع السورة

قصة الإنسان ، وإغواء الشيطان

نصر الله المرسلين ، وهلاك ثمود - أصحاب الحجر - كبقية الأقسام المجرمين .

- منهاج السورة -

- 1 - انتصار الله لكتابه الكريم ، وإخبار عن الندامة التي ستلحق الكافرين ، وتمنيهم لو كانوا مسلمين .
- 2 - تهديد ووعيد للمستكبرين ، الذين هم في شهواتهم وملذاتهم يرتعون .
- 3 - اتهام الكفار محمداً بالجنون ، وسؤالهم نزول الملائكة ، وردّ الله عليهم ، وتكفله تعالى بحفظ هذا الذكر العظيم .
- 4 - تسليّة الله رسوله بوصله بسنن المرسلين ، وجهادهم أقوامهم المستهزئين .
- 5 - تذكير الله عباده ببعض آياته البديعة من خلقه ، السماء وطبقاتها ونجومها ، والأرض وبسطها وجبالها ونباتها .
- 6 - إثبات خزائن منافع العباد بيد الله تعالى ، والرياح والأمطار والأرزاق والآجال والأعمال تمضي بأمره وهو الحكيم الخبير .

- 7 - إخبار الله عن خلق الإنسان من طين ، والجنان من نار السموم ، وذكر امتثال الملائكة أمر الله تعالى السجود لآدم ، إلا إبليس اعترته الحمية ، وتعزز بخلقة النار ، واستوهن خلق الصلصال ، وسأل الله النظرة ، فأعطاه الله ذلك امتحاناً للذرية إلى يوم الدين .
- 8 - تعهّد إبليس إغواء ذرية آدم ، وحماية الله عباده المخلصين ، وجهنم ذات الأبواب السبعة موعد أتباع إبليس اللعين .
- 9 - نعتُ الله حال المتقين ، في خلودهم في جنات النعيم .
- 10 - ذكّر الله خبر ضيوف إبراهيم ، وإهلاك قوم لوط المجرمين .
- 11 - انتقام الله من قوم شعيب وقوم صالح لما كفروا وكذبوا رسلهم .
- 12 - إثبات الله تعالى خلقه السماوات والأرض بالعدل والإنصاف ، وأن الساعة قادمة ، فالصفح أولى حتى يأتي أمر الله ، واختصاص الله نبيه محمداً ﷺ بفاتحة الكتاب وهي السبع المثاني والقرآن العظيم .
- 13 - الأمر بالصدع بالحق والجهر بالدعوة والله يكفيك - يا محمد - أمر المستهزئين .
- 14 - تسلية الله نبيه لثلا يقع في الضيق مما يقولون ، فإنهم سوف يعلمون .
- 15 - الاستعانة على الأمر ومشقة الطريق بالتسبيح والسجود والعبادة حتى مجيء الموت وهو اليقين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 5. قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝١ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝٤ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: انتصارٌ من الله تعالى لهذا الكتاب العظيم ، وإعلامٌ منه سبحانه عن الندامة التي ستلحق الكافرين ، وأنهم سيتمون يوماً لو كانوا مسلمين ، وتهديدٌ ووعدٌ للمستكبرين الذين يأكلون وينغمسون في ألوان الشهوات معرضين عن الحق وسنن الأولين ، فإنه ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون .

فقوله: ﴿الرَّ﴾. قد سبق بيان مفهوم ذلك من الحروف المقطعة أول السور وأنه دلالة على إعجاز هذا القرآن العظيم ، الذي آياته وكلماته من جنس هذه الأحرف ، ولا قدرة لأحد على معارضته ولا بسورة نحوه .

وعن مجاهد: ﴿الرَّ﴾ فواتح يفتح بها كلامه ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال: التوراة والإنجيل).

وقال قتادة: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن).

وقوله: ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾. أي: وآيات قرآن بيّن الدلالة والهدى والرشاد. قال قتادة: (تبين والله هداه ورشده وخيره).

وقوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. قال ابن كثير: (إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين في الدنيا. ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وغيرهما من الصحابة: أنَّ الكفار لما عُرِضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين . وقيل

المراد أن كل كافر يَؤُدُّ عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِعَاثِرِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27]. وقيل: هو في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين. وقال سعيد بن جبير: (إذا أُخْرِجَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُوا الْجَنَّةَ ، يَؤُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) - ذكره الترمذي .

قلت: وكل ما سبق محتمل ممكن يتسع له مفهوم الآية. وقرأ نافع وعاصم ﴿رُبَّمَا﴾ مخفَّف الباء ، والباقون قرؤوها بالتشديد ، وهما لغتان. أي يؤدُّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين .

وقوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

تهديد ووعد للكفار وهم يعيشون فساداً في الأرض. أي: ذر يا محمد هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا وينغمسوا في ألوان الشهوات والملذات منشغلين بها عن طاعة الله وتعظيمه حتى تفجأهم آجالهم ويروا العذاب .

وفي التنزيل: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: 46]. ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: 30].

قال الحسن: (ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل) - ذكره القرطبي ثم قال: (وصدق رضي الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني ، ويعقب التشاغل والتقاعد ، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطلب صاحبه ببرهان ، كما أن قصر الأمل يبعث على العمل ، ويُحيل على المبادرة ، ويحث على المسابقة).

ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: (يا أهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إنَّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً وبينون مشيداً ويأملون بعيداً ، فأصبح جمعهم بُوراً وبينانهم قبوراً وأملهم غروراً. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً ، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين ! وأنشد:

يا ذا المؤمل آمالاً وإن بُعِدَتْ منه ويزعم أن يحظى بأقصاها
أئى تفوز بما ترجوه ويُنك وما أصبحت في ثقة من تُئِل أدناها)

أخرج ابن أبي الدنيا بسند حسن من حديث ابن عمرو مرفوعاً: [نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾.

تنبيه لأهل مكة ولمن سار على منهاجهم في الكفر والطغيان وتكذيب الرسل: بأنه ما أهلك الله قرية إلا بعد إقامة حجته البالغة على أهلها ، وبأنه سبحانه لا يؤخر هلاك أمة حان أجل عقابها ونزول الدمار فيها.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ﴾.

قال الزهري: (نرى أنه إذا حضر أجله ، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدم ، وأما ما لم يحضر أجله ، فإن الله يؤخر ما شاء ويقدم ما شاء).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ما يتقدم هلاك أمة قبل أجلها الذي جعله الله أجلاً لها ، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي جعل لها أجلاً).

6 - 9. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

في هذه الآيات: اتُّهَمُ الكفار محمدًا ﷺ بالجنون ، وتنطعمهم بطلب نزول الملائكة تشهد له بالنبوة إن كان من الصادقين ، وردُّ الله تعالى عليهم طلبهم بأن الملائكة إنما تنزل بالرسالة على النبيين ، أو بالعذاب على المجرمين ، وتأكيده الله سبحانه أن هذا القرآن أنزله وتكفل بحفظه ولو كره الكافرون.

وعن الضحاك: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ قال: (القرآن).

قال النسفي: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ يعنون محمدًا عليه السلام ، وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء ، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

(1) حديث حسن. أخرجه ابن أبي الدنيا في اليقين (3) ، والأصبهاني في التريغيب (165) ، والدليمي في زهر الفردوس (4/ 123) ، وانظر صحيح الجامع - حديث رقم - (6622).

وقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ .

أي: هلاً تأتينا بالملائكة شاهدة لك على صدق ما تقول إن كنت صادقاً في دعواك النبوة والرسالة واختيار الله لك بالوحي .

وفي التنزيل: - قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ لَا يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا أُوْلَآئِكَ عَلَيْنَا الْمَلَكَةُ أَوْ نَرٰى رَبَّنَا لَقَدْ اَسْتَكْبَرُوْا فِىْ اَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيْرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكَةَ لَا بُشْرٰى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِيْنَ وَيَقُوْلُوْنَ حَجْرًا مَّحْجُوْرًا﴾ [الفرقان: 21 - 22] .

وقوله تعالى: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ اِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوْا اِذَا مُنْظَرِيْنَ﴾ .

قال مجاهد: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ اِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ، قال: بالرسالة والعذاب .

وهناك قراءات ثلاث متقاربات المعاني لقوله ﴿نُنْزِلُ﴾ . فقد قرأها قراء المدينة والبصرة «ما تُنْزِلُ» ، أي الفعل للملائكة . وقرأها بعض أهل الكوفة: «ما نُنْزِلُ» ، وبعضهم قرأها «ما تُنْزِلُ» .

قال ابن جرير: (فتأويل الكلام: ما ننزل ملائكتنا إلا بالحق ، يعني بالرسالة إلى رسلنا ، أو بالعذاب لمن أردنا تعذيبه ، ولو أرسلنا إلى هؤلاء المشركين على ما يسألون إرسالهم معك آية فكفروا لم ينظروا فيؤخروا بالعذاب ، بل عوجلوا به كما فعلنا ذلك بمن قبلهم من الأمم حين سألوا الآيات فكفروا حين أتتهم الآيات ، فعاجلناهم بالعقوبة) . وقال القاسمي: ﴿وَمَا كَانُوْا اِذَا مُنْظَرِيْنَ﴾ أي مؤخرين .

وقوله تعالى: ﴿اِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَاِنَّا لَهٗ لَحٰفِظُوْنَ﴾ .

تقرير وتأکید أن هذا القرآن أنزله الله وتكفل حفظه من التغير والتحريف والتبديل .

قال قتادة: (فأنزله الله ثم حفظه ، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً ولا ينقص منه حقاً ، حفظه الله من ذلك) . قال: (وقيل: الهاء في قوله: ﴿وَاِنَّا لَهٗ لَحٰفِظُوْنَ﴾ من ذكر محمد ﷺ ، بمعنى: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه) .

قال النسفي: ﴿وَاِنَّا لَهٗ لَحٰفِظُوْنَ﴾ وهو رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ ، ولذلك قال: ﴿اِنَّا نَحْنُ﴾ فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع وأنه هو الذي نزل محفوظاً من الشياطين ، وهو حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل ، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيين والأخبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً ، فوقع التحريف ، ولم يكل

القرآن إلى غير حفظه ، وقد جعل قوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ دليلاً على أنه منزل من عنده آية ، إذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه . أو الضمير في «له» لرسول الله ﷺ كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعِصُكُمْ ﴾ .

وقال القاسمي : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أي من كل مَنْ بغى له كيداً . فلا يزال نور ذكره يسري ، وبحر هدايه يجري ، وظلال حقيقته في علومه تمتد على الآفاق ، ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغماً عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين . ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف : 8] . وفي إيراد الجملة الثانية اسمية ، دلالة على دوام الحفظ .

قلت : والحفظ للذكر يتناول حفظ التأويل ، وإقامة الحجة على مدار الزمان بصواب التفسير ، وهذا يتضمن حفظ الوحي الثاني - ألا وهو السنة - المفسرة للوحي الأول : القرآن . كيف لا ، وقد جاءت كلمة «الذكر» في موضع آخر من القرآن لتدل على ذلك . قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 44] .

أي : وأنزلنا إليك السنة وهي السيرة ، لتفسر بها للناس هذا القرآن . قال الحافظ ابن كثير : ﴿ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه . فكلاهما في كِلاءة الله وحفظه ، وقد تكفل الله بحماية فهم كتابه ، ليبقى الدين بهذا النقاء والصفاء حجة الله على عباده .

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن أبي سعيد الخدري قال : [كنا جلوساً ننتظر رسول الله ﷺ ، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه ، فقمنا معه ، فانقطعت نعله ، فتخلفَ عليها عليٌّ يَخْصِفُهَا ، فمضى رسول الله ﷺ ومضيْنَا معه ، ثم قام ينتظره ، وقمنا معه ، فقال : « إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله » . فاستشرفنا وفيْنَا أبو بكر وعمر ، فقال : لا ، ولكنه خاضع النعل . قال : فجئنا نبشِّره⁽¹⁾ .

وفي رواية : (إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله . فقام أبو بكر

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «خصائص علي» ص (29) ، وأخرجه أحمد في المسند (33/3) ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (2487) .

وعمر ، فقال : لا ، ولكن خاصف النعل ، وعليّ يخصف نعله).

وجاء في تدريب الراوي للسيوطي ، وفي «الباعث الحثيث» شرح اختصار علوم الحديث ، عن عبد الله بن المبارك : (وقد سئل : هذه الأحاديث الموضوعة ؟ فقال : تعيش لها الجهابذة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾).

وجاء في : «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم» عن العلامة محمد بن إبراهيم الوزير قال : (﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾) : وهذا يقتضي أن شريعة رسول الله ﷺ لا تزال محفوظة ، وسنته لا تبرح محروسة).

وفي سنن أبي داود والبيهقي عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها] وسنده صحيح⁽¹⁾.

وأخرج ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين]⁽²⁾.

10 - 15. قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَجِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَدَحْنَاهُ عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : تسليية الله تعالى نبيه بوضله بسنن المرسلين ، وقد جاؤوا أقوامهم بالبلاغ المبين ، فكذبوهم وآذوهم واستهزؤوا بهم حتى طبع الله على قلوب المجرمين . فهم لا يؤمنون ولو أبصروا عظيم آيات الله في هذا الكون لقالوا نحن قوم مسحورون .

فعن ابن عباس : (﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَجِ الْأَوَّلِينَ ﴾ يقول : أمم الأولين) . و﴿ شِعَج ﴾ جمع شيعه ، وشيعه الرجل : أولياؤه ، والمقصود : تسليية النبي ﷺ عما

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4291) ، والحاكم (522/4) ، والبيهقي في «معرفه السنن والآثار» (ص 52) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (599) .

(2) حديث حسن . انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (248) ، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في «بغية الملتبس» ، وانظر كتابي : أصل الدين والإيمان (269/1) .

يلقاه من تكذيب قومه ، بأنه ما أتى رسولٌ قبله في أمة إلا استهزؤوا به وكذبوه وعاندوه ، وسخروا به وبمن تبعه ، وتمردوا وعتوا في الأرض بغياً وكبراً. وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لا يؤمنون بالله.

قال قتادة: (إذا كذبوا سلك الله في قلوبهم أن لا يؤمنوا به). وقال ابن جريج: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال: (التكذيب). وقال الحسن: (الشرك). وقال ابن زيد: (هم كما قال الله ، هو أضلهم ومنعهم الإيمان).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: كما سلطنا الكفر في قلوب شيع الأولين بالاستهزاء بالرسول ، كذلك نفعل ذلك في قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر بالله) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يقول: لا يصدقون بالذكر الذي أنزل إليك. والهاء في قوله: ﴿نَسْلُكُهُ﴾ من ذكر الاستهزاء بالرسول والتكذيب بهم).

قلت: والآية دلالة على بعض عقوبات الله في حرمانه الهدى والهداية لمن استهزأ بفرصها وضيعها ، فإن للإيمان بالله ومتابعة الرسل مواسم وعزائم تتوجه نحو القلب فإن فوتها ولم يكثرث بها ربما لم تعد مرة أخرى ، وكان الضياع والحرمان ثم الشقاء.

ففي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تغنون فتنة الرجل في أهله وماله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم ، فقلت: أنا. قال: أنت لله أبوك؟ قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [تعرض الفتن كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر مرباداً كالكوز مجحياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه] (1).

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

قال قتادة: (وقائع الله فيمن خلا قبلكم من الأمم). وقال النسفي: (مضت طريقتهم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم. انظر مختصر صحيح مسلم (1990) - كتاب الفتن - باب: عرض الفتن على القلوب ونكتها فيه. وقوله «مرباداً»: شدة البياض في سواد. و«مجحياً»: منكوساً.

التي سنّها الله في إهلاكهم حين كذبوا رسله ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم).
وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٦﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ .

أي: ولو أريناهم أكبر آية - نحو فتح باب من السماء - ويسرنا لهم معراجاً يصعدون فيه إليها ، وأبصروا من عظيم الآيات والدلائل على وجوب إفراد الله تعالى بالتعظيم ، والتصديق بالوحي الذي نزل على محمد ﷺ سيد المرسلين ، لقالوا إنما هو شيء نتخايله لا حقيقة له ، بل سحرنا محمد بذلك .

وعن مجاهد: ﴿ سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا ﴾ ، قال: سُدَّتْ أَبْصَارُنَا). وقال قتادة ، عن ابن عباس: (أخذت أبصارنا). وقال العوفي ، عن ابن عباس: (شُبَّهَ علينا ، وإنما سُحِّرْنَا). وقال الكلبي: (عَمِيَتْ أَبْصَارُنَا). وقال ابن زيد: ﴿ سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا ﴾ ، السكران الذي لا يَعْقِلُ). قال ابن جرير: (معنى ذلك: أخذت أبصارنا وسحرت ، فلا تبصر الشيء على ما هو به ، وذهب حدُّ إبصارها ، وانطفأ نوره).

16 - 20. قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَكُمْ بِرِزْقَيْنَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تذكيرُ الله تعالى عباده ببعض آياته البديعة من خلقه ، فقد خلق السماء وجعلها سبع طبقات لكل منها ارتفاعها وملائكتها وأفلاكها ، وزَيَّنَ السماء الدنيا بالنجوم والكواكب الثواب تبهير الناظرين ، وتطرد بشهبا الشياطين ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبین ، والأرض بسطها سبحانه ومهدا وثبتها بالجمال الشامخات وأنبت فيها من كل شيء بقدر معلوم ، رزقاً للعباد وَلِمَنْ لَسْتُمْ له من الخلق برازقين .

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ . قال مجاهد: (كواكب). وقال قتادة: (وبروجها: نجومها).

وقوله: ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها).

وقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ④ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَلْسَمَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ⑤ .

قال ابن عباس: (إن الشهب لا تقتل ، ولكن تحرق وتخبّل⁽¹⁾ وتجرّح من غير أن تقتل).

والمقصود: أن الله تعالى قد حفظ السماء الدنيا من كل شيطان لعين أن يسترق الخبر يقضيه سبحانه في السماء ، كما كانوا يفعلون قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن ربما خطف بعضهم جزءاً من الخبر قبل أن يحرقه الشهاب فيضيف عليه مئة كذبة فيصدق عند الجهال في الأرض بتلك الكلمة التي ألقاها إلى الساحر وأضاف لها ما أضاف من الكذب لتصبح قصة لها بداية ونهاية .

فقد أخرج البخاري في صحيحه - عند تفسير هذه الآية - عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: [إذا قضى الله الأمر في السماء صرّبت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله كأنه سلسلة على صفوان - قال عليّ: وقال غيره: صفوان ينقذهم ، ذلك - فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقّ وهو العليّ الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا ، واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى ، نصبها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذي يليه ، إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض ، فتلقني على فم الساحر فيكذب معها مئة كذبة ، فيصدق فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا؟ فوجدناه حقاً - للكلمة التي سمعت من السماء]⁽²⁾.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ . [الفرقان: 61].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: 5].

(1) الخبل: فساد الأعضاء .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4701) - كتاب التفسير - سورة الحجر ، آية (18) ، وأخرجه أبو داود (3989) ، والترمذي (3223) ، وابن ماجه (194) ، وابن حبان (36) .

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾. أي: دحوناها فبسطناها ومهدناها وجعلنا على بعض أجزائها الجبال الثابتات.

قال قتادة: (﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾. وقال في آية أخرى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَاهَا﴾ [النازعات: 30]. وذكر لنا أن أم القرى مكة، منها دُحيت الأرض. قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ رواسيها: جبالها).

وقوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾. يعني أنبت فيها سبحانه من الزروع والثمار المتناسبة.

قال ابن عباس: (أي: معلوم). وقال ابن زيد: (من كل شيء يُوزَنُ ويُقَدَّرُ بِقَدَرٍ).

وقال ابن زيد: (ما تزنُهُ الأسواق).

قال القاسمي: (أي وزن بميزان الحكمة، وقُدِّرَ بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان. أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم: كلام موزون).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَكُمْ لِمِزْرَقَيْنِ﴾.

المعاش: جمع معيشة. قال الحسن: (إنها الملابس). وقيل: (إنها التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة) - قال الماوردي: (وهو الظاهر). قال القرطبي: (﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ يعني المطاعم والمشارب التي يعيشون بها).

وعن مجاهد: (﴿وَمَنْ لَكُمْ لِمِزْرَقَيْنِ﴾ قال: الدواب والأنعام). وقال منصور: (الوحش). قال ابن جرير: (وأحسن أن يقال: عني بقوله ﴿وَمَنْ لَكُمْ لِمِزْرَقَيْنِ﴾ من العبيد والإماء والدواب والأنعام).

قال ابن كثير: (والقصد أنه تعالى يمتنّ عليهم بما يسرّ لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخرّ لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هو المنفعة، والرزق على الله تعالى).

21 - 25. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ

مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْفِحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْشَرَكُمْ لَمْ

يَخْزِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ .

في هذه الآيات: إثبات خزائن منافع العباد بيد الله تعالى وإنما تصريف ذلك حسب مشيئته وحكمته جلّت صفاته ، وإثبات إرسال الله الرياح حوامل ملقحة تحمل الماء والتراب والخير والنفع الكثير ، وكذلك المطر المنهمر والحياة والموت بأمر الله العزيز الكبير ، الذي علم الأزاق والآجال والأعمال والمرجع إليه وهو الحكيم الخبير .
فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ .

أي: كل خزائن منافع العباد عند الله تعالى وهو ينزل من ذلك بحكمته وتقديره .

يروى ابن جرير بسنده عن أبي جحيفة ، عن عبد الله ، قال: (ما من عام بأمر من عام ، ولكن الله يصرفه بمن يشاء ، ثم قال: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾) .

وفي لفظ ، قال عبد الله بن مسعود: (ما من عام بأمر من عام ، ولكن الله يقسمه حيث شاء ، عاماً هاهنا وعماماً هاهنا ، ثم قرأ: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾) .

قلت: فخزائن صنوف جميع الأشياء عند الله تعالى ، ينزل منها بحكمته فيغطي بذلك حاجات عباده أو بعضها ، أو يعاقبهم فيحرمهم من إنزالها ، وينزل المعونة برحمته على قدر المؤنة ، وينزل الفرج والصبر على قدر المصيبة .

يروى الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤنة⁽¹⁾ ، وإن الصبر يأتي من الله على قدر البلاء⁽²⁾] . وفي رواية: (على قدر المصيبة) .

وفي لفظ آخر: [إِنَّ الله يُنْزِلُ المعونة على قدر المؤنة ، وينزل الصبر على قدر البلاء] .

(1) المؤنة: القوت ، ويقال أيضاً: المؤنة . والجمع: مُؤن ، ومؤنات .

(2) حديث صحيح . أخرجه البزار في «مسنده» (ص 156) ، وابن عدي في «الكامل» (1/206) ، وابن عساكر (2/205/5) ، ورواه الحاكم والبيهقي . انظر صحيح الجامع (1948) (1915) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1664) .

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ - أي: حوامل ، تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع الكثير. وهي في الحقيقة لاقحة ملقحة ، ولقحها: حملها الماء وإلقاها السحاب والشجر: عملها فيه. قال ابن مسعود: (يرسل الله الرياح فتحمل الماء ، فتجري السحاب ، فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر) - ذكره بسنده ابن جرير ، ثم قال: (فقد بين عبد الله بقوله: يرسل الرياح فتحمل الماء أنها هي اللاقحة بحملها وإن كانت ملقحة بإلقاها السحاب والشجر).

وعن الحسن: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قال: لواقع للشجر ، قلت: أو للسحاب ؟ قال: وللسحاب تمرية حتى يمطر).

وقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾. قال القرطبي: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من السحاب. وكل ما علاك فأظلك يسمى سماء. وقيل: من جهة السماء. ﴿مَاءً﴾ أي قطراً. ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم).

وفي لغة العرب: سقيته الماء أي ليشرب هو ، وأسقيته الماء: إذا جعلت له ماءً لشربه ولشرب أرضه وماشيته.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِحَافِظِينَ﴾. قال سفيان: (بِمَانِعِينَ). قال ابن كثير: (ويَحْتَمِلُ أَنَّ المراد: وما أنتم له بحافظين ، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ، ونجعل له مَعِيناً وِنَابِيعَ في الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْزَلَهُ وجعله عذباً ، وَحَفِظَهُ في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ، ليبقى لهم في طول السَّنة يشربون وَيُسْقُونَ أَنْعَامَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ وَثَمَارَهُمْ).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١٦﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿١٧﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: 68 - 70].

2 - وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: 10].

3 - وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَنَ يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: 30].

أخرج الحاكم على شرط الشيخين عن ابن عباس قال: [ما من عام بأكثر مطراً من

عام ، ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء ، ثم قرأ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآيَ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [1].

وله شاهد عند البغوي في «معالم التنزيل» من حديث ابن مسعود يرفعه: [ليس من سنة بأمّ من أخرى ، ولكن الله قسم هذه الأرزاق ، فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ، ووزن معلوم ، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفياضي والبحار]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾.

قال النسفي: (أي نحوي بالإيجاد ونميت بالإفناء ، أو نميت عند انقضاء الآجال ونحوي لجزاء الأعمال على التقديم والتأخير إذ الواو للجمع المطلق) ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ الباقون بعد هلاك الخلق كلهم).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾.

قال عكرمة: (هم خلق الله كلهم ، قد علم من خلق منهم إلى اليوم ، وقد علم من هو خالقه بعد اليوم). وقال قتادة: (المستقدمين: من مضى ، والمستأخرين: من بقي في أصلاب الرجال). وقال مجاهد: (من مات ومن بقي).

وكان الحسن يقول: (المستقدمون في طاعة الله ، والمستأخرون في معصية الله).

وعن أبي الجوزاء قال: (المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة والمستأخرين).

قلت: وكل ما سبق داخل في تأويل هذه الآية ، كما أن النص الصحيح جاء في تأكيد التفسير في صفوف القوم في الصلاة.

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: [كانت امرأة تُصلي خلف رسول الله ﷺ ، حسناء من أحسن الناس ، وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لأن لا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 403) ، وابن جرير في «التفسير» (15/ 19) ، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني في الصحيحة (2461).

(2) حديث صحيح. انظر «معالم التنزيل» (6/ 184 - منار) ، والمرجع السابق (ج 5) ص (593).

نظر من تحت إبطيه ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾⁽¹⁾.

وله أصل من حديث سفيان الثوري ، أخرجه الحاكم عن رجل عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (﴿الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: الصفوف المقدمة ، و﴿الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾: الصفوف المؤخرة)⁽²⁾.

وأخرج ابن مردويه عن داود بن صالح قال: [قال سهل بن حنيف الأنصاري: أتدرون فيم أنزلت: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾.. الآية؟ قلت: في سبيل الله ، قال: لا ، ولكنها في صفوف الصلاة]⁽³⁾.

وقد زعم ابن كثير رحمه الله في الحديث السابق - حديث الترمذي - نكارة شديدة ، ربما يعني أنه لا يعقل لأحد من المصلين التأخر للصف الآخر لينظر إلى امرأة. والجواب على ذلك بأن يقال: إذا ورد الأثر بطل النظر ، ويحتمل عندئذ أن يكون الناس المستأخرون من المنافقين أو ممن أسلم حديثاً ولم ترسخ آداب الإسلام في سلوكهم.

ومن جهة أخرى ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فمع أن المعنى المستفاد من سبب النزول يختلف قليلاً عما تدل عليه الآية بسباقها وسياقها ، فإن عموم اللفظ يتسع لذلك ، وقد اختار شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله حمل الآية على هذا العموم حيث قال: (وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصف لشأن النساء ، والمستأخرين فيه لذلك ، ثم يكون الله عز وجل عمّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق ، فقال جلّ ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم وما كانوا يعملون ومن هو حيّ منكم ، ومن هو حادث بعدكم أيها الناس ! وأعمال جميعكم ، خيرها وشرها ، وأحصينا جميع ذلك ، ونحن نحشرهم جميعهم فنجازي كلاً بأعماله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فيكون ذلك تهديداً ووعيداً للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء ، ولكل من تعدى حد الله وعمل بغير ما أذن له به ، ووعداً لمن تقدّم في الصفوف لسبب النساء وسارع إلى محبة الله ورضوانه في أفعاله كلها).

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3341) - أبواب تفسير القرآن - سورة الحجر ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2497) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2472).

(2) انظر: مستدرک الحاكم (353/2) ، والمرجع السابق (ج 5) ص (610).

(3) انظر: «الدر المنثور» (97/4) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (ج 5) ص (610) ، وهو شاهد للحديث السابق الذي رواه الترمذي والطيالسي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

قال قتادة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾: أي الأول والآخر). وقال عكرمة: (هذا من هاهنا ، وهذا من هاهنا). وعن عطاء ، عن ابن عباس قال: (وكلهم ميت ، ثم يحشرهم ربهم). وقال الحسن: (قال علي: قال داود: سمعت عامراً يفسر قوله ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن ربك حكيم في تدبيره خلقه في إحيائهم إذا أحياهم ، وفي إماتتهم إذا أماتهم ، عليم بعددهم وأعمالهم ، وبالحيي منهم والميت ، والمستقدم منهم والمستأخر). وقال قتادة: (كل أولئك قد علمهم الله ، يعني المستقدمين والمستأخرين).

26 - 38. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجْدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَتَّبِعُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨).

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن خلقه الإنسان من صلصال من طين ، والجنان من نار السموم ، وذكر خبر أمر الله الملائكة السجود لآدم وجدال إبليس المتكبر اللعين ، الذي كتب الله عليه لعنته إلى يوم الدين ، ثم أنظره فتنة للعالمين ، إلى يوم الوقت المعلوم.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

قال ابن عباس: (خلق آدم من صلصال من حمأ ومن طين لازب ، وأما اللازب: فالجيد ، وأما الحمأ: فالحمأة ، وأما الصلصال: فالتراب المرقق ، وإنما سمي إنساناً لأنه عهد إليه فني). وقال قتادة: (والصلصال: التراب اليابس الذي يسمع له

صلصلة). أو قال: (الطين اليابس له صلصلة). والحمأ: جمع حمأة ، وهو الطين المتغير إلى السواد. والمسنون الأملس.

والمقصود: أن الله تعالى خلق الإنسان الأول - آدم عليه السلام - من قبضة من تراب جمعها من كل ترب الأرض ، فجعلها في يده كالصلصال من الطين المتغير - إلى السواد - الأملس.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ۚ ﴾ [الرحمن: 14 - 15].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم: 20].

وفي سنن أبي داود والترمذي بسند صحيح عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض ، وبين ذلك ، والخيث والطيب ، وبين ذلك]⁽¹⁾.
وقوله تعالى: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾.

أي: وكان خلق إبليس - وهو أبو الجن - من قبل خلق الإنسان ، خلقه الله من نار السموم.

قال ابن عباس: (السموم الحارة التي تقتل). وقال الضحاك: (من لهب النار).

وقيل: (من أحسن النار). قال ابن كثير: (ومقصود الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام ، وطيب عنصره ، وطهارة مخبئه)⁽²⁾.

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4693) ، والترمذي (2955) ، وأحمد (4/400) ، والحاكم

(2/261 - 262) ، وأخرجه ابن حبان (6160) ، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(2) المحتد: الأصل والجوهر.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (226/8). وانظر مختصر صحيح مسلم (2169)

ص (578). وقوله: «مما وصف لكم»: أي من طين.

ثم ذكر تعالى تنويّه بذكر آدم عليه السلام في ملائكته ، وأمره لهم بالسجود له تشريفاً له وتكريماً ، وشمل الأمر إبليس الذي اعترته الحمية ، وتعزّز بخلقة النار ، واستوهم خلق الصلصال ، فأتبعه الله السخطة واللعنة وطرده من الجنة والرحمة ، فسأل الله النظرة ، فأعطاه سبحانه النظرة ، استكمالاً للبلية ، واستحقاقاً للسخطة إلى يوم الدين . وقد مضى تفصيل ذلك في أول سورة البقرة ، فله الحمد والمنة .

39 - 44. قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

في هذه الآيات: تعهّد إبليس إغواء ذرية آدم إلا عباد الله المخلصين ، الذين سيحميهم الله من محاولاته ومكره إلا من اتبعه من الغاوين . فإن جهنم موعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب قد كُتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس منه يلجون .

فقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ . أي: بسبب إغوائك . وقيل: أقسم بإغواء الله له .

وقوله: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ . قال ابن جرير: (لأحسننّ لهم معاصيك ، ولأحببنا إليهم في الأرض) .

وقوله: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . أي: لأصرفنهم عن سبيل الهدى والرشاد ، إلى سبيل الغي والضلال .

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ . قال الضحاك: (يعني: المؤمنين) . وقال قتادة: (هذه نبيّة الله تعالى ذكره) .

وفي التنزيل:

﴿ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[الإسراء: 62] .

ومن كنوز السنة المطهرة في آفاق مفهوم الآية أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح في الشواهد عن أبي سعيد

رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : [إنّ الشيطان قال : وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب تبارك وتعالى : وعزتي وجلالي : لا أزال أغفر لهم ما استغفروني] (1) .

الحديث الثاني : أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ قال : [وأمركم أن تذكروا الله تعالى ، فإن ذلك كمثّل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى] (2) .

الحديث الثالث : أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال : [إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم ، ولكن رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا ، إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتاب الله ، وسنة نبيه . . .] .

وأصله في صحيح مسلم من حديث جابر بلفظ : [إن الشيطان قد أيس أن يعْبُدَه المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم] (3) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

قال مجاهد : (الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه ، لا يعرج على شيء) . وقيل المعنى : المرجع إلى الله ثم الجزاء والحساب .

وعن ابن سيرين : (أنه كان يقرأ ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ يعني : رفيع) .

واختار ابن جرير القراءة الأولى ﴿ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ وهي الأشهر .

(1) صحيح لشواهد. أخرجه الحاكم (4/ 261) ، والبيهقي في «الأسماء» (ص 134) ، وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (1/ 146) ، وأحمد (3/ 29) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (104) ، فضيلة الاستغفار والذكر .

(2) حديث صحيح . رواه أحمد في «المسند» (4/ 202) ، والترمذي (2867) - (2868) ، في الأمثال ، باب ما جاء في مثل الصيام والصلاة والصدقة ، وهو جزء من حديث طويل .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (8/ 138) ، والترمذي (3/ 127) ، وأحمد (3/ 313) ، والحاكم باللفظ الأول ، وأخرجه أبو يعلى (2/ 577) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1608) .

والخلاصة في تأويل الآية:

التأويل الأول: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى ، وإليه تنتهي ، كما قال سبحانه : ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل : 9].

التأويل الثاني: أي مرجعكم كُلُّكُمْ إليّ ، وهو تهديد وتوعد من الله لإبليس ومن تبعه - ثم أجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : 14].

وكلاهما مما يحتمل من التأويل ، ويتسع له البيان الإلهي المعجز .
وقوله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْفَاوِينَ﴾ .
تأكيد على حماية الله تعالى عباده المؤمنين المخلصين من سبيل الشياطين .
قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : إن عبادي ليس لك عليهم حجة ، إلا من اتبعك على ما دعوته إليه من الضلالة ممن غوى وهلك) .
وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

تأكيد لمكان مستقر الطغاة والمجرمين ، وهي جهنم موعد الكفار أجمعين .
قال ابن كثير : (أي : جهنم موعدٌ جميع من اتَّبَعَ إبليس ، كما قال عن القرآن : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود : 17]) .
وقوله تعالى : ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ .

إخبار من الله تعالى عن جهنم ، أن لها سبعة أبواب ، قد كُتِبَ لكل باب منها جزءٌ من أتباع إبليس ، اختارهم الله لذلك الباب لولوج جهنم منه حسب أعمالهم وتبعاً لجرائمهم . قال قتادة : (هي والله منازلٌ بأعمالهم) .

قلت : ونار جهنم كما أن لها سبعة أبواب ، كذلك لها سبعون ألف زمام⁽¹⁾ .

ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : [يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزؤونها]⁽²⁾ .

(1) الزمام : ما يزم به الشيء ، أي يشد به ويربط .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (149/8) ، وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1975) ، كتاب صفة النار ، باب : في ذكر أزيمة النار .

45 - 50. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿١٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿١٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿١٨﴾ نِيعَ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۖ﴾.

في هذه الآيات: نَعَتْ الله حال المتقين ، فهم يوم الخلود في جنات وعيون ، يدخلونها بسلام آمنين ، لا غل ولا حسد ولا حقد في قلوبهم على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها أي تعب وما هم منها بمخرجين ، فإن الله هو الغفور الرحيم ، وإن عذابه هو العذاب الأليم .

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ - بيان للصورة المقابلة ، فأهل النار في جحيم وسموم ، وأهل الجنة في جنات وعيون . فإن جزاء التقوى الجنة .
وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ .

قال ابن كثير: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ ، أي: سالمين من الآفات ، مُسَلِّمًا عليكم ، ﴿ءَامِينَ﴾ أي: من كل خوف وفرع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء).
قلت: ويدخل أولاً السابقون السابقون ، ثم أصحاب اليمين .

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَوْهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْرُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: 40].

3 - وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١١﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: 10 - 12].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: يروي الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم؟ فقال: المهاجرون ، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون ، فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتهم؟ فيقولون: بأي شيء نحاسب وإنما كانت أسيافاً

على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك ؟ قال : فيفتح لهم فيقبلون فيها أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس⁽¹⁾.

وأما صفة دخول الزمر الجنة - فتدخل الزمرة الأولى ، ثم الزمرة الثانية . وتفصيل ذلك :

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً : [أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ، أنيتهم فيها الذهب ، وأمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوّة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مئخ سوقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا⁽²⁾].

الحديث الثالث : أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : [أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والثانية على لون أحسن من كوكب دري في السماء ، لكل رجل منهم زوجتان ، على كل زوجة سبعون حلة ، يبدو مئخ ساقها من ورائها⁽³⁾].

وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ .

قال علي رضي الله عنه : (إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم).

قال النسفي : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ ﴾ وهو الحقد الكامن في القلب ، أي إن كان لأحدهم غل في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم . قال : وقيل معناه : طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادد والتحابب ﴿ إِخْوَانًا ﴾ حال ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ كذلك قيل تدور بهم الأسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضاً).

(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (70/2) على شرط مسلم ، ورواه البيهقي وصححه الألباني ، انظر صحيح الجامع (95) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (853).

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (146/8) . وانظر مختصر صحيح مسلم (1956) ، (1957) ، وصحيح الجامع (2561) - (2563) ، ورواه البخاري وغيره .

(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (16/3) ، والترمذي (85/2 - 87) ، وانظر صحيح مسلم (146/8) ، وصحيح ابن حبان (2631) ، (2632).

أخرج البخاري وأحمد من حديث أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال :
[يخلص المؤمنون من النار ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقْتَصَرُ لِبَعْضِهِمْ
مِنْ بَعْضٍ ، مَظَالِمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ
الْجَنَّةِ] (1) .

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ .

أي: لا ينالهم تعب في الجنة ، بل هم في راحة دائمة ولذة مستمرة ، في إقامة
سرمدية لا منقصر لها ولا قاطع .

والنصب: التعب والمشقة والأذى ، وقد ورد ذكر نفي ذلك - في السنة - في شأن
خديجة رضي الله عنها في بيت خاص لها في الجنة .

فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة قال: [أتى جبريل النبي ﷺ فقال:
يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك
فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه
ولا نصب] (2) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ
لَا يَبْئَسُ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ] (3) .

وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ عِبَادِيَ أَفَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
الْأَلِيمُ .

جَمَعَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، وَعَلَيْهِمَا بِنَاءُ التَّوَازُنِ فِي الْعِبَادَةِ .

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:
سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِئَةً رَحْمَةً ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ
تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً ، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً ، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2440) ، وأحمد (13/3) ، وغيرهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3820) ، كتاب مناقب الأنصار ، وانظر صحيح مسلم (2434) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2836) ، كتاب الجنة ونعيمها ، باب في دوام نعيم أهل الجنة .

عند الله من الرحمة لم يئأس من الجنة ، ولو يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بكل الذي عند الله من العذاب لم يَأْمَنُ مِنَ النَّارِ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البزار بسند حسن عن أبي سعيد مرفوعاً: [لو تعلمون قَدَرُ رحمة الله لا تكلتم عليها].

ورواه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر مرفوعاً: [لو تَعْلَمُونَ قَدَرُ رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ ، لا تكلتم وما عَمِلْتُمْ مِنْ عَمَلٍ ، ولو عَلِمْتُمْ قَدَرُ غَضَبِهِ ما نفعكم شيء]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت ، فقال: كيف تجدك ؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله ، وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن ، إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمنه مما يخاف]⁽³⁾.

51 - 60. قوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۖ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۖ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ۖ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ۖ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۖ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۖ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۖ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا أَمْرًا تُهْرِجُهُ فَدَرْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ ۖ ﴾

في هذه الآيات: ذَكَرَ اللهُ خبر الملائكة الذين أرسلهم الله لاستئصال قوم لوط المجرمين ، فتنزلوا ضيوفاً عند إبراهيم ، فخاف منهم فبشروه بغلام عليم ، كما بشروه بهلاك قوم آثمين ، وبنجاة آل لوط إلا امرأته كانت من الغابرين .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6469) ، كتاب الرقاق ، باب الرجاء مع الخوف ، وانظر صحيح مسلم (2755) ، وسنن الترمذي (3542) ، ومسند أحمد (334/2) .

(2) حديث حسن . أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (1/193/2) ، وقال الهيثمي (213/10): «رواه البزار ، وإسناده حسن» . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2167) .

(3) حديث حسن . أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص 25/24) ، وابن أبي الدنيا كما في «الترغيب» (141/4) ، ورواه الترمذي وغيرهم .

فقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾. أي: أخبر عبادي - يا محمد - عن الملائكة الذين دخلوا ضيفاً على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حين بعثهم الله لإهلاك قوم لوط المجرمين .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾.

إخبار من الله سبحانه عن الملائكة الذين نزلوا على إبراهيم الخليل ﷺ ، فباشروه بالسلام ، لكنه ما لبث أن أوجس منهم خيفة حينما رأى أيديهم لا تصل إلى العجل السمين الحنيد الذي قربه إليهم ضيافة منه لهم . فقال: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ - أي خائفون .

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

أي قالوا له لا تخف ، ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات : 28] ، وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام .

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونُ﴾.

قال مجاهد: (عجب من كبره ، وكبر امرأته) .

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾.

قال ابن جرير: (قال ضيف إبراهيم له: بشرناك بحقّ يقين ، وعلم متاً بأن الله قد وهب لك غلاماً عليمًا ، فلا تكن من الذين يقنطون من فضل الله ، فيياسون منه ، ولكن أبشر بما بشرناك به واقبل البشري) .

وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

قال النسفي: (أي لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها) .

في التنزيل: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف : 87] .

ومن كنوز صحيح السنة في ذم القنوط من رحمة الله حديثان :

الحديث الأول: يروي الطبراني ورجاله ثقات عن ابن عباس : [أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: الشرك بالله ، والياس من رَوْحِ الله ، والأمن من مكر الله] (1) .

(1) إسناده صحيح . انظر تحقيق «فتح المجيد» - الأرنؤوط (422)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (492/1) - لتفصيل البحث .

الحديث الثاني: روى عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن مسعود قال: [أكبر الكبائر: الإشراف بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رُوح الله] (1). وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

إخبار من الله سبحانه عن سؤال إبراهيم لضيوفه - لما ذهب عنه الروح وجاءته البشرى - عن سبب قدومهم ومجيئهم له، فأخبروه بإرسال الله تعالى لهم إلى قوم لوط المجرمين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَالٌ لَّوْطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَنِيَّةُ ﴿٦٠﴾﴾.

قال ابن كثير: (أخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين. ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَنِيَّةُ﴾، أي: الباقيين (المهلكين).

61 - 66. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ مَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَيُّنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

في هذه الآيات: وصول الملائكة إلى لوط - عليه الصلاة والسلام - فأنكرهم ولم يعرفهم، فأخبروه بأمرهم ومهمتهم، وأمره بالخروج بأهله ليلاً فإن موعد القوم الصبح فقد قضى فيه انتهاء أمرهم.

فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ مَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ﴾.

إخبار من الله عن إنكار لوط - عليه السلام - للملائكة المرسلين في صورة شباب حسان الوجوه، أي: إنه أنكرهم ولم يعرفهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ - قال مجاهد: (بعذاب قوم

(1) حديث صحيح. أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن ابن مسعود. انظر: «فتح المجيد» (424) - تحقيق الأرناؤوط، والمرجع السابق (1/ 492) لمزيد من التفصيل.

لوط). قال ابن جرير: (فقلت له الرسل: بل نحن رسل الله جنناك بما كان فيه قومك يشكون أنه نازل بهم من عذاب الله على كفرهم به).

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

أي: أتيناك يا لوط باليقين من الله - أن العذاب نازل بقومك المجرمين - وإنا لصادقون في خبرنا ذلك لك.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

هو أمر الله للوط قبل حلول ساعة الانتقام: أن سر بأهلك ببقية من الليل ، وكن من ورائهم وهم أمامك ولا يلتفت منكم وراءه أحد. قال مجاهد: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لا يلتفت وراءه أحد ، ولا يُعَرِّج. وقال قتادة: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ قال: أمر أن يكون خلف أهله ، يتبع أدبارهم في آخرهم إذا مشوا).

قال ابن كثير: (يمشي وراءهم ، ليكون أحفظ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ: يمشي في الغزاة بما كان يكون ساقاً ، يُرْجِي الضعيف ، وَيَحْمِلُ الْمُنْقَطِعَ. وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ، أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم ، وذروهم فيما حلَّ بهم من العذاب والنكال ، ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل).

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾.

أي: تقدّمنا إليه في هذا أن دمارهم وقت الصباح ، وفرغنا له من ذلك الأمر. قال ابن زيد: (أوحينا إليه). وقال ابن عباس: (قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ يعني: استئصال هلاكهم مصبحين).

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: 81].

67 - 77. قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿١٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ

بَنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَمَّا سَكَرْنَاهُمْ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَآخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٢﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّا لَإِسْبِيلٌ مُّقِيمٌ ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾

في هذه الآيات: مَجِيءُ أهل سدوم طمعاً بالحصول على أضياف لوط لفاحشتهم ، واستنكارُ لوط ﷺ على قومه ونصيحته لهم ، ولكنهم أصروا على المضي في طلبهم ، فأناهم أمر الله فدمر عليهم بلدتهم ، وأمطرهم حجارة من السماء وجعلهم عبرة لمن بعدهم .

فقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ . أي: قدم أهل مدينة سدوم طمعاً بضياف لوط . قال قتادة: (استبشروا بأضياف نبي الله ﷺ لوط ، حين نزلوا لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر) .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ ﴿٧١﴾ وَالْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ .

أي: قال لهم لوط هؤلاء أضيافي فلا تخجلون ، وخافوا الله في عملكم ولا تذلوني ولا تهينوني فيهم بالتعرض للنيل منهم بمكره . قال القرطبي: (يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان ، ويجوز أن يكون من الخزية وهو الحياء والخجل) .

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال قتادة: (ألم نهك أن تضيف أحداً) . والمقصود أحد تأويلين:

1 - ألم نهك عن استضافة الغرباء - وكانوا يقصدونهم لفاحشتهم .

2 - أو لم نهك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

قال قتادة: (أمرهم نبي الله لوط أن يتزوجوا النساء ، وأراد أن يقي أضيافه ببناته) .

والمقصود: أرشدهم لوط - ﷺ - إلى نسائهم وإلى الزواج وترك الحرام ، وربما

كنى ببناته عن بنات قومه ، وقد تقدم بيان ذلك في سورة هود .

وقوله تعالى: ﴿ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَمَّا سَكَرْنَاهُمْ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ﴾ .

أي: أقسم تعالى بحياة نبيه - ﷺ - أن القوم كانوا غافلين عما ينتظرهم من العذاب ، وكذلك قومك يا محمد لو أصروا على تكذيبك ومخالفتك .

قال ابن عباس: (ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ ، وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالى ذكره: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾). وعن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال: (ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ ، قال: وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾). أو قال: (لَعَيْشُكَ ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يَمَادُونَ). وهي كلمة من كلام العرب ، لفى سكرتهم: أي في ضلالتهم يعمهون: أي يلعبون). وقال الأعمش: (لفى غفلتهم يترددون).

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾. أي: فأخذتهم صاعقة العذاب عند شروقهم. قال ابن جريج: (حين أشرقت الشمس ، ذلك مشرقين).

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

أي: فرفعنا القرية وقلبناها بمن فيها ، بعد مجيء الصوت القاصف عند شروق الشمس ، فجعلنا عالي أرضهم سافلها ، وأمطرناهم بحجارة من طين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾.

قال مجاهد: (للمتفرسين). وقال ابن عباس: (للناظرين). وقال قتادة: (للمعتبرين). قال ابن كثير: (أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسَّمه بعين بصره وبصيرته).

أخرج البزار والطبراني بسند جيد عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: [إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسُّم]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنهَا لَيْسَ بِلِمْفِيمٍ﴾.

قال قتادة: (بطريق واضح). وقال مجاهد: (مَعْلَم).

والمقصود: أن قرية سدُوم التي حلَّ بها قوم لوط ونشروا فيها فاحشتهم وقلبها الله فوق رؤوسهم وقذفهم بالحجارة حتى أصبحت بحيرة خبيثة منتنة ، هي قرية معلومة لقومك يا محمد ، مستمرة إلى اليوم بطريق معلم واضح.

(1) إسناده جيد. أخرجه البزار (3632)، والطبراني في «الأوسط» (2956)، ورجاله ثقات ، وحسنه الألباني - كما في صحيح الجامع - (2164).

كما في التنزيل: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا لَهُمْ عَلَيْهِمْ مُّصِيبَةٌ ۖ ﴿١٣٧﴾ وَيَأْتِلُ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصفات: 137 - 138].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إن في هلاكهم لعبرة للمؤمنين على مر الدهور وتعاقب الأيام. قال القرطبي: (أي: لعبرة للمصدقين).

78 - 84. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۖ ﴿٧٨﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَلِئَهُمَا لِيَإِمَامٍ مُّبِينٍ ۖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ۖ ﴿٨٠﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۖ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۖ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ۖ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۖ ﴿٨٤﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن ظلم قوم شعيب وانتقامه منهم ، وكذلك ثمود قوم صالح أصحاب الوادي المعرضين عن آيات ربهم ، فأخذتهم صيحة الهلاك وما أغنت عنهم بيوتهم ولا أموالهم ولا قوتهم .

فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ . المقصود: قوم شعيب وما كانوا عليه من ظلم . قال سعيد بن جبیر: (أصحاب الأيكة: أصحاب غِيْضَة). وقال الضحاك: (هم قوم شعيب ، والأيكة: الغيضة) . وقال قتادة: (والأيكة: الشجر الملتف) .

قال ابن كثير: (وكان ظلّمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرّجفة وعذاب يوم الطّلة ، وقد كانوا قريباً من قوم لوط ، بَعْدَهم في الزمان ، ومُسَامَتين لهم في المكان ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِئَهُمَا لِيَإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: طريق مبين . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: طريق ظاهر . ولهذا لما أُنذِر شعيب قومه قال في نِدَارَتِهِ إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89] .

وقال ابن جرير: (﴿وَلِئَهُمَا لِيَإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: وإن مدينة أصحاب الأيكة ، ومدينة قوم لوط . . لطريق يأتون به في سفرهم ، ويهتدون به ﴿مُبِينٍ﴾ يقول: يبين لمن اتّمسّ به استقامته ، وإنما جعل الطريق إماماً لأنه يُوَمُّ وَيُسَبِّعُ) .

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾. المقصود: ثمود قوم صالح عليه السلام. قال قتادة: (أصحاب الحجر: أصحاب الوادي).

وقال النسفي: (هم ثمود والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام، ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني بتكذيبهم صالحاً، لأن كل رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسول جميعاً، فمن كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً). وقال القاسمي: (ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام، فقد كذب الجميع. لاتفاقهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار).

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّبْنَاهُمْ مَا يَتِذَا فَكَاةً فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

قال القرطبي: (المراد الناقة، وكان فيها آيات جمة: خروجها من الصخرة⁽¹⁾، ودنو نتاجها عند خروجها، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعاً. ويحتمل أنه كان لصالح آيات آخر سوى الناقة، كالبر وغيره. ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي لم يعتبروا).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾. أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، وإنما هو أشرب واطر، وعبث وتكبر، يظنون أن تلك البيوت تدفع عنهم عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْحِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿فَأَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وعدوا العذاب، وقيل لهم: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام... يقول: فما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يجتروحون من الأعمال الخبيثة قبل ذلك). وقال ابن كثير: ﴿فَأَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. أي: ما كانوا يستغلونهم من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لثلاث ضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بتوصيات تخص الأقوام السابقة التي دكها الله

(1) أخرج الله الناقة لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتروا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: 65]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: 17].

بالعذاب ، ذكرها رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك حين بلغ ديار ثمود :

الوصية الأولى: لا تجوز السياحة في أماكن هلاك الأمم التي أنزل الله بها عذابه .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي كبشة الأنماري قال : [لما كان في غزوة تبوك تسارع الناسُ إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس : الصلاة جامعة ، قال : فأتيتُ رسول الله ﷺ وهو ممسك بغيره وهو يقول : ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم ، فناداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله ! قال : أفلا أذكركم بأعجب من ذلك؟! رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا ، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم بشيء] (1) .

الوصية الثانية: عبور تلك الأماكن عند الحاجة بسرعة وبكاء وتغطية للرؤوس .

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه - يعني لما وصلوا الحجر : وهي ديار ثمود فيما بين المدينة والشام - : [لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم] (2) .

وفي رواية : (ثم قَتَعَ رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي) .

وفي لفظ للبخاري : (ثم تَقَنَّعَ بردائه وهو على الرّحل) .

وفي لفظ لمسلم : (ثم زَجَرَ فأسرع حتى خَلَفَهَا) .

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (3/ 560) : (ومن هذا إسراعُ النبي ﷺ السير في وادي مُحَسَّرٍ بين مَنَى وعَرَفة ، فإنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل وأصحابه) .

والخلاصة : إن أماكن العذاب تركها الله في الأرض ليعتبر البشر ، فلا ينبغي المشي فيها والسياحةُ خلال آثارها ، بل الأليق بها أن يمر المسلم فيها مسرعاً خائفاً من الله أن ينزل بأمته ما أنزل بتلك الأمم ، من المصائب والدمار والنقم .

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (4/ 231) ، وانظر كتابي : السيرة النبوية (3/ 1532) .

(2) حديث صحيح . انظر الروايات المختلفة في صحيح البخاري (3381) - كتاب الأنبياء ، وفي صحيح مسلم (2980) - كتاب الزهد والرفائق ، وفي مسند أحمد (2/ 9) ، (2/ 58) .

الوصية الثالثة: عدم الشرب من بقية مياه تلك الأقوام أو استخدامها في الوضوء أو صنع الطعام.

ففي صحيح مسلم عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره: [أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها ، وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ، ويغلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة⁽¹⁾].

85 - 93. قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨٦ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمَدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾.

في هذه الآيات: إثبات الله تعالى خلقه السماوات والأرض بالعدل والإنصاف ، وأن الساعة قادمة فاصبر - يا محمد - على الدعوة واصفح الصفح الجميل . فربك الخلاق لا يعجزه شيء وسيجمع الناس من قبورهم إلى مشهد الحشر الكبير . لقد آتاك ربك فاتحة هذا القرآن العظيم ، وهي أعظم سورة في الكتاب الكريم ، فلا تتمنين ما بأيدي بعض القوم من الزينة الفانية والمتاع الزائل المهين . وتواضع لمن تبعك من المؤمنين ، وقل لمشركي قومك: إنما أنا نذير لكم مبين ، أنذركم نحو العقاب الذي أنزله الله تعالى على الأمم السابقة التي اقتسمت القرآن المنزل عليها فأمنت ببعضه وكفرت ببعضه وسيسألهم ربهم أجمعين ، عما كانوا يعملون .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2980) ، كتاب الزهد والرقائق . وانظر تفصيل هذا البحث والدروس والنتائج والأحكام الخاصة به في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة - (في أعقاب غزوة تبوك - (3/ 1530 - 1540)).

فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ .

أي: وما كان من خلق للسموات والأرض وما بينهما مما في أطباق ذلك إلا بالعدل والإنصاف ، لا بالظلم والجور. قال ابن جرير: (وإنما يعني تعالى ذكره بذلك: أنه لم يظلم أحداً من الأمم التي اقتصت قصصها في هذه السورة ، وقصص إهلاكها بما فعل به من تعجيل النعمة له على كفره به ، فيعذبه ويهلكه بغير استحقاق ، لأنه لم يخلق السموات والأرض وما بينهما بالظلم والجور، ولكنه خلق ذلك بالحق والعدل).

وفي التنزيل مما يشبه ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: 27].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 16 - 18].

3 - وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٩﴾ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 115 - 116].
وقوله: ﴿وَلَا تِلْكَ السَّاعَةُ لِأَيَّةٍ فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ .

أي: والساعة قادمة فاعف عمن آذاك منهم واصفح ، وأعرض عنهم إعراضاً جميلاً.
كما في التنزيل: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 89].

وعن مجاهد: ﴿فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ قال: هذا قبل القتال. وعن قتادة: (ثم نسخ ذلك بعد ، فأمره الله تعالى ذكره بقتالهم ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، لا يقبل منهم غيره).

ولا شك أن هذه الآية مكية ، وشرع القتال بعد الهجرة ، فيكون المفهوم كما ذهب مجاهد وقتادة أنه يرجع لأول الأمر ، ثم نسخ الأمر بقتال المشركين .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ .

تأكيداً لأمر قيام الساعة الذي يكذب به المشركون ، فالله تعالى هو الخلاق لا يعجزه شيء ، وهو القادر على جمع الأجساد بعد تفرقها في تراب الأرض .

وفي التنزيل :

- 1- قال تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيزٌ ﴾ [ق : 4] .
- 2- وقال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [يس : 81 - 83] .
- 3- وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ بَدِيلًا عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : 33] .

وفي سنن ابن ماجه ومسند أحمد بسند صحيح عن بسر بن جحاش القرشي مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : [يقول الله : يا ابن آدم أتئى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردتين وللأرض منك وئيد - يعني شكوى - فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأتئى أوان الصدقة] ⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ .

قال قتادة : (ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُنَّ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ ، وَأَنَّهُنَّ يُتَنَبَّأُ فِي كُلِّ قِرَاءَةٍ) . وفي رواية : (في كل ركعة مكتوبة أو تطوع) . وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ ، وَعَلِيٍّ ، وَابْنِ مَسْعُودٍ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَا) . وقيل : السبع المثاني هي السبع الطوال ، والقول الأول أصح وبه جاءت الأحاديث الصحيحة :

الحديث الأول : أخرج الدارقطني والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا قرأتم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فاقروا : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، إنها أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، و﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ إحداها] ⁽²⁾ .

وفي رواية : (إحدى آياتها) .

- (1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجه (2/ 157) ، والحاكم (2/ 502) ، وأحمد (4/ 210) ، وابن سعد (7/ 427) ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي وأقره الألباني - انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1143) .
- (2) حديث صحيح . أخرجه الدارقطني (118) ، والبيهقي (2/ 45) ، والدليمي (1/ 70) ، وإسناده صحيح . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1183) ، وصحيح الجامع (742) .

الحديث الثاني: روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المَعْلَى قال: [كنتُ أصلي في المسجد فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه حتى صليت ثم أتيت ، فقلت: يا رسول الله! إني كنتُ أصلي ، قال: ألم يقل الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي ، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله! إنك قلت لأعلمك أعظم سورة من القرآن. قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [الحمد لله رب العالمين ، أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، والقرآن العظيم]⁽²⁾.

وفي رواية للبخاري بلفظ: [أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم].

قال ابن كثير: (فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم ، ولكن لا يُنافي وصف غيرها من السبع الطُّول بذلك ، لما فيها من هذه الصفة ، كما لا يُنافي وصف القرآن بكمالِه بذلك أيضاً ، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى﴾ [الزمر: 23] ، فهو مثاني من وجه ، ومتشابه من وجه ، وهو القرآن العظيم أيضاً).

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾. قال مجاهد: (الأغنياء الأمثال الأشباه). وقال ابن عباس: (يُنهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه).

قال ابن جرير: (يقول: لا تَتَمَنَّينَ يا محمد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعاً للأغنياء من قومك ، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يتمتعون فيها ، فإن من ورائهم عذاباً غليظاً).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4474) ، وأحمد في المسند (211/3).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (1310) ، (1311) ، وانظر صحيح البخاري (4704) للرواية بلفظ: [أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم] ، ورواه الترمذي. وفي الباب عنده عن أبي هريرة عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، مثل أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي مَقْسُومَةٌ بيني وبين عَبدِي ، ولِعَبْدِي ما سأل]. انظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2499).

وقال القرطبي: (ومعنى ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمثالاً في النعم ، أي الأغنياء بعضهم أمثال بعض في الغنى ، فهم أزواج).

والمقصود: توجيه الله تعالى نبيه ﷺ إلى الاستغناء بهذا القرآن عما في أيدي القوم من زينة الدنيا الفانية ، ومتاعها الزائل.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾. قال النسفي: (أي لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام والمسلمون).

وقيل: لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل للعذاب.

وقوله: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال القاسمي: (أي تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم. وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء).

وأصل خفض الجناح من فعل الطائر ، فإنه إذا ضم فرخه إليه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ ، فكان ذلك مثلاً لتقريب الإنسان أتباعه.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾.

أي: قل يا محمد لمشركي قومك: إنما أنا نذير لكم قد أبان إنذاره لكم من البلاء وما ينتظر من العقاب للمتمادين في الشرك والكفر والضلال ، مثل العقاب الذي أنزله تعالى على الأمم السابقة التي اقتسمت القرآن المنزل عليها فآمنت ببعضه وكفرت ببعض.

قال ابن عباس: (هم اليهود والنصارى ، آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض).

وقال أيضاً: (هم أهل الكتاب ، جزؤوه فجعلوه أعضاء أعضاء ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه).

وقال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، أنبأنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ، قال: هم أهل الكتاب ، جزؤوه أجزاءً ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه.

وقيل: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ، أي: المتحالفين. الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم).

كما في التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [النمل : 49]. وذلك في شأن قوم صالح . قال مجاهد : (تقاسموا : تحالفوا) . وقال ابن زيد : (المقتسمون أصحاب صالح ، الذين تقاسموا بالله لنبيته وأهله) .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ [النحل : 38] .

3 - وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : 44] .

والخلاصة : كان من شأن المشركين في الأمم التي أرسل فيها الرسل أنهم لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه ، فسُئِلُوا مقتسمين . وهم الذين جعلوا القرآن المنزل عليهم أعضاء يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه حسب أهوائهم ، فجاء نبينا محمد ﷺ ينذر أمتَهُ بأمر من الله سبحانه ويحذرها من تقليد صنيع تلك الأمم .

وفي الصحيحين عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : [إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قومه فقال : يا قوم ، إني رأيتُ الجيشَ بعيني ، وإني أنا النذيرُ العريانُ ، فالتَّجَاءُ النَّجَاءُ ! فأطاعهُ طائفةٌ من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مَهْلِهِمْ فنجوا ، وكذَّبهُ طائفةٌ منهم فأصبحوا مَكَانَهُمْ ، فصَبَحَهُمُ الجيشُ فأهْلَكَهُمْ واجتَاحَهُمْ . فذلك مثلٌ من أطاعني وأتبع ما جئتُ به ، ومثلٌ من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحق] (1) .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعِينَ ﴾ ﴿١١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

قال مجاهد : (عن لا إله إلا الله) . وقال أبو العالية : (يُسألُ العبادُ كلهم عن خَلَّتَيْنِ يوم القيامة : عما كانوا يعبدون ، وعما أجابوا المرسلين) .

قال البخاري : (وقال عدة من أهل العلم في قوله : ﴿ فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعِينَ ﴾ ﴿١١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ عن لا إله إلا الله) .

قال النسفي : (أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحداً واحداً من هؤلاء المقتسمين عما قالوه في رسول الله ﷺ أو في القرآن أو في كتب الله) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6482)، (7283)، ومسلم (1283)، وأبو يعلى (7310) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : 65].

2 - وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : 74].

3 - وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاؤِ الَّذِينَ رَعِمْتُمْ فَدَعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ [الكهف : 52].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول : أخرجه الترمذي بسند صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم⁽¹⁾.

الحديث الثاني : أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله يئذي المؤمن فيضع عليه كفه⁽²⁾ ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : نعم أي رب ، حتى قرّره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيُعطي كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾]⁽³⁾.

الحديث الثاني : روى النسائي ورجاله ثقات عن أنس مرفوعاً : [إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، أحفظ ذلك أم ضيع؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته]⁽⁴⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (67/2) من حديث ابن مسعود ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (946).

(2) أي : حفظه وستره .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2441) ، ومسلم (2768) ، وأخرجه أحمد (74/2) .

(4) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «عشرة النساء» (2/89) ، وابن حبان (1562) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1636) ، وصحيح الجامع (1770).

94 - 99. قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٩٤ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾.

في هذه الآيات: مَجِيءُ أمر الله تعالى إلى رسوله ﷺ وهو بمكة بالصدع بالحق والجهر بالدعوة والخروج إلى الناس فقد كفاك ربك أمر المستهزئين ، الذين أصروا أن يعيشوا مشركين ، فأنت في حماية ربك فلا يضيق صدرك بما يقولون ، واستعن على أمر ربك بالتسبيح والسجود واعبد ربك حتى يأتيك الموت وهو اليقين .

قال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: (ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه).

وقال الفراء: (أراد فاصدع بالأمر أي أظهر دينك).

وأصل الصَّدْعُ في كلام العرب: الشَّقُّ ، وَتَصَدَّعَ القوم أي: تفرقوا ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُصَدَّعُونَ﴾ أي يفرقون يوم القيامة فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير .

فالأية لها تأويلان محتملان:

التأويل الأول: أي فرَّق جمعهم وكلمتهم يا محمد بأن تدعوهم إلى التوحيد ، اصدع القوم بهذا الوحي فريقين ، فإنهم يفرقون بأن يجيب بعضهم ويعاند آخرون .

قال القرطبي رحمه الله: (أي تصدع جماعة الكفار).

التأويل الثاني: الصدع بمعنى الجهر . قال الرازي: (وصدع بالحق تكلم به جهاراً). ومنه قول ابن عباس: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ، يقول: فأمضه . يقول: افعل ما تؤمر . وقال مجاهد: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: أي: بالقرآن . اجهر بالقرآن في الصلاة .

قال ابن القيم رحمه الله: (دعا رسول الله ﷺ إلى الله مستخفياً ثلاث سنين ثم نزل عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾).

وخلاصة المعنى: بلغ - يا محمد - ما أنزل إليك من ربك من الوحي الكريم ، ولا تأبه ولا تلتفت لمحاولات المشركين ، فإن الله كافيك وحافظك منهم .

كما في التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الرِّسُولُ بِلَغٍ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَكَ تَفْعَلَ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : 67] .

2 - قال تعالى : ﴿ وَذُؤا لَوْ تَذَنُّهُنَّ فَيُذْهِتُونَ ﴾ [القلم : 9] .

وفي صحيح مسلم - من حديث قبيصة في بلاغ النبي ﷺ عشيرته وقومه - قال : [يا بني عبد مناف ، يا بني عبد مناف ! إني نذير ، إنما مثلي ومثلكم ، كمثل رجل رأى العدو ، فانطلق يريد أهله ، فخشى أن يسبقوه إلى أهله ، فجعل يهتف : يا صباحاه ، يا صباحاه ! أُنْتُمْ أُنْتُمْ] ⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : إنا كفيناك المستهزئين يا محمد ، الذين يستهزئون بك ، ويسخرون منك ، فاصدع بأمر الله ، ولا تخف شيئاً سوى الله ، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك ، كما كافاك المستهزئين ، وكانوا رؤساء المستهزئين قوماً من قريش معروفين) .

قال سعيد بن جبیر : (هم خمسة من رهط قريش : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وأبو زمعة ، والحارث بن عيطلة ، والأسود بن قيس) .

وقيل : كانوا ثمانية . قال ابن عباس : (كلهم مات قبل بدر) .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (تهديدٌ شديد ، ووعدٌ أكيد ، لمن جعل مع الله معبوداً آخر) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّا كَيِّفُ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ فَسَيَعْبُدُ مُحَمَّدٌ رَبَّكَ وَكَانَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ .

أي : إنا لنعلم - يا محمد - كم يضيق صدرك وينقبض من أذى قومك لك ، ومن محاولات مكرهم بدينك وأصحابك ، فلا يهيدئك ذلك ولا يمنعك من الجهاد في تبليغ دعوة الحق ، واستعن على ذلك بكثرة الذكر والصلاة والدعاء .

قال النسفي: (فافزع فيما نابك إلى الله - وافزع إلى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود - يَكْفِكَ ويكشف عنك الغم).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ ﴿١﴾ قُلْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل: 1 - 5].

2 - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَبَابَكَ فَطَفِّرْ ﴿٤﴾ وَالْجَزْءَ فَأَهْجِرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر: 1 - 7].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم والنسائي عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: [أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد ، فأكثرُوا الدعاء⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن نعيم بن هَمَّار: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [قال الله: يا ابن آدم ، لا تعجز عن أربع ركعاتٍ من أول النهار أكفك آخره]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أحمد والطبراني بسند حسن عن حذيفة رضي الله عنه قال: [كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى]⁽³⁾. وفي رواية: (فزع إلى الصلاة).

الحديث الرابع: أخرج ابن حبان بسند حسن عن علي رضي الله عنه يقول: [لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم ، غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح]⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واعبد ربك حتى يأتيك الموت الذي هو موقنٌ به .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (482) ، كتاب الصلاة ، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (723) ، و(421/2).

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (1289) ، وأحمد (286/5) ، وإسناده حسن صحيح .

(3) حديث حسن . أخرجه أحمد (388/5) ، والطبري (850) ، وابن حبان (1975) ، وغيرهم .

(4) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (125/1) ، (138/1) ، وابن حبان في «صحيحه» (2257) بإسناد حسن ، رجاله رجال الصحيح غير حارثة ، وهو ثقة .

قال ابن جرير: (وقيل يقين ، وهو موقن به). وقال البخاري: (قال سالم - يعني ابن عبد الله بن عمر - ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ : الموت).

وفي التنزيل إخبار عن أهل النار - حين قالوا: ﴿لَوْ نَكُنُ مِنَ الْمُصْلِينَ﴾ ﴿١٦﴾ وَلَوْ نَكُنُ نَاطِقِينَ ﴿١٧﴾ وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَاطِئِينَ ﴿١٨﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٢٠﴾ [المدثر: 43 - 47].

وفي صحيح البخاري عن أمِّ العلاء - امرأة من نساء الأنصار بايعت النبي ﷺ -: [أن عثمان بن مظعون طارَ لَهُ سَهْمُهُ فِي السُّكْنَى حِينَ اقْتَرَعَتِ الْأَنْصَارُ سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ ، قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ: فَسَكَنَ عِنْدَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فَاشْتَكَى فَمَرَّضْنَاهُ ، حَتَّى إِذَا تُوفِّيَ وَجَعَلْنَاهُ فِي ثِيَابِهِ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أبا السائب ، فَشَهِدْتَنِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ . فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟ فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ وَاللَّهُ الْيَقِينُ ، وَإِنِّي لِأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ ، وَاللَّهُ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِهِ . قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا ، فَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ ، قَالَتْ: فَنِمْتُ فَرَأَيْتُ لِعُثْمَانَ عَيْنًا تَجْرِي فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ذَلِكَ عَمَلُهُ (1).

والخلاصة: هذا رسول الله ﷺ قد أمره الله بعبادته حتى آخر لحظة من حياته ، وهو خير البشر قاطبة ، وفي هذا ردٌّ على الزنادقة الذين يزعمون أنهم إذا وصلوا إلى اليقين - ويعنون بذلك المعرفة - رُفِعَ عنهم التكليف ، فنعوذ بالله من الانحراف عن منهاج النبوة في القول والعمل ، ونسأل الله الثبات على الدين الحق إلى يوم نلقاه ، إنه سميع قريب .

تم تفسير سورة الحجر
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2687)، كتاب الشهادات ، وأخرجه كذلك برقم (1243) ، (3929) ، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (7634) ، وأحمد (436/6).

دروس ونتائج وأحكام

- 1- تمنى الكفار لو كانوا مسلمين ، حين يعرضون على نار الجحيم .
- 2- تعهد الله حفظ كتابه الكريم ، من التبديل والتحريف ومكر الماكرين .
- 3- اعتبار الكفار المعجزات سحراً ، فهم يسألونها ثم يمكرون مكرأ .
- 4- الشهب حرس السماء يمنعون عنها استراق الشياطين السمع .
- 5- الرياح أنواع: المبشرة ، والمثيرة ، والمؤلفة ، والملقحة .
- 6- الملائكة خلقت من نور ، والجأن من نار ، والبشر من تراب .
- 7- تعهد إبليس غواية بني آدم ، ومنع الله تسلطه على عباده المخلصين .
- 8- أهل الجنة لا غل بينهم ولا حقد ولا حسد ، والمؤمن بين الخوف والرجاء .
- 9- ﴿لَعَنَرُكُ﴾ - ما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ .
- 10- الواجب التقنع والإسراع والبكاء أو التباكي عند المرور بديار المعذبين .
- 11- الفاتحة هي السبع المثاني لأنها تنثى في كل ركعة .
- 12- إقسام الله بنفسه الكريمة ليسألن الناس أجمعين ، عما كانوا يعملون .
- 13- الأمر بالصدع بالحق والجهر بالدعوة ماض إلى يوم الدين .
- 14- التسبيح والسجود والقيام خير معين على مواجهة أعداء هذا الدين .
- 15- اليقين عند الزنادقة: أن يتيقن العبد أنه صار إلهاً ويسقط عنه التكليف ، وإنما اليقين في الآية هو الموت ، والنبي ﷺ - ومن تبعه من باب الأولى - مأمور بالعبادة حتى بلوغ الموت وهو اليقين .



16



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (128)

موضوع السورة

- بَسْطُ النِّعَم ، والتحذير من النقم -
«العسل - متبوع النحل - فيه شفاء للبدن»

- منهاج السورة -

- 1 - تأكيد الله تعالى وقوع الساعة بصيغة الماضي ليتدارك الناس أمرهم قبل أن تفاجئهم .
- 2 - اصطفاء الله من عباده رسلاً كما يشاء ، فله الخلق والأمر ، والبشرى للمتقين ، والخزي والندامة على المشركين .
- 3 - امتنان الله تعالى على الإنسان بتسخير الأنعام له ، وجعل فيها المنافع والدفء والزينة والمراكب ويخلق ما لا تعلمون .
- 4 - امتنان الله تعالى على عباده بنعمة الماء والشجر وأصناف الثمرات لعلمهم يتفكرون .
- 5 - امتنان الله كذلك على عباده بنعمة الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، والبحار والفلك واللحم والحلي ، والجبال والأنهار ، والاهتداء بالنجوم ، وغير ذلك من النعم التي لا تُحصى .

- 6 - إعلام الله تعالى عباده أنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، وتحقير الأوثان التي يعبدونها بعضهم .
- 7 - إثبات كفر المشركين ، وحملهم أوزار من تبعهم من المبطلين ، وشقوتهم يوم الدين .
- 8 - ثناء الله تعالى على المحسنين ، ودخولهم الجنة في سلام آمين .
- 9 - استخفاف الله بالمشركين ، في اتباعهم سنن الذين من قبلهم من المستهزئين .
- 10 - ذم الله المشركين احتجاجهم بالقدر على كفرهم ، وثناؤه تعالى على المرسلين في دعوتهم أفراد الله بالتعظيم ، ونبذ الطاغوت وسبل الشياطين .
- 11 - تسلية النبي ﷺ بأن الله لا يهدي من يفضل ومالهم من ناصرين ، وأن قوله لشي إذا أراد وجوده: كن فيكون .
- 12 - ثناء الله تعالى على المهاجرين ، الذين ظلموا في سبيل الله وصبروا وكانوا من المتوكلين .
- 13 - إثبات رجولة الأنبياء ، والأمر بسؤال أهل العلم لفهم الدين ، وإثبات نزول السنة لتبيان مجمل القرآن .
- 14 - تهديد المشركين بالخسف والعذاب ، إن لم يؤمنوا بهذا الكتاب ، فكل شيء خلقه الله في هذا الكون في سجود له وتعظيم ، والملائكة يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .
- 15 - إثبات الوحدانية لله العظيم ، فله ما في السماوات والأرض وله الدين الحق المبين ، وما بكم من نعمة فمن الله المنعم الكريم ، الذي إن مسككم الضر فإليه تجأرون ، وإن كشفه عنكم فأكثركم يشركون .
- 16 - إثبات جهالة المشركين ، في صرف الأموال للأصنام ووأد بناتهم وجعل البنات لله ولهم ما يشتهون ، والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .
- 17 - تأخير الله مؤاخذه الناس بظلمهم ، والمشركون غارقون في أهوائهم ، وقد أنزل الله هذا القرآن على رسوله تبياناً ، وهدى ، ورحمة للمؤمنين .
- 18 - امتنان الله على العباد بنعمة الماء والأنعام ، واللبن والنخيل والأعناب .
- 19 - أمر الله إلى النحل اتخاذ البيوت من الجبال والشجر ، وإلهامها الأكل من كل الثمر ، وإخراج العسل الذي فيه شفاء للناس .

- 20 - إثبات الخلق والحياة وتصريف العمر لله ، وكذلك التفضيل في الرزق والولد ، والإنعام بالأزواج والبنين والحفدة ، والمشركون بنعمة الله يكفرون .
- 21 - ذمُّ الله المشركين ، وتمثيل الفرق بين المؤمنين والكافرين .
- 22 - إثبات أمر الغيب والساعة لله ، وامتنان الله على العباد بالسمع والأبصار والأفئدة ، وفي تسخير الطيور وحملها في جو السماء آيات لقوم يؤمنون .
- 23 - امتنان الله على عباده بنعمة البيوت والسكن وجلود الأنعام ، ونعمة الظلال والجبال والسرابيل وغير ذلك .
- 24 - تحذير الله عباده اليوم الموعود ، يوم يبعث الله فيه الشهود ، والخزي ومضاعفة العذاب على المشركين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون .
- 25 - اختصاص الله نبيّه بالشهادة على الأمم ، وبالقرآن الذي يحمل الهدى والرحمة ويأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفواحش والظلم والطغيان .
- 26 - إثبات قهر مشيئته تعالى كل مشيئة ، والتحذير من اتخاذ الأيمان خديعة ، والشراء بعهده تعالى ثمناً قليلاً .
- 27 - تبشير المؤمنين أهل الأعمال الصالحة ، بحياة طيبة في الدنيا والآخرة .
- 28 - الأمر بالاستعاذة من الشيطان ، عند تلاوة القرآن ، والشيطان ليس له سلطان على أهل الإيمان ، بل على أتباعه من أهل الشرك والطغيان .
- 29 - ضعف عقول المشركين ، أمام منهج التشريع في القرآن الكريم ، الذي نزل به الروح الأمين ، فيقولون إنما يعلمه بشر أعجمي وهذا لسان عربي مبين .
- 30 - استثناء المكروه على الكفر من الوقوع في الكفر ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فله عذاب أليم .
- 31 - إخبار عن بعض المستضعفين بمكة الذين وآتوا المشركين على الفتنة ، ثم تمكنوا من الهجرة ، والله غفور رحيم .
- 32 - إخبار عن طبيعة مخاصمة النفوس يوم القيامة بشتى الوسائل قبل نزول القصاص .
- 33 - سنة الله في القرى الظالم أهلها ، ونزول الخوف والجوع والعذاب .
- 34 - تقريب الله الحلال الطيب ، وتحذيره الحرام الخبيث ، والافتراء بالتحليل والتحرير .

- 35 - استحقاق اليهود التضيق عليهم بما كسبت أيديهم ، وفتحته تعالى باب التوبة للمؤمنين الراجين أن يعفو عنهم ، والله غفور رحيم .
- 36 - ثناء الله على خليله إبراهيم ، فقد كان حنيفاً ولم يك من المشركين ، بل كان إمام الشاكرين .
- 37 - رفعُ الله ذكر إبراهيم ، وأمره نبينا بمتابعة ملته ملة التوحيد لله والتعظيم .
- 38 - إضلال الله اليهود عن يوم الجمعة فاختروا السبت يوم عيد لهم ، والله يفصل يوم القيامة بينهم .
- 39 - أمرُ الله بالتماس طريق الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله ، والله يهدي من يشاء وهو أعلم بالشاكرين . ودعوة للعدل في الاقتصاص والصبر خير للصابرين .
- 40 - المكر لا يحقق إلا بأهله الماكرين ، والله تعالى في عون المتقين المحسنين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1-9. قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ أَمُرُّ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ① يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ② خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ④ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ⑦ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑧ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايَزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ⑨ .

في هذه الآيات: تأكيدُ الله تعالى وقوع الساعة بصيغة الماضي لِيَهْدَ بذلك عزيمة المستعجلين المشركين. إنه تعالى ينزل الملائكة بالوحي على من يشاء من عباده فله الخلق والأمر فالبشرى للمتقين والخزي على المشركين. لقد خلق الإنسان من نطفة من ماء مهين، فلما ترعرع وكبر صار لربه المنعم كالخصم المبين، وكذلك خلق سبحانه الأنعام وجعل فيها المنافع والدفء والزينة وغير ذلك لقوم يفقهون. وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة ويخلق من المراكب ما لا تعلمون. كل ذلك ليهتدي الخلق إلى ربهم فيعظموه ويشكروه ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

فقوله: ﴿أَنَّىٰ أَمُرُّ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ - ردُّ على بعض المشركين الذين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم استهزاءً وتكديباً. فأتى بصيغة الماضي ليدل على تأكيد وقوع الساعة لا محالة، وأنه عن قريب سيكون بمنزلة ما مضى من الأحداث.

وفي التنزيل :

- 1 - قال تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابِ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۚ يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: 53 - 54].
- 2 - وقال تعالى: ﴿يَسْتَغْلِبُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: 18].
- 3 - وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1].
- 4 - وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: 1].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق مفهوم الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرجه الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قالا : قال رسول الله ﷺ : [يُوتَى بالبعد يوم القيامة فيقول له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك تراساً وتزنج ، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول : لا . فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني] ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [يُوتَى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال : يا ابن آدم ! هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول : لا والله يا رب ! ..] الحديث ⁽²⁾.

وقوله : ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ - تنزيه الله تعالى عن الشرك الذي كان عليه العرب ومن يدين بمثله من غيرهم .

وقوله : ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ . قال ابن عباس : ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ﴾ يقول : بالوحي . وقال قتادة : (بالوحي والرحمة) . أو قال : (يقول : ينزل بالرحمة والوحي من أمره ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيصطفي منهم رسلاً) .

وفي التنزيل : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: 52].

قال القرطبي : ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ . أي : على الذين اختارهم الله للنبوة .

- (1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في الجامع - حديث رقم - (2558) - أبواب صفة القيامة - وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1978) .
- (2) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1986) - وهو جزء من حديث أطول .

وفي التنزيل :

- 1 - قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : 75].
- 2 - وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124].
- 3 - وقال تعالى: ﴿ يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ [غافر : 15].

وفي شعب البيهقي بإسناد حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [صلوا على أنبياء الله ورسله ، فإن الله بعثهم كما بعثني]⁽¹⁾.

وله شاهد عند ابن عساكر بسند حسن من حديث وائل بن حجر بلفظ: [صلوا على النبيين إذا ذكروني ، فإنهم قد بُعثوا كما بُعثت].

وقوله: ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ . قال قتادة: (إنما بعث الله المرسلين أن يوحد الله وحده ، ويُطاع أمره ، ويجتنب سخطه).

والمقصود: بعث الله الرسل لينذروا البشر أن لا يحيدوا عن لا إله إلا الله ، فهي منهاج التقوى والنجاة في الدنيا والآخرة.

وفي التنزيل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار]⁽²⁾.

وله شاهد عنده وفي المسند من حديث عثمان مرفوعاً: [من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة].

وفي الصحيحين عن عتب بن مالك عن النبي ﷺ قال: [إن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل]⁽³⁾.

وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ .

(1) حديث حسن . انظر تخريج «فضل الصلاة» (42) - الألباني ، وصحيح الجامع (3675) - (3676).

(2) حديث صحيح . رواه مسلم (93) - كتاب الإيمان . وانظر للشاهد صحيح مسلم (26) ، ورواه أحمد في المسند . انظر صحيح الجامع (6428).

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (206/11) ، وأخرجه مسلم (33) - كتاب الإيمان .

إِخْبَارٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ وَمَا فِيهِنَّ ، وَقَدْ خَلَقَهُنَّ بِالْحَقِّ لَا لِلْهَزْلِ وَاللَّعِبِ ، فَكَيْفَ يَشْرِكُ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ ، وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مَا لَا يَخْلُقُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ ، ثُمَّ كَانَ خَلْقُ الْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ الْمَهِينِ ، فَلَمَّا تَرَعَرَعَ وَكَبُرَ إِذَا هُوَ لِرَبِّهِ خَصِيمٌ مُبِينٌ ، يَكْفُرُ بِنِعْمَةِ وَيَجْحَدُ أَلُوْهُيَّتِهِ وَيَتَّبِعُ سَبِيلَ الشَّيَاطِينِ ، وَيَحَارِبُ الصَّالِحِينَ وَالْمُرْسَلِينَ .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۖ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظْمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: 77 - 79] .

2 - وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۚ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۚ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۚ ﴾ [الفرقان: 54 - 55] .

وفي صحيح سنن ابن ماجة ومسند الإمام أحمد عن بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ قَالَ: [بَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كَفِّهِ ، ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ ، أَنَّى تُعْجِزَنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟! حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوْانُ الصَّدَقَةَ] (1) .

وقوله تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

قال ابن عباس: (يعني بالدفء: الثياب ، والمنافع: ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة) . وقال أيضاً: ﴿ دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ ﴾ ، نَسْلُ كُلِّ دَابَّةٍ) .

وعن مجاهد: ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ قال: لباس ينسج ، ﴿ وَمَنْفَعٌ ﴾: مركب ولحم ولبن) . وقال أيضاً: (نتاجها وركوبها وألبانها ولحومها) . وقال قتادة: ﴿ دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ ﴾ ، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبُلْغَةٌ) .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَيْثُ تَرِيحُونَ وَحَيْثُ تَسْرَحُونَ ﴾ .

قال القاسمي: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ أي زينة ﴿ حَيْثُ تَرِيحُونَ ﴾ أي تردونها من

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة (2707) ، وأحمد (210/4) ، وصَحَّحَ إِسْنَادُهُ الْبُوصَيْرِيُّ فِي «الزوائد» ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1099) .

مراعيها إلى مُراحها⁽¹⁾ - وهو مقرها في دور أهلها بالعشي - ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي تخرجونها بالغداة إلى المراعي).

وقال الزمخشري: (مَنَّ الله بالتجمل بها كما مَنَّ بالانتفاع بها. لأنه من أغراض أصحاب المواشي. بل هو من معازمها. لأن الرعيان، إذا روحوها بالعشي، وسرحوها بالغداة، فزيت بإراحتها وتسريحها الألفية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، آنست أهلها وفرحت أربابها. وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس. ونحوه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: 8] ﴿يُؤَرِّى سَوَاءً تَكُمُ وَرِيثًا﴾ [الأعراف: 26]. فإن قلت: لم قدمت الإراحة على التسريح؟ قلت: لأن الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون، حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها) انتهى.

وقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ كُنْتُمْ بِبَلِيغِهِ إِلَّا يَشِقَّ الْإِنْفُسُ﴾. قال عكرمة: (لو تكلفونه لم تبلغوه إلا بجهد شديد). وقال قتادة: (يقول: بجهد الأنفس).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾. أي ذو رحمة بكم، لتشكروه على نعمه عليكم، فيزيدكم من كرمه وفضله.

وقوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾. قال ابن عباس: (هذه للركوب، ﴿وَاللَّاتَّعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: هذه للأكل). قال النسفي: (عطف على الأنعام، أي وخلق هذه للركوب والزينة). وقال القرطبي: (ولما أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام. وقيل: دخلت ولكن أفردا بالذكر لما يتعلق بها من الركوب، فإنه يكثر في الخيل والبغال والحمير).

قلت: والعطف بين البغال والخيول والحمير لا يقتضي التساوي في حكم الأكل، فإن النهي جاء بالنص الصحيح عن أكل لحوم البغال والحمير، والإذن في أكل لحوم الخيل. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

(1) سمي المكان المراح، لأنها تراح إليه عشيًا، فتأوي إليه، يقال: أراح فلان ماشيته. ويقال: سرحت الماشية إذا خرجت للمرعى. فالسرح بالغداة، والإراحة بالعشي.

[نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن في لحوم الخيل]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: [ذبحنا يوم خيبر الخيل ، والبغال ، والحمير . فهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ، ولم ينهنا عن الخيل]⁽²⁾.

الحديث الثالث: روى مسلم في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: [نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَسًا فَأَكَلْتَاهُ وَنَحَرْنَا بِالْمَدِينَةِ]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. أي: من أمثال تلك المخلوقات وما يقوم مقامها في الركوب والنقل. ويدخل في ذلك جميع أنواع وسائل النقل المشاهدة ، كالسيارات والطائرات والسفن والقطارات وغير ذلك مما فتح الله به على الإنسان وسخره له.

وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايَزٌ﴾. انتقل من السُّبُلِ الحِسِّيَّةِ إلى السُّبُلِ الدِّينِيَّةِ والمعنوية⁽⁴⁾ ، فكما أن الأنعام للركوب وحمل الأثقال إلى الأسفار البعيدة الشاقة ، فكذلك طرق الهداية ومسالك الناس في هذه الحياة ، فإنه ليس يوصل إلى الله تعالى منها إلا طريق الحق ، وهو الطريق الذي ارتضاه الله للمرسلين ، وأمر بسلوكه عباده المؤمنين.

قال ابن عباس: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: على الله البيان أن يبين الهدى والضلالة). وقال مجاهد: (طريق الحق على الله). وقال قتادة: (يقول: على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته). وقال ابن زيد: ﴿السَّبِيلُ﴾: طريق الهدى). وقال الضحاك: (يقول: على الله البيان ، يبين الهدى من الضلالة ، ويبين السبيل التي تفرقت عن سبله ، ومنها جائز). وعن ابن عباس: ﴿وَمِنْهَا جَايَزٌ﴾ يقول:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4219) ، (5520) ، ومسلم (1941) ، وأحمد (361/3) ، وأخرجه أبو داود (3788) ، والنسائي (201/7) ، وابن حبان (5273).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (3789). انظر صحيح سنن أبي داود (3219) - كتاب الأطعمة - باب في أكل لحوم الخيل ، ورواه أحمد في المسند (356/3) ، والبيهقي (327/9) ، وصححه الحاكم (235/4) ووافقه الذهبي.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1942) ، وابن ماجه (3190) ، وأحمد (345/6) ، وابن حبان (5271) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

(4) وهذا وارد في القرآن ، كقوله تعالى: ﴿وَتَكْرُوهُ وَأَقَاتُ خَيْرَ الزَّادِ النَّفْقَى﴾ [البقرة: 197] ، وكقوله: ﴿يَنْتَقِ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسُورَى سَوَاءَ تَكْمُ وَرَيْشًا وَلِيَأْسَ النَّفْقَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: 26].

الأهواء المختلفة). وقال قتادة: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾: أي من السبل ، سبل الشيطان . وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «ومنكم جائر ولو شاء الله لهداكم أجمعين» .

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: ولو شاء الله للطف بجميعكم أيها الناس بتوفيقه ، فكنتم تهتدون ، وتلزمون قصد السبيل ، ولا تجورون عنه ، فتتفرون في سبل عن الحق جائزة) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ جَمِيعًا﴾ [يونس : 99] .

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٥٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ لَخَلْقُهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118 - 119] .

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [إن الله لو شاء أن لا يُعصى ما خلق إبليس] (1) .

وفي لفظ عند البيهقي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال النبي ﷺ لأبي بكر: [يا أبا بكر! لو أراد الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس] .

10 - 11 . قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

في هذه الآيات : امتناناً الله تعالى على عباده بنعمة الماء والشجر ، والزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، وأصناف أخرى من الثمرات ، جعلها بين أيديهم وسخرها لمنفعتهم وسرورهم لعلهم يتفكرون .

فقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ . قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: والذي أنعم عليكم هذه النعم ، وخلق لكم الأنعام والخيل وسائر

(1) حديث صحيح لغيره . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 92) ، والبيهقي في «الأسماء» (157) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1642) .

البهائم لمنافعكم ومصالحكم ، هو الرب الذي أنزل من السماء ماءً ، يعني : مطراً لكم من ذلك الماء ، شراب تشربونه ، ومنه شراب أشجاركم ، وحياة غروسمكم ونباتها).

وقوله : ﴿ فِيهِ شَيْمُوتٌ ﴾ . قال ابن عباس وعكرمة وقتادة : (أي : ترعون). ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعي . وقال الضحاك : (ترعون أنعامكم). وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ شَيْمُوتٌ ﴾ يقول : شجر يرعون فيه أنعامهم وشاءهم).

وقوله : ﴿ يُثَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ الآية . قال ابن كثير : (أي : يُخْرِجُهَا مِنَ الْأَرْضِ بِهَذَا الْمَاءِ الْوَاحِدِ ، عَلَى اخْتِلَافِ صُنُوفِهَا وَطَعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا وَرَوَائِحِهَا وَأَشْكَالِهَا . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، أي : دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ [النمل : 60] .

قلت : فنعمة الماء والنبات والشجر هي من أكمل النعم التي تفضل الله بها على الإنسان ، بعد نعمة استواء الخلق واكتمال صورته ، ومن هنا كانت وصية النبي ﷺ لمعاذ إذا مرّ بشجر أن يذكر الله العظيم المنعم المتفضل .

فقد أخرج الطبراني في «الكبير» بسند صحيح عن أبي سلمة قال : [قال معاذ : قلت يا رسول الله أوصني . قال : اعبد الله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، واذكر الله عند كل حجر ، وعند كل شجر ، وإذا عملت سيئة بجنبها حسنة ، السرُّ بالسرِّ ، والعلاية بالعلاية] (1) .

12 - 18 . قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَّوَدُّنًا وَتَرَى الْفُلْكَ

(1) قال المنذري (4/ 132) : رواه الطبراني بإسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً بين أبي سلمة ومعاذ لكن له شواهد تقويه . انظر السلسلة الصحيحة - حديث رقم - (1475) .

مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَطْبًا لَّعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَنَّا بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ .

في هذه الآيات: امْتِنَانٌ مُّتَابِعٌ من الله سبحانه على عباده إضافة لما سبق: نعمة الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، والبحار والفلك التي تجري فيها ، واللحم والحلي المستخرج منها ، والجبال والأنهار ، والاهتداء بالنجوم ، كل ذلك آيات لقوم يتفكرون . فهل من يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون؟! إنكم إن تعدوا نعمة الله عليكم تعجزوا عن إحصائها والله غفور رحيم .

فقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ ۚ ﴾ .

تذكيرٌ من الله تعالى لعباده بنعم كبيرة أخرى يتمتعون بها في حياتهم ويستفيدون من تسخيرها وتعاقبها ، فنعمة الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم نعم قريبة متصلة بحياة الناس ومنافعهم .

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: 71 - 73] .

2 - وقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَنَّا بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: 16] .

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَن حَافِظًا وَآيَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُتَبَذَّلُوا فِيهَا مَوَاحِرَ ۚ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ وَلِكُلِّ شَيْءٍ فَضْلَةٌ تَقْصِيصًا ﴾ [الإسراء: 12] .

3 - وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك: 5] .

4 - وقال تعالى: ﴿ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: 61 - 62] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: [تَفْضُلُ صَلَاةُ الْجَمِيعِ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ وَخُدَّةُ يَحْمُسٍ وَعَشْرِينَ جِزْءًا ، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ . ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَاقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ : ﴿إِنْ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا﴾] ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . قال ابن جرير: (إن في تسخير الله ذلك على ما سخره لدلالات واضحات لقوم يعقلون حجج الله ، ويفهمون عنه تنبيهه إياهم).

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ . قال قتادة: (يقول: وما خلق لكم مختلفاً ألوانه من الدواب ، ومن الشجر والثمار ، نِعَمَ من الله متظاهرة فاشكروها لله). قال ابن كثير: (لما نبه سبحانه على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والنبات والمعادن والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ، أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ .

تذكير بنعم أخرى في عالم البحار: من تسخير للسماك والحيتان ، وإحلال لحمها في الحل والإحرام ، وتسهيل استخراج اللؤلؤ والجواهر يلبسونها وتلبسها الزوجات زينة للأزواج الكرام ، وشق السفن طريقها عبر الأمواج إلى شواطئ البلدان .

قال ابن جرير: (سخر لكم البحر ، وهو كل نهر ، ملحاً كان ماؤه أو عذباً) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك الذي يصطاد منه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهو اللؤلؤ والمرجان). وقال قتادة: ﴿(إِنَّا كُنَّا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني حيتان البحر. ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ قال: هذا اللؤلؤ).

قال النسفي: ﴿(تَلْبَسُونَهَا﴾ المراد بلبسهم لبس نسائهم ولكنهن إنما يتزين بها من أجلهن فكانها زيتهم ولباسهم). ولكن يبدو أنه لا دليل على تخصيص اللؤلؤ والمرجان بالنساء. قال السيوطي في «الإكليل»: (في الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها). وقال صاحب «فتح البيان»: (يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان ، أي يجعلونهما حلية لهم كما يجوز للنساء.. وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (648) - كتاب الأذان - باب فضل صلاة الفجر في جماعة .

الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان ، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة . فإن ذلك ممنوع ، ورد الشرع بمنعه ، من جهة كونه تشبهاً بهنّ ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤاً أو مرجاناً .

وعن ابن عباس : ﴿مَوَاحِرَ﴾ قال : جَوَاري . وقال سعيد بن جبیر : (معرضة) . وقال الحسن : (مواقر) . وقال قتادة والضحاك : (أي تذهب وتجيء ، مقبلة ومدبرة بريح واحدة) . قال القرطبي : (وأصل المَخْر شقّ الماء عن يمين وشمال . مَخَرَت السفينة تَمَخَّرَ وتمَخَّرَ مَخَرًا ومَخُورًا إذا جرت تشقّ الماء مع صوت) . وقال الجوهري : (ومَخَّرَ السابح إذا شقّ الماء بصدّره ، ومَخَّرَ الأرض شقها للزراعة) .

وقوله : ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . أي : ولتركبوه للتجارة وطلب الربح والسياسة في الأرض ورؤية بلاد الله الواسعة ومخلوقاته العجيبة ، مما يزيدكم ذلك لله شكرًا .

وقوله : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ . قال قتادة : (الجبال أن تميد بكم) . وقيل : لثلا تميد بكم . والميد الاضطراب والتكفؤ . يقال : مادت السفينة إذا تكفأت بأهلها ومالت ، ومنه الميد الذي يعتري راكب البحر ، وهو الدوار . قال مجاهد ﴿أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ : أن تكفأ بكم) .

وقوله : ﴿وَأَنْهَرَا وَسُبُلًا﴾ . قال ابن كثير : (أي : وجعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر ، رزقاً للعباد ، يَنْبُعُ في موضع وهو رِزْقٌ لأهل موضع آخر ، فيقطعُ البقاع والبراري والقفار ، ويخترق الجبال والآكام ، فيصلُ إلى البلد الذي سُخِّرَ لأهله ، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة ، وجنوباً وشمالاً ، وشرقاً وغرباً ، ما بين صغار وكبار ، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت ، وما بين نبعٍ وجَمْعٍ ، وقَوِيّ السير وبطيئه ، بحسب ما أراد وقدر ، وسخر ويسر . فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه . وكذلك جعل في الأرض سُبُلًا ، أي : طرقاً يُسَلِّكُ فيها من بلاد إلى بلاد ، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل ليكون ما بينهما ممراً ومسلكاً ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾) . وقال قتادة : ﴿وَسُبُلًا﴾ : أي طرقاً) .

وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : لكي تهتدوا بهذه السبل التي جعلها لكم في الأرض إلى الأماكن التي تقصدون ، والمواضع التي تريدون ، فلا تضلوا ولا تتحيروا) .

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَا لَنَجْمٍ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. قال ابن عباس: (يعني بالعلامات: معالم الطرق بالنهار ، وبالنجم هم يهتدون بالليل).

قلت: وتشمل العلامات الجبال الكبار ، والآكام الصغار ، ونحو ذلك مما يستدل به المسافرون أثناء النهار ، وفي البر والبحار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. أي: هل الأوثان والطواغيت التي لا تخلق أحق بالعبادة أم الله الخالق البارئ القهار ، الذي خلق كل شيء وبيده أمر كل شيء. قال النسفي: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون فساد ما أنتم عليه. وقال ابن جرير: (يقول: أفلا تذكرون نعم الله عليكم ، وعظيم سلطانه وقدرته على ما شاء ، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها ، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعاً ، ولا تدفع عنها ضرراً ، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادتكموها وإقراركم لها بالألوهة).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تنبيه من الله سبحانه على كثرة نعمه وعظيم إحسانه إلى عباده بما لا يعد ولا يحصى ، فحق عبادته غير مقدور ، وكثير من تقصير عباده في شكرهم له مجبور ، وهو الرحيم بعباده إذا أنابوا وتابوا فيتجاوز عن إساءات كبيرة ويعفو عن كثير.

قال ابن كثير: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، أي: يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتكم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازي على اليسير).

قلت: والشكر هو سيلان اللسان بذكر الله ونعمائه ، واختلاج القلب وتلهفه وتواضعه لكرمه ، وإعمال الجوارح في طاعته وتعظيم أوامره.

وقواعد الشكر خمسة: الخضوع للمشكور ، ومحبه ، والاعتراف بنعمته ، وثناؤه عليها ، وصرفها فيما يحبه ويرضاه.

وآلات الشكر ثلاثة: اللسان والقلب والجوارح.

وشكر الناس نوعان: شكر العامة ، وشكر الخاصة:

1 - شكر العامة: وهو شكر على ما يشغلهم على الغالب كالمطعم والمشرب والملبس

والمنكح وعافية الأبدان. فقد قال جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]. وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: 13].

أخرج الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة]⁽¹⁾.

وفي سنن ابن ماجه بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالى على عبد نعمة فقال: الحمد لله ، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ]⁽²⁾.

2- شكر الخاصة: وهو يشمل إضافة إلى شكر العامة ما هو أهم وأكبر: الشكر على التوحيد والإيمان وحياة القلوب ، والشكر على القرآن وعلى نبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام.

ففي التنزيل:

1- قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا جَزَاءُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10].

2- وقال جل ذكره: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152].

3- وقال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

ومن صحيح السنة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه] - ورواه البخاري⁽³⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن حبان والطبراني بإسناد صحيح عن فضالة بن عبيد ، أن

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي أمامة. انظر صحيح الجامع الصغير (5438) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (318/1) لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجه (3067) - كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري - حديث رقم - (7504) - كتاب التوحيد ، ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (4179).

رسول الله ﷺ قال: [اللهم من آمن بك ، وشهد أني رسولك ، فحبب إليه لقاءك ، وسهّل عليه قضاءك ، وأقلل له من الدنيا . ومن لم يؤمن بك ويشهد أني رسولك ، فلا تحبب إليه لقاءك ، ولا تسهّل عليه قضاءك ، وأكثر له من الدنيا]⁽¹⁾.

19 - 23. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ^(١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَاجِرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ .

في هذه الآيات: إعلام الله تعالى عباده أنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، وهذه الأوثان التي تُعبد من دونه غير قادرة على خلقهم ولا خلق شيء ممن حولهم ، فهي أموات لا أرواح فيها ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً وما يشعرون أيان يوم بعثهم ، وإنما إلهكم - أيها الناس - إله واحد والكافرون بالآخرة مستكبرون معظمون لأهوائهم ، والله يعلم علانيتهم وإسرارهم ، وهو تعالى لا يحب المستكبرين .

فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ . أي: لا يخفى عليه شيء سبحانه مما أخفيتم ولا ما أعلتتم ، فسواء أسررتم في ضمائرکم أو أظهرتم على ألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم ، كل ذلك في علم الله تعالى .

وفي التنزيل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: 96] .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء]⁽²⁾.

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [فرغ الله

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان (2475) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (ق 2/74) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1338) .

(2) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم (1841) - باب: كتب المقادير قبل الخلق .

عز وجل إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد⁽¹⁾. وفي رواية: (من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩﴾ أَمْوتُوا غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

قال قتادة: (وهي هذه الأوثان التي تُعبد من دون الله أموات لا أرواح فيها ، ولا تملك لأهلها ضرراً ولا نفعاً).

وقوله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: معبودكم الذي يستحق أن تصرف له العبادة والتعظيم هو الله الواحد الأحد. والذين يكذبون بالمعاد مستنكرون لما نُقِصَ عليهم من قدرة الله - المنعم المتفضل - على إعادتهم ، وأن الاستعداد للقاءه يكون بعبادته تعالى وتعظيم أمره ، بل هم مستكبرون عن إفراده بالألوهة ، مشركون في عبادته ، معظمون لأهواء عقولهم ونفوسهم.

قال قتادة: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ﴾ لهذا الحديث الذي مضى ، وهم مستكبرون عنه).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: 45].

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

3 - وقال تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5].

أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ،

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني ، وأحمد (5/ 197) ، وابن أبي عاصم (303). وانظر الروايات المختلفة في صحيح الجامع (4077) - (4078) - (4079).

يُسَاقُونَ إِلَى سَجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَس ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَاةِ أَهْلِ النَّارِ ، طِينَةُ الْخَبَالِ⁽¹⁾ .

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ . أي: حقاً يعلم سبحانه ما تخفي صدور المشركين وما يبطنون من الاستكبار على الله ، وما يعلنون ويظهرون من الكفر والصد عن سبيل الله .

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ . أي: لا يحب تعالى المستكبرين على طاعته والمصرين على تحكيم الأهواء والأنفس والشهوات .

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60] .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، قيل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة ، قال: إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وعَمَطُ النَّاسِ]⁽²⁾ .

وله شاهد فيه عنه بلفظ: [لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء] .

24 - 29. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوَارِ الْذِّبِ يَصْلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ

(1) حديث حسن صحيح . أخرجه أحمد في المسند ، والترمذي في السنن (2492) . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، وصحيح الجامع (7896) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (65/1) ، ورواه أحمد وأبو داود والترمذي ، وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (54) - كتاب الإيمان .

الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْتَ شَئِئِ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ .

في هذه الآيات: إثبات الله تعالى كفر المشركين بالتنزيل واتهامه بأنه أساطير الأولين ، ليحملوا بذلك أوزارهم وأوزار من تبعهم من المبطلين ، وقد مكر الذين من قبلهم فحرَّكَ الله قواعد بنيانهم لِيَخْرَ السَّقْفَ عَلَيْهِمْ من حيث لا يشعرون ، ثم يكون الخزي الأكبر والفضيحة يوم الدين على الكافرين ، الذين تتوفاهم الملائكة الظالمين ، ويقال لهم يوم القيامة ادخلوا أبواب جهنم خالدين ، فلبس مشؤى المتكبرين .

فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ . قال قتادة: (يقول: أحاديث الأولين وباطلهم). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين ، ماذا أنزل ربكم ، أي شيء أنزل ربكم ، قالوا: الذي أنزل ما سطره الأولون من قبلنا من الأباطيل).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: 5].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلِ فَضْلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: 8 - 9].

3 - وقال تعالى: ﴿ إِنَّمْ فُكِّرْ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَبْرَرِ بُرْهَانٌ ﴾ [المدثر: 18 - 24].

وقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس: (إنها كقوله: ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أُنْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أَنْفَالِهِمْ ﴾). وقال مجاهد: (يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يُخَفَّفُ ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئاً). قال ابن جرير: (﴿ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ يقول: ألا ساء الإثم الذي يأثمون ، والثقل الذي يتحملون).

وقوله: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْرِهَمَ ﴾ .

قال قتادة: (أتى الله بنيانهم من أصوله ، فخرّ عليهم السقف). قال النسفي: ﴿فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي من جهة القواعد وهي الأساطين ، وهذا تمثيل ، يعني أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها رسل الله فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات ، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين ، فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعفت فسقط عليهم السقف وماتوا وهلكوا). وذهب بعض المفسرين أن المراد نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع فأهّب الله الريح فخرّ عليه وعلى قومه . وقيل بل المراد بُخْتَنَصْر ، والله أعلم .
وقوله: ﴿وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

قال القرطبي: (أي من حيث ظنوا أنهم في أمان).

قلت: والآية تدل على احتيال الطغاة في المكر بدين الله والصد عن سبيل الله ومحاولة إضلال الناس بكل حيلة ووسيلة ، فإذا صبر أهل الحق وواجهوا مكر الملائ بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت لهم العاقبة ، وأتى الله بنيان أولئك الذي صنعوه فاجتثته من أصله وأبطل عملهم وأصله . وقد ورد أصل هذا المعنى في القرآن والسنة الصحيحة :

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: 64].

2 - وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا إِلَهُهُمُ إِلَهًا مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأُولَى الْأَنْصَارِ﴾ [الحشر: 2].

3 - وقال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: 54].

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلَتِهِ] ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرجه مسلم من حديث أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ رَحْمَةً أُمَّةً مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا ، فَجَعَلَهَا لَهَا فَرْطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا ،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3110)، وابن ماجه (4018)، وابن حبان (5175)، ورواه البيهقي (94/6).

وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حيًّا فأهلكها وهو ينظر ، فأقرَّ عينه بهلكتها حين كذبه وعصوا أمره⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء]⁽²⁾ .

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ . أي: يفضحهم ويظهر سرائرهم وما كانت تجنّه ضمائرهم .

كما في التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿يَوْمَ بُلِيَ السَّارِيرُ﴾ [الطارق: 9] .

2 - وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: 60] .

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: [لكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة]⁽³⁾ . ورواه مسلم عن أبي سعيد بلفظ: [لكل غادر لواء عند استيه يوم القيامة]⁽⁴⁾ . وفي لفظ آخر في مسند أحمد: [لكل غادر لواء يوم القيامة ، يُرفَع له بقدر غدرته ، ألا ولا غادر أعظمُ غدرًا من أمير عامة] . وفي لفظ من طريق ابن عمر: [لكل غادر لواء ينصب له بغدرته] .

وقوله: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْكُونَ فِيهِمْ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: تخالفوني) . والمشاقة: فعل ما يشقّ . تقول العرب: شاققت فلاناً فهو يشاقني: إذا فعل كل واحد بصاحبه ما يشقّ عليه . قال ابن جرير: (يقول: أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي اليوم ، مالههم لا يحضرونكم ، فيدفعوا عنكم ما أنا مُحلٌّ بكم من العذاب) . كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: 93] . ﴿فَالْأُمِنُ قُوَّةٌ وَلَا نَاصِرٌ﴾ [الطارق: 10] .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (65/7) من حديث أبي موسى مرفوعاً . وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1596) .

(2) حديث صحيح . رواه مسلم من حديث أبي سعيد ، وانظر صحيح الجامع - حديث رقم - (307) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (301/2) ، وأخرجه مسلم ، وأحمد (142/3) ، وغيرهم .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (142/5) ، وانظر للفظ أحمد المسند (7/3) ، (61/3) ، (19/3) ، وكذلك صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (5046) .

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

قال ابن كثير: (إذا توجهت عليهم الحجة ، وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة ، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة ، والمُخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ، أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله ، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه).

وقوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾.

إِخْبَارٌ عن حال المشركين الظالِمِي أَنْفُسِهِمْ في هَيْئَتِهِمْ عند الاحتضار ، ونزول ملائكة الجبار ، لقبض أرواح هؤلاء الأشرار الفجار. ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ أي أظهروا الاستسلام ، والسمع والطاعة والانقياد ، وهم يقولون: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ - قال القرطبي: (أي من شرك). وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23].

2- وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْطِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْطِفُونَ لِكُرٍّ﴾ [المجادلة: 18].

وفي صحيح مسلم عن أنس قال: [كُنَّا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال: هل تدرون مِمَّ أَضْحَكُ؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فيقول: بلى. فيقول: إني لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي ، فيقول: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، وبالكرام الكاتِبِينَ شُهَدَاءَ ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطَقِي ، فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، فيقول: بعداً لَكُرٍّ وَسَحَقًا فَعَنْكَ كُنْتُ أَنَاضِلُ⁽¹⁾.

وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي: إن الله ذو علم بما كنتم عليه من المكر بدين الله والمؤمنين ، والصد عن سبيل الله القويم ، تبغونها عِوَجًا وفساداً في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي يقال لهم ذلك عند الموت. وقيل: هو بشارة لهم بعذاب القبر ، إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين). وقال ابن كثير: ﴿فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (217/8). وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1933).

أي: بشس المَقِيل والمُقَام والمكان من دار هَوَانٍ ، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله . وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم في قبورها من حرّها وسُمومها ، فإذا كان يوم القيامة سُلِكَت أرواحهم في أجسادهم ، وُخِلِدَتْ في نار جهنم ، ﴿ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: 36] ، كما قال الله تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: 46] .

30 - 32. قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ نُتِفِقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على المحسنين المتقين ، الذين يدخلون بإذنه وتوفيقه جنات عدن خالدين ، وقد توفتهم الملائكة قبل ذلك طيبين ، وقالوا لهم: سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون .

فقوله: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ ﴾ .

هو إخبار عن حال السعداء المؤمنين ، بخلاف حال الأشقياء المشركين ، فإن الأشقياء لما قيل لهم ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ أعرضوا عن الجواب واعتبروا ما جاءهم أساطير الأولين ، وأما المؤمنون فأقروا بالوحي الكريم ، الذي حمل لهم الخير الكبير ، من وعد الله الجليل: وهو قوله: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ . قال قتادة: (أي آمنوا بالله وأمروا بطاعة الله ، وحثوا أهل طاعة الله على الخير ودعوههم إليه) . وقال الشهاب: (والحسنة التي في الدنيا الظفر وحسن السيرة وغير ذلك) .

وقوله: ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال القرطبي: (أي ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ، لفنائها وبقاء الآخرة) . وقال النسفي: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ دار الآخرة ، فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره) .

وفي التنزيل :

- 1 - قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97].
- 2 - وقال تعالى: ﴿ فَكَانَتْ لَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ [آل عمران : 148].
- 3 - وقال تعالى: ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : 198].
- 4 - وقال تعالى: ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى : 17].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله: أَعَدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقروا وإن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17]]⁽¹⁾.

ويروي الليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن عبد الملك بن بشير ورفع الحديث قال: [ما من يوم إلا والجنة والنار يسألان. تقول الجنة: يا رب قد طاب ثمرى واطردت أنهارى واشتقت إلى أوليائى فعجل إلي بأهلى. وتقول النار: اشتد حرى وبعد قعرى وعظم جمري فعجل علي بأهلى]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿ جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾.

أي: جنات إقامة وخلود ، تجري الأنهار بين أشجارها وقصورها وبساتينها ، وفيها من كل ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، جعلها الله تعالى ثواباً للمتقين.

وفي التنزيل :

- 1 - قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٢﴾ تَحْنُ أُولِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولَا مِن عَفْوَيرَ رَحِيمٌ ﴾ [فصلت : 30 - 32].

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3244) - كتاب بدء الخلق ، وانظر (4779) ، (4780) ، ورواه مسلم في الصحيح (2824) - كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ..

(2) انظر : «صفة الجنة» - وائلي - ص (214) - وإسناده حسن . وكتابي : «أصل الدين والإيمان» (792) - في تفصيل نعيم أهل الجنة .

2 - قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: 55 - 58].

3 - وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: 71 - 72].

ومن كنوز صحيح السنة في وصف أنهار الجنة وما فيها من المقام الكريم أحاديث:

الحديث الأول: يروي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تتفجر أنهار الجنة] (1).

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن معاوية بن حيدة ، عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة بَحْرَ الماء ، وبحرَ العسل ، وبحرَ اللبن ، وبحرَ الخمر ، ثم تشقق الأنهار بعد] (2).

الحديث الثالث: أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [سَيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة] (3).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَفَقْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إِخْبَارٌ عن حال المؤمنين عند الاحتضار ، ونزول ملائكة الرحمة بالسلام والبشرى من الملك الرحيم القهار ، الذي أمر بتبشيرهم بدخول الجنان جزاء الصبر والثبات على الحق إلى ساعة مفارقة دنيا الاغترار.

قال القاسمي: ﴿الَّذِينَ نَفَقْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (14/4) ، (101/9) ، وأخرجه أحمد (2/335) ، وكذلك (2/339) ، ورواه البيهقي في «الأسماء» (398) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2703) ، وانظر صحيح سنن الترمذي - (2078).

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1968) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/776) لمزيد من التفصيل في أنهار الجنة وما ورد فيها.

والمعاصي وكل سوء ﴿يَقُولُونَ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لتدخل أرواحكم الجنة فإنها في نعيم برزخي إلى البعث. أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ...﴾ [فصلت: 30] الآيات).

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم من حديث البراء مرفوعاً - في صفة المؤمن في قبره بعد السؤال -: [ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسرك ، أبشر برضوان من الله ، وجنات فيها نعيم مقيم ، هذا يومك الذي كنت توعده ، فيقول له: وأنت فبشرك الله بخير من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول: أنا عملك الصالح ، فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً في إطاعة الله ، بطيئاً في معصية الله ، فجزاك الله خيراً...]. الحديث⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه: [يفرج له فرجة قبل النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله تعالى ، ثم يفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له: هذا مقعدك ، ويقال له: على اليقين كنت ، وعليه مُتٌ ، وعليه تُبعث إن شاء الله]⁽²⁾.

33 - 34. قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [فصلت: ٣٣] فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿٣٤﴾.

في هذه الآيات: استخفاف الله تعالى بالمشركين ، فهم ينتظرون الموت لقبض

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (281/2) ، وأحمد (287/4) ، والنسائي (282/1) ، وأخرجه ابن ماجة (469/1) ، والحاكم (37/1 - 40) ، وانظر: «أحكام الجنائز» (157).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4268). وانظر تخريج الترغيب (4/188 - 189) ، وصحيح الجامع (1964) في أثناء حديث طويل. وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (3443).

أرواحهم ، أو القيامة لنزول العذاب بهم ، شأن الأمم الضالة قبلهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون .

فعن قتادة: (قوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قال: بالموت ، وقال في آية أخرى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ [الأنفال: 50] وهو ملك الموت ، وله رسل ، قال الله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ذاكم يوم القيامة).

وقال مجاهد: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ يقول: عند الموت حين تتوفاهم ، ﴿ أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ذلك يوم القيامة).

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ الآية .

قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: كما يفعل هؤلاء من انتظارهم ملائكة الله لقبض أرواحهم ، أو إتيان أمر الله فعل أسلافهم من الكفرة بالله ، لأن ذلك في كل مشرك بالله ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ يقول جل ثناؤه: وما ظلمهم الله بإحلال سُخْطِهِ ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بمعصيتهم ربهم وكفرهم به ، حتى استحقوا عقابه ، فعجل لهم).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قال القاسمي: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الوجدانية وتكذيب الرسل ونحوها ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من العذاب الذي توعدتهم به الرسل).

35 - 40. قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [٢٥] وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [٢٦] إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [٢٧] وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ

بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ .

في هذه الآيات: ذمُّ الله تعالى المشركين احتجاجهم بالقدر على شركهم ، شأن الأمم الضالة قبلهم ، وما على الرسل إلا البلاغ المبين . لقد بعث الله الرسل في أممهم يدعونهم لإفراد الله تعالى بالتعظيم ، ونبد الطاغوت وسبل الشياطين ، فمن علم الله فيه خيراً هداه ، ومن علم كبره ومكره أضله ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . إنك إن تحرص - يا محمد - على هداهم فاعلم أن الله لا يهدي من يضل ويصرّ على الضلال ومالهم من ناصرين . لقد أقسموا بالله على إنكار البعث وأكثرهم كاذبون لا يعلمون ، فإنما قول الله لشيء إذا أراد وجوده أن يقول له كن فيكون .

فقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .

اعتذار تافه من المشركين على شركهم بالله وتحريم ما لم ينزل به تشريعاً من البحائر والسوائب والوصائل معلقين ذلك كله على القدر ، شأن الأمم المغرورة قبلهم .

قال ابن كثير: (ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لِمَا فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ، ولما مَكَّنَّا منه . قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾؟ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يُعَيِّرْهُ عليكم ولا أنكره ، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ، ونهاكم عنه أكد النهي ، وبعث في كل أمة ، أي: في كل قرن من الناس وطائفة رسولاً ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله ، ويتهوّن عن عبادة ما سواه).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

قال القرطبي: (أي بأن اعبدوا الله ووحّدوه. ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال).

وقوله: ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ .

قال النسفي: ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ لاختيارهم الهدى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أي لزمته لاختياره إيها).

وقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: إن كنتم معشر المشركين من قريش وغيرها غير مصدقي رسولنا فسيروا في أرجاء الأرض فانظروا كيف آل حال الأمم المكذبة قبلكم ، وكيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والدمار والعذاب والهلاك .

وقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدًى مِّنْ يُّضِلُّ﴾.

إخباراً من الله تعالى رسوله ﷺ: أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إن كان الله أراد إضلالهم ، لعلمه بفساد قلوبهم وانحراف فطرتهم وحبهم تعظيم الطواغيت والشهوات وإصرارهم على التمسك بنهج الجاهلية .

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لِّمَنْ يَّهْدِيهِمْ يَبْغُثُونَ﴾ [الأعراف: 186].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: 41].

3 - وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: 34].

4 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96 - 97].

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [تعرض الفتن كالحصير عوداً عوداً ، فأبى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأبى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُزبداً كالكوز مُجْحِيّاً ، لا يَعْرِفُ معروفاً ولا يُنْكِرُ منكراً ، إلا ما أشرب من هواه] (1).

وقوله: ﴿وَمَالَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ - أي ينصرونهم ويحولون بينهم وبين وقوع العقاب بهم .

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم (1990) - كتاب الفتن . وقوله: «مرباداً» يعني: شدة البياض في سواد ، و«مُجْحِيّاً» أي: منكوساً.

وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾.

قال قتادة: (تكذيباً بأمر الله أو بأمرنا ، فإن الناس صاروا في البعث فريقين: مكذِّب ومصدق).

والمعنى: لقد حلف المشركون وأقسموا واجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان مستبعدة حدوث البعث بعد الموت ، مكذِّبين الرسل بذلك ، فردَّ الله زعمهم وكذَّبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعَدَآءٌ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: فبجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: كَذَبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّاي فَقَوْلُهُ لَنْ يَعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّاي فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ⁽¹⁾].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

بَيَّانٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى حُكْمَتِهِ مِنَ الْمَعَاد: لِيَبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَيَجَازِي الْمُحْسِنِينَ بِإِحْسَانِهِمْ وَالْمُسِيئِينَ بِإِسَاءَتِهِمْ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِي جَحَدُوا الْحِسَابَ وَالْجِزَاءَ وَالْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِي دَعْوَاهُمْ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَمَا حَمَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مُتَابَعَةِ كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ سَيَحْمِلُهُمُ الْيَوْمَ عَلَى مُوَاجَهَةِ حَرِّ جَهَنَّمَ وَسَعِيرِهَا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً⁽¹³⁾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ⁽¹⁴⁾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ⁽¹⁵⁾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 13 - 16].

وفي صحيح السنة العطرة في آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [ناركم هذه التي توقد بنو آدم ، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم. قيل يا رسول الله! إن كانت لكافية. قال فَضُلَّتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا⁽²⁾].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (4975)، وابن جرير (21588) نحوه.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1976)، ورواه البخاري في صحيحه (3265) بلفظ قريب ، ورواه أكثر أهل السنن.

وفي لفظ : [فإنها فَضَلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً ، كُلُّهُنَّ مثلُ حُرِّها] .

الحديث الثاني : أخرجه الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : [يُؤْتَى بالعبد يوم القيامة فيقول له : أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وبَصْراً ومالاً وولداً ، وَسَخَّرْتُ لَكَ الأنعام والحرث ، وتركتُكَ تَراًسُ وتَزْبِجُ ، فكنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمِكَ هذا؟ فيقول : لا . فيقول له : اليوم أنساكَ كما نسيتني]⁽¹⁾ .

الحديث الثالث : يروي الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال : [صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي : إمام ظلوم غشوم ، وكل غال مارق]⁽²⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائنا لهم ، ولا في غير ذلك مما نخلق ونكوّن ونحدث ، لأننا إذا أردنا خلقه وإنشاءه ، فإنما نقول له : كن فيكون ، لا معاناة فيه ، ولا كلفة علينا) .

41 - 42 . قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْرِئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا

حَسَنَةً وَلَا نَجْزِي الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إثباتُ الله تعالى سعادة المهاجرين ، الذين ظَلِمُوا في سبيل الله وصبروا وعلى ربهم يتوكلون .

فقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْرِئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ .

أي : إن مفارقة الأقوام وهجرة الأوطان فراراً بالدين من ظلم الطغاة أجره عظيم عند الله ، ويُهَيِّئُ الله لأهله في الدنيا مسكناً يرضونه صالحاً . وقيل في سبب ذلك أمران :

1 - قال قتادة : (هؤلاء أصحاب محمد ظلّمهم أهل مكة ، فأخرجوهم من ديارهم ،

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2558) - أبواب صفة القيامة . وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1978) ، وأصله في صحيح مسلم .

(2) حديث حسن . أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ، كما ذكر الهيثمي في «المجمع» : (235/5) ، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (1/4) ، وانظر السلسلة الصحيحة (471) .

حتى لحق طوائف منهم بالحبشة ، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين). وعن مجاهد: ﴿لَتُبَيَّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال: المدينة).

2 - وقال ابن عباس: (هم قوم هاجروا إلى رسول الله ﷺ من أهل مكة من بعد ظلمهم ، وظلمهم المشركون). وقيل نزلت في أبي جندل بن سهيل . وقال مجاهد: ﴿لَتُبَيَّنَّهُمْ﴾ لنرزقهم في الدنيا رزقاً حسناً).

قلت: والآية عامة في كل زمان ومكان ، فإن الفرار بالدين ثوابه الرزق الحسن في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 100].

أخرج الحاكم بسند صحيح عن عكرمة قال: [لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة ، فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهماً فقال: لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهماً ثم أصير بعده إلى السيف فتعلمون أني رجل ، وقد خلفت بمكة قينتين فهما لكم ، ونزلت على النبي ﷺ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 207] ، فلما رآه النبي ﷺ قال: أبا يحيى ربح البيع. قال: وتلا الآية⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. قال قتادة: (أي والله لما يشبههم الله عليه من جنته أكبر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أي: الذين صبروا على أعباء الجهاد ومواجهة الطغاة ، لحراسة الدين وسياسة الدنيا به في الأرض ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وهم بالله يثقون وإليه يستندون في نوائب الأمور التي تنوبهم.

43 - 44. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوْا

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (400/3) من حديث عكرمة ، وإسناده على شرط مسلم. وقد مضى تخريجه في سورة البقرة ، آية (207).

أَهْدِ الذِّكْرَ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ .

في هذه الآيات: إثباتُ الله رجولة الأنبياء الذين أرسلهم الله في جميع الأمم ، ووجوب سؤال أهل العلم لفهم الدين على مدار الزمان ، وإثباتُ نزول السنة وهي الوحي الثاني لِتُبَيِّنَ مجمل القرآن .

فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ . قال القرطبي: (نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فهلاً بعث إلينا ملكاً ، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى الأمم الماضية يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ آدميين).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٩﴾ قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُحُونَ مَطْمَئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿[الإسراء: 94 - 95]﴾ .

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَكْسِبُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 20] .

3 - وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: 8] .

4 - وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9] .

5 - وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110] .

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن طلحة مرفوعاً: [إنما أنا بشرٌ مثلكم ، وإن الظنَّ يخطئ ويصيب ، ولكن ما قلت لكم: قال الله ، فلن أكذب على الله] (1) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد وابن ماجه ، وأصله في صحيح مسلم (95/7) من حديث طلحة ، ورافع بن خديج ، وانظر: صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (2337) .

وقوله: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ - فيه تأويلان:

1 - قال ابن عباس: (قال لمشركي قريش: إن محمداً في التوراة والإنجيل). وقال: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: يعني أهل الكتب الماضية، أبشراً كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد رسولاً، ثم قال: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى: أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم). وقال سفيان: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب).

2 - قال ابن عباس: (أهل الذكر أهل القرآن). وقال ابن زيد: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: الذكر: القرآن. وقرأ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. وقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [فصلت: 41] الآية).

قلت: وكلا المعنيين حق. فلما عجب المشركون من إحياء الله لرسوله، واصطفائه برسالته، أحيلوا لسؤال أهل الكتاب أو علماء الأخبار. وكذلك الحال عند كل معضلة أو فتوى فلا بد من الرجوع لأهل العلم.

قال القاسمي: (فالذكر، إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة، كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ [يس: 69]، أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة. وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم).

وقوله: ﴿يَا لَيْلَيْتَ وَالزُّبُرِ﴾. قال مجاهد: (البيئات: الآيات، والزبر: الكتب). والزُّبر: جمع زُبُور، والعرب تقول: زَبُرْتُ الكتاب إذا كتبته. وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: 52].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105].

والمعنى: لقد أرسلنا الرسل المتقدمين ﴿يَا لَيْلَيْتَ﴾ - أي بالحجج والدلائل والبراهين، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أي بالكتب، فرجوعكم إليهم منهاج صحيح في كشف الشبهات والتعرف على الحق.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: وأنزلنا إليك - يا محمد - السنة، وهي الوحي الثاني، لتبين للناس ما نزل

إليهم - أي القرآن: وهو الوحي الأول - فتفسر لهم مجمل القرآن ، وتُفَصِّلُ لهم ما يحتاجون معرفته عن أمور دينهم ومفهوم الإسلام والإيمان والإحسان ، وسبيل النجاة من الفتن القادمة عبر الزمان ، ومن عذاب الله يوم القيامة - لعلهم يعتبرون ويتعظون فيلزمون طريق النجاة .

قال القرطبي رحمه الله : (فالرسول ﷺ مُبَيِّنٌ عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغير ذلك مما لم يُفَصِّلْهُ) .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله : (﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي : من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء : 59] .

2 - وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران : 31] .

3 - وقال تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : 32] .

4 - وقال تعالى : ﴿وَمَا أَمَّا أَنْتُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر : 7] .

قال مجاهد في التفسير : (﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال : كتاب الله وسنة نبيه ﷺ) . وقال ميمون بن مهران : (الرد إلى الله ، الرد إلى كتابه ، والرد إلى رسوله إن كان حياً ، إن قبضه الله إليه فالرد إلى السنة) .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق مفهوم الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال : [ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟! فوالله إني لأعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية] .

وفي لفظ : [ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه؟ فوالله لأننا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية⁽¹⁾ .

(1) حديث صحيح . رواه مسلم (2356) ، ورواه أحمد وغيره . انظر صحيح الجامع (5449) .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن سمرة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا حدثتكم حديثاً ، فلا تزيدن عليّ]⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج الحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً: [إنه ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به ، وليس شيء يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه].

وفي لفظ عند الطبراني: [ما تركت شيئاً يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، وما تركت شيئاً يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه]⁽²⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [هلاك أمتي في الكتاب واللبن. قالوا: يا رسول الله ما الكتاب واللبن؟ قال: يتعلمون القرآن فيتأولونه على غير ما أنزل الله عز وجل ، ويحبون اللبن فيدعون الجماعات والجمع ويبدون]⁽³⁾.

قال ابن عبد البر: (أهل البدع أضربوا عن السنن ، وتأولوا الكتاب على غير ما بينت السنة ، فضلوا وأضلوا).

وفي «شرح السنة» للبخاري عن أبي بن كعب قال: (عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار أبداً ، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهد في خلاف سبيل وسنة).

وكان الإمام مالك يقول - كما ذكر الشاطبي في «الاعتصام» -: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمداً خان الرسالة ، لأن الله يقول: ﴿أَلَيْوَمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً).

وكان الإمام الشافعي يقول - كما يروي أبو نعيم في «الحلية» -: (حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (11/5) من حديث سمرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (346).

(2) أخرجه الطبراني في الكبير (1647) ، ولفظ مقارب ، وأخرجه الشافعي وابن خزيمة كما ذكر الألباني في «الصحيحة» - حديث رقم - (1803).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (155/4) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2778) ، وقوله: «يبدون» - أي يخرجون إلى البادية لطلب اللبن في المراعي على حساب واجبات دينهم.

وجاء في «طبقات الحنابلة» - قول الإمام أحمد -: (أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، والاقتداء ، وترك البدع ، وكل بدعة ضلالة).

45 - 50. قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۝ ۞ .

في هذه الآيات: تهديد من الله تعالى ووعد للمشركين بالخسف والعذاب ، إن لم يؤمنوا ويلتزموا هذا الكتاب ، فإن الله تعالى خلق كل شيء في هذا الكون الفسيح في سجود له وتعظيم وهم لله داخرون ، والملائكة يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون.

فقوله: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ۝ ۞ . قال قتادة: (السيئات: الشرك). والآية تهديد ووعد للعصاة المستهترين الذين يشيعون المنكر في الأرض ، فإن الزلازل عذاب من الله يبعثه الله عند فشو الفواحش والمنكر بين العباد. وقد جاءت السنة الصحيحة بأفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح من حديث عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ قال: [في هذه الأمة خَسْفٌ ، وَمَسْخٌ ، وَقَذْفٌ ، إِذَا ظَهَرَتِ الْقِيَانُ وَالْمَعَارِيفُ ، وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ].

وفي رواية من حديث ابن عمر بلفظ: [في هذه الأمة خسف ، ومسحٌ ، وقذف ، في أهل القدر]⁽¹⁾.

ورواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بلفظ: [في أمتي خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ].

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه (4061) ، والترمذي (22/2) ، وقال حسن صحيح.

ورواه ابن ماجة من طريق عبد الله ، عن النبي ﷺ بلفظ : [بين يدي الساعة مسخٌ ، وخسفٌ ، وقذفٌ] (1).

الحديث الثاني: يروي الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: [يكون في آخر هذه الأمة خسفٌ ومسحٌ وقذفٌ. قالت: قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث] (2).

الحديث الثالث: أخرج البخاري وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج ، وهو القتل] (3).

وقوله: ﴿أَوَيَأْنِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم ، فإن عذاب الفجأة فيه شدة على النفس إضافة لما قد يقع على الجسد.

وفي التنزيل: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: 16 - 17].

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر - أن النبي ﷺ كان يقول -: [اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجأة نقمتك ، وجميع سخطك] (4).

وقوله تعالى: ﴿أَوَيَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ - فيه أقوال متكاملة:

1 - قال ابن عباس: ﴿أَوَيَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ﴾ يقول: في اختلافهم).

2 - قال قتادة: ﴿أَوَيَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ﴾ في أسفارهم). وقال ابن عباس: (قال: إن شئت أخذته في سفر).

3 - قال ابن جريج: (الثقل: أن يأخذهم بالليل والنهار).

- (1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4059) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1787).
- (2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (28/2 - 29) من حديث عائشة ، وهو شاهد للحديث السابق ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (ج 4) ص (393).
- (3) حديث صحيح أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (1036) - كتاب الاستسقاء ، باب ما قيل في الزلازل والآيات ، ورواه أحمد.
- (4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (89/8) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ورواه الترمذي وأبو داود - انظر صحيح الجامع - (1302).

قال ابن جرير: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقْلِيهِمْ﴾ أو يهلكهم في تصرفهم في البلاد ، وترددهم في أسفارهم ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ يقول جل ثناؤه: فإنهم لا يعجزون الله من ذلك إن أراد أخذهم كذلك).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧٧﴾ أَوَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: 97 - 98].

2 - وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196 - 197].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوف بذلك).

وقال الضحاك: (يعني: يأخذ العذاب طائفة ويترك أخرى ، ويعذب القرية ويهلكها ، ويترك أخرى إلى جنبها).

قال ابن كثير: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ ، أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشدَّ حالة الأخذ ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد . ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ، أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، كما ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيه»).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

إخبار من الله تعالى عن سجود كل ذي ظل لله تعالى بكرة وعشياً . قال قتادة: (أما اليمين: فأول النهار ، وأما الشمال: فأخر النهار). وقال: (ظل كل شيء سجوده).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ، ومسلم (2583) ، والترمذي (3109) ، وابن ماجه (4018) ، وابن حبان (5175) ، ورواه البيهقي (94/6).

وعن ابن جريج: ﴿يَنْفَقُوا ظِلُّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ﴾ قال: الغدو والآصال، إذا فاءت الظلال، ظلال كل شيء بالغدو سجدت لله، وإذا فاءت بالعشي سجدت لله.

وقال الضحاك: (يعني: بالغدو والآصال، تسجد الظلال لله غدوة إلى أن يفيء الظل، ثم تسجد لله إلى الليل، يعني: ظل كل شيء). وعن ابن عباس: ﴿يَنْفَقُوا ظِلُّهُ﴾ يقول: تتميل). واختاره ابن جرير وقال: (إن الله أخبر في هذه الآية أن ظلال الأشياء هي التي تسجد، وسجودها: ميلانها ودورانها من جانب إلى جانب، وناحية إلى ناحية). وعن مجاهد: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾: صاغرون).

والخلاصة: إن جميع الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، قد دانت لكبرياء الله وعظمته وجبروته، وكل ماله ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال - أي بكرة وعشياً - فإنه ساجد بظله لله تعالى⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾.

هو كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: 15].

وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: 18].

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: والملائكة تسجد لله في طاعة وتذلل، ولا يستكبرون عن عبادة ربهم تبارك وتعالى.

أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء وحق لها أن تتط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله

(1) ذكره ابن كثير وقال: (وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته). قال: ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم.

تعالى ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفراش ولخرجتم إلى الصُّعُدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

دليل في علو الله تعالى ، فهو سبحانه فوق عرشه ، بائن من خلقه ، وبعض الملائكة تعرج إليه بأعمال العباد ، وبعضهم ينزل بالأمر قضاه تعالى في السماء ، وجميعهم يفعلون ما يؤمرون ، ويؤدون حقوق الله عليهم ، ويجتنبون ما يُسخطه .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر : 10].

2 - وقال تعالى: ﴿وَمَا قَلَّلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿١٧٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ [النساء : 157 - 158].

3 - وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : 4].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [الملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيسألهم ، وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : [الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء]⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد قال: قال

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في الجامع (2312)، وابن ماجه في السنن (4190)، وأحمد في المسند (173/5). وإسناده حسن في الشواهد. انظر تخريج المشكاة (5347)، وصحيح الجامع (2445)، والسلسلة الصحيحة (1059 - 1060).

(2) حديث صحيح. أخرجه الشيخان وغيرهما ، وفي رواية (يتعاقبون فيكم ملائكة..). انظر صحيح البخاري (555)، (3223)، وصحيح مسلم (632)، ومسند أحمد (312/2).

(3) حديث صحيح. رواه أبو داود (4941)، والترمذي (350/1)، وأحمد (160/2)، وغيرهم.

رسول الله ﷺ: [ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً] (1).

55 - 51. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ فَأْتِنِي فَارْهَبُونِ﴾ (٥١) وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْشَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ فَيَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ .

في هذه الآيات: إثبات الوحداية لله العظيم ، له ما في السماوات وما في الأرض وله الدين الحق المبين ، وما بكم من نعمة - أيها الناس - فمن الله المنعم الكريم ، الذي إن مسكم الضر فإليه تجأرون ، وإن كشفه عنكم فأكثرتم يشركون ، ليمتعوا بما في أيديهم من زينة الدنيا الفانية وسوف يعلمون .

فقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ .

أمر من الله تعالى عباده بإفراده بالألوهية ، وصرف العبادة له وحده ، فإنه لا إله إلا الله . وقد بعث الرسل جميعاً - صلوات الله وسلامه عليهم - بهذه الدعوة ، دعوة التوحيد .

ففي التنزيل: قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار] (2) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (3/ 111) . وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم (514) ص (140) - وهو جزء من حديث طويل .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (93) - كتاب الإيمان . باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات مشركاً دخل النار ، من حديث جابر رضي الله عنه .

وفي صحيح مسلم عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة] (1).

وقوله: ﴿فَإِنِّي فَارَهْبُونٌ﴾ قال ابن جرير: (يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري ، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكاً). وقال النسفي: (نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم ، وهو من طريقة الالتفات ، وهو أبلغ في الترغيب من قوله فإياي فارهبوا ، فارهبوني). وقوله: ﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾.

أي: الله ملك ما في السماوات والأرض من شيء ، وكل خلق ورزق وحياة وإمارة فبأمره ، ومن ثم فإن الطاعة والإخلاص له سبحانه إنما ينبغي له دائماً ثابتاً وواجباً. قال ابن عباس: ((وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال: دائماً). وفي رواية أخرى قال: (واجباً). وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾ (٥٦) وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْمَلُ فِيمَنَ اللَّهُ. .

أي: كيف تحذرون أيها الناس وترهبون أحداً أن يسلبكم نعمة الله عليكم ، وكل ما لديكم من صحة وعافية ورزق وخير فهو من ربكم ، يقسم ذلك بينكم ، وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾. أي إن أصابكم سقم أو شدة فإلى الله تصرخون وتستغيثون. قال مجاهد: (تضرعون دعاء). وقال ابن عباس: (الضر: السقم).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أي: ثم إذا رفع سبحانه عنكم الشدة والبلاء والسقم سارع بعضكم إلى ما كان عليه من الشرك بالله ، وربما نسب الفرج لنفسه أو لجهده وقوته وجحد النعمة.

قال القرطبي: (فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك ، وهذا المعنى مكرر في القرآن).

وفي التنزيل نحو ذلك: قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا تَجَنَّكَمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67].

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (26) - كتاب الإيمان. باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، من حديث عثمان رضي الله عنه.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود بسند صحيح عن أبي تيمية ، عن رجل من قومه ، أنه أتى رسول الله ﷺ ، أو قال : شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال : أنت رسول الله أو قال : أنت محمد؟ فقال : نعم . قال : فالأم تدعو؟ قال : [أدعو إلى ربك الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن أضللت بأرض كفر فدعوته رد عليك ، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك] (1) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آٰلَيْنَهُمْ فَيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَٰعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (قيل : «اللام» هاهنا لام العاقبة . وقيل : لام التعليل ، بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا ، أي : يستروا ويحمدوا نعمة الله عليهم ، وأنه المُنْذِي إليهم النعم ، الكاشف عنهم الثَّغْم . ثم توعدهم قائلاً : ﴿ فَيَتَمَتَّعُوا ﴾ ، أي : اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ، ﴿ فَسَوْفَ يَٰعْلَمُونَ ﴾ ، أي : عاقبة ذلك) .

56 - 60 . قوله تعالى : ﴿ وَبَجَعْلُونَ لِمَا لَا يَٰعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتْلَنَ

عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَبَجَعْلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ۝

في هذه الآيات : إثبات الله تعالى جهالة المشركين ، في صرف الأموال للأصنام وجعل البنات لله ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى لجأ إلى الواد خشية عار الجاهلين ، إنه للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .

فقوله : ﴿ وَبَجَعْلُونَ لِمَا لَا يَٰعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ . إخبار من الله تعالى عن نوع آخر من جهالات المشركين وقبائحهم ، فيجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع - وهي أصنامهم وأوثانهم - شيئاً من أموالهم يتقربون به إليه . وقيل بل الضمير في ﴿ لَا يَٰعْلَمُونَ ﴾ يعود على

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4084) . انظر صحيح أبي داود (3442) . ورواه أحمد .

انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (918) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم (242) .

الأوثان. والتقدير: ويجعل هؤلاء المشركون للأصنام التي لا تعلم شيئاً نصيباً. وكلا المعنيين محتمل.

فَعَن مجاهد: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ قال: يعلمون أن الله خلقهم ، ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم ولا ينفعهم نصيباً مما رزقناهم).

وقال قتادة: (هم مشركو العرب ، جعلوا لأوثانهم نصيباً مما رزقناهم ، وجزءاً من أموالهم يجعلونه لأوثانهم).

وقال ابن زيد: (جعلوا لآلهتهم التي ليس لها نصيب ولا شيء ، جعلوا لها نصيباً مما قال الله من الحرث والأنعام ، يسمون عليها أسماءها ويذبحون لها).

وفي التنزيل: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُ رَبِّعِمِهِمْ وَهَذَا لَشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا كَانَ إِلَهُ اللَّهِ وَمَا كَانَ اللَّهُ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام: 136].

وقوله: ﴿تَاللَّهِ لَشَتَّىٰ عَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾.

أي: والله لتسألن معشر المشركين عما تختلقون من الباطل والإفك على الله بدعواكم له شريكاً ، وتصييركم لأوثانكم فيما رزقكم نصيباً ، ثم ليعاقبكم عقوبة تكون جزاءً لكفرانكم نعمه واقترائكم عليه . - ذكره ابن جرير .

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: يجعلون لله البنات ترضونهن لي ، ولا ترضونهن لأنفسكم ، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا وُلِدَ للرجل منهم جارية أمسكها على هون ، أو دسها في التراب وهي حية). وقال: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قال: حزين). وقال الضحاك: (الكظيم: الكميد). وقال قتادة: (هذا صنيع مشركي العرب ، أخبرهم الله تعالى ذكره بخبث صنيعهم فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله له ، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه ، ولعمري ما يدري أنه خير ، لرُبَّ جارية خير لأهلها من غلام. وإنما أخبركم الله بصنيعهم لتجتنبوه وتنتهوا عنه ، وكان أحدهم يغذو كلبه ، ويئد ابنته).

وقوله تعالى: ﴿يَنُورَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبَدًّا يُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أي: يخشى رؤية الناس إن بُشِّرَ بأنثى، فهو في تأرجح من أمره، فإن أبقاها أبقاها مهانة ذليلة يفضل الذكور عليها، ويحرمها من لطفه وإرثه والعناية بها، وإلا وأدها ودفنها حية في التراب على طريقة أهل الجاهلية. إنه بسئ ما يحكم به هؤلاء المشركون، أن جعلوا لله ما يكرهون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: 17].

قال القرطبي: ((أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)) أي في إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بتكريم البنات وحسن رعايتهن، وما يعقب ذلك من عظيم الثواب وسبب النجاة يوم القيامة.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتنى فلم تجد عندي غير ثمرة واحدة، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت وابنتها، فدخل عليّ النبي ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج مسلم وابن ماجه من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: [جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما ثمرة، ورفعت إلى فيها ثمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتها فشقت الثمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: إن الله عز وجل قد أوجب بها الجنة أو أعتقها بها من النار⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج مسلم والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1418) و(5995)، وأخرجه مسلم (2629)، وأحمد (33/6).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2630)، وابن ماجه (3668)، وابن حبان (448)، وأخرجه أحمد في المسند (92/6) - من حديث عائشة رضي الله عنها.

رسول الله ﷺ: [مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى يَدْرِكَا ، دَخَلْتُ أَنَا وَهُوَ الْجَنَّةَ ، كَهَاتَيْنِ] (1).

الحديث الرابع: أخرج أحمد والطبراني بسند حسن في الشواهد ، من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً: [لَا تَكْرَهُوا الْبَنَاتَ ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤَنَسَاتُ الْغَالِيَاتُ] (2).
وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: كل النقص والعيب ينسب للمشركين الذين كفروا ببقاء ربهم ، وكل الثناء وجميع المحامد لله العلي الكبير ، وهو العزيز الحكيم.

وعن قتادة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. أو قال: (الإخلاص والتوحيد).

61 - 64. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١١)
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (١٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٣) وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي
أَخْلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٤).

في هذه الآيات: تأخير الله تعالى مؤاخذه الناس بظلمهم رحمة بهم ، والمشركون غافلون يجعلون لله ما يكرهون ويمضون كمن قبلهم من الجاهلين خلف أهوائهم ، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم والعذاب مثوهم ، وما أنزلنا عليك الكتاب - يا محمد - إلا لتبين لهم ، وهدى ورحمة لمن آمن منهم .

فقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

أي: لو يؤاخذ الله الناس بكفرهم وظلمهم وبغيهم لعاجلهم بالعذاب ولما ترك على

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2631)، والترمذي في الجامع (1914)، وابن حبان في صحيحه (447)، وأحمد في المسند (147/3).

(2) حسن لشواهد. أخرجه أحمد (4/151)، وابن عدي (6/278)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (3206)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (17/310/856).

ظهر الأرض من دابة - كافرة ، أو قيل : بل المراد العموم - . قال النسفي : ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قط ، ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين) .

قلت : ويبدو أن الهلاك يعمّ إذا كثرت الخبث ، ثم يحشر الله الناس على نياتهم .
ففي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [فاطر : 18] .

2 - وقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : 38] .

وفي صحيح السنة المطهرة من ذلك المعنى أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن أم المؤمنين أمّ الحَكَم زينب بنت جَحْش رضي الله عنها : [أن النبي ﷺ دخل عليها فرعاً يقول : لا إله إلا الله ، وَيُلِّ للعرب من شرٍّ قد اقترَب ، فُتِحَ اليوم من رَدَمٍ يأجوج ومأجوجٍ مثْلُ هذه - وحلّق بأصْبُعِهِ الإبهام والتي تليها - . فقلت : يا رسول الله أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثرت الخبث]⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج البخاري عن أم المؤمنين أمّ عبد الله عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : [يَغْزُو جَيْشُ الكعبة ، فإذا كانوا بَيْتِداءً من الأرض يُخَسَفُ بأولهم وآخرهم . قالت : قلت : يا رسول الله ، كيف يُخَسَفُ بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم⁽²⁾ ومن ليسَ منهم؟! قال : يُخَسَفُ بأولهم وآخرهم ، ثم يُبْعَثُونَ على نِيَّاتِهِمْ]⁽³⁾ .

الحديث الثالث : خَرَجَ مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بُعثوا على نِيَّاتِهِمْ]⁽⁴⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (6/274) ، (9/13) ، (95/13) ، ومسلم (2880) ، وأخرجه أحمد في المسند (6/428 - 429) .

(2) أي أهل أسواقهم أو السوق منهم . وفيه أن من كثّر سواد قوم في المعصية لحقته العقوبة ، وفيه التحذير من مصاحبة أهل المعصية والظلم ، وأن العمل بالنية .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4/284) - واللفظ له - وأخرجه مسلم - (2884) نحوه .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (2879) ، وأحمد في مسنده (2/40) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أم سلمة ، عن النبي ﷺ - بقصة جيش الخسف - قالت: قلت: يا رسول الله ، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: [يُخَسَفُ بهم ، ولكن يُبعث يوم القيامة على نيته]⁽¹⁾.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: (وفيه من الفقه التباعد من أهل الظلم والتحذير من مجالستهم ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا ينالهم ما يعاقبون به. قال: وفيه أن مَنْ كَثُرَ سواد قوم جرى عليهم حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا). وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. قال القاسمي: (أي وقت تقتضيه الحكمة. يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له ، ويصبر من يصبر فيزداد عذاباً).

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. قال الزهري: (نرى أنه إذا حضر أجله فلا يؤخر ساعة ، ولا يقدم ، ما لم يحضر أجله ، فإن الله يؤخر ما شاء ، ويقدم ما شاء). وقال ابن جرير: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ يقول: فإذا جاء الوقت الذي وُقِّتَ لهلاكهم ﴿لَا يَسْتَفْخِرُونَ﴾ عن الهلاك ساعة فيمهلون ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ له حتى يستوفوا آجالهم).

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾. أي: ويجعلون لله البنات وتقول ألسنتهم الكذب: أن لهم الذكور من الأولاد. قال مجاهد: (قول قريش: لنا البنون ، والله البنات). وقال قتادة: (أي يتكلمون بأن لهم الحسنى: أي الغلمان).

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. أي: حقاً لهم النار ، وأنهم متروكون فيها منسيون لقاء تفريطهم واستهتارهم. قال ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يقول: بلى). وقال ابن كثير: ﴿لَا جَرَمَ﴾ ، أي: حقاً لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ ، أي: يوم القيامة).

وفي قوله: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أكثر من تأويل متقارب:

1 - قال سعيد بن جبیر: ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ قال: منسيون مُضَيُّونَ). أو قال: (متروكون في النار ، منسيون فيها). وقال مجاهد: (منسيون). وقال قتادة: (مُضَاعُونَ).

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4289) - كتاب المهدي ، وانظر صحيح مسلم (2882) ، ومسند أحمد (6/ 290) ، وصحيح ابن حبان (6756) - من حديث أم سلمة .

2- قال قتادة أيضاً: ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. قال: قد أفرطوا في النار: أي مُعْجَلُونَ. أو قال: (يقول: مُعْجَلُونَ إلى النار).

3- قال سعيد: ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ قال: مُخْسَنُونَ مُبْعَدُونَ.

قال ابن كثير: ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقاتدة، وغيرهم: مُنْسِيُونَ مُضَيِّعُونَ. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: 51]. وعن قتادة أيضاً: ﴿مُفْرَطُونَ﴾، أي: مُعْجَلُونَ إلى النار، من الفَرَط وهو السابق إلى الوزن. ولا منافاة، لأنهم يُعْجَلُ بهم يوم القيامة إلى النار، وَيُسَوَّنُ فيها، أي: يُخْلَدُونَ.

وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. تسلية للنبي ﷺ بأن ما يلقاه من تكذيب قومه قد واجهه إخوته الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - قبله. قال ابن جرير: ﴿فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ﴾ يقول: فَحَسَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ما كانوا عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان مقيمين، حتى كذبوا رسلهم، وردوا عليهم ما جاؤوهم به من عند ربهم). وقال القرطبي: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي ناصرهم في الدنيا على زعمهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقيل: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي قريتهم في النار. ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته. وقيل: يقال لهم يوم القيامة: هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب، على جهة التوبيخ لهم).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. بيان لحجية القرآن للفصل بين الناس في كل ما يختلفون فيه، إضافة لكونه هدى للقلوب ورحمة للمتمسك بنوره وهدية من المؤمنين.

65 - 67. قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ١٥ ﴿وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نَّتَّبِعُكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ ذُرِّيٍّ وَذَمِيرٍ لِّبَنَّا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ١٦ ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ١٧.

في هذه الآيات: امتنان الله تعالى على العباد بنعمة الماء والأنعام، واللبن السائغ

الذي فيه شفاء للأنام ، وبثمرات النخيل والأعناب وما يكون منها من منافع عبر الأيام .
 فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ .
 قال ابن كثير: (وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك يُحيي الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ، أي: يفهمون الكلام ومعناه).

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ . الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم . وفي خلقها وطريقة عطائها والاستفادة من ألبانها وأصوافها ولحمها آية ودلالة على قدرة خالقها ولطفه ورحمته .

وقوله: ﴿شُقِّقِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ . آية من آيات الآفاق ، يريها الله تعالى عباده في أدق ما توصلت إليه الأبحاث والعلوم . فلقد اكتشف الدارسون أن اللبن في الأنعام يُسْتَخْلَصُ من بين الفَرْثِ في الأمعاء الدقيقة ، فتبقى الفضلات التي تخرج في صورة بَعَرٍ ، وغيره ، بعد أن كانت كُلُّهَا فَرْثًا سَائِلًا ، ثم تدخل المواد الغذائية في الدم ، ثم يُسْتَخْلَصُ اللبن من الدم في الضروع ، وهذا كله متضمن في دقيق ألفاظ الآية السابقة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ . قال ابن عباس: (السَّكر: ما حُرِّمَ من شربه ، والرزق الحسن: ما أحل من ثمرته). وقال أبو رزين: (نزل هذا وهم يشربون الخمر ، فكان هذا قبل أن ينزل تحريم الخمر). وينحوه قال إبراهيم: (هي منسوخة نسخها تحريم الخمر). وقال مجاهد: (السكر: الخمر ، والرزق الحسن: الرطب والأعناب). ﴿نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ قال: هي الخمر قبل أن تحرم. وقال قتادة: (أما السَّكر: فخمور هذه الأعاجم ، وأما الرزق الحسن: فما تتبذون ، وما تُخَلِّلُونَ ، وما تأكلون ، ونزلت هذه الآية ، ولم تحرم الخمر يومئذ ، وإنما جاء تحريمها بعد ذلك في سورة المائدة).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ - تناسب بديع مع مفهوم الآية وما جاء بعدها من تحريم ما أسكر ، فإن العقل من أشرف ما في الإنسان ، وقد مهد بذلك تعالى لمجيء التحريم بعد ذلك تكريماً لهذا العقل وصيانة له من الضياع والانهيار .

68 - 69. قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ

وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

في هذه الآيات: أمر الله تعالى إلى النَّحْلِ اتخاذ البيوت من الجبال ومن الشجر ومما يبنون ويعرشون. ثم إلهامها الأكل من كل الثمرات وسلوك الطرق المذلة لصناعة العسل الذي فيه شفاء للناس وآية لقوم يتفكرون.

فقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾. قال مجاهد: (ألهمها إلهاماً). وعن ابن عباس قال: (أمرها أن تأكل من الثمرات ، وأمرها أن تتبع سبل ربها ذللاً). وقال معمر: (قذف في أنفسها).

وقوله: ﴿إِنِ اتَّخَذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾. قال معمر ، عن أصحابه: (قذف في أنفسها أن اتخذي من الجبال بيوتاً).

وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾. قال ابن زيد: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: الكرم). وقال ابن جرير: (يعني: مما يبنون من السقوف ، فرفعوها بالبناء). قال ابن كثير: (المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديدها ورصها ، بحيث لا يكون بينها خللٌ. ثم أذن لها تعالى إذناً قَدَرِيّاً تَسْخِيرِيّاً أن تأكل من كُلِّ الثمرات ، وأن تَسْلُكَ الطرق التي جعلها الله تعالى لها مُذَلَّةً ، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة ، والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعودُ كُلُّ واحدةٍ منها إلى موضعها وبيتها ، لا تحيد عنه يمناً ولا يسرة ، بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل ، فتبني الشمع في أجنتها ، وتقيء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دُبرها ، ثم تُصْبِحُ إلى مراعيها).

وقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾. أي: ثم كلي أيتها النحل من جميع الثمرات فاسلكي طرق ربك مذلة لك. قال مجاهد: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ قال: لا يتوَعَّر عليها مكان سلكته). وقال قتادة: ﴿ذُلُلًا﴾ أي مطيعة). والذلل: جمع ذلول.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. أي: يخرج من بطون النحل شراب ، هو العسل ، مختلف ألوانه ، فمنه الأبيض والأحمر والأسحر وغير

ذلك . قال قتادة : (ففيه شفاء كما قال الله تعالى من الأدواء . وقد كان ينهى عن تفريق النحل ، وعن قتلها).

وفي صحيح سنن أبي داود عن ابن عباس ، قال : [إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب : النملة ، والنحلة ، والهدهد ، والضُرْد] (1).

وقد جاء في فضائل العسل وفوائده أحاديث كثيرة ، منها :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : [إن كان في شيء من أدويتكم خيرٌ ففي شَرْطَةِ محجم ، أو شَرْبَةِ من عسل ، أو لدعة بنار توافق داء ، وما أحب أن أكتوي] (2).

الحديث الثاني : أخرج البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [الشفاء في ثلاثة : في شَرْطَةِ محجم ، أو شَرْبَةِ عَسَلٍ ، أو كَيْة بنار ، وأنهى أمتي عن الكي] (3).

وله شاهد في مسند أحمد من حديث عقبة قال : قال رسول الله ﷺ ثلاثاً : [إن كان في شيء شفاء فشرطه محجم ، أو شربة عسل ، أو كية تصيب الماء ، وأنا أكره الكي ولا أحبه].

قال ابن جريج : (قال الزهري : عليك بالعسل ، فإنه جيد للحفظ ، وأجوده أضفاه وأبيضه ، وألينه حدة ، وأصدقه حلاوة ، وما يؤخذ من الجبال والشجر له فضل على ما يؤخذ من الخلايا ، وهو بحسب مرعى نحله).

الحديث الثالث : أخرج البخاري ومسلم عن عائشة : [أن رسول الله ﷺ كان يُعَجِّبُهُ الحَلَوَاءُ العَسَلُ] (4).

الحديث الرابع : أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخي استطلق بطنه؟ فقال : اسقه عسلاً].

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (5267) - باب في قتل الذر . وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث (4387).

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5681) ، كتاب الطب ، وانظر (5860) ، وأخرجه مسلم (2205) ، وأخرجه أبو يعلى - حديث رقم - (2100).

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5680) - كتاب الطب . وانظر حديث (5683) - كذلك .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5431) - (5614) ، وأخرجه مسلم (1474) ، وأبو داود (3715) ، وأخرجه ابن ماجه (3323) ، وأخرجه أحمد في المسند (59/6).

فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ، سَقَيْتُهُ عَسْلاً فما زاده إلا استطلاقاً! قال : اذهب فاسقه عسلاً . فذهب فسقاه ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ، ما زاده إلا استطلاقاً! فقال رسول الله ﷺ : صدقَ الله وكَذَبَ بطنُ أخيك! اذهب فاسقه عسلاً . فذهب فسقاه فَبَرَأَ⁽¹⁾ .

قال بعضُ العلماء بالطب : (كان هذا الرجل عنده فضلاتٌ ، فلما سقاه عَسْلاً وهو حارٌّ تحلَّلت ، فأسرعت في الاندفاع ، فزاد إسهاله ، فاعتقد الأعرابي أن هذا مضرةٌ ، وهو مصلحةٌ لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحليلُ والدفعُ ، ثم سقاه فكَذَلَكَ ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه ، وصَلَحَ مزاجه ، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ، عليه من ربِّه أفضلُ الصلاة والسلام)⁽²⁾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . قال القاسمي : (أي : فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه ، وانفراده بالوحيته . وأنه هو الذي ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلمت مساقط الأنداء ، من وراء البيداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنقة ، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضاباً⁽³⁾ ، وتلفظه شراباً) .

70 - 72 . قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤَوِّفُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَوَّلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ .

في هذه الآيات : إثبات الخلق والحياة والتصرف في العمر لله العليم القدير . وكذلك

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5716) ، ومسلم (2217) ، والترمذي (2083) ، وأحمد (19/3) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(2) ذكره الحافظ ابن كثير في «التفسير» - انظر تفسير سورة النحل - آية (69) . قلت : وقوله ﷺ «صدق الله وكذب بطن أخيك» يشير إلى التفسير السابق للآية : أن المقصود من قوله : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ العسل ، ومن ذهب إلى أنه القرآن فلا مناسبة في الآيات لذلك .

(3) الرُّضَابُ : بالضم هو الريق . والرَّاضِبُ : ضَرْبٌ مِنَ السُّدْرِ وَالسَّحُ مِنَ الْمَطَرِ . كذا في القاموس .

التفضيل في الرزق والولد والخير وما المشركون برادّي ذلك على عبيدهم أفينعمة الله يجحدون. الله تعالى هو الذي جعل لكم الأزواج والبنين والحفدة ورزقكم فكيف تكفرون!.

فقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ﴾ - أي يقبض أرواحكم من أبدانكم. فهو إخبار من الله تعالى عن تصرفه بخلقه، إذ أنشأهم من العدم، ثم يحييهم، ثم يميتهم.

وقوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾. قال النسفي: (إلى أخسه وأحقره، وهو خمس وسبعون سنة، أو ثمانون، أو تسعون).

وفي التنزيل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

وقوله: ﴿لَيْكُنْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾. قال ابن كثير: (أي: بعد ما كان عالماً أصبح لا يذكر شيئا من الفناء والحرف). قال ابن عباس: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَيْكُنْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، يعني إلى أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له).

وفي صحيح السنة أحاديث في آفاق معنى الآية:

الحديث الأول: أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: [كان رسول الله ﷺ يتعوذ يقول: اللهم إني أعوذ بك من الكسل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من البخل]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرجه البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: [كان يأمر بهؤلاء الخمس ويُنْخِرُهُنَّ عن النبي ﷺ قال: اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله تعالى

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6371)، ومسلم (2706)، وأبو داود (1540)، وأحمد (113/3) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6370) - كتاب الدعوات، باب التعوذ من البخل. وكذلك (6390). وأخرجه النسائي (256/8)، والترمذي (3567)، وابن حبان (1005) (1011)، وأخرجه أحمد (183/1)، (186/1) من حديث سعد بن أبي وقاص.

عنه: [أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ ، وَأَزْدِلِ الْعُمْرِ ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ] (1).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول: إن الله لا ينسى ، ولا يتغير علمه ، عليم بكل ما كان ويكون ، قدير على ما شاء لا يجهل شيئاً ، ولا يُعجزه شيء أراده).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا آلَيْتَ فَضْلُوا بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: لم يكونوا يشركون عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني ، فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾). وقال مجاهد: ﴿بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: مثل آلهة الباطل مع الله تعالى ذكره. وقال قتادة: (هذا الذي فَضَّلَ في المال والولد ، لا يشرك عبده ماله وزوجته ، يقول: قد رضيت بذلك لله ، ولم ترض به لنفسك ، فجعلت لله شريكاً في ملكه وخلقه).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾. قال قتادة: (أي: والله خلق آدم ، ثم خلق زوجته منه ، ثم جعل لكم بنين وحفدة). وفي تفسير قوله: ﴿وَحَفَدَةً﴾ أكثر من تأويل:

1 - قال ابن عباس: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: هم الولد وولد الولد. وقال: (بنوك حين يحفدونك ويرفدونك ، ويعينونك ويخدمونك).

2 - قال مجاهد: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: ابنه وخادمه. أو قال: (الحفدة: الأنصار والأعوان والخُدام). وقال طاووس: (الحفدة: الخدم). وقال عكرمة: (الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك). وقال الضحاك: (إنما كانت العرب يخدمها بنوها).

3 - وقال العوفي ، عن ابن عباس: (بنو امرأة الرجل ، ليسوا منه). وقال أيضاً: (هم الأصهار).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (4707) - كتاب التفسير - سورة النحل ، آية (70) ، وهي الآية موضع التفسير.

ويقال: «الحفدة»: الرجل يعمل بين يدي الرجل ، يقال: فلان يحفد لنا أي يعمل لنا.

قلت: وأصل الحَفْد في كلام العرب: خفة العمل. وفي الحديث: «إليك نسعى ونحفد»: أي نسرع إلى العمل بطاعتك. قال الرازي: (الحَفْد: السرعة. والحَفْدَة: الأعوان والخدم وقيل الأختان وقيل الأصهار وقيل ولد الولد ، واحدُهم حافِد). فكل ما سبق داخل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾ - وإن كان قوله ﴿مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ يشير بالخصوص إلى أولاد الأولاد وأولاد البنات من الأصهار ، فعادة يعيشون في قرب الرجل وخدمته. وغاية الأمر التذكير بنعمة الله تعالى على العبد في المال والأهل والزوجة والولد.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾. أي: من ألوان المطاعم وأصناف المشارب والملذات الحلال. وقوله: ﴿أَفِيَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾. أي: أبعد كل هذا يصرفون العبادة أو الدعاء والتعظيم للأوثان والأصنام والطواغيت وينسون المنعم المتفضل سبحانه وتعالى.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُوتَى بالعبد يوم القيامة فيقول له: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وَبَصْراً وَمَالاً وَوَلَدًا ، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ ، وَتَرَكْتُكَ تَرَأْسُ وَتَرْبُعٌ ، فَكُنْتَ تَنْظُرُ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني] (1).

73 - 76. قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (2558) - أبواب صفة القيامة ، وانظر صحيح سنن الترمذي (1978).

اللَّهُ مَثَلًا لِّرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْتَمًا
يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ .

في هذه الآيات : ذمُّ الله المشركين في عبادتهم ما لا يملك لهم نفعاً ، وتحذيرهم من
تشبيه الله بالأشياء والأمثال . وتمثيل الله الكافر والمؤمن ، فالكافر رزقه مالاً فعمل
بمعصيته تعالى ، والمؤمن رزقه كذلك فعمل بطاعته تعالى ، فهما لا يستويان مثلاً .
وتمثيل الله القائم على دينه والعاجز لا يقدر على خير ، فالأول يدعو إلى الحق
والعدل ، والثاني عاجز مريض عالة لا يصلح لمهمة ، فهما كذلك لا يستويان مثلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَحِلُّ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴾ . أي : ورغم كل ما سبق بيانه من نعم الله على العباد ، فإن المشركين بالله
يعظمون من دونه أوثاناً لا تملك لهم رزقاً من السماوات والأرض ، فلا تقدر على إنزال
القطر ولا إخراج النبات والثمار ، بل ولا تقدر على شيء . قال قتادة : (هذه الأوثان
التي تُعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها رزقاً ولا ضرراً ولا نفعاً ، ولا حياة
ولا نشوراً) .

وقوله : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ . قال ابن عباس : (يعني اتخاذهم الأصنام ، يقول :
لا تجعلوا معي إلهاً غيري ، فإنه لا إله غيري) . وقال قتادة : (فإنه أحدٌ صمد ، لم يلد ،
ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) . والمقصود : لا تمثلوا لله الأمثال ، ولا تشبهوا له
الأشياء ، فإنه - تعالى - لا مثل له ، ولا شبهة .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . قال قتادة : (يقول : والله أيها الناس يعلم خطأ
ما تمثلون وتضربون من الأمثال وصوابه ، وغير ذلك من سائر الأشياء ، وأنتم
لا تعلمون صواب ذلك من خطئه) .

وقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ الآية - إلى قوله :
﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . قال قتادة : (هذا مثل ضربه الله للكافر ، رزقه مالا فلم يقدم
فيه خيراً ، ولم يعمل فيه بطاعة الله ، قال الله تعالى ذكره ﴿ وَمَنْ زَرَقْنَاهُ مِثْرًا حَسَنًا ﴾
فهذا المؤمن أعطاه الله مالا ، فعمل فيه بطاعة الله ، وأخذ بالشكر ، ومعرفة حق الله ،
فأنابه الله على ما رزقه الرزق المقيم الدائم لأهله في الجنة ، قال الله تعالى ذكره : ﴿ هَلْ

يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴿[الزمر: 29] ، والله ما يستويان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال مجاهد: (ضرب الله هذا المثل ، والمثل الآخر بعده لنفسه ، والآلهة التي تعبد من دونه).

يروى ابن جرير ورجاله رجال الصحيح عن ابن عباس: [في قوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبد ، وفي قوله: ﴿مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأتي بخير ذاك مولى عثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة ، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه ، وينهاه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما⁽¹⁾.

قال قتادة: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ هو الوثن ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ قال: الله يأمر بالعدل.

قال النسفي: (الأبكم الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿أَيْنَمَا يُوْجَّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة ، فهو يأمر بالعدل والخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على سيرة صالحة ودين قويم. وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمته وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع).

77 - 79. قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا

كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» (21814) - ورجاله رجال الصحيح. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - سورة النحل ، آية (75 - 76).

تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ .

في هذه الآيات: إثبات الله تعالى أمر الغيب له وتحذيره عباده فجأة الساعة والقيام للحساب. وامتنان من الله تعالى على عباده أن أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً فرزقهم السمع والأبصار والأفئدة لإدراك العلوم وفهم المنافع والمضار لعلهم يشكرون. إن في تسخير الله الطيور وحملها في جو السماء آيات لقوم يؤمنون.

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: والله أيها الناس ملك ما غاب عن أبصاركم في السماوات والأرض دون آلهتكم التي تدعون من دونه، ودون كل ما سواه، لا يملك ذلك أحد سواه).

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال قتادة: (هو أن يقول: كن، فهو كلمح البصر، فأمر الساعة كلمح البصر أو أقرب، يعني يقول: أو هو أقرب من لمح البصر).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50]. أي: يكون ما يريد كطرف العين.

2 - وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

امتنان جديد من الله سبحانه على عباده، فهو الذي أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم رزقهم السمع الذي يدركون به الأصوات، والأبصار اللاتي يبصرون بها المحسوسات والمرئيات، والأفئدة - وهي العقول - يميزون بها المنافع من المضرات، ومركز العقل والفهم هو القلب، وهو مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، لعلهم يعرفون نعمة ربهم عليهم فيقدرونها ويقومون بحق شكرها.

قلت: وأعظم شكر تلك النعم صرفها في طاعة الله والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر ، فإن ذلك خير عمل الجوارح والقلب ، والله سوف يسأل العبد يوم القيامة عن صحته ونعمة العافية . وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : 23] .

2 - وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان : 2] .

ومن كنوز صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال :
[نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ] ⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك] ⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ : [يُؤْتَى بالعبد يوم القيامة فيقول له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحراث ، وتركتك ترأساً وترْبُع ، فكنت تَظُنُّ أنك ملاقي يومك هذا؟] الحديث ⁽³⁾ .

الحديث الرابع: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : [يقولُ تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب . وما تقرب إلي عبدي بأفضل من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعاً الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطشُ بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن دعاني

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (6412) - كتاب الرِّفَاق ، باب الصحة والفراغ ، ولا عيش إلا عيش الآخرة .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم (1088) - وكتابي : أصل الدين والإيمان (691 / 1) لتفصيل البحث : «نعمة استواء الخلق واكتمال صورته» .

(3) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في الجامع - حديث رقم - (2558) - أبواب صفة القيامة ، وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1978) ، وقد مضى بتمامه .

لأجيبته ، ولئن استعاذ بي لأعيذته ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا يُبدل له منه⁽¹⁾ .

يعني: إن العبد إذا صدق الله النية والعمل جعل الله جوارحه منساقاً لأمر الله ورضاه ، فلا يسمع إلا ما يرضي ربه تعالى ، ولا يبصر إلا ما يحب سبحانه ، وكذلك أعمال سائر جوارحه .

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . قال قتادة: ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾: أي في كبد السماء) .

وفي التنزيل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبُضُنَّ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: 19] .

قال النسفي: ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ هو الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو ﴿ مَا يُمَسِّكُهُنَّ ﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ بقدرته . وفيه نفي لما يصوره الوهم من خاصية القوى الطبيعية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الخلق لا غنى به عن الخالق) .

80 - 83 . قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَثَمَنًا إِلَى حِينٍ ﴾ ^(٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَفِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَفِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ^(٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمُبِينُ ^(٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ^(٨٣) .

في هذه الآيات: امتنان الله على عباده بنعمة البيوت والسكن والفائدة من جلود الأنعام في ذلك . ونعمة الظلال والجبال والسرابيل وآفاق المنافع من وراء هذا الخلق

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (292 / 11) ، (297 / 11) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر فتح الباري (295 / 11) .

والتسخير كذلك. ثم إن أكثر الناس بنعم الله يجحدون ، وقليل من عباد الله الذين يشكرون.

فقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ الآية. قال مجاهد: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال: تسكنون فيه). وعن ابن عباس: ﴿أَثْنًا﴾ ، قال: يعني بالأثاث: المال). وقال مجاهد: ﴿أَثْنًا﴾: متاعاً). وقيل: هو الثياب. وقوله: ﴿وَمَتَّعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال مجاهد: (إلى الموت). وقال ابن عباس: ﴿وَمَتَّعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ فإنه يعني: زينة ، يقول: ينتفعون به إلى حين). وقال قتادة: (إلى أجل وبلغة).

فالمعنى: والله جعل لكم أيها الناس من الحجر والمدر بيوتاً تسكنون فيها حين إقامتكم في دوركم وبلادكم ، وجعل لكم خياماً من الشعر والصوف والوبر والجلد تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم لإقامة متنقلة وأيام محدودة ، كما تستفيدون منها لإقامتكم في بلادكم وأمصاركم. قال ابن كثير: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ ، أي: الغنم ، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ ، أي: الإبل. ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ ، أي: المَعَزِ - والضمير عائد على الأنعام - ﴿أَثْنًا﴾ ، أي: تتخذون منه أثناً ، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب. والصحيح أعم من هذا كله ، فإنه يتخذ منه الأثاث والبُسط والثياب وغير ذلك ، وَيَتَّخِذُ مَالاً وَتِجَارَةً. وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ، أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾. قال قتادة: (إي والله... من الشجر ومن غيرها). وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا﴾ - أي حصوناً ومعاقل ومواقع تسكنون فيها ، والأكنان: جمع كِنٌ⁽¹⁾. قال الرازي: (الكِن: السُّترة. والأكنة: الأغصنة). قال قتادة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا﴾ يقول: غيراناً من الجبال يسكن فيها).

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾. قال قتادة: (يعني ثياب القطن والكتان والصوف وقمصها). وقوله: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾. وهي الدروع التي تقي الناس في الحرب وما شابهها. قال قتادة: (هي سراويل من حديد). والمراد دروع الحديد المصفَّح والرَّزْد ونحوها مما يرد سلاح العدو أثناء القتال ويصد ضرباته.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ نِعَمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾. قال قتادة: (هذه السورة

(1) وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك. والمراد هنا بيوت السكن في مغاور وتجاويف الجبال.

تسمّى سورة النِّعَم. قال النسفي: (أي تنظرون في نعمته الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾. قال القرطبي: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فالينا).

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ - فيه أكثر من تأويل:

1 - قال السدي: (يعني محمداً ﷺ، أي يعرفون نبوته ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ويكذبونه).

2 - قال مجاهد: (يريد ما عدّد الله عليهم في هذه السورة من النعم، أي يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم).

3 - قال عَوْْنُ بن عبد الله: (هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا، ولولا فلان ما أصبت كذا، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله).

4 - وقال الكلبي: (هو أن رسول الله ﷺ لما عرّفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا: نَعَمْ، هي كلها نِعَم من الله، ولكنها بشفاعة آلهتنا).

5 - وقيل: يعرفون نعمة الله بتقلبهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها.

6 - وقيل: يعرفونها في الشدة وينكرونها في الرخاء.

7 - وقيل: يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم.

8 - وقيل: يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم.

قلت: وجميع ما سبق مما يحتمل التأويل، ويتسع له البيان الإلهي والإعجاز القرآني.

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ - قيل المراد جميعهم، وقيل المراد أغلبهم.

84 - 88. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَبُونَ﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ

يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَ ذَلِكَ السَّلَامِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَادَنَّهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ .

في هذه الآيات: تحذير الله عباده اليوم الموعود ، يوم يبعث الله فيه الشهود ، فلا يؤذن بالاعتذار للذين كفروا ، ولا يخفف العذاب عن الذين ظلموا ، ولا يلقي الشركاء إلا التكذيب والخزي من الذين أشركوا ، ويزيد الله الكافرين الذين كانوا يصدون عن سبيل الله عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون .

فقوله: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ . قال قتادة: (وشاهدها نبيها ، على أنه قد بلغ رسالات ربه ، قال الله تعالى: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾) .

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: ثم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار ، فيعتذروا مما كانوا بالله وبرسوله يكفرون ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ فيتركوا الرجوع إلى الدنيا ، فينبوا ويتوبوا ، وذلك كما قال تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾) .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ .

أي: إذا عاين المشركون الذين كذبوا الرسل عذاب جهنم بالدخول إليها فإنهم لا يخفف عنهم عذابها بالعذر الذي يلقونه ولا يُقْتَرُ عنهم ساعة ، ولا يُرْجَوْنَ بالعقاب فقد فات وقت التوبة .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

أي: وإذا أبصر المشركون يوم الحساب أوثانهم وأصنامهم والطواغيت التي كانوا يعبدونها من دون الله تقودهم إلى النار بأمر الله ، قالوا ربنا هؤلاء الذين اتخذناهم أرباباً وجعلناهم لك شركاء ، فكذبتهم الآلهة بأنها لم تكن آلهة ولا أمرتهم بعبادتها . قال القرطبي: (فيُطلق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار . وقيل: المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم) .

وقال أبو مسلم الأصفهاني: (مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام. وظنوا أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم. فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام) - ذكره القاسمي.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِئِمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: 5 - 6].

2 - وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: 81 - 82].

3 - وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيفٍ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: 25].

ومن كنوز صحيح السنة في مفهوم هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْهُ ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ ..] الحديث⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرجه الدارمي في سننه بسند جيد عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد نادى مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، ويبقى الناس على حالهم ، فيأتيتهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم هاهنا؟ فيقولون: نتظر إلهاً ، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه ، فيكشف لهم عن ساقه ، فيقعون سجداً ، وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ، ويبقى كل منافق ، فلا يستطيع أن يسجد ، ثم يقودهم إلى الجنة]⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7437) - كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم (182) ، وابن حبان (7429) ، وأخرجه عبد الرزاق (20856) ، وابن أبي عاصم (455) - في أثناء حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه الدارمي في سننه (326/2) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (584).

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُؤْمِدُ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: استسلم المشركون لعذاب الله وخضعوا لِعِزِّهِ ، وزال عنهم ما كان من تزيين الشيطان لهم في شفاعة آلهتهم ، وخاب ما كانوا يؤملون من ذلك . قال قتادة: ﴿وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُؤْمِدُ السَّلَامُ﴾ يقول: ذلوا واستسلموا يومئذ).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾. قال القاسمي: (أي يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصددهم غيرهم عن الإيمان ، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتَهَوَّنَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 26]. وفي الآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم . كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 38].

89 - 92. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾.

في هذه الآيات: اختصاص الله تعالى بنبيه محمد ﷺ بالشهادة على الأمم ، وبالقرآن المبين الذي يحمل الهدى والرحمة والبشرى للمسلمين أولي الهمم . وأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالعدل والإحسان ، وتحذيرهم الفواحش والموبقات والطغيان ، وتنبيههم على تعظيم أمر الإيمان ، فإليه يرجع يوم القيامة جميع الأنام .

فقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾. تشريف من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في اختصاصه برفع المقام يوم حشر الخلائق ،

وجعل شهادته الحكم الفصل على أعمال أمته وتصديقهم له أو تكذيبهم ، وعلى بلاغ الرسل لأممهم .

وفي التنزيل: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 41] .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج أحمد والبخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، والنبي ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم . فيدعى قومه ، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا ، فيقال له: من يشهد لك ، فيقول: محمد وأمه ، فيدعى محمد وأمه ، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم ، فيقال: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: جاءنا نبينا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فصداً قناه ، فذلك قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، والترمذي في جامعه ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [يجيء نوح وأمه ، فيقول الله: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب! فيقول لأمه: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ، ما جاء لنا من نبي ، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ . والوسط: العدل ، فيدعون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: [اقرأ عليّ القرآن ، فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري . فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (286/6) ، وأحمد (32/2) ، وانظر صحيح الجامع (7889) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (139/8) ، (286/6) ، وأحمد (32/3) ، ورواه الترمذي وغيره ، انظر صحيح الجامع - حديث رقم - (7890) .

الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك الآن. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. قال مجاهد: (مما أحل وحرم). أو قال: (ما أمر به ، وما نهى عنه). وقال ابن مسعود: (أنزل في هذا القرآن كل علم وكل شيء ، فقد بين لنا في القرآن ، ثم تلا هذه الآية). وقول ابن مسعود أشمل لمعنى الآية ، فالقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه العباد من معرفة أمر دينهم ودنياهم ، ومعاشهم ومعادهم.

وقوله: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. قال ابن جرير: ﴿وَهْدَىٰ﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن صدق به ، وعمل بما فيه من حدود الله ، وأمره ونهيه ، فأحل حلاله ، وحرم حرامه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يقول: وبشارة لمن أطاع الله وخضع له بالتوحيد ، وأذعن له بالطاعة ، يشيره بجزيل ثوابه في الآخرة ، وعظيم كرامته).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾. أمر من الله بالقسط ، وندب إلى الإحسان ، وصلة القرابة والأرحام. وعن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ، قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وقال سفيان بن عُيينة: (العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً. والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته. والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته). وفي التنزيل حث على الإحسان وصلة الأرحام:

1 - قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:

40].

2 - وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126].

3 - وقال تعالى: ﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ وَلَا تُبْدِرْ بَئِذًا﴾

[الإسراء: 26].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5050) ، وأخرجه مسلم (800) ، وأخرجه أحمد (1/380).

يوماً بارزاً للناس ، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسوله ، وتؤمن بالبعث الآخر. قال يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان. قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إن لا تراه ، فإنه يراك . [الحديث (1)].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» ، وأبو داود في السنن من حديث أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: [ما من ذنب أجدُر أن يُعَجَّلَ لصاحبه العقوبة مع ما يدخر له ، من البغي وقطيعة الرحم] (2).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا يدخل الجنة قاطع] (3). قال سفيان: (يعني قاطع رحم).

وقوله: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾. أي عن الكبائر والمنكرات والعدوان على الناس. قال ابن عباس: (الفحشاء: الزنا ، والبغي: الكبر والظلم). وعن قتادة - في هذه الآية - قال: (ليس من خُلِقَ حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به. وليس من خُلِقَ سيئاً كانوا يتعاضدونه بينهم إلا نهى الله عنه وقَدَّمَ فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها). قال ابن كثير: (الفواحش: المحرمات. والمنكرات ما ظهرَ منها من فاعليها ، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33]. وأما البغي فهو العدوان على الناس).

قلت: والبغي عقوبته معجلة في الدنيا قبل الآخرة ، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الحج: 71].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (30/1) - كتاب الإيمان - وانظر مختصر صحيح مسلم ، باب: أول الإيمان قول لا إله إلا الله. وأخرجه أبو داود في السنن (4695) ، والترمذي (2610) ، والنسائي (97/8) من حديث عمر.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (29) ، والترمذي (2511) ، وأخرجه أبو داود (4902) ، وانظر: «صحيح الأدب المفرد» (23) - باب عقوبة عُقُوق الوالدين.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (347/10) ، وأخرجه مسلم - حديث رقم - (2556).

2- وقال تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: 18].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشُّحَّ فإن الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم] ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليُملي للظالم ، فإذا أخذه لم يُفلته ، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾] ⁽²⁾.

وقوله: ﴿ يَعْظُمُ لَكُمْ لَمَلُكُمْ تَذَكُّرٌ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: يذكركم أيها الناس ربكم لتذكروا فتنبوا إلى أمره ونهيهِ ، وتعرفوا الحق لأهله).

وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾. أمرٌ من الله تعالى عباده بالوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة. قال مجاهد: ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول: بعد تشديدها وتغليظها. ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ قال: وكيلاً).

وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الْزَبُوءُ أَمْنًا أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ ﴾ [المائدة: 1].

2- وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: 34].

ومن كنوز السنة في آفاق معنى الآية ، أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [لكل غادرٍ لواء يوم القيامة ، يقال: هذه غدرُ فلان] ⁽³⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد مرفوعاً:

- (1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2578) ، كتاب البر والصلة.
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 267) ، وأخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2583).
- (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (10/ 464) ، (12/ 299) ، وأخرجه مسلم - حديث رقم - (1735) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[لكل غادر لواء عند استيه يوم القيامة يُرْفَعُ له بِقَدَرِ غَدْرِهِ ، ألا ولا غَادِرَ أعظمُ غَدْرًا من أمير عامة]⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [المسلمون على شروطهم]⁽²⁾.

الحديث الرابع: أخرج ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ عَشَّنَا فليس منا ، والمكر والخداع في النار]⁽³⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. قال ابن كثير: (تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها).

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَنَّا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾. قال السدي: (هي خزقاء بمكة كانت إذا أبرمت غزلها نقضته). وقال قتادة: (قلو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحق هذه! وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده). وقال مجاهد: (غزلها: حبيلها ، تنقضه بعد إبرامها إياه ، ولا تنتفع به بعد). وقوله: ﴿أَنْكَنَّا﴾ يعني: أنقاضاً. والمقصود نقض العهد. قال ابن جرير: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾: تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتموه ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ يقول: خديعة وغروراً ليطمئنوا إليكم ، وأنتم مضمرون لهم الغدر ، وترك الوفاء بالعهد ، والثقله عنهم إلى غيرهم من أجل أن غيرهم أكثر عدداً منهم).

وعن ابن عباس: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ يقول: أكثر) أو قال: (يقول: ناس أكثر من ناس). قال مجاهد: (كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينفضون حلف هؤلاء ، ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز منهم ، فنهوا عن ذلك). وعن قتادة: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ يقول: خيانة وغدراً بينكم ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أن يكون قوم أعز وأكثر من قوم).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (1738) (16).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (3594) - كتاب الأقضية ، باب في الصلح. وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3063).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (1107) ، والطبراني في «المعجم الصغير» ص (153) ، وفي «المعجم الكبير» (1/69/3). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1058).

وفي لغة العرب: أربى - على وزن أفعل - من الربا ، هذا أربى من هذا ، إذا كان أكثر منه .

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَبَلُغُكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُنَظِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ . قال سعيد بن جبيز: (﴿ إِنَّمَا يَبَلُغُكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ ، يعني بالكثرة) . وقال ابن جرير: (أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد) . ثم قال: (وليبيّن لكم أيها الناس ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه بمجازاة كلّ فريق منكم على عمله في الدنيا ، المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته) .

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 58] .

وفي صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي بكرة مرفوعاً: [ما مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْقَطِيعَةِ الرَّحِمِ] (1) .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند جيد عن أبي بكرة مرفوعاً: [ما مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ قِطْعَةِ الرَّحِمِ ، وَالْخِيَانَةِ ، وَالْكَذِبِ ، وَإِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَاباً لِّصَلَةِ الرَّحِمِ ، حَتَّىٰ إِنْ أَهْلَ الْبَيْتِ لِيَكُونُوا فَجْرَةً ، فَتَنَمُو أَمْوَالَهُمْ ، وَيَكْثُرَ عَدَدُهُمْ ، إِذَا تَوَاصَلُوا] (2) .

الحديث الثالث: أخرج البيهقي في «السنن الكبرى» - بسند صحيح في الشواهد - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ليس شيء أطيع الله فيه أعجل ثواباً من صلة الرحم ، وليس شيء أعجل عقاباً من البغي وقطيعة الرحم ، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع] (3) .

- (1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2/ 301 - 302) ، وأحمد (5/ 36 - 38) ، والترمذي (2/ 83) ، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ص 12) ، وأخرجه الحاكم (2/ 356) ، وغيرهم .
- (2) حديث صحيح . أخرجه الطبراني وبعض ألفاظه عند ابن حبان . انظر: «مجمع الزوائد» (8/ 152) ، و«الترغيب» (3/ 228) - للمنزري ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (ج 2) (ص 624) .
- (3) صحيح لشواهد . أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (10/ 35) ، وانظر للرواية بعده «المعجم الأوسط» - للطبراني (1/ 155/ 2) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (978) .

وله شاهد عند الطبراني في «الأوسط» من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، وإن أهل البيت ليكونون فجاراً ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا وصلوا أرحامهم ، وإن أعجل المعصية عقوبة البغي والخيانة ، واليمين الغموس يذهب المال ، ويثقل في الرحم ، ويذر الديار بلاق].

93 - 97. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَشْتَغِلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات الله قهر مشيئته كل مشيئة ، فهو - تعالى - يضل من يشاء ويهدي من يشاء بحكمته ، وإليه المرجع للحساب جلّت عظمتة. وتحذير منه سبحانه من اتخاذ الأيمان خديعة ومكرراً ، والشراء بعهده ثمناً قليلاً. وتبشير المؤمنين أهل الأعمال الصالحة الرفيعة ، بحياة طيبة في الدنيا والآخرة.

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَشْتَغِلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال النسفي: ﴿﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾﴾ حنيفة مسلمة ﴿﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿﴿وَلَتَشْتَغِلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾﴾ يوم القيامة فتجزون به).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾﴾ [يونس : 99].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٩﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلَئِذَاكَ خَلْقُهُمْ﴾ [هود: 118 - 119].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَحَّضُوا بِأَيْمَانِكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن كثير: (حذّر تعالى عباده من اتخاذ الأيمان دخلاً ، أي: خديعةً ومكرًا ، لثلاث تزلّ قدمٌ بعد ثبوتها ، مثل لمن كان على استقامةٍ فحاذَ عنها وزلَّ عن طريق الهدى ، بسبب الأيمان الحائثة المشتملة على الصدّ عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوقٌ بالدين ، فانصدّ بسببه عن الدخول في الإسلام ، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. قال القاسمي: (أي: لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً. وهو ما كانت قريش يبعّدونهم ويمنونهم ، إن ارتدوا ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ﴾ أي من إظهاركم في الدنيا وإثابتكم في الآخرة ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي من ذوي العلم والتمييز).

وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أي: كل ما عندكم أيها الناس وإن كثر لنافذ فإن ، وما عند الله خير وأبقى لمن صبر وعمل صالحاً ، وليشيبن الله الذين صبروا بأجر أحسن أعمالهم. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وليشيبن الله الذين صبروا على طاعتهم إياه في السراء والضراء ، ثوابهم يوم القيامة على صبرهم عليها ، ومسايرتهم في رضا ، بأحسن ما كانوا يعملون من الأعمال دون أسوئها ، وليغفرن الله لهم سيئها بفضلها).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وغدّ من الله تعالى للمؤمنين أهل العمل الصالح أن يحييهم - سبحانه - حياة طيبة في الدنيا وأن يجازيهم بأحسن أعمالهم في الآخرة.

وقد اشتملت أقوال أهل التأويل في هذه الآية على معان كثيرة متكاملة:

1 - قال ابن عباس: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ قال: الحياة الطيبة: الرزق الحلال في

الدنيا). وفي لفظ: (الرزق الحسن في الدنيا). وفي لفظ آخر: (الرزق الطيب في الدنيا). وقال الضحاك: (الرزق الطيب الحلال).

2- قال الحسن البصري: (الحياة الطيبة: القناعة).

3- قال الضحاك: (يقول: من عمل عملاً صالحاً وهو مؤمن في فاقة أو ميسرة ، فحياته طيبة ، ومن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل صالحاً ، عيشته ضنكة لا خير فيها).

4- قال قتادة: (قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ، فإن الله لا يشاء عملاً إلا في إخلاص ، ويوجب من عمل ذلك في إيمان ، قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وهي الجنة). وقال مجاهد: (الآخرة ، يحييهم حياة طيبة في الآخرة). وقال الحسن: (ما تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة).

5- وقيل: المقصود بالحياة الطيبة: السعادة ، ذكره ابن عباس.

قلت: والحياة الطيبة تشمل كل ما ذكر وأكثر ، وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه المعاني في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح عن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه عن عمه قال: كنا في مجلس ، فجاء النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء ، فقال له بعضنا⁽¹⁾: نراك اليوم طيب النفس ، فقال: أجل ، والحمد لله ، ثم أفاض القوم في ذكر الغنى ، فقال: [لا بأس بالغنى لمن اتقى] ، والصحة لمن اتقى خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال: [قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً ، وقتعه الله بما آتاه]⁽³⁾.

وله شاهد عند الترمذي من حديث فضالة بن عبيد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

(1) هو يسار بن عبد الله الجهني رضي الله عنه.

(2) إسناده صحيح. أخرجه أحمد (5/ 272) ، (5/ 381) ، والحاكم (2/ 3) ، وأخرجه ابن ماجه (2141) ، ورجاله ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (174).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1054) ، والترمذي (2348) ، وأحمد (2/ 168) ، وابن حبان (67) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

[قد أفلح من هُدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وَقِنَعْ بِهِ⁽¹⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً ، يُعْطَىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ . وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ إِذَا أَفْضَىٰ إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَىٰ بِهَا خَيْرًا]⁽²⁾ .

الحديث الرابع: أخرج الحاكم وابن حبان بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: [أربع من السعادة: المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء . وأربع من الشقاء: المرأة السوء ، والجار السوء ، والمركب السوء ، والمسكن الضيق]⁽³⁾ .

98 - 100 . قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

الرَّجِيمِ ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ ۞ .

في هذه الآيات: أَمُرُ الله تعالى عباده بالاستعاذة به من الشيطان الرجيم عند تلاوة القرآن ، فإن الشيطان ليس له سلطان على أهل الإيمان ، إنما سلطانه على الذين يتولونه من أهل الشرك والطغيان .

فقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۞ .

قال ابن زيد: (فهذا دليل من الله تعالى دلّ عباده عليه). قلت: والأمر بالاستعاذة - خارج الصلاة - عند تلاوة القرآن هو للوجوب ، كما هو داخل الصلاة لعموم الأمر . قال ابن كثير: (والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة ، لثلاث تَلْتَسِ عَلَى الْقَارِئِ قِرَاءَتُهُ وَيُخْلَطُ عَلَيْهِ ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ) .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2349) ، وأحمد (19/6) ، وصححه ابن حبان (705) ، وكذلك الحاكم (34/1 - 35) ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالوا .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2808) ، وأحمد (123/3) ، وابن حبان (377) .

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1232) ، وأحمد (168/1) ، والحاكم نحوه .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قال الثوري: (ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه). وقيل: المعنى: لا حجة له عليهم. وقيل: ليس له تسلط وولاية على المؤمنين. قال النسفي: (فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وسأوسه). قلت: وكل ما سبق داخل في آفاق مفهوم هذه الآية، فإن صدق الإيمان بالله والتوكل عليه حرز من الشيطان.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42].

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 65].

3 - وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39 - 40].

وفي صحيح السنة المطهرة من آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: روى أحمد في المسند، بسند صحيح، عن سبرة، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعْدَ لِبْنِ آدَمَ بِأَطْرَقِهِ، فَقَعْدَ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسَلِّمُ وَتَذُرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَأَبَاءَ آبَائِكَ؟! فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ: تَهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ... فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ. ثُمَّ قَعْدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تَجَاهِدُ فَهُوَ جِهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتَقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ وَيَقْسِمُ الْمَالَ؟! فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ] (1).

الحديث الثاني: أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبُّ لَا أُبْرِحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي: لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي] (2).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 483)، والنسائي (6/ 21 - 22)، وابن حبان (4593) وإسناده لا بأس به. انظر تخريج الترغيب (2/ 173)، وصحيح الجامع (1648).

(2) صحيح لغيره. أخرجه الحاكم (4/ 261)، والبيهقي في «الأسماء» - ص (134) - بإسناد حسن.

الحديث الثالث: روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أُيسِّرَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ] (1).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَنُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ .

قال مجاهد: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَنُ ﴾ : حجته . ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ ، قال: يطيعونه). وقال قتادة: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَنُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ يقول: الذين يطيعونه ويعبدونه). وقال الضحاك: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ - عدلوا إبليس بربهم ، فإنهم بالله مشركون). وقال مجاهد: (يعبدون رب العالمين). وقال الربيع: (أشركوه في أعمالهم). قال ابن كثير: (ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى. وقال آخرون: معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد).

قلت: وكل ما سبق داخل في مفهوم الآية ، فإن الشيطان يكتسب سلطانه من خضوع الناس له وطاعتهم لأوامره ووساوسه ، حتى يضعف المطيع له أكثر وأكثر ، وربما يحصل التلبس والمس والصرع والدخول المؤذي وما يرافقه من النفث في العقد والسحر وغير ذلك .

ومن هنا جاءت النصوص الشرعية بمخالفته واتخاذها عدواً فإنه رجيم .

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: 168] .

2 - وقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: 208] .

3 - وقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [النور: 21] .

وفي صحيح السنة - في آفاق معنى الآية - أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول: يا ويله أمر ابنُ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 138). وانظر مختصر صحيح مسلم (1804) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1340) - لتفصيل البحث .

آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمِرْتُ بالسجود فعصيت فلي النار⁽¹⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن جابر ، عن رسول الله ﷺ قال: [لا تأكلوا بالشمال ، فإن الشيطان يأكل بالشمال]⁽²⁾ .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [إذا دخل الرجل بيته ، فذكر الله عز وجل عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله ، قال الشيطان: أدركتم المبيت. وإذا لم يذكر الله عند طعامه ، قال: أدركتم المبيت والعشاء]⁽³⁾ .

101 - 105 . قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿ ١٠٣ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ١٠٤ ﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (١٠٥) .

في هذه الآيات: إثبات ضعف عقول المشركين ، أمام منهج التشريع في القرآن الكريم ، الذي نزل به الروح الأمين ، ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، فهم يقولون إنما يعلمه بشر أعجمي وهذا لسان عربي مبين ، والمشركون محرومون من الهداية ولهم عذاب أليم ، فما يفترى النبي الكذب بل أولئك هم الكاذبون .

فقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ - يعني رفعناها ونسخناها بغيرها . قال

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (369) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2019) - كتاب الأشربة ، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2018) - كتاب الأشربة ، الباب السابق ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

مجاهد: (نسخناها ، بدلناها ، رفعناها ، وأثبتنا غيرها). وقال قتادة: (هو كقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: 106]).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَتَرَفُّ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: إن ذلك من فعل الله تعالى بحكمته وعلمه ينسخ ما يشاء من الآيات والأحكام ويثبت ما يشاء. ولكن ضعف عقول المشركين يحملهم على اتهام الرسول ﷺ وأكثرهم جاهلون. قال ابن زيد: (قالوا: إنما أنت مفتر ، تأتي بشيء وتنقضه ، فتأتي بغيره. قال: وهذا التبديل ناسخ ، ولا نبذل آية مكان آية إلا بنسخ).

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾. أي: نزل به جبريل عليه السلام من عند ربه سبحانه بالصدق والعدل. قال محمد بن كعب: (روح القدس: جبرئيل).

وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. قال ابن كثير: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، فَيُصَدِّقُوا بما نزل أولاً وثانياً وَتُخَبِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ، أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

اتهام للنبي ﷺ بأخذ العلم عن بعض الأعاجم ، فكذبهم الله تعالى.

أخرج ابن جرير - ورجاله رجال الصحيح - عن حصين - وهو ابن عبد الرحمن - عن عبد الله بن مسلم الحضرمي: [أنه كان لهم عبدان من أهل عير اليمن ، وكانا طفلين ، وكان يُقال لأحدهما يسار ، والآخر جبر ، فكانا يقرآن التوراة ، وكان رسول الله ﷺ ربما جلس إليهما ، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما ، فأنزل الله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾⁽¹⁾.

قال ابن جرير: (يقول الله تعالى ذكره مكذبهم في قيلهم ذلك: ألا تعلمون كذب ما تقولون ، إن لسان الذي تلحدون إليه ، يقول: تميلون إليه بأنه يعلم محمداً أعجمي. . . يقول: وهذا القرآن لسان عربي مبين).

(1) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (21938) ، ورجاله رجال الصحيح إلا المثني فيه كلام. قال الحافظ في «الإصابة»: سنده صحيح ، وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، رواه الحاكم وصححه. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوداعي - النحل ، (103).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ.

أي: إن الذين لا يؤمنون بهذا القرآن إعراضاً عنه وكبراً أن يفهموه ويضعوا إليه قد أقفل الله قلوبهم وتوعدهم بعذاب أليم. إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن بآيات الله عناداً واستكباراً وأولئك هم الكاذبون. قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هذا جواب وصفهم النبي ﷺ بالافتراء. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هذا مبالغة في وصفهم بالكذب، أي كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان بن حرب - لما سأل هرقل أبا سفيان عن صفات رسول الله ﷺ - قال: [أفكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله، عز وجل] (1).

106 - 109. قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٨﴾.

في هذه الآيات: استثناء المكره على الكفر من الوقوع في الكفر، ولكن من شرح بالكفر صدرًا لزمه تبعات الكفر وله عذاب عظيم. أولئك الذين استحبوا الدنيا على الآخرة والله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم مقابل إصرارهم فأصبحوا خاسرين.

فقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم (7) - كتاب بدء الوحي، عن ابن عباس عنه، في أثناء حديث طويل.

وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْتِهِمُ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

قال ابن عباس: (فأخبر الله سبحانه أنه من كفر من بعد إيمانه ، فعليه غضب من الله ، وله عذاب عظيم ، فأما من أكره فتكلم به لسانه وخالفه قلبه بالإيمان لينجو من عدوه ، فلا حرج عليه ، لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم).

قال ابن جرير: حدثنا ابنُ عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن مَعْمَرٍ ، عن عبد الكريم الجَزْرِيِّ ، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: (أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربَهُمْ في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ. قال النبي ﷺ: «إِنْ عَادُوا فَعُدُّ» (١).

والثبات على الدين أفضل ، وهو أغبط للمشركين ، وأرضى الله سبحانه ، فمن لم يستطع فيجوز له أن يؤالي على الكفر - عند الإكراه - إبقاءً لمهجته . فهذا بلال رضي الله عنه قد ثبت على دينه رغم الأفاعيل التي كانوا يؤذونه فيها ، وقد وضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، وهو يقول: أحذُّ أحذُّ ، ويأبى أن ينطق بكلمة الكفر التي تفرحهم ، وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مُسَيْلِمَةُ الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إزباً إزباً وهو ثابت على ذلك.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حُذافة السهمي أحد الصحابة: (أنه أسرته الروم ، فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له: تَنْصَرُ وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العربُ على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلتُ! فقال: إذن أقتلك. قال: أنت وذاك! قال: فأمر به فَصُلِبَ ، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورِجْلَيْهِ ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فَأُنْزِلَ ، ثم أمر بقدر - وفي رواية: ببقرة من نحاس - فَأُحْمِتَ ، وجاء بأسير من المسلمين فآلقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظامٌ تلوحُ. وعَرَضَ عليه فأبى ، فأمر به أن يُلْقَى فيها ، فرفع في البُكَرَةِ لِيُلْقَى ، فبكى ، فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت

(1) أخرجه الطبري (21946) ، وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (1509) ، والحاكم (357/2) والبيهقي (208/2 - 209) ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وله شواهد في كتب السير. فالخبر بمجموع طرقه - وإن كان بعضها مراسلاً - يتقوى ، والله تعالى أعلم.

لأن نفسي إنما هي واحدة ، تلقى في هذا القدر الساعة في الله ، فأحييتُ أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تُعَذَّبُ هذا العذاب في الله).

وقد ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ، ثم قال: (وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: أما إنه قد حلّ لي ، ولكن لم أكن لأشمتك في. فقال له الملك: فقبّل رأسي وأنا أطلقك. فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم ، فقبّل رأسه ، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: حقّ على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدأ. فقام فقبّل رأسه ، رضي الله عنهما).

وأما الرّدة عن الإسلام بعد الدخول فيه فيدخل في وعيد الآية ، وهو العذاب العظيم في الآخرة ، نتيجة لغضب الله وسخطه ، إضافة إلى خزي عذاب الدنيا. وفي ذلك أحاديث .

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن عكرمة: [أن عليّاً رضي الله عنه حرّق قوماً ، فبلغ ابن عباس فقال: لو كنتُ أنا لم أُحرّقهم ، لأن النبي ﷺ قال: لا تُعذبوا بعذاب الله. ولَقَتْلُهُمْ كما قال النبي ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه»⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي بُرْدَة عن أبي موسى - حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ثم أتبّعه معاذ بن جبل -: [فلما قدّم عليه ألقى له وسادة قال: انزل ، فإذا رجلٌ عنده مِوثقٌ ، قال: ما هذا؟ قال: كان يهودياً فأسلم ثم تهوّد ، قال: اجلس ، قال: لا أجلس حتى يُقتلَ ، قضاء الله ورسوله ، ثلاث مرات ، فأمر به فقتلَ . .] الحديث⁽²⁾.

ورواه أحمد عن أبي بُرْدَة بلفظ: [قدّم على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن ، فإذا رجلٌ عنده ، قال: ما هذا؟ قال: رجلٌ كان يهودياً فأسلم ثم تهوّد ، ونحن نريده على الإسلام مُنذُ - قال: أحسبه - شهرين ، فقال: والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه. فَضُرِبَتْ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3017) - كتاب الجهاد والسير. باب: لا يُعَذَّبُ بعذاب الله. وأخرجه البخاري أيضاً (6922) ، وأبو داود (4351) ، والترمذي (1458) ، وأحمد (217/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6923) - كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم. باب: حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم.

عنقه ، فقال : قضى الله ورسوله أن من رجّع عن دينه فاقتلوه . أو قال : «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَبْكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : حلّ بهؤلاء المشركين غضب الله ، ووجب لهم العذاب العظيم ، من أجل أنهم اختاروا زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة ، ولأن الله لا يوفق القوم الذين يجحدون آياته مع إصرارهم على جحودها) .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَتْهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ﴾ . قال القاسمي : (إنما الجناح على من شرح بالكفر صدره أي طاب به نفساً واعتقده ، استحباً للحياة الدنيا الفانية ، أي إثارة لها على الآخرة الباقية ، فذاك الذي له من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ، من غضب الله عليهم أولاً . وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً . وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً . ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها . فلم يفتح لهم طريق الفهم . وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب . فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور . ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع . وخامساً بكونهم هم الغافلين ، بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه . وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب . وجليّ ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على أفرادها ، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات . فكيف بها كلها!) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

أي : لا بد ولا عجب أن هؤلاء في صنيعهم وإصرارهم على الكفر سيلقون الخسارة في أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

قال الرازي : (ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعته سعادته الآخرة . فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسارته . فلهذا قال : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي الذين ضاعت دنياهم التي استنفدوا

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (231/5) وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم . وأخرجه البخاري (6923) ، ومسلم (1733) ح (15) ، وأحمد (140/4) عن أبي بردة موطولاً .

في تحصيلها وسعهم ، وأتلفوا في طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة في شيء إلا في وبال التحسرات).

110. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

في هذه الآية: إخبار من الله تعالى عن بعض المستضعفين بمكة الذين وآتوا المشركين على الفتنة ، ثم تمكنوا من الهجرة والتخلص من مستنقع الجاهلية والفتن ، تاركين بلادهم وأموالهم وأهلهم ابتغاء رضوان الله ومغفرته ، فأولئك يخطون بمغفرة الله وعفوه بعد تعديل الوقوع السابق بالهجرة والصبر والجهد.

أخرج ابن جرير ورجاله ثقات عن ابن عباس قال: [كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم ، فأصيب بعضهم ، وقُتِلَ بعض ، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمُ الْمُكَلَّفَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: 97]... إلى آخر الآية ، قال: وكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية لا عذر لهم ، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون ، فأعطوهم الفتنة ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]... إلى آخر الآية ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فخرجوا وأيسوا من كل خير ، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فكتبوا إليهم بذلك: إن الله قد جعل لكم مخرجاً ، فخرجوا ، فأدركهم المشركون فقاتلوهم ، ثم نجا من نجا ، وقُتِلَ من قُتِلَ⁽¹⁾.

111. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجْدِلَةٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

في هذه الآية: إخبار من الله سبحانه عن طبيعة مخاصمة النفوس يوم القيامة

(1) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (21953). قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك هو ثقة. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - النحل ، آية (110).

واعذارها بشتى الوسائل عما صدر من أصحابها من أعمال ، ثم يفصل الله تعالى بإعطائه جزاء عملها وافيًا.

قال النسفي: (فالنفس الأولى هي الجملة والثانية عينها وذاتها ، فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمله شأن غيره ، كُلُّ يقول نفسي نفسي ، ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها ، كقولهم: هؤلاء أضلونا ، ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، الآية ، والله ربنا ما كنا مشركين).

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: [كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال: هل تدرون مِمَّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربّه يقول: يا رب ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فَيُخْتَمَ على فيه ، ويقال لأركانه انطقي ، فتتطق بأعماله ، ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام ، فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل⁽¹⁾.

112 - 113. قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: سنة الله في القرى الظالم أهلها الشائع فيها الكفر والفواحش والآثام ، يذيقها الله الخوف والجوع بعد الإنعام والأمان ، وما ظلمهم الله بل أرسل إليهم رسوله فكذبوه فأذاقهم عقوبة أهل المكر والإجرام.

وقد ذكر ابن عباس ومجاهد وقتادة أن المقصود بالقرية التي كانت آمنة مكة . فقد امتن الله تعالى على أهلها بنعمة الأمن والاستقرار ، والناس يتخطفون من حولها ويلوذون بالفرار . وكان رزقها يأتي أهلها هيناً سهلاً من كل البقاع والأرجاء ، فلما

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم (1933) . وقوله: أناضل - أي أجادل وأدافع وأخاصم .

جحدت نعمة الله عليها وأخصها بعثة محمد ﷺ بذلها الله خلاف حالها ، وأذاق أهلها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْفَرَارَ ﴾ [إبراهيم : 28 - 29] .

2 - وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ تُنْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا أَمِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : 57] .

3 - وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلِيفِكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء : 58] .

قال قتادة: (قضاء من الله كما تسمعون ليس منه بد ، إما أن يهلكها بموت وإما أن يهلكها بعذاب مستأصل إذا تركوا أمره وكذبوا رسله) .

وفي صحيح السنة العطرة من آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [إذا ظهر الزنا والزنا في قرية ، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله] (1) .

الحديث الثاني: أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : [إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأسه بأهل الأرض ، وإن كان فيهم صالحون ، يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يرجعون إلى رحمة الله ومغفرته] (2) .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند حسن عن العرس بن عميرة ، عن النبي ﷺ قال : [إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها - وقال مرة: أنكرها - كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فَرَضِيهَا ، كان كمن شهدها] (3) . ثم روى في الباب عن

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني والحاكم . انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (692) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (41/6) ، والحاكم (523/4) ، والبيهقي (2/441) - (2) - شعب الإيمان - وأخرجه أحمد كذلك (6/294) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1372) .

(3) حديث حسن . أخرجه أبو داود (4345) - كتاب الملاحم . باب الأمر والنهي . وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3651) - (3652) .

رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ قال: [لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا ، أَوْ يُعْذِرُوا ، مِنْ أَنْفُسِهِمْ] ⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ . قال القرطبي: (هذا يدل على أنها مكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة . وقيل : الشدائد والجوع منها) .

ومن ذلك العذاب: أنهم لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه ، دعا عليهم يَسْنَعُ كَسَنَعَ يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العِلْهَزَ ، وهو: وَبَرُّ البعير ، يُجْعَلُ بِدَمِهِ إذا نحروه . ثم إنهم بُدِّلُوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه - كما ذكر ابن كثير رحمه الله - حين هاجروا إلى المدينة ، مِنْ سَطْوَةِ سراياه وجيوشه ، وجعلوا كل مالهم في سَفَالٍ ودمار ، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ . وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم ، وامتن به عليهم في قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: 164] ، وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۖ ﴾ ^(١١) [الطلاق: 10 - 11] . وقوله: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١٢) [البقرة: 151 - 152] . ثم قال: (وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرِّغْد ، بَدَّلَ الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ، وَرَزَقَهُمْ بعد العَيْلَةِ ، وجعلهم أمراء الناس وَحُكَّامَهُمْ وقادتهم وسادتهم وأئمتهم) .

وعن قتادة: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ ﴾ أي والله ، يعرفون نسبه وأمره ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ، فأخذهم الله بالجوع والخوف والقتل) .

114 - 117 . قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(١٣) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَى اللَّهِ

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (4347) - الباب السابق . وانظر صحيح أبي داود - حديث رقم - (3653) .

عَفْوٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ .

في هذه الآيات: تقريب الله تعالى لعباده الحلال الطيب وتحبيبهم شكره ، وتحريمه - تعالى - الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله مما يوجب سخطه ، وكذلك الافتراء على أمره بالتحليل والتحريم الذي يوجب عقابه .

فقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ . أمرٌ من الله سبحانه عباده بتخيّر الحلال الطيب من الرزق واجتناب الخبيث الحرام من الأموال والطعام ، والتماس شكره على نعمه تعالى ، فهو المنعم المتفضل الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له . قال النسفي: ﴿ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ : بدلاً عما كنتم تأكلونه حراماً خبيثاً من الأموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب .

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبد نعمة فَحَمِدَ الله عليها إلا كان ذلك الحمدُ أفضلَ من تلك النعمة] (1) .

وله شاهد عند ابن ماجه بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالى على عبد نعمة فقال: الحمد لله ، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ] (2) .

وقوله: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ الآية . هو تحريم الله تعالى ما فيه مضرّة في الدين والدنيا من الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله من ذبائح الجاهلية . قال قتادة: (إن الإسلام دين يطهره الله من كل سوء ، وجعل لك فيه يا ابن آدم سعة إذا اضطررت إلى شيء من ذلك . قوله: ﴿ فَمَنْ

(1) حديث حسن . رواه الطبراني من حديث أبي أمامة ، وابن السني من حديث أنس بن مالك . انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (5438) .

(2) حديث صحيح . انظر سنن ابن ماجه - حديث رقم - (3805) - كتاب الأدب - باب فضل الحامدين . وصحيح سنن ابن ماجه - حديث رقم - (3067) .

أَصْطَرَّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴿١١٤﴾ غير باغ في أكله ولا عاد أن يتعدى حلالاً إلى حرام ، وهو يجد عنه مندوحة). وقوله: ﴿فَلَيْتَ اللَّهُ عَقُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ذو ستر عليه أن يؤاخذه بأكله ذلك في حال الضرورة ، رحيم به أن يعاقبه عليه).

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. قال ابن كثير: (نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا بمجرد ما وضعوه واصطلحوه عليه من الأسماء بأرائهم ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وغير ذلك مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم. ثم قال: ويدخل في هذا كلُّ مُبْتَدِعٍ ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي ، أو حَلَّلَ شيئاً مما حَرَّمَ الله ، أو حَرَّمَ شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهيه).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. توعده أكيد ، وتهديد شديد ، لأولئك الذين يشعرون بأهوائهم متجاوزين حدود الله وشرعه وهدى رسوله ، متاع زائل في الدنيا ، وعذاب أليم في الآخرة.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 69 - 70].

2 - وقال تعالى: ﴿نَمَتْنَاهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24].

ومن صحيح كنوز السنة في آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: [كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول: صَبَحَكُمْ وَمَسَّكُمْ. ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين. ويقرن بين أصبعيه ، السبابة والوسطى ، ويقول: أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة] (1).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد] (2).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (867) - كتاب الجمعة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (211/5) - كتاب الصلح. وأخرجه مسلم (1718) - كتاب الأقضية ، من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي في جامعه بسند صحيح: [أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 31]. فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم! قال: أليس يُحَلِّونَ لَكُمْ ما حَرَّمَ الله فتَحَلُّونَهُ، ويَحَرِّمُونَ ما أَحَلَّ الله فتَحَرِّمُونَهُ؟ قال: بلى. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم⁽¹⁾.

118 - 119. قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

في هذه الآيات: استحقاق اليهود التضييق من الله عليهم بما كسبت أيديهم ، وفتحته تعالى - باب التوبة والإنابة للراجعين إليه الراجين رحمته ليعفو عنهم ويتوب عليهم ، والله غفور رحيم .

فقوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ . قال الحسن: (في سورة الأنعام). والمقصود قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْمٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرِّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِمَعْظُمِ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ [الأنعام: 146].

وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . أي: إنما استحقوا ذلك التضييق بما كسبت أيديهم ، فإن الله لا يظلم أحداً من خلقه ، كما قال تعالى: ﴿ فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: 160].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

أي: وأما الذين عصوا الله فجهلوا وركبوا المعصية والآثام ، وما يسخط الرحمن ، ثم راجعوا طاعة الله وندموا على ما فاتهم واستغفروا وتابوا ، وأصلحوا فباشروا عمل

(1) حديث صحيح. رواه الترمذي (3094) - في التفسير ، ويتقوى بما أخرجه الطبري (16634) عن حذيفة مرفوعاً. وانظر: «فتح المجيد» (107)، وكذلك كتابي: أصل الدين والإيمان (1/447) - لتفصيل مفهوم النهي عن التحاكم لغير الله .

ما يحبه الله ويرضاه، فإن ربك - يا محمد - من بعد إقبالهم تائبين نادمين - لغفور رحيم .
قلت: وهذا باب عظيم فتحه الله سبحانه تشرق به قلوب التائبين الذين أسرفوا على أنفسهم .

ففي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: 53].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 31].

3 - وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: 8].

وفي كنوز السنة المطهرة من آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة]⁽¹⁾.

وفي لفظ لمسلم: [لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: [إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يعزغ]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 91 - 92)، ومسلم - حديث رقم - (2747).

(2) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2759).

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3537)، وأخرجه أحمد (6160) (6400)، وأخرجه الحاكم

(257/ 4)، وصححه ابن حبان (2449)، وأخرجه ابن ماجة (4253)، وغيرهم.

120 - 123. قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْبَنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمَنَّ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ .

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على خليفه إبراهيم ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فقد كان حنيفاً قانتاً لله ولم يك من المشركين ، بل كان على هدى الله المستقيم وإماماً من الشاكرين ، فرفع الله ذكره في الأرض وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، وأوحى إلى نبينا محمد ﷺ اتباع ملته وإحياء منهاجه في نبذ الشرك وإحياء أصول هذا الدين .

فقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ - فيه آفاق كثيرة:

فالأمة: هي الجماعة من الناس والقرن منهم ، كما أن العرب تطلقها أيضاً على الدين ، والطريقة ، والشرعة ، والجماعة أرسل إليهم رسول ، ومن هو على الحق مخالف لسائر الأديان .

وأثم كل شيء أصله ، ومنه سميت مكة أم القرى لأنها توسطت الأرض . قال ابن منظور في «لسان العرب»: (والأمة الرجل الذي لا نظير له ، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾) . وقال القرطبي: (والأمة الجماعة ، وتكون واحداً إذا كان يقتدى به في الخير ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾) .

والقانت: هو الخاشع المطيع ، ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: (الأمة: معلم الخير ، والقانت: المطيع لله ورسوله) .

وقال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: (قال ابن مسعود: إن مُعَاذًا كان أمةً قانتاً لله حنيفاً . فقلت في نفسي: عَلِطَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، إنما قال الله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فقال: تَذْري ما الأمة؟ وما القانت؟ قلت: الله ورسوله أعلم . قال:

الامة الذي يعلم الناس الخير. والقانت: المطيع لله ورسوله. وكذلك كان معاذ يُعَلِّم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله).

وقال مجاهد: (كان إبراهيم أمة، أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفّار).

وقوله: ﴿حَنِيفًا وَتَرَىٰكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. الحنيف: المنحرف قَصْداً عن الشرك إلى التوحيد. قال ابن جرير: (وهذا إعلام من الله تعالى أهل الشرك به من قريش أن إبراهيم منهم بريء، وأنهم منه برآء).

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾. أي: قائماً بمقتضى نعم الله عليه من الشكر والإخلاص في العبادة. كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُمُ الْوَسْوَءَ الْكَافِرَ﴾ [النجم: 37].

وقوله: ﴿أَجْتَنَّبَهُ﴾. أي: اصطفاه للنبوة، واختاره للحُلة.

وقوله: ﴿وَهَدَّاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. أي: أرشده إلى الدين الحق - دين الإسلام - ليعبد ربه على شرع قويم ومنهاج سليم، بعيداً عن الشبهات والشهوات والأهواء التي انخرط بها أكثر الناس، من أهل الكتاب وغيرهم.

وقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾. قال مجاهد: (لسان صدق). وقال قتادة: (فليس من أهل دين إلا يتولاه ويرضاه). قال ابن كثير: (أي: جَمَعْنَا لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنْ جَمِيع ما يحتاج المؤمن إليه من إكمال حياته الطيبة).

وقوله: ﴿وَأَنَّمْ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَ الصَّالِحِينَ﴾. قال النسفي: (لمن أهل الجنة). وقال ابن جرير: (يقول: وإنه في الدار الآخرة يوم القيامة لمن صلح أمره وشأنه عند الله، وحسنت فيها منزلته وكرامته).

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

دليل على كمال دين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وصحة منهجه، واستقامة ملته وتوحيده. فإن الله تعالى جعله أسوة في سلامة الدين وصحة المنهج، حتى أوحى إلى خاتم الأنبياء والمرسلين بالتزام ذلك الصراط المستقيم.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ نَفْسِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 161].

حنيفاً: أي مسلماً على الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام، متبرئاً

- يا محمد - من الأوثان والأنداد والطواغيت التي يعكف عليها قومك ، كما تبرأ من قبل منها أبوك إبراهيم .

124. قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

في هذه الآية: كان اليهود قد فرض عليهم الجمعة يوم عيد يجتمعون فيه للعبادة شأن بقية الأمم ، فاختلفوا في تخصيص هذا اليوم واختاروا السبت بدلاً منه ، فأضلهم الله عنه . وإنما الفصل يوم القيامة عند ربهم في كل ما كانوا فيه يختلفون .

فعن مجاهد: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ اتبعوه وتركوا الجمعة) . قلت: وقد أضل الله هذا العيد عن أهل الكتابين ، فاختر اليهود يوم السبت ، واختار النصارى يوم الأحد ، وخبأ الله هديته - يوم الجمعة - لأمة محمد ﷺ ليكون عيداً لهم . وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: [أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يومُ السبت ، وكان للنصارى يومُ الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبعُ لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة ، المقضي بينهم قبل الخلائق] (1) .

وفي رواية: [هدينا إلى الجمعة وأضلَّ الله عنها مَنْ كان قبلنا] .

الحديث الثاني: روى مسلم - كذلك - في صحيحه عن همام بن منبه أخيه وهب بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة ، عن مُحَمَّدٍ رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [نحنُ الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وهذا يومُهم الذي فُرِضَ عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فَهَمُّ لَنَا فِيهِ تَبِعٌ ، فاليهودُ غداً ، والنصارى بعد غدٍ] (2) .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (856) - كتاب الجمعة ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ، من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (855) (21) - من حديث أبي هريرة - كتاب الجمعة ، الباب السابق .

الحديث الثالث: روى مسلم في صحيحه والنسائي في سننه ، واللفظ لمسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [نحنُ الآخرونُ الأولون يومَ القيامة ، ونحن أولُ من يدخلُ الجنة ، يَبْدَأُهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناهُ من بَعْدِهِم ، فاختلفوا ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، هدانا الله له - قال: يوم الجمعة - فاليومُ لنا ، وغداً لليهود ، وبعد غدٍ للنصارى]⁽¹⁾.

قال ابن كثير: (لا شك أن الله تعالى شرع في كل مِلة يوماً من الأسبوع ، يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة ، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة ، واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى ، فعدّلوا عنه واختاروا السبت ، لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات التي كمل خلقها يوم الجمعة . فالزمهم تعالى به في شريعة التوراة).

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قال النسفي: (روي أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة ، وأن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه ، وقالوا نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض وهو السبت إلا شردمة منهم قد رضوا بالجمعة ، فهذا اختلافهم في السبت ، لأن بعضهم اختاروه وبعضهم اختاروا عليه الجمعة ، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد ، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة ، فكانوا لا يصيدون ، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك ، وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله).

125 - 128. قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغِ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (855) (20) - كتاب الجمعة - الباب السابق ، من حديث أبي هريرة ، وأخرجه النسائي (1365).

لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ .

في هذه الآيات: أمرُ الله نبيه - وهو أمرٌ لأُمته - بالتماس طريق الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله ، والله يهدي من يشاء وهو أعلم بالشاكرين . ودعوة إلى العدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق ، والصبر خير للصابرين . ولا يحيق المكر إلا بأهله الماكرين ، والله تعالى في عون المتقين المحسنين .

فقوله: ﴿ آدُعْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

أي: التمس - يا محمد - في دعوتك الخلق إلى الكتاب والسنة واللفظ واللين ، والرفق والتيسير ، واجتنب العنف والتعسير .

قال ابن جرير: ﴿ بِالْحُكْمَةِ ﴾ وهو ما أنزله عليك من الكتاب والسنة . وقال ابن كثير: ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس يُذكرهم بها ، ليحذروا بأس الله تعالى. ﴿ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدالٍ ، فليكن بالوجه الحسن ، برفق ولين وحسن خطاب).

قال القرطبي: (أمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف ، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين ، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: 46] .

2 - وقال تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: 44] .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: يروي الترمذي بسند صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً؟ على كلِّ هين لين قريب سهل] (1) .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في الجامع - حديث رقم - (2620) - أبواب صفة القيامة . وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (2022) .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند جيد عن عبد الله بن سرجس ، عن النبي ﷺ قال: [التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة]⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج العقيلي بسند حسن عن ابن أبي مليكة عن عائشة مرفوعاً: [يا عائشة: إياك والفحش ، إياك والفحش ، فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء]⁽²⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عائشة ، أن النبي ﷺ قال: [إنه من أعطي حفظه من الرفق فقد أعطي حفظه من خير الدنيا والآخرة ، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار ، يعمران الديار ، ويزيدان في الأعمار]⁽³⁾.

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد في المسند عن سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ قال: [المؤمن يألف ، ولا خيرَ فيمن لا يألف ولا يؤلف]⁽⁴⁾ وسنده صحيح.

ورواه الطبراني عن جابر بلفظ: [المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: قد عَلِمَ الشقي منهم والسعيد ، وكتب ذلك عنده وفرغ منه ، فادعهم إلى الله ، ولا تَذْهَبْ نفسك على من ضَلَّ منهم حَسَرَاتٍ ، فإنه ليس عليك هدام ، إنما أنت نذير ، عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56] ، و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: 272]).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾. دعوة إلى العدل في الاقتصاد والمماثلة في استيفاء الحق ، وأجر

- (1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في معجمه ، وعبد بن حميد في مسنده. انظر تخريج المشكاة (5059) ، وصحيح الجامع (3007).
- (2) رواه العقيلي (259) - من حديث ابن أبي مليكة. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (537).
- (3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (159/6) ، وينحوه الترمذي (362/1) ، وقال: حديث حسن صحيح. وانظر المرجع السابق - حديث رقم - (519).
- (4) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (335/5) ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (273/10): رواه أحمد والطبراني وإسناده جيد. وأورده كذلك في «المجمع» (87/8) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (426).

الصبر عند الله عظيم. قال ابن سيرين: ﴿وَلِنْ عَاقِبَتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ يقول: إن أخذ منك رجل شيئاً ، فخذ منه مثله. وقال مجاهد: (لا تعتدوا).

أخرج أحمد والترمذي وابن حبان بسند صحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: [لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة ، منهم حمزة ، فمثلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُزَيِّنَنَّ عليهم. فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى: ﴿وَلِنْ عَاقِبَتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلِنْ صَبْرَتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾. فقال رجل لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ: كفوا عن القوم إلا أربعة⁽¹⁾.

قال النسفي: ﴿وَلِنْ صَبْرَتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ - أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم ، فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم لأنهم صابرون على الشدائد. وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. تثبيت للأمر بالصبر وتوكيد له ، وإعلام أنه كائن بمشيئة الله وعونه وتوفيقه.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: ما يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرُهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفَهِهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَعِنْ يَغْنِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ. وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصَّبْرِ⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾. أي: لا تحزن على هؤلاء المكذبين لك ولنبوتك - يا محمد -. وقوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي صَبَقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ولا يضيق صدرك بما يقولون من الجهل ، ونسبتهم ما جئتهم به إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة. ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾: مما يحتالون بالخدع في الصد عن سبيل الله ، ومن أراد الإيمان بك ، والتصديق بما أنزل الله إليك).

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (135/5) ، والترمذي في الجامع (3129) ، والبيهقي في «الدلائل» (289/3) ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب ، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - سورة النحل ، آية (126). وأخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (265/3) ، (260/11) ، وأخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (1053) ، من حديث أبي سعيد الخدري.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

قال الحسن: (اتقوا الله فيما حرم عليهم ، وأحسنوا فيما افترض عليهم).

فالذين اتقوا الله وخافوه حق مخافته ، فاجتنبوا الفواحش والكبائر ، وأقبلوا على طاعته حتى بلغوا مرتبة الإحسان ، قابلهم ربهم سبحانه بمعية خاصة بهم ، فكان النصر والتوفيق والمعونة والبر والفضل والتأييد .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال:

12].

2 - وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : 46].

3 - وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَآءٌ﴾ [التوبة : 40].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني أعطيته ، ولئن استعاذني لأعيذنه⁽¹⁾].

ومن أقوال أهل العلم في المعية :

1 - قال الإمام مالك: (الله في السماء ، وعلمه في كل مكان)⁽²⁾.

2 - وقال الإمام أحمد - وقد قيل له : الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه ، وقدرته وعلمه بكل مكان! - قال: (نعم ، هو على عرشه ، ولا يخلو شيء من علمه)⁽³⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (292 / 11) ، وكذلك (297 / 11) .

(2) رواه أبو داود في المسائل ، وعبد الله بن أحمد في السنة . انظر «مختصر العلو» - الذهبي - ص (140) .

(3) ذكره الذهبي عن يوسف بن موسى القطان : ثقة من شيوخ البخاري - مات 253 هـ . ورواه ابن القيم في «الجيوش» ص (77) . وانظر المرجع السابق .

3 - وقال نعيم بن حماد: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: معناه أنه لا يخفى عليه خافية ،
بعلمه⁽¹⁾.

والخلاصة: إن الله تعالى مع المتقين المحسنين بعونه وتأيده وتوفيقه ونصره ، ومن
وصل إلى هذه المرتبة فهنيئاً له ما بلغ إليه ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل معيته
وينصرنا على أهل عداوته ، إن رحمته قريب من المحسنين .

تم تفسير سورة النحل
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



(1) إسناده صحيح. ذكره الذهبي عن محمد بن مخلد العطار ، عن الرمادي. انظر: «مختصر العلو»
ص (184).

دروس ونتائج وأحكام

- 1- المؤمن يبادر بإقامة منهج الإيمان ، قبل حلول يوم المفاجأة والندامة والخسران .
- 2- امتنان الله تعالى على عباده بوفير النعم ، والرسل من أكبر تلك النعم .
- 3- النهي عن أكل لحوم الحمير والبغال ، والإذن في أكل لحوم الخيل .
- 4- المضلون والمبتدعون يحملون أوزارهم يوم القيامة وأوزار من أضلوهم .
- 5- المتقون ينعمون بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ، والمشركون تعساء مثقلون في الدنيا والآخرة .
- 6- لا حجة بالمشيئة الكونية ، إذا كانت تتعلق بالمشيئة الشرعية .
- 7- كل ذي ظل ، ساجد بظله لله تعالى .
- «السَّكْر» : ما حرم من التمر والعنب ، «والرزق الحسن» ما أحل منهما .
- 9- العسل فيه شفاء للناس . صدق الله ، وكذب بطن أخيك . . . اذهب فاسقه عسلاً .
- 10- ما دُمْتَ أبيت إشراكك مملوكك بمالك ، فالله أحق منك بذلك .
- 11- أيخلقك سبحانه وتعبد غيره؟! ويرزقك وتشكر سواه?! .
- 12- إن الله يحب معالي الأخلاق ، ويكره سفاسفها ومذامها .
- 13- الوفاء بالعهود والمواثيق حق ، وكذلك المحافظة على الإيمان .
- 14- العهد حال الضعف لا يبرر الغدر حال القوة .
- 15- اتهام المشركين للرسول بالافتراء عند نسخ الأحكام دليل سخف عقولهم .
- 16- كيف يتعلم الرسول القرآن العربي من أعجمي لا يعرف العربية .
- 17- الكفر باللسان عند الإكراه عذر ، والثبات على الحق أفضل . ومن كَفَرَ بالرسالة حقيقة بَدَل الله أَمَنَهُ خوفاً ورَغَدَهُ جوعاً .
- 18- لا عبرة بالأكثرية المبطلة ، فإن إبراهيم كان أمة وحده .
- 19- الجمعة يوم عيد للمسلمين ، أضلَّ الله عنه اليهود إلى السبت ، وهدانا الله إليه .
- 20- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمعاقبة بمثلها والصفح خير ، ومعية الله للمحسنين المتقين بصفاته لا بذاته .

17

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

آيَاتُهَا
١١١تَبَيَّنَتْ
١٧

وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (111)

فضائلها وما ورد في ذكرها :

لقد ورد في ذكر هذه السورة الكريمة أحاديث من السنة الصحيحة :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن يزيد قال : سمعت ابن مسعود - رضي الله عنه - قال في بني إسرائيل ، والكهف ، ومريم : [إِنَّهُمْ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ ، وَهُمْ مِنْ تِلَادِي] ⁽¹⁾.

المقصود هنَّ من أحبَّ السور إليه ، ومن الكنوز الأولى التي تعلمها من القرآن .

الحديث الثاني : أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عائشة - رضي الله عنها - تقول : [كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يُفْطِرَ ، ويُفْطِرُ حتى نقول : ما يريد أن يصومَ ، وكان يقرأ كلَّ ليلة : «بني إسرائيل» ، و«الرُّمَر»] ⁽²⁾.

- (1) موقوف صحيح . أخرجه البخاري (4994) . والعِتَاق : هو كل ما بلغ الغاية في الجودة . وجاء في اللسان : «وهن من تِلَادِي» يعني السورة ، أي من قديم ما أخذت من القرآن ، شبههن بتلاد المال . وهو : المال القديم الأصلي الذي وُلِدَ عندك .
- (2) حديث حسن . أخرجه أحمد (68/6) ، (122/6) ، والترمذي (2920) ، (3405) ، وأخرجه الحاكم (434/2) ، وإسناده حسن ، رجاله ثقات .

موضوع السورة

رحلة الإسراء والمعراج ووحدة منهج المرسلين ، والإيمان بالغيب وامثال أوامر الله هو منهاج النجاة للمؤمنين

- منهاج السورة -

- 1 - تمجيد الله تعالى وإثبات حادثة الإسراء ، ورؤية الآيات العجيبة من الله السميع البصير .
- 2 - عطف الله تعالى بذكر موسى عليه الصلاة والسلام بعد ذكر محمد ﷺ وقد آتاه الله التوراة - كما آتى نبينا القرآن - ، وجعله هدى لبني إسرائيل لئلا يتخذوا من دون الله نصيراً ولا معبوداً .
- 3 - تنبيه الذرية على المنة في نجاة أبيهم نوح والمؤمنين ، والوعيد لبني إسرائيل بالخزي إن سلكوا سبيل المفسدين .
- 4 - ثناء الله تعالى على القرآن ، الذي يحمل الهداية لجميع الأنام ، والندارة للطغاة اللثام .
- 5 - امتنان الله تعالى على عباده بنعمة تعاقب الليل والنهار ، وذكر الصحف التي توزع يوم القيامة على العباد وقد حوت جميع الأعمال الكبار والصغار .
- 6 - تأكيد عودة نفع الهداية على صاحبه ، وعودة ضرر الضلال على مبتغيه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا يعذب الله قوماً حتى يبعث لهم رسولاً .
- 7 - الإصرار على الفسوق عقابه الدمار ، وتاريخ الأمم شاهد بذلك .
- 8 - إمداد الله أهل الدنيا وأهل الآخرة ، وتفضيل الدرجات في حياة الفريقين ، والآخرة أعظم تفضيلاً ، والشرك يقعد صاحبه مذموماً مخذولاً .
- 9 - أمر الله تعالى بإفراده بالعبادة والتعظيم ، وخفض الجناح والإحسان للوالدين .

- 10 - أمر الله تعالى بإعطاء ذي القرباة والمساكين ، والاجتناب للتبذير وسبل الشياطين .
- 11 - الوصية بالاقتصاد في العيش ، والتحذير من البخل وقتل الأولاد خشية الفقر ، والترهيب من الفواحش والغش والكبر والعجب والقول على الله بغير علم .
- 12 - مكارم الأخلاق من وحي الله ، والشرك أعظم الذنوب عند الله .
- 13 - ختم الله على قلوب وأسماع المشركين ، وتحذيرهم بالبعث بعد الموت ولو كانوا حجارة أو حديداً ، وهنالك يظنون أنهم ما لبثوا في غرور الدنيا إلا قليلاً .
- 14 - أمر الله عباده اختيار أحسن الكلام ، وتفضيله تعالى بعض النبيين على بعض ، وإسلام فئة من الجن وما زال بعض الإنس يعبدونهم ، وعذاب الله محيط بالكافرين .
- 15 - قضاء الله تعالى إهلاك الظالمين ، وحثه تعالى نبيه على إبلاغ رسالته للعالمين ، وقد أراه ليلة الإسراء عجائب قدرته ، وشجرة الزقوم طعام الآثمين .
- 16 - خبرٌ سجود الملائكة لآدم ، وامتنان إبليس ، وتوعده إغواء الذرية ، وتعهد الله إدخاله وأتباعه جهنم ، وحماية الله المؤمنين منه والله ولي المتوكلين .
- 17 - امتنان الله تعالى على عباده تسخيرهم لهم الفلك في البحر ، وتقلّب سلوك أكثر الناس بين الشدة والرخاء ، وتكريم بني آدم وتفضيلهم على كثير من خلقه تفضيلاً .
- 18 - توزيع الناس خلف أئمتهم وآلهتهم يوم الحشر ، وأصحاب اليمين هم أهل السعادة .
- 19 - توعّد الله أعداء نبيه إبطال محاولات مكرهم ، وتبشيرهم تعالى رسوله ﷺ بإعلاء كلمة الحق وشوكة أهله ، وإزهاق الباطل وحزبه ، فإن الباطل كان زهوقاً .
- 20 - في القرآن رحمة وشفاء للمؤمنين ، وخسارة للظالمين ، والإنسان يستكبر عند حصول النعم ، ويجزع عند نزول الألم ، إلا من رحم الله .
- 21 - كل إنسان يعمل على وجهته وطريقته ، والروح من أمر الله ، وهو العليم الحكيم .
- 22 - فضل الله على نبيه بهذا الوحي الكريم ، وعجز الثقلين لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، والله يصرف الآيات وأكثرهم لا يؤمنون .
- 23 - تنطّع المشركين في أمر الإيمان ومطالبتهم بالمعجزات ، وامتناعهم عن الإيمان لكون الرسول من البشر ، وأمر الهداية لله ، ونار جهنم مثوى للمتكبرين .

- 24- بُخِلَ المشركين ، وكفر فرعون وإغراقه وجنده ، واستخلاف بني إسرائيل .
- 25 - ثناء الله تعالى على القرآن ، وعلى مهمة النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلى أهل العلم الذين يخرون سجداً عند سماع آيات الرحمان .
- 26 - إثبات الأسماء الحسنی لله ولو كره الكافرون ، وحثُّ الله نبيّه على التوسط في رفع الصوت بالقرآن لئلا يناله المشركون ، وختم السورة بتنزيهه تعالى عما يصفه به المبطلون .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1. قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

في هذه الآية: تمجيد الله تعالى، وإثبات حادثة الإسراء، ومباركة الله جوانب المسجد الأقصى، ورؤية الآيات العجيبة في آفاق تلك الرحلة المدهشة، تثبيتاً لنبينا محمد ﷺ من الله السميع البصير.

فقوله سبحانه: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ - تمجيد الله تعالى نفسه عما لا يقدر عليه أحد سواه. فقد أسرى بعبده محمد ﷺ في جُح الليل من مسجد مكة إلى بيت المقدس. وهو قوله: ﴿لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾. قال ابن كثير: (وهو بيت المقدس الذي بإيلياء، مَعْدِنُ الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل - عليه السلام - ولهذا جُمِعُوا له هنالك كُلُّهُمْ، فَأَمَّهُمْ فِي مَحَلَّتِهِمْ وَدَارِهِمْ، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ وَالرَّئِيسُ الْمَقْدَّمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ). قال النسفي: ﴿لَيْلًا﴾: نُصِبَ عَلَى الظَّرْفِ، وَقِيْدُهُ بِاللَّيْلِ، وَالْإِسْرَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللَّيْلِ لِلتَّأَكِيدِ، أَوْ لِيَدُلَّ بِلَفْظِ التَّنْكِيرِ عَلَى تَقْلِيلِ مَدَّةِ الْإِسْرَاءِ، وَأَنَّهُ أَسْرَى بِهِ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً).

وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾. أي جوانبه ببركات الدين والدنيا. قال القاسمي: (لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيمهم ومنمى الزروع والثمار. فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها. فبركته إذن مضاعفة، لكونه في أرض مباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى. والمساجد بيوت الله. ولكونه متعبد الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم، فبورك فيه ببركتهم ويمنهم أيضاً).

وقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾. أي لنري محمداً ﷺ من الآيات الدالة على وحدانية الله وصدق نبوته برؤية آفاق مثيرة مدهشة من ملكوت الله في أرجاء هذا الكون الفسيح.

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. أي: السميع لما يقوله المشركون بمكة معترضين على الرحلة النبوية المباركة، ولما يقوله عباده جميعهم، مؤمنهم وكافرهم، البصير بأعمال الخلق جميعاً، والمحيط والمحصي لكل ما صدر منهم ليجازيهم بهم يوم الحساب.

لقد ثبت حادث الإسراء والمعراج بنص القرآن الكريم، وسميت بذلك هذه السورة «سورة الإسراء» إثباتاً للحادث.

وفي التنزيل - في شأن الإسراء -: قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝۱ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝۲ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝۳ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝۴ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝۵ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝۶ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝۷ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝۸ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝۹ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝۱۰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝۱۱ أَفَتَحْمِلُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝۱۲ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝۱۳ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝۱۴ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝۱۵ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝۱۶ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝۱۷ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝﴾ [النجم: 1 - 18].

والإسراء: هو الرحلة من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، وقد سمي بالأقصى لأنه أبعد المساجد الثلاث التي تزار وتشد إليها الرحال في الإسلام.

وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه أن الإسراء وقع بعد موت أبي طالب، وكان فيما يبدو بعد العودة من رحلة الطائف المؤلمة تسلياً ومواساة من الله لرسوله ﷺ.

وأما المعراج: فهو ارتفاع بعد الإسراء في طباق السماوات إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ثم العودة إلى مكة. والمعراج لغة على وزن مفعال: من العروج أي الآلة التي يُعْرَج - أي يصعد - فيها، ولا نعلم كيف هو ولا نسأل وحكمه كحكم المغيبات نؤمن به ولا نشغل بكيفيته.

وقد ذهب قوم إلى أن الإسراء كان مرتين مرة في اليقظة ومرة مناماً، وقالوا: بالروح لا بالجسد، وينسبون لعائشة ومعاوية أنه أسري بروحه ولم يُفقد جسده، وكل ذلك لم يصح عنهما، وقد ردّه العلماء المحققون.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (والمعراج حق وقد أسري بالنبي ﷺ وعُرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله تعالى من العُلا، وأكرمه الله تعالى بما شاء فأوحى إلى عبده ما أوحى).

لقد كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد ، لا بالحلم والنوم ، وإلا لم يكن له معنى التحدي والإعجاز ، وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة على إثبات ذلك ، وقد هيأ الله تعالى نبيه ﷺ لتلك الرحلة المعجزة :

يروى البخاري عن أنس عن مالك بن صعصعة أنَّ رسول الله ﷺ حَدَّثَهُمْ عن ليلة أسري به قال: [بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان أتاني آت ، فشق ما بين هذه إلى هذه - يعني ثغرة نحره إلى شعرته - فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد] (1).

فإلى تفصيل هذه الرحلة النبوية العظيمة ، وهذا المؤتمر الكبير الذي حضره الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين :

أخرج البخاري ومسلم - واللفظ لمسلم - عن أنس ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: [أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال جبريل ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحَّبَ بي ودعا لي بخير - وفي رواية البخاري: (وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خَلَصْتُ فإذا فيها آدم. فقال: هذا أبوك فسلم عليه ، فَسَلَّمْتُ عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح) - ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير. (وفي رواية البخاري: فقالا: مرحباً بك من أخ ونبي). ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ، فإذا هو قد أعطي شطرَ الحسن فرحب بي ودعا لي بخير. (قال: مرحباً بك من أخ ونبي) (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح). ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (3207)، كتاب بدء الخلق.

فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد . قيل : وقد بُعثَ إليه؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير . (قال : مرحباً بك من أخ ونيي) . (مرحباً بالأخ الصالح والنيي الصالح) ، قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ ﴾ .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا؟ فقال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير . (قال : مرحباً بك من أخ ونيي) (مرحباً بالأخ الصالح والنيي الصالح) . ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل . قيل : من هذا؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير (قال : مرحباً بك من أخ ونيي) (مرحباً بالأخ الصالح والنيي الصالح) . (وفي رواية البخاري : فلما جاوزت بكى ، فقيل له : ما أبكاك؟ قال : يا رب هذا الغلام الذي بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل من أمتي) . ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم (فقال : هذا أبوك فسلم عليه . قال : فسلمت عليه فرد السلام . قال : مرحباً بالابن الصالح والنيي الصالح (مرحباً بك من ابن ونيي)) مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه . ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى ، وإذا ورقها كأذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إليّ ما أوحى ، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة . فنزلت إلى موسى فقال : ما فرض ربك على أمتك؟ قال : خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، قال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني بلوت بني إسرائيل وخبرتهم . قال : فرجعت إلى ربي ، فقلت : يارب! خفف على أمتي فحطّ عني خمساً ، فرجعت إلى موسى فقلت : حطّ عني خمساً . قال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فسله التخفيف . قال : فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال : يا محمد! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة ، لكل صلاة عشر ، فذلك خمسون صلاة ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرًا . ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً ، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة . قال : فنزلت حتى انتهيت

إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ: فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه⁽¹⁾.

فوائد ونتائج من حادثة الإسراء والمعراج ، وذِكْرُ ما روي من الآيات الكبرى في تلك الرحلة :

1 - لم ير النبي ﷺ ربه ، وقوله: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ صحَّ عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبرائيل ، رآه مرتين على صورته التي خلق عليها.

2 - قوله تعالى: ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ دليل على أن الإسراء كان بجسده عليه الصلاة والسلام في اللحظة ، فالعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح ، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح ، هذا هو المعروف عند الإطلاق وهو الصحيح ، ولا يمتنع عقلاً ، وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة ومن ثم إنكار النبوة.

3 - فإن قيل: ما الحكمة من الإسراء لبيت المقدس أولاً؟ قيل: إنه كان إظهاراً لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج ، وذلك حين سأله قريش عن نعت بيت المقدس فوصفه لهم.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكَرِهْتُ كَرَباً ما كربت مثله ، فرفعه الله لي أنظرُ إليه ، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم]⁽²⁾.

4 - في حديث المعراج إثبات صفة العلو لله سبحانه.

فقوله عليه الصلاة والسلام - كما في حديث أنس الذي رواه مسلم -: [ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل] إثبات لصفة العلو ، كما قال سبحانه في سورة السجدة: ﴿ يَدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾.

5 - في الإسراء نعت لبعض صفات بعض الرسل ، ولقاء مالك خازن النار.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7517) ، وأخرجه مسلم (148/1) ، وانظر «فتح القدير» (488/13). وكتابي: أصل الدين والإيمان (128/1 - 132) لتفصيل أخبار الحدث.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (156/1 - 157) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (132/1) - لمزيد من التفصيل. وكذلك بحثه: «الإسراء والمعراج» في كتابي: السيرة النبوية (360/1).

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة السابق: [وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي ، فإذا رجل ضَرْبُ جَعْدٍ كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلي ، أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي ، فإذا إبراهيم قائم يصلي ، أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم ، فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل: يا محمد! هذا مالك خازن النار فسلم عليه ، فالتفت إليه فبدأني بالسلام⁽¹⁾.

6- في المعراج أوحى الله لنبيه خواتيم سورة البقرة.

ففي صحيح مسلم من حديث عبد الله قال: [فأعطني رسول الله ﷺ ثلاثاً: الصلوات الخمس ، وأعطني خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المقححات]⁽²⁾.

7- في المعراج: دخل رسول الله ﷺ الجنة ورأى نهر الكوثر فيها ، ورأى في أصل سدرة المنتهى أنهاراً أربعة تفجر منها.

فقد أخرج البخاري عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافته قبابُ الدر المجوف ، قلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فإذا طيئنه مِنْكَ أذْفَرُ]⁽³⁾. والأذفر هو الشديد الرائحة.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث حذيفة وفيه: [حتى أتيت بيت المقدس ، ففتحت لي أبواب السماء ، ورأيت الجنة والنار]⁽⁴⁾.

وفي صحيح البخاري من حديث مالك بن صعصعة وفيه: [وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبَقُهَا كَأَنَّهُ قَلَال ، وورقها كأنه آذان الفيول ، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران ، فسألت جبريل فقال: أما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران النيل والفرات]⁽⁵⁾.

8- في المعراج: رأى رسول الله ﷺ عذاب الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم ، وأبصر عذاب خطباء القول الذين لا يمثلونه بالعمل.

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في صحيحه (1/ 156 - 157) ، وانظر التفصيل في المرجع السابق.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (1/ 109) ، ومختصر صحيح مسلم - حديث (81) - ص (28).

(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (فتح الباري 8/ 731).

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 392 - 394) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - (874).

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - (انظر: فتح الباري 7/ 201 - 202).

ففي المسند بإسناد صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [لما عرج بي ربي عز وجل ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم]⁽¹⁾.

وعند البيهقي بسند حسن عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أتيت ليلة أسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قرضت وَفَتْ ، فقلت: يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به]⁽²⁾.

9- رأى عن يمين آدم أهل الجنة ، وعن يساره أهل النار.

فقد خرَّج البخاري من حديث أنس: [. . . فلما فُتِحَ علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة ، وعلى يساره أسودة ، وإذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل يساره بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيهِ ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى]⁽³⁾.

فصدقه المؤمنون بكل ما ذكره لهم ، وعلى رأسهم الصديق رضي الله عنه ، وقد سُمِّيَ بذلك من يومئذ ، فهو خيرُ المؤمنين بنبيهِ ﷺ.

2 - 8. قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا

تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ أُولُوا كِبَرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولُنَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُم

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (224 / 3) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (60 / 2).

(2) حديث حسن . أخرجه البيهقي بسند حسن من حديث أنس . انظر: صحيح الجامع - حديث (128).

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه - (انظر: فتح الباري: 477 / 6).

أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلُوا تَنْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ .

في هذه الآيات: عَطَفُ الله تعالى بذكر موسى عليه الصلاة والسلام بعد ذكر محمد ﷺ ، وقد آتاه الله التوراة - كما أتى نبينا القرآن - وجعلها تعالى هدى لبني إسرائيل لئلا يتخذوا من دون الله نصيراً ولا معبوداً. وحث وتنبية للذرية على المنة في نجاة أبيهم نوح ومن آمن معه ليتشبهوا بهم. وحكم الله على بني إسرائيل في عواقب إفسادهم في الأرض وعواقب إحسانهم ، وتتابع سنن الله في ذلك ، وقد جعل الله في الآخرة جهنم سجنًا للكافرين المفسدين .

فقوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ . قال قتادة: (جعله الله لهم هدى ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعله رحمة لهم). والآية: عطف بذكر موسى عليه الصلاة والسلام ، بعد ذكر محمد ﷺ عبد الله ورسوله وكنيته ، وكثيراً ما يقرن الله بين ذكر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وكلاهما كلمه الله ، وأتى موسى التوراة ، كما أتى محمداً القرآن ، وأمتهما يوم القيامة أكبر الأمم .

وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ . قال مجاهد: (شريكاً). وقال ابن جرير: (ومعنى الكلام: وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا حفيظاً لكم سواي). ثم فسر قول مجاهد فقال: (وكأن مجاهداً جعل إقامة من أقام شيئاً سوى الله مقامه شريكاً منه له ، ووكيلاً للذي أقامه مقام الله).

والخلاصة في المعنى: يقول: لئلا تتخذوا ولياً من دوني ولا نصيراً ولا معبوداً ، بل الله وحده هو الوكيل والنصير والمعبود لا شريك له .

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شُكُورًا﴾ . قال قتادة: (والناس كلهم ذرية من أنجى الله في تلك السفينة. وذكر لنا أنه ما نجا فيها يومئذ غير نوح وثلاثة بنين له ، وامراته وثلاث نسوة ، وهم: سام ، وحام ، ويافث ، فأما سام: فأبو العرب ، وأما حام: فأبو الحبش. وأما يافث: فأبو الروم). وقال مجاهد: (بنوه ونسأؤهم ونوح ، ولم تكن امرأته) - والله تعالى أعلم .

قال ابن كثير: (تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهيج وتنبية على المنة ،

أي: يا سُلالة من نَجِينَا فحملنا مع نوح في السفينة ، تَشَبَّهُوا بآيكم ، ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ، فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالِي إليكم محمداً ﷺ . وقد ورد في الحديث ، وفي الأثر عن السَّلف: أن نوحاً - عليه السلام - كان يحمّد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كلّهُ ، فلهذا سُمِّيَ عبداً شكوراً).

قلت: ومن كنوز السنة العطرة نحو ذلك أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: [أنا سيد الناس يوم القيامة. إلى أن ذكر المحشر فقال: فيأتون نوحاً: فيقولون: يا نوحُ ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك . . .] الحديث⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ ، فيحمدُ الله عليها]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْقِسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال ابن عباس: (هو قضاء قضى عليهم). أي: أخبرهم سبحانه في ما أنزل عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين وسيجبرون ويطغون ويفجرون. وقال القاسمي: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي كتاب اللوح المحفوظ ، أي حكمنا فيه ﴿لُتْقِسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني أرض فلسطين بيت المقدس التي بارك الله حولها. والإفساد بالكفر والمعاصي. قال: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ولتستكبرن وتتعظمن عن طاعة الله تعالى ، أو لتظلمن الناس).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾.

أي: فإذا حان موعود الأولي من المرتين ، بالعقوبة على أولي المفستدين ، أخرجنا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3340) ، ومسلم (194) ، وأحمد (435/2 - 436) ، والترمذي (2434) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6465) ، وهو جزء من حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2734) ، وأحمد (117/3) ، والترمذي (1817) ، وأبو يعلى (4332) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

لقتالكم قوماً ذوي قوة وبطش وبأس في الحرب فيقتحمون أماكنكم ومحالكم للقتل والسبي والنهب ، وعد الله ولا يخلف الله الميعاد .

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ . قال قتادة: (ثم رددت الكرة لبني إسرائيل). وقال ابن زيد: (جعلناكم بعد هذا أكثر عدداً).

والمعنى: إن بني إسرائيل لما طغوا وتمردوا وقتلوا الأنبياء والعلماء ، قيل: سلط الله عليهم جالوت وجنوده ، ثم ردّ لهم الكرة فقتل داود⁽¹⁾ جالوت . وقيل: سلط الله عليهم «بُخْتَنَصْر» ملك بابل . قال سعيد بن المسيب: (ظهر بختنصر على الشام ، فخرّب بيت المقدس وقتلهم).

وقوله تعالى: ﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ .

أي: إن أحسنتم يا بني إسرائيل ، فأطعتم الله وأصلحتم أمركم فإنكم تحسنون لأنفسكم ، فهذا هو ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، وإن أسأتم بارتكابكم المعاصي والآثام ، وما يسخط الرحمن ، انقلب وبال ذلك عليكم في الدنيا والآخرة ، فإذا جاء ميقات المرة الآخرة من مرتي إفسادكم في الأرض ﴿ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: ليسوء مجيء ذلك الوعد للمرة الآخرة وجوهكم فيقبحها). وليدخلوا المسجد كما دخله العدو قبل ذلك وليدمروا ما علوا تدميراً.

وقوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَلَئِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ .

قال النسفي: (عسى ربكم أن يرحمكم بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي ، ﴿ وَلَئِنْ عُدْتُمْ ﴾ مرة ثالثة ، ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى عقوبتكم ، وقد عادوا فأعاد الله عليهم النعمة بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة عليهم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما: سُلِّطَ عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ محبساً ، يقال للسجن محصر وحصير).

وقال ابن عباس: (﴿ حَصِيرًا ﴾ أي: سجنًا). وقال مجاهد: (يُحْصَرُونَ فيها). وقال

(1) أي بعث الله لهم ملكاً هو طالوت ومعه قائد يسمى داود.

الحسن: (فراش ومهاد). والمعنى متقارب ، فإن جهنم مستقر للكافرين ومَحْصَر وسجن لا خلاص منه .

فالمعنى: سيدخل في المرة الآخرة عدو لكم - أيها اليهود - إلى بيت المقدس قاهراً لكم مُدْمِراً ما عمرتموه. قال قتادة: (قوله: ﴿وَلِنْ عُدَّتُمْ﴾ للإفساد ﴿عُدْنًا﴾: قد عاد بنو إسرائيل ، فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه ، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون).

قلت: وقد تكون العودة والكرة الآتية عند دخول المسلمين مع الخليفة المهدي محمد بن عبد الله في آخر الزمان إلى بيت المقدس ، في حين يستفرد عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بالأعور الدجال إمامهم المُنتظر . وفي آفاق ذلك أحاديث من السنة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال: [فُسْطَاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يُقال لها الغوطة ، فيها مدينة يقال لها دمشق ، خير منازل المسلمين يومئذ]⁽¹⁾.

ورواه أبو داود بلفظ: [إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة ، إلى جانب مدينة يقال لها دمشق ، من خير مدائن الشام]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة]⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد⁽⁴⁾ ، فإنه من شجر اليهود]⁽⁵⁾.

(1) حديث صحيح. انظر «فضائل الشام» (15) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث - (4081).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4298) - كتاب الملاحم. باب في المعقل من الملاحم. وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث - (3611).

(3) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2944) ، كتاب الفتن.

(4) الغرقد: شجر فيه شوك ، يزرعه اليهود ويكثر من زراعته.

(5) حديث صحيح. رواه مسلم (2922) - كتاب الفتن ، ورواه كثير من أهل السنن.

9- 14. قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوًا آيَةً أَلَيْلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ۝ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلَّزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على هذا القرآن ، فهو يحمل الهداية للناس والبشرى للمؤمنين ، والوعيد والجزاء للكافرين . وَذَكَرُ تَعَجَّلَ الإنسان في دعائه بالشر أحياناً ، ولو قابله الله بعجلة الإجابة لهلك . وامتنان الله تعالى على عباده بنعمة تعاقب الليل والنهار ، وما يحمل ذلك لهم من فوائد كثيرة ونعم جليلة . وتحذير الله عباده الصحف التي تجمع أعمالهم فتنتشر يوم القيامة عليهم ليجتهدوا في ملئها بالأعمال الصالحة ، فكل سيقراً كتابه يوم الحساب وكفى بنفسه يومئذ عليه حسيباً .

فقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ . قال ابن زيد: (التي هي أصوب: هو الصواب وهو الحق ، قال: والمخالف هو الباطل . وقرأ قول الله تعالى: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةً﴾ [البينة: 3] . قال: فيها الحق ليس فيها عوج . وقرأ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1 - 2] يقول: قيماً مستقيماً).

وقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ .

قال ابن جريج: (الجنة ، وكل شيء في القرآن أجر كبير ، أجر كريم ، ورزق كريم فهو الجنة).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وأن الذين لا يصدقون بالمعاد إلى الله ، ولا يقرّون بالشواب والعقاب في الدنيا ، فهم لذلك لا يتحاشون من ركوب معاصي الله

﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ يقول: أعددنا لهم ، لقدومهم على ربهم يوم القيامة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني موجعاً ، وذلك عذاب جهنم).

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

قال ابن عباس: (يعني قول الإنسان: اللهم العنه واغضب عليه ، فلو يُعجل له ذلك كما يُعجل له الخير ، لهلك). وقال قتادة: (يدعو على ماله ، فيلعن ماله وولده ، ولو استجاب الله له لأهلكه). وقال أيضاً: (يدعو على نفسه بما لو استجيب له هلك ، وعلى خادمه ، أو على ماله). وقال مجاهد: (ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته ، فيعجل ، فيدعو عليه ، ولا يحب أن يصيبه). وقال ابن عباس: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ قال: ضَجراً لا صَبراً له على سراء ولا ضراء).

وفي التنزيل نحو ذلك ، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: 11].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: [سِرْنَا مع رسول الله ﷺ في غزوة بَطْنِ بُوَاظ ، وهو يَطْلُبُ الْمَجْدِيَّ بْنَ عَمْرِو الْجُهَنِيِّ ، وكان الناضِجُ يَنْقُبُهُ مِنَ الْخَمْسَةِ وَالسَّتَةِ وَالسَّبْعَةِ ، فدارَتْ عُقْبَةُ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى ناضِجٍ لَهُ ، فَأَنَاخَهُ فَرَكِبَهُ ، ثم بعثه فتلذَّنَ عليه بعضُ التلذُّن ، فقال له: شَأْنُ⁽¹⁾ لعنك الله ، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بغيره؟ قال: أنا ، يا رسول الله! قال: أنزل عنه ، فلا يَضْحَبْنَا مَلْعُونٌ ، لا تَدْعُوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تَدْعُوا على أموالكم ، لا تُوافِقُوا من الله ساعة يُسألُ فيها عطاءً فيستجيب لكم]⁽²⁾.

قال النسفي: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله ، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر. أو أريد بالإنسان الكافر وأنه يدعوه بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة ، وكان الإنسان عجولاً ، يعني أن العذاب آتية لا محالة فما هذا الاستعجال).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ وَالْحُكْمِ فَجَعَلْنَا اللَّيْلَ آيَةً لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِمَّنْ رَزَقُوا وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانُهُ تَقْصِيلًا﴾.

قال ابن عباس: (كان القمر يضيء كما تضيء الشمس ، والقمر آية الليل ، والشمس

(1) كلمة زجر للبعير.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3009) - كتاب الزهد. وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» (5742).

آية النهار ، فمحونا آية الليل : السواد الذي في القمر). وقال مجاهد: (ظلمة الليل ، وسدفة النهار).

فإن الله سبحانه يمتنّ في هذه الآية على عباده بتلك الآيات العظام ، من تعاقب الليل والنهار ، وظلمة الليل وضوء النهار ، يسكنون في الليل وينتشرون للمعاش والأعمال والأسفار في النهار ، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ، وما يرافق ذلك من تحديد آجال الديون والعبادات والمعاملات والإجازات ، وقد فصل الله تعالى لعباده كل ما يحتاجون معرفته مما تقوم به حياتهم وعبادتهم وسعادتهم في الدارين .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . [القصص: 71 - 73].

2 - وقال تعالى: ﴿ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (١١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ . [الفرقان: 61 - 62].

3 - وقال تعالى: ﴿ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ﴾ [الزمر: 5].

وفي صحيح السنة المطهرة من آفاق مفهوم الآية أحاديث ، منها :

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْطُطُّ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَسْطُطُّ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا] (1).

الحديث الثاني: روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ] (2).

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2759) - كتاب التوبة - باب قبول التوبة من الذنوب ، وإن تكررت الذنوب والتوبة .

(2) حديث صحيح . رواه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2703) - كتاب الذكر والدعاء - باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، من حديث أبي هريرة .

وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾. قال ابن عباس: (عمله وما قدر عليه ، فهو ملازمه أينما كان ، فزائل معه أينما زال). وقال: (الطائر: عمله ، قال: والطائر في أشياء كثيرة ، فمنه التشاؤم الذي يتشاءم به الناس بعضهم من بعض). وقال مجاهد: (طائره: عمله ، وما كتب الله له). وقال ابن كثير: (وطائره: هو ما طار عنه من عمله من خير وشر ، يلزم به ويجازى عليه).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17 - 18].

2 - وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

3 - وقال تعالى: ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لحَفَظِينَ ﴿١١﴾ كَرَامًا كَنِينٍ ﴿١٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 10 - 14].

ومن كنوز السنة الصحيحة في مفهوم الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند حسن لغيره ، عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [طائر كل إنسان في عنقه]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن جرير في «التفسير» بسند رجاله ثقات ، من طريق قتادة عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: [لا عدوى ، ولا طيرة ، وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه]⁽²⁾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وكل إنسان ألزمناه ما قُضِيَ له أنه عامله ، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة يعمل في عنقه لا يفارقه ، وإنما قوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ﴾ مثل لما كانت العرب تتفاهل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها ، فأعلمهم جل ثناؤه أن

(1) حسن لغيره. أخرجه أحمد في المسند (3/342)، (3/349)، (3/360)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1907).

(2) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (15/39) ورجاله ثقات رجال الشيخين ، لكن قتادة لم يسمع من جابر ، وروايته عنه صحيفة ، قال أحمد: «قُرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها». وانظر السلسلة الصحيحة ج (4) ص (534).

كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائرته في عنقه ، نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائر ، وشقاءً يورده سعيراً ، أو كان سعداً يورده جنات عدن).

وقوله تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ ﴿١٦﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا. قال مَعْمَرٌ: (وتلا الحسنُ البصري: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: 17] ، يا ابن آدم ، بَسَطْتُ لَكَ صَحِيفَتَكَ ، وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ ، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أَقَلُّلْ أو أَكْثِرْ ، حتى إذا مَتَّ طُوبِثَ صَحِيفَتُكَ فجعلت في عنقك مَعَكَ في قَبْرِكَ ، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ، ﴿ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، قد عدل - والله - عليك من جعلك حَسِيبَ نَفْسِكَ).

عن قتادة: ﴿ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ سيقراً يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا).

15 - 17. قوله تعالى: ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ ﴿١٧﴾.

في هذه الآيات: تأكيد الله تعالى عودة نفع الهداية على العبد الملتزم الهداية ، وعودة ضرر الضلال على مبتغيه ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كان الله ليعذب قوماً حتى يقيم عليهم الحق على لسان الرسل ، فإن أصروا على الكفر والفسوق دمرهم تدميراً. وتخويف لكفار مكة أنه تعالى: كم أهلك من قوم كفروا من بعد نوح وكفى بالله بذنوب عباده خبيراً بصيراً.

فقوله: ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾.

أي: من اختار طريق الهدى والاستقامة على الحق فهو ينفع نفسه ، ومن جار عن قصد السبيل فهو يضر نفسه ويهدد أمنه في الدار الآخرة.

وقوله: ﴿ وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ - كقوله: ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ [فاطر: 18]. قال قتادة: (والله ما يحمل الله على عبد ذنب غيره ، ولا يؤاخذ

إلا بعمله). قلت: إلا أن يكون من دعاة الإثم والضلالة ، أو الابتداع في الدين ، فإنه يحمل أوزار من أضلّهم إضافة إلى أوزاره ، عدلاً من الله تعالى .

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [العنكبوت: 13].

2 - وقال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِاسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [النحل: 25].


وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ دَعَا إِلَى هَدًى ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً]⁽¹⁾.

وفي صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله ، قال رسول الله ﷺ: [مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أُجْرٍ مِنْ عَمَلِهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً ، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ]⁽²⁾.

وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . قال قتادة: (إن الله تبارك وتعالى ليس يعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر ، أو يأتيه من الله بيّنة ، وليس معذباً أحداً إلا بذنبه).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسول ، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم).

وفي التنزيل من أمثلة ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾  قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: 8 - 9].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2674) - كتاب العلم - باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم - حديث رقم - (1017) ، كتاب العلم ، الباب السابق ، وله قصة .

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ [الزمر: 71].

3 - وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُبْدِكُمْ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ التَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: 37].

ومن صحيح السنة في آفاق معنى هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أُوتِرْتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضُعفاء الناس وسَقَطُهُمْ؟ قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذاب أعدب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها. فأما النار: فلا تَمْتَلِي حتى يَضَعَ رجله فتقول: قَطَّ قَطَّ، فهنا لك تَمْتَلِي ويُرَوَّى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً. وأما الجنة: فإن الله عز وجل يُنْشِئُ لها خَلْقاً⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع - رضي الله عنه - أن نبي الله ﷺ قال: [أربعة يحتجون يوم القيامة، رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هَرِمٌ، ورجل مات في فترة. فأما الأصم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً. وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يخذفوني بالبعر. وأما الهرم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً. وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواليقهم ليُطِيعَنَّهُ، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: [كُلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويُنصِّرانه ويُمَجِّسانه،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4850) - كتاب التفسير، وانظر (4849)، ورواه مسلم وغيره.
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (24/4)، والبخاري (2174)، والبيهقي في «الاعتقاد» ص (135)، وصححه إسناده الهيثمي في «المجمع» (216/7)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (1827)، وله شواهد عند البغوي (ق 1/94)، والدليمي (1/1/171)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (1434).

كما تُنتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءً ، هل تحسّون فيها مِنْ جَدعاء . وفي رواية لمسلم : قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين⁽¹⁾ .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين؟ فقال : الله إِذْ خَلَقَهُمْ أَعْلَمُ بما كانوا عاملين]⁽²⁾ .

قلت : فأولاد المشركين الذين اشتركوا في الآثام مع آبائهم ثم ماتوا يختلفون في الحكم عن أطفال المشركين الذين لم يكن لهم ذنوب يعاقبون بها - والله تعالى أعلم . وهذا يفسر قوله ﷺ ؟ (الله أعلم بما كانوا عاملين) .

فقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» (308/6) بسنده عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : [سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين لم يكن لهم ذنوب يعاقبون بها فيدخلون النار ، ولم تكن لهم حسنة يجازون بها فيكونون من ملوك الجنة؟ فقال النبي ﷺ : هم خدم أهل الجنة] .

وفي لفظ عند ابن مندة في «المعرفة» (1/261/2) من حديث سنان بن سعد عن أبي مالك قال : [سئل النبي ﷺ عن أطفال المشركين؟ قال : هم خدم أهل الجنة]⁽³⁾ .

وفي التنزيل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ [الأعراف : 179] . قال الحسن : (خلقنا) . وقال مجاهد : (لقد خلقنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) .

قال ابن جرير : (لنفاذ علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربهم) . قال الإمام الطحاوي : (وإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له ، وصائر إلى ما خلق له ، والخير والشر مقدران على العباد) «متن الطحاوية : 83» .

وأما أطفال المسلمين فهم في الجنة باتفاق أهل العلم .

(1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (6658) ح (23) ، وصحيح البخاري (1384) ، وأخرجه النسائي (58/4) ، من حديث أبي هريرة .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (1383) ، وفي لفظ : سئل رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين؟ فقال : اللهم أعلم بما كانوا عاملين . انظر صحيح البخاري ، حديث (1384) - كتاب الجنائز .

(3) حسن لشواهده . وانظر مسند أبي يعلى (1011 - 1012) ، ومسند البزار (232) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1468) .

وقد أخرج أبو نعيم في «أخبار أصبهان»، وأحمد في المسند، عن أبي هريرة مرفوعاً: [أطفال المسلمين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يدفعونهم إلى آبائهم يوم القيامة]⁽¹⁾.

وفي لفظ أحمد: [ذاري المسلمين في الجنة، يكفلهم إبراهيم عليه السلام].
وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

يعود تأويل هذه الآية إلى طريقة قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾، فالله تعالى لا يأمر بالفسق والفحشاء والفساد والإفساد.

فقد قرأها قراء الحجاز والعراق بالتخفيف: ﴿أَمَرْنَا﴾، في حين قرأها أبو عثمان بالتشديد: «أَمَرْنَا». وذكر عن الحسن البصري أنه قرأها: «أَمَرْنَا». فيكون المعنى وفقاً لذلك:

التأويل الأول: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾. قال ابن عباس: (بطاعة الله، فعصوا) - واختاره ابن جرير.

التأويل الثاني: «أَمَرْنَا مترفيها» مشددة من الإمارة. قال الربيع بن أنس: (سَلَطْنَا). وقال أبو العالية: (جعلنا عليها مترفيها: مستكبريها). وكذلك روي عن ابن عباس قال: (سَلَطْنَا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب). وقال مجاهد: (أَمَرْنَا مترفيها: بعثنا).

التأويل الثالث: «أَمَرْنَا مترفيها» بمعنى أكثرنا فسقتها. قال عكرمة: (أكثرناهم). وقال الضحاك: (أكثرنا مترفيها: أي كبراءها). وقال قتادة: (يقول: أكثرنا مترفيها: أي جبابرتها، ففسقوا فيها وعملوا بمعصية الله ﴿فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾. وكان يقال: وإذا أراد أن يهلكها أكثر مترفيها).

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾. وعيد من الله تعالى لمشركي قريش في تكذيبهم نبيهم - محمداً ﷺ - وتهديد لهم بالعقاب. قال القرطبي: (أي كم من قوم كفروا حل بهم البوار. يخوف كفار مكة).

(1) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (2/263)، والديلمي (1/1/118)، وأخرجه أحمد في المسند (2/326)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1467).

وقال ابن كثير: (ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم ، وقد كذبتكم أشرف الرسل وأكرم الخلائق ، فعقوبتكم أولى وأحرى). قال النسفي: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ يَذُوبُ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ وإن أخفوها في الصدور ﴿بَصِيرًا﴾ وإن أرخوا عليها الستور).

18 - 22. قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّهُ هُوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى أن من طلب زينة هذه الحياة الدنيا فإنه يُعطى منها حسب مشيئته تعالى ثم مرده في الآخرة إلى نار جهنم يدخلها مذمومًا مدحورًا. ومن طلب سبيل الآخرة وتقدم إلى ذلك بالإيمان الصادق والعمل الصالح فإنه سيلقى جزاء سعيه جزاء موفورًا. فالله سبحانه يعطي كلًّا من الفريقين وما كان عطاء الله محظورًا. فانظر - يا محمد - كيف قسم الله الهداية والأرزاق وفاوت بين الفريقين في منهاج الحياة ، ثم مصير الآخرة أكبر مفاضلة وأعظم تفضيلًا. فاحذر أيها الإنسان الشرك بالله فإن الشرك يقعد صاحبه مذمومًا مدحورًا.

فقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ - الآية. قال قتادة: (يقول: من كانت الدنيا همّه وسدمه وطلبته ونيته ، عَجَّلَ اللهُ له فيها ما يشاء ، ثم اضطره إلى جهنم ، قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ مذمومًا في نعمة الله مدحورًا في نقمة الله). قال ابن زيد: (العاجلة: الدنيا). وعن أبي إسحاق الفزاري يقول: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ قال: (لمن نريد هلكته). وعن ابن عباس: ﴿مَذْمُومًا﴾ يقول: ملومًا).

قال ابن كثير: (يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له ، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات ، فإنه قال: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ ، أي في الدار الآخرة ، ﴿يَصْلَاهَا﴾ ، أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ، ﴿مَذْمُومًا﴾ ، أي: في حال

كونه مذموماً على سوء تَصَرُّفه وصنيعه ، إذا اختار الفاني على الباقي ، ﴿مَذْهُورًا﴾ ، مُبْعَدًا مَقْصِيًا حَقِيرًا ذَلِيلًا مَهَانًا).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ . قال قتادة: (شكر الله حسناتهم ، وتجاوز عن سيئاتهم).

والمقصود: أنَّ من طَلَبَ نعيم الآخرة وتقدم إلى ذلك بالإيمان الصادق والعمل الصالح على منهاج النبوة ، فإن الله سبحانه سيجزيه على حسن سعيه ويتجاوز عن سيئ عمله.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوا لَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ .

قال قتادة: (أي منقوصاً ، وإن الله عز وجل قسم الدنيا بين البرِّ والفاجر ، والآخرة خصوصاً عند ربك للمتقين). وقال الحسن: (كلأ نعطي من الدنيا البرِّ والفاجر). قال ابن جريج: قال ابن عباس: (فيرزق من أراد الدنيا ، ويرزق من أراد الآخرة). قال ابن جريج: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ قال: ممنوعاً).

والمقصود: أنَّ الله تعالى يعطي كلأ ما يستحقه من الشقاوة والسعادة في الآخرة ، وأما في الدنيا فيرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل ، وما كان عطاء الله ممنوعاً عن عباده وإن عصوا أمره.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ . أي:

1 - انظر يا محمد - نظرة اعتبار - إلى هذين الفريقين ، كيف هدينا هذا سبيل سعاده ، وكيف خذلنا الآخر حين أصر على سلوك سبيل شقاوته ، فتفاوت الفريقان في منهاج الحياة الدنيا الذي يقرّر مصير الآخرة.

2 - ثم انظر - يا محمد - كيف فضلنا بين الناس في أرزاق الدنيا ومعاشها ، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك .

وأما الآخرة فإن تفاوت الناس فيها أعظم وأكبر بكثير من تفاوتهم في الدنيا ، فأهل الجنة يتفاوتون في درجات الجنة وفي مقامات النعيم حسب أعمالهم ، وأهل النار يتفاوتون في دركات النار وفي منازل الشقاء حسب درجة كفرهم وخبث أفعالهم وحالات نفاقهم.

ففي التنزيل : (من أحوال أهل الجنة).

1 - قال تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۖ وَالسَّيِّقُونَ وَالسَّيِّقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمَفْرُوقُونَ ۖ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ۖ ﴾ [الواقعة: 12 - 7].

2 - وقال تعالى: ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرفٌ مَّبِينَةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ۖ ﴾ [الزمر: 20].

3 - وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمِلِينَ ۖ ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۖ ﴾ [العنكبوت: 58 - 59].

وفي صحيح السنة : (من أحوال أهل الجنة).

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [إن أهل الجنة يترأءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق ، من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: بلى! والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند حسن عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: [إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدّها الله لمن أطعم الطعام وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة مئة درجة ، أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تتفجر أنهار الجنة]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256) ، ومسلم (2831) - من حديث أبي سعيد الخدري.

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني بإسناد حسن من حديث أبي مالك الأشعري. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (2119) ، وتفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/785).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (14/4) ، (101/9) ، وأحمد في المسند (2/335 - 339).

وفي التنزيل : (من أحوال أهل النار).

- 1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56].
- 2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

وفي صحيح السنة : (من درجات أهل النار).

الحديث الأول: أخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [أهونُ أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو مُتَّعِلٌ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ] (1).

الحديث الثاني: أخرج مسلم عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: [منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْرَتِهِ ، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوتِهِ] (2).

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقُونَ مِنْ عُصَاةِ أَهْلِ النَّارِ ، طِينَةِ الْخَبَالِ] (3).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾.

قال قتادة: (يقول: مذموماً في نعمة الله ، وهذا الكلام وإن كان خرج على وجه الخطاب لنبي الله ﷺ ، فهو معنيٌّ به جميع من لزمه التكليف من عباد الله جلَّ وعزَّ). قال النسفي: ﴿فَنَقَعْدُ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾: فتصير جامعاً على نفسك الذم والخذلان. وقيل مشتوماً بالإهانة محروماً عن الإعانة ، إذ الخذلان ضد النصر والعون).

- (1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 135) من حديث ابن عباس ، وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (99) ، (100).
- (2) حديث صحيح. رواه مسلم في صحيحه من حديث سمرة. وانظر مختصر صحيح مسلم (1953) - في تفصيل أكبر من حديث المقداد بن الأسود.
- (3) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2025) ، ورواه أحمد ، انظر صحيح الجامع (7896).

والمقصود: لا تشرك أيها الإنسان بالله الذي بيده نصرك وعونك ونفعك وضررك ، بل أفرد بالعبادة والتعظيم ، فإنه وحده مالك النفع والضرر لك .

وفي التنزيل : ﴿ إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : 160] .

وفي سنن أبي داود ومسنند أحمد ، بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : [مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدِّ فَاقَتَهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ بِالْغَنَى ، إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ ، أَوْ غِنًى عَاجِلٍ]⁽¹⁾ .

23 - 25 . قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ ﴾ [٢٣] وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ۖ ﴾ [٢٤] رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ۖ ﴾ [٢٥] .

في هذه الآيات : أمرُ الله تعالى بإفراده بالعبادة والإحسان للوالدين ، وخفض الجناح لهما والدعاء لهما ، والله أعلم بمن يقوم بحق التعظيم له والبر بالوالدين ، وهو سبحانه للأوابين والتائبين غفور رحيم .

فقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : أمر) - أي هكذا أمر تعالى بإفراده سبحانه بالعبادة لا شريك له . وقال قتادة : (أمر ألا تعبدوا إلا إياه . وفي حرف ابن مسعود : «وَصَّىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» . وعن مجاهد : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ قال : وأوصى ربك) .

وقوله : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : وأمركم بالوالدين إحساناً أن تحسنوا إليهما وتبرّوهما) .

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (1645) - كتاب الزكاة - باب في الاستعفاف ، وانظر صحيح سنن أبي داود (1448) ، وأخرجه أحمد في المسند (407/1) ، وأبو يعلى (5318) ، وصححه الحاكم (408/2) ووافقه الذهبي .

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا﴾.

قال القرطبي: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي: لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم. قال مجاهد: (إِنْ يَبْلُغَانَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ حِينَ تَرَى الْأَذَى، وَتَمِيطُ عَنْهُمَا الْخَلَاءَ وَالْبَوْلَ، كَمَا كَانَا يَمِيطَانِ عَنْكَ صَغِيرًا، وَلَا تَوْذَهُمَا). قال ابن كثير: (أَيُّ: لَا تُسَمِعُهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا، حَتَّى وَلَا التَّأْفِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ). وقال عطاء: ﴿وَلَا نَهْرَهُمَا﴾: لا تنفض يدك على والديك. وقال ابن جرير: ﴿وَلَا نَهْرَهُمَا﴾ يقول جل ثناؤه: ولا تزجرهما.

وقوله: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾. قال ابن جريج: (أَحْسَنُ مَا تَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ). وقال قتادة: (أَيُّ قَوْلًا لَيْنًا سَهْلًا).

وقوله: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾. قال هشام بن عروة عن أبيه: (هُوَ أَنْ لَا تَمْتَنِعَ مِنْ شَيْءٍ يَرِيدَانِهِ). أو قال: (هُوَ أَنْ تَلِينَ لَهُمَا حَتَّى لَا تَمْتَنِعَ مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّاهُ). والمقصود: بذل غاية التواضع للوالدين بالقول والفعل، والأثر السابق عن عروة ثبت بسند صحيح. فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن عروة قال: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ قال: (لَا تَمْتَنِعَ مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّاهُ)⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾. قال النسفي: (وَلَا تَكْتَفِ بِرَحْمَتِكَ عَلَيْهِمَا الَّتِي لَا بَقَاءَ لَهَا، وَادْعِ اللَّهَ بِأَنْ يَرْحَمَهُمَا رَحْمَتَهُ الْبَاقِيَةَ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ جَزَاءً لِرَحْمَتِهِمَا عَلَيْكَ فِي صَغُرِكَ وَتَرْبِيَّتِهِمَا لَكَ، وَالْمُرَادُ بِالْخُطَابِ غَيْرُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالدَّعَاءُ مُخْتَصٌّ بِالْأَبْوِينَ الْمُسْلِمِينَ. وَقِيلَ: إِذَا كَانَا كَافِرِينَ لَهُ أَنْ يَسْتَرْحِمَ لَهُمَا بِشَرِطِ الْإِيمَانِ وَأَنْ يَدْعُو اللَّهَ لَهُمَا بِالْهَدَايَةِ).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ ثم أنزل الله عز وجل بعد هذا: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾ [التوبة: 113]).

وقد ورد الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما كثيراً في القرآن والسنة الصحيحة:

(1) صحيح الإسناد. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (9) - باب لين الكلام لوالديه - وانظر: «صحيح الأدب المفرد» - حديث رقم - (9).

عليه شهر رمضان فانسلخ قبل أن يُغفرَ له ، ورغم أنف رجلٍ أدركَ عنده أبواه الكبَر فلم يدخله الجنة⁽¹⁾. وفي رواية: (أو أحدهما).

وعند مسلم في صحيحه نحوه ، عنه ، عن النبي ﷺ قال: [رَغِمَ أنْفُ ، ثم رَغِمَ أنْفُ ، ثم رَغِمَ أنْفُ رجلٍ أدركَ والديه ، أحدهما أو كلاهما عند الكبَر ، ولم يدخل الجنة]⁽²⁾.

الحديث الخامس: أخرج ابن حبان في صحيحه عن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده قال: [صَعِدَ رسول الله ﷺ المنبر فلما رقي عتبة قال: آمين. ثم رقي أخرى فقال: آمين. ثم رقي عتبة ثالثة فقال: آمين. ثم قال: أتاني جبريل فقال: يا محمد! من أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله. فقلت: آمين. قال: ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله. فقلت: آمين. قال: ومن ذُكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله. فقلت: آمين]⁽³⁾.

قلت: فإن كان الأبوان مشركين ، وماتا على ذلك ، فإنه لا يجوز للابن الاستغفار لهما. ومن ذلك ما بَوَّب البخاري في كتابه: «الأدب المفرد» - باب: لا يستغفر لأبيه المشرك. روى فيه عن ابن عباس ، في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَا رَّبَّيْنِي صَغِيرًا﴾. قال: (فنسختها الآية التي في براءة ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾)⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: ﴿زُكِّرْ أَغْلَمَ يَمًا فِي نَفْسِكَ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِ غَفُورًا﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ربكم أيها الناس أعلم منكم بما في نفوسكم من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم وتكرمتهم ، والبر بهم ، وما فيها من اعتقاد الاستخفاف بحقوقهم ، والعقوق لهم ، وغير ذلك من ضمائر صدوركم. وقوله: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ يقول: إن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم ، وأطعتم الله فيما أمركم به من البر

- (1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3545) ، وأخرجه أحمد (254/2) ، وأخرجه ابن حبان (908).
- (2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2551) ، وأخرجه أحمد في المسند (346/2) ، وغيرهما.
- (3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» ، وبنحوه الحاكم - وقال: صحيح الإسناد. انظر صحيح الترغيب (985/1 - 986).
- (4) حسن الإسناد. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (23) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وانظر صحيح الأدب المفرد - حديث رقم - (17).

بهم ، والقيام بحقوقهم عليكم ، بعد هفوة كانت منكم ، أو زلة في واجب لهم عليكم مع القيام بما ألزمكم في غير ذلك من فرائضه ، فإنه كان للأوابين بعد الزلة ، والتائبين بعد الهفوة غفوراً رحيماً .

ومن أقوال أهل التأويل :

1 - قال سعيد بن جبیر : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ قال : البادرة تكون من الرجل إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير .

2 - وعن حبيب بن أبي ثابت : ﴿ فَإِنَّكُمْ كَانُوا لِلْأَوَّيْنِ غَفُورًا ﴾ قال : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أن لا يؤاخذ به .

وقيل في الأوابين أكثر من تأويل :

1 - قال ابن عباس : (المسبحين) . أو قال : ﴿ فَإِنَّكُمْ كَانُوا لِلْأَوَّيْنِ غَفُورًا ﴾ يقول : للمطيعين المحسنين .

2 - قال قتادة : (هم المطيعون ، وأهل الصلاة) .

3 - وقال ابن المنكدر : (الصلاة بين المغرب والعشاء) .

4 - وقال عون العقيلي : (الذين يصلون صلاة الضحى) .

5 - وقال سعيد بن المسيب ﴿ فَإِنَّكُمْ كَانُوا لِلْأَوَّيْنِ غَفُورًا ﴾ : الذي يصيب الذنب ثم يتوب ثم يصيب الذنب ثم يتوب .

6 - وقال سعيد بن جبیر فيها : (الراجعين إلى الخير) .

7 - وقال عبيد بن عمير : (الذي يذكر ذنوبه في الخلاء ، فيستغفر الله منها) .

8 - وقال مجاهد : (الأوابون : الراجعون التائبون) .

قلت : وكل ما سبق يدل على مفهوم الأوابين ، فإن الأواب هو التائب من الذنب الراجع إلى طاعة الله ، الملتزم لمغفرة ذنوبه ألوان العمل الصالح .

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر : [أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال : آيئون تائبون عابدون ، لربنا حامدون] (1) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1797) ، ومسلم (1344) ، وأحمد (63/2) ، وأبو داود (2770) ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [صلاة الضحى صلاة الأوابين]⁽¹⁾.

26 - 28. قوله تعالى: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقَرْنَىٰ حَقًّا وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا يُبَذَّرُ تُبَذِّرًا﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا تَعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنَ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ .

في هذه الآيات: أمرُ الله تعالى بإعطاء ذي القرباة والمسكين وابن السبيل حقه من البذل والإحسان ، والابتعاد عن التبذير فإنه منهج الشيطان . واختيار الرد بالحسنى والوعد الطيب لأهل المسألة حالة العجز ورجائك عطاء المنان .

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقَرْنَىٰ حَقًّا وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ قال: هو أن تصل ذا القرباة والمسكين وتحسن إلى ابن السبيل).

والآية عطف على سابقتها ، فبدأ سبحانه وصيته ببر الوالدين ، ثم عطف بذكر الأرحام والوصية بالأقربين ، وكذلك المسافرين المنقطع والمسكين .

وفي التنزيل: ﴿فَكَاتَ ذَا الْقَرْنَىٰ حَقًّا وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: 38].

وأما السنة المطهرة فقد تواترت فيها النصوص في ذلك :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّىٰ إِذَا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِهِ ، قَالَتِ الرَّحْمُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ]

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (1286) ، وصحيح الجامع - حديث رقم - (3721).

(2) حدث صحيح. أخرجه البخاري (5986) ، ومسلم (2557) ، وأحمد (229/3) ، وابن حبان (438) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

يا رب ، قال : فَهَوَ لَكَ . قال رسول الله ﷺ . فاقروا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد : 22] (1) .

الحديث الثالث : أخرج الترمذي والحاكم وأحمد بسند جيد عن أبي هريرة مرفوعاً : [تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل ، مثرة في المال ، منسأة في الأثر] (2) .

وله شاهد عند الطبراني من حديث عمرو بن سهل بلفظ : [صلة القرابة مثرة في المال ، محبة في الأهل ، منسأة في الأجل] .

وقوله : ﴿ وَلَا بُدَّ تَبْذِيرًا ﴾ . التبذير الإنفاق في غير حق . قال قتادة : (التبذير الإنفاق في المعصية ، وفي غير الحق وفي الفساد) . وقال مجاهد : (لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً . ولو أنفق مuddاً في غير حقه كان مبذراً) .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴾ . يعني أشباههم في ذلك . قال النسفي : (أمثالهم في الشرارة ، وهي غاية المذمة لأنه لا شر من الشيطان ، أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ . أي جحوداً ، لأنه تجاهل نعمة الله عليه وأهمل شكره وعمل بمعصيته . قال القرطبي : (أي احذروا متابعتة والتشبه به في الفساد) .

والخلاصة : إن هذه الأمة وسط في الإنفاق كما هي وسط في كل شيء ، لا غلو ولا إفراط ولا تفريط .

وفي التنزيل : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : 67] .

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول : روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5987) - كتاب الأدب - باب : مَنْ وَصَلَ وَصَلَهُ اللَّهُ .

(2) إسناده جيد . أخرجه الترمذي (1/ 357 - 358) ، والحاكم (4/ 161) ، وأحمد (2/ 374) . وانظر

للشاهد : صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3662) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (276) .

تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم : قِيلَ وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج الطبراني بسند حسن عن حسين بن علي مرفوعاً : [إن الله يحبُّ معالي الأمور وأشرفها ، ويكرهُ سَفَسَافَهَا]⁽²⁾ .

وفي لفظ عند الحاكم من طريق سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله عزَّ وجلَّ كريمٌ ، يُحِبُّ الكرمَ ومعالي الأخلاق ، وَيُبْغِضُ سَفَسَافَهَا]⁽³⁾ .

الحديث الثالث : أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند جيد ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال : [أتى رجلٌ من بني تميم إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إني ذو مالٍ كثير ، وذو أهلٍ وولَدٍ وحاضِرةٌ ، فأخبرني : كيف أنفقُ وكيف أصنعُ؟ فقال رسول الله ﷺ : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حقَّ السائل والجار والمسكين . فقال : يا رسول الله ، أقلل لي؟ قال : ﴿ وَمَا تَرْغَبُ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينُ وَأَبْنُ السَّبِيلِ وَلَا بُذْرٌ تَبْذِرُ ﴾ ، فقال : حسبي يا رسول الله ، إذا أديتُ الزكاةَ إلى رسولك فقد برئتُ منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، إذا أدبتها إلى رسولي فقد برئتُ منها ، فلك أجرها ، وإثمها على من بدلها⁽⁴⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَرْضَوْنَ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا ﴾ .

قال ابن جريج ، قال عكرمة : (إن سألوكم فلم يجدوا عندك ما تعطيتهم ابتغاء رحمة ، قال : رزق تنتظره ترجوه ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا ﴾ قال : عدهم عدة حسنة : إذا كان ذلك ، إذا جاءنا ذلك فعلنا ، أعطيناكم ، فهو القول الميسور) . وقال الحسن : (قل لهم قولاً ليناً سهلاً) .

- (1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (1715) .
- (2) حديث حسن . أخرجه الطبراني في «الكبير» (1/140/1) ، وابن عدي (1/114) ، وانظر صحيح الجامع الصغير (1886) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1378) .
- (3) صحيح الإسناد . أخرجه الحاكم (1/48) ، وأبو نعيم في «الحلية» (3/255) ، (8/133) ، وانظر المرجع السابق - السلسلة الصحيحة - حديث رقم - (1378) .
- (4) أخرجه أحمد في المسند (3/136) ، والطبراني في الأوسط (8797) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (3/63) ، وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح . وأورده الحافظ ابن كثير في «التفسير» (سورة الإسراء : آية : 26) .

وخلاصة المعنى: أي إن سألك أرباؤك ومن أمرت بإعطائهم وليس عندك شيء ، فعدهم بلين ورفق بالوصل إن شاء الله .

29 - 38. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۖ﴾ (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِن قَتَلْتُمْ كَانَتْ خِطَاً كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ .

في هذه الآيات: وصية الله تعالى عباده بالاقتصاد في العيش والبعد عن الإسراف أو البخل والله هو الرزاق الكريم . والتحذير من قتل الأولاد خشية الفقر فإن ذلك من سبيل الشيطان الرجيم . والنهي عن الاقتراب من الزنى أو قتل النفس التي حرم الله أو أخذ مال اليتيم أو الغش واللعب بالميزان فكل ذلك يسخط الرحمان الرحيم . وكذلك القول في الدين بغير علم أو الاتباع بالتوهم والظن ، وكذلك الكبر والعجب ، كل ذلك محرم في الدين .

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ . أمّر بالاقتصاد في العيش والبعد عن الإسراف أو البخل ، وعبر عن البخل بالإسراف بالمسك المغلولة يده إلى عنقه ، فلا يستطيع بسطها ، وعبر عن الإسراف ببسط اليد فلا يبقى فيها شيء .

قال الحسن: (لا تجعلها مغلولة عن النفقة ، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾: تبذر بسرف). وقال

ابن زيد: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: مغلولة لا تبسطها بخير ولا بعطية ، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ في الحق والباطل ، فينفد ما معك ، وما في يديك ، فيأتيك من يريد أن تعطيه فيحسر بك ، فيلومك حين أعطيت هؤلاء ، ولم تعطهم).

قال ابن عرفة: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾: يقول لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف ، كما يكون البعير الحسير ، وهو الذي ذهب قوته فلا انبعث به).

قلت: والحسير مأخوذ من الكلال والإعياء. فإن العرب تقول: حَسَرَ البعير إذا أعيا.

وفي التنزيل: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4]. أي كليل منقطع.

ومن كنوز السنة في آفاق معنى الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تُدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَعَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ ، وَتَعْفُو أَثَرَهُ. وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يَرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوسَّعُهَا وَلَا تَسْغُ] (1).

وفي لفظ: [ضرب رسول الله ﷺ مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ اضْطَرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى تُدْيِهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا ، فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تَغْشَى أَنْامِلَهُ وَتَعْفُو أَثَرَهُ (2) ، وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلَّ حَلَقَةٍ بِمَكَانِهَا. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِأَصْبَعِيهِ هَكَذَا فِي جَنْبِهِ فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوسَّعُهَا وَلَا تَتَوَسَّعُ].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن هشام بن عروة ، عن زوجته فاطمة بنت المنذر ، عن جدتها أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: قال رسول الله ﷺ:

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (1443) - كتاب الزكاة - باب مثل البخيل والمتصدق ، وأخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1021) ، وأخرجه الشافعي (22/1) ، وأحمد (256/2) ، والنسائي (70/5) ، وابن حبان (3313) من حديث أبي هريرة.
- (2) أي تنتشر عنه الجبة حتى تمحو أثر مشيه لسبوغها. وقوله: «قلصت» أي انضمت وارتفعت.

[أَنْفَقِي هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا ، وَلَا تَوْعِي فَيَوْعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا تَوْكِي فَيَوْكِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ] ⁽¹⁾. وفي لفظ: [وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ]. وفي لفظ: [أَنْفَقِي وَلَا تُحْصِي ، فَيُحْصِي اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا تَوْعِي فَيَوْعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: [مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مَمْسُكًا تَلَفًا] ⁽²⁾.

الحديث الرابع: أخرج البزار بسند صحيح عن بلال - وعن أبي هريرة - أن النبي ﷺ قال: [أَنْفِقْ يَا بَلَالُ! وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا] ⁽³⁾.

وله شاهد في معناه عند الإمام مسلم من طريق معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي: أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ] ⁽⁴⁾.

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - مرفوعاً: [يَاكُمْ وَالشُّحَّ ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا] ⁽⁵⁾.

الحديث السادس: أخرج البيهقي وأحمد بسند صحيح عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَا يُخْرِجُ رَجُلٌ شَيْئاً مِنَ الصَّدَقَةِ ، حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لَحْيَيْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا] ⁽⁶⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1433) ، ومسلم (1029) ، وأحمد (345/6) ، وابن حبان (3209) ، من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما .

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (1442) - كتاب الزكاة - وأخرجه مسلم (1010) .

(3) حديث صحيح. أخرجه البزار من حديث بلال وأبي هريرة ، وأخرجه الطبراني من طريق ابن مسعود ، انظر: تخريج «مشكاة المصابيح» (1885) ، وتخريج «الترغيب» (40/2) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (1508) .

(4) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (993) ح (37) .

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1698) ، وأخرجه أحمد (195/2) ، والحاكم (11/1) ، وغيرهم ، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(6) حديث صحيح. أخرجه أحمد (350/5) ، والبيهقي في «السنن» (187/4) ، وصححه الحاكم (417/1) على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1268) .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

قال ابن زيد: (يقدر: يقلّ، وكل شيء في القرآن يَقْدِرُ كذلك، ثم أخبر عباده أنه لا يرزؤه ولا يؤوده أن لو بسط عليهم، ولكن نظراً لهم منه، فقال: ﴿وَلَوْ سَـَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لعبَادِهِ لَبِغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27]. قال: والعرب إذ كان الخصب وبُسط عليهم أشيروا، وقتل بعضهم بعضاً، وجاء الفساد، فإذا كان السنة شُغِلُوا عن ذلك).

وخلاصة المعنى: إن ربك - يا محمد - يوسع رزقه على من يشاء ويُقْتَر على من يشاء من عباده، فهو سبحانه ذو خِبرة بهم، يعلم من تصلحه سعة الرزق ومن تفسده، فهو الحكيم في تصريف شؤون عباده وتدبير معاشهم وأرزاقهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾. قال مجاهد: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾: الفاقة والفقر). وقال قتادة: (أي خشية الفاقة، وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة، فوعظهم الله في ذلك، وأخبرهم أن رزقهم ورزق أولادهم على الله).

والآية تدل على رحمة الله بعباده أكثر من الوالد بولده، فقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، وربما قتل أحدهم ابنته لثلاث عيلته، فأخبر سبحانه أن هذا القتل ذنب كبير عند الله. فقال سبحانه: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي: إثماً عظيماً. وقرأ بعضهم ﴿كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾، والمعنى متقارب.

وفي سورة الأنعام آية مشابهة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك] (1).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

نهى عن مقاربة الزنا ودواعيه، أو التماس أسبابه، فإنه كان ذنباً كبيراً وساء طريقاً

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4477)، ومسلم (76)، وأحمد (434/1)، والترمذي (3183)، وغيرهم، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومسلماً. قال القرطبي: (قال العلماء: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنى). والزنى يمد ويقصر، وقوله: ﴿سَيِّئاً﴾ قد نصب على التمييز، والتقدير: وساء سبيله سيئاً.

قلت: وأول طريق الزنى إطلاق البصر، فإن الاستهتار به يورث ما بعده، والشيطان يزين المعصية ولا يزال بالعبد يوسوس له بعدها، فَيَسْهَلُ له اللمس والقبلة حتى يقع في الفاحشة. ومن هنا جاء أمر الله تعالى بغض البصر:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: 30].

ثم جاء تفصيل فساد ذلك الطريق في السنة المطهرة في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [كُنِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانَا مُذْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ: فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطأ، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: [لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفْضِي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تُفْضِي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي أمامة قال: [إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: ادنؤه. فدنا منه قريباً، فقال: اجلس. فجلس، قال: أفتُحِبُّه لأَمْك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتُحِبُّه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أتحِبُّه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يُحِبُّونه لأخواتهم، قال: أفتُحِبُّه لِعَمَّتِكَ؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري - نحوه - (22/11)، وأخرجه مسلم - واللفظ له - (2657)

(21)، وأخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (2152).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (338) - كتاب الحيض - باب تحريم النظر إلى العورات. وفي رواية: عُرْيَةُ الرجل وعُرْيَةُ المرأة مكان - عورة -. ويقال أيضاً: عُرْيَةُ بالكسر.

لعماتهم. قال: أفتحبه لخالك؟ قال: لا والله ، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم ، اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحسن فرجه. قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. نهى عن قتل النفس بغير سبب شرعي. قال قتادة: (وإنا والله ما نعلم بحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ، إلا رجلاً قتل متعمداً ، فعليه القود ، أو زنى بعد إحصانه فعليه الرجم ، أو كفر بعد إسلامه فعليه القتل).

وفي التنزيل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93].

وفي الصحيحين - واللفظ للبخاري - عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمُفَارِقُ لدينه التارك للجماعة]⁽²⁾.

وفي جامع الترمذي وسنن النسائي عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال: [لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم]⁽³⁾.

ورواه ابن ماجه من حديث البراء بلفظ: [لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق].

وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: فقد جعلنا لولي المقتول ظمناً سلطاناً على قاتل وليه ، فإن شاء استقاد منه فقتله بوليّه ، وإن شاء عفا عنه ، وإن شاء أخذ الدية).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بذلك ، وحددت فيها الدية الشرعية في القتل العمد.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (257/5) من حديث أبي أمامة ، وقال الهيثمي في «المجمع» (129/1): ورجاله رجال الصحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6878) - كتاب الديات. وأخرجه مسلم (1676) - في القسامة والمحاربين والقصاص والديات. باب ما يباح به دم المسلم.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (1395) ، والنسائي في السنن (82/7) ، وأخرجه ابن ماجه في السنن (2610) من حديث البراء.

فقد أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ : [مَنْ قَتَلَ عَمْدًا ، دُفِعَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ . فَإِنْ شَاؤُوا قَتَلُوا ، وَإِنْ شَاؤُوا أَخَذُوا الدِّيةَ . وَذَلِكَ ثَلَاثُونَ حِقَّةً ، وَثَلَاثُونَ جَذَعَةً ، وَأَرْبَعُونَ خَلِيفَةً . وَذَلِكَ عَقْلُ الْعَمْدِ . مَا صَوْلَحُوا عَلَيْهِ ، فَهُوَ لَهُمْ . وَذَلِكَ تَشْدِيدُ الْعَقْلِ] ⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ - فيه ثلاثة أقوال متكاملة .

- 1 - لا يقتل غير قاتله . قاله الضحاك والحسن ومجاهد وسعيد بن جبیر .
 - 2 - لا يقتل بدل وليه اثنين كما كانت العرب تفعله . قال مجاهد : (لا يسرف القاتل في القتل) . وقال الحسن : (كان الرجل يقتل فيقول وليه : لا أرضى حتى أقتل به فلاناً وفلاناً من أشرف قبيلته) . وقال سعيد بن جبیر : (لا تقتل اثنين بواحد) .
 - 3 - لا يُمَثَّلُ بالقاتل . قال طلق بن حبيب : ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ : لا تقتل غير قاتله ، ولا تُمَثَّلُ به) . وقال قتادة : (لا تقتل غير قاتلك ، ولا تمثّل به) .
- وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ . قال مجاهد : (إن المقتول كان منصوراً) . وقيل المراد الولي وهو أقرب للسياق . قال ابن كثير : (أي : إن الولي منصورٌ على القاتل شرعاً ، وغالباً قَدْرًا) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . قال النسفي : (أي : بالخصلة والطريقة التي هي أحسن ، وهي حفظه وشميره) .

وفي التنزيل :

- 1 - قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء : 2] .
- 2 - وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَيَدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : 6] .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذرّ ، أن رسول الله ﷺ قال : [يا أبا ذرّ ! إني أراك

(1) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (2626) - كتاب الديات . باب من قتل عمداً ، فرضوا بالدية . والحقّة من الإبل ما طعن في السنة الرابعة ، والجذعة ما طعن في الخامسة ، والخليفة : الحامل منها .

ضعيفاً ، وإنني أحبُّ لك ما أحبُّ لِنَفْسِي ، لا تأمَرَنَّ على اثنين ، ولا تولِّينَ مالَ يَتِيمٍ⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : حتى يبلغ وقت اشتداده في العقل ، وتدبير ماله ، وصلاح حاله في دينه) .

وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ . قال الزجاج : (كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد) . وقال القاسمي : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ أي العقد الذي تعاقدون به الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام ، وفيما بينكم أيضاً . والبيوع والأشربة والإجارات ونحوها ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ أي مطلوباً . يطلب من المعاهد الثبات عليه ، وعدم إضاعته . أو : صاحبه مسؤول عن نقضه إياه . والمعنى : لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموهم ، فتخفروها وتغدروا بمن أعطيتموه إياها) .

وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ . أي : إذا كلتم للناس فأوفوهم حقوقهم ولا تبخسوهم شيئاً ، وزنوا بالميزان المستقيم ، وهو العدل الذي لا اعوجاج فيه . قال مجاهد : (القسطاس : العدل بالرومية) . وقال الحسن : (القَبَّان) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ . قال قتادة : (أي خير ثواباً وعاقبة) . قلت : ولا شك أن الوفاء بالكيل ، والوزن بالعدل والقسط ، يُعَمِّ خيره معاش الناس ومعادهم ، فإن الغش والتلاعب في البيوع والتجارة يُفسد نفوس الناس وعلاقاتهم ، ويثقل تبعات ذلك أوزارهم في أخراهم .

وقوله : ﴿ وَلَا نَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ - فيه قولان متقاربان :

1 - قال ابن عباس : (يقول : لا تقل) . وقال قتادة : (لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم) ، فإن الله تبارك وتعالى سائلك عن ذلك كله) .

2 - قال ابن عباس : (يقول : لا ترم أحداً بما ليس لك به علم) . قال ابن جرير : (وأصل القفو : العضه والبهت . ومنه قول النبي ﷺ : «نحن بنو النَّضْرِ بن كِنَانَةَ لَا نَقُفُ أَمَّنَا وَلَا نَنْتَفِي مِنْ أَيْبِنَا» .

وخلاصة المعنى : نهى من الله تعالى عباده عن القول بغير علم ، أو الاتباع بالتوهم

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1826) - كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة .

والظن والخيال ، بل لا بد من الحجة البالغة في صحة الأقوال والأفعال عند التماس الحق أو التحاكم .

وفي التنزيل : ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : 12].

وفي صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : [إياكم والظنَّ ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث ، ولا تحسسُوا ، ولا تجسسُوا ، ولا تناجسُوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عبادَ الله إخواناً] (1).

الحديث الثاني : أخرج أحمد والبخاري من حديث ابن عباس مرفوعاً : [مَنْ تَحَلَّمَ حلماً كُلَّفَ يوم القيامة أن يعقدَ بين شعيرتين ، وليس بفاعل] (2).

الحديث الثالث : أخرج البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : [إِنَّ مِنْ أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرَى عَيْنُهُ مَا لَمْ تَرَ] (3).

الحديث الرابع : أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي مسعود ، قال لأبي عبد الله ، أو قال أبو عبد الله لأبي مسعود : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في : «زعموا» ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [يُسَّ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا] (4).

قال أبو داود : أبو عبد الله هذا : حذيفة .

الحديث الخامس : أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَّبِعُوا مقعده من النار] (5).

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6066) - كتاب الأدب ، وأخرجه مسلم (6563) ، وأبو داود (4917) ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 465) ، وكذلك ابن حبان (5687) من حديث أبي هريرة .
- (2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7042) ، وأحمد (1/ 216) ، وأبو داود (5024) ، بأتم منه .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7043) - كتاب التعبير ، باب من كذب في حلمه .
- (4) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4972) - في الأدب - باب قول الرجل : «زعموا» ، وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (4158) .
- (5) حديث حسن صحيح . أخرجه ابن ماجة (34) - باب التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله ﷺ . وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (32) ، وتخریج «مشكاة المصابيح» (5940) .

الحديث السادس: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ، على هذا المنبر: [إياكم وَكَثْرَةُ الحديث عني . فمن قال عليّ فليقل حقاً أو صدقاً . وَمَنْ تَقَوَّلَ عليّ مالم أقُلْ ، فليتبوأ مقعده من النار]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ . قال ابن جرير: (معناه: إن الله سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها ، من أنه سمع أو أبصر أو علم ، تشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق).

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ . أي: متبخرأ متكبراً متميلاً كتمايل أهل العُجب والتجبر . وقوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي: إنك لن تقطع الأرض باختيالك . قال النسفي: (لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطأتك). وقوله: ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ . قال قتادة: (يعني بكبرك ومرحك). وقال: (لا تمش في الأرض فخرأ وكبرأ ، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ، ولا تخرق الأرض بكبرك وفخرك). وقيل: بل المقصود لن تحاذي الجبال قوة.

وفي التنزيل: قول لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَصْغِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18].

وفي السنة المطهرة من آفاق مفهوم هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلْ جَوَاطِ مستكبر]⁽²⁾.

الحديث الثاني: خرّج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبَر . فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميلٌ يحب الجمال ، الكبر بطرٌ الحق وغمطُ الناس]⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال:

(1) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (35) - في الباب السابق ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (33).

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (507/8 - 508) ، (408/10) ، وأخرجه مسلم (2853).

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (91) ، وأخرجه أبو داود (4091) ، وأخرجه الترمذي (1999).

[بينما رجل يمشي في حلة تُعجبُه نفسه ، مُرَجِّلُ رأسه ، يختال في مشيته ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة] (1).

الحديث الرابع: أخرج البيهقي بسند حسن عن أنس ، أن النبي ﷺ قال: [لو لم تكونوا تذنبون ، لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العُجب العجب] (2).
وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

قال ابن كثير: (أما من قرأ «سيئة» ، أي: فاحشة: فمعناه عنده: كُلُّ هذا الذي نهينا ، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنَّ كَنزًا﴾ إلى هاهنا ، فهو سيئة مؤاخَذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله ، لا يحبه ولا يرضاه. وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُ﴾ على الإضافة فمعناه عنده ، كُلُّ هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى هاهنا ، فسيئته ، أي: قبيحه مكروه عند الله ، هكذا وجَّه ذلك ابن جرير رحمه الله).

39 - 44. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ٣٩ أَفَاصْفَكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤٠ وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يُزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤١ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٣ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤.

في هذه الآيات: إعلامُ الله تعالى نبيه ﷺ أنَّ ما أمره به من تلك الأخلاق الجميلة وما نهاه عنه من الصفات الذميمة إنما هو وَحْيٌ ليلبغه الناس ، وأنَّ أخطر تلك النعوت السيئة هو الشرك بالله الذي يوقع صاحبه في جهنم ملومًا مدحورًا. وردُّ على مشركي العرب قولهم: الملائكة بنات الله. وأنَّ هذا القرآن مليء بالحجج والبر والامثال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (221/10)، (222/10)، وأخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2088).

(2) حديث حسن. أخرجه البيهقي من حديث أنس، وابن عدي (1/164) وسنده حسن. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (658).

لينزجر الظالمون عن الشرك بالله. إن الله هو الواحد الأحد الذي تسبح له السماوات والأرض ومن فيهن وهو الحليم الغفور.

فقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾. قال المهامي: (أي من العلم المحكم الذي لا يتغير بشبهة). وقال القاسمي: (أي مما يحكم العقل بصحته ، وتصلح النفس بأسوته). قال ابن كثير: (يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة ، مما أوحيناك إليك يا محمد ، لتأمر به الناس).

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾. أي: ولا تشرك بالله في عبادتك فتلقى في جهنم ملوماً - تلومك نفسك وعارفوك من الناس - مُبعداً مقصياً في النار. والخطاب للأمة على لسان نبيها المعصوم ﷺ. قال ابن عباس: ﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ يقول: مطروداً.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رِيبُكُمْ بَالِغِينَ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

رَدُّ على مشركي العرب في قولهم: الملائكة بنات الله. قال ابن جرير: (يقول: أفخصكم ربكم بالذكر من الأولاد ﴿وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ، بل تندونهن ، وتقتلونهن ، فجعلتم الله ما لا ترضونه لأنفسكم). قال القاسمي: ﴿إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي بإضافة الأولاد إليه ، وهي خاصة المحدثات. ثم بإيثاركهم أنفسكم عليه ، حيث تجعلون له ما تكرهون).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾. أي: ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من العبر والأمثال ، والتذكير بالوعد والوعيد ، لعلهم يذكرون تلك الحجب والمواعظ فينزعجوا عن تعظيم غير الله والشرك به والافتراء والظلم ، ولكن الظالمين لا يزدادون بهذه الذكرى إلا بعداً عن الحق وكبراً وكفراً.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغُوا إِلَٰهَ الْوَعْدِ سَبِيلًا﴾.

قال قتادة: (يقول: لو كان معه آلهة إذن لعرفوا فضله ومرتبته ومنزلته عليهم ، فابتغوا ما يقربهم إليه). قال: (لا تبغوا القرب إليه ، مع أنه ليس كما يقولون). قال ابن جرير: (- يقول -: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر لو كان الأمر كما تقولون ، من أن معه آلهة ، وليس ذلك كما تقولون ، إذن لا ابتغت تلك الآلهة القربة من الله ذي العرش العظيم ، والتمست الرلفة إليه ، والمرتبة منه).

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

قال القرطبي: (نزه سبحانه نفسه وقده ومجده عما لا يليق به).

وقوله: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾. أي تقدسه السماوات السبع وتمجده وتعظمه سبحانه ، وكذا الأرض ، ومن فيهن من سائر المخلوقات ، والكل يشهد أنه الرب الواحد الأحد ، الإله الحق الصمد.

وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. قال قتادة: (كل شيء فيه الروح يسبح ، من شجر أو شيء فيه الروح). قلت: بل الحيوانات والنباتات والجمادات كلها تسبح الله العظيم ، في لغات لا يعلمها إلا الله السميع العليم.

وفي التنزيل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: 41].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: [كنا نسبح تسبيح الطعام وهو يؤكل]⁽¹⁾. وفي رواية: [كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه].

الحديث الثاني: أخرج مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن]⁽²⁾.

الحديث الثالث: يروي ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [المؤذن يُغْفِرُ له مَدَى صوته. ويستغفر له كُلُّ رَطْبٍ وَيَاسٍ. وشاهد الصلاة يكتب له خمسٌ وعشرون حسنةً ، ويكفر له ما بينهما]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج البخاري في صحيحه عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صغصعة الأنصاري ثم المازني ، عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري قال له: [إني أراك تُحِبُّ الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3579) ، والترمذي (3633) ، وأخرجه ابن حبان (6493).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2277) ، وأحمد (89/5) ، والترمذي (3624) ، وأخرجه الطيالسي (1907) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (6482).

(3) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة (724) - كتاب الأذان ، باب فضل الأذان وثواب المؤذنين.

بَادِيَتِكَ فَأَذْنَتَ لِلصَّلَاةِ فَارْفَعِ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ حِينَ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ⁽¹⁾ .

ورواه ابن ماجه بلفظ : [إذا كنت في البوادي ، فارفع صوتك بالأذان . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لَا يَسْمَعُهُ حِينَ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ] .

الحديث الخامس : أخرج أحمد ورجاله ثقات من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : [إن نبي الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك الوصية ، أمرتك باثنتين وأنهاك عن اثنتين ، أمرتك بـ «لا إله إلا الله» ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ، ووضعت لا إله إلا الله في كفة ، رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كنَّ حلقة مبهمه قصمتهن لا إله إلا الله . وسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر] الحديث ⁽²⁾ .

وقوله : ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ . أي : يحلم على عباده فلا يعاجل العصاة منهم بالعقوبة ، بل يؤجلهم ويُنظرهم ويفسح لهم وقتاً للتوبة ، فإن تابوا غفر لهم .

45 - 48 . قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ ^(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَنْ عَلَيَّ آدْبُرُهُمْ نُفُورًا ^(٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ^(٤٧) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ^(٤٨) .

في هذه الآيات : مكر الله تعالى بالمشركين بجعل المانع الحائل بين القرآن وقلوبهم وآذانهم مقابل تكذيبهم واتهامهم النبي ﷺ بالرجل المسحور ، فلا يهتدون سبيلاً .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (609) - كتاب الأذان . باب رفع الصوت بالنداء . وانظر صحيح سنن ابن ماجه (591) - كتاب الأذان والسنة فيها ، الباب السابق .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/ 169 - 170) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (548) ، وأخرجه البيهقي في «الأسماء» (79) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (134) .

فعن قتادة: (قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قال: الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وأن ينتفعوا به ، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم).

والمقصود: أن الله تعالى جعل مانعاً حائلاً بين القرآن والمشركون جزاء استهتارهم بالوحي العظيم. قيل: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ بمعنى سائر. وقيل مستوراً عن الأبصار فلا تراه ، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾. ﴿أَكِنَّةٌ﴾: جمع كنان ، وهو ما ستر الشيء ، والمراد ما يغشى القلب. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ، أي: لثلاثا يفهموا هذا القرآن. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة عند قراءتك عليهم القرآن أكنة ، وهي جمع كنان ، وذلك ما يتغشاها من خذلان الله إياهم عن فهم ما يئلى عليهم).

وقوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾. الوقر في الأذن: الثقل. قال ابن كثير: (وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به).

وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَى أَدْبِرِهِمْ نُفُورًا﴾. أي: إذا عظمت ربك وحده أثناء تلاوتك القرآن - يا محمد - وقلت موحداً: لا إله إلا الله أدبر المشركون راجعين. قال أبو الجوزاء أوس بن عبد الله: (ليس شيء أطرد للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله ، ثم تلا: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَى أَدْبِرِهِمْ نُفُورًا﴾. وقال قتادة: (إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله» ، أنكر ذلك المشركون ، وكبرت عليهم ، وصافها إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن يُمضِيَهَا وينصرها ويظهرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فلج ، ومن قاتل بها نُصِرَ ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين ، التي يقطعها الراكب في ليال قلائل ، ويسير الدهر في فنام من الناس لا يعرفونها ولا يقرّون بها).

وقوله: ﴿تَنْحُنُّ أَعْلَامُهُمْ بِمَا يَسْمَعُونَ بِهِ إِذْ يَسْمَعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾. قال القرطبي: (قيل: الباء زائدة في قوله ﴿بِهِ﴾ أي يستمعونه. وكانوا يستمعون من النبي ﷺ القرآن ثم ينفرون فيقولون: هو ساحر ومسحور ، كما أخبر الله تعالى به عنهم ، قاله قتادة وغيره. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي متناجون في أمرك). قال مجاهد: (هي مثل قيل الوليد بن المغيرة

ومن معه في دار الندوة). وقال قتادة: (ونجواهم أن زعموا أنه مجنون ، وأنه ساحر ، وقالوا: أساطير الأولين).

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. أي: إذ يقول الظالمون أمثال أبي جهل والوليد بن المغيرة للناس: إن تتبعون إلا رجلاً مطبوعاً قد خبله السحر فاختلط عليه أمره ، ومرادهم بذلك تنفير الناس عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

قال مجاهد: (مخرجاً ، الوليد بن المغيرة وأصحابه). قال القاسمي: (أي: مثلك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فَضَلُّوا﴾ أي عن الحق والهداية بك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه . وأن الله قد خذلهم عن إصابته . أو المعنى: فلا يستطيعون سبيلاً إلى طعن يمكن أن يقبله أحد ، بل يخطبون بما لا يرتاب في بطلانه أحد . كالمتحير في أمره لا يدري ماذا يصنع).

49 - 52. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَوَّانَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُ لِأَسْجُوتٍ بِحَمْدِهِ وَتَنْظَنُونَ إِن لَّيْتُمُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥٢﴾.

في هذه الآيات: استهزاء الكافرين بأمر البعث بعد فناء العظام وزوال الأجسام ، وتحدي الله لهم بأنهم لو كانوا حجارة أو حديداً أو أكبر من ذلك فإنهم مدعوون للوقوف بين يديه مع جميع الأنام ، ويظنون حين ذلك أنهم ما لبثوا في غرور الدنيا إلا القليل من الأيام.

فقوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا﴾. قال ابن عباس: (يقول: عُباراً). وقال مجاهد: (رفاتاً: تراباً). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قريش ، وقالوا بِعَتْنِهِمْ: ﴿أَوْذَا كُنَّا عِظْمًا﴾ لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا وبلانا ، ﴿وَرَفْنَا﴾ يعني تراباً في قبورنا).

وقوله: ﴿أَوَّانَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ - إنكار منهم للبعث بعد الموت .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 78 - 79].

2 - وقال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ أَوَلَمْ نَلْمِزْهُمْ دُونَ فِي الْغَافِرَةِ ﴾ (١١) أَوَلَمْ نَكُنَّا عِظَمًا تَحَرَّةً ﴾ (١٢) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات : 10 - 12].

وفي سنن الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قالا : قال رسول الله ﷺ : [يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالاً وولداً ، وسخّرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك رأساً وتزبّع ، فكنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمِكَ هَذَا؟ فيقول : لا . فيقول له : اليوم أنساكَ كما نسيتني] (1).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ (١٥) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ .

قال القاسمي: (أي يعظم في نفوسكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياءه . فإنه يحييكم ولا يعجزه بعثكم . فكيف ، إذا كنتم عظاماً مرفوثة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل ، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد) . وقال مجاهد: (ما شئتم فكونوا ، فسيعيدكم الله كما كنتم) . وقال الضحاك: (كونوا الموت إن استطعتم ، فإن الموت سيموت . وليس شيء أكبر في نفس ابن آدم من الموت) .

وقوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ﴾ . أي: فسيقولون بعد إقامة الحجة عليهم ولزومها بهم: فمن يعيدنا؟! ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . قال قتادة: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قال: السماء والأرض والجبال ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي خلقكم) .

وقوله: ﴿ فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: سيعركونها إليك استهزاء) . وقال قتادة: (أي يحركون رؤوسهم تكديباً واستهزاء) . وأصل النفض في كلام العرب: حركة بارتفاع ثم انخفاض ، أو بالعكس .

وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ . أي: يقولون لك - يا محمد -

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (2558) - أبواب صفة القيامة . وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1978) .

فمتى البعث الذي تخبرنا عنه ، ومتى يعيدنا خلقاً جديداً فقل لهم : إن الأمر قد يكون قريباً ، فكل آت قريب .

وقوله : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : بأمره) . قال قتادة : (أي بمعرفته وطاعته) . قال ابن كثير : (أي : تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته) . وقال ابن جرير : (معناه : فتستجيبون لله من قبوركم بقدرته ، ودعائه إياكم ، والله الحمد في كل حال) .

قال القاضي : (استعار لهما الدعاء والاستجابة ، للتنبيه على سرعتهما وتيسر أمرهما . وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمr : 50] .

2 - وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل : 40] .

3 - وقال تعالى : ﴿فَلِنَأْتِيَنَّهُ زَجْرَةً وَاحِدَةً﴾ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات : 13 - 14] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض] ⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . قال قتادة : (أي في الدنيا ، تحاقرت الدنيا في أنفسهم وقلّت ، حين عاينوا يوم القيامة) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١٠١﴾ يَخْفَتُونَ يَنْهَمُ إِذَا لَبِئْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ﴿١٠٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه : 102 - 104] .

2 - وقال تعالى : ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَشَلِ الْعَايِينَ﴾ ﴿١١٧﴾ قُلْ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون : 112 - 114] .

3 - وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم : 55] .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4812) ، وأخرجه مسلم (2787) ، وغيرهما من أهل السنن .

4- وقال تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَهَا لَزِيْزَةً إِلَّا عَيْنِيَّ أَوْصَحَّهَا﴾ [النازعات: 46].

وفي سنن الترمذي بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحبُ الصور قد التقمه وأصغى سمعه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله! وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل] (1).

53 - 57. قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ﴿٥٧﴾.

في هذه الآيات: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر عباده اختيار الكلام الأحسن في مخاطباتهم ومحاوراتهم ، وإلا نزغ الشيطان بينهم وأوقعهم في شباك العداوة والبغضاء والافتتال. إن ربكم أيها الناس أعلم من يستحق الهداية أو الخذلان ، وأعلم بمن في السماوات والأرض لا يخفى عليه شيء ، وقد فضل بعض النبيين على بعض وآتى داود زبوراً ، فلا يستبعد أن يؤتي محمداً قرآناً. إن آلهة المشركين لا تملك كشف الضر عنهم ولا تحويلاً. وكذلك فإن فئة الجن الذين كان بعض الإنس يعبدونهم أسلموا فهم يبتغون مرضاة ربهم ويخافون عذابه - وما زال أولئك الإنس يعبدونهم - وعذاب الله يحذره المؤمنون وسيحيط يوماً بالكافرين .

فقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾. قال الحسن: (التي هي أحسن ، لا يقول له مثل قوله ، يقول له: يرحمك الله ، يغفر الله لك). قال ابن كثير: (يأمر تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة ،

(1) حديث حسن . انظر تخريج «المشكاة» (5527) ، وصحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1980) .

فإنه إذا لم يفعلوا ذلك نَزَعَ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإن الشيطان عدوٌّ لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، فعداوتُهُ ظاهرة بينة ، ولهذا نهى أن يُشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان يَنزَعُ في يده ، فربما أصابه بها).

قلت : وقد حفلت النصوص القرآنية والنبوية بآفاق هذه المعاني السامية :

ففي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34].

2 - وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : 199].

3 - وقال تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : 96 - 98].

وفي صحيح السنة المطهرة :

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم] (1).

الحديث الثاني: أخرج الطبراني والبيهقي بإسناد حسن عن شقيق قال: [لبي عبد الله رضي الله عنه على صفا ، ثم قال: يا لسان قل خيراً تغنم ، اسكت تسلم ، من قبل أن تندم. قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذا شيء أنت تقوله أم سمعته؟ قال: لا ، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: أكثر خطايا ابن آدم في لسانه] (2).

الحديث الثالث: أخرج أحمد والشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (54) - كتاب الإيمان .

(2) حديث حسن . أخرجه الطبراني (3/ 178 - 2)، والبيهقي كما في «الترغيب» (4/ 8)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (534). وقال الألباني: وهذا إسناد جيد ، وهو على شرط مسلم .

رسول الله ﷺ: [لا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلاحِ ، فإنه لا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعْلَ الشَّيْطَانِ أَنْ يَنْزِعَ فِي يَدِهِ ، فيقع في حفرة من نار] ⁽¹⁾.

وفي رواية لمسلم: [من أشار إلى أخيه بحديدة ، فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه].

وقوله تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾. أي: ربكم أعلم بكم أيها الناس ، فمن استحق منكم الهداية وفقه سبحانه لطاعته ، ومن كان قاسي القلب عن الإخبات لربه عز وجل وأصرّ على معصيته خذله عن الهداية وطريق النجاة ، وأسلمه للعذاب ، وإنما أنت - يا محمد - نذير ولست عليهم بوكيل. قال ابن جريج: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ قال: فتؤمنوا ﴿ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ ، فتموتوا على الشرك كما أنتم).

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾. قال القاسمي: (أي فلا يخفى عليه شيء فيهما. فهو أعلم بهؤلاء ⁽²⁾ ضرورة. وفيه إشارة إلى رحمته تعالى ببعثة الرسل ، لحاجة الخلق إليها. وإلى مشيئته فيمن يصطفي لرسالته ، ويختار لنبوته ، ويعلمه أهلاً لها).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾. قال النسفي: (فيه إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ). قال ابن جريج: (كلم الله موسى ، وأرسل محمداً إلى الناس كافة). وقال قتادة: (اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكلم موسى تكليماً ، وجعل الله عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، وهو عبد الله ورسوله ، من كلمة الله وروحه ، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وآتى داود زبوراً ، كنا نحدث دعاء علمه داود ، تحميد وتمجيد ، ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ، وغفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه وما تأخر).

وفي التنزيل: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْ كُلِّ لُغَةٍ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: 253].

قلت: ولا شك أن محمداً عليه الصلاة والسلام أفضل الأنبياء والرسل صلوات الله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7072)، ومسلم (2617)، وأحمد (317/2)، وابن حبان (5948)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) يعني المشركين من قريش الذين كانوا يعادون رسول الله ﷺ ويكفرون بالوحي والبعث بعد الموت.

وسلامه عليهم أجمعين ، وسيد ولد آدم ، وما جاء من النهي عن التفضيل بين الأنبياء - كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً -: [لا تفضلوا بين أنبياء الله . . .] الحديث⁽¹⁾ ، فإن المقصود النهي عن التفضيل بينهم بمجرد التشهي والعصية ، لا بمقتضى الدليل ، وأما ما ثبت من ذلك في التنزيل أو في السنة الصحيحة فإن الأصل في ذلك الاتباع .

وقوله : ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ . تنبيه على فضله وشرفه - ذكره ابن كثير . قال القرطبي : (الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد . أي كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن . وهو في مُحاجة اليهود) .

وقال النسفي : (﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ دلالة على وجه تفضيله⁽²⁾ ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم ، لأن ذلك مكتوب في زبور داود ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ . وهم محمد وأمته) .

قلت : وكل ما سبق يدخل في مفهوم الآية ، فهي تشير إلى فضل نبينا محمد ﷺ وأمته ، وكذلك إلى فضل داود عليه السلام وتلاوته ، وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [خُفِّفَ على داود القرآن ، فكان يأمرُ بِدَائِهِ لِتُسْرَجَ ، فكان يقرأ قبل أن يفرغ⁽³⁾] - يعني القرآن .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ٥٦ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** .

روى مسلم في صحيحه عن عبد الله : [﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم النفر من الجن

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (2373) - كتاب الفضائل - باب من فضائل موسى ﷺ ، في أثناء حديث طويل .

(2) يعني النبي محمداً عليه الصلاة والسلام .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4713) - كتاب التفسير . باب قوله : ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ .

واستمسك الإنس بعبادتهم ، فنزلت : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ۖ ﴾⁽¹⁾ .

ثم ساقه من طريق أخرى إلى ابن مسعود وفيه : (فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون ، فنزلت) .

ورواه الحاكم - على شرط مسلم - وفيه : [فأنزل الله عز وجل : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ ۖ وَذَكَرَ الْآيَتِينَ ، إِلَىٰ قَوْلِهِ ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ ۖ ﴾] .

قال ابن عباس : (الوسيلة : القرية) . وقال قتادة : (الوسيلة : القرية والزلفى) .

وخلاصة المعنى كما قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : هؤلاء الذين يدعوه هؤلاء المشركون أرباباً ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ۖ ﴾ يقول : يبتغي المدعوون أرباباً إلى ربهم القرية والزلفة ، لأنهم أهل إيمان به ، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة ﴿ وَيَرْجُونَ ﴾ بأفعالهم تلك ﴿ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ ﴾ بخلافهم أمره ﴿ عَذَابُهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ ﴾ يا محمد ﴿ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ متقى) .

58 - 60 . قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ ۖ

أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۖ ﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۖ وَآيَاتِنَا ثُمُودُ النَّاقَةِ مُبْصِرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۖ ﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّثْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۖ ﴾ .

في هذه الآيات : قضاء الله تعالى بإهلاك أهل القرى حالة عتوهم وبغيهم وتمردهم على دينه ورسله ، وإن كثيراً من الآيات والمعجزات لا تزيد الظالمين إلا عتواً وكبراً . وحض الله نبيه ﷺ على المضي في إبلاغ دعوته وهو سبحانه يعصمه من الأذى ، وقد

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (3030) ، وأخرجه البخاري (4715) - كتاب التفسير - عند هذه الآية من سورة الإسراء ، وأخرجه الواحدي (682) ، وانظر : «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - سورة الإسراء ، آية (56 - 57) .

أراه الله ليلة الإسراء عجائب قدرته ، وشجرة الزقوم التي هي طعام أهل الشرك الذين يزدادون طغياناً وعتواً ، وعذاب الله سيحيط بهم قريباً .

فقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ . المعنى: يقول جل ذكره: ما من قرية إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء - أي الموت - فمبيدوهم استئصالاً قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء قتل بالسيف أو غير من ذلك من صنوف العذاب عذاباً شديداً . قضاء الله وحكمه وكتابته ذلك في اللوح المحفوظ .

قال قتادة: (قضاء من الله كما تسمعون ليس منه بدّ ، إما أن يهلكها بموت ، وإما أن يهلكها بعذاب مستأصل إذا تركوا أمره وكذبوا رسله) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ۖ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسرًا ﴾ [الطلاق: 8 - 9] .

2 - وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: 102] .

ومن صحيح السنة في ذلك :

الحديث الأول: أخرج أحمد والحاكم بسند صحيح عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا ظهرَ السوء في الأرض أنزل الله بأسه بأهل الأرض ، وإن كان فيهم قوم صالحون ، يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يرجعون إلى رحمة الله ومغفرته] (1) .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: [إذا ظهر الرِّئاء والرِّبَا في قرية ، فقد أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله] (2) .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (41/6) ، والحاكم (523/4) ، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/441) ، عن عائشة مرفوعاً . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1372) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الطبراني والحاكم عن ابن عباس . انظر صحيح الجامع (692) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان - (1210/2) - لتفصيل مفهوم الآية وعلاقتها بالقدر .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرک ، ورجاله رجال الصحيح ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال : [سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحي الجبال عنهم فيزدرعوا ، ف قيل له : إن شئت أن تستأني بهم ، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم . قال : لا ، بل أستأني بهم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْثَاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ ⁽¹⁾ .

وفي رواية : [قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، ونؤمن بك . قال : وتفعلون؟ قالوا : نعم . قال : فدعا ، فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . فقال : بل باب التوبة والرحمة . فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْثَاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ ⁽²⁾ .

وتأويل الآية : أي كما أن معجزة صالح ﷺ لم تنفع في جلب ثمود إلى الإيمان ، فإن المشركين من قريش لن تنفعهم معجزة يعطيها الله لمحمد عليه الصلاة والسلام ، قياساً على عبر التاريخ والزمان ، وعلى سنة الأولين مع رسلهم عبر القرون والدهور والأيام . وعن قتادة : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ : إن الله يخوف الناس بما يشاء من آياته ، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ . قال الحسن : (يقول : أحاط بالناس ، عصمك من الناس) . وقال : (يقول : أحطت لك بالعرب أن لا يقتلوك ، فعرف أنه لا يُقتل) . وعن مجاهد : ﴿ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ قال : فهم في قبضته) . وقال قتادة : (أي منعك من الناس حتى تبلغ رسالة ربك) .

(1) حديث صحيح . أخرجه النسائي في «التفسير» (310) ، وأحمد (258/1) ، وأخرجه الطبري (2298) ، وصححه الحاكم (362/2) ووافقه الذهبي ، وانظر : «الصحيح المسند من أسباب النزول» - الوادعي - سورة الإسراء ، آية (59) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (242/1 - 345) ، وإسناده جيد كما ذكر الحافظ ابن كثير ، السيرة النبوية (362/1) ، وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين (258/1) .

والخلاصة: يحض الله تعالى نبيه ﷺ على المضي في إبلاغ دعوته ، وله الضمان من الله بالعصمة من أذى الناس ممن أراد به سوءاً وهلاكاً.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّثْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾.

أخرج البخاري في صحيحه عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: [﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّثْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ ، قال: هي رؤيا عَيْنِ أَرِيهَا رسول الله ﷺ ليلة أسري به ، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾: شجرة الزقوم]⁽¹⁾.

قال القاسمي: (قال الأكترون: يعني ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء من الآيات. فلما ذكرها النبي ﷺ للناس ، أنكر بعضهم ذلك وكذبوا. وجعل الله ذلك ثباتاً وبقيناً للمخلصين. فكانت فتنة ، أي اختباراً وامتحاناً).

يروى ابن جرير عن ابن عباس وقتادة: (أن أبا جهل قال: زعم صاحبكم هذا - يعني النبي صلوات الله عليه - أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر! فكذبوا بذلك). وفي رواية: (أن أبا جهل قال: أخوفني بشجر الزقوم؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول: تزقموا ، فما نعلم الزقوم غير هذا).

قال النسفي: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ معناه: والشجرة الملعون آكلها وهم الكفرة ، لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَاطُ الْكُذِبُونَ﴾ ^(٥١) لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ ^(٥٢) فَالْتَوْنِ مِنْهَا أَبْطُونُ. فوصفت بلعن أهلها على المجاز ، ولأن العرب تقول لكل طعام مكروه ضار: ملعون ، ولأن اللعن هو الإبعاد من الرحمة ، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة). وقيل: الملعون بمعنى المؤذي ، لأنها تغلي في البطون كغلي الحميم. ومن ثم فوصفها بما سبق إما مجاز مرسل أو استعارة.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ ^(٥٣) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ^(٥٤) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ^(٥٥) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ^(٥٦) [الصافات: 62 - 65].

قال ابن جريج: (طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، والشياطين ملعونون).

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ^(٥٧) طَعَامٌ أَثِيمٌ ^(٥٨) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطُونِ ^(٥٩) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ^(٦٠) [الدخان: 43 - 46].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4716) - كتاب التفسير ، سورة الإسراء ، آية (60).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . قال رسول الله ﷺ : [لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه؟!]⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ . أي : ونخوف هؤلاء الكفار بالوعيد والعذاب ، والشقاء والنكال ، وطعام الزقوم الذي هو كالمهل يغلي في البطون ، وما يزيدهم هذا التخويف إلا تمادياً في الكفر والضلال ، وعناداً وكبراً واستهزاء بما يوصف لهم من سيئ الحال والمآل ، وذلك من خذلان الله لهم ومكره بهم .

61 - 65 . قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَأَيَّ جَهَنَّمَ جَزَأَوْكَ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٨﴾ وَاسْتَفْزِرْ مِنْ أَسْطَقَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٩﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : ذكر الله خبر سجود الملائكة لآدم بأمره ، واستكبار إبليس عن ذلك وتعهده بإغواء الذرية ، وتعهده الله إدخاله وأتباعه في نار جهنم ، وإطلاقه في هذه الحياة الدنيا يدعو إلى معصية الله ليستجيب له المبتطلون ، وينجوا بعون الله من كيدته المؤمنين .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ . تذكير من الله تعالى عباده عداوة إبليس القديمة لأبيهم آدم وذريته ، ليحذروا من مكر هذا المستكبر اللعين ، الذي أظهر الحسد والبغضاء وأبى أن يمثل أمر الله بالسجود لآدم ، وتعزز بخلقه النار ، واستوهن خلق الصلصال ، وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن عباس . انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (5683) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (5126) .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. فيه إظهار إبليس الجراءة والكفر ، والرب سبحانه يَحْلُمُ وَيُنْظُرُ ، يقول: أرايت هذا الذي أمرتني بالسجود له ، تكريماً منك إليه ، لئن أخرت إهلاكي إلى يوم القيامة لأستولين على ذريته ولأستميلنهم ولأضلنهم إلا قليلاً منهم. قال مجاهد: ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، قال: لأحتوينهم). وقال ابن عباس: (يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً). وقال ابن زيد: (لأضلنهم) - وكلها متقاربة في المعنى متكاملة.

أخرج الحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني]⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَأِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا ﴾.

قال مجاهد: (موفوراً: وافراً). وقال ابن جرير: (يقول: ثوابا مكثوراً مكملاً). والمعنى: توعده من الله تعالى أتباع إبليس بالشقاء. قال قتادة: (عذاب جهنم جزاؤهم ، ونقمة من الله من أعدائه فلا يعدل عنهم من عذابها شيء).

وقوله: ﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَظَّتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ - فيه أقوال متكاملة:

1 - قال مجاهد: (اللعب واللهو). أو قال: (باللهو والغناء). والمعنى: استخفف واستجهل من استطعت منهم بصوت الغناء واللعب لتشغلهم بفاحش القول ومزامير اللهو عن طاعة الله عز وجل. وفي كلام العرب: استفزه: استخفه. والفز الخفيف.

2 - وقال ابن عباس: (صوته كل داع دعا إلى معصية الله).

3 - وقال قتادة: ﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَظَّتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قال: بدعائك).

وكلها معان يحتملها التأويل وبيان الآية ، ويشمل صوته الوسوسة والغناء الماجن والمزمار.

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 261) ، والبيهقي في «الأسماء» ص (134) ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 29) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (104).

وقوله: ﴿وَأَجَلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ - فيه أكثر من تأويل:

1 - قال قتادة: (إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس ، وهم الذين يطيعونه). وقال: (الرجال ، المشاة). وقال مجاهد: (كل راكب وماشي في معاصي الله تعالى).

2 - قال ابن عباس: (خيله: كل راكب في معصية الله ، ورجله: كل راجل في معصية الله). وقال مجاهد: (ما كان من راكب يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل في معصية الله فهو من رجال إبليس. الرَّجُل: جمع راجل ، كما التَّجَر: جمع تاجر ، والصَّخْب: جمع صاحب).

3 - قال النسفي: ﴿وَأَجَلِبْ عَلَيْهِمْ﴾ اجمع وصح بهم ، من الجلبة وهو الصياح ﴿بِخِيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ بكل راكب وماشي من أهل العيث). وقال ابن كثير: (يقول: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجالتهم).

وكلها معان متقاربة متكاملة في المعنى ، مفادها استفزاز إبليس للعين بني آدم إلى معصية الله والكفر به وسوء الظن به تعالى.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال: [يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ - فيه أقوال متكاملة:

أ - أما الأموال:

1 - قال مجاهد: (ما أكل من مال بغير طاعة الله). أو قال: (التي أصابوها من غير حلها).

2 - قال عطاء بن أبي رباح: (الشرك في أموال الربا).

3 - قال الحسن: (مرهم أن يكسبوها من خبيث ، وينفقوها في حرام). وقال: (قد والله شاركهم في أموالهم ، وأعطاهم الله أموالاً أنفقوها في طاعة الشيطان في غير حق الله تبارك اسمه). وقال ابن عباس: (كل مال في معصية الله). وقال ابن زيد: (مشاركته إياهم في الأموال والأولاد ، ما زَيْنَ لهم فيها من معاصي الله حتى ركبوها).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2865) ، وأخرجه أحمد في مسنده (266/4) ، وغيرهما ، من حديث عياض بن حمار مرفوعاً.

4 - قال ابن عباس: (مشاركته في الأموال أن جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة لغير الله). وقال الضحاك: (يعني ما كانوا يذبحون لآلهتهم). قال ابن جرير: (فكل ما أطيع الشيطان فيه من مال وعصي الله فيه ، فقد شارك فاعل ذلك فيه إبليس).

ب - وأما الأولاد:

1 - قال ابن عباس: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال: أولاد الزنا. وقال الضحاك: (أولاد الزنا ، يعني بذلك أهل الشرك).

2 - قال ابن عباس: (ما قتلوا من أولادهم ، وأتوا فيهم الحرام). يعني وأدهم أولادهم وقتلهم.

3 - قال الحسن: (قد والله شاركهم في أموالهم وأولادهم ، فمجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزؤوا من أموالهم جزءاً للشيطان). وقال قتادة: (قد فعل ذلك ، أما في الأولاد فإنهم هودوهم ونصروهم ومجسؤهم).

4 - قال أبو صالح ، عن ابن عباس: (مشاركته إياهم في الأولاد ، سموا عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان).

قال ابن جرير: (وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى عَصِيَّ الله فيه بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله . أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه ، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه مَنْ وُلِدَ ذلك الولد له أو منه).

قلت: ويدخل في ذلك ترك التسمية عند الجماع ، والتهاون بمثل هذه الوصايا النبوية.

ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله ، اللهم جَنَّبْنَا الشيطان وجَنَّبَ الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يُقَدَّرَ بينهما ولدٌ في ذلك لم يضرَّه الشيطان أبداً⁽¹⁾].

وقوله: ﴿وَعَدُّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾. قال النسفي: (وعدهم المواعيد

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (141) ، (3271) ، ومسلم (1434) ، وأحمد (1/217) ، وأبو داود (2161) ، والترمذي (1092) ، وابن ماجه (1919) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (983) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ هو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب).

وفي التنزيل: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾ [إبراهيم: 22].

وقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ . قال قتادة: (وعباداه المؤمنين ، وحراسه المؤمنين ، وقال الله في آية أخرى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: 100]).

قال ابن كثير: (إخباراً بتأييده تعالى عباده المؤمنين ، وحفظه إياهم ، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال: ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ ، أي: حافظاً ومؤيداً وناصراً).

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: 42].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن سبرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد بطريق الإسلام فقال: تُسَلِّمُ وتُذَرُّ دينك ودين آبائك؟! فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تُهَاجِرُ وتدع أرضك وسماؤك. . فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تَجَاهِدُ فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتُنكح المرأة ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد. . .] (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث الحارث الأشعري ، عن النبي ﷺ قال: [وَأَمْرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى ، فَإِنْ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلَ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُو فِي إِثْرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حَصْنٍ حَصِينٍ ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (483/3) ، والنسائي في السنن (21/6 - 22) ، وابن حبان في صحيحه (4593) ، وسنده لا بأس به ، وانظر صحيح الجامع الصغير (1648).

لا يَخْرُزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى⁽¹⁾.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند حسن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيَاطِينَهُ ، كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ]⁽²⁾. يُنْضِي ، أي: يأخذُ بناصيته ويقهره.

66 - 70. قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(١١) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا تَجَنَّزَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا^(١٢) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا^(١٣) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذَبْيًا^(١٤) نَبِيْعًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿١٦﴾

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالى على عباده تسخيرهُ الفلك لهم تسير في البحر لمنافعهم ، وإذا مسَّهم الضر أثناء ركوبهم أفردوه تعالى بالدعاء ثم ما لبثوا أن عادوا لشركهم بعدما أنجاهم. فهل أمتم - أيها الناس - خسفه البر بكم أو أعادتكم في ظلمات البحر تعصف بكم الرياح لتهلككم. إنه تعالى هو الذي كَرَّمَكُمْ وَحَمَلَكُمْ في البر والبحر ورزقكم وفضلكم على كثير من عباده ثم أكثركم يشركون.

فعن ابن عباس: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ﴾ يقول: يجري الفلك). وقال قتادة: (يسيرها في البحر). وقال ابن زيد: (يجريها). قال ابن جرير: ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتوصلوا بالركوب فيها إلى أماكن تجارتكم ومطالبكم ومعاشكم ،

(1) حديث صحيح. رواه أحمد في المسند (4/ 202) ، ورواه الترمذي في السنن (2867) ، (2868) في الأمثال ، باب ما جاء في مثل الصيام والصلاة والصدقة. وهو حديث صحيح. وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما.

(2) إسناده حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 380) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (3586).

وتلتمسون من رزقه ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. قال القاسمي: ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث سهل لكم أسباب ذلك).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾. أي: إن أصابكم خوف الغرق في البحر والوقوع في الهلاك أفردتم الله تعالى بالتوحيد والدعاء والتعظيم ، فإذا ذهب الخوف عدتم إلى العصيان وجحود النعم وأغفلتم شكر المنعم سبحانه .

قال النسفي: (ذهب عن أوهامكم كل ما تدعون في حوادثكم إلا إياه وحده ، فإنكم لا تذكرون سواه ، أو ضل من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم ، ولكن الله وحده الذي ترجونه على الاستثناء المنقطع ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإخلاص بعد الخلاص). قال ابن كثير: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ، أي: سَجِيَّتُهُ هذا ، يَسْتَسِي النُّعْمَ ويَجْحَدُهَا ، إلا من عَصَمَ الله).

وقوله: ﴿أَفَأَمِنْتُ أَنْ يَخْفِيَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ - يعني ناحية البر . والمقصود: هل ظننتم إن نجاكم من أهوال البحر وأبلغكم البر ثم عدتم إلى كفر نعمه وعصيانه ألا ينتقم منكم ويرسل عليكم الزلازل والخسوف والدمار!؟.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾. قال قتادة: (حجارة من السماء). وقال ابن جريج: (مطر الحجارة إذا خرجتم من البحر). وعن مجاهد: (هو المطر الذي فيه حجارة). وأصل الحاصب: الريح تحصب بالحصباء ، والحصباء: الأرض فيها الرمل والحصي الصغار.

وفي التنزيل:

- 1 - قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: 34].
- 2 - وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: 74].
- 3 - وقال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْفِيَ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: 16 - 17].

وفي صحيح السنة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

ﷺ: [لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج - وهو القتل] (1).

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح من حديث عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ قال: [في هذه الأمة خَسْفٌ ، وَمَسْخٌ ، وَقَذْفٌ ، إذا ظهرت القيانُ والمعاذِفُ ، وشُرِبَتِ الخُمُورُ] (2).

وفي رواية من حديث ابن عمر بلفظ: [في هذه الأمة خسف ، ومسح ، وقذف ، في أهل القدر].

ورواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بلفظ: [في أمتي خسفٌ وَمَسْخٌ وقذف].

ورواه ابن ماجه من طريق عبد الله ، عن النبي ﷺ ، بلفظ: [بين يدي الساعة مَسْخٌ ، وَخَسْفٌ ، وَقَذْفٌ].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عائشة مرفوعاً: [يكون في آخر هذه الأمة خَسْفٌ وَمَسْخٌ وقذف. قالت: قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث] (3).

ورواه من طريق عمران بن حصين وفيه: (فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال: إذا ظهرت القيناتُ والمعاذِفُ وشُرِبَتِ الخُمُورُ).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ - أي ناصراً يمنعكم من بأس الله وعذابه ، أو ينقذكم من أهواله وآلامه .

وقوله: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾. قال ابن عباس: (القاصفُ ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرِقها). أي: أم هل أمنتُمْ أن يعيدكم إلى البحر - بعد أن نجاكم إلى البر - فيرسل عليكم ريحاً شديدة فيغرقكم بها بكفركم. قال القرطبي: (القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة ، من قصف الشيء يَقْصِفُهُ ، أي كسره بشدة. والقصف: الكسر ، يقال: قصفت الريح

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1036) - كتاب الاستسقاء . باب ما قيل في الزلازل والآيات .
- (2) حديث صحيح . انظر صحيح الترمذي (1801) ، وصحيح الجامع (4149) ، (4150) ، (2853) ، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1787) .
- (3) حديث صحيح . انظر صحيح سنن الترمذي (1776) ، وصحيح الجامع (8012) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (987) .

السفينة. وريح قاصف: شديدة). وقال ابن كثير: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ ، أي: يَقْصِفُ الصَّوَارِي⁽¹⁾ ، وَيُغْرِقُ الْمَرَاقِبَ).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوكُمْ عَلَيْهِ يَتَّبِعَا﴾. قال ابن عباس: (نصيراً). وقال مجاهد: (نصيراً ثائراً). أي يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: (ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

ردُّ على من قصَّر تكريم الله الإنسان على العقل ، بل العقل جزء من هذا التكريم الشامل. وقد جاء في كلام المفسرين أكثر من تأويل لآفاق هذا التكريم:

التأويل الأول: قيل باليدين يأكل فيهما. قال ابن جريج: (وفضلناهم في اليدين يأكل بهما ، ويعمل بهما ، وما سوى الإنس يأكل بغير ذلك).

التأويل الثاني: بتسليط الإنسان على غيره وتسخير الخلق له. قال ابن جرير: (بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق ، وتسخيرنا سائر الخلق لهم. قال: ذكر لنا أن ذلك تمكنهم من العمل بأيديهم ، وأخذ الأطعمة والأشربة بها ورفعها بها إلى أفواههم ، وذلك غير متيسر لغيرهم من الخلق).

التأويل الثالث: قيل بل التكريم بالنطق والتمييز. قال الضحاك: (كرمهم بالنطق والتمييز).

التأويل الرابع: قيل بل التكريم بامتداد القامة وانتصابها. قال عطاء: (كرمهم بتعديل القامة وامتدادها).

التأويل الخامس: قيل كرمهم بحسن الصورة. وقيل بل بالكلام والخط. وقيل بل بالفهم والتمييز. ذكره القرطبي.

التأويل السادس: قيل بل كرمهم بجعل محمد ﷺ منهم. قال محمد بن كعب: (بأن جعل محمداً ﷺ منهم).

التأويل السابع: قيل بل أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب. ذكره بعض المفسرين.

(1) صواري السفينة: هي الأعمدة التي ينصب عليها الشراع.

التأويل الثامن: قيل بل كرمهم بالعقل وهو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله . قال القرطبي: (إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب . فمثال الشرع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء).

ومن المفسرين من جمع بعض هذه الصفات في معنى التكريم ، كما أفاد القاسمي رحمه الله حيث قال: ﴿ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ﴾ : أي بالنطق والتمييز والعقل والمعرفة والصورة والتسلط على ما في الأرض والتمتع به ، ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ : أي يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد بالسير في طلبها فيهما ، وتحصيلها ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ كُلِّ أَلْطِيبَةٍ ﴾ أي فنون المستلذات التي لم يرزقها غيرهم من المخلوقات ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أي عظيمًا ، فحقَّ عليهم أن يشكروا هذه النعم ، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده وقيموا شرائعه وحدوده).

وكذلك فيما قاله الإمام النسفي رحمه الله في التفسير: ﴿ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ﴾ بالعقل والنطق والخط ، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة ، وتدبير أمر المعاش والمعاد ، والاستيلاء وتسخير الأشياء ، وتناول الطعام بالأيدي).

وأشمل من ذلك ما ذكره الإمام القرطبي والحافظ ابن كثير رحمهما الله تعالى. فقد قال القرطبي: (كَرَّمْنَا: تضعيف كرم ، أي جعلنا لهم كرمًا أي شرفاً وفضلاً. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصَّهم به من المطاعم والمشارب والملابس ، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم ، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثياب ويأكلون المركبات من الأطعمة ، وغاية كل حيوان يأكل لحماً نيئاً أو طعاماً غير مركب. قال: ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ كُلِّ أَلْطِيبَةٍ ﴾ يعني لذيق المطاعم والمشارب. قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى ، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها. ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أي على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء ، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة).

وقال الحافظ ابن كثير: (يخبر تعالى على تشریفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه

لهم على أحسن الهيئات وأكملها ، وكقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أن يمشي قائماً منتصباً على رجله ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه ، وجعل لهم سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله ويستفهم به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية ، وحملناهم في البر أي على الدواب من الأنعام والخيول والبغال ، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار ، ورزقناهم من الطيبات أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهية اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ، وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات).

قلت: فالتكريم الذي امتن الله به سبحانه على الإنسان هو: أن خلقه مخلوقاً متكاملًا بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً وعقلاً وهيئة ، في أحسن تقويم من فضله ، ثم أسجد له ملائكته ، وسخر له كَوْنًا واسعاً يتدلل له ولطاعته ، وهياً له في الآخرة جنة عرضها السماوات والأرض لتستقبل من قام بأمره .

فلو كان التكريم كما يزعم بعضهم بالعقل فقط للزم أن يكون إبليس مجنوناً ، لأنه قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ ، ومن قال هذا فليراجع عقله . وللزم كذلك أن من سلبه سبحانه عقله فقد أهانه ، كلا - فالكل مُفْتَقِرٌ إلى رحمته ، والكل محفوف بما لا يبصر من نعمه ، ولا يغدُل شيء في الدنيا دخول جنته ، والخلود في ظل رضوانه ونعيمه وكرمه .

خبر النبي ﷺ أخرجه الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن عتبة بن عبد ، عن النبي ﷺ قال: [لو أن رجلاً يُجَرَّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة]⁽¹⁾.

فالكل تحت أظفاره ورحمته سبحانه ، والكل محتاج إلى فضله وآلائه .

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (185/4)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (15/1/1). ورواه أبو نعيم في «الحلية» (15/2). وانظر صحيح الجامع (5125)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (675/1)، وكتابي: تحصيل السعادتین (94 - 101) لمزيد من تفصيل هذا البحث.

71 - 72. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمِّمِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٧٢﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن توزيع الناس يوم الحشر خلف أئمة منهاجهم ودينهم ، فمن أوتي كتابه بيمينه كان من أهل السعادة . ومن كان في الدنيا أعمى عن حجج الله بُعث يوم القيامة أعمى وأضل طريقاً .

فقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمِّمِهِمْ﴾ - فيه أكثر من تأويل :

1 - قال مجاهد: (نبيهم) .

2 - وقال أبو العالية: (بأعمالهم) .

3 - وقال الضحاك: (بكتابهم) .

4 - وقال الحسن: (بكتابهم الذي فيه أعمالهم) .

5 - وقال ابن عباس: (الإمام ما عمل وأملى ، فكتب عليه ، فمن بعث متقياً لله جعل كتابه بيمينه ، فقرأه واستبشر ، ولم يظلم فتيلًا ، وهو مثل قوله: ﴿وَلَا تَهْمَا لِيَوْمِ الْمُبِينِ﴾ [الحجر: 79] . والإمام: ما أملى وعمل) .

قلت: والراجع ما اختاره شيخ المفسرين في معنى الإمام - قال ابن جرير: (معنى ذلك: يوم ندعو كل أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به ، ويأتون به في الدنيا ، لأن الأغلب من استعمال العرب الإمام فيما أوْتُمَ واقتدي به ، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها) .

قلت: ويؤيد هذا ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: [يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْهُ ، فَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ ، وَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ . .] الحديث⁽¹⁾ .

وقوله: ﴿فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7437) - كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم (182) - كتاب الإيمان .

قال ابن كثير: (أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح ، يقرؤه ويحب قراءته ، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَ كَتَبْتُ بِبَيِّنَةٍ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنَىٰ ﴾ [١٩] إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ).

وعن قتادة: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قال: الذي في شق النواة. فالفتيل هو الخيط المستطيل المنفتل في شق النواة ، أي: والله تعالى لا يظلم عبده ولا ينقصه من ثوابه أدنى شيء.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

قال النسفي: (ولم يذكر الكفار وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله: ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ ﴾ الدنيا ﴿ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ كذلك ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ من الأعمى أي أضل طريقاً).

أي: من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله وآياته بعثه الله يوم القيامة أعمى ، كما قال: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [١٢] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْيَيْنَا فَلَنِيبْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ لُنَسِي ﴿ طه : 124 - 126 ﴾ وكفوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَأَصْمًا مَا أُنْهَمُ جَهَنَّمَ ﴾ [الإسراء: 97].

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه: [أن رجلاً قال: يا نبي الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة] (1).

73 - 75. قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خِلَالًا ﴾ [٧٣] وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾.

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالى عن تأييده رسوله ﷺ وتثبيتته وعصمته من كيد

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4760) ، ومسلم (2806) ، وأحمد (229/3) ، وابن حبان (7323) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

المشركين ومحاولات الفجار الماكرين . وأنه تعالى هو حافظه ومؤيده ومظهر دينه .

قال النسفي: (المعنى: إن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فانتين ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا ونواهيها ووعدنا ووعدنا ﴿لِنَفْقِرَنَّ عَلَيْكَ غَيْرُ﴾ لتقول علينا مالم نقل ، يعني ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيداً والوعيد وعداً ﴿وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلاً﴾ أي ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خليلاً ، ولكنك لهم ولياً ، وخرجت من ولايتي ﴿وَلَوْلَا أَن بُنِيتُكَ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ لقاربت أن تميل إلى مكرهم ﴿شَيْئًا قَلِيلاً﴾ ركوناً قليلاً ، وهذا تهيج من الله له وفضل تثبيت ﴿إِذَا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك ، كما قال: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ﴾ ، الآية . وأصل الكلام: لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات ، لأن العذاب عذابان: عذاب في الممات وهو عذاب القبر ، وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار).

76 - 81. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَمِ الْصَّلَاةِ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنْ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِّن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ .

في هذه الآيات: إعلام الله تعالى نبيه ﷺ أنه إن كاد قومك ليستخفونك من الأرض ليخرجوك منها فليعلموا أنهم إن فعلوا لم يلبثوا بعدك إلا قليلاً . سنة الله في الأمم ورسولها ولا تغيير لسنة تعالى ولا تجد لها تحويلاً . فحافظ على الصلوات المفروضة وبادر إلى قيام الليل ، فعسى بذلك أن يُقَوِّيك ربك ويبعثك مقاماً محموداً . واسأل ربك فرجاً قريباً ومخرجاً إلى مكان تآمن فيه على دينك وعلى أصحابك ، واستبشر بالحق يعلو قريباً ويزهق الباطل ، فإن الباطل كان زهوقاً .

فقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية . قال ابن جرير:

(يقول عز وجل: وإن كاد هؤلاء القوم ليستفزونك من الأرض: يقول: ليستخفونك من الأرض التي أنت بها ليخرجوك منها ﴿وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول: ولو أخرجوك منها لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً ، حتى أهلكهم بعذاب عاجل). وقال قتادة: (ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً حتى أهلكهم الله يوم البدر).

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾. قال قتادة: (أي سنة الأمم والرسول كانت قبلك كذلك إذا كذبوا رسلهم وأخرجوهم ، لم يناظروا أن الله أنزل عليهم عذابه).

وقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ - فيه أقوال مختلفة:

1 - عن عبد الله قال: (هذا دلوك الشمس ، وهذا غسق الليل ، وأشار إلى المشرق والمغرب).

2 - قال ابن عباس: (دلوك الشمس: غروبها).

3 - وفي رواية عنه: (دلوكها: ميلها). أي: ميلها للزوال ، والصلاة عند ذلك صلاة الظهر). وقال ابن عباس: (غسق الليل: بدو الليل). وقال مجاهد: (غسق الليل: غروب الشمس). وقال الضحاك: (يعني ظلام الليل).

والراجح في ذلك ما قاله ابن جرير: (عنى بقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾: صلاة الظهر ، وذلك أن الدلوك في كلام العرب: الميل ، يقال منه: ذلك فلان إلى كذا: إذا مال إليه).

قلت: وعلى هذا فالآية يدخل فيها أوقات الصلوات الخمسة: الظهر من دلوك الشمس ، ثم العصر ، والمغرب والعشاء في غسق الليل: أي ظلامه. ثم قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ ، يعني: صلاة الفجر. قال قتادة: (وقرآن الفجر: صلاة الصبح).

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [فَضْلُ صلاةِ الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر. يقول أبو هريرة - رضي الله عنه -: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾] (1).

وفي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: [عن رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (648) ، وأخرجه مسلم (649) ح (246) ، وغيرهما.

- ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ - قال: تشهده ملائكة الليل والنهار⁽¹⁾.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون]⁽²⁾.

وعن قتادة: (وأما قوله ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ فإنه يقول: ملائكة الليل وملائكة النهار يشهدون تلك الصلاة). وقال: (كنا نحدث أن عندها يجتمع الحرسان من ملائكة الله: حرس الليل وحرس النهار).

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾. التهجد هو قيام الليل ، وهو ما كان بعد نوم. وقد أمر الله تعالى به رسوله بعد المكتوبات. قال علقمة: (التهجد بعد النوم). وقال الحجاج بن عمرو: (إنما التهجد بعد رقدة).

وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ: [أنه سُئِلَ: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: صلاة الليل]⁽³⁾.

وفي سنن أبي داود بإسناد حسن عن عائشة رضي الله عنها قالت: [إن كان رسول الله ﷺ ليوقظه الله عز وجل بالليل ، فما يجيء السَّحَرُ حتى يُقَرَّغَ من حِزْبِهِ]⁽⁴⁾.

وفي الصحيحين والسنن عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فيقول: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ]⁽⁵⁾.

وفي تأويل قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ قولان:

- (1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (670) - كتاب الصلاة ، باب وقت صلاة الفجر ، ورواه الترمذي (3135) ، والنسائي في «التفسير» (313) ، وأحمد في المسند (2/474).
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (555) ، ومسلم (632) ، والنسائي (1/240) ، وأحمد (2/486) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1163) ، وأبو داود (2429) ، والنسائي (3/207) ، وأحمد (2/303) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (4) حديث حسن. أخرجه أبو داود (1316) - أبواب قيام الليل. وانظر صحيح سنن أبي داود (1168).
- (5) حديث صحيح. أخرجه البخاري ومسلم باللفاظ متقاربة. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1880) ، وسنن أبي داود (1315) - أبواب قيام الليل. باب أي الليل أفضل.

1 - يقول: نفلًا لك عن فرائضك التي فرضتها عليك. قال ابن عباس: (يعني بالنافلة أنها للنبي ﷺ خاصة ، أمر بقيام الليل وكتب عليه). وهو أحد قولي الشافعي ، واختاره ابن جرير وقال: (وذلك أن رسول الله ﷺ كان الله تعالى قد خصه بما فرض عليه من قيام لله دون سائر أمته).

2 - قيل: بل المقصود أن قيام الليل نافلة للنبي ﷺ على الخصوص ، فهي نافلة فضل ، لأن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال مجاهد: (النافلة للنبي ﷺ خاصة من أجل أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما عمل من عمل سوى المكتوبة ، فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل ذلك في كفارة الذنوب ، فهي نوافل وزيادة ، والناس يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها ، فليست للناس نوافل).

قلت: وكلا المعنيين حق ، وتدل عليهما نصوص الكتاب والسنة.

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. قال ابن كثير: (أي: افعل هذا الذي أمرتك به لتُقيمك يوم القيامة مقاماً يحمذك فيه الخلائق كُلُّهم وخالفهم تبارك وتعالى). وقال ابن جرير: (قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربُّهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، وأبو نعيم في «الحلية» بسند حسن في الشواهد ، عن أبي هريرة مرفوعاً: [المقام المَحْمُودُ: الشفاعة]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج ابن أبي عاصم في «السنة» - بسند حسن لشواهد - عن داود الأودي ، عن أبيه ، عن أبي هريرة: [عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. قال: الشفاعة]⁽²⁾. وفي رواية غيره: (هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي).

الحديث الثالث: أخرج ابن حبان والحاكم بسند صحيح على شرط الشيخين عن كعب بن مالك مرفوعاً: [يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمِّي عَلَى تَلٍّ ،

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (478/2) ، وأبو نعيم في «الحلية» (372/8) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (2369) - تفسير المقام المحمود.

(2) صحيح لغيره. أخرجه ابن أبي عاصم (784) - كتاب السنة - تحقيق الألباني ، وانظر كتاب: «التوحيد» - ابن خزيمة - (ص 198) ، وسنن الترمذي (193/2) ، والمرجع السابق.

وَيَكْسُونِي رُبِّي حُلَّةَ خَضْرَاءَ ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي ، فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَقُولَ ، فَذَاكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ⁽¹⁾ .

الحديث الرابع: أخرج الترمذي في السنن ، وأحمد في المسند ، بسند حسن ، عن الطفيل بن أبي ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: [إذا كان يوم القيامة كنت إمام الناس وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر]⁽²⁾ .

الحديث الخامس: أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: [إن الناس يعبرون يوم القيامة جثاً ، كل أمة تتبع نبيها ، يقولون: يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً]⁽³⁾ .

الحديث السادس: أخرج البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتُهُ ، حَلَّتْ لَهُ شِفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ]⁽⁴⁾ .

الحديث السابع: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [ما زال الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٍ. وَقَالَ: إِنَّ الشَّمْسَ تَذْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ ، ثُمَّ بِمُوسَى ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَزَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ: «فَيَسْتَفْعِلُ لِيُقْضَى بَيْنَ الْخَلْقِ ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلَقَةِ الْبَابِ فَيَوْمئِذٍ يَبْعَثُهُ مَقَاماً مَحْمُوداً ، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ»]⁽⁵⁾ .

وقد ذكرت أحاديث الشفاعة بتفصيلها في كتابي: أصل الدين والإيمان ، عند

(1) أخرجه ابن حبان (6445) ، والحاكم (363/2) ، وأحمد (456) ، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني: وهو كما قال . انظر الصحيحة (2370) .

(2) إسناده حسن . أخرجه أحمد (137/5) ، والترمذي (282/2) ، وأخرجه ابن أبي عاصم - كتاب السنة - (787) - تحقيق الألباني .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4718) - كتاب التفسير - سورة الإسراء - آية 79 - .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4719) - كتاب التفسير - الباب السابق ، ورواه أكثر أهل السنن .

(5) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1474) - (1475) ، كتاب الزكاة ، باب من سأل الناس تكثراً .

الصحابه والتابعين لهم بإحسان - في بحث الإيمان باليوم الآخر - باب الشفاعة ، فله الحمد والمنة .

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ . قال قتادة: (مدخل صدق: المدينة ، ومخرج صدق: مكة) . وقال ابن عباس: (كان النبي ﷺ بمكة ثم أُمِرَ بالهجرة فأنزل الله تبارك وتعالى اسمه: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾) . فلقد علم النبي ﷺ أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل الله سلطاناً نصيراً فأعطاه .

قال الحسن: (كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه ، أو يطردوه ، أو يوثقوه ، وأراد الله قتال أهل مكة فأمره أن يخرج إلى المدينة ، فهو الذي قال الله: ﴿ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾) . ثم قال في قوله: ﴿ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ : (يوعده لينزعنَّ ملك فارس وعز فارس ، وليجعلنه له ، وعز الروم وملك الروم ، وليجعلنه له) .

وقال قتادة: ﴿ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ : وإن نبي الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله عز وجل ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، وإن السلطان رحمة من الله جعلها بين أظهر عباده ، لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، فأكل شديدهم ضعيفهم) .

وفي الأثر عن عمر وعن عثمان: (إن الله ليزعُ بالسلطان ما لا يزعُ بالقرآن) . قال ابن كثير: (أي: ليمنعُ بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع) .

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوْقًا ﴾ . قال قتادة: (الحق: القرآن. ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ قال: هلك الباطل وهو الشيطان) . وقال ابن جريج: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ قال: دنا القتال ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ قال: الشرك وما هم فيه) .

والآية: تهديد ووعيد لكفار قريش بأن يوم نصر الحق قد اقترب ، وفيه يكون اندحار باطلهم وشركهم ، شأن الباطل أمام سلطان الحق على مدار الزمان .

وفي التنزيل: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: 18] .

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاث مئة نُصْبٍ ، فجعل يطعنُها بِعُودٍ في يده ، ويقول: ﴿ جَاءَ

أَلْحَقْ وَزَهَقِ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨٤﴾ ، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: 49] (1).

وله شاهد عند أبي يعلى من حديث جابر رضي الله عنه قال: [دخلنا مع النبي ﷺ مكة ، وحول البيت ثلاث مئة وستون صنماً يُعبدون من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فَأُكِبَتْ لوجهها ، وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾] (2).

82 - 85. قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلِيهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾.

في هذه الآيات: إخبار عن عظمة هذا القرآن وما في آياته ووقعها على قلوب المؤمنين ، ونفوس المبطلين ، وتعب الحائرين ، فهو يذهب ما في القلوب من أمراض ، من شك ونفاق ، وشرك وزيف ، وضيق وسوء ظن ، ويملؤها بالحكمة والإيمان ، ورحيق الاطمئنان ، وحسن ظن بالله يوصل إلى مرتبة الإحسان ، ولا يزيد الظالمين إلا الحرمان والخسران. إنه إذا أنعم الله على الإنسان استكبر ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من رحم الله. فأخبر المشركين - يا محمد - أنه كلُّ يعمل على وجهته وطريقته ، والله أعلم بمن هو أهدى طريقاً. ويسألك اليهود عن الروح ، فقل: الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً.

فقوله: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. قال قتادة: (إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه) ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ به ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه ، وإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين). وقال النسفي: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: وتفرج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2478) ، (4720) ، ومسلم (1781) ، والترمذي (3138) ، وأخرجه أحمد في المسند (1/ 377) ، وابن حبان في صحيحه (5862).

(2) إسناده صحيح ، ليس فيه إلا عننة أبي الزبير ، لكن يتأيد بما قبله ، فهو صحيح.

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44].

2 - وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَّادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَّادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 124 - 125].

وفي صحيح السنة المطهرة في مفهوم هذه الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ، ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة ، لا ربح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الرِّيحانة ، ريحها طيب وطعمها مرٌّ ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، ليس لها ربح وطعمها مرٌّ]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج أحمد والشيخان عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه]⁽³⁾.

وقوله: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَجَّيْنَاهُ ﴾. قال مجاهد: (تباعد منا). قال ابن جرير: (يقول تبارك وتعالى: وإذا أنعمنا على الإنسان ، فنجيناه من كرب ما هو فيه في البحر ، وهو ما قد أشرف فيه عليه من الهلاك بعصوف الريح عليه إلى البر ، وغير ذلك من نعمنا ، أعرض عن ذكرنا ، وقد كان بنا مستغيثاً دون كل أحد سوانا في حال الشدة

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (817) - كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها. ورواه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (218).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (5427) ، (7560) ، وأخرجه مسلم (797) - في الكتاب السابق - باب فضيلة حافظ القرآن. ورواه أحمد وأصحاب السنن بالفاظ متقاربة. انظر صحيح الجامع (5715) - (5716).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5009) ، ومسلم (807) ، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 121).

التي كان فيها ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ يقول: وبعد منا بجانبه يعني نفسه ، كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسه قبل ذلك).

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّ﴾. قال ابن عباس: (يقول: قنوطاً). وقال قتادة: (يقول: إذا مسه الشرّ أيس وقنط).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافُورًا ۖ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأٍ مَّسَّةٍ لِّيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١١﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: 9 - 11].

2 - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12].

3 - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْبَرَّ أَغْرَضْتُمُ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَافُورًا﴾ [الإسراء: 67].

يروى الطبراني ورجاله ثقات عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله] (1).

وله شاهد أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» عن ابن مسعود قال: [أكبر الكبائر: الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله].

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ - فيه أقوال متقاربة .

قال ابن عباس: (على ناحيته). وقال مجاهد: (على حِدَّتِهِ وطبيعته). وقال قتادة: (على نَيْتِهِ). وقال ابن زيد: (الشاكلة: الدين). أي: (على دينه). وقال مقاتل: (جبلته).

وقوله: ﴿فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾. تهديد للمشركين ووعدٌ لهم. قال القرطبي: (والمعنى: أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التي ألفها ، وهذا ذمٌ للكافر ومدحٌ للمؤمن). ﴿فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي بالمؤمن والكافر

(1) إسناده صحيح. أخرجه الطبراني ورجاله ثقات. انظر تحقيق فتح المجيد (422) ، وكذلك للشاهد بعده ، وانظر تفصيل هذا البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 492).

وما سيحصل من كل واحد منهم. وقيل: ﴿أَهْدَى سَيْلًا﴾ أي أسرع قبولاً. وقيل: أحسن ديناً).

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أخرج أحمد والشيخان عن إبراهيم بن علقمة عن عبد الله⁽¹⁾ قال: [بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حَرْبِ المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمرّ بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح! وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه. فقال بعضهم: لنسأله، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمتم، فلما انجلى عنه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾]⁽²⁾. وفي رواية: (لما نزل عليه الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾).

وأخرج الترمذي والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل! فقالوا: سلوه عن الروح، فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قالوا: نحن لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة فيها حكم الله، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾]⁽³⁾.

والسورة مكية، وقد يكون تكرر النزول بالمدينة، وعلى ذلك يكون الفهم لهذه الأحاديث. والآية تدل على أن الروح من أمر الله مما استأثر به تعالى، وأن علم الناس في ذلك قليل.

86 - 89. قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ

بِهِ عَلَيْنًا وَكِيلًا﴾ ٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ٨٧ قُلْ لَّيْنِ

(1) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4721)، ومسلم (2794)، وأخرجه الترمذي (3141).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (3139)، وأحمد في المسند (255/1)، وأبو يعلى (2501)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي (2510).

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾

في هذه الآيات: ذَكَرَ اللهُ تعالى فضله على نبيه محمد ﷺ بهذا الوحي الكريم ، وأنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لعجزوا ولرجعوا صاغرين . والله تعالى يُصَرِّفُ في هذا القرآن من كل مثل لِيَذْكُرَ العباد ويتعظوا فيأبى أكثرهم إلا أن يعيشوا كافرين .

فقوله: ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ . قال النسفي: (والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحواه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً) . وقال القرطبي: (أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق . ويتصل هذا بقوله: ﴿ وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي ولو شئت أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه) .

قلت: وذهاب العلم وفشو الجهل ورفع القرآن من الأرض من علامات الساعة ، عقوبة من الله للمستهترين .

ففي صحيح سنن ابن ماجة عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: [يَذْرُسُ الإسلامُ كما يَذْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ . حتى لا يُدْرَى ما صِيَامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسُكٌ ولا صدقة . ويُسْرَى على كتاب الله ، عزَّ وجل ، في ليلة . فلا يبقى في الأرض منه آية . وتَبْقَى طوائفٌ من الناس ، الشيخ الكبير والعجوز . يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله . فنحن نقولها] (1) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يتقارب الزمانُ ، ويُقبض العلمُ ، ويُلقَى الشح ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج ، قيل: وما الهرج؟ قال: القتل] (2) .

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (4049) ، كتاب الفتن ، باب ذهاب القرآن والعلم ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (3273) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (59/8) . وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1857) ، كتاب العلم ، باب: في رفع العلم وظهور الجهل . وكذلك - حديث رقم - (1856) من الكتاب نفسه . باب: في قبض العلم . ورواه البخاري .

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُكَ بِهِ عِلَّةً وَكَيْلًا﴾. أي ناصراً يردّه إليه ، ويعيده لك محفوظاً مسطوراً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾. أي: إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك ، أو يحمل المعنى على الاستثناء المنقطع ، والتقدير: أي ولكن رحمة من ربك تركته - يا محمد - غير مذهب به . قال النسفي: (وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

تكذيب من الله تعالى لادعاء الكفار وزعمهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا. والمعنى: لو اجتمع فصحاء الجن والإنس وكان بعضهم لبعض عوناً ونصيراً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فإنهم لا يستطيعون ذلك ، وإن الله تعالى سيخذلهم. قال ابن جريج: (ظهيراً: معيناً. يقول: لو برزت الجن وأعانهم الإنس فتظاهروا لم يأتوا بمثل هذا القرآن).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ولقد بينّا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، احتجاجاً بذلك كله عليهم ، وتذكيراً لهم ، وتنبهاً على الحق ليتبعوه ويعملوا به ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يقول: فأبى أكثر الناس إلى جحوداً للحق ، وإنكاراً لحجج الله وأدلته).

90 - 93. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَيْكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَازًا نَقْرَأُ قُلُوبَ سُبْحَانَ رَبِّهِ هَلْ كُنْتَ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

في هذه الآيات: تَنْطَعُ المشركين في أمر الإيمان ، بالمطالبة بالمعجزات والتحكم

بها على مَرَّ الأيام ، وما دفعهم إلى ذلك إلا الكبر والبغي ، ورسول الله بشر - عليه الصلاة والسلام - .

فقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ .

هو من قيل المشركين للنبي ﷺ على وجه التنطع . قال قتادة: (أي حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض عيوناً: أي ببلدنا هذا) . والينبوع: العين الجارية .

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ .

أي: أو يكون لك بستان من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلال النخيل والكروم . قال القاسمي: (وإنما قدموا في عنتهم هذا المقترح ، لأنهم كانوا يردون بلاد الشام والعراق ، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار) .

وقوله: ﴿ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴾ . قال ابن عباس: (يعني قطعاً) . قال ابن كثير: (أي: إنك وعدتنا أن يوم القيامة تَنْشَقُّ السماء وتَبْهِي ، وتُدَلِّي أطرافها ، فعجل ذلك في الدنيا ، وأسقطها كسفاً ، أي: قطعاً) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مَا نُفِذْهَا بِهَذَا حَقًّا وَمَا أَصْلَابُهَا مِنْ أَصْلَابِهَا ﴾ [الأنفال: 32] .

ولكن نبي الرحمة - ﷺ - سأل إنظارهم عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً .

2 - وقال تعالى: - عن سؤال قوم شعيب نحو ذلك - : ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: 187] .

فعاقبهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم .

وقوله: ﴿ أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ - فيه تأويلان :

التأويل الأول: أي: حتى يأتي الله والملائكة كل قبيلة فيعاقبونهم ، أي قبيلة قبيلة ، قال مجاهد: (قبائل على حدتها كل قبيلة) .

التأويل الثاني: معناه: أن تأتي بالله والملائكة عياناً نقابلهم مقابلة ، فنعاقبهم معاينة . قال قتادة: ﴿ أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ نعائنه معاينة) .

قلت: والتأويل الثاني أرجح من الأول ، وأليق بكلام العرب ، وهو اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرْفٍ ﴾ . قال ابن عباس : (يقول من ذهب) .

وقوله : ﴿ أَوْ تَرَفَّى فِي السَّمَاءِ ﴾ أي تصعد في درج السماء .

وقوله : ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴾ . قال قتادة : (أي كتاباً خاصاً نؤمر فيه باتباعك) . أي : لن نصدقك في أمر رقيق إلى السماء حتى تنزل لنا كتاباً منشوراً نقرأ فيه أمرنا باتباعك والإيمان بك .

وقوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ . قال القاسمي : (أي تنزه ربي عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته . وما أنا إلا بشر رسول . عليّ أن أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم . وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتي بما أوحاه إليّ . وذلك ما تحدّثتكم بالإتيان بسورة مثله في الهداية والإصلاح . كما أمرني ربي . ولا أقترح عليه ، سبحانه ، ما لا يجوز أن يكون ، أو ما يكون فعله عبثاً ، لخلوّه عن الفائدة) .

94 - 99 . قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا

أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَكٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَهَآءَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ .

في هذه الآيات : امتناع الناس عن الإيمان لكون الرسول من البشر ، وإنما حملهم على هذا التنطع الكبير والبطر ، فإنه لو كان في الأرض ملائكة لناسب إرسال الله إليهم ملكاً مثلهم ، والله خير بعباده بصير بأعمالهم . إنما أمر الهداية والضلال بيد الله ، فمن

حرمة الله نور الهداية فقد أخزاه ، ومن كفر بالله واليوم الآخر فنار جهنم مأواه ، أولم ير الكفار أنَّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلقهم وإعادتهم بعد موتهم؟! ولكن الظالمين ينجحون ، وبقدرة الله يكفرون .

فقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾ . قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ ۖ ﴾ أي: أكثرهم ، ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا ۖ ﴾ ويتابعوا الرسل ، إلا استعجابهم من بَعَثَ الله البشر رسلاً).

وفي التنزيل نحو ذلك كثير:

1 - قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ ﴾ [يونس: 2].

2 - وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَآسَفْنَاهُ اللَّهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: 6].

3 - وقال تعالى: - من قول فرعون وملئه -: ﴿ أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَدِيدُونَ ﴾ [المؤمنون: 47].

4 - وقال تعالى: - من قيل الأمم لرسولهم -: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاقْتُونَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [إبراهيم: 10].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ ﴾ . قال النسفي: (رد الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمَشُونَ ﴾ على أقدامهم كما يمشي الإنس ولا يطفرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ حال ، أي ساكنين في الأرض قارين ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المرشد).

والخلاصة: إن الله تعالى يبعث الرسل إلى القوم من جنسهم ، ليفقهوا عنه ويفهموا منه ، ولو بعث إلى البشر رسولا ملكا لما حصل ذلك ، ولا أمكنهم الأخذ عنه .

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۖ ﴾ .

أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المتنطعين في اقتراحاتهم: الله تعالى نعم الكافي والحاكم ، وهو ذو خبرة وعلم بما يصلح لعباده من التدبير والتصريف ، ومن يستحق منهم الهداية أو الضلال .

وقوله: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَحْدِلَهُمْ أَوْلِيَائِهِ مِنْ دُونِهِ﴾.

أي: إن مَنْ ينعم بهداية الله له فلا مضلّ له ، ومن يشقى بضلاله إياه - نتيجة استحقيقه ذلك - فلا هادي له .

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: [أن ضماداً قدم مكة وكان من أزد شنوءة ، وكان يرقى من هذه الريح ، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون ، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي ، قال: فلقبه فقال: يا محمد إني أرقى من هذه الريح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلّ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد . فقال: أعذ عليّ كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال: لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر . فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه ، فقال رسول الله ﷺ: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي ..] الحديث (1).

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ . كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 34].

وقوله: ﴿عُمِيَائًا﴾ أي: لا يبصرون ، ﴿وَبُكْمًا﴾ أي: لا ينطقون ، ﴿وَصُمًّا﴾ ، يعني: لا يسمعون . وذلك مقابلة لهم بالمثل من أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا تجاه الحق ، فقد كانوا بكماً وعمياً وصمّاً عن هذا الوحي العظيم ، فحشروا على ذلك أحوج ما يحتاجون إلى تلك الحواس . ثم إن منقلبهم ومصيرهم إلى جهنم .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه: [أن رجلاً قال: يا نبي الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟] (2).

(1) حديث صحيح . أخرج مسلم في كتاب الجمعة - حديث رقم - (868) .

(2) حدث صحيح . أخرجه البخاري (4760) ، ومسلم (2806) ، وأحمد (229/3) ، وابن حبان (7323) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وعن ابن عباس: (في قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال: سكنت). وقال مجاهد: (طِفِئَتْ). وعن قتادة: (قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ يقول: كلما احترقت جلودهم بُدِّلُوا جلوداً غيرها ، ليدوقوا العذاب). وقال الضحاك: (وذلك إسعار النار عليهم والتهابها فيهم وتأججها بعد خبوها ، في أجسامهم). أي: كلما سكنت النار عليهم زادها الله لهباً ووهجاً وجمراً ليزيقهم العذاب ، جزاء بما كانوا يكفرون بوحى الله العظيم ، ونبوة رسوله الكريم ، ويستبعدون البعث للحساب بعد الموت وفناء الأجساد والعظام مستهزئين. وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَلَنُمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾. وقوله: ﴿وَرَفَّتَا﴾ أي بالية نخرة.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.

أي: إن الذي أبدع هذه السموات والأرض وخلقها من العدم قادر على إعادة خلقهم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57].

وقوله: ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. قال القرطبي: (والأجل: مدة قيامهم في الدنيا ثم موتهم). وقال ابن كثير: (أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: 104]).

وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا﴾. قال ابن جرير: (يقول: فأبى الكافرون إلا جحوداً بحقيقة وعيده الذي أوعدهم وتكدياً به).

100 - 104. قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ

خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَبَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مُشَبَّهًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا

الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠١﴾

في هذه الآيات: إثباتُ الله تعالى بُخْلَ المشركين وإمساكهم عن الإنفاق في سبيل الخير. وإمامهم من قبل فرعون الذي كفر بتسع آيات واتهم موسى بالسحر، وحاول محاصرته ومن معه من المؤمنين حتى أغرقه الله وجنوده أهل البغي والشر، واستخلف بني إسرائيل من بعدهم في الأرض ليكون الفصل بين الفريقين يوم الحشر.

فقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾.

قال ابن عباس: (الفقر). وقال قتادة: (أي خشية الفاقة). والخطاب للمشركين كما قال ابن جرير: (قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو أنتم أيها الناس تملكون خزائن أملاك ربي من الأموال. وعني بالرحمة في هذا الموضع: المال) ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ يقول: إذن لَبَخَلْتُمْ به، فلم تجودوا بها على غيركم، خشية من الإنفاق والإقتار).

وقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾. قال ابن عباس: (يقول: بخيلاً). وقال قتادة: (بخيلاً، ممسكاً).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَخَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ] (1).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ - فيه أقوال متقاربة:

- 1 - قال ابن عباس: (التسع الآيات البينات: يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات).
- 2 - قال محمد بن كعب: (هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والطَّمْسَةُ، والحجر).

- 3 - وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقاتدة: (هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (7411) - كتاب التوحيد، وانظر كذلك - حديث رقم - (4684)، ورواه مسلم في الصحيح (993).

قلت: وكلها أقوال متكاملة ، ودلائل قاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به موسى ﷺ عن أرسله إلى فرعون .

وقوله: ﴿ فَسَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۖ ﴾ .

أي اسأل يا محمد بني إسرائيل⁽¹⁾ إذ جاءهم موسى وذهب إلى فرعون وأظهر آياته ودعاه للإيمان بالله تعالى فاتهمه فرعون بالسحر .

وقوله: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ۖ ﴾ .

أي: قال موسى: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات إلا خالق السماوات والأرض حُججاً وأدلة على صدق ما جئتكم به ، وبينات مكشوفات تؤكد صحة قلبي ، ولكنك معاند جاحد . كما قال تعالى: ﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأُتِيَقَنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُومًا ۚ ﴾ [النمل: 14] .

وقوله: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۖ ﴾ . قال ابن عباس: (ملعوناً) . أو قال: (يعني: مغلوباً) . وقال مجاهد: (مثوراً: أي هالكاً) . وقال عطية: (مبدلاً) . وقال ابن زيد: (أظنك ليس لك عقل يا فرعون) - أي مخبولاً . وفي لغة العرب: رجل مثبور: أي محبوس عن الخيرات هالك . قال الرازي: (الثبور: الهلاك والخسران) .

قلت: فالهالك يشمل كل ما سبق من المعاني والله تعالى أعلم . قال النسفي: (كانه قال: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك مثبوراً هالكاً ، وظني أصح من ظنك ، لأن له أماره ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها ، وأما ظنك فكذب بحت) .

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۖ ﴾ .

أي: فأراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر ، أو ينفيعهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ، فاستفزه الله إلى البحر هو وجنوده وحق به مكره ، وكان فيه إغراقه مع قبطة .

قال ابن كثير: (وقوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۖ ﴾ ، أي يُجْلِيهِمْ منها ويزيلهم عنها ، ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۖ ﴾ ، وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن

(1) أي بما عندهم من التوراة حول ذلك . قال القاسمي: (فيظهر للمشركين صدقك ، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب . لأن الأدلة إذا تظاهرت ، كان ذلك أقوى وأثبت) .

هذه السورة نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها ، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 76 - 77].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾. أي قلنا من بعد فرعون لبني إسرائيل اسكنوا الأرض التي أراد فرعون أن يستفزكم منها فإذا كان يوم القيامة جئنا بكم وبعدوكم جميعاً. قال ابن عباس: (جميعاً). وقال قتادة: (أي جميعاً ، أولكم وآخركم). قال النسفي: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ جمعاً مختلطين إياكم وإياهم ، ثم نحكم بينكم ونميز بين سعدائكم وأشقائكم ، واللفيف الجماعات من قبائل شتى).

105 - 109. قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۚ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۚ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۚ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۚ﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على القرآن ، وعلى مهمة النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلى الذين أوتوا العلم الذين يخرون سجداً عند سماع آيات الرحمان. فقولهم: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وبالحق أنزلنا هذا القرآن ، يقول: أنزلناه نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة ، والأمور المستحسنة الحميدة ، ونهئ فيه عن الظلم والأمور القبيحة ، والأخلاق الردية ، والأفعال الذميمة. ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ يقول: وبذلك نزل من عند الله على نبيه محمد ﷺ).

وفي التنزيل: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 166]. قال ابن كثير: (أي متضمناً ، علم الله الذي أراد أن يُطْلِعَكُمْ عليه ، من أحكامه وأمره ونهيه).

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن جبير قال: قال رسول الله ﷺ: [أبشروا

أبشروا ، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأناي رسول الله؟ فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً⁽¹⁾ .

وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ . أي : وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً برحمة الله ورضوانه وجنته لمن أطاعك ، ونذيراً بسخط الله وغضبه وناره لمن عصاك .
وقوله : ﴿ وَفَرَّقْنَاكَ ﴾ - فيه قراءتان .

1 - «فَرَّقْنَاهُ» - بالتخفيف . قال ابن عباس : (يقول : فصلناه) . أي فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مُفَرَّقًا مُنْجَمًا على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة .

2 - «فَرَّقْنَاهُ» - بالتشديد . قرأ بها ابن عباس : أي أنزلناه آية آية ، مُبَيَّنًا مُفَسَّرًا . قال ابن عباس : (يقول : أنزل آية آية) . وقال : (أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة) . وقال ابن زيد : («وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ» : فرقه ، لم ينزله جميعه) .

وقوله : ﴿ لِنَقْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ ﴾ . أي : لتبلغه الناس وتتلوه عليهم على مهل .

قال ابن جريج : (في ترتيل) . وقال مجاهد : (على تودة) .

وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ . أي : شيئاً بعد شيء ، حسب الحوادث والمناسبات .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ . أي - قل يا محمد لكفار قومك الذين يعترضون على هذا الوحي العظيم : وسواء آمنتم به أم كفرتم لا يُغَيِّرُ شيئاً ، فهذا القرآن حق في نفسه ، عظيم في شأنه ، موصوف في كتب التنزيل ، والذين أوتوا العلم من أهل الكتاب المتمسكين بالحق المكتوب عنده إذا يتلى عليهم يخرون تعظيماً لله ساجدين ، شكراً منهم لله على إدراكهم هذا الرسول الكريم . قال ابن عباس : ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ يقول : للوجه) . والأذقان جمع ذقن ، وهو أسفل الوجه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ .

قال ابن جرير : (- أي يقولون - تنزيهاً لربنا مما يضيف إليه المشركون به ، ما كان

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (1/77/1) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (165/12) ، وأخرجه ابن نصر في «قيام الليل» (74) - انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (713) .

وعد ربنا من ثواب وعقاب ، إلا مفعولاً حقاً يقيناً ، إيمان بالقرآن وتصديق به .
واستدل الشافعي بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا ۚ ﴾ الآية ، على استحباب هذا
الذكر في سجود التلاوة - ذكره السيوطي في «الإكليل» .

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : [كان رسول الله ﷺ يكثر
أن يقول في سجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي»] ⁽¹⁾ .
وقوله تعالى: ﴿ وَيَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَتَكَوَّمُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝ ﴾ .

قال القرطبي: (هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم . وحق لكل من توسم بالعلم
وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع
ويذل) .

وذكر ابن جرير بسنده إلى عبد الأعلى التيمي قوله: (من أوتي من العلم ما لم يبيكه
لخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه ، لأن الله نعت العلماء ، ثم تلا هذه الآية) .

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ
قال: [أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعاً] ⁽²⁾ .

وفي الآية دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى أو بسبب المعاصي
والزلل . وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن مطرف ، عن أبيه ، قال: [رأيت
رسول الله ﷺ يصلي ، وفي صدره أزيز كأزيز الرحي من البكاء ﷺ] ⁽³⁾ .

110 - 111 . قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ ﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ
يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَوْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ۝ ﴾ .

في هذه الآيات: إثبات الأسماء الحسنی لله تعالى ولو كره الكافرون . وحث الله نبيه

- (1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (484) ، ورواه غيره من أهل السنن .
- (2) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «الكبير» - من حديث أبي الدرداء - انظر صحيح الجامع (2566) ، وصحيح الترغيب (187/1) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن - حديث رقم - (904) - في الصلاة - باب البكاء في الصلاة . انظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (799) .

على التوسط في رفع الصوت بالقرآن لئلا يناله المشركون. وختمُ السورة بتزييه تعالى عما يصفه به المبطلون.

قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ، أي: لا فرق بين دعائكم له باسم ﴿الله﴾ أو باسم ﴿الرحمن﴾ ، فإنه ذو الأسماء الحسنَى).

وفي التنزيل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 22 - 24].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. له سبب للنزول أو أكثر في صحيح السنة:

ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ قال: [نزلت ورسول الله ﷺ مخنف بمكة ، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ﴿وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾] (1).

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قال: [أنزل ذلك في الدعاء].

وأخرج ابن جرير وابن إسحاق بسند حسن عن ابن عباس قال: [كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه ، فكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي ، استرق السمع دونهم فرقاً منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يستمع. فإن خفص رسول الله ﷺ صوته لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً ، فأنزل الله - عز وجل - ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك ، ﴿وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4722) ، ومسلم (446) ، والترمذي (3146) ، والنسائي في «التفسير» (320) ، وأحمد (23/1) ، (215/1) ، والطبري (22825).

ذلك دونهم ، لعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾⁽¹⁾ .
وقوله : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ .

تنزيه من الله تعالى لنفسه الكريمة عن النقائص ، بعد إثبات صفات الجمال والكمال والأسماء الحسنى . قال ابن جرير : (لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد . ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزاً إذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفاً ، ولا يكون إلهاً من يكون محتاجاً إلى معين على ما حاول ، ولم يكن منفرداً بالملك والسلطان) .

وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ . قال مجاهد : (لم يحالف أحداً ، ولا يبتغي نصر أحد) . وقال ابن كثير : (أي : ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له وليٌّ أو وزيرٌ أو مُشِيرٌ ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده ، لا شريك له ومقدرها ومُدَبِّرُها بمشيئته وحده ، لا شريك له) .

وقوله : ﴿وَكَبِيرَةٌ تَعْظِيمًا لِّبَلِيَّةٍ بِجَلَالِهِ ، وَإِجْلَالًا لِّبَلِيَّةٍ بِجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ﴾ . أي : عظمه وأجله تعظيماً يليق بجلاله ، وإجلالاً يليق

وفي مسند الإمام أحمد وسيرة ابن هشام من حديث عدي بن حاتم - لما قدم على رسول الله ﷺ بعد أن فر منه - قال : [وجلس بين يديه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما يُعْرُوكُ؟! أَيُعْرُوكُ أن تقول: لا إله إلا الله، فهل تعلم من إله سوى الله؟ قال: قلت: لا. قال: ثم تكلم ساعة ، ثم قال: إنما تَفَرُّ أن يُقال: الله أكبر ، وهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ قال: قلت: لا. قال: فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون. قال: فقلت: إني حنيف مسلم. قال: فرأيت وجهه يَنْبَسِطُ فرحاً.] الحديث⁽²⁾ .

تم تفسير سورة الإسراء
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



(1) حسن لشواهده . انظر تفسير ابن جرير الطبري (22830) ، والصحيح المسند من أسباب النزول - الوادعي - سورة الإسراء ، آية (110) .

(2) أخرجه أحمد (378/4) ورجاله ثقات ، وانظر سيرة ابن هشام (578/2 - 581) ، وكتابي : السيرة النبوية - على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة - (3/ 1468 - 1472) .

دروس ونتائج وأحكام

- 1- الإسراء والمعراج تكريم الله لعبده ورسوله محمد لم ينله رسول قبله .
- 2- الإسراء والمعراج لم يكن مناماً أو رؤيا ، وإنما كان بالروح والجسد .
- 3- في رحلة الإسراء والمعراج ، كان لقاء نبينا بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، وقد ارتقى ' ﷺ سماء فسماء .
- 4- في ليلة الإسراء فرضت الصلاة خمسين ، ثم خففت إلى خمس .
- 5- لم ير محمد ﷺ ربه ، والذي دنا فتدلى : جبريل عليه السلام .
- 6- رفع الله لمحمد ﷺ المسجد الأقصى وبدأ يصفه لقريش .
- 7- القرآن يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل وبشرى للمؤمنين .
- 8- يجمع عمل الإنسان في كتاب فيكون عليه حسيباً .
- 9- لا يعذب الله أحداً قبل إنذاره برسول ، وأهل الفترة هم الذين لم تبلغهم دعوة الرسل ، وإنما يكون امتحانهم يوم القيامة .
- 10- التفاوت كائن يوم القيامة بين درجات أهل الجنة ، وكذلك بين درجات أهل النار .
- 11- قرن الله تعالى عبادته ببرّ الوالدين ، ليعرف عباده بحقهما الكبير .
- 12- يوصي رسول الله ﷺ بالأب مرة وبالأم ثلاثاً لعظم حقها .
- 13- النهي عن التبذير ، والأمر بوصل الأقرب فالأقرب ، والرفق بالمساكين .
- 14- لا تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، ولا تقرب الزنى ودواعيه .
- 15- لا تقتل النفس ولا تقرب مال اليتيم ، وأوف العهد والكيل ، إن العهد كان مسؤولاً .
- 16- لا تتكلم بما لا تعلم ، ولا تتبختر بمشيتك ، وتواضع لله يرفعك الله .

- 17- كل السيئات مكروهة عند الله تعالى ، فاحذروا فعل ما يكره .
- 18 - ما من شيء - حتى الجماد - إلا ويسبح بحمد الله حقيقة ، كل قد علم صلاته وتسبيحه .
- 19 - إذا دلّ الدليل على شيء وجب اتباعه .
- 20 - لو سمى المؤمن عند الجماع ، وقدر له ولد ، لا يضره الشيطان .
- 21 - إن كان لا ينفع في البحر غير الله ، فإنه لا ينفع في البر غيره .
- 22 - الإمام : هو كتاب الأعمال الذي يعطاه العبد يوم القيامة .
- 23 - المقام المحمود هو الشفاعة العظمى ، وهو للرسول الأعظم - سيد ولد آدم - ﷺ .
- 24 - كل الرسل تقول يوم الحشر : نفسي نفسي ، إلا رسولنا ﷺ فيقول : أمتي أمتي .
- 25 - إن الله ليمنع بالسلطان عن الذنوب والآثام ، ما لا يمنع بالقرآن .
- 26 - القرآن شفاء للقلوب من الشك والشرك والنفاق والزيغ .
- 27 - استنثار الله تعالى بعلم ماهية الروح ، وما أوتيت من العلم إلا قليلاً .
- 28 - يحشر الكفار على وجوههم عمياً بكماً صماً خالدين في النار .
- 29 - الآيات والمعجزات من الله خلقاً ، ويجريها على يد رسوله تأييداً .
- 30 - نزول القرآن بالحق ، وكل أسماء الله حسنى ، وليس لله ولد ولا شريك ولا معين ، تعالى سبحانه عن ذلك علواً كبيراً .



18



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (110) .

فضائلها وما ورد في ذكرها :

لقد ورد في فضلها وفضل أولها وآخرها أحاديث من السنة الصحيحة :

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما يقول :
[قرأ رجلُ الكَهْفَ وفي الدَّارِ الدَّابَّةُ ، فَجَعَلَتْ تَنْفُرُ ، فَسَلَّمَ الرَّجُلُ ، فَإِذَا ضَبَابَةٌ ، أَوْ
سَحَابَةٌ غَشِيَتْهُ ، فذكره للنبي ﷺ فقال : اقرأ فلانُ ! فإنها السكينة نزلت للقرآن أو تنزلت
للقرآن]⁽¹⁾ .

وفي لفظ لمسلم : [قال البراء : كان رجل يقرأ سورة الكهف ، وإلى جانبه حصان
مربوط بشطنين ، فتغشته سحابة ، فجعلت تدنو وتدنو ، وجعل فرسه ينفر ، فلما
أصبح أتى النبي ﷺ ، فذكر ذلك له ، فقال : تلك السكينة نزلت بالقرآن]⁽²⁾ .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء قال : قال
رسول الله ﷺ : [مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ]⁽³⁾ . وفي
لفظ عند الحاكم : [عصم من فتنة الدجال] .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3614) - كتاب المناقب ، وأخرجه مسلم (795) ، وأحمد في
المسند (281 / 4) ، والترمذي في الجامع (2885) ، وأخرجه ابن حبان (769) .

(2) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (2106) ، كتاب فضائل القرآن ، باب :
تنزل السكينة لقراءة القرآن .

(3) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم (2098) ، وأخرجه أبو داود (4323) ، وأخرجه
الترمذي (2886) ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (951) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن معدان ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: [من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال]⁽¹⁾.

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم عن النواس بن سمعان قال: [ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه بفواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته . .] الحديث⁽²⁾.

الحديث الخامس: أخرج النسائي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: [من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين]⁽³⁾.

ورواه الدارمي موقوفاً على أبي سعيد بلفظ: [من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق].

موضوع السورة

قصة أصحاب الكهف منهاج الفئة المؤمنة ، وسنن الله في أهل الإيمان والكفر وإهلاك القرى الظالمة .

- منهاج السورة -

1 - الحمد والثناء على الله منزل الكتاب ، نذيراً للعباد يوم الحساب ، وبشيراً للمؤمنين بالجنة والنجاة من العقاب ، وإنذاراً للذين نسبوا لله الولد من أهل الكتاب .

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (446/6) ، ومسلم (809) ، والنسائي في «الكبرى» (10786) .

(2) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (2048) ، كتاب الفتن .

(3) أخرجه الحاكم (368/2) ، والبيهقي في «السنن» (249/3) ، وأخرجه الدارمي (454/2) موقوفاً ، كما في الرواية بعده ، وانظر صحيح الجامع - حديث رقم - (6347) .

- 2 - تثبيت الله تعالى نبيه ﷺ في جهاده قومه الذي تمردوا عن الإيمان ، وكذبوا بالنبوة والقرآن ، فهذه الدنيا دار فانية ، مزينة بزينة زائلة .
- 3 - قصة أهل الكهف قصة فتية مؤمنين ، فروا بدينهم من مكر الظالمين ، وقد ضرب الله عليهم النوم سنين طويلة ، ثم بعثهم لإظهار آية من آيات قدرته العجيبة .
- 4 - ذكر تقلب الشمس حول الكهف بأمر الله حفظاً على الفتية المؤمنين ، وكلبهم باسط ذراعيه بالباب ولو أبصرتهم لكنت من الهارين .
- 5 - مجيء وقت إيقاظهم ، وإرسال بعضهم للمجيء بطعام لهم ، وأمره بالتلطف لثلاث يفتن الطغاة إلى أمرهم .
- 6 - كشف الله أمرهم ، ليعلم من كذب بهذا الحديث أن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها .
- 7 - اتخاذ أهل النفوذ عليهم مسجداً ، وتنازع القوم في عددهم دون جدوى .
- 8 - تنبيه الله العباد إلى ذكره وربط الأمور بمشيئته تعالى ، فمشيئته قاهرة لكل مشيئة .
- 9 - إخباره تعالى عن لبث أهل الكهف في كهفهم ثلاث مئة وتسع سنين ، والله هو العليم الحكيم لا يخفى عليه شيء وله الحكم لا شريك له .
- 10 - أمر الله رسوله بتلاوة القرآن ، والصبر في الحياة مع أهل الإيمان ، وعدم الافتتان بأهل الزينة أهل الكبر والحرمان .
- 11 - من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، والعاقبة للمتقين ، والعذاب على الكافرين .
- 12 - ذكر قصة الرجلين : لأحدهما جنتان فهو مستكبر مفتخر على صاحبه بالمال والثمر والنفر ، شاك بالبعث بعد الموت وأنه لو حصل لكان له حسن المنقلب والمستقر ، وصاحبه يحذره مغبة الشرك والكبر ، وهو يُصِرُّ على كفره حتى أرسل الله عليه الجوائح والمصائب وهلك المال والثمر ، وصار في الندم والبؤس وذاق عاقبة من كفر وما شكر .
- 13 - تمثيل بديع لهذه الحياة الدنيا الفانية ، والباقيات الصالحات هي البقية الباقية .

- 14 - وَصَفُ الله أحوال القيامة: تسيير الجبال وبروز الأرض وموقف الحشر وتوزيع الصحف والتحسر والندامة .
- 15 - أَمُرُ الله الملائكة السجود لآدم ، وقصة امتناع إبليس وعداوته ، وتقريع المشركين في شركهم وذلهم يوم القيامة .
- 16 - تصريف الله الأمثال في هذا القرآن ، وتكذيب الناس الرسل بطرق متوارثة عبر الزمان . قوامها العناد والفلسفة وسؤال المعجزات والاستهزاء بالرسل الكرام .
- 17 - التحذير من التغافل عن حجج الله وما يعقب ذلك من الختم والطبع على القلوب والإقفال على الآذان ، ورحمته تعالى بعدم معاجلة المذنبين .
- 18 - سنة الله في إهلاك القرى الظالم أهلها في وقت وأجل مسمى .
- 19 - قصة لقاء موسى بالخضر ، وبيان المشاهد والمواقف في ذلك .
- 20 - قصة ذي القرنين وسياحته في البلاد ، يقيم الحق والميزان بين العباد ، وخبر يأجوج ومأجوج .
- 21 - تفصيل إبراز جهنم يوم القيامة للكافرين ، الذين كانوا في تغافل وتكذيب بيوم الدين .
- 22 - الأخسرون الأخسرون الذين بطل عملهم يوم القيامة وهم يظنون أنهم محسنون .
- 23 - تعظيم كلمات الله وآفاقها ومعانيها وروائع علومها ، وعجز البحر أن يكفي مداداً لها .
- 24 - إثبات بشرية الرسول ﷺ ، وتلقيه الوحي من الله رب السماوات والأرض .
- 25 - ذِكْرُ سر النجاة وسعادة الدارين: أفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، والتماس العمل الصالح على منهاج الوحيين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 8. قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَتَكَبِّرِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِخُفِّ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۖ ﴿٨﴾ ۝

في هذه الآيات : كل الحمد والشكر لله منزل الكتاب عدلاً قيماً ، نذيراً وبشيراً ، ومحذراً الذين تناولوا على الله ونسبوا له الولد كذباً وزوراً . فلا تهلك نفسك - يا محمد - بحزنك على قومك في تمردهم عن الإيمان ، والتكذيب بالنبوة والقرآن ، فإن هذه الدنيا دار فانية ، مزينة بزينة زائلة ، لا تستقيم لأحد لأنها دار اختبار ، وليست بدار قرار ، وستصير بعد الزينة إلى الخراب والدمار .

فقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ . حَمْدٌ وتقديس من الله لنفسه الكريمة على إنزاله هذا الكتاب العزيز .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : الحمد لله الذي خص برسالته محمداً وانتخبه لبلاغها عنه ، فابتعثه إلى خلقه نبياً مرسلًا ، وأنزل عليه كتاباً قيماً ، ولم يجعل له عِوَجًا) .

وعن ابن عباس : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا ۖ ﴾ يقول : أنزل الكتاب عدلاً قيماً ، ولم يجعل له عِوَجًا) . وقال ابن إسحاق : (أي : معتدلاً لا اختلاف فيه) . وعن الضحاك : (قيماً : قال : مستقيماً) .

قال ابن كثير: (فإنه - أي القرآن - أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض ، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، بل يهدي إلى صراط مستقيم ، بَيِّنًا واضِحًا جلياً ، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين ، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ ، أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً ، بل جعله معتدلاً مستقيماً. ولهذا قال: ﴿قِيَمًا﴾ ، أي: مستقيماً).

وقوله: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾. تهديد للكافرين بعذاب من عند الله في الدارين. قال محمد بن إسحاق: (عاجل عقوبة في الدنيا وعذاباً في الآخرة). وقال قتادة: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾: أي: من عنده).

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾. بشارة للمؤمنين أهل العمل الصالح بالثواب الجزيل في جنات النعيم يوم القيامة. ولهذا قال: ﴿مُكَيِّتِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾. قال ابن إسحاق: (أي: في دار خلد لا يموتون فيها ، الذين صدقوك بما جئت به عن الله ، وعملوا بما أمرتهم).

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم ينادى: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾. أي: من مشركي قومه وغيرهم.

قال ابن إسحاق: (يعني قريشاً في قولهم: إنما نعبد الملائكة ، وهن بنات الله). وفي صحيح البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له ولداً ، وإنه ليُعافيههم ويرزقهم]⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6548) - كتاب الرقاق ، وأخرجه مسلم (8/153) ، وغيرهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6099) - كتاب الأدب ، باب الصبر في الأذى.

إِلَّا كَذِبًا. أي: لا حجة لهؤلاء القائلين هذا القول ولا لأسلافهم ، وإنما يقولون كبيراً من الإثم ويفترون على الله أعظم الكذب .

قال محمد بن إسحاق: (ما يقول هؤلاء القائلون اتخذ الله ولداً بقليلهم ذلك إلا كذباً وفرية افتروها على الله).

وُنُصِبَتْ ﴿كَلِمَةً﴾ على التمييز ، والتقدير: كبرت كلمتهم هذه كلمة. وقيل: على التعجب ، والتقدير: أعظم بكلمتهم كلمة .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ ، فَسَبْحَانِي أَنْ أُتَّخَذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا⁽¹⁾].

وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ .

أي: فلعلك يا محمد مهلك نفسك بحزنك على آثار قومك في تمردهم عن الإيمان بالنبوة والتصديق بهذا القرآن .

قال قتادة: (﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ ، يقول: قاتل نفسك). وقوله: ﴿أَسَفًا﴾ قال: (غضباً). وقال مجاهد: (جزعاً). وقال قتادة أيضاً: (حزناً عليهم).

والآية تسلية من الله تعالى لنبيه الكريم ، على حزنه على إصرار المشركين ، على عقائد الجاهلية ومحاربة هذا الدين ، وترك التصديق بالقرآن الكريم ، وهو مفهوم قوله: ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3].

2 - وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: 70].

3 - وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8].

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4482) - كتاب التفسير - سورة البقرة ، آية (116).

وفي الصحيحين عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيُملِي لِلظَّالِمِ ، حتى إذا أخذه لم يُفلته] (1).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

إخبار من الله جل ذكره أن هذه الدنيا دار فانية ، مزينة بزينة زائلة ، لا تستقيم لأحد لأنها دار اختبار وليست بدار قرار .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ] (2).

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة] (3).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ - فيه أقوال متقاربة .

1 - قال ابن عباس: (يهلك كل شيء عليها ويبعد). وقال مجاهد: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: بلقعا).

2 - قال قتادة: (الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات).

3 - قال ابن إسحاق: (يعني: الأرض ، إن ما عليها لفانٍ وبائد ، وإن المرجع إلّاي ، فلا تأس ، ولا يحزنك ما تسمع وترى فيها).

4 - قال ابن زيد: (الجُرز: الأرض التي ليس فيها شيء ، ألا ترى أنه يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ [السجدة: 27]. قال: والجرز: لا شيء فيها ، لا نبات ولا منفعة . والصعيد: المستوي).

وخلاصة المعنى: هذه الدنيا ستصير بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، وإلى الفناء

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3110)، والبيهقي (94/6) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (2742)، وقوله: «مستخلفكم» أي: جاعلكم ذرية تخلقون القرون الذين قبلكم.

(3) إسناده حسن. أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (2401)، وقال: حديث حسن صحيح.

والزوال ، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من قومه : أن لا عليك أن سيهلكوا جميعاً ، فلا تحزن عليهم ولا تضيق من مكربهم وعنادهم .

9- 12 . قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۖ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۖ فَضَرْبَنَا عَلَىٰ أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۖ ﴾ .

في هذه الآيات : إخبار الله تعالى نبيه محمداً ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وما فيها من العبر والآيات والمعجزات . يقول : وليس - يا محمد - أمرهم عجباً في قدرتنا وسلطاننا ، فإن خلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، وتعاقب الليل والنهار ، وخلق الجبال الشواهد والأنهار والبحار ، أكبر من ذلك . لقد أوى الفتية المؤمنون إلى الكهف فراراً بدينهم ، راجين رحمة ربهم ، فضرب عليهم النوم سنين طويلة ، ثم بعثهم سبحانه لإظهار آية من آيات قدرته العجيبة ، وليستفيد من بعدهم في تعظيم الله والمثابرة على عبادته والتوكل عليه .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۖ ﴾ - فيه أقوال متقاربة :

- 1 - قال مجاهد : (يقول : قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك) .
 - 2 - قال ابن عباس : (يقول : الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم) .
 - 3 - وقال محمد بن إسحاق : (ما أظهرت من حُججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم) .
- قال النسفي : (والكهف : الغار الواسع في الجبل ، والرقيم : اسم كلبهم أو قريتهم أو اسم كتاب كتب في شأنهم أو اسم الجبل الذي فيه الكهف) .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

إخبار عن قلة مؤمنة فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه ، فلجؤوا إلى غار في جبل متضرعين إلى ربهم عز وجل: أن ييسط عليهم حمايته ورحمته ويجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ، وفي عاقبة صبرهم سترأ ورشداً.

وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

قال ابن كثير: (أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف ، فناموا سنين كثيرة).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لِسُوا أَمَدًا﴾.

أي: ثم بعثنا هؤلاء الفتية من رقدتهم لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع ، من اختلاف الطائفتين من مدة مكثهم. قال مجاهد: (أمداً: عدداً). وقال ابن عباس: ﴿لِمَا لِسُوا أَمَدًا﴾ يقول: بعيداً). وقال ابن جرير: (ويعني بالأمد: الغاية).

وخلاصة المعنى كما قال القاسمي: (أي لنعلم واقعاً ما ، علمنا أنه سيقع. وهو أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم ، أشد إحصاء ، أي إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدو ، فيتم لهم رشدهم في شكره ، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته).

13 - 16. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَفْضُ عَلَيْكَ نَبَاهُهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ

وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى نبيه ﷺ أن ما يقصه عليه من خبر هؤلاء الفتية المؤمنين ، إنما هو بالصدق واليقين ، وقد زادهم إيماناً إلى إيمانهم ، وربط على

قلوبهم ، إذ صبروا على هجران الديار ، إلى كهف بأحد الجبال ، حفاظاً على دينهم ، وخلصاً من شرك قومهم ، فأواهم سبحانه وأيدهم برحمته وجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً .

فقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف بالحق ، يعني : بالصدق واليقين الذي لا شك فيه . ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ يقول : إن الفتية الذين أووا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملائكة من مشركي قومك ، فتية آمنوا بربهم ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ يقول : وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيماناً وبصيرة بدينهم ، حتى صبروا على هجران دار قومهم ، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله ، وفراق ما كانوا فيه ، من خفض العيش ولينه ، إلى خشونة المكث في كهف الجبل) .

وفي الآية فائدتان جليلتان :

الفائدة الأولى : أهمية الشباب لحمل هذا الدين والبذل من أجله .

وهذا جلي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ ، فالشباب قوة الإسلام ومستقبله القادم . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله شباباً . وقد لاحظ العباس عم النبي ﷺ أن معظم رجال بيعة العقبة كانوا من الشباب فقال لابن أخيه : (ما أدري ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب . هؤلاء قوم لا أعرفهم ، هؤلاء أحداث) (1) .

إن الشباب مصدر قوة الأمة ومحل طاقتها الكامنة ، فَإِنْ صَلَحَ الشباب فإن ذلك يُبَشِّرُ بأمة قوية تريد أن تشغل مكانها تحت الشمس ، وإن فسد الشباب وتعلقت قلوبهم بالفواحش والآثام ، أو سُلِّطَ عليهم عوامل الهدم والشد إلى الخلف ، كان ذلك نذير سوء ومصدر قلق وتهديد لتلك الأمة .

ومن هنا حرص الإسلام على تربية الشباب على روح الجهاد والشهادة في سبيل الله ، فإنه لا أعلى من ذلك ولا أرفع ، فإذا ارتبط قلب الفتى بحب الله ونصرة دينه كان ذلك جامعاً لخيري الدنيا والآخرة .

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد (3/ 339 - 340) - في أثناء حديث بيعة العقبة ، ورجاله ثقات .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة الله ، . . .]⁽¹⁾.

وفي مستدرک الحاكم بإسناد صحيح عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك]⁽²⁾.

الفائدة الثانية : الإيمان يزيد وينقص .

وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ . وفي القرآن آيات كثيرة نحو ذلك ، منها :

1 - قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : 2] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم : 76] .

3 - وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : 4] .

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين]⁽³⁾.

الحديث الثاني : أخرج البخاري عن أنس مرفوعاً : [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه]⁽⁴⁾. وفي صحيح مسلم : [لا تؤمنوا حتى تحابوا] . [من حمل علينا السلاح فليس منا] .

الحديث الثالث : روى البخاري عن ابن مسعود قال : (اليقين : الإيمان كله)⁽⁵⁾. وعن معاذ كان يقول : (اجلس بنا نؤمن ساعة) .

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1423) - كتاب الزكاة ، وأخرجه مسلم (1031) - كتاب الزكاة .
- (2) حديث صحيح . رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ، ورواه أحمد في «الزهد» ، وأبو نعيم من حديث عمرو بن ميمون مرسلًا . انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (1088) .
- (3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (15) - كتاب الإيمان ، وانظر مختصر صحيح مسلم (23) .
- (4) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (13) - كتاب الإيمان . وانظر مختصر صحيح البخاري (13) ، ومختصر صحيح مسلم (42) (1235) لما بعده .
- (5) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح البخاري (ص 6 - 7) - تحقيق الألباني . وكذلك لما بعده .

وقد فصلت ذلك في كتابي: أصل الدين والإيمان ، فله الحمد والمنة .

وقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ . أي: ثبتناها . قال قتادة: (يقول: بالإيمان). أي: ألهمناهم الصبر وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت أنفسهم عما كانوا عليه من خفض العيش .

وقوله: ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: حين قاموا بين يدي الجبار دقنوس فقالوا له إذ عاتبهم على تركهم عبادة آلهته: ﴿ رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾). قال ابن كثير: ﴿ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ﴾ . ولن: لنفي التأييد ، أي: لا يقع منا هذا أبداً ، لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً ، ولهذا قال عنهم: ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ ، أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً).

وعن قتادة: (قوله: ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ يقول: كذباً). وقال ابن زيد: (قال: لقد قلنا إذن خطأ ، قال: الشطط: الخطأ من القول).

وقوله: ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ .

هو من قيل الفتية أصحاب الكهف عن قومهم: أنهم اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله ، فلولا يأتون على عبادتها بسلطان بين . قال قتادة: (يقول: بعذر بين). وقال ابن جرير: (يقول: هلا يأتون على عبادتهم إياها بحجة بينة).

وقوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

قال قتادة: (ومن أشد اعتداء وإشراكاً بالله ، ممن اختلق ، فتخرص على الله كذباً ، وأشرك مع الله في سلطانه شريكاً يعبده دونه ، ويتخذة إلهاً).

وقوله: ﴿ وَإِذْ أَعَرَّلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ، ﴿ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة يسترهم بها من قومكم ، ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ ﴾ ، الذي أنتم فيه ، ﴿ مَرْفَقًا ﴾ ، أي: أمراً ترتفقون به . فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف ، فأووا إليه ، ففقدهم قومهم

من بين أظهرهم ، وتَطْلِبُهُم الملك ، فيقال : إنه لم يظفر بهم ، وَعَمَى الله عليه خبرهم).
قلت : والهروب من الفتن والفرار بالدين إلى حيث الأمن على الإيمان هو عمل منهجي صحيح عند اختلاط الرايات وظهور الدعاة على أبواب جهنم .
ففي التنزيل : ﴿ إِنَّمَا إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : 20] .

وفي صحيح السنة المطهرة في مفهوم ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أنه قال : قال رسول الله ﷺ : [يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ، ومواقع القطر ، يقر بدينه من الفتن] ⁽¹⁾ .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، والترمذي في جامعه ، من حديث حذيفة مرفوعاً : [تكون دعاة على أبواب جهنم ، مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها . فقلت : يا رسول الله ! صفهم لنا ، قال : نَعَمْ ، هُمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا ، ويتكلمون بألسنتنا . قلت : يا رسول الله ! فما ترى إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . فقلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعضّ على أصل شجرة ، حتى يدركك الموت ، وأنت على ذلك] ⁽²⁾ .

الحديث الثالث : أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : [كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتي ، يُغزبُ الناس فيه غزبةً ، وتبقى حثالة من الناس ، قد مرجت عهودهم وأماناتهم ، فاختلفوا ، وكانوا هكذا ؟ (وشبك بين أصابعه) قالوا : كيف بنا يا رسول الله ! إذا كان ذلك ؟ قال : تأخذون بما تعرفون . وتدعون ما تنكرون . وتقبلون على خاصيتكم . وتذرون أمر عوامكم] ⁽³⁾ .

- (1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (19) - كتاب الإيمان ، باب : من الدين الفرار من الفتن . وأخرجه أيضاً برقم (3300) ، (3600) ، ورواه أبو داود (4237) ، والنسائي (123 / 8 - 124) ، وأحمد (43 / 3) .
- (2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (1847) - كتاب الإمامة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، وفي كل حال . . ، وذلك في أثناء حديث طويل ، ورواه الترمذي وغيره من أهل السنن .
- (3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (3957) - كتاب الفتن . باب الثبوت في الفتنة . انظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (3196) .

17 - 18. قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ۝١٧ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۝١٨﴾.

في هذه الآيات: تَقَلَّبُ الشمس حول الكهف بأمر الله حفظاً على الفتية المؤمنين ، فهم في نوم عميق وكلبهم باسط ذراعيه بالباب فلو أبصرتهم لوليت منهم وكنت من الهاربين .

فعن ابن عباس: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ . يقول: تميل عن كهفهم يمينا وشمالاً). وقال: (لو أن الشمس تطلق عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يقبلون لأكلتهم الأرض). وقال سعيد بن جبير: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ (تركهم ذات الشمال).

قال ابن جرير: (وإنما معنى الكلام: وترى الشمس إذا طلعت تعدل عن كهفهم ، فتطلع عليه من ذات اليمين ، لئلا تصيب الفتية ، لأنها لو طلعت عليهم قبالتها لأحرقتهم وثيابهم ، أو أشحبتهم . وإذا غربت تركهم بذات الشمال ، فلا تصيبهم).

وهناك قراءتان مشهورتان لقوله: ﴿تَزْوُرُ﴾ . فهي بالتخفيف ﴿تَزَاوُرُ﴾ في قراءة الكوفيين ، وهي بالتشديد ﴿تَزَاوُرُ﴾ في قراءة قراء المدينة ومكة والبصرة . وهما متقاربتان في المعنى.

قال ابن عباس: (تزاور: تميل). قال ابن كثير: (هذا فيه دليل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال ، لأن الله تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تَزْوُرُ عنه ذَاتَ الْيَمِينِ ، أي: يتقلص الفيء يمنة. قال: وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان. ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه ، وهو من ناحية الشرق).

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾. قال سعيد بن جبير: (في مكان داخل).

أي: هم في متسع منه داخلاً ، بحيث لا يمسّهم حر الشمس الذي لو أصابهم لأحرق ثيابهم وأجسامهم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾. قال النسفي: (أي ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله). وقال ابن كثير: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ ، حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، والشمس والرياح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم).

وقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَحْدِلْهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾.

أي: من يهد الله إلى الحق فيوفقه لسلوك سبيله فهو المهتدي حقاً ، شأن هؤلاء الفتية الذين أرشدهم سبحانه إلى طريق الهداية والنجاة من بين قومهم ، ومن يضلّل الله عن سبيله ممن أهملوا سبيل الحق والتماسه من الله تعالى بالرجاء والدعاء ، فلن تجد له ناصرًا ومؤيداً وهادياً ومعيناً.

وقوله: ﴿وَنَحْسَبُهُمْ آيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾. قال القاسمي: (خطاب لكل أحد. أي: تظنهم ، يا مخاطب ، أيقاظاً لانفتاح أعينهم ، وهم رقود مستغرقون في النوم ، بحيث لا ينبههم الصوت).

وقوله: ﴿وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾. أي: نقلهم أثناء نومهم مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر. قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: (لو أنهم لا يقلّبون لأكلتهم الأرض).

وقوله: ﴿وَكَلَّبْنَاهُمْ بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾. قال ابن هشام: (الوصيد الباب).

قال القرطبي: (والوصيد أيضاً الفناء). وعن ابن عباس: ﴿وَكَلَّبْنَاهُمْ بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال: بالباب ، وقالوا بالفناء).

وقوله: ﴿لَوْ أطلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾.

أي: لو نظر إليهم أحد وهم في أثناء رقدتهم لوّلّى هارباً من هيئة المنظر ، ولاعتراه من الذعر والرعب الكثير ، لما ألبسوا من الحال المهيّب لثلاثا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لأمس ، حتى يقضي الله بحكمته أجلاً ضربه لذلك.

19 - 20. قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: إيقاظُ الله أهل الكهف ليسأل بعضهم بعضاً عما صنَّع بهم ويستدلوا بذلك على قدرة ربهم عز وجل فيشكروه على ما أنعم عليهم. وإرسال الفتية أحدهم ببعض الفضة والدراهم التي كانت معهم إلى مدينتهم التي خرجوا منها ليتخيَّر لهم من الطعام الطيب الحلال، مع الوصية له بأخذ الحذر والتلطف عند الدخول والخروج لئلا يفتن الطغاة إلى أمرهم فينالوا منهم.

فقوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾. قال النسفي: (أي: وكما أنماهم تلك النومة كذلك أيقظناهم إظهاراً للقدرة على الإنامة والبعث جميعاً) ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقيناً ويشكروا ما أنعم الله به عليهم).

وقوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾. أي: كم مدة ما رقدتم، وهذا يدل على عدم استنكارهم لهيئاتهم وأحوالهم وأبصارهم وأشعارهم وصحة أبدانهم.

وقوله: ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ - إجابة منهم عما هو طبعي في حياة الناس عند الرقود. قال المهامي: (فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية، ظن أنهم لبثوا يوماً، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية، ظن أنهم لبثوا بعض يوم).

وقوله: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾. قال القاسمي: (إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بمدة لبثهم. كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة، أو بإلهام من الله، أن المدة متطاولة، وأن مقدارها مبهم، فأحالوا تعيينها على ربهم).

وقوله: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا

فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴿١٩﴾. أي: فأرسلوا واحداً منكم ببعض ما استصحبتم من الفضة والدراهم إلى مدینتکم التي خرجتم منها ، لیتخیر لکم من الطعام الطيب الحلال فیأتیکم به لتطعموه وتسدوا به الجوع بعد النوم.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ لَّطَفٌ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

قال ابن جریر: (يقول: ولیترفق فی شرائه ما یشتري ، وفي طريقه ودخوله المدینة. يقول: ولا یعلمن بکم أحداً من الناس).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾. سنة عظیمة بین أهل الحق والباطل ، فإن الباطل یتبعه الطغاة والمتكبرون ، وهم یرون فی أهل الحق والصدق خصومهم ، فیهمون بهم بكل وسیلة لیثنوهم عما هم فیہ من التمسك بالحق وتعظیم الله وحده لا شریك له ، فإن تابعوهم علی مرادهم فلا فلاح لهم فی الدنيا والآخرة.

قال ابن جریج: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال: یشتموکم بالقول ، یؤذوكم).

وقال الزجاج: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ معناه بالحجارة ، وهو أخبث القتل) - وهذا المعنى أقوى وأرجح ، لوجود العزم علی قتلهم من قبل.

قال القرطبي: (والرجم فیما سلف هی كانت علی ما ذکر قبله عقوبة مخالفة دین الناس إذ هی أشفی لجملة أهل ذلك الدین من حیث إنهم یشترون فیها).

قلت: وهذه الآية الکريمة تشكل منهجاً فی الحذر والتهیؤ للتصدي لمحاولات أهل الباطل ، فإن أهل الحق أهل ذكاء وفطنة ، أهل وعي وحنكة ، یفهمون الواقع الذي یعيشون فیہ ، ویدرکون طبیعة الأعداء وما یخططون ، ولیسوا بالسذج ولا البسطاء الذين یسهل الضحك علیهم ، أو یكون من السهل خداعهم.

وفي التنزیل: ﴿وَحَدُّوا حَذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ آعَدَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. قال القرطبي: (هذا وصاة بالحذر... لثلاثینال العدو أملہ ویدرک فرصته).

ومنه قول عمر رضي الله عنه: (لست بالخب ولا الخب یخدعني).

فدعا الإسلام العظیم إلى الحذر والدقة ومنع الطیش والغباء ، وأخرج رجالاً هم مثال البشریة فی الدقة والعلم والإتقان.

أخرج البيهقي بسند حسن عن كليب ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يُحسِن] (1).

ورواه من طريق عائشة بلفظ: [إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه].

وله شاهد عن ابن سعد في الطبقات بلفظ: [وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه].

21- 24. قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَغْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن كشفه خبر أهل الكهف ليعلم من كذب بهذا الحديث أن وعد الله حق والساعة آتية لا ريب فيها ، وإعلامه تعالى عن اتخاذ أهل النفوذ عليهم مسجداً ، وتنازع القوم في عددهم دون جدوى. وتنبية الله العباد إلى ذكره وربط الأمور بمشيئته تعالى ، فإنه لا يكون أمر إلا بإرادته وقضائه عز وجل .

فمن قتادة: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ﴾ يقول: أطلعنا عليهم ليعلم من كذب بهذا الحديث ، أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها).

وقوله: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ - ردُّ على من أنكر البعث

(1) حديث حسن. أخرجه البيهقي في «الشعب» ، ورواه الطبراني في الكبير كما في المجمع (98/4) ، وله شاهد عند ابن سعد في «الطبقات» (8/155) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1113) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (1876).

وأمر القيامة من أهل ذلك الزمان. قال عكرمة: (كان منهم طائفة قد قالوا: تُبْعَثُ الأرواح ولا تُبْعَثُ الأجساد).

وقوله: ﴿إِذِ يَنْتَرِضُونَ عَنْهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ - يعني: الذين أعثروا على الفتية في تنازعهم في أمر القيامة. قال ابن كثير: (فمن مُنِب لها ومن مُنْكَر ، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حُجَّةَ لهم وعليهم).

وقوله: ﴿فَقَالُوا أَتَبْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾. أي: سُدُّوا عليهم باب كهفهم الذي هم فيه ، وذروهم على حالهم.

قيل: لما استغرب الرجل الذي أرسلوه ليشتري لهم طعاماً تغير الأحوال ، عمد إلى رجلٍ ممن يبيع الطعام فأنكر ضرب تلك النقود ، فدفعها إلى جاره ، وجعلوا يتداولونها ، حتى حملوه إلى ولي الأمر ، فلما أرشدهم إلى الكهف دخل وأخفى الله أمرهم ، وقيل بل سلّم عليهم الملك وفطن أمرهم وكان مسلماً ، ثم ودَّعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله عز وجل ، والله أعلم بحقيقة ذلك . فهناك قال أصحاب الكلمة والنفوذ فيهم كما حكى الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾. قال النسفي: (يصلي فيه المسلمون ، ويتبركون بمكانهم).

قلت: وليس في الذي صنعوه حجة على دفن الصالحين في المساجد أو اتخاذ القبور فيها أو بناء المساجد عليها. فإن ذلك لم يكن تصرف أهل العلم في ذلك الزمان بل أهل النفوذ ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن شريعتنا ناسخة لما قبلها. وقد جاءت رسالة النبي ﷺ بالوعيد الشديد على من فعل ذلك.

ففي التنزيل: قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18].

وفي صحيح السنة المطهرة في الترهيب من ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت: [لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طِفْقٌ يطرح خميصه له على وجهه ، فإذا اغتمَّ بها كشفها فقال: - وهو كذلك - لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً⁽¹⁾].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (444/1) في الصلاة ، ومسلم (531) في المساجد ومواضع الصلاة ، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن أبي عبيدة قال: [كَانَ آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ، لَا يَقِينَنَّ دِينَانَ بِأَرْضِ الْعَرَبِ] (1).

الحديث الثالث: أخرج الإمام مالك في الموطأ ، والإمام أحمد في المسند ، عن أبي هريرة مرفوعاً: [اللهم لا تجعل قبري وثناً ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد] (2). هذا لفظ أحمد. ولفظ مالك: [اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد].

وقوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾.

إخبار من الله تعالى عن اختلاف الناس في عدّة أهل الكهف على ثلاثة أقوال. ويبدو من إشارة الآية ضعف القولين الأولين. قال قتادة: ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾: أي قذفاً بالغيب). أو قال: (قذفاً بالظن). والمراد محاولة للقول بلا علم قد يصيب وقد يخطئ.

وأما القول الثالث: ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فقد جاء الأثر عن ابن عباس في قوله: ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال: (أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة) - وفي روايات ذلك أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وإنما الأحسن من كل هذا ما أرشد الله تعالى إليه بقوله: ﴿ فَلَا تُحَاسِرْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ إذ العبرة بمعاني القصة ومنهاجها لا بـعدّة أصحابها وأسمائهم وصفاتهم.

وعن ابن زيد: ﴿ فَلَا تُحَاسِرْ فِيهِمْ ﴾ قال: لا تمار في عدتهم). وعن مجاهد: ﴿ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾: أي حسبك ما قصصنا عليك من شأنهم ، ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ من يهود ، قال: ولا تسأل يهود عن أمر أصحاب الكهف ، إلا ما قد أخبرتك من أمرهم). وعن ابن عباس: ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ قال: هم أهل الكتاب). وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ ﴾.

(1) إسناده صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 195) ، وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (3/ 1771) لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 246) من حديث أبي هريرة ، ومالك (85) في الصلاة ، وانظر المرجع السابق (3/ 1771).

إرشاد من الله سبحانه لرسوله ﷺ - وأمته من باب الأولى - الأدب فيما يُعزم عليه من الفعل في المستقبل ، وذلك برد المشيئة دوماً إلى علام الغيوب تبارك وتعالى . قال القرطبي : (فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذباً ، وإذا قال : لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققاً للمخبر عنه) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً : [قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفنَّ الليلة بمئة امرأة ، تَلِدُ كُلُّ امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله . فقال له المَلَكُ : قُلْ : إِنْ شَاءَ الله ، فلم يقل ونَسِي ، فأطافَ بهنَّ ، ولم تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امرأةً نِصْفَ إنسان . قال النبي ﷺ : لو قال إِنْ شَاءَ الله ، لَمْ يَحْنَثْ ، وكانَ أَرْجَى لِحاجته]⁽¹⁾ .

وفي لفظ مسلم : [فلم تحمِلْ منهن إِلَّا امرأة واحدة ، فجاءت بشق رجل ، وإيم الذي نفس محمد بيده ! لو قال : إِنْ شَاءَ الله ، لجاهدوا في سبيل الله فُرْسَاناً أجمعون] .

وفي لفظ آخر : [فقال رسول الله ﷺ : لو كان استثنى ، لولدت كُلُّ واحدةٍ منهن غلاماً فارساً ، يُقاتِل في سبيل الله] .

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عمر ، يبلغ به النبي ﷺ ، قال : [مَنْ حَلَفَ على يمين ، فقال : إِنْ شَاءَ الله فقد استثنى]⁽²⁾ .

وله شاهد عنده عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [مَنْ حَلَفَ فاستثنى ، فإن شاء رَجَعَ ، وإن شاء ترك غير حِنْثٍ] .

وقوله : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ - أمر بالذكر بعد النسيان .

قال الحسن : (إذا ذكر أنه لم يقل : إِنْ شَاءَ الله ، فليقل : إِنْ شَاءَ الله) .

وقال عكرمة : (اذكر ربك إذا عصيت) .

قلت : فإن صح تفسير الحسن فهو خاص بالنبي ﷺ ، وإلا فالاستثناء المفيد لا يصح إلا متصلاً في مجلس الذكر . والأولى حمل الآية على ذكر الله تعالى الذي يطرد الشيطان ، وذلك أن منشأ النسيان من الشيطان ، كما في التنزيل : ﴿ وَمَا أُنْشِئُهُ إِلَّا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5242) - واللفظ له - كتاب النكاح . ورواه مسلم (1654) بروايات كثيرة ، ورواه النسائي (31/7) ، وأحمد (275/2) ، وأبو يعلى (6244) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (3261) - (3262) - كتاب الأيمان والنذور ، باب الاستثناء في اليمين . ورواه ابن ماجه (2105) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (2794) - (2795) .

الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴿٢٥﴾ . ومن ثم فالخطاب يعمّ جميع الأمة .

وفي الحديث : [إذا نسي أحدكم اسم الله على طعامه فليقل إذا ذكر : باسم الله أوله وآخره] (1) .

وقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : إذا سُئِلْتُ عن شيء لا تعلمه ، فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك . وقيل غير ذلك في تفسيره ، والله أعلم) .

25 - 26 . قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ .

في هذه الآيات : إخبار الله تعالى عن لبث أهل الكهف في كهفهم ثلاث مئة وتسع سنين ، وأنه تعالى أعلم بذلك والأبصر بكل موجود والأسمع لكل مسموع ، ولا يخفى عليه شيء ، وأنه الحكم لا يشاركه أحد في قضائه وحكمه عز وجل .
فقوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ .

قال النسفي : (الجمهور على أن هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا في كهفهم كذا مدة) . وفي الآية إشارة إلى تفاوت ما بين السنين الشمسية والسنين الهلالية ، فإن الفرق بين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية هو ثلاث سنين . ومن ثمّ فقوله : ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ تفصيل ثلاث مئة سنة بالشمسية أنها ثلاث مئة سنة وتسع سنين بالهلالية ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

أي : لا يعلم مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم إلا الله علام الغيوب ، فسلموا له علم ما غاب عنكم ولا تخوضوا به دون علم ، ولا تتكلفوا علم ما لا يفيدكم .

وقوله : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ - مبالغة في المدح .

قال قتادة : (﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع ، تبارك

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو يعلى في مسنده . انظر الإرواء (1965) ، وصحيح الجامع (818) .

وتعالى). وقال ابن زيد: (يرى أعمالهم ، ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً). قال القاسمي: (أي ما أبصره لكل موجود! وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء).

وقوله: ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾.

قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: مَا لَخَلْقِهِ دُون رَبِّهِم الذي خلقهم ولي ، يلي أمرهم وتديبرهم ، وصرفهم فيما هم فيه مُصَرَّفُونَ ، ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ يقول: ولا يجعل الله في قضائه ، وحكمه في خلقه أحداً سواه شريكاً ، بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم ، وتديبرهم وتصريفهم فيما شاء وأحب).

27 - 28. قوله تعالى: ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ

لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبُكَ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾.

في هذه الآيات: أُمِرُ الله تعالى رسوله ﷺ بتلاوة كتابه وإحكام الصلة به ، فإنه لا مُغَيِّرَ لما أوعد بكلماته ، ولا ملجأ منه إلا إليه . وكذلك أُمِرُ بالصبر في الحياة مع المؤمنين المستضعفين الذين يرجون رحمته تعالى ويخشون عذابه ، وعدم الافتتان بأهل الزينة والمتاع ممن اتبع هواه وكان أمره باطلاً .

فقوله: ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ - أُمِرُ من الله تعالى رسوله ﷺ بتلاوة كتابه الكريم وزيادة الصلة به لإبلاغه إلى الناس .

وقوله: ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ - قال ابن جرير: (يقول: لا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك أهل معاصيه ، والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك). وقال ابن كثير: (﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ ، أي: غير مُغَيِّرَ لها ولا محرف ولا مؤول).

وقوله: ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ . قال مجاهد: (ملجأ). وقال قتادة: (موثلاً). وقال ابن زيد: (لا يجدون ملتحداً يلتحدونه ، ولا يجدون من دونه ملجأ ولا أحداً يمنعهم). وأصل الملتحّد من اللحد ، يقال: لحدت إلى كذا ، إذا ملت إليه . ومنه اللحد يكون في القبر .

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

أي: اصبر نفسك يا محمد على مجالسة أصحابك الذين يتضرعون إلى الله تعالى بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير صباح مساء يبتغون نصره ورضاه ، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء .

وقد كان بعض أشرف قريش يتكبرون عن مجالسة النبي ﷺ والسماع منه طالما جلس معه ضعفاء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، فحدث نفسه بشيء من ذلك ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52].

ففي صحيح مسلم عن سعد رضي الله عنه قال: [في نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ﴾ ، قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم ، وكان المشركون قالوا: تدني هؤلاء⁽¹⁾ .

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن أبي الكنود ، عن خباب . في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ﴾ . . إلى قوله: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 52]. قال: [جاء الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب ، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين . فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم . فأتوه فخللوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً ، تعرف لنا به العرب فضلنا . فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد . فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك . فإذا نحن فرغنا ، فاقعد معهم إن شئت . قال: «نعم» ، قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً . قال: فدعا بصحيفة ، ودعا علياً ليكتب ، ونحن قعود في ناحية ، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 52]. ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 53]. ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54].

قال: فلدنونا منه حتى وضعنا رُكْبَنَا على ركبته. وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا. فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا. فأنزل الله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ (ولا تجالس الأشراف) ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ (يعني عيينة والأقرع) ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾. (قال: هلاكاً)، قال: أَمْرُ عيينة والأقرع. ثم ضَرَبَ لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا.

قال خباب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ. فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم⁽¹⁾.

وفي سنن ابن ماجة أيضاً بإسناد صحيح عن سعد قال: [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾⁽²⁾.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. قال ابن عباس: (لا تجاوزهم إلى غيرهم). أي: لا تتعدهم إلى غيرهم تبغي بمجالستهم الشرف والفخر. وعن ابن زيد: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: تريد أشراف الدنيا).

وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

أي: ولا تطع يا محمد من غلب الشقاء على قلبه ممن يسألونك طرد المؤمنين ليقبلوا مجالستك، ومن يؤثرون اتباع هوى نفوسهم على طاعة ربهم وعبادته.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

قال مجاهد: (ضياًعاً). وقال عباد بن راشد عن داود: (ندامة). وقال أبو الكنود، عن خباب: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾: هلاكاً. وقال ابن زيد: (مخالفاً للحق، ذلك الفُرُط). واختار ابن جرير أن يكون المعنى: (ضياًعاً وهلاكاً). وقال ابن كثير: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياًع، ولا تكن مطيعاً له ولا مُحِبّاً لطريقته، ولا تُعْبِطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3329) - كتاب الزهد - باب مجالسة الفقراء.

(2) حديث صحيح. انظر سنن ابن ماجة (2/1383)، ورواه أحمد والحاكم من حديث سعد رضي الله عنه. انظر كتابي: السيرة النبوية (1/243) لتفصيل البحث والروايات.

بِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسَتِهِمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ حَيْرًا وَبَقِي ﴿[طه : 131]﴾ .

29 - 31. قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ .

في هذه الآيات: توجيهُ الله تعالى نبيه ﷺ إلى الأسلوب الأمثل في مواجهة قومه بوضعهم أمام اختيار أحد السبيلين: سبيل الهدى والإيمان ، وسبيل الكفر والطغيان . فالسبيل الأول مآل أهله إلى الجنان ، حيث الأنهار وأساور الذهب وأنعم الثياب وأسعد الأيام . والسبيل الثاني مآل أهله إلى صلي النيران ، حيث الأغلال والحريق وماء المهل وأنعس الأزمان .

فقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ - إرشادٌ من الله تعالى لنبيه كيف يواجه هؤلاء المتكبرين من قومه . قال ابن جرير: (- يقول -: الحق أيها الناس من عند ربكم ، وإليه التوفيق والخذلان ، وبيده الهدى والضلال يهدي من يشاء منكم للرشاد ، فيؤمن ، ويضل من يشاء عن الهدى فيكفر ، ليس إليّ من ذلك شيء ، ولست بطارد لهواكم من كان للحق متبعا) .

وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ . أي: فإن شئتم فاختاروا الإيمان وطريق الجنان ، وإن أبيتكم إلا الكفر فقد اخترتم طريق الهلاك والخسران . ولا شك أن مشيئتكم مقهورة بمشيئة الله العزيز الحكيم .

قال ابن عباس: (من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء الله له الكفر كفر . قال: وإنما هو تهديد ووعد) .

وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ . أي: سورها وجدارها .

قال ابن عباس: (هي حائط من نار) . وقال ابن زيد: (يقول: أحاط سرادق النار

التي أعدّها الله للكافرين بربهم ، وذلك فيما قيل : حائط من نار يطيف بهم كسرادق الفسطاط).

وقوله : ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا بِغَاثِوَيْمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾.

المهل : سائل أسود مُتَنِّينٌ غليظٌ حارٌّ ، يشوي وجه الكافر إذا قرّبه من وجهه ليشرب منه . قال ابن عباس : (المهل : ماء غليظ مثل دُرْدِيّ الزيت) . وقال مجاهد : (هو كالدم والقيح) . وقال عكرمة : (هو الشيء الذي انتهى حرّه) . وقال الضحاك : (ماء جهنم أسود ، وهي سوداء ، وشجرها أسود ، وأهلها سود) . وكلها أقوال متكاملة .

والمعنى : هذا غياث الظالمين في نار جهنم من شدة العطش ، فإنه إذا طلبوا الماء يغاثون بماء المُهل الذي يشوي الوجوه ويسقط ما عليها من لحم وجلد من شدة حرّه .

وقوله : ﴿يَتَسَكَّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ .

أي : يتسكك الشراب هذا الماء الملهب الذي يغاث به أهل جهنم ، وساءت النار لهم متكأً ومنزلاً ومقيلاً . قال مجاهد : ﴿مُرْتَفَقًا﴾ : أي مجتمعاً . والارتفاق لغة من المرفق أو الرفق . قال الرازي : (مُرْتَفَقًا : أي مُتَكِّئًا على مِرْفَق يده) . والعرب تقول : ارتفق فلان أي : اتكأ . أو بات على مرفقه لا يأتيه نوم .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ .

بيان لحال السعداء بعد ذكر حال الأشقياء ، فالمؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا على منهاج النبوة أولئك يحفظ الله لهم أجور أعمالهم ليوافهم بها .

وقوله : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ . أي : جنات إقامة . ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ . أي : من تحت غرفهم ومنازلهم في صور بديعة وسعادة كبيرة .

وقوله : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ .

أي : يلبسون فيها من الحلبي أساور من ذهب ، ومن الثياب الديباج والحريير الأخضر اللون .

قال ابن كثير : (فالسندس : ثياب رِفَاعٌ رِقَاقٌ كالقمصان وما جَرَى مجراها ، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق) .

وقوله : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ .

قال قتادة : ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ : هي الحجال . قال معمر ، وقال غيره : الشُرُرُ في

(الحجال). قال النسفي: (خَصَّ الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتههم). وقال القاسمي: ﴿يَعْمَ الثَّوَابُ﴾ أي: الجنات المذكورة ﴿وَحَسُنَتْ مُرَقَّقَاتُ﴾ أي متكأ. وقيل المرتفق المنزل والمستقر ، لآية: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 66] ، وآية: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 76].

32- 36. قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: خطاب الله تعالى لنبيه ﷺ: واضرب - يا محمد - لهؤلاء المشركين المستكبرين من قومك ، الذي يترفعون عن مجالسة ضعفاء المسلمين ومساكينهم ويفتخرون عليهم بالأموال والأحساب ، مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين محفوفتين بالنخل ، ممتلئتين بالزروع ، تجري خلالهما الأنهار ، فافتخر صاحبهما على صاحبه بالمال والثمر والنفر ، ودخل جنته في هيئة الكبر ، مستبعداً هلاك الأرض وقيام الساعة ، ظاناً - إن حصلت القيامة - حسن المنقلب ، وأسعد المستقر .

فقوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ .

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين ، وهو متصل بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾). قال ابن كثير: (فضرب لهم مثلاً برجلين ، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ ، أي: بستانين من أعناب ، محفوفتين بالنخل المحذقة في جنباتهما ، وفي خلالهما الزروع ، وكُلُّ من الأشجار والزروع مثمر مُقبِلٌ في غاية الجودة).

وقوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ .

أي: كلتا الجنتين أخرجت ثمارها بوفاء دون نقصان ، والأنهار تتخرق في

أرجائهما. قال قتادة: ﴿وَلَمْ تَطْلِمُ رَنْتَهُ شَيْئًا﴾: أي لم تنقص منه شيئاً).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ لِمُثَرٍّ فَقَالَ لِمُصْحَبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

قرأ أهل الحجاز والعراق: ﴿ثُمَرٌ﴾. وقرأها غيرهم: ﴿ثُمَرٌ﴾، وقرأها آخرون: ﴿ثُمَرٌ﴾. فعلى القراءة الأولى قيل المراد المال. قال مجاهد: ﴿وَكَانَ لَهُ ثُمَرٌ﴾ قال: ذهب وفضة). وقال ابن عباس: (يعني أنواع المال). وقيل بل يدخل في المراد الثمار. قال قتادة: (الثمر من المال كله يعني الثمر، وغيره من المال كله).

وعلى القراءة الثانية: ﴿ثُمَرٌ﴾ جمع ثمرة. والمقصود الثمار.

والقراءة الثالثة: ﴿ثُمَرٌ﴾ بفتح الثاء والميم. وهي قراءة مشهورة. قرأها عاصم وشيبة ويعقوب وأبو جعفر وابن أبي إسحاق. والمقصود بالثمر جمع ثمرة.

قلت: والقراءة الثالثة: ﴿ثُمَرٌ﴾ أحبُّ إلي، وينصرف المعنى إلى الثمار وهو أنسب للسياق، لقوله تعالى بعدها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾.

وعن قتادة: ﴿فَقَالَ لِمُصْحَبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾: وتلك والله أمنية الفاجر: كثرة المال، وعزة النفس).

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾.

قال النسفي: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ إحدى جنتيه، أو سماها جنة لاتحاد الحائط، وجنتين للنهر الجاري بينهما ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ ضار لها بالكفر ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ أي أن تهلك هذه الجنة، شك في بيدودة جنته لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بالمهلة، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق السنة أحوالهم بذلك).

والخلاصة: هذه صورة غفلة المتكبر المتجبر إذا رأى المال والزرع والثمار والأنهار يملك منها، فيحمله اغتراره على المبالغة في الكبر والعجب والكفر بالله ونعمه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾.

هو تتممة طغيان المتكبر الغافل، يحمله غروره وما هو عليه من العجب على الكفر بالمعاد والحساب، وإن آمن به على سبيل الشك فيفترض لنفسه خير المنقلب عند ربه، قياساً على ما هو فيه من الفتنة في الدنيا.

قال قتادة: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كفور لنعم ربه، مكذب بلقائه، متمن على

الله). وقال ابن زيد: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ شك ، ثم قال: ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ذلك ثم ﴿رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجْدَنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ما أعطاني هذه إلا ولي عنده خير من ذلك).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: 50].

2 - وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وِلْدًا﴾ [مريم: 77].

أي: في الدار الآخرة ، فهو يتألى على ربه عز وجل .

وفي المسند بإسناد صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأيت الله تعالى يُعطي العبد من الدنيا ما يحب ، وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك منه استدراج]⁽¹⁾.

37 - 41. قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْكَ سَوْآتِكَ وَنَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَا وِلْدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فُتُصِحَّ صَعِيدُهَا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ .

في هذه الآيات: تحذيرُ الصاحب المؤمن صاحبه المستكبر من مغبة الجحود والكفر ، مذكراً له مراحل خلقه حتى صار رجلاً يتكلم بالقوة والكبر ، ناصحاً له التواضع لله ونسب القوة له تعالى والقهر ، فلربما انتقم الجبار وأحال الجنة إلى أرض قفر ، وأغار الماء في الأرض فلا سبيل لبلوغه ولا حيلة في ذلك ولا أمر .

فقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ - هو قول صاحب ذلك الرجل صاحب الجنتين ، الأقل منه مالاً وولداً ، يخاطبه ويكلمه كيف تكفر بالله خالق أهلك آدم من تراب ، ثم أنشأك من نطفة أهلك في رحم

(1) أخرجه أحمد في المسند (4/ 145) ، وابن جرير في «التفسير» (7/ 115) ، وسنده قوي . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (414) .

أمك ، ثم عدّلك بشراً سوياً ، رجلاً قوياً. قال ابن جرير : (يقول : أكفرت بمن فعل بك هذا أن يعيدك خلقاً جديداً بعد ما تصير رفاتاً).

وقوله تعالى : ﴿لَيْكُنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ .

هو قول ذلك الصاحب المؤمن يعترف لربه تعالى بالربوبية ولا يشرك به في الألوهية ، بل يعبد وحده لا شريك له . قال ابن كثير : (أي : أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية ، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ، أي : بل هو الله المعبود وحده لا شريك له).

وقوله : ﴿وَلَوْلَا إِدْخَلَتْ جَنَّتُكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ .

ردّ من المؤمن على الكافر وتوبيخ ووصية له ، ويُخَمَلُ المعنى في قوله : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ على تأويلين :

التأويل الأول : ﴿مَا﴾ في موضع رفع ، والتقدير : هذه الجنة هي ما شاء الله . قال الزجاج والفراء : (الأمر ما شاء الله ، أو هو ما شاء الله ، أي الأمر مشيئة الله تعالى). وقال النسفي : (ما موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره : الأمر ما شاء الله . . .).

التأويل الثاني : قيل بل الجواب محذوف ، والتقدير : ما شاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون .

قال ابن جرير : (يقول عز ذكره : وهلا إذ دخلت بستانك ، فأعجبك ما رأيت منه ، قلت ما شاء الله كان). وذكر النسفي أيضاً هذا التأويل فقال عن ﴿مَا﴾ في قوله تعالى ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ : (أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف ، يعني : أي شيء شاء الله كان . والمعنى : هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله اعترافاً بأنها وكل ما فيها إنما حصل بمشيئة الله ، وأن أمرها بيده ، إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها).

وتأول الحافظ ابن كثير المعنى أنه حَضُّ على هذا النوع من الذكر عند رؤية النعم من المال والولد فقال : (هذا تحضيض وحثٌّ على ذلك ، أي : هلا إذ أعجبتك جنتك حين دَخَلْتَهَا وَنَظَرْتَ إِلَيْهَا حَمَدْتَ الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد ما لم يُعْطِ غيرك ، وقلت : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه

شيء من حاله أو ولده أو ماله ، فليقل : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ . وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة).

قلت : والسياق في الآيات لا يدل على هذا التأويل ، فإن الآية في موضع الرد من المؤمن على تنطع الكافر وغروره وعجبه ، حيث دخل جنته وهو ظالم لنفسه بكبره وكفره وقوله ما أظن أن تبید هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ، فأجابه المؤمن بأن الأصل في ذلك الإخبات لله الخالق الأحد الصمد ، ونسب كل وجود إلى مشيئته وإرادته سبحانه ، فكان الأولى إذ دخلت جنتك أقررت بأن وجودها وبقائها ما كان إلا بمشيئة الله ، وأن ما اجتمع لك من المال والثمر والبناء والإعمار فهو بتوفيق الله وقوته وتأييده . وأما خشية العين عند النظر إلى بديع المال والجمال فقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى التبريك ، وهو الدعاء بالبركة . وبذلك جاءت الأحاديث الصحيحة :

الحديث الأول : أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدثه : [أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة ، حتى إذا كانوا بشعب الخزار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف ، وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل فقال : ما رأيت كالיום ولا جلد مخبأة⁽¹⁾ ، فلبط سهل ، فأتى رسول الله ﷺ فقبل له : يا رسول الله هل لك في سهل ! والله ما يرفع رأسه ولا يفيق ، قال : هل تتهمون فيه من أحد؟ قالوا : نظر إليه عامر بن ربيعة ، فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغيظ عليه وقال : علام يقتل أحدكم أخاه ، هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت؟ - ثم قال - اغتسل له . فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخله إزاره في قدح ، ثم صب ذلك الماء عليه فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه ، ثم يكفأ القدح وراءه ، ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس⁽²⁾ .

وفي لفظ في الموطأ : [علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا بركت إن العين حق . توضأ له ، فتوضأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس] .

(1) المخبأة : العروس العذراء التي لا تظهر على الناس ، وفي لفظ عند مالك في الموطأ : «ما رأيت كالיום ولا جلد عذراء» .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند ، ومالك في الموطأ ، انظر تخريج المشكاة (4562) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3908) ، وتفصيل هذا البحث في كتابي : منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن (335) .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني والحاكم بسند صحيح عن عامر بن ربيعة ، عن النبي ﷺ قال: [إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة ، فإن العين حق]⁽¹⁾. وفي رواية أنه قال لعامر بن ربيعة: [ألا بركت؟].

وفي لفظ لأحمد: [إذا رأى أحدكم ما يعجبه في نفسه أو ماله فليترك عليه ، فإن العين حق]. وفي لفظ آخر: [إذا رأى أحدكم من أخيه أو من نفسه أو من ماله ما يعجبه فليترك فإن العين حق].

وأما قوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. أي: ما اجتمع هذا المال والخير إلا بقوة الله وقدرته.

قال القرطبي: (أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدره الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك ، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع). وقال النسفي: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونته وتأيدته).

وفي كنوز السنة الصحيحة من آفاق هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه: [قال له رسول الله ﷺ: يا عبد الله بن قيس ، ألا أعلمك كلمة هي من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله]⁽²⁾.

الحديث الثاني: أخرج أحمد والحاكم بسند حسن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال له: [ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة؟ تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله: أسلم عبدي واستسلم]⁽³⁾.

الحديث الثالث: أخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن قيس بن عباد: [أن أباه دفعه إلى النبي ﷺ يخدمه ، قال: فمرّ بي النبي ﷺ وقد صليت ، فضربني برجله وقال:

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني والحاكم بإسناد صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (570) ، وتخريج الكلم الطيب (243) ، والمرجع السابق.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6610) ، ومسلم (2704) ، وأبو داود (1526) ، والترمذي (3461) ، وابن ماجه (3824) ، وأحمد (418/4) ، وابن حبان (804).

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (469/2) (535/2) من حديث أبي هريرة ، ورواه الحاكم ، وذكره الهيثمي في المجمع (99/10).

ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله⁽¹⁾.

الحديث الرابع: أخرج أبو داود والترمذي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [من قال - يعني إذا خرج من بيته - باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، يُقال : كُفِّيت وَوُكِّيتَ وتنحى عنه الشيطان]⁽²⁾.

وقوله: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴿٣٧﴾.

هو قول المؤمن للكافر: إن ترن أيها الرجل أقل منك مالاً وولداً. فعسى ربي أن يرزقني خيراً من بستانك هذا ، وما ذلك على الله بعزيز. قال النسفي: (في الدنيا أو في العقبى).

وقوله: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. قال قتادة: (عذاباً). وعن ابن عباس ، قال: (الحسبان: العذاب). قال ابن كثير: (والظاهر أنه مطرٌ عظيم مزعج ، يقلع زرعها وأشجارها).

وقوله: ﴿فَنُصِصَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾. قال ابن عباس: (مثل الجُرْز). وقال ابن زيد: (صعيداً زلقاً وصعيداً جُرْزاً واحد ليس فيها شيء من النبات). وقال قتادة: (أي قد حُصِدَ ما فيها فلم يترك فيها شيء).

والمقصود: يحولها الحسبان من السماء إلى أرض ملساء بلاقع ، فتعود خراباً ﴿زَلَقًا﴾ أي لا يثبت في أرضها قدم لا ملئسائها ودروس ما كان نابتاً فيها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لِمُطَلِّبًا﴾. الغور مصدر بمعنى غائر. أي: أو يصبح مأوها غائراً في طبقات الأرض لا وسيلة لإخراجه والاستفادة منه. قال قتادة: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾: أي ذاهباً قد غار في الأرض. وقوله: ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لِمُطَلِّبًا﴾ يقول: فلن تطيق أن تدرك الماء الذي كان في جنتك بعد غوره ، بطلبك إياه).

والغائر ضد النابع ، فالنابع يندفع إلى وجه الأرض ويراه الناس ، وأما الغائر فيطلب أسفل الأرض ويغيب. وفي التنزيل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوَاهُ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ، أي: جار وسائح.

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (284/4) ، والحاكم (290/4) ، وأحمد (422/3) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1746).

(2) حسن لشواهده. أخرجه الترمذي (3426) ، وأبو داود (5095) ، والنسائي في الكبرى (9917) ، وأخرجه ابن حبان (822) من حديث أنس ، وله شواهد كثيرة.

42 - 44. قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ۚ﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۚ .

في هذه الآيات: إهلاك الله أرض المستكبر وإرسال الجوائح على المال والشر ، فإذا بالرجل يقلب كفيه ويندم على الشرك والكفر ، ولكن بعد ضياع الفرصة والوقوع في العجز حيث لا نصير من أهل ولا نفر .

فقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ أي: أحاط الهلاك والجوائح بأمواله وثماره ، ووقع ما كان يحذر ، وصدق حدس المؤمن فيه ، من حلول الدمار ونزول المصيبة به ، وبما ألهاه عن طاعة الله عز وجل .

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ . أي: يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً وحسرة .

قال قتادة: (أي يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها) .

وقوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ . قال ابن جرير: (يقول: وهي خالية على نباتها وبيوتها) .

وقوله: ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ . قال قتادة: (يقول: يتمنى هذا الكافر بعدما أصيب بجنته أنه لم يكن كان أشرك بربه أحداً ، يعني بذلك: هذا الكافر إذا هلك وزالت عنه دنياه وانفرد بعمله ، ودَّ أنه لم يكن كفر بالله ولا أشرك به شيئاً) .
وقوله: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .

قال مجاهد: (عشيرته) . وقال قتادة: (أي جند ينصرونه . يقول: يمنعونه من عقاب الله وعذاب الله إذا عاقبه وعذبه) .

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ أي: ممتنعاً . أي لم يكن ممتنعاً من نزول العذاب به . وقيل: لم يكن مسترداً بدل ما ذهب منه .

وقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ - فيه أكثر من تأويل حسب القراءة .

قرأ قراء الكوفة: ﴿الْوَلَايَةِ﴾ - أي: هنالك الحكمُ لله الحق. فالْوَلَايَةِ بكسر الواو: من الملك والسلطان. واختار ابن جرير هذه القراءة.

وقرأ قراء من المدينة والبصرة وبعض الكوفيين ﴿الْوَلَايَةِ﴾ بفتح الواو ، أي: هنالك المُوَالَاةُ لله. قال ابن كثير: (أي: هنالك كلُّ أحد من مؤمن أو كافر ، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب).

وأما لفظ ﴿الْحَقِّ﴾ فمن رفعه كان صفة للولاية ، ومن كسر القاف كان نعتاً لله عز وجل ، ومثال الرفع قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَ يَمِيزُ الْخَقَّ لِلرَّحَنِ﴾ [الفرقان: 26]. ومثال الكسر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقَّ﴾ [الأنعام: 62].

وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول عز ذكره: خير للمنيبين في العاجل والآجل ثواباً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ، يقول: وخيرهم عاقبة في الآجل إذا صار إليه المطيع له ، العامل بما أمره الله ، والمتتهي عما نهاه الله عنه ، والعقب هو العاقبة).

وهناك قراءتان لقوله تعالى: ﴿عُقْبًا﴾ بضم العين والقاف ، أو ضم العين وتسكين القاف ، وهما مشهورتان في قراء الأمصار ولهما المعنى نفسه .

45 - 46. قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِّلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَاۤ أَنزَلْنَاهُ مِنۡ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا ۝٤٥ أَمْآلٌ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰئِقَاتُ الصَّٰلِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْآلًا ۝٤٦﴾.

في هذه الآيات: تمثيل الله تعالى هذه الحياة بماء نزل من السماء فاختلف بالحب في الأرض فخرج النبات والزرع ثم يبس وكسرتة الرياح والله على كل شيء قدير. وتقريره تعالى أن المال والبنين زينة هذه الحياة الدنيا وأن الباقيات من الأعمال الصالحات هي الخير المستمر نفعه ، المضمون ثوابه .

فقلوه: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ الآية.

أي: صف يا محمد لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مثل الحياة الدنيا ليفهموها على صورتها الحقيقية: إنها كالماء النازل من السماء اختلط به نبات الأرض من الحب الذي هو مدفون في التراب حتى استوى النبات فالتفت وتكاثر ، وخالط بعضه بعضاً .

قال القاسمي: (فَشَبَّ وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة) ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: بعد ذلك الزهو ﴿هَشِيمًا﴾ أي: جافاً يابساً مكسوراً ﴿تَذُرُّهُ الرِّيحُ﴾ أي: تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن ، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذي حصل للنبات من شرف النمو ، ثم يزولون زوال النبات).

قلت: والتشبيه لتقلب أحوال الدنيا على الناس بالماء وحركته تشبيه بليغ ، فإن الماء لا يستقيم على حالة واحدة وكذلك الدنيا ، فالماء لا يبقى ويذهب وكذلك تفنى هذه الدنيا ، والماء إذا جاوز مقداره حداً معيناً أصبح مهلكاً ، وكذلك الدنيا إذا أسرف الإنسان في تحصيلها وجمع حطامها انقلبت عليه .

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلَتْ أََمْْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فُجِعَلَتْهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24].

2 - وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

3 - وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 21].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: [قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال: [إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن سهل بن سعد ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة . فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها . فقال: [أترؤن هذه هيئة على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده! للدنيا أهون على الله ، من هذه على صاحبها. ولو كانت الدنيا ترزق عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافراً منها قطرة أبداً]⁽³⁾.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا﴾. قال القرطبي: (من الإنشاء والإفناء والإحياء ، سبحانه!).

وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ردُّ على عُيينة بن حِصْن والأقرع بن حابس وأمثالهما لما افتخرا على سلمان وصهيب وخباب وتكبرا على مجالستهم . ومن ثمَّ فهي عامة في شأن كل المستكبرين في الأرض المفتخرين بما فتنهم الله به من المال والولد . قال النسفي: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا زاد القبر وعدة العقبى).

قلت: وفي المال جمال ونفع ، وفي البنين قوة ودفع ، فإن استفاد العبد من ذلك في طاعة الله كان ذلك زينة له في الدنيا وثواباً في الآخرة . ولكن أغلب الناس يُفْتَنُونَ بِالمال والولد في دنياهم ولا يقيمون بهما ما يصلحون أخراهم . ولذلك قال تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1054) - كتاب الزكاة . باب في الكفاف والقناعة . وأخرجه أحمد (173/2) ، والترمذي (2348) ، وابن ماجة (4138) ، وابن حبان (670) ، والبيهقي (4/296).

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2742) - كتاب الذكر والدعاء ، أو كتاب الرقاق . باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء .

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (4110) - كتاب الزهد . باب مثل الدنيا . وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (3318).

وفي هذه الآية أكثر من تأويل :

1 - قال ابن عباس : (الباقيات الصالحات : الصلوات الخمس).

2 - وقال سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس : (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر).

وكذلك رواه ابن جرير عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه .

3 - وقيل : الباقيات الصالحات النيات والهمات ، لأن بها تقبل الأعمال وترفع . قاله الحسن .

4 - وقيل : الباقيات الصالحات : الأعمال الصالحة ، والكلم الطيب ، والولد الصالح .

قلت : وأكثر ما ذكر يدخل في مفهوم الباقيات الصالحات . وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ [آل عمران : 14] .

2 - وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : 15] .

وفي صحيح السنة المطهرة ما يدل أن «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» هي عنوان الباقيات الصالحات :

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند جيد من حديث الحارث مولى عثمان رضي الله عنه قال : [جلس عثمان يوماً وجلسنا معه ، فجاءه المؤذن ، فدعا بماء في إناء ، أظنه أنه سيكون فيه مُدٌّ ، فتوضأ ثم قال : رأيتُ رسول الله ﷺ يتوضأ وتوضئي هذا ، ثم قال : مَنْ توضأ وتوضئي هذا ، ثم قام فصلى صلاة الظهر ، غفر له ما كان بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين العصر ، ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين المغرب ، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات . قالوا : هذه الحسنات ، فما الباقيات الصالحات

يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج النسائي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [اخذوا جُنتَكُمْ مِنَ النار ، قولوا: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يومَ القيامة مُقَدَّمَاتٍ ، وَمُعَقَّبَاتٍ ، وَمُجَنَّبَاتٍ ، وهنَّ الباقيات الصالحات]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن سمرة بن جندب ، عن النبي ﷺ قال: [أزيع ، أفضل الكلام. لا يضرُّكَ بأيُّهنَّ بدأت: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر]⁽³⁾.

وأما ما ورد في بقية الأعمال الصالحة مما يستمر أجره:

الحديث الرابع: أخرج أحمد والطبراني بسند حسن عن أبي أمامة مرفوعاً: [أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت: مَنْ ماتَ مرابطاً في سبيل الله ، وَمَنْ علَّمَ علماً أُجْرِي لَهُ عمله ما عمل به ، وَمَنْ تصدَّق بصدقة فأجرها يجرى له ما وجدت ، ورجل ترك ولدًا صالحاً فهو يدعو له]⁽⁴⁾.

وله شاهد عن ابن ماجه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [إنَّ مما يلحقُ المؤمنَ من عمله وحسناته بعد موته: علماً نشره ، وولدًا صالحاً تركه ، ومُصحفاً ورَّثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجره ، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته ، تلحقه من بعد موته].

الحديث الخامس: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن

(1) رجاله ثقات. أخرجه أحمد في المسند (71/1) من حديث الحارث مولى عثمان ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (297/1) وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي والحاكم عن أبي هريرة. انظر صحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (3209) ، وتخريج الترغيب (248/2).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه في السنن - حديث رقم - (3811) - في فضل التسبيح ، وانظر صحيح سنن ابن ماجه (3073) ، وأصله في صحيح الإمام مسلم.

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة مرفوعاً. انظر تخريج الترغيب (71/1) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (890). وانظر للشاهد كذلك صحيح الجامع (2227) ، والإرواء (1079) ، وأحكام الجنائز (176) - الألباني.

رسول الله ﷺ قال: [إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له] (1).

قال القرطبي: ﴿حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي أفضل ﴿وَحَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي أفضل أملاً من ذي المال والبنين دون عمل صالح، وليس في زينة الدنيا خير).

47 - 49. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧) وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لِّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلْنَا مَالٌ هَذَا أَلَكُنْتُمْ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩).

في هذه الآيات: نَعَتْ الله الأحوال قرب القيامة: من تسير الجبال، وبروز الأرض، ثم موقف الحشر، ثم العرض في صفوف، ثم توزيع الصحف، وما يعقب ذلك من الخزي على المجرمين، والتحسر والتندم على الخوض في سبيل الكافرين، ولا يظلم الله أحداً من العالمين.

فقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ﴾ عن الأرض، فنبشها بساً، ونجعلها هباء منبثاً) ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة، وظهورها لرأي أعين الناظرين من غير شيء يسترها من جبل ولا شجر هو بروزها). وعن مجاهد: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال: لا خمر فيها ولا غيابة ولا بناء، ولا حجر فيها). وقال قتادة: (ليس عليها بناء ولا شجر).

وتسير الجبال عن أماكنها هو من الأمور العظام وعظيم أهوال يوم القيامة.

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَمُورُ السَّمَاءَ مَوَرًا﴾ (١) وَنُسِيرُ الْجِبَالَ سِيرًا﴾ [الطور: 9 - 10].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - حديث رقم - (1631) - كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

2- وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: 88].

3- وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٩﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١٠﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 105 - 107]. قال ابن كثير: (يقول تعالى: إنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: سطحاً مستوياً لا عِوَجَ فيه، ﴿وَلَا أَمْتًا﴾، أي: لا وادي ولا جبل. ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي: بادية ظاهرة، ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يوارى أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، لا تخفى عليه منهم خافية).

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. أي: جمعناهم لموقف الحساب فلم نترك أحداً منهم تحت الأرض صغيراً ولا كبيراً، ذكراً ولا أنثى.

وفي التنزيل:

1- قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَصَّكُمْ وَعَدَّاهُمْ عَذَابًا ﴿١١١﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرْدًا﴾ [مريم: 94 - 95].

2- وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَسْهُودٍ﴾ [هود: 103].

3- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١٢﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 49 - 50].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يحشر الناس يوم القيامة خُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا. قلت: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: يا عائشة: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض⁽¹⁾].

وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾. قال النسفي: (مصطفين ظاهرين ترى جماعتهم كما ترى كل واحد لا يحجب أحد أحداً، شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان).

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ - تقريع بالمشركين المنكرين لهذا المشهد على رؤوس الأشهاد، وتوبيخ لكل من كفر بالمعاد.

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1950)، وقوله: «غُرْلًا» - أي: دون ختان كما خلقهم الله، ورواه البخاري.

وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ نَجْمَكَ لَكَ مَوْعِدًا﴾.

ظاهر الخطاب لعموم الناس ، وإنما المراد به الخصوص ، وهم المنكرون للبعث وقيام الساعة .

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا ، وَمَالًا وَوَلَدًا ، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ ، وَتَرَكْتُكَ تَرَأْسُ وَتَرْبُوعٌ ، فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ يَوْمَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا . فَيَقُولُ لَهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي⁽¹⁾].

قال أبو عيسى: ومعنى قوله: «اليوم أنساك كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب .

وقوله: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ .

أي: يضع الله تعالى كتاب أعمال عباده في أيديهم ، فمن أخذ كتابه بيمينه ، ومن أخذه بشماله ، وحينئذ ترى المجرمين المشركين خائفين مما تضمنته كتبهم من جرائم أعمالهم التي عملوها في الدنيا .

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ هَذَا إِلَّا كَيْفَ إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ .

قال السدي: (الصغيرة ما دون الشرك ، والكبيرة الشرك) . وقال سعيد بن جبير: (إنَّ الصغائر اللَّحْمُ كالمسيس والقُبُل ، والكبيرة المواقعة والزُّنَى) .

والمعنى: يتحسر المجرمون يوم الحساب عند استلام كتب أعمالهم ، وقد اشتملت على الجليل والحقير ، والفetil والقطيمير ، والصغير والكبير ، أحصاها الله عليهم فضبطها وحفظها وضمَّنها كتبهم .

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ .

قال القرطبي: (أي وجدوا إحصاء ما عملوا حاضراً . وقيل: وجدوا جزاء ما عملوا حاضراً) .

وفي التنزيل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ قَدْ لَوَّانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30] .

(1) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (2558) - أبواب صفة القيامة . انظر صحيح سنن الترمذي (1978) ، ورواه مسلم بنحوه في أثناء حديث طويل .

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولا يجازي ربك أحداً يا محمد بغير ما هو أهله ، لا يجازي بالإحسان إلا أهل الإحسان ، ولا بالسيئة إلا أهل السيئة ، وذلك هو العدل).

وعن الضحاك: (أي لا يأخذ أحداً بجرم أحد ، ولا يأخذه بما لم يعمله). وقيل: (لا ينقص طائعاً من ثوابه ، ولا يزيد عاصياً في عقابه).

وفي التنزيل:

1 - قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40].

2 - وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

3 - وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجه والحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل تُنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب ، فيقول: أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب ، ثم يقول: ألك عذر ، ألك حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا ، فيقول: بلى ، إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتُخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة⁽¹⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه في السنن - حديث رقم - (4300) - كتاب الزهد. باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة. وانظر صحيح سنن ابن ماجه (3469) ، وصحيح الجامع الصغير - حديث رقم - (7951). ورواه الحاكم وغيره.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند جيد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، أنه سَمِعَ جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديثٌ عن رَجُلٍ سَمِعَهُ من رسول الله ﷺ ، فاشترت بغيراً ثم شَدَدْتُ عليه رحلي ، فَسَزْتُ عليه شهراً ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبدُ الله بن أنيس . فقلت للبواب: قل له: جابرٌ على الباب . فقال: ابنُ عبد الله؟ قلت: نعم . فخرج يَطَأُ ثوبه ، فاعتنقني واعتنقته ، فقلت: حديثٌ بلغني عنك أنك سَمِعْتَهُ من رسول الله ﷺ في القصاص ، فَخَشِيتُ أن تموتَ أو أموتَ قبل أن أسمعَهُ . فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: [يَحْشُرُ الله - عزَّ وجل - الناسَ يومَ القيامة ، أو قال: العبادَ ، عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا - قلتُ: وما بُهْمًا؟ قال: ليس معهم شيء - ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد ، كما يسمعه من قَرَبٍ: أنا الملك ، أنا الدَّيَّان ، لا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخلَ النارَ وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌ ، حتى أُقْصَهُ منه ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخلَ الجنة ، وله عند أحدٍ من أهل النار حقٌ حتى أُقْصَهُ منه حتى اللطمةُ . قال: قلنا: كيف ، وإنما تأتي الله عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قال: بالחסنات والسيئات] (1) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي ذر ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: [قال الله تعالى: يا عبادي إني حرَّمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا] الحديث (2) .

50 - 53 . قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝﴾ ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝﴾ .

في هذه الآيات: أمرُ الله تعالى الملائكة السجود لآدم ، فسجدوا إلا إبليس - وهو

(1) أخرجه أحمد في المسند (3/ 495) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (10/ 345): ورجاله وثقوا .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (8/ 17) ، وأخرجه أحمد في المسند (5/ 160) .

من الجن - اعترته الحمية ، واستكبر عن أمر ربه ، فحذر سبحانه من عداوته . وتوبيخ للمشركين في اتخاذهم الشياطين أولياء وهم خلق من خلق أمثالهم ، وتقريع لهم يوم الحشر حين يدعون لمناداة الشركاء الذين أشركوا فيهم بالله لينصرونهم وينقذونهم من الخزي والهلاك الذين هم مقبلون عليه ، فإذا بينهم وبين آلهتهم المزعومة مهلك وهول عظيم وأمر كبير ، وكلاهما في نار السعير .

فقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. أي: سجود تكريم ، والخطاب لجميع الملائكة .

قال النسفي: (سجود تحية أو سجود انقياد). وقد كان هذا السجود فيما احتج به موسى على آدم عليهما السلام .

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما. فحج آدم موسى. قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض. قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته ، وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقرَّبَكَ نَجِيًّا ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عَمِلْتُ عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة. قال رسول الله ﷺ: فَحَجَّ آدم موسى⁽¹⁾ .

وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ .

أي: فسجد الملائكة ممثلين أمر ربهم ، إلا إبليس - وهو من الجن ، كان يعيش مع الملائكة فجاء اللفظ للتغليب - فقد أبى أن يسجد لآدم عداوة وحسداً ، وغروراً وكبراً ، وتعزز بخلقة النار ، واستوهن خلق الصلصال .

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [خُلِقَتْ الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم]⁽²⁾ .

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ . أي: خرج عن طاعته . والفسق في كلام العرب:

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (50/8) . وانظر مختصر صحيح مسلم (1842) - كتاب

القدر . باب: في إثبات القدر ، وتحتاج آدم وموسى عليهما السلام .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2996) - كتاب الزهد . وفي لفظ: «وخلق الجان من مارج من نار» .

الخروج ، يقال : فسقت الرُّطبة : إذا خرجت من أكمامها . «فسقت الفأرة من جُحرها» إذا خرجت منه للعيث والفساد .

وقوله : ﴿ أَفَلَتَّخَذُوا دُورِيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَنْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ .

قال القاسمي : (أي فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي ، وهم لكم عدوٌّ يبغيون بكم الغوائل ويوردونكم المهالك؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن أثر أتباعه وإطاعته . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَنْسُ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي الواضعين الشيء في غير موضعه ﴿ بَدَلًا ﴾ بنس البدل من الله إبليس ، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته).

قلت : وعداوة إبليس لذرية آدم عميقة وكبيرة ، حتى إنه يبعث كل يوم سراياه ليخربوا بيوت بني آدم بكفر أو قتل أو طلاق أو نشر للرذيلة والفواحش وغير ذلك .

ففي صحيح مسلم عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : [إنَّ إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول ما صنعت شيئا ، ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، فيدنيه منه ويقول : نِعْمَ أَنْتَ] (1) .

وله شاهد عند ابن حبان من حديث أبي موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ قال : [إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده ، فيقول : من أضلَّ اليوم مسلماً ألبسته التاج ، فيخرجُ هذا فيقول : لم أزل به حتى طلق امرأته فيقول : أوشك أن يتزوج . ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى علق والديه فيقول : يوشك أن يبرَّهما . ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك ، فيقول أنت أنت ، ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى قتل ، فيقول : أنت أنت ويلبسه التاج] (2) .

وقوله : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ .

توبيخ للمشركين في اتخاذهم الشياطين أولياء وهم خلق من خلق أمثالهم ، وردُّ على المتعالمين الذين يريدون أن يجزموا بنظرياتهم العلمية المتأرجحة فيقرِّروا حقائق في الخلق لا يعلمها إلا الله . قال ابن كثير : (يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيدٌ أمثالكم ، لا يملكون شيئا ، ولا أشهدتهم خلقي للسموات

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2813) ، وأخرجه أحمد في المسند (314/3) من حديث جابر .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان (65) ، ورجاله ثقات رجال البخاري . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1280) .

والأرض ، ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ، ومُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا وَخَدِي ، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ، ولا مشير ولا نظير ، كما قال : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ الآية [سبأ : 22] .

وقوله : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتَّخِذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ . قال قتادة : (أي : أعواناً) .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ . تقرير وتوبيخ آخر للمشركين . أي : ادعوا اليوم الذين كنتم تزعمون في دار الدنيا أنهم شركائي في العبادة لينصروكم وينقذوكم مما أنتم مقبلون عليه من الخزي والهلاك .

وقوله : ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ . أي : فاستغاثوا فلم يغيثوهم .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ . قال ابن عباس : (مهلكاً) . وقال ابن زيد : (الموبق : المهلك ، الذي أهلك بعضهم بعضاً فيه) . وقال مجاهد : (واديّاً في النار) .

قال القاسمي : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الكفار وألّهمهم ﴿ مَوْبِقًا ﴾ أي مهلكاً يشتركون فيه ، وهو النار . أو عداوة في الشدة نفس الهلاك .

وخلاصة المعنى : أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين إلى نصرة يوم القيامة ، بل بينهم وبين ألّهمهم المزعومة مهلك وهولٌ عظيم وأمر كبير ، وكلاهما في نار السعير .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص : 64] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِصْمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 5 - 6] .

3 - وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : 94] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه] ⁽¹⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2985) - كتاب الزهد - باب : تحريم الرياء . ورواه ابن ماجه وغيره .

وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾. قال قتادة: (علموا).

أي: لما رأى المجرمون النار يوم القيامة علموا أنهم داخلوها ، وأيقنوا لا محالة أنهم مستقرون فيها ، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: ولم يجدوا عن النار التي رأوا معدلاً يعدلون عنها إليه ، يقول: لم يجدوا من مواقعتها بدءاً ، لأن الله قد حتم عليهم ذلك).

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند حسن في الشواهد ، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [يُنْصَبُ الْكَافِرُ مَقْدَارَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ كَمَا لَمْ يَعْمَلْ فِي الدُّنْيَا. وَإِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ ، وَيَظُنُّ أَنَّهَا مَوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً]⁽¹⁾.

وله شاهد عن ابن جرير في التفسير قال: حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن دَرَّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها موقعة من مسيرة أربعين سنة]⁽²⁾.

54 - 56. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شِقْوَةً جَدَلًا﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجْعَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا إِلَهًا مِثْلَ مَا تُنذِرُوا هُزُوا ﴿٥٦﴾.

في هذه الآيات: تصريفُ الله الأمثال في هذا القرآن ، وتكذيب الناس الرسل بطرق

(1) أخرجه أحمد (75/3) ، وأبو يعلى (1385) ، والحاكم (597/4) ، وحسنه الهيثمي (336/10) في «المجمع» ، مع أنه من رواية دراج عن أبي الهيثم ، وفيها ضعف ، لكن ورد من طريق آخر عن دراج عن ابن حجية ، وهو ثقة ، عن أبي هريرة مرفوعاً ، أخرجه ابن حبان (7352) ، ودراج حسن الحديث في روايته عن غير أبي الهيثم. وقد حسن إسناده الشيخ شعيب ، وانظر تفسير ابن كثير (4405) - تحقيق المهدي.

(2) أخرجه الطبري في «التفسير» (23154) بهذا الإسناد ، وانظر الحديث السابق.

متوارثة عبر الزمان ، قوامها العناد والجدل وسؤال المعجزات والاستهزاء بالرسل الكرام .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ . أي : ولقد وضعنا في هذا القرآن للناس وفصلنا أسباب النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل ، يحب التقليل من التكاليف الشرعية التي هي سرّ سعادته وسرّ منزلته عند ربه ، ولا ينجو من ذلك إلا من نور الله قلبه وهدى بصيرته . قال ابن زيد : (الجدل : الخصومة ، خصومة القوم لأنبيائهم ، وردّهم عليهم ما جاؤوا به) . قلت : بل وكثير من المسلمين اليوم واقعون في مرض الجدل بدل الإخبات للحق .

وفي الصحيحين والمسند عن عليّ بن حسين ، أن حسين بن عليّ أخبره : أن عليّ بن أبي طالب أخبره : [أن رسول الله ﷺ طرّقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلة فقال : ألا تُصليان؟ فقلت : يا رسول الله ، أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً ، ثم سمعته وهو مؤلّ يضرب فخذه وهو يقول : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾] ⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أُولَئِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ . قال مجاهد : (فجأة) . وقال ابن زيد : (قبلاً معانية ذلك القبل) - وهو أرجح . قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه ، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر ، مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات ، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً ، كما قال أولئك لنبیهم : ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ [الشعراء : 187] ، وآخرون قالوا : ﴿ أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ [العنكبوت : 29] . وقالت قريش : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ إِلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] ، ﴿ وَقَالُوا يَكْفُ إِلَٰهِي الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۖ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ [الحجر : 6 - 7] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . ثم قال عز وجل : ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1127) ، كتاب التهجد ، وكذلك (4724) ، وأخرجه مسلم (775) ، والنسائي في «التفسير» (325) ، وأخرجه أحمد (91/1) ، وابن حبان (2568) .

الْأَوَّلِينَ ﴿٥٧﴾ ، مِنْ غَشِيَانِهِم بِالْعَذَابِ ، وَأَخَذِهِم عَنْ آخِرِهِمْ ، ﴿٥٨﴾ أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فُبُلًّا ﴿٥٩﴾ : يَرُونَهُ عَيْنَانَا مُوَاجِهَةً وَمُقَابِلَةً .

وقوله تعالى : ﴿٥٧﴾ وَمَا تَرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴿٥٩﴾ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٦٠﴾ .

قال القاسمي : (أي وما نرسلهم ، قبل إنزال العذاب ، إلا لتبشير من آمن بالزلفى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتیه سنة من مضى ﴿٥٨﴾ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ﴿٥٩﴾ كاقتراح الآيات ﴿٥٧﴾ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴿٥٨﴾ أي ليزيلوا بالجدال ، الحق الثابت عن مقره . وليس ذلك بحاصل لهم . قال : ﴿٥٩﴾ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٦٠﴾ أي وإنذارهم . أو والذي أنذروا به من العقاب ﴿٥٧﴾ أي استهزاء وسخرية وهو أشد التكذيب . وصف بالمصدر مبالغة) .

وأصل الإدحاض في كلام العرب إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها . قال الرازي : (دَحَضْتُ رِجْلَهُ : زَلَقْتُ) . فاستعير ذلك المفهوم من زلل القدم إلى زلل العقل والمنهج والتفكير .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد مرفوعاً : [ثم يُضْرَبُ الجسر على جهنم وتحل الشفاعة . قيل يا رسول الله ! وما الجسر؟ قال : دَخَضُ مَزَلَّةٌ] (1) .

59 - 57 . قوله تعالى : ﴿٥٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿٥٨﴾ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٩﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٦٠﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ .

في هذه الآيات : التحذير من التغافل عن آيات الله وحججه وقوارعه وما يعقب ذلك من الختم والطبع على القلوب وإقفال الآذان عن سماع الحق ، وأنه تعالى برحمته لا يعاجل بالعذاب بل يحلم ويستر والموعود للحساب يوم القيامة . وإن من سننه تعالى

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (183) - كتاب الإيمان - في أثناء حديث الشفاعة ، وفي رواية : «دَخَضُ مَزَلَّةٌ» أي تزلُّق فيه القدم . انظر صحيح البخاري (4581) ، ومسند أحمد (56/3) .

إهلاك القرى الظالم أهلها في وقت مكتوب وأجل مسمى .

فقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ ﴾ . أي : لا أحد أشد ظلماً ممن تغافل عن آيات الله وسننه وحججه ولم يلق لها بالاً . قال قتادة : ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ ﴾ : أي نسي ما سلف من الذنوب . وقال ابن جرير : (يقول : ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب ، ولم ينب) .

وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ . أي : لقد جعلنا على قلوب هؤلاء المعاندين للحق أغطية وفي آذانهم ثقلاً عن استماع هذا الوحي وفهمه . قال القرطبي : (بسبب كفرهم ، أي نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ .

قال النسفي : ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَى الْهُدَى ﴾ إلى الإيمان ﴿ فَلَنْ يَهْتَدُوا ﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة ﴿ إِذًا أَبَدًا ﴾ مدة التكليف كلها .

وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الآية .

أي : وربك - يا محمد - غفور ذو رحمة واسعة ، لو أخذ هؤلاء المسرفين المستكبرين المعرضين عن الحق وعاجلهم بنقمتهم وعقابه لما ترك لهم من أثر ، ولكنه يحلم على عباده ويستتر ويغفر . قال ابن كثير : (وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد ، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴾ أي : ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل) . وعن ابن عباس : ﴿ ﴿ مَوْيلاً ﴾ يقول : ملجأ) . وقال مجاهد : (محرراً) . وقال قتادة : (أي لن يجدوا من دونه ولياً ولا ملجأ) . وعن ابن زيد : (ليس من دونه ملجأ يلجؤون إليه) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ وَلَا يَكُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبْكَ اللَّهُ كَانَ يِعْبَادُهُ بَصِيرًا ﴾ [فاطر : 45] .

2 - وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَنْخِروكَ سَاعَةٌ وَلَا يَسْتَفِيدُونَ ﴾ [النحل : 61] .

3 - وقال تعالى: ﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [ليس أحد - أو ليس شيء - أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له ولداً ، وإنه ليعافيههم ويرزقهم] (1).

الحديث الثاني: أخرج الشيخان وبعض أهل السنن عن أبي بريدة ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]] (2).

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾.

قال القاسمي: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ أي قرى عاد وثمود وأضرابهم ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بالكفر والطغيان ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أي وقتاً معيناً لا محيد لهم عنه).

قلت: والخطاب وإن كان لقريش وهي تكذب أشرف رسول وأعظم نبي ، إلا أنه ينسحب إلى جميع الأمم التي تحيد عن الحق وتتكبر عليه ، فإن الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة.

60 - 65. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا آتِبْرَحُ حَقَّ أَتْبَلُغَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِ حُقْبًا﴾ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءٌ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (6099) - كتاب الأدب - باب الصبر في الأذى. وكذلك أخرجه برقم (7378) - كتاب التوحيد -.

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4686) - كتاب التفسير - سورة هود ، آية (102). ورواه مسلم .

الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾

في هذه الآيات: ذُكِرَ قصة لقاء موسى عليه الصلاة والسلام بالخضر، وما كان من ترتيب لذلك اللقاء بإذن الله، وإنما دفع موسى لهذا اللقاء حرصه على جمع خصال الخير والسبق إلى المعالي، وطلب العلم، والله هو العليم الحكيم.

أخرج الحاكم بسند صحيح على شرط مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني أبي بن كعب، أن النبي ﷺ قال: [لما لقي موسى الخضر عليهما السلام، جاء طَيْرٌ، فألقى مِنقارَهُ في الماء، فقال الخضر لموسى: تَدْرِي ما يقولُ هذا الطَيْرُ؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما عِلْمُكَ وعِلْمُ موسى في علم الله إلا كما أخذ منقاري من الماء] (1).

فقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾.

قال ابن زيد: (لا أبرح: لا أنتهي). وقال قتادة: (والبحران: بحر فارس وبحر الروم. وبحر الروم مما يلي المغرب، وبحر فارس مما يلي المشرق). وقال محمد بن كعب القرظي: (مجمع البحرين عند طنجة). أي في أقصى بلاد المغرب، والله تعالى أعلم.

وإنما مفهوم الآية: أن موسى عليه السلام قال لفتاه - يوشع بن نون -: لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، فقد ذُكِرَ لموسى أن فيه عبداً عنده من العلم ما ليس عند موسى.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾. قال ابن عباس: (دهراً). وقال قتادة: (الحقب: زمان). وقال ابن زيد: (الحقب: الزمان). وقيل: الحقب سبعون سنة أو ثمانون سنة. والمقصود: أي لا أزال أسير حتى أبلغ ذلك المكان، ولو أني أسير حقباً من الزمان. قال القاسمي: (أي لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين. أي المكان الذي فيه ملتقى البحرين. فأجد فيه الخضر. أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجده ثمة، فأتيقن فوات المطلب).

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (369/2) بإسناد على شرط مسلم. وانظر: «الصحيحة» (2467).

قلت: وإنما دفع موسى عليه السلام إلى تلك الرحلة الشاقة حرصه على جمع خصال الخير وسبقه إلى المعالي بين أهل زمانه.

فقد أخرج ابن حبان في صحيحه بإسناد حسن عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال: [سأل موسى ربه عن ست خصال ، كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها:

1 - قال يا رب! أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى .

2 - قال: فأئتي عبادك أهدي؟ قال: الذي يتبع الهدى .

3 - قال: فأئتي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه .

4 - قال: فأئتي عبادك أعلم؟ قال: الذي لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه .

5 - قال: فأئتي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قَدَرَ غَفَرَ .

6 - قال: فأئتي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما يؤتى .

7 - قال: فأئتي عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص (1) .

قال رسول الله ﷺ: ليس الغنى عن ظَهْر ، إنما الغنى غنى النفس ، وإذا أراد الله بعبد خيراً ، جعل غناه في نفسه ، وثقاه في قلبه ، وإذا أراد الله بعبد شراً جعل فقره بين عينيه (2) .

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ .

أي: فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين أضلا حوتهما الذي سلك في البحر مسلكاً. قال مجاهد: (يعني بالسرب: المسلك والمذهب ، يسرب فيه: يذهب فيه ويسلكه) .

قال ابن كثير: (وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه ، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة . فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وهنالك عين يقال لها: عين الحياة ، فناما هنالك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء ، فاضطرب ، وكان في

(1) أي فقير النفس ، يحب لنفسه ولا يحب لغيره .

(2) حديث حسن . أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (86/50 - موارد) ، والدليمي (1/92) ، وكذلك (2/102) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3350) .

مِكَتَلٍ مَعَ يُوشَعَ ، وَطَفَرَ⁽¹⁾ مِنَ الْمِكَتَلِ إِلَى الْبَحْرِ ، فَاسْتَيْقِظَ يُوشَعُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَسَقَطَ الْحَوْتُ فِي الْبَحْرِ وَجَعَلَ يَسِيرُ فِيهِ ، وَالْمَاءُ لَهُ مِثْلُ الطَّاقِ لَا يَلْتَمُّ بَعْدَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أي : مِثْلَ السَّرَبِ فِي الْأَرْضِ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَهُ إِِنَّا غَدَاءٌ نَّالِقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ .

أي فلما تركا حدود المكان الذي نسيا فيه الحوت وغادراه ، قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا عناء وتعَبًا .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ .

أي : أَجَابَ الْفَتَى مُوسَى بِقَوْلِهِ : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَهَنَّا لَكَ نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا كَانَ ذَلِكَ النِّسيانَ إِلَّا مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَاتَّخَذَ الْحَوْتُ طَرِيقَهُ إِلَى الْبَحْرِ سَرَبًا ، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا . قَالَ قَتَادَةُ : (فَكَانَ مُوسَى لَمَّا اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ، يَعْجَبُ مِنْ سَرَبِ الْحَوْتُ) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ .

أي : قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ - حِينَئِذٍ - هَذَا الَّذِي نَطْلُبُ فَرَجًا أَدْرَاجَهُمَا يَشْقَانِ طَرِيقَهُمَا وَيَقْصُصَانِ أَثَرَهُمَا ، وَيَقْفُوَانِ أَثَرَهُمَا ، لِيَصِلَا إِلَى مَرَادِهِمَا .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

أي : فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ قَافِلِينَ إِذَا رَجُلٌ مُسَجَّى بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى ، فَإِذَا هُوَ الْخَضِرُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَدْ وَهَبَ اللَّهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ، وَعَلَّمَهُ مِنْ عِنْدِهِ عِلْمًا .

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : [إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُّ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ إِذَا هِيَ تَهْتَرُ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ]⁽²⁾ .

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : (الْفَرْوَةُ هُنَا وَجْهُ الْأَرْضِ ، قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ . وَالْخَضِرُ نَبِيٌّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ . وَقِيلَ : هُوَ عَبْدٌ صَالِحٌ غَيْرُ نَبِيٍّ ، وَالْآيَةُ تَشْهَدُ بِنَبَوَّتِهِ ، لِأَنَّهُ بَوَاطِنُ أَعْمَالِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا بَوْحِي . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَعَلَّمُ وَلَا يَتَّبِعُ إِلَّا مِنْ فَوْقِهِ ، وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ النَّبِيِّ مَنْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ) .

(1) طفر: أي وثب ، والمِكتل: زنبيل يُعمل من خوص .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3402) - كتاب أحاديث الأنبياء ، ورواه الترمذي (3151) .

66 - 78. قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَّىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُوِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ .

في هذه الآيات: تفصيل الحوار الذي دار بين موسى والخضر - عليهما السلام - ، وتفصيل المشاهد والمواقف التي أتيا عليها والتي تحمل الآيات والدروس والعبر عبر الأيام.

أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: [إنا لعند ابن عباس في بيته. إذ قال: سلوني، قلت: أي أبا عباس، جعلني الله فداءك، إن بالكوفة رجلاً قاصاً يقال له: نَوْفٌ، يَزْعُمُ أَنَّهُ ليس بموسى بنى إسرائيل - وفي لفظ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ: أَنَّ موسى نبي الله ليس بموسى الخضر - ، فقال ابن عباس: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حَدَّثَنِي أَبِي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:

موسى رسول الله ﷺ ، قال: ذَكَرَ النَّاسُ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعَيُونُ وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ ، وَلَّى فَأَذْرَكَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيُّ رَسُولَ اللَّهِ ، هل في الأرض أحدٌ أعلمُ منك؟ قال: لا ، (وفي لفظ: فقيل له: أي الناس أعلم؟ قال: أنا) ، فَعَتَبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَزِدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ . (وفي لفظ: فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَزِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ) ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: بلى

عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ، قَالَ : أَيُّ رَبِّ ، كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : تَأْخُذُ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحَوْتَ فَاتَّبِعْهُ . (وفي لفظ : خُذْ حُوتًا مِيتًا حَيْثُ يَنْفَعُ فِيهِ الرُّوحُ) . قَالَ : فَخَرَجَ مُوسَى وَمَعَهُ فَتَاهُ يُوْشَعَ بْنِ نُونٍ ، وَمَعَهُمَا الْحَوْتَ ، حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَنَزَلَا عِنْدَهَا . (وفي لفظ : فَقَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : لَا أَكْلَفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يَفَارِقُكَ الْحَوْتَ ، قَالَ : مَا كَلَّفْتُ كَثِيرًا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ ﴾) .

قَالَ : فَوَضَعَ مُوسَى رَأْسَهُ فَنَامَ . وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا : الْحَيَاةُ ، لَا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيَّيَ ، فَأَصَابَ الْحَوْتَ مِنْ مَاءِ تِلْكَ الْعَيْنِ ، قَالَ : فَتَحَرَّكَ وَانْسَلَّ مِنَ الْمِكْتَلِ فَدَخَلَ الْبَحْرَ ، فَلَمَّا اسْتَيْقِظَ ﴿ قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا عَدَاءُكَ ﴾ الْآيَةُ ، قَالَ : وَلَمْ يَجِدِ النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ مَا أَمَرَ بِهِ ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ يُوْشَعَ بْنُ نُونٍ : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذَا أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ ﴾ الْآيَةُ .

قَالَ : فَرَجَعَا يَقْضَانِ فِي آثَارِهِمَا فَوَجَدَا فِي الْبَحْرِ كَالطَّاقِ - مَمَرَّ الْحَوْتَ - ، فَكَانَ لِفَتَاهُ عَجَبًا وَلِلْحَوْتَ سَرَبًا . وَفِي لَفْظٍ : (فَكَانَ لِلْحَوْتَ سَرَبًا وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا) . فَقَالَ مُوسَى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾) .

فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، إِذَا هُمَا بِرَجُلٍ مُسَجًى بِثَوْبٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى ، قَالَ : وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ ؟ فَقَالَ : أَنَا مُوسَى ، قَالَ : مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ⁽¹⁾ . قَالَ : هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا ؟ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ : يَا مُوسَى إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ ، قَالَ : بَلْ أَتَيْتُكَ ، قَالَ : ﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ . فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ ، فَمَرَّتَ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَعَرَفَ الْخَضِرُ ، فَحَمَلُوهُمْ فِي سَفِينَتِهِمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ - يَقُولُ : بِغَيْرِ أَجْرِ - فَرَكِبَا السَّفِينَةَ .

قَالَ : وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَعَمَسَ مِنْقَارُهُ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى : مَا عِلْمُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِقْدَارٌ مَا عَمَسَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْقَارُهُ .

(1) وفي رواية: قال فما شأنك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدا. قال: أما يكفيك أن التوراة بيدك وأن الوحي يأتيك يا موسى؟ إن لي علما لا ينبغي أن تعلمه وإن لك علما لا ينبغي لي أن أعلمه.

قال: فلم يَفْجَأْ موسى إلا إذ عَمَدَ الْخَضِرُ إلى قَدُومِ فخرق السفينة ، فقال له موسى : قَوْمٌ حملونا بغير نَوَلٍ عَمَدَتْ إلى سفينتهم فخرقتها . (وفي لفظ: قال موسى : ﴿ أَخْرَقَهَا لِنُغْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ - قال مجاهد: مُنْكَرًا - قال: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ كانت الأولى نسياناً ، والوسطى شُرْطاً ، والثالثة عَمْدًا).

فانطلقا إذا هما بغلام يلعبُ مع الغلمان ، فأخذ الْخَضِرُ برأسه فقطعه ، (وفي لفظ: قال سعيد: وجد غلاماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً ، فأضجعه ثم ذبحه بالسكين) ، قال له موسى : ﴿ أَفَلَتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ ﴿٧٤﴾ قال أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَبَوْنَا أَنْ يُضَيِّقَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ فقال بيده هكذا ، فأقامه ، فقال له موسى : إنا دخلنا هذه القرية فلم يُضَيِّقُونَا ولم يُطْعِمُونَا ﴿٧٦﴾ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قال هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أَوْيَلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ فقال رسول الله ﷺ : وَدِدْنَا أَنَّ موسى صَبَرَ حتى يُقْصَ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا ⁽¹⁾. قال: وكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا». وأما الغلام فكان كافراً ⁽²⁾.

وقوله: ﴿ مِمَّا عُلِّمَتْ رُشْدًا ﴾. أي: مما هو رشاد إلى الحق ودليل على هدى.

وقوله: ﴿ حَقَّقَ أَحَدُثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾. قال ابن جرير: (يقول: حتى أحدث أنا لك مما ترى من الأفعال التي تستنكرها أذكرها لك وأبين لك شأنها ، وأبتدئك الخبر عنها).

وقوله: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾. قال قتادة: (نكراً). أو قال: (عجباً). وقال مجاهد: (منكراً). وعن ابن عباس: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ أي: بما تركت من عهدك). وقوله: ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أي: لا تضيق عليّ أُمري معك ، وصحبتي إياك.

وعن ابن عباس: ﴿ أَفَلَتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ قال: والزكية الثابتة). وفي قراءة أهل الحجاز والبصرة: (زاكية). قال سعيد بن جبير: (مسلمة). وقيل: ﴿ أَفَلَتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أي صغيرة لم تعمل الخبث ، ولا حملت إثمًا بعد فقتلته).

(1) وفي لفظ: «وَدِدْنَا أَنَّ موسى كان صَبَرَ حتى يَقْصَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خبرهما».

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «كتاب التفسير» - حديث رقم (4725) ، (4726) (4727) - في روايات متقاربة. وأخرجه أحمد (5/ 117 - 118) ، ومسلم (2380) ، وأخرجه أبو داود (4707) ، والترمذي (3149) ، وابن حبان (6220) من طريق عن سفيان به.

وقوله: ﴿بَغَيْرِ نَفْسٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول: بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قوداً بها). وقال ابن كثير: (أي: بغير مُستند لقتله).

وعن قتادة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ والتُّكْرُ أشدُّ من الإمر). والمعنى: لقد جئت أمراً منكراً، وأقدمت على فعل ليس من المعروف في شيء. وقال البخاري: (نكراً: داهية).

وقوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾. أي: قد بلغت العذر في شأني، أو قد أعذرت إليّ مرة بعد مرة.

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن أبي بن كعب قال: [كان رسول الله ﷺ إذا دعا بدأ بنفسه، وقال: رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر لرأى من صاحبه العجب، ولكنه قال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ مثقلة⁽¹⁾].

وقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾. أي: يسقط ويقع. أي وجداً في القرية حائطاً يوشك على الانهيار فأقامه وأصلحه رغم أنهم لم يطعموهم. قال قتادة: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وتلا إلى قوله ﴿لَنُخَذَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ شر القرى التي لا تُضيف الضيف، ولا تعرف لابن السبيل حقه). وفي الحديث: (حتى إذا أتيا أهل قرية لثاماً)⁽²⁾، أي بخلاء. وعن سعيد بن جبيز: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ﴾ قال: رفع الجدار بيده فاستقام). قال ابن كثير: (إسنادُ الإرادة هاهنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل. والانقضاض هو السقوط).

وفي النهاية قال الخضر لموسى - عليهما السلام - ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ - لأنك شرطت ذلك على نفسك عند قتل الغلام ألا تسألني عن شيء بعدها وإلا ﴿فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾، فهذا أوان فراق بيني وبينك، وسأنبئك بتفسير ما لم تستطع عليه صبراً.

79 - 82. قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَ هُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ^(٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3984)، والنسائي في «الكبرى» (11310)، وابن جرير (23232)، وابن حبان (989)، وأخرجه مسلم (2380) ح (172)، في أثناء حديث طويل.

(2) جاء في رواية مسلم (2380) ح (172)، دون البخاري.

أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨١﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨٢﴾
وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٣﴾ .

في هذه الآيات: تأويل الخضر المواقف التي لم يصبر عليها موسى - عليهما السلام - ، فخرقهُ السفينة كان لحمايتها لأصحابها من ملك ظالم غاصب ، وقتلُ الغلام كان رحمة بأبويه من مستقبل فاسد ، وصلاخُ الأبوين كان سبباً في حماية الله كنزهما لذريتهما من بعدهما ، وكل ذلك من وحي الله العليم الحكيم .

أخرج البخاري في صحيحه من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ : وكان أمامهم ، قرأها ابن عباس: «أمامهم ملك» . قال البخاري: يزعمون عن غير سعيد: أنه هُذْدُ بْنُ بُدَدَ ، والغلام المقتول ، يزعمون: اسمه حَيْسُورُ ، ﴿مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فأردت إذا هي مَرَّتْ به أن يدعها لِعَبِيْهَا ، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتمعوا بها - ومنهم من يقول: سدّوها بقارورة ، ومنهم من يقول: بالقار ، ﴿فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وكان كافراً . ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ، ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ لقوله: ﴿أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ : هما به أرحمُ منهما بالأول الذي قتل خَضِرٌ . وزعم غيرُ سعيد أنهما أبدلاً جارية . وأما داود بن أبي عاصم فقال: عن غير واحد: [إنّها جارية] (1) .

وفي صحيح مسلم عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال: [الغلام الذي قتله الخضر طُبعَ يومَ طبع كافرًا] (2) .

والخلاصة: كان خرق الخضر عليه السلام للسفينة عن حكمة غير ظاهرة ، وهذا ما حمل موسى عليه السلام على الإنكار ، فقد خرق السفينة ليعيبيها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة لنفسه ، فأراد بعيبيها أن يرده عن أخذها لينتفع بها أصحابها المساكين . وأما الغلام الذي قتله الخضر فإنه كان طُبعَ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4726) - كتاب التفسير - سورة الكهف ، الآية (61) وما بعدها .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2380) ح (172) ، والترمذي (3148) في أثناء حديث طويل . وأخرجه أبو داود (4705) ، (4706) ، وابن جرير (23247) ، وابن حبان (6222) .

- بعلم الله - كافرأ. فخشي أن يحملهما حُبُّهُ على متابعتة على الكفر.

قال قتادة: (قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب).

وأما الجدار فإنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة⁽¹⁾ ، وكان تحته كنز مدفون لهما ، فأراد الله ببركة صلاح والدهما أن يحفظ ذريته من بعده . قال ابن عباس : (حفظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر لهما صلاح). قال ابن كثير : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ ، هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله . وقال في الغلام : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ ﴾ وقال في السفينة : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ، فالله أعلم).

وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ . أي : إنما كان ما فعلته في الأحوال الثلاثة رحمة من الله بأصحاب السفينة ووالدي الغلام وولدي الرجل الصالح .

وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ - دلالة على نبوة الخضر عليه السلام ، أي إنما أمرت بفعل ما أمرت به وَوُقِفْتُ عليه .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ . أي : ذلك تفسير ما ضقت به ذرعاً ولم تعلم حكمته . وفيه مقابلة كل مقام بما يقابله ، فإن قوله : ﴿ تَسْطِعْ ﴾ جاء بعد حل الإشكال وتوضيح ما وراء الستار ، وقبل ذلك كان الأمر مُحِيراً ثقیلاً فناسب القول : ﴿ سَأُنَبِّتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

83 - 85. قوله تعالى : ﴿ وَنَسْتَلُوكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ

ذِكْرًا ﴿ ٨٣ ﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿ ٨٤ ﴾ فَأَنْبَعُ سَبَبًا ﴾ . ﴿ ٨٥ ﴾

في هذه الآيات : يسألك يا محمد بعض مشركي قومك عن خبر ذي القرنين فقل سأقص عليكم من أمره خبراً موثقاً . إنه رجل صالح من عباد الله الصالحين ، دانت له

(1) في الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة . فقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَهَلَّ قَرْيَةً ﴾ أتبع بقوله : ﴿ فَكَانَ لِعَلَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ . وفي التنزيل : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] والمراد مكة والطائف .

البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وتحرك بأمر الله في أرجاء هذه المعمورة ، شرقاً وغرباً ، وآتاه الله تعالى مثل ما يؤتى الملوك ، ومن الأسباب والطرق والوسائل القوية لفتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي وكسر الأعادي ، وكبت ملوك الظلم وإذلال أهل الشرك ، ومن كل شيء يُحتاج إليه لإقامة الحق ومنهاج العدل في الأرض . فتابع المسير في أرجاء هذه المعمورة شرقاً وغرباً .

فقوله تعالى : ﴿ وَسَأَلُواكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ويسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن ذي القرنين ما كان شأنه ، وما كانت قصته ، فقل لهم : سأتلو عليكم من خبره ذكراً) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ . قال ابن عباس : (سبباً : يعني علماً) . وقال قتادة : (منازل الأرض وأعلامها) . وقال ابن زيد : (تعليم الألسنة ، قال : كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم) .

قال ابن كثير : (أي : أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً ، فيه له من جميع ما تؤتى الملوك ، من التمكين والجنود ، وآلات الحرب والحصارات . ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم ، من العرب والعجم . ولهذا ذكر بعضهم أنه سُمي ذا القرنين لأنه بلغ قزني الشمس مشرقها ومغربها) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ . قال ابن عباس : (يعني بالسبب المنزل) . وقال مجاهد : (منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب) . وقال مجاهد أيضاً : ﴿ سَبَبًا ﴾ : (طرفي الأرض) . وقال قتادة : (أي اتبع منازل الأرض ومعالمها) .

قال النسفي : (والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة ، فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً ، يوصله إليه حتى بلغ . وكذلك أراد المشرق فأتبع سبباً ، وأراد بلوغ السدين فأتبع سبباً) .

قلت : والذي يظهر من عجائب ما صنع ذو القرنين ومن قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَذَّابِقُ الْفَرَيْنِ ﴾ أنه نبئ يوحى إليه ، وقد تحرك في الأرض بأمر الله .

أخرج أبو داود والحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أدري تبع ألعينأ كان أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبيأ كان أم لا؟ وما أدري الحدود كفارات أم لا؟] (1).

قال ابن عساکر (2): (وهذا الشك من النبي ﷺ كان قبل أن يبين له أمره ، ثم أخبر أنه كان مسلماً ، وذلك فيما أخبرنا . . . ثم ساق الحديث : « لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم » (3) .

وبنحوه قال الهيثمي : (يحتمل أنه ﷺ قاله في وقت لم يأت فيه العلم عن الله ، ثم لما أتاه قال ما رويناه في حديث عبادة وغيره) . يعني قوله ﷺ : « . . . ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له . . » أخرجه الشيخان وغيرهما .

وقال القشيري أبو نصر: (قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَيْنِ ﴾ - إن كان نبياً فهو وحي ، وإن لم يكن نبياً فهو إلهام من الله تعالى) .

قلت : والراجع عندي من هذه الآية والحديث السابق أنه نبي ، والله تعالى أعلم .

86 - 88 . قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴾ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (٨٨) .

في هذه الآيات : وصول ذي القرنين إلى أقصى الغرب من الأرض ، ورؤيته الشمس تغرب في البحر المحيط ، وعندها قوم من الناس فعرفوا قدره وتحاكموا إليه ، فحكّم على المشرك بربه المفسد في الأرض بالقتل ، ثم يرُدُّ إلى ربه ليحكم بأمره يوم القيامة . وأما المؤمن العامل بالصالحات فله التوفير في الدنيا وحسن المنقلب في الآخرة .

فقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ . قال ابن كثير : (أي : فسلك طريقاً حتى وصل

- (1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4674) - دون الجملة الثالثة - والحاكم في «المستدرک» (36/1) ، وعنه البيهقي (329/8) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2217) .
- (2) انظر : تاريخ ابن عساکر (1/251/3) ، (1/57/6) ، (1/302/11) ، (2/66/16) .
- (3) حسن لشواهده . أخرجه أحمد (340/5) ، ورواه ابن عساکر - انظر المرجع السابق .

إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض).
 وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَعْرُبُ فِي عَيْنِ حَمِثَةٍ﴾. قال ابن عباس: (ذات حمأة) وهو الطين الأسود. وقال كعب الأحبار: (أنتم أعلم بالقرآن مني ، ولكنني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء). وهناك قراءة لابن عباس: ﴿فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ﴾⁽¹⁾ يعني حارة. ولا منافاة بين القولين - كما ذكر ابن كثير والقاسمي -: إذ قد تكون حارّة لمجاورتها وهجّ الشمس عند غروبها ، وملاقاتها الشعاع بلا حائل. قال ابن كثير: (أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه).

وقوله: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْفَرْقَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.
 أي: إنه رأى عندها أمة من الأمم. قال القاسمي: (ثم أشار تعالى إلى أنه مكّنه منهم ، وأظهره بهم ، وحكّمه فيهم ، وجعل له الخيرة في شأنهم ، بقوله: ﴿قُلْنَا يَبْدَأُ الْفَرْقَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ أي بالقتل وغيره ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالعفو. ثم بيّن عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه).

وقوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾. قال قتادة: (بالقتل).
 أي: أما من استمر على الكفر والشرك بربه والإفساد والظلم في الأرض فسوف نعاقبه بالقتل.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَرْدُّ إِيَّ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾. قال النسفي: (في القيامة، يعني أما من دعوته إلى الإسلام فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم وهو الشرك فذاك هو المعذب في الدارين).

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾. أي: وأما من تابعتنا على الإيمان بالله والعمل الصالح فإن جزاءه الجنة في الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ آسِرًا﴾. قال مجاهد: (معروفاً).

قال ابن جرير: (يقول: وسنعلمه نحن في الدنيا ما تيسر لنا تعليمه مما يقربه إلى الله ويلين له من القول).

(1) قلت: وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب: [أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: «فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ»]. صحيح الترمذي (2337).

89 - 91. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَبًا﴾ ٨٩ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ٩١ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ٩٢ .

في هذه الآيات: يتابع ذو القرنين مسيره من مغرب الشمس إلى مطلعها ، يقيم الحق وميزان العدل في الأرض ، وكلما مرَّ بأمّةٍ قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عزَّ وجل ، فإن دانو له بالطاعة تركهم ، وإلا أذلهم وأرغم أنوفهم وكسر شوكتهم ، واستباح أموالهم وأمتعتهم ، وربما استخدم من كل أمة ما يستعين به في جيوشه على قهر القرى المتاخمة لهم ، فلما بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لا بناء يحجب الشمس عنهم ، ولا مضارب أحد من الناس تكون بينهم وبين الشمس ، فإذا اشتدت عليهم الشمس دخلوا في أسراب لهم ، فإذا ذهبت حِذَّتْها أو زالت خرجوا من أسرابهم إلى أعمالهم في حروثهم ومعاشهم . والله تعالى عليم بكل أحوال هذا الرجل القائم بأمره وبكل شؤون جيشه ومسيرهم وأحوال الأقوام التي يقيم فيهم حكم الله عز وجل .

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَبًا﴾ . قال القرطبي: (أي سلك طريقاً ومنازل) .

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ . قال قتادة: (ذكر لنا أنهم بأرض لا تُنْبِتُ لهم شيئاً ، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب ، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعاشهم) .

وقال الجوهري: (المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس . والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة) .

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ . قال مجاهد: (علماً) .

قال ابن كثير: (أي: نحن مُطْلِعُونَ على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرّقت أممهم وتقطّعت بهم الأرض ، فإنه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5] .

92 - 99. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَبًا﴾ ٩٢ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ٩٣ قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

فَهَلْ تَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٢﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٣﴾ أَتُؤْتِي زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُؤْتِي أَفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا ﴿٩٥﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٦﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٧﴾ .

في هذه الآيات: وصول ذي القرنين إلى منطقة بين السدين ، وقصة استجارة القوم به من فساد يأجوج ومأجوج ، وتفصيل بنائه السد الذي يحجبهم عن الناس إلى يوم ميعاد خروجهم آخر الزمان بإذن الله .

فقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ . أي: ثم سار ذو القرنين فسلك طرقاً ومنازل من مشارق الأرض حتى بلغ بين السدين . قال ابن كثير: (وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيشون فيهم فساداً ، ويهلكون الحرث والنسل). وعن قتادة: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ (وهما جبلان). قال ابن جرير: ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ يقول عز ذكره: وجد من دون السدين قوماً لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَنْذِرُ الْفَرِيقَ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ تَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ .

قرأ عاصم والأعرج ﴿ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ ، وأما قراءة الحجاز والعراق فقرأوا: «يأجوج ومأجوج» بغير همز. وهما قراءتان معروفتان في الأمصار. ويأجوج ومأجوج قوم من نسل نوح عليه الصلاة والسلام من أولاد يافث ، تركوا وراء السد الذي بناه ذو القرنين .

والخلاصة: إنه لما وصل ذو القرنين ﴿ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ - وهما جبلان بينهما ثغرة ، يخرج منهما يأجوج ومأجوج فيعيشون فيها فساداً - وجد العبد الصالح في رحلته في تلك الأرجاء قوماً لا يكادون يفقهون قولاً لاستعجاب لسانهم وبعدهم عن الناس ، وشكوا إليه أمر فساد هؤلاء القوم يأجوج ومأجوج ، فقالوا له: ﴿ يَنْذِرُ الْفَرِيقَ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ تَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ - قال ابن عباس: (أجرأ عظيمًا) - ﴿ عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ فتحجبهم عنا وتخلصنا من سوءهم وشرورهم ، وكان الله سبحانه قد أعطى

ذا القرنين قوة وسلطاناً ، فكان - كما مضى - يقيم الحق والعدل ويحكم بين الناس .

فأجابهم ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ .
أي : ما أعطاني سبحانه وتعالى من الملك والتمكين في الأرض خير لي من الذي تجمعونه وتفكرون بإهدائه لي . وهذا كقول سليمان عليه الصلاة والسلام لو فد بلقيس الذين حاولوا حجب نفوذه وسلطانه بهداياهم فقال لهم : ﴿ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَاءَ اتْنِئَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهِدْيَتِكُمْ قَفْرٌ ﴾ .

وقال لهم ذو القرنين : ﴿ فَأَعِثُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ . أي : ساعدوني بقوة بعملكم وبآلات البناء . قال مجاهد : ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ يقول : أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردمًا . والردم : حاجز الحائط والسد ، إلا أنه أُمِنَع منه وأشد . وعن ابن عباس قال : ﴿ رَدْمًا ﴾ : هو كإشد الحجاب .

وقوله : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ . أي : قطع الحديد - قاله ابن عباس ومجاهد ، فإن الزبر جمع زبرة وهي القطعة منه . قال مجاهد : (وهي كاللبننة) ، يقال كل لبننة زنة قنطار .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ . قال مجاهد : (رؤوس الجبلين) . أي وضع بعضه على بعض من الأساس ، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ﴿ قَالَ أَنْفِخُوا ﴾ أي أجاج عليه النار ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ أي صار كله ناراً ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ . قال مجاهد وقتادة : (هو النحاس المذاب) .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَنْ نَقْبًا ﴾ .

قال قتادة : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ من فوقه ﴿ وَمَا اسْتَطَعُوا لَنْ نَقْبًا ﴾ أي من أسفله . أي : فما قدرُوا أن يصعدوا ويرتقوا فوق هذا السد المنيع ولا قدرُوا على نقبه من أسفله ، فقد صنعه ذو القرنين بأحدث وسائل زمانه واستخدم في بنائه أشد وأمتن مواد البناء ، فقد دخل في إنشائه الحديد والحجارة والنار والنحاس ، فياله من سد متين ذي مقاومة حدية عالية .

قال الحافظ بن كثير : (ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَنْ نَقْبًا ﴾) .

لقد حجب ذو القرنين عليه السلام بهذا البنيان العظيم أشدَّ الناس شروراً وفاحشة في الأرض ، فإن يأجوج ومأجوج قوم مفسدون ، خبأهم الله فتنة في آخر الزمان لمن ضل أو من كفر ، وجعل خروجهم من علامات يوم القيامة ، وجعل نهايتهم من الأرض من

أشد أيام الفرح بهجة في الدنيا ، ليضيفها إلى فرحة التخلص من مكر اليهود في الأرض وجنسهم ، ليفرح بها عيسى بن مريم ومن سيكون معه في الطور من المؤمنين .

إن يأجوج ومأجوج قوم أحياء يحفرون في كل يوم في محاولة منهم للخروج من ذلك السجن الذي كتبه الله عليهم قسماً وعدلاً ، إلا أنهم يمكرون ويمكر الله بهم وهو خير الماكرين ، إلى أن يأذن الله بخروجهم .

وفي التنزيل : ﴿ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ . قال ابن عباس : (أي يسرعون في المشي إلى الفساد) . والحذب المرتفع من الأرض .

وأخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن أبي هريرة مرفوعاً : [إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم ، حتى إذا كادوا يروؤن شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فسنحفره غداً ، فيعيده الله أشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فسنحفره غداً إن شاء الله تعالى ، واستثنوا ، فيعودون إليه وهو كهيتته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس ، فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم . فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع عليها الدم الذي احفظ ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله نغفاً في أقفائهم فيقتلون بها . قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرأ من لحومهم] (1) .

وقد فصل ذلك الحدث تفصيلاً رائعاً في حديث الإمام مسلم عن النواس بن سمعان ، حيث قال رسول الله ﷺ : - بعد أن يقتل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام المسيح الدجال - : [ثم يأتي عيسى إلى قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فيبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى : إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ﴿ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ . . فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم ويقول : لقد كان بهذه مرة ماء . ثم يسيرون إلى جبل

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (510/2 - 511) ، والترمذي في الجامع (3153) ، وابن ماجه (4199) في السنن ، والحاكم (488/4) ، ورجاله ثقات . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة - حديث رقم - (1735) ، وصحيح الجامع (2272) .

الْخَمَرِ (وهو جبل بيت المقدس) فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هُلْماً فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً ، وَيُخَصِّرُ نَبِيَّ الله عيسى وأصحابه ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدهم اليوم ، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه ، فيرسلُ الله عليهم النغف في رقابهم ، فيصيحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زَهْمُهُمْ وتَنْهَمُ ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت فتحمّلهم فتطرحهم حيث شاء الله⁽¹⁾.

وفي رواية: [تطرحهم بالنهبل - اسم موضع - ، ويستوقد المسلمون من قُسَيْهِمْ ونُشَابِهِمْ وجعابهم سبع سنين ، ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه - أي لا يمنع من نزوله - بيتٌ مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلْفَةِ - أي كالمرآة - ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك ورُدِّي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرّمانة ، ويستظلون بِقَحْفِهَا ويبارك في الرّسل ، حتى إنّ اللّقْحَةَ من الإبل لتكفي القِثام من الناس ، واللّقْحَةَ من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللّقْحَةَ من الغنم لتكفي الفَحْذَ من الناس ، فبيناهم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبِضُ رَوْحَ كُلِّ مؤمن وكُلِّ مسلم ، ويبقى شراؤُ الناس يتهارجون فيها تهارجُ الحُمُرُ فعليهم تقوم الساعة].

وأما قوله: «ثم يأتي عيسى إلى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم». قال النووي في شرح صحيح مسلم: (قال القاضي: يحتمل أن هذا المسح حقيقة على ظاهره فيمسح على وجوههم تبركاً وبراً ، ويحتمل أنه إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف).

وقوله: «لا يدان لأحد بقتالهم» - أي لا طاقة لأحد على حربهم. قال النووي: (يقال ما لي بهذا الأمر يد ، وما لي به يدان ، لأن المباشرة والدفع إنما يكون باليد).

وقوله: «فحرّز عبادي إلى الطور». أي: اجعل الطور لهم حرزاً بأن ينضموا إليه من هؤلاء القوم الذين هم من كل حذب ينسلون ، أي من كل نشز يمشون مسرعين. والخَمَر: الشجر الملتف ، والمراد بالحديث جبل بيت المقدس. وأما النَّعْفَ فهو دود

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 197 - 198) من حديث النّوّاس بن سميّان. وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (2048) ، كتاب الفتن.

يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدته نغفة ، وقوله «فرسى» : أي قتلى ، واللقحة : بكسر اللام وفتحها لغتان معروفتان ، والكسر أشهرها ، وهي القرية العهد بالولادة ، واللقوح ذات اللبن . وأما الفئام فهم الجماعة من الناس ، وكذا الفخذ في اللغة الجماعة من الأقارب . قال النووي : (وهم دون البطن ، والبطن دون القبيلة) .

وفي سنن ابن ماجه بسند صحيح عن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله ﷺ : [سيوقد المسلمون من قسيّ يأجوج ومأجوج ونشأبهم وأترستهم سبع سنين]⁽¹⁾ .

لقد حذر النبي ﷺ من هذه الفتنة - فتنة يأجوج ومأجوج - تحذيراً كثيراً ، وخاف منها على أمتة خوفاً كبيراً ، واستيقظ يوماً فرعاً لذلك كأنه يرى أمامه شراً مستطيراً .

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت : [استيقظ النبي ﷺ من النوم مُخْمِراً وَجْهَهُ يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وعقد سفيان تسعين أو مئة . قيل : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثر الخبث]⁽²⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

قال ابن جرير : (قال : هذا الذي بنيته وسوّيته حاجزاً بين هذه الأمة ومن دون الردم رحمة من ربي رحم بها من دون الردم من الناس ، فأعاني برحمته لهم حتى بنيته وسوّيته ليكفّ بذلك غائلة هذه الأمة عنهم . . . فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتاً لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء الردم لهم ، جعله دكاء ، يقول : سواه بالأرض) .

قال قتادة : ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ : لا أدري الجبلين يعني به ، أو ما بينهما . وكان وعد الله ، في ذلك هذا الردم وخروج هؤلاء القوم فتنة للناس عند استهتارهم بدينهم ، وعداً حقاً والله لا يخلف الميعاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرْكْنَا بِعَظْمِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ - فيه تأويلان :

1 - أن يعود الضمير على يأجوج ومأجوج . والمعنى كما ذكر السدي ، قال : (ذاك حين يخرجون على الناس) . قال ابن كثير : (أي : يوم يُدَكُّ هذا السّد ويخرج هؤلاء

(1) حديث صحيح . انظر صحيح سنن ابن ماجه (3295) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان - عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1056 - 1062) - لتفصيل البحث .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (9/13 - 10) ، وأخرجه مسلم في الصحيح (8/165 - 166) .

فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم).

2- أن يكون الوصف لحالة الخلق قبيل النفخ في الصور لقيام الساعة. واختاره ابن جرير.

قال ابن زيد: (هذا أول القيامة ، ثم نفخ في الصور ، على أثر ذلك فجمعناهم جمعاً).

قلت: وكلا المعنيين حق ، فإن خروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم من علامات اقتراب الساعة ، والساعة لا تقوم إلا على شرار القوم وهم يتهارجون فيها تهارج الحمر. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [تفتح يأجوج ومأجوج. فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فيعمئون الأرض ، وينحاز منهم المسلمون ، حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، حتى أنهم ليمرون بالنهر فيشربونه ، حتى ما يذرون فيه شيئاً فيمُرُّ آخرهم على أثرهم ، فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان ، مرة ، ماءً. ويظهرون على الأرض. فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض ، قد فرغنا منهم ، ولَنَنْزِلَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ...] الحديث (1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس] (2).

قلت: فإذا نفخ في الصور واجتمع الجن والإنس جميعاً بين يدي ربهم ، نادى الله آدم أن أخرج بعث النار ، فتمتلئ جهنم من يأجوج ومأجوج. وتفصيله في:

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [يقول الله عز وجل: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك! والخير في يديك! قال: يقول: أخرج بعث النار ، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين ، قال: فذاك حين يشيب الصغير ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾] قال: فاشتد ذلك عليهم. قالوا: يا رسول الله أيُّنا

(1) حسن صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3307) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1061) - لتفصيل البحث في علامات الساعة ، وصفات يأجوج ومأجوج.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 208). وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (2022) ، والمرجع السابق (2/ 1064) - شهود شرار الناس لقيام الساعة.

ذاك الرجل؟ فقال: أبشروا. فإن من يأجوج ومأجوج ألفٌ ، ومنكم رجلٌ. قال: ثم قال رسول الله: «والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا رُبْعَ أهل الجنة» فحمدنا الله وكَبَّرنا. ثم قال: «والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا ثُلثَ أهل الجنة» فحمدنا الله وكَبَّرنا. ثم قال: «والذي نفسي بيده! إني لأطمع أن تكونوا شَطْرَ أهل الجنة». إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الِأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْصَعَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالرَّقَمَةِ⁽¹⁾ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ⁽²⁾.

100 - 106. قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا عِبَادِي ورُسُلِي هُزُؤًا ﴿١٠٦﴾.

في هذه الآيات: تفصيلُ إبراز جهنم يوم القيامة للكافرين ، الذين كانوا في غفلة وعناد وتكذيب بيوم الدين. فهل ظنوا أن اتخاذهم عباد الله - كالملائكة وعيسى عليهم السلام - أولياء نافعهم أو صارف عنهم العذاب المهين. إِنَّ الْأَخْسَرِينَ الَّذِينَ بطل عملهم وهم يحسبون أنهم من المحسنين. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ووعدده ووعدده المبين ، فاستحقوا جهنم يصلونها مع المستهزئين.

فقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾. أي: أبرزناها للكافرين أمام أعينهم قبل أن يدخلوها ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والضيق في نفوسهم والهلع في قلوبهم ، ولها يومئذ سبعة أبواب لكل باب أهله في صليها وولوجها.

(1) كالرقمة: قال أهل اللغة: الرقمتان في الحمار هما الأثران في باطن عضديه. وقيل: هي الدائرة في ذراعيه. وقيل: هي الهنة الناتجة في ذراع الدابة من الداخل.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6530) ، وأخرجه مسلم (222) - واللفظ له - كتاب الإيمان ، وأخرجه أحمد في المسند (32/3 - 33) من حديث أبي سعيد الخدري.

وفي التنزيل: ﴿وَأِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ قال قتادة: (هي والله منازلهم بأعمالهم).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزؤونها] ⁽¹⁾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى: وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين الذين كانوا لا ينظرون في آيات الله ، فيتفكرونها فيها ولا يتأملون حججه ، فيعتبرون بها ، فيتذكرون وينبيون إلى توحيد الله ، وينقادون لأمره ونهيه ، وكانوا لا يستطيعون سمعاً ، يقول: وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله الذي ذكّرهم به ، وبيانه الذي بيّنه لهم في أي كتابه ، بخذلان الله إياهم ، وغلبة الشقاء عليهم ، وشغلهم بالكفر بالله وطاعة الشيطان ، فيتعظون به ، ويتدبرونه ، فيعرفون الهدى من الضلالة ، والكفر من الإيمان).

والمقصود: إنه لما تعامى هؤلاء الكفار وتغافلوا وتصاموا عن سماع الحق وإبصار الهدى واتباع سبيل المرسلين ، أصمّ الله أسماعهم عن سماع الحق فخذلهم عن فهمه وعقله. قال مجاهد: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: لا يعقلون). أو قال: (لا يعلمون).

وفي التنزيل: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36].

قلت: والاستطاعة الواردة في الآية بمفهوم خلق القدرة على ذلك العمل ، وتأتي بمعنى التوفيق. والمعنى: إن الله يخذل الكافرين نتيجة استهزائهم بالحق وتماديهم بالباطل فلا يستفيدون من سمعهم في الحق ، وكذلك يخذل المنافقين عن السجود له في أرض المحشر. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ خَسِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: 42 - 43].

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد ، فيعود ظهره طبقاً واحداً] ⁽²⁾.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2842) ، وانظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1975).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه - حديث رقم - (4919) - كتاب التفسير - سورة القلم. وانظر كذلك - حديث رقم - (22) منه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾. قال النسفي: (أي أظن الكفار اتخاذهم عبادي يعني الملائكة وعيسى عليهم السلام أولياء نافعهم بشئ ما ظنوا). وقال القاسمي: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي هيأنا ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودهم. و«النزل» ما يقام للنزول أي الضيف. وفيه استعارة تهكمية. إذ جعل ما يعذبون به في جهنم كالزقوم والغسلين ، ضيافة لهم).

وفي التنزيل: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١ - ٨٢). [مريم: 81 - 82].

وفي صحيح ابن ماجة عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عَمَلَ عَمَلًا شَرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ] (1). وفي لفظ: [قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا شَرَكَ فِيهِ غَيْرِي ، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ. وهو للذي أشرك].

وفي الباب عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري ، وكان من الصحابة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا جمع الله الأولين والآخرين ، يوم القيامة ، لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، نادى مُنَاد: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ لَهُ لُهِ لُهِ ، فليطلب ثوابه من عِنْدِ غير الله. فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك] (2).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٥) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا).

أي: هل أخبركم بالأخسرين من الخلق؟ إنهم الذين سلكوا مناهج غير مشروعة وعملوا أعمالاً باطلة غير مرضية في ميزان الشريعة ، وهم يظنون أنهم مقبولون مرضيون محبوبون ، وإنما يفاجئون ببوارها يوم القيامة. وهي آية عامة تشمل كل من ضل عن مناهج النبوة ، ولو أخلص لأي منهاج آخر.

قال البخاري في صحيحه: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ عَمْرِو ، عَنْ مُضْعَبٍ قَالَ: [سَأَلْتُ أَبِي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ هُم

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4202) - كتاب الزهد. باب الرياء والسمعة. وانظر صحيح سنن

ابن ماجة (3387) - وأصله في صحيح الإمام مسلم.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4203) ، الباب السابق. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3388).

الْحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا ، هُم الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، أَمَا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ ، وَأَمَّا النَّصَارَى كَفَرُوا بِالْجَنَّةِ وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ ، وَالْحَرُورِيَّةُ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ⁽¹⁾ .

قال الحافظ ابن كثير: (فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية ، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مَرْضِيَّةٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ مَصِيبٌ فِيهَا ، وَأَن عمله مقبول ، وهو مخطئٌ وعمله مردودٌ ، كما قال تعالى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَالِشَةٌ ۖ عَامِلَةٌ ۖ فَأَصْبَتْ ۖ ﴾ [التَّصْلَى نَارًا حَامِيَةً] ﴿ [الغاشية: 2 - 4] ، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ۖ ﴾ [الفرقان: 23] ، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا ۖ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ۖ ﴾ [النور: 39] .

وقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۖ ﴾ .

أي: إنهم الذين جحدوا التنزيل وحجج الله التي تدعوهم إلى إفراده تعالى بالتعظيم والعبادة ، وكفروا بلفائه في يوم يضع سبحانه فيه أعمال العباد على الميزان ، فما وافق الحق رجح وما كان على غير ميزان الشريعة جعله هباءً منثوراً .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: [إنه ليأتي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يَرْنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ - وقال -: اقرؤوا: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۖ ﴾]⁽²⁾ .

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۖ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: أولئك ثوابهم جهنم بكفرهم بالله ، واتخاذهم آيات كتابه ، وحجج رسله سخرى ، واستهزائهم برسله) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4728) - كتاب التفسير - سورة الكهف - آية (103) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4729) - كتاب التفسير - سورة الكهف - آية (105) ، ورواه

الإمام مسلم في صحيحه - حديث رقم - (4678) .

107 - 108 . قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ

نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ ﴿١٠٨﴾ .

في هذه الآيات : إخبار عن الصورة المقابلة لأصحاب الجحيم ، صورة السعداء في جنات النعيم ، في الفردوس سرّ الجنة وأعلاها ووسطها تحت عرش الرحمن الكريم ، ﴿ نُزُلًا ﴾ أي ضيافة لهم خاصة بهم من ربهم العلي العظيم . وهم فيها مقيمون لا يظعنون عنها أبداً ولا يرحلون .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها . قالوا : يا رسول الله ، أفلا ننبئ الناس بذلك ؟ قال : إنّ في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ، كلّ درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألت الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة] ⁽¹⁾ .

وله شاهد عند الطبراني من حديث العرياض ، عن النبي ﷺ قال : [إذا سألت الله تعالى فاسأله الفردوس فإنه سرّ الجنة] .

قال القاسمي في «التفسير» : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ : أي تحولاً ، لبلوغهم الكمال في نعيمها . فلا شوق لهم فيما وراءها . وفيه تنبيه على شدة رغبتهم فيها ، وحبهم لها . مع أنه قد يتوهم ، فيمن هو مقيم في مكان دائماً ، أنه يسأمه أو يمله . فأخبر أنهم ، مع هذا الدوام والخلود السرمدّي ، لا يختارون عن مقامهم متحولاً .

109 - 110 . قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7423) - كتاب التوحيد ، وكذلك (2790) ، وأخرجه أحمد في المسند (335/2) ، وابن حبان (4611) . وانظر للشاهد صحيح الجامع (606) .

نَنفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ .

في هذه الآيات: تعظيمُ كلمات الله وآفاق معانيها وروائع علومها ، وإثبات بشرية الرسول ﷺ وتلقيه الوحي من الله رب السماوات والأرض وباريها ، وذكرُ سرِّ النجاة وسعادة الدارين: أفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، والتماس العمل الصالح على منهاج الوحيين .

فعن مجاهد: ﴿الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَتِ رَبِّي﴾ للقلم). قال قتادة: (يقول: إذا لفد ماء البحر قبل أن تنفذ كلمات الله وحكمه).

والمقصود: قل - يا محمد - مخبراً عن عظمة كلمات ربك وصفاته وآياته وحكمه: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب به كلمات الله وحكمه وما يخبر عن آياته ومعاني أسمائه وصفاته لفد البحر قبل الفراغ من ذلك ، ولو رفته بحور الدنيا ومحيطاتها.

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27].

قال الربيع بن أنس: (إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَتِ رَبِّي لَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ يقول: لو كان البحر مداداً ، والشجر كلها أقلاماً ، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يُفنيها شيء ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدّر قدرها ولا يُثني عليه كما ينبغي ، حتى يكون هو الذي يُثني على نفسه ، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول ، إنَّ مَثَلَ نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خزدلٍ في خلال الأرض).

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾. قال القرطبي: (أي لا أعلم إلا ما يعلمني الله تعالى ، وعلم الله تعالى لا يحصى ، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله).

وقال ابن كثير: (يقول تعالى لرسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فمن يرعُمُ أني كاذب

فَلَيَاتٍ بِمَثَلٍ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْمَاضِي ، عَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، وَخَبَرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، لَوْ لَا مَا أَطْلَعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ . وَأَنَا أَخْبَرْتُكُمْ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ﴾ ، ﴿إِلَهُهُ وَحْدَهُ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وقوله : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

أي : فمن كان يرجو لقاء الله فيخاف الموقف بين يديه ، ويأمل الفوز بثوابه وجناته ، والظفر بلذة النظر إلى وجهه ، فليعمل عملاً خالصاً لوجهه موافقاً لشريعته ، ولا يشرك بعبادته أحداً .

والآية دليل على ركني العمل الصالح المتقبل :

الركن الأول : أن يكون العمل خالصاً لوجه الله العظيم .

الركن الثاني : أن يكون موافقاً للشريعة المطهرة ، كما جاء في التنزيل وهدى الرسول الكريم .

قال الفضيل بن عياض : (فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً ، لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة) .

وقال شيخ الإسلام - ابن تيمية - : (وإذا كانت جميع الحسنات ، لا بد فيها من شيئين : أن يراد بها وجه الله ، وأن تكون موافقة للشريعة ، فهذا في الأقوال والأفعال . في الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، في الأمور العلمية ، والأمور العملية العبادية) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة : 5] .

2 - وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُشْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : 29] .

3 - وقال تعالى : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج :

[37] .

ومن كنوز السنة المطهرة في ذلك أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم]⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والإمام مسلم في الصحيح ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربّه عز وجل ، أنه قال: [أنا خيرُ الشركاء ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري ، فأنا منه بريء ، وهو للذي أشرك]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جَمَعَ الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك]⁽³⁾.

الحديث الرابع: أخرج أحمد والطبراني بسند جيد عن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ سَمَعَ سَمَعَ الله به ، ومن رأى رأى الله به]⁽⁴⁾. وفي رواية من طريق ابن عمرو: [مَنْ سَمَعَ الناس بعمله ، سَمَعَ الله به مسامح خلقه وصغره وحقّره].

وعن سفيان: (﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾) قال: لا يراني) - رواه ابن جرير.

تم تفسير سورة الكهف بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



- (1) حديث صحيح. رواه مسلم (2564) (33) ، وكذلك رقم (34).
- (2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (4/2289) ، وأحمد (2/301 - 435) ، والطيايسي (2559) ، وأخرجه ابن ماجة (4202) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (395).
- (3) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3154) ، وابن ماجة (420) ، وأحمد (3/466) ، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (6817) ، وله شواهد كثيرة.
- (4) إسناده جيد. أخرجه أحمد (45/5) ، والبخاري (3563) ، والطبراني كما في «المجمع» (10/222) ، وقال الهيثمي: وأسانيدهم حسنة. وأصل معناه في صحيح مسلم.

دروس ونتائج وأحكام

- 1- القرآن نذارة للكافرين ، وبشارة للمؤمنين العاملين .
- 2- الشباب أقبل للحق من الشيوخ الذين انغمسوا في الباطل وشابوا على ذلك .
- 3- تعارف أصحاب الكهف بالإيمان الذي جمع قلوبهم على الهدى .
- 4- لا تشرع العزلة إلا عند وقوع الفتن والخشية على الدين .
- 5- قصة أهل الكهف دليل على البعث والنشور .
- 6- حذر الرسول ﷺ من اتخاذ القبور مساجد ، ولعن فاعل ذلك .
- 7- يغاث الكافرون يوم القيامة بالمهل ، ويرفل المؤمنون في حلل السندس .
- 8- استدراج الله الكافر بكثرة الرزق لا يعني أن ذلك كرامة .
- 9- مردود حسن ظن المؤمن بربه ، خير من المال والولد .
- 10- التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير هن الباقيات الصالحات .
- 11- الذنوب تجمع على الرجل يوم القيامة كما يجمع ركام الحطب .
- 12- ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأصل الجن .
- 13- يفرق الله بين المشركين وآلهتهم يوم القيامة .
- 14- إن توقع العذاب والخوف من أهواله قبل وقوعه عذاب ناجز .
- 15- جزاء الإعراض عن الحق الحيلولة دون فهمه جزاء وفاقاً .
- 16- مشروعية السفر المتعب لطلب العلم ، ويؤجر المؤمن على جهاده .
- 17- عتب الله تعالى على موسى - عليه السلام - لأنه لم يرد العلم إليه تعالى .
- 18- إن موسى صاحب الخضر ، هو موسى صاحب بني إسرائيل .
- 19- لم يصبر موسى على كل ما فعله الخضر ، فحصلت المفارقة .

- 20 - الخضر نبي - ﷺ - وتوفاه الله في حينه ، وأخبار حياته موضوعة .
- 21 - ذو القرنين ملك مؤمن موحد ، آتاه الله ملكاً وسلطاناً عظيماً .
- 22 - يأجوج ومأجوج أكبر فتنة بعد الدجال ، ولكن الله يصرعهم دون قتال .
- 23 - التقم إسرائيل الصور وحنى جبهته واستمع متى يؤمر .
- 24 - الضالون هم الأخسرون أعمالاً ، ويحسبون أنهم على حق .
- 25 - كلام الله أجل وأعلى وأمنع من أن يحصى ، ومن كان يؤمن بالله ولقائه فليعمل صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً .



19



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (98).

أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن أم سلمة رضي الله عنها - في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة - [فقال له النجاشي - أي لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه -: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ. فقرأ عليه صذراً من كهيعص. قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصباحهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إنّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة⁽¹⁾.

موضوع السورة

قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام ، وخبر الأنبياء والرسل الكرام ، ومصير المكذابين ، ومستقر المتقين .

- منهاج السورة -

- 1 - مناجاة زكريا ربه يشكو إليه الضعف ويسأله الوريث لحمل الأمانة ومنهاج النبوة .
- 2 - نزول البشارة على زكريا يبشره الله بغلام اسمه يحيى ، وتَعَجُّبُه من ذلك وقد كبر وامرأته لم تلد ، والله على كل شيء قدير .

(1) رواه أحمد (5/ 290) ، (1/ 202 - 292) بسند صحيح عن زوجة رسول الله ﷺ ، وصححه أحمد شاكر في التعليق على المسند ، حديث رقم (1740) ، وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 311 - 315).

- 3- سؤال زكريا ربه آية على البشارة ، فَحَسِّنَ لسانه عن الكلام ثلاث ليالٍ إلا رمزاً .
- 4 - أمرُ الله تعالى يحيى حمل الكتاب بقوة ، وإنعامه تعالى عليه بالعلم والفهم والعمل الصالح وبر الوالدين والأمان في المواطن الثلاث: يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حياً .
- 5 - قصة مريم عليها السلام ، وإيجاد الله ولدها - من غير أب - عيسى عليه السلام .
- 6 - اعتزال مريم بحملها مكاناً نائياً ، وتحرك المخاض ، ومناداة الصبي تحتها ، وامتنان الله عليها بالطعام والشراب وقرة العين ، ونذرها الإمساك عن الكلام .
- 7 - مجيء مريم قومها تحمل وليدها أمام تعجبهم من أمرها ، وتكلم الصبي في المهد .
- 8 - تبيان الله خبر عيسى على الحقيقة ، وتنزيه نفسه تعالى عن الولد ، وأن أمره تعالى كن فيكون ، ودعوة عيسى قومه إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والتعظيم .
- 9 - ذِكرُ اختلاف الناس في شأن عيسى عليه السلام ، وتوعد الله الكافرين مشهد يوم عظيم .
- 10 - ذِكرُ استماع الكفار وإبصارهم يوم القيامة بعد فوات الأوان ، وإنذار النبي ﷺ مشركي قومه يوم التحسر والندم وشدة الزحام ، وإخبار الله سبحانه أنه الخالق المتصرف وإليه مرجع جميع الأنام .
- 11 - حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه يدعو به إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والتعظيم ، ويحذره مغبة اتباع منهاج الشيطان الرجيم ، ثم اعتزاله قومه وشركهم ، ومؤانسة الله لهم بإسحاق ويعقوب في المرسلين .
- 12 - ذكر خبر موسى وهارون ، وخبر إسماعيل وإدريس ، وثناء الله على المرسلين .
- 13 - ذكر حال الأشقياء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وما ينتظرهم من العذاب ، إلا من تدارك نفسه بالتوبة واستغفر ربه وأتاب .
- 14 - إعلان جبريل عليه السلام ، أن تَنْزَلُهُ بأمر الله رب السماوات والأرض ، وشدة عزيمة النبي ﷺ في الصبر على مشاق الطريق .
- 15 - تكذيب الكافر بالبعث والحساب ، وقد خلقه الله من العدم ووعدّه على كفره العذاب ، فالنار حق والصراط على جهنم يسقط فيها المجرمون ، وينجو بإذن الله المتقون .

- 16 - إخبار عن سلوك الكفار حين تُتلى عليهم آيات الرحمان ، وقد أهلك الله من قبلهم من المستهزئين وكانوا أشد قوة وأصحاب صروح وبنيان ، فالله يمهل الكافرين ، ويثبت ويهدي المؤمنين .
- 17 - تهديد ووعيد لذلك الكافر الذي يزعم أن له عند الله مالا وولداً .
- 18 - اتخاذ الكافرين آلهة من دون الله سيكفرون بها يوم الدين ، والله تعالى يرسل الشياطين تؤز الكافرين .
- 19 - نعتُ الله حال المتقين كيف يردون إليه وفداً ، في حين يساق المجرمون إلى جهنم ورداً ، ولا شفيع لهم فإن الشفاعة تنال من اتخذ عند الله عهداً: شهادة أن لا إله إلا الله ينال بها العبد سعادة ومجداً . وأما من زعم لله ولداً فإن السماوات والأرض والجبال تكاد تتمزق لفريته هداً . فكل ما في السماوات والأرض يأتي يوم القيامة عبداً ، والله أحصاهم جميعاً وعدّهم عدداً .
- 20 - ضمان من الله تعالى لعباده المؤمنين ، بجعل المودة لهم في الأرض وحسن الذكر في الصالحين ، وهذا القرآنُ بشارة للمتقين ، ونذارة للفجار الآثمين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

1 - 6. قوله تعالى: ﴿كَهَيَّعَ ۙ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرًا ۖ﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٣﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٤﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ ۖ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٥﴾

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالى عن مناجاة عبده زكريا ، يشكو إلى ربه الوهن والضعف والمشيب المنذر بالرحيل ، ولا وريث يحمل أمانة هذا الدين ، فهو يسأل الله تعالى وريثاً على منهاج النبوة .

فقوله: ﴿كَهَيَّعَ ۙ﴾ - هو على مفهوم الحروف المقطعة السابقة في أوائل السور . ومفاده الإعجاز لهذا الكتاب العظيم ، المؤلف من هذه الحروف المعروفة ، والتحدي قائم إلى قيام الساعة أن يأتي أحد بمثل هذا النظم الكريم .

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرًا ۖ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: هذا ذكر رحمة ربك بعبده زكريا) .

وزكريا - عليه الصلاة والسلام - هو أحد أنبياء بني إسرائيل ، وكان يأكل من عمل يديه في التجارة . وقد صَنَّف الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل باباً سماه: «باب من فضائل زكريا ، ﷺ» . روى فيه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [كان زَكْرِيَاءُ نَجَّارًا] ⁽¹⁾ . ورواه ابن ماجة بلفظ: [كَانَ زَكْرِيًّا نَجَّارًا] .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۖ﴾ . قال ابن جريج: (لا يريدُ رياءً) .

(1) حديث صحيح . أخرج مسلم (2379) ، كتاب الفضائل ، وأخرجه أحمد (296/2 - 405 - 485) ، وأخرجه ابن ماجة (2150) ، وأبو يعلى (6426) .

وقال قتادة: (أي سرّاً ، وإن الله يعلم القلب النقي ، ويسمع الصوت الخفي).
وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.

قال السدي: (فكان نداؤه الخفي الذي نادى به ربه أن قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ يعني بقوله: ﴿ وَهَنَ ﴾ ضعف ورق من الكبر). وقال مجاهد: (نحل العظم). وقال قتادة: (أي ضعف العظم مني). وقال الثوري: (وبلغني أن زكريا كان ابن سبعين سنة).
والمقصود: أنه يشكو إلى الله عز وجل الضعف وقد خارت القوى. ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾. قال النسفي: (تمييز ، أي فشا في رأسي الشيب ، واشتعلت النار إذا تفرقت في التهابها وصارت شعلاً ، فشب الشيب بشواظ النار في بياضه وانتشاره في الشعر وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار).

وعن ابن جريج: (﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ يقول: قد كنت تعرفني الإجابة فيما مضى).

أي: لم أعهد منك رب إلا الإجابة في الدعاء ، وما خيبني قط عند الرجاء ، بل كنت تجيبني وتقضي حاجتي ما سألتك.
وقوله: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِن وَرَآئِي ﴾.

الموالي هنا الأقارب وبنو العم والعصبة الذين يلونه في النسب. والعرب تسمي بني العم الموالى.

قال مجاهد: (أراد بالموالي العصبة). وقال أبو صالح: (الكلالة). وروي عن عثمان بن عفان ومحمد بن علي وعلي بن الحسين: أنهم كانوا يقرؤونها: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِن رَّوَّائِي ﴾ أي: قلت عصباتي من بعدي. ومن ثم قال للآية تأويلان:
التأويل الأول: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: (خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلالة فأشفق أن يرثه غير الولد).

التأويل الثاني: قال الزجاج وغيره: (إنما كان موالیه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب ولياً يقوم بالدين بعده).

والراجح التأويل الثاني لثلاثة أسباب:

1 - الأنبياء أعظم قدراً ومنزلة من الإشفاق على أموالهم ودنياهم من بعدهم.

2- لم يذكر أن زكريا كان كثير المال ، بل كان نجاراً يأكل من عمل يده .

3 - لقد ثبت في الصحيحين وبعض السنن من حديث أبي بكر مرفوعاً: [إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة]⁽¹⁾ . وكذلك في سنن أبي داود وابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي الدرداء مرفوعاً: [وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر]⁽²⁾ .

وهذا التأويل هو اختيار القرطبي وابن كثير والقاسمي وغيرهم من المفسرين . قال القاسمي: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ أي الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين . والتمسك بهديه المتين .

وقوله: ﴿ وَكَانَتْ أَمْرًا قَارًا ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: وكانت امرأتي لا تلد) .

وقوله: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ . أي: فارزقني من عندك ولداً يكون لي وارثاً ومعيناً .

وقوله: ﴿ يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ . قال الحسن: (نبوته وعلمه) . وقال السدي: (يرث نبوته ونبوة آل يعقوب) . وقال مجاهد: (كان وراثته علماً ، وكان زكريا من ذرية يعقوب) .

وقال أبو صالح: (يكون نبياً ، كما كانت آباؤه أنبياء) .

وقوله: ﴿ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ . أي: مرضياً في أخلاقه وأفعاله ، راضياً بقضائك وقدرك ، تحبه وتحبه إلى خلقك .

7- 11 . قوله تعالى: ﴿ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ

قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أَمْرًا قَارًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2904) ، (4885) ومسلم (1757) وأبو داود (2963) ، وأحمد (25/1) ، وابن حبان (6608) من حديث عمر ، وفي الباب عن أبي بكر وعائشة وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (3641) ، كتاب العلم ، باب فضل العلم ، وكذلك ابن ماجة في السنن (223) ، وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (3096) .

تِلْكَ شَيْئًا ﴿١﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿٢﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمَحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٣﴾ .

في هذه الآيات: نزول البشارة من الله على زكريا بغلام يولد له اسمه يحيى يُفرد بتسميته. وتعجب زكريا من حصول ذلك وامرأته لم تلد وقد كبر هو وعسا عظمه ونحل. وتثبت الله إياه بذكر عجائب قدرته في خلقه قبل يحيى وقد كان عدماً. وسؤال زكريا ربه آية على البشارة فقال آيتك أن يُخبر لسانك عن الكلام ثلاث ليالٍ وأنت صحيح سوي. فخرج على قومه فأشار إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا.

فقوله: ﴿يَنْزَكِرْنَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ - فيه إجابة الله تعالى ذلك الدعاء.

قال القرطبي: (في الكلام حذف، أي فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿يَنْزَكِرْنَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ فتضمنت هذه البشري ثلاثة أشياء: أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة. الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوة. الثالث: أن يفرد بتسميته).

وفي التنزيل نحو ذلك: قال سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٢٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ [آل عمران: 38 - 39].

وعن قتادة: (قوله: ﴿يَنْزَكِرْنَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ عبدٌ أحياء الله للإيمان). أي: إنما سماه الله يحيى لإحيائه إياه بالإيمان، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾. فيه أقوال متكاملة:

1 - قال ابن عباس: (يقول: لم تلد العواقر مثله ولداً قط).

2 - وقال مجاهد: (﴿لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال: شبيهاً. وينحوه قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]، أي شبيهاً.

3 - وقال قتادة: (لم يسم يحيى أحد قبله). وقال ابن زيد: (لم يسم أحد قبله بهذا الاسم). واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

قال ابن زيد: (العتي: الذي قد عتا عن الولد فيما يرى نفسه لا يولد له). وعن ابن عباس قال: (يعني بالعتي: الكبير). وقال مجاهد: (نحول العظم).

قال ابن كثير: (هذا تعجب من زكريا - عليه السلام - حين أُجيبَ إلى ما سأل ، وَبُشِّرَ بالولد ، ففرح فرحاً شديداً ، وسأل عن كيفية ما يُولدُ له ، والوجه الذي يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته عاقرة لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعَتَا ، أي : عَسَا عَظُمُهُ ونَحُل ، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ .

أي: قال الملك مجيباً لزكريا فيما تَعَجَّبَ منه: هذا قضاء الله في إيجاد الولد منك ومن زوجتك ، وهو أمر يسير سهل على الله تعالى وأعجب من ذلك أن أوجدتك من قبل يحيى ولم تك شيئاً بل كنتَ عدماً. قال القرطبي: (أي كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئاً موجوداً ، فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده).

وفي التنزيل نحو ذلك: قوله سبحانه: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: 1] .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ .

قال ابن زيد: (قال: قال رب اجعل لي آية أن هذا منك). يعني: اجعل لي علامةً ودليلاً على ما بشرتني به ملائكتك من قدوم هذا الغلام عن أمرك ورسالتك ، ليطمئن قلبي وتسكن نفسي إلى ما وعدتني. قال: آيتك أن يُحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة.

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ . قال: ثلاث ليال متتابعات).

قال السدي: (يقول من غير خرس إلا رمزاً ، فاعتقل لسانه ثلاثة أيام وثلاث ليال). وقال ابن زيد: (فحبس لسانه ، فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً ، وهو في ذلك يسبح ، ويقرأ التوراة ويقرأ الإنجيل ، فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم).

قلت: والذي ذهب إليه ابن زيد هو الراجح في فهم الآية ، لموافقة ذلك لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

قال ابن جريج: (أشرف على قومه من المحراب). أي: الذي بُشِّرَ فيه بالولد. وقال ابن زيد: (المحراب: مُصْلَاهُ ، وقرأ: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]). وعن مجاهد: (﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إليهم. وفي رواية كتب لهم في الأرض). وقال قتادة: (أومى إليهم). قال ابن زيد: (ما أدري كتاباً كتبه لهم ، أو إشارة أشارها ، والله أعلم ، قال: أمرهم ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ، وهو لا يكلمهم).

12 - 15. قوله تعالى: ﴿يَبْعَثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝۱۲ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝۱۳ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝۱۴ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝۱۵﴾.

في هذه الآيات: أمرُ الله تعالى يحيى أخذ التوراة بقوة وعزيمة ، وإنعامه تعالى عليه بالعلم والفهم والرحمة والعمل الصالح الزكي ، وبر الوالدين ولين الجانب ، وأتبع ذلك سبحانه بأمان عليه في المواطن الثلاثة: يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حياً. فقوله: ﴿يَبْعَثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾. قال مجاهد وقتادة: (بجد). وقال ابن زيد: (القوة أن يعمل ما أمره الله به ، ويجانب فيه ما نهاه الله). والخطاب ليحيى بن زكريا بعدما ولد وصار صبياً مُهَيَّأً لحمل الأمانة. والمقصود بالكتاب: التوراة ، أي يقول الله له: يا يحيى خذ هذا الكتاب الذي أنزله الله على موسى ، وهو التوراة بجد وعزيمة ، وأقم أمر الله في الأرض.

وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾. قال ابن كثير: (أي الفهم والعلم والجد والعزم ، والإقبال على الخير ، والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه وهو صغير حديث السن).

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾. قال ابن عباس: (يقول: ورحمة من عندنا). وقال مجاهد: (وتعطفاً من ربه عليه). وقال عكرمة: (محبة عليه). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ورحمة منا ومحبة له آتيناه الحكم صبياً). وقيل: هي رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق. قلت: وكلا المعنيين حق.

وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾. معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾. والزكاة هنا: الطهارة من الذنوب والعمل بطاعة الله.

قال قتادة: (الزكاة: العمل الصالح). وقال ابن جريج: (العمل الصالح الزكي).
قال النسفي: ﴿وَزَكَاةٌ﴾ أي طهارة وصلاحاً فلم يعمد بذنب).
وقوله: ﴿وَكَاثَ تَقِيًّا﴾. أي: مسلماً مطيعاً. قال ابن عباس: (طهر فلم يعمل
بذنب).

وقوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. أي: كما أقام دينه وقام بطاعة
ربه عز وجل، فإنه جَمَعَ إلى ذلك برَّ الوالدين ومجانبة عقوقهما. قال القرطبي:
(و﴿جَبَّارًا﴾ متكبراً. وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح).
وقال القاسمي ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي: متكبراً عاقاً لهما ، أو عاصياً
لربه).

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.
أي: وأمان عليه من الله في هذه المواطن الثلاثة ، وهي أدق الأحوال في تاريخ
الإنسان.

يروى ابن جرير بسنده عن سفيان بن عيينة يقول: (أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة
مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن
عائنيهم ، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا ،
فخصه بالسلام عليه ، فقال: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾).

16 - 21. قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا
شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَتْهُ حَمَاتُهَا فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾
قَالَتْ إِنَّهُ عَوْدٌ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا
زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ
رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

في هذه الآيات: عطفٌ على قصة زكريا - عليه السلام - وإيجاد الله منه الولد - الزكي
الطاهر - حال كبره وعقم زوجته ، بقصة مشابهة مناسبة للقرآن والمماثلة ، وهي قصة
مريم في إيجاده تعالى منها ولدها عيسى - عليهما السلام - من غير أب .

فقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

أي: اذكر يا محمد في كتاب الله الذي أنزلهُ عليك بالحق مريم ابنة عمران - عليها السلام - حين اعتزلت من أهلها فاتخذت موضعاً قبل مشرق الشمس دون مغربها.

قال قتادة: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ﴾. أي انفردت من أهلها). وعن ابن عباس: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ قال: خرجت مكاناً شرقياً). قال السدي: (خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها ، وهو قوله: فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً: في شرقي المحراب).

قال ابن عباس: (إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبله ، لقول الله: فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذوا ميلاد عيسى قبله). وفي رواية عنه قال: (إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت ، والحج لله ، وما صرفهم عنهما إلا قيل ربك: ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فصلوا قبل مطلع الشمس). وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: شاسعاً متنجساً).

ومريم بنت عمران - كما ذكر الحافظ ابن كثير في التفسير - من سلالة داود عليه السلام ، وكانت من بَيْتِ طاهر طيب في بني إسرائيل ، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمِّها لها في ﴿آل عمران﴾ ، وأنها نذرتها مُحَرَّرَةً ، أي: لخدمة بيت المقدس ، وكانوا يتقربون بذلك ، ﴿فَنَقَّبَلْهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ وَأُنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37]. ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة ، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبذل والدُّؤوب ، وكانت في كفالة زوج أختها - وقيل: خالتها - زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم ، الذي يرجعون إليه في دينهم. ويرأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهرهُ ، ﴿كَلَّمَادَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُنِي مِنْ شَاءَ بِعَثْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37] ، فذكر أنه كان يجد عندها ثَمَرُ الشتاء في الصيف ، وثمر الصيف في الشتاء. فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ، ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ، أي: اعتزلتهم وتنجت عنهم ، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس .

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾. أي: توارت عنهم واستترت بستر يحجبها عنهم .

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾. قال وهب بن منبه: (وجدت عندها جبريل قد مثله الله بشراً سويًا). أي أرسل الله إليها جبريل في صورة رجل من بني آدم معتدل الخلق.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

قال ابن جريج: (خشيت أن يكون إنما يريد لها على نفسها). والمقصود: أنها فزعت منه حين رآته فاستجارت بالرحمن لدفعه عنها إن كان أرادها بسوء. قال السدي: (تقول: أستجير بالرحمن منك أن تنال مني ما حرّمه عليك إن كنت ذا تقوى له تتقي محارمه ، وتجنب معاصيه). قال ابن كثير: (أي: إن كنت تخاف الله ، تذكر له بالله. وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل ، فخوّفته أولاً بالله عزّ وجل).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

أي: فأجابها الملك مطمئناً لها ليزيل عنها الخوف الذي اعتراها على نفسها: ما الأمر كما تظنين ، ولكني رسول ربك ، بعثني إليك ليهب الله لك غلاماً زكياً.

قال ابن جرير: (والغلام الزكي: هو الطاهر من الذنوب).

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

أي: فأجابت متعجبة - كيف يكون مني غلامٌ ولست بذات زوج ، ولا يُصور مني الفجور. قال النسفي: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ زوج بالنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة تبغي الرجال أي تطلب الشهوة من أي رجل كان ، ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هذين.

والبغي: هي الزانية ، وقد جاء هذا اللفظ في السنة كذلك ، كما جاء في القرآن. ففي الصحيحين وسنن أبي داود والترمذي عن أبي مسعود الأنصاري قال: [نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن]⁽¹⁾.

وقوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾.

قال السدي: (قال لها جبريل: هكذا الأمر كما تصفين ، من أنك لم يمسسك بشر ولم تكوني بغياً ، ولكن ربك قال: هو علي هين: أي خلق الغلام الذي قلت ، أن أهبه لك علي هين ، لا يتعذر علي خلقه ، وهبته لك من غير فحل يفتحلك).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2237) ، ومسلم (1567) ، وأبو داود (3481) والترمذي (1276) ، وابن ماجه (2159) ، وأحمد (4/ 119 - 120) ، وابن حبان (5157).

وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾. قال القاسمي: (أي برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع خلقهم. فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى. وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه).

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾. قال ابن جرير: (يقول: ورحمة منا لك، ولمن آمن به وصدق أنه خلقه منك).

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. قال وهب بن منبه: (أي إن الله قد عزم على ذلك، فليس منه بد).

ويحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل لمريم، أو هو خبر الله لرسوله محمد

ﷺ.

22 - 26. قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ﴿٢٢﴾ فَالْجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَادَّهَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكِ الْجِذْعُ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾.

في هذه الآيات: اعتزال مريم عليها السلام بحملها مكاناً نائياً عن الناس، وتحرك المخاض عليها فالجأها إلى جذع النخلة وتمنيها أن لو كان نسي أثرها، ومناداة الصبي من تحتها يطمئنها، وامتنان الله تعالى عليها بالطعام والشراب وقرة العين، وإخبارها قومها بالإشارة نذر الصيام وهو الإمساك عن الكلام.

فقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾. قال ابن عباس: (مكاناً نائياً). وقال مجاهد: (قاصياً).

قال ابن جرير: (يقول: فاعتزلت بالذي حملته، وهو عيسى، وتَنَحَّتْ به عن الناس مكاناً قصياً. يقول: مكاناً نائياً قاصياً عن الناس).

وعن ابن جريج : (يقولون : إنه إنما نفخ في جيب درعها وكمها). يعني الملك ، فحملت بإذن الله ، ثم انصرف عنها .

وقوله : ﴿فَلَجَأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ﴾ . قال مجاهد : (ألجأها المخاض). قال ابن جريج : وقال ابن عباس : (ألجأها المخاض إلى جذع النخلة). وقال قتادة : (اضطرها المخاض إلى جذع النخلة). وهي نخلة في المكان الذي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ ، ولا دليل على موقعه الدقيق من بيت المقدس ، فالأولى عدمُ الخوض بذلك . وإنما المقصود أنه ألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بذلك الجذع لتعتمد عليه وتستتر به .

وقوله : ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَّنْسِيًا﴾ . أي : كما قال ابن عباس : (لم أخلق ، ولم أك شيئاً). وقال السدي : (نسياً . نُسي ذكري . ومنسياً : تقول : نسي أثري ، فلا يُرى لي أثر ولا عين). وعن قتادة : (أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر).

قال القاسمي : (وإنما قالت ذلك ، لما عرفت أنها ستبتلى وتمتن بهذا المولود ، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد . فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة ، وبضد ما قرفت به ، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام).

وقوله تعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ .

أي ناداها الملك جبريل عليه السلام مطمئناً لها ألا تحزني ولا تهتمي بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس فيها قد جعل ربك بقربك نهراً صغيراً .

فعن ابن عباس : ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ : جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها).

وعن قتادة : (إنه المَلَكُ جبريل عليه الصلاة والسلام ، أي ناداها من أسفل الوادي).

وقيل : ناداها ابنها عيسى ، والأول أرجح .

قال القرطبي : (وقوله : ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ تفسير النداء ، و«أَنَّ» مفسرة بمعنى أي ، المعنى : فلا تحزني بولادتك . ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يعني عيسى . والسري من الرجال العظيم الخصال السيد). وعن ابن عباس : (السري : النهر). وبه قال عمرو بن ميمون : (نهر تُشْرِبُ منه). وقال الضحاك : (هو النهر الصغير بالسرانية). وقال وهب ابن منبه : (هو ربيع الماء). وقال السدي : (هو النهر) - واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى: ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ الْجَنَّةَ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾.

قال ابن عباس: (كان جذعاً يابساً ، فقال لها: هزّيه «تساقط عليك رطباً جنياً».)
قال القاسمي: (أي حضر أو أن اجتثته). والمقصود أن الله تعالى قد امتن عليها بأن جعل عندها طعاماً وشراباً.

قال الرمخشري: (فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسريّ والرطب! قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعامٌ وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان ثريان للناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريّة ، وأنّ مثلها ، مما قرفوها به ، بمعزل. وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها).

قلت: بل لا مانع من كون التسيلة بالسري والرطب من باب الاطمئنان ، والأنس بالطعام والشراب في تلك الوحدة إضافة لكون ذلك معجزة تميزها وتشهد لبراءتها واختصاصها من الله تعالى .

وقوله: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: كلي واشربي وطبّبي نفساً ولا تغتمي .
وقيل: جمعنا لك في السري والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر ، لكونهما معجزتين . وكان عمرو بن ميمون يقول: (ما من شيء خير للنفساء من الثمر والرطب) - ويتلو هذه الآية .

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

أي: فإن رأيت آدمياً يسألك عن حالك فقولي: إني نذرت للرحمن صمتاً وإمساكاً عن الكلام. قال ابن عباس: (يعني بالصوم: الصمت). وقال أنس بن مالك: (صوماً: صمتاً) - رواه ابن جرير. قال النسفي: (وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة ، وقد تسمى الإشارة كلاماً وقولاً: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ آدمياً).

27 - 33. قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا

فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هُنُورٌ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا

كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ .

في هذه الآيات: مجيء مريم قومها تحمل وليدها ، وتعجب قومها من أمرها ، وتكلم الصبي في المهد منزهاً ربه تعالى ومبرئاً أمه مما نسب إليها ، ومثبتاً لنفسه النبوة من الله له والوصية بالصلاة والزكاة وبر الوالدة وحمايته من الشقاء ، والسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة: يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً .

فقوله: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ . قال وهب بن منبه: (أنساها يعني مريم كرب البلاء وخوف الناس ما كانت تسمع من الملائكة من البشارة بعيسى ، حتى إذا كلمها ، يعني عيسى ، وجاءها مصداق ما كان الله وعدها احتملتها ثم أقبلت به إلى قومها) .

وقوله: ﴿ قَالُوا لِمَرِمٍ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ . قال مجاهد: (أي: أمراً عظيماً) .

أي: فلما رأوها والطفل بيدها أنكروا ذلك عليها واستعظموه وقالوا لها: يا مريم لقد أحدثت حدثاً عظيماً ، جئت بأمر عجيب .

وقوله تعالى: ﴿ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْماً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ .

أي: يا شبيهة هارون في العبادة والزهادة ، لقد كنت من أهل بيت يعرفون بالصلاح والعفاف ، فكيف صدر منك هذا؟ وفيه تأويلان محتملان:

1 - قال السدي: (قيل لها: ﴿ يَتَأَخَتِ هَرُونَ ﴾ ، أي: أخي موسى ، وكانت من نسله ، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم ، وللمضري: يا أخا مضر) .

2 - قال قتادة: (كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل يسمى هارون ، فشبّهوها به ، فقالوا: يا شبيهة هارون في الصلاح) . وقال أيضاً: (كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ، ولا يعرفون بالفساد ، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به ، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به ، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته ، وليس بهارون أخي موسى ، ولكنه هارون آخر) .

وأما ما ذُكِرَ عَنِ الْقُرْظِيِّ مِنْ أَنَّهَا أُخْتُ هَارُونَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَهِيَ أُخْتُ مُوسَى أَخِي

هارون التي قصت أثر موسى ، ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: 11] ، فقول خطأ محض بعيد كل البعد عن الصحة .

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : [أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات ، ليس بيني وبينه نبي] (1) .

وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : [لما قَدِمْتُ نَجْرَانَ سألوني ، فقالوا : إنكم تَقْرَؤُنَ : ﴿ يَتَأَخَّتَ هَرُونَ ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ : سألتُه عن ذلك ، فقال : «إنهم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائهم والصالحين قبلهم» (2) .

قال النسفي : ﴿ يَتَأَخَّتَ هَرُونَ ﴾ وكان أخاها من أبيها ومن أفضل بني إسرائيل ، أو هو أخو موسى عليه السلام وكانت من أعقابه وبينهما ألف سنة ، وهذا كما يقال : يا أخا همدان أي يا واحداً منهم) . وقال ابن جرير : (وقوله : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ يقول : ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ يقول : وما كانت أُمك زانية) .

وقوله : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ . قال قتادة : (أمرتهم بكلامه) . وقال وهب بن منبه : (أشارت إليه أن كلموه) .

وقوله : ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ . أي كيف يتكلم ويفصح من كان في مهده في الصغر؟! .

قال ابن كثير : (أي : إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قَصَّتْهَا ، وقالوا لها ما قالوا معرّضين بقذفها ورَمِيها بالفرية ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة ، فأحالت الكلام عليه ، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه ، فقالوا : مُتَهَكِّمِينَ بها ، ظانين أنها تَزْدُرِي بهم وتلعب بهم : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾) .
وقوله : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ .

هو أول كلام نطق به عيسى عليه الصلاة والسلام ، فنزّه جناب ربه تعالى ، وبرّأ الله سبحانه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه عز وجل . قال القرطبي : (فكان أول

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3442) - كتاب أحاديث الأنبياء ، وانظر حديث (3443) منه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2135) كتاب الآداب ، والترمذي في الجامع (3155) ، وأحمد في المسند (4/ 252) ، وغيرهم .

ما نطقَ به الاعترافُ بعبوديتهُ لله تعالى وربوبيته ، ردّاً على من غلا من بعده في شأنه).

وقوله: ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. الكتاب: الإنجيل ، قال عكرمة: (أي: قضى) أن يؤتيني الكتاب فيما قضى).

والآية كما قال ابن كثير: (تبرئة لأمّهِ مما نسبت إليه من الفاحشة).

والمقصود: أن الله تبارك وتعالى كتبه نبياً قبل أن يخلقه ، وقضى بإنزال الإنجيل عليه يوم يقوم بمنهاج النبوة ودعوة الخلق إلى توحيد الله العظيم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾. أي: بشرف العلم والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنفع في وجوه الخير. قال مجاهد وسفيان: (معلماً للخير حيثما كنت).

وقال مجاهد: (نفعاً). وذكر ابن جرير بسنده عن وهيب بن الورد مولى بني مخزوم ، قال: (لقي عالم عالماً لما هو فوقه في العلم ، فقال له: يرحمك الله ، ما الذي أعلن من علمي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد اجتمع الفقهاء على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان).

وقوله: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

قال ابن جرير: (يقول: وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة ، يعني المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها عليّ. وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أن يؤديها. والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب ، فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي).

والآية شبيهة بوصية الله تعالى لخاتم الرسل محمد ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. وكذلك أوصى عيسى عليه الصلاة والسلام بإقامة الدين: وعنوان ذلك الصلاة والزكاة ، ما دام حياً.

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾. أي: وكذلك أمرني ببرّ والدتي. وقد ورد ذلك القرآن كثيراً في القرآن الكريم ، فإن طاعة الله يعقبها بر الوالدين وصلة الرحم ، ومن ذلك:

1- قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23].

2- وقوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: 14].

3 - وقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: 36].

وكذلك فإن السنة الصحيحة قد حفلت بآفاق هذا القرآن في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [سألتُ النبي ﷺ: أيُّ العملِ أَحَبُّ إلى الله تعالى؟ قال: الصلاةُ على وقتها. قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: بِرُّ الوالدين. قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله⁽¹⁾].

الحديث الثاني: أخرج الشيخان وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: [أقبل رجلٌ إلى نبيِّ الله ﷺ ، فقال: أَبَايَعُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى. قال: فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قال: نَعَمْ بِلَاهُمَا. قال: فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى؟ قال: نَعَمْ. قال: فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا⁽²⁾].

وفي رواية لهما: [جاء رجلٌ فاستأذنه في الجهاد فقال: أَحْيَى وَالِدَاكَ؟ قال: نَعَمْ ، قال: ففِيهِمَا فَجَاهِدْ].

والمقصود - كما ذكر أهل العلم - جهاد النفس في وصول البر إليهما ، والتلطف بهما ، وحسن الصحبة ، والطاعة في غير ذلك. وفي الحديث دليل لعظم فضيلة بر الوالدين ، وأنه أكد من الجهاد ، إذا كان فرض كفاية ، فيحرم عليه أن يجاهد إلا بإذنها ، أما إذا تعين فلا إذن - كما أفاد الفقهاء.

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أَنَّ رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [تَعْبُدُ اللَّهَ ، وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ⁽³⁾].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾. أي: حفظني من الفسق والعقوق.

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (336/10) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم كذلك - حديث رقم - (85).
- (2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (97/6 - 98) ، (338/10) ، ومسلم (2549) ، وأخرجه أبو داود (2529) ، وأخرجه النسائي (10/6) - (143/7).
- (3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (208/3) ، وكذلك أخرجه مسلم (13) ، وغيرهما.

قال ابن كثير: (أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبرِّ والدتي ، فأشقى بذلك).

قال سفيان الثوري: (الجبار الشقي: الذي يُقبل على الغضب). وقال بعض السلف: (لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً ، ثم قرأ: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْني جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ ، قال: ولا تجد سَيِّئَ الملكة إلا وَجَدْتَهُ مُخْتِلاً فَخُوراً ، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتِلاً فَخُوراً﴾ [النساء: 36] - ذكره ابن جرير في «التفسير».

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

فيه إثبات العبودية - من عيسى عليه السلام - مرة أخرى لله العظيم ، تأكيداً ودحضاً لما سيكون من الاعتداء في ذلك من بعده ، فهو مخلوق كغيره له ثلاثة أيام من دهره: يوم ولادته ، ويوم موته ، ويوم بعثه من قبره ليقوم بين يدي ربه ، وهو يرجو رحمة الله تعالى وسلامته وأمنه في هذه الأحوال الثلاثة.

34 - 37. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْآخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾.

في هذه الآيات: تبيان الله خبر عيسى على الحقيقة ، وتنزيه نفسه تعالى عن الولد ، وبيان أنَّ أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وإثبات من عيسى عليه السلام الربوبية والألوهية لله وحده ، ودعوة قومه إلى إفراده تعالى بالعبادة وذلك هو الصراط المستقيم.

وذكرُ اختلاف الناس في شأنه ، وتوعد للكافرين ، مشهد يوم عظيم.

فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ - أي يختصمون ويختلفون.

قال القرطبي: (أي ذلك الذي ذكرناه عيسى ابن مريم فكذلك اعتقدوه). وقال

أبو حاتم: ﴿قَوْلَكَ الْحَقَّ﴾: (المعنى هو قول الحق). وقيل: التقدير هذا الكلام قول الحق. وقال الكسائي: ﴿قَوْلَكَ الْحَقَّ﴾ نعت لعيسى - أي كما سمي كلمة الله.

وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ بالنصب على الحال ، أي أقول قولاً حقاً. وقرأ الأكترون ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾ بضم اللام. والتقدير: هو قول الحق.

وعن قتادة: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقَّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ امترت فيه اليهود والنصارى ، فأما اليهود فزعموا أنه ساحر كذاب ، وأما النصارى فزعموا أنه ابن الله ، وثالث ثلاثة ، وإله ، وكذبوا كلهم ، ولكنه عبد الله ورسوله ، وكلمته وروحه).

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: ما ينبغي لله أن يتخذ ولداً ، فهو يتنزه وينزه ذاته عن ذلك ، وما أمره إذا أراد شيئاً إلا أن يقول له كن فيكون.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59 - 60].

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [قال الله: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا⁽¹⁾].

وقوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّهِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

إثبات من عيسى عليه الصلاة والسلام الربوبية والألوهية لله وحده ، فإنه عبد الله غيره ، وإرشاد منه إلى إفراده تعالى بالعبادة ، وذلك طريق الهداية والاستقامة والرشاد.

قال وهب بن منبه: (عهد إليهم حين أخبرهم عن نفسه ومولده وموته وبعثه أن «الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم». أي إني وإياكم عبيد الله ، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4482) ، كتاب التفسير ، سورة البقرة ، عند آية (116).

وقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال قتادة: (اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً). ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ شهدوا هولاً إذناً عظيماً).

قال ابن كثير: (أي: واختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة - وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر).

وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين).

وفي الصحيحين - واللفظ للبخاري - عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ليس أحدٌ - أو ليس شيءٌ - أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولداً، وإنه ليعافهم ويرزقهم]⁽¹⁾.

ورواه مسلم بلفظ: [ما أحدٌ أصبر على أذى يسمعه، من الله عز وجل، إنهم يجعلون له نداءً، ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم، ويعافهم، ويعطيهم].

وإنما النجاة من عذاب الله يوم القيامة بإقامة التوحيد لله وإثبات الرسالة للمرسلين، وقد صنف الإمام مسلم في صحيحه باباً سماه: «باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً» - روى فيه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ [من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل] ورواه البخاري⁽²⁾.

38 - 40. قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا لِكَرْنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6099)، كتاب الأدب. باب الصبر في الأذى، وأخرجه مسلم (134/8) وانظر: مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (1928)، كتاب التوبة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (342/6)، كتاب الأنبياء، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (28) في الإيمان.

مُتَّبِعِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ .

في هذه الآيات: ذِكْرُ استماع الكفار وإبصارهم يوم القيامة بعد فوات الأوان ، وإنذاراً من النبي ﷺ لمشركي قومه يوم التحسر والندم وشدة الزحام ، وإخباراً من الله سبحانه أنه الخالق المالك المتصرف وإليه مرجع جميع الأنام .

فقوله: ﴿ أَتَسْمِعُ يَوْمَ وَأَنْصِتُ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ . قال قتادة: (أسمع قوم وأبصرهم) . وقال: (ذاك والله يوم القيامة ، سمعوا حين لا ينفعهم السمع ، وأبصروا حين لا ينفعهم البصر) . والآية: إخباراً من الله تعالى عن حال الكفار يوم القيامة أنهم يكونون يومئذ أسمع شيء وأبصره ، وقوله: ﴿ أَتَسْمِعُ يَوْمَ وَأَنْصِرُ ﴾ . مبالغة في حضور السمع والبصر ، والمعنى: ما أسمعهم وأبصرهم ، ولكن ذلك كان منهم حين فات الأوان .

كما في التنزيل: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 12] .

وقوله: ﴿ لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

أي: لكن الكافرون اليوم - في الدنيا - في ذهاب عن سبيل الحق ، وضياح في متاهات الضلال يبين لمن تأمله أنهم لا يبتغون الهدى ولا يبحثون عن الرشاد وسبيل النجاة .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أي: وأنذر - يا محمد - هؤلاء المشركين وجميع الخلائق يوم التحسر والندم ، إذ فصل الله بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل فريق إلى ما قُضِيَ له من الخلود في ذلك ، وهم اليوم في حياتهم الدنيا يخوضون في الغي والشهوات غافلين عما أنذروا به ، بل ولا يوقنون به ولا يصدقون .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يُوتَى بالموت كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيَنَادِي مُنَاد: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَسْرِعُونَ وَيَنْظُرُونَ فيقول: هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فيقولون: نَعَمْ ، هذا الموت ، وكلُّهم قد رآه ، ثم ينادي: يَا أَهْلَ النَّارِ ، فَيَسْرِعُونَ وَيَنْظُرُونَ فيقول: هل تَعْرِفُونَ هذا؟ فيقولون: نَعَمْ ، هذا الموت ، وكلُّهم قد رآه ، فَيُذْبَحُ ، ثم يقول: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتَ ،

ويا أهل النار خلودٌ فلا موتٌ ، ثم قرأ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾
- وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا - وهم لا يؤمنون⁽¹⁾ .
وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ .

إخبارٌ من الله سبحانه أنه الخالق المالك المتصرف الباقي ، وجميع الخلق يهلكون ويفنون ، وهو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وهو يرث الأرض ومن عليها وإليه يُرجعون .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ونحن وارثو الأرض ومن عليها من الناس ، بفنائهم منها ، وبقائها لا مالك لها غيرنا ، ثم علينا جزاء كل عامل منهم بعمله ، عند مرجعه إلينا ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء بإساءته) .

41 - 50. قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا^(٤٢) يَتَابَتَ إِيَّيَ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا^(٤٣) يَتَابَتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا^(٤٤) يَتَابَتَ إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا^(٤٥) قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرِ هَيْمٌ لِّن لَّمْ تَنْتَه لَارْجَمْنَكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا^(٤٦) قَالَ سَلَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَفِيًّا^(٤٧) وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا^(٤٨) فَلَمَّا أَعَزَّ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا^(٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَّحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا^(٥٠) .

في هذه الآيات: حوار نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أبيه يدعو لإفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم ، ويحذره اتباع الشيطان الرجيم ، ما يعقب ذلك يوم القيامة من

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4730) - كتاب التفسير - سورة كهيعص ، عند هذه الآية ، ورواه مسلم (2849) ، وأحمد (9/3) ، والبيهقي في «البعث» (584) ، وله شواهد بروايات كثيرة - من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهما .

العذاب الأليم ، وتمرد آزر على الحق واعتزال إبراهيم ، وإكرام الله له بإسحاق ويعقوب في الأنبياء والمرسلين ، وإعلاؤه تعالى في الأرض ذكر خليفه إبراهيم .

فقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ .

قال القرطبي : (ومعنى الآية : اقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده ، فإنه كان حنيفاً مسلماً وما كان يتخذ الأنداد ، فهؤلاء لم يتخذون الأنداد؟! وهو كما قال : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : اذكره حين قال لأبيه : ﴿ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ﴾ يقول : ما تصنع بعبادة الوثن الذي لا يسمع ﴿ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ شيئاً ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ يقول : ولا يدفع عنك ضرر شيء ، إنما هو صورة مصورة لا تضر ولا تنفع . يقول : ما تصنع بعبادة ما هذه صفته؟ اعبد الذي إذا دعوته سمع دعاءك ، وإذا أحيط بك أبصرَكَ فنصرك ، وإذا نزل بك ضرر دفع عنك) .

وقوله تعالى : ﴿ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَ فِي مَنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ .

قال ابن كثير : (يقول : فإن كنت من صُلبِكَ وترى أني أصغر منك ، لأنني ولدك ، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد ، ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ أي : طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب ، والنجاة من المروء) .

وقوله : ﴿ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ .

قال النسفي : ﴿ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ لا تطعه فيما سؤل من عبادة الصنم ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ عاصياً . والعصي هو ذو العصيان ، كما العليم هو ذو العلم - كذا في كلام العرب .

وقوله تعالى : ﴿ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ .

هو نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لوالده ، أن أصغ إلى الوحي تنج ولا تكن للشيطان ولياً . إني أخاف أن تنال عذاب النار كما ينتظر إبليس فإنه كان للرحمن عصياً .

قال ابن جرير : (والخوف في هذا الموضع بمعنى العلم ، كما الخشية بمعنى العلم في قوله : ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾) .

فيكون المعنى: يا أبتِ إني أعلم أنك إن متَّ على عبادة الشيطان أنه يمسك عذاب من عذاب الله فتكون ولياً للشيطان دون الله فتهلك .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَتَى يَكْفُرُ الْإِنْسَانُ لَمَّا تَنَزَّهَ لَا رَجْمَ لَكَ وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا ﴾ .

قال ابن كثير: (يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها؟ فأنته عن سبها وشتمها وعيها ، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك وهو قوله: ﴿ لَا رَجْمَ لَكَ ﴾).

وعن السدي: ﴿ لَا رَجْمَ لَكَ ﴾ قال: بالشتيمة والقول). وقال ابن جريج: (بالقول ، لأشمتك) وقال له: ﴿ وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا ﴾ فيه معنيان محتملان:

المعنى الأول: قال الحسن: (واهجرني زماناً طويلاً). أي: اهجرني حيناً طويلاً ودهراً.

المعنى الثاني: قال ابن عباس: (اجتنبي سوياً). وفي رواية: (اجتنبي سالماً قبل أن يصيبك مني عقوبة).

فيكون المعنى على هذا التأويل: واهجرني سوياً سالماً من عقوبتي إياك ، ووجهوا معنى المليّ إلى الاضطلاع والغنى ، فإن العرب تقول: فلان مليّ في هذا الأمر: إذا كان مضطرباً به غنياً فيه . والتقدير: واهجرني وعرضك وافر من عقوبتي وجسمك معافى من أذاي .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

قال ابن عباس: (لطيفاً). والحفي في لغة العرب اللطيف .

والمعنى: أجاب إبراهيم عليه السلام والده آزر: أما أنا فستكون في سلام مني لشرف الأبوة وحرمة برّ الوالدين ، فلا ينالك مني أذى أو مكروه ، وسأسأل الله العظيم أن يهديك ويغفر لك ، إنه كان بي رحيماً لطيفاً أن هداني للحق وإخلاص العبادة له .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعِزِّلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ .

هو مدح من الله سبحانه لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، إذ وقف على ثواب المنهج الصائب منهج الحق ، فقال لأبيه وقومه المستهزئين المستكبرين المعاندين المصرّين على الشرك والظلم: ﴿ وَأَعِزِّلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: وأعتزلكم وشرككم

﴿وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: فأخلص له العبادة والدعاء كي لا أشقى شقاء المشركين به وعبادته ، فإنه تعالى يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، ومن ثم فلا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وهذا التبرؤ كان بعد الاستغفار من إبراهيم لأبيه والدعوة له ولقومه ، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 41]. وكذلك فإن المسلمين استغفروا لقرباباتهم من المشركين حتى أنزل الله الأمر بالافتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام: فقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: 4].

يعني: إلا في هذا القول الذي كان من إبراهيم بداية الأمر ثم أقلع عنه ، فلا تتأسوا به في ما كان قبل إقلاعه ، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [١١٣] وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 113 - 114].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَرَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

أي: فلما اعتزل قومه وهم على شركهم وإصرارهم أنسنا وحشته من فراقهم ، وأبدلناه خيراً منهم ، ومن هو أفضل وأحسن منهم وأكرم ، فوهبنا له ابنه إسحاق وابن ابنه يعقوب بن إسحاق ، وجعلناهم أنبياء ورزقناهم الثناء الحسن .

وخلاصة القول: لما اعتزل فاسد بني البشر ، أبدله الله بخير بني البشر ، فجعل النبوة والرسالة في ذريته .

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: [الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم]⁽¹⁾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3390) وكذلك (4688) ، ورواه أحمد في المسند (96/2) .

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

قال ابن عباس: (يعني الثناء الحسن). قال ابن جرير: (وكان الذي وهب لهم من رحمته ، ما بسط لهم في عاجل الدنيا من سعة رزقه ، وأغناهم بفضله . وإنما وصف جلّ ثناؤه اللسان الذي جعل لهم بالعلو ، لأن جميع أهل الملل تحسن الثناء عليهم)

51 - 53. قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا

نَبِيًّا ۚ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۚ﴾.

في هذه الآيات: ذكّر الله تعالى خبر عبده موسى وكان رسولاً نبياً ، وناداه من جانب الطور الأيمن وقربه ووهب له أخاه هارون نبياً.

فقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

أي: واذكر يا محمد في القرآن المنزل إليك من ربك موسى بن عمران ، واقتصر على قومك أنه كان مخلصاً ورسولاً نبياً.

وقرأ عامة قراء المدينة والبصرة ﴿مُخْلَصًا﴾ أي يخلص الله في العبادة ولا يشرك به .

وقرأها عامة قراء الكوفة خلا عاصم ﴿مُخْلَصًا﴾ أي أخلصه الله واصطفاه لرسالته وجعله نبياً مرسلًا إلى بني إسرائيل . وهما قراءتان مشهورتان .

قال ابن جرير: (كان ﷺ مُخْلَصًا لعبادة الله ، مُخْلَصًا للرسالة والنبوة ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب) .

وقوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

قال قتادة: (قوله: ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ قال: جانب الجبل الأيمن).

قال ابن كثير: (أي: من جانبيه الأيمن من موسى ، حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، رآها تلوح فقصدها ، فوجدها جانب الطور الأيمن منه ، غزبته عند شاطئ الوادي . فكلّمه الله تعالى ، وناداه وقربه فناجاه) .

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

قال ابن عباس: (كان هارون أكبر من موسى ، ولكن أراد وهب له نبوته) .

والمعنى: ووهبنا لموسى رحمة منا أخاه هارون ، أيّدناه بنبوته وأعناه بها ، فكان نعم العون لأخيه .

وفي التنزيل ما يفسّر ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَا مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص : 34] .

2 - وقال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ [طه : 36] .

3 - وقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : 13 - 14] .

قال بعض السلف: ما شَفَعَ أحدٌ في أحدٍ شفاعَةً في الدنيا أعظمَ من شفاعَةِ موسى في هارون أن يكون نبياً .

54 - 55. قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۖ ﴾ .

في هذه الآيات : ذكرُ الله خبر عبده إسماعيل وكان صادقاً رسولاً نبياً ، وثناؤه تعالى عليه إذ كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند الله مرضياً .

فقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۖ ﴾ .

ثناء عطرٍ من الله تعالى على إسماعيل بن خليل الله إبراهيم عليهما السلام ، هو والد العرب . والمعنى: واذكر يا محمد - كذلك - في هذا القرآن إسماعيل واقصص خبره على قومك ، إنه كان لا يكذب وعده ، ولا يخلف عهده ، وكان رسولاً نبياً .

قال ابن جريج : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ قال : لم يعدّ ربه عدّة إلا أنجزها .

وقيل : إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح وعلى قضاء الله وأمره فصبر حتى فدي .

قال القرطبي : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ قيل : أرسل إسماعيل إلى جُرْهُم . وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا ، وخصّ إسماعيل بالذكر تشريفاً له . والله أعلم .

وقال ابن كثير : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ ، في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ، لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وُصف بالنبوة والرسالة .

وفي صحيح مسلم من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : [إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم]⁽¹⁾.

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ .

متابعة في الثناء الطيب على إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، حيث وُصف بالمثابرة في العبادة ، وعنايته بأهله في المسارعة بالطاعة ، وأهمها الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى نال درجة الرضا عند ربه عز وجل .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقَةُ لِلْغُفَى ﴾ [طه : 132] .

2 - وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوَءَا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ ﴾ [التحریم : 6] .

ومن كنوز السنة العطرة في ذلك أحاديث ، منها :

الحديث الأول : أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [رَجِمَ اللهُ رجلاً قام من الليل فصللي وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء . رَجِمَ اللهُ امرأة قامت من الليل فصلت ، وأيقظت زوجها ، فإن أبى نَضَحَتْ في وجهه الماء]⁽²⁾.

الحديث الثاني : أخرج أبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : [إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته ، فصلياً ركعتين ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ الله كثيراً والذاكرات]⁽³⁾.

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2276)، والترمذي (3610)، وأحمد (107/4)، وأبو يعلى (7485).

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (1308)، والنسائي (205/3)، وأحمد (250/2)، وابن حبان (2567)، وصححه الحاكم (309/1) ووافقه الذهبي ، وإسناده قوي .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (1309)، والنسائي في «الكبرى» (1310)، وابن ماجه (1335)، وابن حبان (2568)، والبيهقي (501/2) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (1161).

56 - 57. قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۖ﴾.

في هذه الآيات: ثناء من الله تعالى على إدريس عليه الصلاة والسلام ، وأنه كان صديقاً نبياً ، ورفع الله تعالى مكاناً علياً.

قال النسفي: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرف النبوة والزلفى عند الله ، وقيل معناه رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة وقد رآه النبي ﷺ ليلة المعراج فيها).

وفي صحيح مسلم من حديث أنس - حديث الإسراء والمعراج - قال رسول الله ﷺ: [ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾⁽¹⁾.

58. قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا ۖ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۖ﴾.

في هذه الآية: ثناء الله تعالى على المرسلين ، من ذرية آدم وممن حمل مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هداهم واصطفاهم للنبوة والكرامة وإقامة الدين ، في تعظيمهم لأمر ربهم وخرورهم عند سماع آياته ساجدين باكين.

قال القاسمي: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام ، وما فيه من معنى البعد ، للإشعار بعلو رتبهم وبعد منزلتهم في الفضل).

وقال ابن كثير: (يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس -).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح - حديث رقم - (162) - كتاب الإيمان، من حديث أنس بن مالك. ورواه البخاري وأكثر أهل السنن.

وقوله: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. أي: بفضول النعم الدينية والدنيوية ، وضروب الاختصاص في الذكر والنصر.

وقوله: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ﴾.

قال السدي وابن جرير: (فالذي عُني به من ذُرِّيَةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إبراهيم ، والذي عُني به ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَإِسْمَاعِيلُ ، والذي عُني به من ذرية إِسْرَءِيلَ موسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ابنُ مريم).

قال ابن جرير: (ولذلك فَرَّقَ أَنْسابَهُمْ ، وإن كان يَجْمَعُ جميعهم آدَمُ ، لأنَّ فيهم من ليس من وَلَدِ مَنْ كان مع نوح في السفينة ، وهو إدريسُ ، فإنه جَدُّ نوح).

قال ابن كثير: (قلت: هذا هو الأظهر أن إدريسَ في عَمُودِ نسب نوح عليهما السلام).

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾. أي: هديناهم للحق واجتبتيناهم للنبوة والكرامة وإقامة الدين.

وقوله: ﴿إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

قال القاسمي: (أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة ، مع مالهم من علو الرتبة ، وسمو الزلفى عنده تعالى . وفي الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة).

قال ابن كثير: (أجمع العلماء على مشروعية السجود هاهنا ، اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم).

59 - 63. قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَٰعِثِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُ مَا نِئًا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

في هذه الآيات: عطفٌ على ذكر حال السعداء ، بذكر حال الأشقياء ، الذين

أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون العذاب ، إلا من آمن وعمل صالحاً وتدارك نفسه بالتوبة إلى الله وأناب ، فأولئك يدخلون الجنة ويرزقون فيها بغير حساب .
 فقوله : ﴿ هَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أي قرون أخرى ، خلفوا زمان الأنبياء في الأرض وقوله : ﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ فيه تأويلان :

1 - قال القاسم بن مخيمرة : (إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركاً كان كفراً) .
 وقال مسروق : (لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس ، فيكتب من الغافلين ، وفي إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن : إضاعتهن عن وقتهن) .

2 - وقال القرظي : (يقول : تركوا الصلاة) . واختاره ابن جرير .

قلت : بل مفهوم الإضاعة يشمل التأويلين معاً ، فهو إضاعة من أركانها وواجباتها وحدودها وخشوعها ومواقيتها أو ترك لها بالكلية فترة من الزمن أو نحو ذلك .
 وتفصيل ذلك :

1 - أما تركها بالكلية جحوداً فهو كفر وخروج عن الملة ، وهو مذهب الجمهور من العلماء .

وفي ذلك أدلة من الحديث :

الحديث الأول : روى مسلم في صحيحه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : [بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة]⁽¹⁾ .

وفي لفظ : [بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة] .

الحديث الثاني : أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : [العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر]⁽²⁾ .

الحديث الثالث : أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ

(1) حديث صحيح . رواه مسلم وأصحاب السنن . انظر صحيح مسلم (82) ، وسنن أبي داود (2620) ، وسنن الترمذي (2618 - 2620) ، وسنن النسائي (232 / 1) ، وسنن ابن ماجه (1078) ، ورواه أحمد في المسند (370 / 3) من طرق من حديث جابر .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (2621) ، وابن ماجه (1079) ، والنسائي (231 / 1) ، وأحمد (346 / 5) ، من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه مرفوعاً .

قال: [ليس بين العبد والشُّرك إلا تركُ الصلاة. فإذا تركها فقد أشرك] (1).

2 - وأما تركها تكاسلاً وانشغالاً مع الإقرار بها وبوجوبها فهو كفر دون كفر.

أي: هو كفر غير مخرج عن الملة، وهو مذهب ابن عباس وغيره من الصحابة وأهل العلم.

وقد جاء لفظ الكفر في السنة بهذا المعنى في أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [سباب المسلم فسوق وقتاله كفر] (2).

الحديث الثاني: أخرج الترمذي عن عمر، عن النبي ﷺ قال: [من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك] وسنده صحيح (3).

قال الترمذي: (وتفسير هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن قوله: فقد كفر أو أشرك على التغليظ. والحجة في ذلك حديث ابن عمر أن النبي ﷺ سمع عمر يقول: وأبي وأبي، فقال: «ألا إن الله ينهاكم أن تخلفوا بأبائكم». وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في حلفه: واللوات والعزى فليقل: لا إله إلا الله». وهذا مثل ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرياء شرك»).

الحديث الثالث: روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت] (4).

3 - والآية في تمتتها وصف لمعالجة ما فات من الصلاة وغيرها من الفرائض والواجبات سواء من انقطاع أو انتقاص. وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۚ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلْيَلْزِمْنَاكُم بِلِحْظَةِ الْبُحَّةِ وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

أي: أقبلوا على شهوات الدنيا وملازمها في طريق الحرام، ورضوا بالحياة الفانية وفضلوها على دار المقام، فهؤلاء سيلقون غيًّا: أي خساراً يوم القيامة. إلا من تدارك

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (1080)، كتاب الصلاة. باب ما جاء فيمن ترك الصلاة. وانظر صحيح سنن ابن ماجة - حديث رقم - (885).

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم - حديث رقم - (66)، ورواه البخاري وأكثر أهل السنن.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1590). وانظر صحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (1241).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (58/1). انظر مختصر صحيح مسلم (55)، كتاب الإيمان، باب: الطعن في النسب والنياحة من الكفر.

نفسه بالتوبة والإيمان والعمل الصالح قبل فوات الأوان ، فهؤلاء يدخلون الجنة ويتجاوز الله عما سلف منهم ببركة الصدق وصحيح العمل والإيمان .

ومن ثمَّ فإنَّ تعويض ما فات من الصلوات ليس بما يسمونه قضاءها ، فإن الصلاة التي فاتت قد فات وقتها لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ . وإنما كما صرحت هذه الآية بالإكثار من النوافل والعمل الصالح بعد التوبة وتصحيح الإيمان .

وفي ذلك جاءت السنة العطرة في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة وأبو داود والترمذي بسند صحيح عن أنس بن حكيم الضبي قال: قال لي أبو هريرة: إذا أتيت أهل مصر فأكبرهم أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الصلاة المكتوبة . فإن أتمَّها ، وإلا قيل: انظروا هل له من تطوع؟ فإن كان له تطوعٌ أكملت الفريضة من تطوعه ثم يُفَعَّلُ بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك] (1) .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ ، قال: يقول ربنا جل وعز لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتمَّها أم نقصها ، فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذاك] (2) .

الحديث الثالث: روى أبو داود كذلك في الباب عن تميم الداري ، عن النبي ﷺ - بهذا المعنى - قال: [ثم الزكاة مثل ذلك ، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك] (3) .

وقوله تعالى: ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُومًا مَّا يَلَا ﴾ .

أي: سيدخل التائبون المغفور لهم بذنوبهم وتقصيرهم جنات إقامة التي أخبر بها

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن - حديث رقم - (1425) ، في الصلاة . باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة . وانظر صحيح ابن ماجة (1172) ، وصحيح سنن أبي داود (770) ، وصحيح سنن الترمذي - حديث رقم - (337) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (864) ، وهو في حكم المرفوع ، كما يدل عليه الحديث الذي قبله . وذكره أبو داود في باب: «قول النبي ﷺ: كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه» .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (866) وانظر صحيح سنن أبي داود - حديث رقم - (771) .

تعالى عباده ووعدهم بها بظهر الغيب ، ولا مخلف لوعده سبحانه. قال النسفي: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة ، أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها). وقال ابن كثير: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ ، تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله ، كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ ، أي: كائن لا محالة. وقوله ها هنا: ﴿مَأْتِيًا﴾ أي: العباد صائرون إليه ، وسيأتونه). وقيل: مأتياً أي آتياً ، وكلا المعنيين حق.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾.

أي: لا يسمعون في الجنة ساقط الكلام ولغوه وتافهه وسفسافه ، بل يسمعون سلاماً من الملائكة أو من بعضهم على بعض ، ويحتمل أن يكون التقدير: لا يسمعون إلا ما فيه السلامة من النقص والعيوب. فهو استثناء منقطع عند الجمهور. كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾. أي: في أوقات تتعاقب ، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار.

قال مجاهد: (ليس بكرة ولا عشيًا ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا).

وعن قتادة قال: (فيها ساعتان بكرة وعشي ، فإن ذلك لهم ليس ثمَّ ليل ، إنما هو ضوء ونور).

والمقصود: تعاقب الرزق عليهم في مثل وقت البكرات ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلاً ونهاراً. قال النسفي: (أي يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا إذ لا ليل ولا نهار ثمَّ لأنهم في النور أبداً ، وإنما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بإرخائها ، والرزق بالبكرة والعشي أفضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك .

وقيل: أراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان بكرة وعشيًا تريد الدوام).

قلت: وهذا من بدیع التفسير ، وأبدع منه ما جاء في صحيح السنة المطهرة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَالَّذِينَ عَلَى إِثْرِهِمْ كَأَشَدَّ

كَوَكَبٍ إِضَاءَةٍ ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، لَا يَسْقَمُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ ، وَلَا يَبْصُقُونَ ، أَنْيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَأَمْسَاطُهُمُ الذَّهَبُ ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلْوَةُ - قَالَ أَبُو الْيَمَانِ: يَعْنِي الْعُودَ وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْإِبْكَارُ: أَوَّلُ الْفَجْرِ ، وَالْعَشِيُّ: مِثْلُ الشَّمْسِ إِلَى أَنْ - أَرَاهُ - تَغْرُبَ⁽¹⁾.

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، في قَبَّةٍ خَضْرَاءَ ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا]⁽²⁾.

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجه بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [المؤمن إذا اشتبه الولد في الجنة ، كَانَ حَمَلُهُ وَوَضَعُهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، كَمَا يَشْتَهِي]⁽³⁾.

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۚ ﴾.

أي: هذه الصفات العالية البديعة للجنة هي منازل المؤمنين الأتقياء يوم القيامة.

وفي التنزيل: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۖ ﴾  ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ ﴾ [المؤمنون: 10 - 11]. وقد بدأها سبحانه بقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾.

وفي مسند البزار بسند جيد عن عدي بن الفضل عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد موقوفاً ومرفوعاً: [خلق الله تبارك وتعالى الجنة ، لبنه من ذهب ، ولبنه من فضة ، ومِلاطُها المسك ، فقال لها: تَكَلِّمِي ، فقالت: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ ، فقالت الملائكة: طوبى لك ، منزل الملوك]⁽⁴⁾. وفي رواية: [منازل الملوك].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3246)، كتاب بدء الخلق. وانظر صحيح مسلم (2834)، ومسند أحمد (2/316)، وجامع الترمذي (2537)، وصحيح ابن حبان (7436).
(2) رجاله ثقات. أخرجه أحمد (1/266)، والطبري (8213)، والطبراني (10825)، وابن حبان (4658)، وصححه الحاكم (2/74)، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (5/298): رجال أحمد ثقات. وانظر صحيح الجامع (3636).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه (4338)، والترمذي وابن حبان. انظر صحيح الجامع (6525).

(4) حديث صحيح. أخرجه البزار من حديث أبي سعيد. انظر: «زوائد البزار» (317)، ومجمع الزوائد (10/397)، وسلسلة الصحيحة - حديث رقم - (2662).

64 - 65. قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ مَابَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ .

في هذه الآيات: إثبات جبريل عليه السلام لنبينا ﷺ أن تنزله بأمر الله العظيم ، له الأمر كله وهو السميع العليم ، رب السماوات والأرض وما بينهما - فاعبده يا محمد واصطبر على مشاق الطريق - فهو الأحد الصمد لا شبيه له ، وله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم .

أخرج البخاري والترمذي والنسائي عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال: [قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ مَابَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية] (1) .

وقوله: ﴿لَمْ مَابَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ - فيه أقوال محتملة:

1 - قال الربيع: ﴿لَمْ مَابَيْنَ أَيْدِينَا﴾ يعني الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ النفختين).

2 - وعن قتادة: ﴿لَمْ مَابَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من أمر الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ما بين الدنيا والآخرة. أو قال: ما بين النفختين). وروي نحوه عن ابن عباس .

3 - وقال ابن جريج: ﴿لَمْ مَابَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما مضى أمامنا من الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما يكون بعدنا من الدنيا والآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال: ما بين ما مضى أمامهم ، وبين ما يكون بعدهم).

قلت: وكلها أقوال محتملة في تفسير المراد من الآية ، والله تعالى أعلم .

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ . قال مجاهد: (ما نسيتك ربك) .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3218) - كتاب بدء الخلق - وكذلك (4731)، (7455)، وأخرجه الترمذي (3158) ، والنسائي في «التفسير» (339) .

وفي التنزيل نحوه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝۱ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝۲ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَآ أَلَىٰ ۝۳﴾ [الضحى: 1 - 3].

أخرج البزار بسند جيد عن أبي الدرداء يرفعه - قال: [ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلالٌ، وما حرَّم فهو حرامٌ، وما سكَّت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيتَه، فإن الله لم يكن لينسئ شيئاً. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾⁽¹⁾.

وقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

أي: ربك - يا محمد - رب السماوات والأرض وما بينهما، خالق كل شيء والمتصرف في كل شيء، فهو الحاكم لا معقب لحكمه، فاثبت على عبادته. قال النسفي: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي: اصبر على مكافأة الحسود، لعبادة المعبود، واصبر على المشاق، لأجل عبادة الخلاق، أي: لتتمكن من الإتيان بها).

وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سُمِّيَ﴾. أي: شبيهاً.

قال ابن عباس: (هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً). وقال أيضاً: (ليس أحدٌ يُسمَّى الرحمنَ غيره). وقال ابن جريج: (لا شريك له ولا مثل). وعن قتادة: (قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سُمِّيَ﴾ لا سميَّ الله ولا عدل له، كلُّ خلقه يقرُّ له، ويعترف أنه خالقه، ويعرف ذلك، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87]).

66 - 72. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝۶۶ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝۶۷ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝۶۸ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ۝۶۹ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝۷۰ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝۷۱ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝۷۲﴾.

في هذه الآيات: تكذيبُ الكافر بالبعث والحساب، وقد خلقه الله من العدم ووعد

(1) أخرجه البزار (123) (2231)، وقال الهيثمي في «المجمع» (55/7): «ورجاله ثقات».

على كفره العذاب ، فالنارُ حق والصراط على جهنم يسقط فيها المجرمون ، وينجو بإذن الله المتقون .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ - إنكار وتعجب واستبعاد للإعادة بعد الممات .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ ﴾ الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت : أخرج حياً فأبعث بعد الممات وبعد البلاء والفناء ! إنكاراً منه ذلك) . قال القاسمي : (أي يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : أخرج حياً بعدما لبثت في القبر مدة) . وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَأْلِفْ خَلْقَ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد : 5] .

2 - وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ ٧٧ ﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظْمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿ ٧٨ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 77 - 79] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ : [فيلقى العبد - أي يوم القيامة - فيقول : أي : قُلْ - معناه يا فلان - ! ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول : بلى أي رب ، قال : فيقول : أَفَظَنَنْتَ أنك ملاقي؟ فيقول : لا . فيقول : فإني أنساك كما نسيتني] الحديث (1) .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴾ .

استدلال من الله جل ثناؤه بالبدأة على الإعادة ، وهذا من حجج الله تعالى البالغة .

كما في التنزيل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : 27] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : [قال الله تعالى : كَذَبَنِي ابْنُ آدَمَ ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (216/8) من حديث أبي هريرة . وانظر مختصر صحيح مسلم (1932) - كتاب التوبة وقبولها وسعة رحمة الله وغير ذلك - باب : تقرير النعم يوم القيامة على الكافر والمنافق - في أثناء حديث طويل .

إِيَّايَ فَقُوله: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقُوله: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ⁽¹⁾.

وأخرج البخاري نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدُرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقُوله: لِي وَلَدٌ ، فَسَبِّحَانِي أَنْ أُتَّخَذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا].

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾.

قسمٌ عظيم من الله سبحانه ، إذ أقسم بنفسه الكريمة أنه لا بد - يا محمد - أن يحشر هؤلاء المستنكرين البعث والمعاد ، وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ثم ليحضرنهم قعوداً حول جهنم.

قال النسفي: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي الكفار المنكرين للبعث ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ الواو للعطف ، وبمعنى مع أوقع ، أي يحشرون مع قرائهم من الشياطين الذين أغووههم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة ، وفي إقسام الله باسمه مضافاً إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله).

والجثي جمع الجاثي. قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ يعني القعود ، وهو مثل قوله: ﴿وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَآئِيَةً﴾ [الجاثية: 28]. وعن السدي: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ ، قال: يعني قياماً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ثم لنأخذن من كل جماعة منهم أشدهم على الله عتواً وتمرداً فلنبداً بهم). والشيعه هم الجماعة المتعاونون على أمر.

قال مجاهد: ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾: أمة. وقوله: ﴿عُنِيًا﴾ قال: كفراً. قال ابن عباس: (يقول: أيهم أشد للرحمن معصية ، وهي معصيته في الشرك). وعن أبي الأحوص قال: (نبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً). وعن قتادة قال: (ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤوسهم في الشر).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4974) - كتاب التفسير - وانظر (4428) - للرواية الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاتًا﴾.

قال ابن كثير: (ثم هاهنا لعطف الخبر على الخبر ، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يضلّ بنار جهنم ويخلد فيها ومن يستحقّ تضييع العذاب ، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾).

وقوله تعالى: ﴿وَلِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾.

هو من ذكر الصراط يوم القيامة. والصراط: جسر على جهنم ، يُوجّه الناس إليه بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط حيث يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم الوصول إليهم.

ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [إن رسول الله ﷺ سُئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: هم في الظلمة دون الجسر].

وفي رواية قالت: [سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: على الصراط]⁽¹⁾.

وعن قتادة: ﴿وَلِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: هو المرّ عليها). أي المرور على الصراط.

وعن أبي الأحوص عن عبد الله: في قوله: ﴿وَلِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: (الصراط على جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلّم سلّم).

وفي صحيح سنن الترمذي عن عبد الله قال: ﴿وَلِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ، قال: [يردونها ثم يصدرون بأعمالهم]⁽²⁾.

وكذلك روى الترمذي بسند صحيح عن السدي قال: سألت مروة الهمداني عن قول الله: ﴿وَلِنْ يَنْكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ، فحدثني: أن عبد الله بن مسعود حدثهم قال: قال رسول الله ﷺ: [يرئ الناس النار ، ثم يصدّرون عنها بأعمالهم ، فأولهم كلمح البرق ،

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2791)، ورواه أحمد في المسند - حديث رقم - (3516).

(2) صحيح موقوف ، وهو في حكم المرفوع. أخرجه الترمذي في السنن (3382) - عند تفسير سورة مريم - آية - (71). وانظر صحيح سنن الترمذي (2527).

ثم كالريح ، ثم كحضير الفرس ، ثم كالراكب في رحله ، ثم كشد الرجل ، ثم كمشيه⁽¹⁾.

وأما قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ، قال مجاهد: (قضاء) - أي: قضاء مقضياً. وقال قتادة: (قسماً واجباً).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

قال قتادة: (على ركبهم). قال: إن الناس وردوا جهنم وهي سوداء مظلمة ، فأما المؤمنون فأضاءت لهم حسناتهم فأنجوا منها ، وأما الكفار فأوبقتهم أعمالهم واحتبسوا بذنوبهم).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر عن أم مبشر عن النبي ﷺ قال: [والذي نفسي بيده ، لا يلج النار أحدٌ بايع تحت الشجرة. قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله ، أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال: ألا تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾]⁽²⁾.

فأخبرها عليه الصلاة والسلام أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ دَاوُدَ﴾ ، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُ صَالِحًا﴾ ولم يكن العذاب أصابهم بل أصاب غيرهم⁽³⁾.

يروى الحاكم والبيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة ، إلى أن قال: فَيُعْطُونَ نورهم على قدر أعمالهم ، وقال: فمنهم من يُعْطَى نورُهُ مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يُعْطَى نورُهُ فوق ذلك ، ومنهم من يُعْطَى نورُهُ مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يُعْطَى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر من يُعْطَى نورُهُ على إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفأ مرة ، إذا أضاء قدم قدمه ، وإذا طفئ قام ، قال: فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف ، دَحْضٌ ، مَزَلَّةٌ ، فيقال لهم: امضوا

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن - حديث رقم - (3381)، كتاب التفسير، سورة مريم، آية (71). انظر صحيح سنن الترمذي (2526).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2496) ، وأخرجه أحمد في مسنده (420/6).

(3) انظر شرح العقيدة الطحاوية - لابن أبي العز الحنفي - مسألة الصراط. وكتابي: أصل الدين والإيمان - عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (752/1) - بحث الصراط على جهنم والشفاعة.

على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كأنقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشدة الرجل ، يَرْمُلُ رَمَلًا ، فيمرون على قدر أعمالهم ، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه ، تخرّ يدٌ ، وتعلق يد ، وتخر رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجّانا منك بعد أن أراناك ، لقد أعطانا الله ما لم يُعْطَ أَحَدٌ⁽¹⁾.

فصفة الصراط كحدّ موسى في دفته ، لا ينفع في المرور عليه إلا توفيق الله ورحمته .

يروى الحاكم بسند صحيح عن سلمان ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال : [يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لو سعت ، فتقول الملائكة : يا رب لمن وزن هذا؟ فيقول الله تعالى : لمن شئت من خلقي ، فتقول الملائكة : سبحانه ما عبدناك حق عبادتك ، ويوضع الصراط مثل حدّ موسى فتقول الملائكة : من تجيز على هذا؟ فيقول : من شئت من خلقي ، فيقولون : سبحانه ما عبدناك حق عبادتك]⁽²⁾.

كما لا يستطيع أن يتدخل في الموقف ويشفع ، إلا من أذن الله له بالكلام وأكرمه بالشفاعة ، وإنما يضرب الجسر على جهنم ثم تحل الشفاعة .

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : [أن ناساً قالوا : يا رسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْوَاً ليس معها سحب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صَحْوَاً ليس فيها سحب؟ قالوا : لا يا رسول الله ! قال : ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لِيَتَّبِعْ كُلُّ أمة ما كانت تعبد . فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بَرٍّ وفاجرٍ ، أتاهم رب العالمين ، قال : فماذا تنظرون؟ يتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا : يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم .

وفي رواية : فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من

(1) انظر تفصيل ذلك في كتابي : أصل الدين والإيمان (2/ 753 - 754).

(2) حديث صحيح . رواه الحاكم (4/ 586) بسند صحيح من حديث سلمان رضي الله عنه ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة . كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ ، فيمرُّ المؤمنون كطرف العين والبرق والريح والطيور كأجاويد الخيل والركاب ، فجاج مُسَلِّمٌ ⁽¹⁾ ، ومخدوش مرسل ⁽²⁾ ، ومكدوس في نار جهنم ⁽³⁾ ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشدَّ مناشدة في الحق - قد تبين لكم - من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار . [الحديث ⁽⁴⁾] .

73 - 76 . قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ ^(٧٣) وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ^(٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ^(٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ هَدَىٰ وَالْبَيِّنَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ^(٧٦) .

في هذه الآيات : إخبار الله تعالى عن سلوك الكفار حين تُتلى عليهم آيات الله واضحة بينة ظاهرة الدلالة والحقبة كيف يصدون ويعرضون ويفتخرون على الذين آمنوا كذباً أنهم خير منازل وأرفع مكانة وأعمر نادياً ، والله قد أهلك من قبلهم أقواماً كانوا أشد قوة وأكثر متاعاً . إن الله يمهّل الكافرين حتى يوقعهم في شباك العذاب ، ويزيد المؤمنين هدىً وعند الله لهم خير الثواب .

فعن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ قال : المقام : المسكن ، والندي : المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها . أو قال : المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه .

وعن مجاهد : (في قول الله : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ قال : قريش تقولها لأصحاب

(1) أي : نجاة وسلامة .

(2) أي : خدش ولكن صاحبه ينطلق ويصل مع الإرهاق .

(3) أي : متراكم بعضه فوق بعض في جهنم .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1/118) ، وانظر الحديث بتمامه مع تفصيل بحث الصراط والشفاعة في كتابي : أصل الدين والإيمان (2/755 - 759) .

محمد ﷺ ، ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قال: مجالسهم ، يقولونه أيضاً. قال قتادة: (رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة ، وفيهم قشافة ، فَعَرَّضَ أهل الشرك بما تسمعون قوله ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ يقول: مجلساً). وقال أيضاً: (الندي: المجلس ، وقرأ قول الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: 17] قال: مجلسه).

قال ابن كثير: (﴿حَيْرَ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ، أي: أحسنُ منازل وأرفعُ دُوراً وأحسنُ ندياً ، وهو مجتمع الرجال للحديث ، أي: ناديمهم أعمُرُ وأكثرُ واردةً وطارقاً ، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: 11]. وقال قوم نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: 111] ، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53].

وقوله تعالى: ﴿وَكَرَّ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾.

أي: كم أهلكنا قبلهم من أُمم كانوا على رَغَدٍ من العيش أكبر ، وأموال وأمتعة أكثر ، وأشكال ومناظر أجمل. وكلام المفسرين متقارب حول هذا المعنى.

قال ابن عباس: (﴿أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ ، الرئي: المنظر ، والأثنا: المتاع).

وعن الحسن: (الأثنا: أحسن المتاع ، والرئي: المال). وعن قتادة: (﴿أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ قال: أحسن صوراً ، وأكثر أموالاً). وقال: (أي أكثر متاعاً وأحسن منزلة ومستقراً ، فأهلك الله أموالهم ، وأفسد صورهم عليهم تبارك وتعالى).

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾. أي: قل يا محمد لمن أصر على الكفر: إن الله يمد له ليمكر به.

قال مجاهد: (فَلْيَدْعُهُ الله في طغيانه). قال النسفي: (وهذا الأمر بمعنى الخبر ، أي من كفر مدّ له الرحمن يعني أمهله وأملئ له في العمر ليزداد طغياناً وضلالاً ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُمَلَّى لَهُمْ لِيزدادُوا إِثْمًا﴾ وإنما أخرج على لفظ الأمر إيداناً بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممثل ليقطع معاذير الضلال).

وقوله: ﴿حَقٌّ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾.

أي: حتى إذا باغتهم وعد الله بالعذاب في الدنيا بالقتل والأسر على أيدي المسلمين ، أو قامت القيامة لينالهم فيها من الخزي والنكال ، فهناك يعلمون أن المؤمنين هم كانوا خيراً مقاماً وأحسن ندياً لا الكفار .

وقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيِّنَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ .

قال القرطبي: (أي ويثبت الله المؤمنين على الهدى ، ويزيدهم في الثمرة ، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم). قال: ﴿ وَالْبَيِّنَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أي جزاء ، ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ أي في الآخرة مما افتخر به الكفار في الدنيا). قيل: ﴿ خَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ من الرد ، أي خير رداً على عاملها بالثواب . وقيل: أي خير مرجعاً فكل أحد يرد إلى عمله الذي عمله .

قلت: وهذه الهداية المذكورة في الآية على نوعين:

النوع الأول: قوله: ﴿ الَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ - أي قبلوا بهداية الرسل وصدقوا بها وتابعوهم على الحق . وهي الهداية المسماة: هداية الدلالة والإرشاد .

النوع الثاني: قوله ﴿ هُدًى ﴾ - أي يزيد الله أصحاب الهداية السابقة - هداية الدلالة والإرشاد - هداية خاصة ، وهي هداية التوفيق والإلهام ، نتيجة لصدقهم في قبول هداية المرسلين ، ورسوخهم في ما يقتضيه ذلك من الإيمان واليقين⁽¹⁾ .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 - قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: 11] .

2 - وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: 15 - 16] .

3 - وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته

(1) انظر بحث - مراتب الهداية والضلال - في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 893) .

عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته⁽¹⁾.

وأما الباقيات الصالحات فهي جميع أعمال الآخرة ، وقد جاء تخصيص عطر لشيء من ذلك في السنة الصحيحة :

فقد أخرج النسائي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [خُذُوا جُنتَكُمْ مِنَ النَّارِ ، قُولُوا : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُقَدَّمَاتٍ ، وَمُعَقَّبَاتٍ ، وَمُجَنَّبَاتٍ ، وَهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ]⁽²⁾.

77 - 80. قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۚ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۚ وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۚ ﴾ .

في هذه الآيات : تهديد شديد ووعد أكيد لذلك الكافر الذي يظن أن له عند الله مالا وولداً ، وكأنه اطلع على الغيب أو اتخذ عند الله عهداً ، كلا سيحقيق المكر به ويحرمه الله المال والولد فيأتي يوم القيامة فرداً .

أخرج البخاري ومسلم عن خَبَّاب قال : [كُنْتُ قَيْنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِي بْنِ وائِلٍ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أَنْقَاضَهُ . فَقَالَ : لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ، فَقُلْتُ : لَا أَكْفُرُ حَتَّى يَمِيتَكَ اللَّهُ ثُمَّ تُبْعَثَ . قَالَ : دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ فَسَأُوتِي مَالًا وَوَلَدًا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4/ 231) ، والبخاري في «شرح السنة» (1/ 142/ 2) ، ويشهد له ما في مسند أحمد (6/ 256) .

(2) حديث صحيح . أخرجه النسائي والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . انظر تخريج الترغيب (2/ 248) ، وصحيح الجامع (3209) .

فأفضيك ، فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۖ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾⁽¹⁾.

ورواه أحمد وفي لفظه: [قال: فإنني إذا ميتٌ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثم مالٌ وولدٌ ، فأعطيتك . فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾].

وعن مجاهد: ﴿لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قال: العاص بن وائل يقوله).

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ - إنكار على هذا المدعي الكاذب ، أي: هل علم الغيب أم اتخذ عند الله موثقاً. قال البخاري: ﴿عَهْدًا﴾: موثقاً).

وعن ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله ، فيرجوه بها).

وقوله: ﴿يَكْلَأُ﴾. قال ابن كثير: (هي حرف رذع لما قبلها وتأکید لما بعدها).

وقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾.

قال ابن جرير: (أي سنكتب ما يقول هذا الكافر بربه ، القائل ﴿لَأُوتِيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾) ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ يقول: ونزيده من العذاب في جهنم بقليله الكذب والباطل في الدنيا ، زيادة على عذابه بكفره بالله).
وقوله تعالى: ﴿وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

أي: نسلبه المال والولد - عكس ما ادّعى - ويأتينا يوم القيامة فرداً من المال والولد.

قال قتادة: ﴿وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: لا مال له ولا ولد). وقال ابن زيد: ﴿وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قال: فرداً من ذلك ، لا يتبعه قليل ولا كثير).

81 - 84. قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾^(A1) كَلَّا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2091)، كتاب البيوع ، وأخرجه مسلم (2795) ، والترمذي (3162) ، وانظر مسند أحمد (5/ 111) ، وصحيح ابن حبان (4885).

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ
أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ .

في هذه الآيات: اتخاذ الكافرين آلهة من دون الله سيكفرون بها يوم يلقون الخزي والعذاب ، وسوء الحساب ، فالله تعالى يرسل الشياطين على الكافرين ليزدادوا غيًّا ، وإنما هم صائرون في وقت محدود إلى عذاب الله ليدوقوا نكالاً .

فقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ . يعني مشركي قریش .

قال القرطبي: (وظاهر الكلام أن ﴿عِزًّا﴾ راجع إلى الآلهة التي عبدوها من دون الله . ووحد لأنه بمعنى المصدر ، أي لينالوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله) .

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ . قال ابن عباس: (يقول: أعواناً) .

وقال مجاهد: (عوناً عليهم تخاصمهم وتكذبهم) . وقال ابن زيد: (الضد: البلاء) . وقال عكرمة: (الضد: الحسرة) .

وعن السدي: (﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ، أي: بعبادة الأوثان . وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ، أي: بخلاف ما رجوا منهم) . وقال: (الخصماء الأشداء في الخصومة) .

والمعنى: يجيبهم الله تعالى بقوله: كلاً - أي ليس الأمر كما تظنون وتتهمون ، بل سيكفرون بعبادة هذه الأصنام أو ينكرون أنهم عبدوها ، أو تجحد الآلهة عبادة المشركين لها .

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ .

قال ابن عباس: (﴿أَزًّا﴾ يقول: تغريهم إغراء . قال: تؤز الكافرين إغراء في الشرك ، امض امض في هذا الأمر حتى توقعهم في النار ، امضوا في الغي امضوا) .

وقال قتادة: (تزعجهم إزعاجاً في معصية الله) . أو قال: (تزعجهم إلى معاصي الله إزعاجاً) .

وقال السدي: (تطغيهم طغياناً) .

وفي التنزيل :

1 - قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36].

2 - وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129].

قال ابن زيد: (نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس).

وفي المسند بإسناد حسن عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ يَا رَبُّ لَا أَبْرُحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي]⁽¹⁾.

قلت: وإنما يتابع الشيطان زحفه على الكفار ما دام انعدم منهم الاستغفار ، فيحملهم بأثره على محاربة دين الله في الأرض ونشر الفواحش والمعاصي والآثام.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾. قال ابن عباس: (نعد أنفاسهم في الدنيا). وقال السدي: (السنين ، والشهور ، والأيام ، والساعات).

أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في حلول نقمة الله بهم ، فإن لهم أجلاً هم بالغوه ثم هم صائرون بحلوله إلى عذاب الله وسخطه ونكاله.

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 - قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42].

2 - وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178].

3 - وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24].

ومن كنوز صحيح السنة في آفاق معنى الآية ، حديثان :

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُقْلِتْهُ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ

(1) حديث حسن. رواه الحاكم (261/4) ، وأحمد (41/29/3) ، والبيهقي في «الأسماء» (ص 134) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (104).

أَخَذُ رِيكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ [هود: 102] (1).

الحديث الثاني: أخرج أحمد والطبراني بسند قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ، ثم تلا: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فِإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾] (2).

85 - 87. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعَتْ الله تعالى حال المتقين كيف يردون إليه وفداً ، في حين يساق المجرمون إلى جهنم ورداً ، لا شفيح لهم فإن الشفاعة تنال من اتخذ عند الله عهداً: شهادة أن لا إله إلا الله ينال بها العبد سعادة ومجداً.

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ - إشارة إلى حسن الاستقبال والتكريم كما يستقبل الوفود. قال القاسمي: ((﴿وَفْدًا﴾ أي وافدين عليه. وأصل الوفود القدوم على العظماء للعطايا والاسترفاد. ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتعظيمهم ، المزور والزائر).

وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾. أي: عطاشاً. قال قتادة: (ظماء إلى النار). والورد جمع وارد ، وحقيقة الورد المسير إلى الماء فيسمى به الواردون. وفي ذكرهم بالسوق إشعار بإهانتهم واستخفافهم.

قال النسفي: (أي يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يوصف. أي اذكر يوم نحشر. ذكر المتقون بأنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلاً لهم. والكافرون بأنهم يساقون إلى النار كأنهم نَعَمٌ عطاش تساق إلى الماء استخفافاً بهم).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، كتاب التفسير، سورة هود، آية (102)، ورواه مسلم.

(2) أخرجه أحمد (145/4)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (115/4): رواه أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب» بسند حسن. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾. أي: لا تنال الشفاعة إلا أهل الإيمان والعمل الصالح.

قال ابن كثير: (أي: ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿[الشعراء: 100 - 101]﴾. وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ، هذا استثناء منقطع ، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها).

وعن ابن عباس: (العهد شهادة أن لا إله إلا الله وبيراً من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله عز وجل). وقال ابن جريج: (المؤمنون يومئذ بعضهم لبعض شفعاء) ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾. قال: عملاً صالحاً).

88 - 95. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾.

في هذه الآيات: إنكار وتهديد ، ووعد شديد ، لمن زعم أن للرحمن ولداً ، فالسماوات تتصدع والأرض تتشقق والجبال تخر لهذا الافتراء هداً ، فكل ما في السماوات والأرض يقدم يوم القيامة عبداً ، والله أحصاهم جميعاً وعدهم عدداً ، وكل عبد يأتي يوم القيامة فقيراً إلى ربه متذللاً فرداً.

فقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾.

إنكار شديد على من زعم أنه لله ولداً ، تعالى الله وتقدس عما يقولون علواً كبيراً ، وذلك بعد تقريره سبحانه في أرجاء هذه السورة عبودية عيسى عليه الصلاة والسلام ، وخلقه من مريم بلا أب. قال ابن عباس: ﴿شَيْئًا إِذَا﴾ يقول: قولاً عظيماً. وقال: (يقول: لقد جئتم شيئاً عظيماً وهو المنكر من القول). وفي لغة العرب: أدّ فهو آد والاسم الإدّ ، إذا جاء بشيء عظيم منكر. قال الجوهرى: (الإدّ والإدّة الداهية والأمر الفظيع).

وقراءة العامة ﴿إِذَا﴾ بالكسر ، وقراءة أبي عبد الرحمن السلمي ﴿أَذَا﴾ بالفتح ، وأما بالمدّ «آذ» فهي لغة لبعض العرب .

وقوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ ﴾ . أي : يتشققن . قال الضحاك : (أي : يتشققن فرقا من عظمة الله) .

وقوله : ﴿ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ . أي : تتصدع ، قال ابن زيد : (أي : غضبا لله عز وجل) .

وقوله : ﴿ وَنَحْرُ الْجِبَالِ هَذَا ﴾ . قال ابن عباس : (هدما أي تسقط بصوت شديد) . وقال سعيد بن جبیر : ﴿ هَذَا ﴾ : ينكسر بعضها على بعض متتابعات) .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم ، إعظاماً للرب وإجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومؤسّسات على توحيده ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ، ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ، ولا كفء له ، بل هو الأحد الصمد) .

وعن ابن عباس قال : (إن الشّرك فزعّت منه السماوات والأرض والجبال ، وجميع الخلائق إلا الثقلين ، فكادت أن تزول منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشّرك إحسان المشرك ، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحّدين) .

وفي التنزيل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : 48] .

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري قال : قال النبي ﷺ : [ما أحدٌ أضبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ثم يعافيه ويَرْزُقُهُمْ] ⁽¹⁾ .

ورواه مسلم عنه بلفظ : [ما أحدٌ أضبر على أذى يسمعه من الله تعالى ، إنهم يجعلون له ندّاً ، ويجعلون له ولداً ، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويُعْطِيهِمْ] ⁽²⁾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7378) - كتاب التوحيد ، وكذلك (6099) - كتاب الأدب .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2804) (49 - 50) - كتاب صفات المنافقين ، من حديث أبي موسى مرفوعاً . وانظر مسند أحمد (395/4) .

قال القرطبي: (أي لا يليق به ذلك ولا يوصف به ولا يجوز في حقه ، لأنه لا يكون ولدًا إلا من والد يكون له والد وأصل ، والله سبحانه يتعالى عن ذلك ويتقدس).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

قال القاسمي: (أي مملوكاً له يأوي إليه بالعبودية والذل).

و﴿إِنْ﴾: نافية بمعنى ما . والتقدير: ما كل من في السماوات والأرض إلا سيأتي يوم القيامة خاضعاً لله مقررآ له بالعبودية والذل.

وفي التنزيل:

﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَخِيرَةٍ﴾ [النمل: 87] - أي صاغرين أذلاء .

والآية ردٌ آخر على من نسب لله الولد ، بل الكل عبيد لله لا نسب بينه وبينه .

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: لقد أحصى الرحمن خلقه كلهم ، وعدّهم عدّاً ، فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم ، وعرف عددهم ، فلا يعزب عنه منهم أحد. ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾. يقول: وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم تقوم الساعة وحيداً لا ناصر له من الله ، ولا دافع عنه ، فيقضي الله فيه ما هو قاضٍ ، ويصنع به ما هو صانع).

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الإمام النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قال: قلنا لا إلا أن تُخبرنا يا رسول الله ، فقال للذي في يده اليمنى ، هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم ، فلا يُرادُ فيهم ولا يُنقصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا يُنقصُ منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلاي شيء إذن نعملُ إن كان هذا أمراً قد فرغَ منه ؟ قال رسول الله ﷺ: سدّدوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ، ثم قام بيده فقبضها ، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل

من العباد ، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ، ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير⁽¹⁾.

96 - 98. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ۖ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۖ﴾.

في هذه الآيات: ضمانٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين ، بجعل المودة في الأرض وحسن الذكر في الصالحين ، وهذا القرآن قد يَسَّرَ ذكره لك ربك - يا محمد - لتبشر به المتقين ، وتنذر الفجار الآثمين ، أن يصيروا كما صار قبلهم من كفر من الأمم فأصبحوا خامدين .

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ - بشارة عاجلة للمؤمن في الحياة الدنيا .

فعن ابن عباس: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا). أو قال: (حبًا).

وقال: (الودّ من المسلمين في الدنيا ، والرزق الحسن ، واللسان الصادق).

وقال مجاهد: (يحبهم ويحبهم إلى خلقه). أو قال: (يحبهم ويحبهم إلى المؤمنين).

وقال قتادة: (ما أقبل عبدٌ إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه ، وزاده من عنده).

وفي الأثر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كان يقول: (ما من الناس عبد يعمل خيراً ولا شراً ، إلا كساه الله رداء عمله). ذكره ابن جرير من طريق قتادة .

وفي المسند وصحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقال: يا جبريلُ ، إني أحبُّ فلاناً فأحِبِّه. قال: فيحِبُّه جبريلُ. قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحبُّ فلاناً. قال: فيحِبُّه أهل السماء ، ثم يُوضَعُ له القبولُ في الأرض. وإنَّ الله إذا أبغض عبداً دعا جبريلَ فقال: يا جبريلُ ، إني أبغضُ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 167) ، والنسائي في الكبرى (11473) ، والترمذي (2141).

فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل. ثم ينادي في أهل السماء: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فلاناً فأبْغِضُوهُ. قال: فَيُبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثم تَوْضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ⁽¹⁾.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نادى جِبْرِئِيلُ: إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فلاناً فَأَحِبَّهُ. قال: «فينادي في السماء ، ثم تُنْزَلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ ، فذلك قوله الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾. وإذا أَبْغَضَ اللَّهُ عَبْدًا نادى جِبْرِئِيلُ: إِنِّي قَدْ أَبْغَضْتُ فلاناً ، فينادي في السماء ، ثم تُنْزَلُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾.

أي: إنما يسرنا هذا القرآن بلسانك يا محمد ، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ، لتبشر به المؤمنين المحبتين لربهم بشائر الظفر والفوز في الدنيا والآخرة ، وتنذر به قوماً مالوا عن الحق واختاروا طريقاً عوجاً باطلاً. قال ابن عباس: ﴿قَوْمًا لَّدَا﴾: فجاراً.

قال مجاهد: ﴿قَوْمًا لَّدَا﴾: لا يستقيمون. وقال السدي عن أبي صالح: (عوجاً عن الحق). وقال الحسن: (صُماً عن الحق) وقال غيره: (صُماً أذان القلوب). وقال الضحاك: (الألد: الخصم). وقال القرظي: (الألد: الكذاب). وقال ابن زيد: (الألد: الظلوم ، وقرأ قول الله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: 204]).

قلت: وأصل اللد: شدة الخصومة. قال الرازي: رجلٌ «ألدٌ» بَيْنُ «اللَّدَد» أي شديد الخصومة). وقوم لُدٌ. أي أهل لَدَد وجدل بالباطل ، لا يقبلون الحق ، والخطاب وإن كان لكفار قريش فإنه ينسحب على جميع الطغاة والكفرة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

أي: كم مضى من ستننا في إهلاك أُمم الكفر والطغيان ، لما كذبوا الله والرسل الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، هل ترى منهم أحداً يا محمد أو تسمع لهم صوتاً؟!

- (1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3209) ، (7485) ، وأخرجه مسلم (2637) ، وأحمد (267/2) ، وكذلك (509/2) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (364) من طرق عن أبي هريرة به.
- (2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3384) ، كتاب التفسير ، سورة مريم ، آية (96). وانظر صحيح سنن الترمذي (2528) ، وأصله في الصحيحين والمسند كما مضى.

أم إنهم بادوا جميعاً وأهلكوا ، وخلت ديارهم وأوحشت منازلهم ، وصاروا عبرة لمن يعتبر .

وعن قتادة : ﴿ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ قال : هل ترى عيناً ، أو تسمع صوتاً . وعن ابن عباس : ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ قال : صوتاً . وقال : ﴿ رِكْزُ النَّاسِ أَصْوَاتُهُمْ ﴾ . وعن ابن زيد : ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ قال : أو تسمع لهم حساً . قال : والركز : الحسن .

قلت : والركز في كلام العرب الصَّوْتُ الخفي . والمعنى : هل تسمع لأولئك الهلكى همساً أو صوتاً خفياً ! أم سكنوا لمصرعهم وغاب حسهم وانقرضوا وبادوا عن آخرهم .

تم تفسير سورة مريم
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منه وكرمه



دروس ونتائج وأحكام

- 1- الذي خلق من العدم ، قادر أن يهب مولوداً رغم الهرم .
- 2- وجود الرزق عند مريم عليها السلام ، إثبات للكرامات التي يختص الله بها أهل الإيمان .
- 3- هين على الله أن يخلق مولوداً بلا أب ، ومثل عيسى كمثل آدم في الخلق .
- 4- ليس عيسى الله ولا ابنه ، ولا ثالث ثلاثة ، بل هو عبد الله ورسوله .
- 5- يموت يوم القيامة الموت ، فالحياة خالدة في الجنة والنار .
- 6- الأنبياء عليهم السلام ، قدوة في منهاجهم لجميع الأنام .
- 7- من أضاع الصلاة فهو لسواها أضيع ، ومن إضاعته إضاعة مواقيتها .
- 8- التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ومن تاب وأناب فله الجنة بإذن الله .
- 9- الجنة منازل الأتقياء ، سلام ونور ونعيم خالد جزاء الصدق والوفاء .
- 10- من خلق الخلق من عدم ، ألا يعيده من وجود ؟!
- 11- تعبر الخلائق على الصراط النار ، فتكون برداً على المؤمنين ، وجحيماً على الكافرين .
- 12- يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان .
- 13- سيعلم الكفار في الآخرة أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ، والمؤمنون يحشرون إلى ربهم وفداً ، ويساق المجرمون إلى جهنم ورداً .
- 14- إذا أحب الله عبداً أمر جبريل بحبه ، وأن ينادي الملائكة أحبوه ، ثم يوضع له القبول والمحبة في الأرض .
- 15- يَسِّرُ الله القرآن باللسان العربي المبين ، وفيه بشرى للمتقين ، وإنذار ووعيد للكافرين .

السيرة النبوية

على منهج الوحيين القرآن والسنة الصحيحة

دراسة تحليلية منهجية فقهية شاملة
في محاولة لإسقاطها على الواقع المعاصر

المجلد الثالث

تأليف

الدكتور مأمون حمّوش

أَصْلُكَ لِلدِّينِ وَالْإِيمَانِ

عِنْدَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ

دراسة تحليلية منهجية شاملة
لأصول الإيمان ومنهج التوحيد ومسائل العقيدة
على منهاج الزَّهَّابِيِّينَ : القرآن والسنة الصحيحة

الجزء الأول

تأليف الدكتور
مأمون حموش

الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ

عَلَى مَنَهَجِ الْوَحَّيِّينَ
الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ

تأليف الدكتور
مأمون حموش

السِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ

عَلَى مَنَهَجِ الْوَحَّيِّينَ
الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ

دراسة تحليلية منهجية شاملة
لأصول وضوابط السياسة الشرعية

تأليف
الدكتور مأمون حموش

مَنَهَجُ الْوَحَّيِّينَ

فِي مَعَايِشَةِ زَلِّ النَّفْسِ وَتَسَلُّطِ الْجَنِّ

دراسة تحليلية منهجية لأسباب تسلط الجن
والنفس والسحر والإصابة بالعين
على منهج الوحَّيين : القرآن والسنة الصحيحة
الوقاية والعلاج

تأليف
الدكتور مأمون حموش

تَحْصِيلُ السَّعَادَاتَيْنِ عَلَى مَنَهْجِ الْوَحْيَيْنِ

دِرَاسَةُ تَحْلِيلِيَّةٌ مَنَهْجِيَّةٌ شَامِلَةٌ
لِتَحْصِيلِ النَّشَاطَيْنِ وَطَرِيقِ السَّعَادَتَيْنِ
عَلَى مَنَهْجِ الْوَحْيَيْنِ: الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ

تَأَلِيفُ
الدُّكْتُورُ مَأْمُونُ حَمُوش

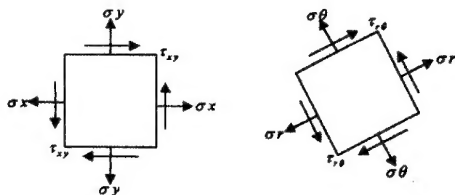
عُلُومُ الْحَدِيثِ وَتَرَاجُمُ أَعْلَامِهِ وَفُرْسَانِهِ

دِرَاسَةُ تَحْلِيلِيَّةٌ مَنَهْجِيَّةٌ شَامِلَةٌ
لِعُلُومِ الْحَدِيثِ وَمَصْطَلَحَاتِهِ وَتَرَاجِمِ رِجَالِهِ

تَأَلِيفُ
الدُّكْتُورُ مَأْمُونُ حَمُوش

نظرية المرونة

THEORY OF ELASTICITY
(دراسة تحليلية و تطبيقات هندسية)



الدُّكْتُورُ الْمُهَنْدِسُ : مَأْمُونُ حَمُوش
كَلِيَّةُ الْمُهَنْدَسَةِ الْمُدَنِيَّةِ
جَامِعَةُ دِمَشْقِ

الْأَمْرُاضُ النَّفْسِيَّةُ وَعَوَالِمُ السَّيِّئِ إِلَى الْخَلْفِ

دِرَاسَةُ تَحْلِيلِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ تَرْبَوِيَّةٌ
عَلَى مَنَهْجِ الْوَحْيَيْنِ: الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ

تَأَلِيفُ
الدُّكْتُورُ مَأْمُونُ حَمُوش

